
الحياة
دليل إرشادي
تحرير
أحمد سالم
N
E
S
W
NE
NW
SE
SW



الحياة دليل إرشادي

في هذا الكتاب حاولنا أنا نقدم مزيجًا من المعرفة والخبرة بحيث يمكن أن يستعين به القراء من أجل إيجاد صيغة للتعامل مع الحياة بتعقيداتها وتحدياتها وتشابك الخيارات والموازنات الذي يقابلنا كل يوم.

ومن القراء تأتي شريحة الشباب كفئة اخترنا أن نستهدفها بالدرجة الأولى؛ لنقدم لها هذا الدليل الذي حاولنا أن يأتي شاملاً لمجموعة من أهم فصول الحياة التي ستقابلهم مدة عمرهم.

أهم الأدوار التي ستتقلب فيها بين رحى الأيام حرصنا على أن نحاول تقديم أسس للتعامل مع كل دور، بحيث نساعدك على تحمل مسؤوليات هذا الدور وأداء الذي عليك فيه.

في النهاية نحن لا نقدم لك لائحة مغلقة ورياضية من المعايير والنصائح تصلح لكل أحد أو تكون ملزمة لكل أحد، بل ننوع ما نقدمه لك هنا بين ما هو ثابت لا يمكن التشكيك في ضرورة الالتزام به، وبين ما هو نصيحة مبنية على تجربة ذاتية قد تنفعك إن كنت في نفس ظروف مقدم النصيحة وقد لا تنفعك إن اختلفت السياقات واختلف تقديرك للموقف، وبين هذين النوعين مما نقدمه لك هنا تأتي أنواع من النصائح والرؤى والخبرات والتجارب؛ يكفينا فقط أن ترى فيها وسيلة لفتح آفاق التفكير لديك.

وفي النهاية هذا الكتاب نفسه هو تجربة لنموذج من نماذج الإرشادات الحياتية نرجو أن يكون نافعًا بما يشجع على تكراره وتوسيع مداه.


ISBN 978-977-6539-30-3




الحياة
دليل إرشادي

بسم الله الرحمن الرحيم



دليل إرشادي

تحرير

أحمد سالم





الكتـــــــــاب: الحياة: دليل إرشادي
المؤلـــــــــف: مجموعة مؤلفين
تحريـــــــــر: أحمد سالـم

عدد الصفحات: ٥٤٨ صفحة
سنة الطباعـة: ٢٠١٨م
بلـد الطباعـة: بيروت/ لبنان
الطبعـــــــة: الأولى

عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع

مؤسسة عربية تعتني بنشر النصوص المترجمة والعربية
في مجالات الثقافة العامة والأدب والعلوم الإنسانية



الهاتف: 00201099938159
البريد الإلكتروني: info@aalamaladab.com
الموقع: www.aalamaladab.com
القاهرة - جمهورية مصر العربية

Title: Life: A guide
Editor: Ahmad Salem

Pages: 548
Year: 2018
Printerd in: Beirut, Lebanon
Edition: 1

الفهرسة أثناء النشر - إعداد إدارة الشئون الفنية / دار الكتب المصرية:

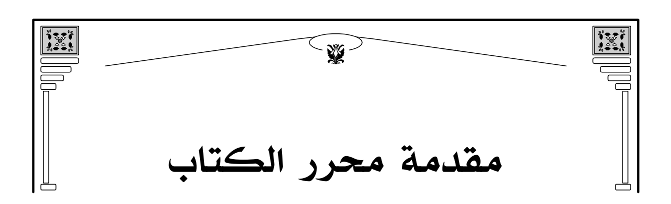
سالم، أحمد
الحياة: دليل إرشادي / تحرير: أحمد سالم
القاهرة: عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، ٢٠١٦
٥٤٨ ص، ١٧×٢٤ سم
رقم الإيداع: ٢٠١٦/٢٥٠٦١
١- الحياة ٢- أدلة. أ. سالم، أحمد (محرر) ١١٣،٨٠٢٥

SBN: 978-977-6539-30-3





المحتويات



مقدمة محرر الكتاب

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه، وبعد..

فيقول بيجوفيتش: بين الهم واللامبالاة، سأختار الهم.

وكنتُ أحدث أحد أساتذتي عن راحة البال، والخلو من الهموم وكيف أنها تطيل العمر، و ... و ... إلىٰ آخر قصائد المدح في عدم الهم هذه.

فقال لي: نعم ولكن حياة البهيمة علىٰ ذلك تكون خير حياة؛ فهي لا تكاد تهتم!

الحقيقية أن الناس يسرفون في مدح زوال الهم حتىٰ يتمنوا حالة أشبه بحالة البهائم، وصورتها أنها لا تبالي وليس أنها لا تهتم.

بعض المخدرات والمهدئات تصل بك للحال نفسها، ومن هنا يمدحها الناس الذين يستدعونها لأجل لذتها، ويذكرون فضلها علىٰ زوال الهموم، والحال: أنها تزيل همومهم لتقترب بهم بالفعل من حال الدواب.

والحق أنه لا يخلو صاحب العزيمة من أن يكون طالب آخرة أو طالب دنيا، ولا يخلو واحد منهما من الهم أبدًا، فمن استعاذ بالله من هم الدنيا، وجعل الآخرة أكبر همه، واستعان بالله ولم يعجز وتوكل عليه سبحانه = كان أسعد الناس حقًا، وليس موضع سعادته أنه لا يهتم، وإنما موضع سعادته أنه يهتم لأمر آخرته وما يتصل بها من أمر دنياه، ثم ينزل همه بالله ويتوكل عليه ويستعين به، وما يكون في ذلك ومعه من المشقة هو في الواقع: ألم الطلب الذي لا تخلو منه الدنيا، والذي علىٰ قدر نفعه يكون جزاء الآخرة.

في واحدة من أروع كلاسيكيات السينما الأمريكية وأكثرها تأثيرًا في الناس لليوم: its a wonderful life

نرىٰ جورج بيلي (جيمس ستيوارت) وقد اتخذ قراره بالانتحار؛ عقب أزمة مادية طاحنة خسر فيها كل شيء وصار مهددًا بالإفلاس والسجن.

ويستقر خيار المَلك المكلف بمحاولة إثنائه عن قراره علىٰ الخطة التالية: لقدر أراه الملك الحياة كيف كانت ستكون، لو نزعنا منها جميع خيارات وقرارات جورج بيلي؛ ليكتشف جورج بيلي أن عشرات القرارات التي أخذها في حياته، ثقيلة كانت علىٰ نفسه أو خفيفة، اكترث بها وقتها أم لم يكترث، أنها كلها لها نطاق أوسع منه هو، وأنه حين كان يأخذ قراراته وخياراته يظن أنه يصنع حياته= كان في حقيقة الأمر يصنع حياة الآخرين معه. ولأنه رجل طيب، ولأن أكثر خياراته راعىٰ فيها أن تكون خيرة، فإن نزع هذه القرارات والخيارات من حياة الناس، سيكون له أفدح الآثار علىٰ حياة أحبابه وأقاربه بل وحياة أهل بلدته كلهم؛ ليراهم في واقع بائس مزري، لم يكن ليكون بهذا السوء لولا أن قراراته نزعت من عالمهم؛ ليتأكد جورج بيلي أن حياته كانت مهمة وأن استمراره فيها مهم؛ لأنه مهما سأل نفسه ذاك السؤال البائس: وماذا سيخسر العالم بدوني= فإنه سيظل سؤالًا أنتجه اليأس؛ ولا يخرج هذا السؤال من الإنسان إلا من شخص لم يتدبر جيدًا في أثره فيمن حوله، أو من شخص لم يبدأ حياته المؤثرة بعد، وحينها فليس من العدل أن يحرم نفسه والعالم من رجل ينوي أن يكون نافعًا للناس؛ فإن في العالم من الشر ما نحن أحوج معه ولو لنسمة يبثها فيه إنسان يريد أن يحيا حياة طيبة..

في اللقطة قبل الأخيرة من فيلم سبيلبرج: saving private ryan.

وبعد رحلة علىٰ طول الجبهة قام بها الكابتن جون ميلر؛ ليعود بالجندي رايان لأمه التي صار هو وحيدها بعد موت ثلاثة أشقاء علىٰ جبهة القتال،

وبعد أن انتهت الرحلة بإنقاذ رايان ومقتل جميع أفراد كتيبة ميلر وميلر نفسه، يقول المحتضر جون ميلر لرايان جملة لم تخدمها الترجمة العربية جيدًا: earn this.

أراد الكابتن جون ميلر أن يقول للجندي رايان: يجب أن تعيش حياتك بالصورة التي تجعلها حياة تستحق تلك الدماء التي بُذلت لإنقاذها.

ويأتي رايان في المشهد الأخير قد صار رجلًا طاعنًا في السن، تقف خلفه زوجته ومعها أبناؤه وأحفاده، ويقف أمام قبر جون ميلر، ويلتفت ليقول لزوجته: «قولي لي إني عشت حياة صالحة، قولي لي: إنك رجل صالح».

لقد أراد رايان وقد أحس بنهاية عمره أن يقف أمام قبر الكابتن جون ميلر حاملًا شهادة من أقرب الناس له، وممن يتأثرون حقًا بجودة حياته أو رداءتها، شهادة تؤكد للكابتن جون ميلر: **أن الجندي رايان قد استحق رحلة الإنقاذ تلك.**

في الواقع: يجب علينا جميعًا أن نعيش حياتنا بالصورة التي تجعلها تستحق كرامة خلق الله لنا وكرامة تحملنا لأمانة العيش علىٰ هذه الأرض عبادًا لله.

وقد غُرس في أذهاننا عبر مؤثرات شتىٰ، أن تلك الحياة التي تُظهر استحقاقنا لكرامة الخلق والأمانة= يجب أن تكون حياة ملحمية، تُكتب سيرتها علىٰ جدران التاريخ بحروف من نور، أو بسطور خطها ماء الذهب، بحسب ما تسعف به بلاغة الألفاظ ذاك الذي يحدثك عما ينبغي أن تكون عليه حياتك.

والحقيقة: أن هذا الكلام من أكثر ما يُقال فيُضر ويُفسد من حيث يحسب أصحابه أنه يُصلح وينفع، وبسبب هذا الكلام أهدر أناس حياتهم، إما في طلب بطولة يظنون أن الحياة لا تُستحق بدونها، وإما في القعود عن كل خير ليس هو البطولة التي لا تُستحق الحياة إلا بها.

ومما يدلك علىٰ قِدم بخس منجز العيش إلا ما عظم ظاهره= ما في الحديث أن بعض أصحاب النبي ﷺ مر بهم رجل فتعجبوا من خَلقه فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله فأتوا النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «**إن كان يسعىٰ علىٰ أبويه شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعىٰ علىٰ ولد صغار فهو في سبيل الله، وإن كان يسعىٰ علىٰ نفسه ليغنيها ويكافئ الناس فهو في سبيل الله**».

ويُرسخ النبي ﷺ هذا المفهوم في سياق آخر فيقول: «**إن من أفضل دينار: دينار أنفقه الرجل علىٰ عياله، ودينار أنفقه علىٰ أصحابه في سبيل الله، ودينار أنفقه علىٰ دابته في سبيل الله**». قال أبو قلابة: «**وبدأ بالعيال**، وأي رجل أعظم أجرًا من رجل ينفق علىٰ عيال صغار حتىٰ يغنيهم الله ﷻ».

في فيلم الحياة السرية لوالتر ميتي، نرىٰ عاملًا وظيفته تحميض وإظهار الصور التي تصله من مراسلي تلك المجلة المعنية بنوادر ما يلتقطه المصورون المحترفون في العالم، يمكنك أن تقول: إنها وظيفة هامشية كصاحبها المهمش؛ فهو نفسه لا يرىٰ نفسه إلا مهمشًا، ويعيش في سلسلة لا تنتهي من أحلام اليقظة التي يرىٰ فيها نفسه يقوم بأعمال بطولية، تمهد له بعد ذلك حين يريد التقرب إلىٰ فتاة، أو حين يريد أن يرفع من رأسماله المجتمعي، لكنه وللأسف يعود لوضع الإفاقة؛ ليجد نفسه مهمشًا في حجرته المهمشة ووظيفته المهمشة، التي يوشك أن يفقدها جراء انتقال مجلته للنشر الإلكتروني، ولن يبقىٰ له إلا مهمة أخيرة في وظيفته وهي أن يضع صورة غلاف العدد الختامي والتي أرسلها له أهم المصورين المتعاونين مع المجلة.

لكن يبدو أنه فقد الصورة، لذلك ينطلق في رحلة تتبع لهذا المصور ليحصل منه علىٰ نسخة أخرىٰ للصورة قبل أن يكون هو سبب كارثة العدد الختامي.

يقوده هذا التتبع إلىٰ سلسلة من المغامرات العجيبة التي لا يفوقها غرابة إلا أحلام يقظته، يختم رحلته، ولم يستطع الحصول علىٰ تلك الصورة فيها إلا

أنه مر فيها بتجارب صنعت له شيئًا من مغامرات الحيوات المثيرة التي كان يحلم بعظمتها.

في جيب داخلي لمحفظة أهدتها له أمه فرماها بإهمال، يجد الصورة، ليرسلها للتحميض دون أن ينظر فيها، ويجلس ليحاول مراجعة مفاهيمه مرة أخرىٰ عبر ما خرج به من مغامرته المدهشة، التي لم يظل معه منها شغف المغامرة الذي كان يحلم به، وإنما الذي ملأ عليه عقله وقلبه كيف أن قابل مئات البشر لهم مئات الحيوات المهمة والمؤثرة في نظرهم لأنفسهم، رغم أنه لا يجدهم إلا أكثر تهميشًا منه.

يخرج العدد الختامي بعد ذلك؛ ليجد والتر ميتي أن صورته هو نفسه وهو يقوم بتحميض إحدىٰ الصور، هي صورة الغلاف التي اختارها هذا المصور؛ لتكون هي غلاف العدد الختامي، مصحوبة بجملة: هذا العدد مهدىٰ إلىٰ الذين قاموا بصنعه.

كان والتر ميتي مهمشًا، لكن بالنسبة إلىٰ من؟

هذا هو السؤال المهم، إذا استطعت أن تنظر لعملك ودورك من زاوية أخرىٰ غير زاوية المقارنات الفيزيائية هذه= ستستطيع ببساطة أن تعلم أنه لا أحد هامشي إلا أهل البطالة الذين لا يعملون.

ولعله من هذه الجهة نفسها يكون قول النبي ﷺ: «**سبق درهم مائة ألف درهم قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: كان لرجل درهمان، فأخذ أجودهما فتصدق به، وانطلق رجل إلىٰ عرض ماله، فأخذ منه مائة ألف فتصدق بها**».

إن معظم ظنون الناس عن بساطة تأثيرهم وأنه لا يفتقد= تكون خطأ.

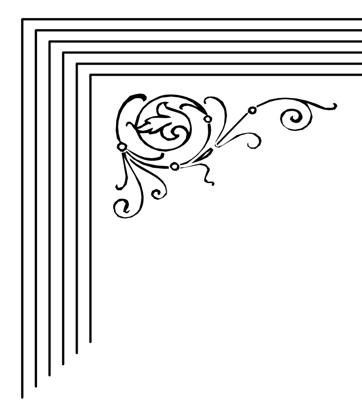
ومع ذلك فحتىٰ لو كان التأثير بسيطًا، أنت إنما تصف صورته، والحق أن الأعمال ليست بصورتها الشكلية وإنما بما يجده الله من حرص صاحبها علىٰ رضاه ونفع الناس.

وبعد . .

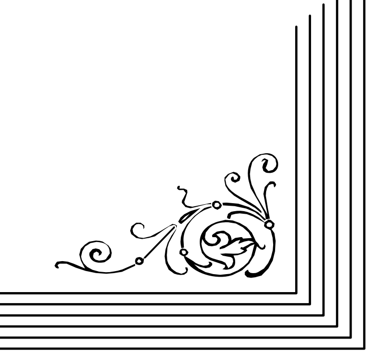
فهذه مجموعة من المقالات لثلة كريمة من الكتاب، يجمعها كلها رابط واحد وهي أنها تحاول أن تعينك علىٰ الإمساك بمفاتيح عيش الحياة كما ينبغي.

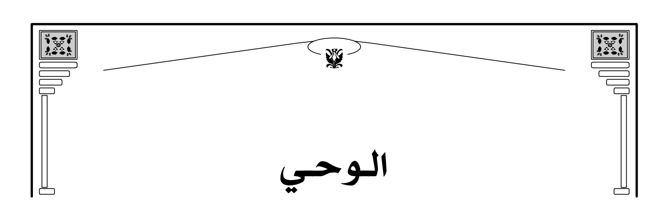
وإيمانًا مني بأهمية هذه المفاتيح والكتابة عنها واستمرار الحوار حولها= فقد حملت علىٰ عاتقي مراسلة الكتاب الكرام، واقتراح الموضوع الذي أراه يسد محورًا من محاور هذا الكتاب، وقمتُ بتحرير المقالات كلها والتأليف بينها؛ لتكون هذا العمل الذي بين يديك، والذي نكتفي منه الآن بهذه النشرة التجريبية الإلكترونية، وفي انتظار مقترحات القراء الكرام حول مادة الكتاب قبل نشر النسخة الورقية.

أحمد سالم



غاية النفس وزادها





الوحي

حياته والحياة به

عمرو الشرقاوي(*)

الحمد لله الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب، هدىٰ وذكرىٰ لأولي الألباب، والصلاة والسلام علىٰ النبي الأواب، مبلغ الكتاب، والهادي إلىٰ الحكمة والصواب، وعلىٰ الآل والأصحاب، صلاة تدوم إلىٰ يوم الحساب، ويكون لنا بها عند الله زلفىٰ وحسن مآب، وبعد:

فإنه في وسط ظلام دامس = ظهر النور

وفي جهل مطبق = ظهر العلم

وفي صحراء رمال تحيط بصحراء قلوب خربتها عبادة الأوثان = أمدّ الله قلوب ظامئة بزاد الحياة.

في غار حراء يتعبد محمد ﷺ؛ ليفاجئه أمين الوحي جبريل عليه السلام بما لم يقرع سمعه من قبل، وفي أحداث متلاحقة يستمع إلىٰ الملك يقرأ ﴿ٱقْرَأْ﴾، والقراءة باسم الرب ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢]، وغاية القراءة التربية، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

(*) عمرو صبحي الشرقاوي: خريج كلية أصول الدين قسم التفسير، وباحث ماجستير في الشريعة الإسلامية، من مؤلفاته: المشوق إلىٰ القرآن.

وبعد هذا الخطاب المليء بعبق السماء= ظهر الحق، وزال الباطل، وسطعت شمس الرسالة علىٰ الدنيا. وظل هذا النور مشرقًا في قلوب أهل الإيمان، يرجعون إليه، وينهلون منه، ويقصدونه في هداية أنفسهم وسكينة قلوبهم، ويفزعون إليه في الدقيق والجليل = فلا يرون منه إلا خيرًا. فكان بعضهم يقول: «ليتني كنت اقتصرت علىٰ القرآن»(١)، وختم بعضهم حياته بقوله: «وندمت علىٰ تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»(٢)، وقال غيرهما: «ولما كانت هذه المشاغل تمنعني عن التجرد لمطالعة القرآن المجيد، ولا يعجبني غيره من الكتب التي ملك النظر في أباطيلها، غير متون الحديث، وما يعين علىٰ فهم القرآن، تركت الخدمة، ورجعت إلىٰ وطني، وأنا بين الخمسين والستين من عمري، فيا أسفا علىٰ عمر ضيعته في أشغال ضرها أكبر من نفعها! ونسأل الله الخاتمة علىٰ الإيمان»(٣).

بهذه الكلمات الصادقة تحسر هؤلاء الأئمة من علماء الإسلام علىٰ ما ضاع من أعمارهم من غير معاني القرآن!

وصدق الله إذ يقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ **[العنكبوت: ٥١]**.

إن الكفاية حق الكفاية في الوحي، إقبالًا عليه، وارتشافًا منه، وسيرًا علىٰ منهاجه، وانقيادًا لأحكامه؛ فالإقبال عليه ليس ترفًا في حياة المؤمن، بل إنه ضرورة ليحيا.

إن الوحي يذكر المؤمن بحقيقته، من هو؟ ومم خلق؟

(١) من كلام سفيان الثوري، أنظر: تاريخ ابن معين، رواية ابن محرز: (٢/١٥٩)، والعلل، للإمام أحمد: (١٠٨٣).

(٢) من كلام ابن تيمية، انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام: (٢٨٤).

(٣) من كلام علامة الهند: عبد الحميد الفراهي، انظر: مقدمة مفردات القرآن: (٢٠).

ومن الذي خلقه؟
ولماذا خُلق؟
وإلى أين يصير؟

هذه الأسئلة الكبرىٰ يجيب عنها القرآن، في عدد من آياته وسوره، وفي سورة (الإنسان)، تلك السورة التي تتحدث عن الإنسان بدون أية إضافة أخرىٰ، يقول ربنا سبحانه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [**الإنسان**: ١ - ٥] .. إلىٰ آخر السورة.

إن طول النظر في هذا الوحي، يقف بالناظر علىٰ الفرق الهائل بين البيان القرآني وغيره من ألوان البيان البشري، ومن طالع أجناس الإبداع الأدبي في الحضارات الإنسانية كلها، ثم عاد فطالع القرآن الكريم، فإنه وإن لم يلحظ المباينة ويشهد بالمفاضلة لصالح القرآن فيشهد علىٰ الأقل بأن القرآن جنس مختلف لا يشبه أجناس الكلام الإنساني، وليس علىٰ نمطها، فإن رزقه الله علمًا بالبيان ومعرفة بخصائص الإبداع في الكلام = فسيشهد بفضل البيان القرآني وأنه ليس كلام بشر.

وحجية القرآن الكريم ودلالته علىٰ المصدر الإلهي الذي أرسل بهذا الوحي نبيه محمد ﷺ = هي الحجة التي أقيمت علىٰ كفار قريش، وأعانهم كي تقام هذه الحجة عليهم، ما لهم من المعرفة بالبيان وخصائصه ومواطن التفاضل فيه، وهي حجة صالحة للإقامة علىٰ كل من أدام النظر في هذا الوحي.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أن ضمادًا، قدم مكة وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة، يقولون: إن محمد مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه علىٰ يدي، فقال فلقيه، فقال:

يا محمد إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي علىٰ يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد فقال: أعد عليّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ، ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر، فقال: هات يدك أبايعك علىٰ الإسلام، قال: فبايعه**».

وفي هذا الحديث دلالة علىٰ أصل عظيم من أصول الاستدلال، أن الحجة تكون صحيحة في نفسها، ولكنها لا تقع منك موقعًا إلا بحسب ما معك من العلم والفقه؛ فيفوق الرجل من الاهتداء بالدليل بقدر نقص علمه وفقهه وعقله؛ لذلك اهتدىٰ هذا الرجل بتلك الكلمات القلائل؛ لأجل ما معه من العلم الذي هداه لفرق ما بينها وبين كلام الناس، بينما لا يهتدي آخرون بما هو أظهر من الحجج؛ لأجل نقص علمهم وفقههم.

عدم اقتناعك ليس دليلًا علىٰ وهاء الحجة، بل أحيانًا كثيرًا يكون لعدم استواء علمك وفقهك إلىٰ الدرجة التي تؤهلك للبصر بالحجج!

فهذه الكلمات التي أسمعها رسول الله ﷺ ضمادًا = نسمعها جميعًا، لكنها لا تقع منا نفس الموقع الذي وقعته من ضماد، حيث أبانت له هذه الكلمات أن صاحبها لا يستمد معارفه من البشر، وإنما يوحي إليه الله.

وسبب الفرق بيننا وبين ضماد: هو ما لديه من المعرفة بالكلام المتداول علىٰ ألسنة الناس، وهي المعرفة التي وزن بها كلمات النبي ﷺ، وهي الموازنة التي أنتجت أن هذا الرجل لا يعلمه رجل، وإنما هو نبي يوحىٰ إليه.

ومن هنا تعلم: أن صلاحية القرآن لإقامة الحجة علىٰ المصدر الإلهي لهذه الرسالة وهذا الدين = هي صلاحية ثابتة في نفسها، ولكن انتفاعك بها مرتبط بما في نفسك من المعرفة والعلم، ولعله لأجل ذلك يكثر في ديننا الحث علىٰ العلم والتعلم وعلىٰ رفع المستويات المعرفية للناس.

إن القرآن يذكر الإنسان بحقيقة الدنيا، وأنها متاع الغرور، وأنه إلىٰ الآخرة سائر، وأن الدار الآخرة لهي الحيوان (هي الحياة الدائمة الباقية التي لا زوال فيها)، والإنسان إن عاش بهذه الحقيقة سهل عليه أمر الدنيا . .

إن الوحي هو الذي يربي الإنسان علىٰ الاعتقاد الصحيح، الاعتقاد الذي لا يهتز، واليقين الذي لا يتزعزع، إنه الإيمان الذي جعل الصحابة يقولون حين قيل لهم ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [**آل عمران: ١٧٣**]، جعلهم ينطقون عن اعتقاد راسخ، ويقين شديد ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [**آل عمران: ١٧٣**]، فكانت النتيجة = إتمام النعمة عليهم، وحلول الرضوان، والنصر من الله -جل جلاله-.

وللوحي أثره العظيم في تثبيت القلب أيام المحن، وأوقات نزول البلايا والفتن! . . بل إن هذا من مقاصده، كما قال -جل جلاله-: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [**النحل: ١٠٢**]، وقال -جل جلاله-: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾! [هود: ١٢٠].

والوحي هو السبيل الوحيد لعلاج الأمراض المتعلقة بالروح، تلك النفخة العلوية التي جعل الله الوحي حياة لها ونعيمًا، ترتشف منه في الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [**الشورىٰ: ٥٢، ٥٣**]، «**فمن لم يشفه القرآن، فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله**»[١].

(١) زاد المعاد: (٤/ ٣٢٣)، الطب النبوي: (٢٦٧).

فالوحي هو طريق الاهتداء إلى الحقيقة!

ألا ترىٰ أن الله حكىٰ قول النبي ﷺ ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

والوحي هو الذي ابتدأه الله بالحث علىٰ القراءة، وحدد منهاجها، فقال -جل جلاله-: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ **[العلق: ١ - ٣]**.

المعرفة أولًا، ووسيلتها القراءة، والقراءة باسم الرب هي غاية العلم، فأبرز الله هنا عنوان الربوبية ليقول لك: «**اقرأ لتتربىٰ**»[(١)]، ثم نبهك الله- جل جلاله- أنه كلما قرأت أكثر، تعرضت لكرم الأكرم -جل جلاله-.

ومع قصور المعرفة الإنسانية، وظلمتها في كثير من الأحيان، يكون للوحي دوره الكبير في سطوع شمس الحق، وظهور النور، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ **[الإسراء: ١٠٥ - ١٠٩]**.

وفي البعد عن الوحي تطويل لطريق المعرفة، فإن: «المطلوب كلما كان الناس إلىٰ معرفته أحوج يسر الله علىٰ عقول الناس معرفة أدلته، فأدلة إثبات الصانع وتوحيده، وأعلام النبوة وأدلتها كثيرة جدًا، وطرق الناس في معرفتها كثيرة. وكثير من الطرق لا يحتاج إليه أكثر الناس، وإنما يحتاج إليه من لم

(١) مستفاد من الشيخ: مصطفىٰ البحياوي.

يعرف غيره، أو من أعرض عن غيره. وبعض الناس يكون الطريق كلما كان أدق وأخفىٰ، وأكثر مقدمات وأطول = كان أنفع له، لأن نفسه اعتادت النظر الطويل في الأمور الدقيقة. فإذا كان الدليل قليل المقدمات أو كانت جلية لم تفرح نفسه به، ومثل هذا قد يستعمل معه الطريق الكلامية المنطقية وغيرها لمناسبتها لعادته، لا يكون العلم بالمطلوب متوقفًا عليها مطلقًا، فإن من الناس من إذا عرف ما يعرفه جمهور الناس وعمومهم، أو ما يمكن غير الأذكياء معرفته = لم يكن عند نفسه قد امتاز عنهم بعلم، فيجب معرفة الأمور الخفية الدقيقة الكثيرة المقدمات، وهذا يسلك معه هذه السبيل»(١).

ولا يقتصر الوحي علىٰ الظاهر دون الباطن، بل يمزج بينهما مزجًا، وينبه علىٰ أهميتهما معًا، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [**الزمر: ٣٩**]، وهذه هي الصورة الظاهرة، وأما الصورة الباطنة، فهي: ﴿يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [**الزمر: ٣٩**].

وللوحي أثره العظيم في تحصيل السكينة المفقودة في زمان القلق والاضطراب، فقد جاء الوحي بكون «**الصَّلاة نورٌ**»(٢)، ولفظ النور يوحي بالسكينة والهدوء والراحة، إن الإنسان حينما يتحقق بالصلاة، فإن السكينة تغمره، وكيف لا تفعل، وهو يقبل علىٰ الله الذي ينجيه من مخاوفه، وهو يقبل علىٰ من بيده ملكوت السماوات والأرض.

وقد حث النبي ﷺ علىٰ التزام السكينة في حال الإتيان إلىٰ الصلاة لتحصيلها، «**إِذَا نُودِيَ بِالصَّلاةِ، فَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا سُبِقْتُمْ فَأَتِمُّوا**»(٣). «وإذا كان النبي ﷺ قد أمر بالسكينة حال الذهاب إلىٰ الصلاة ونهىٰ عن السعي الذي هو إسراع في ذلك؛ لكونه سببًا للصلاة = فالصلاة أحق أن يؤمر فيها بالسكينة وينهي فيها عن

---

(١) الرد علىٰ المنطقيين: (٢٥٤ - ٢٥٥).

(٢) مسلم: (٢٢٣).

(٣) مسلم: (٦٠٢).

الاستعجال. فعلم أن الراكع والساجد مأمور بالسكينة منهي عن الاستعجال بطريق الأولىٰ والأحرىٰ، لا سيما وقد أمره بالسكينة بعد سماع الإقامة الذي يوجب عليه الذهاب إليه، ونهاه أن يشتغل عنها بصلاة تطوع وإن أفضىٰ ذلك إلىٰ فوات بعض الصلاة، فأمره بالسكينة وأن يصلي ما فاته منفردًا بعد سلام الإمام، وجعل ذلك مقدمًا علىٰ الإسراع إليها، وهذا يقتضي شدة النهي عن الاستعجال إليها، فكيف فيها؟!»(١).

وللقرآن العظيم كبير الأثر في تحصيل هذه السكينة، وتلك السكينة «إذا نزلت علىٰ القلب اطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح، وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش، واللغو والهجر، وكل باطل»(٢).

وفي البعد عن الوحي قسوة القلب، وظلمته، ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ **[الحديد: ١٦، ١٧]**.

والمؤمن إن استقبل الوحي بشرطه قاده إلىٰ النور، فقد قال -جل جلاله-: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ **[الزمر: ٢٣]**.

وطريق استقبال النور هو إدمان النظر في الوحي، وأن يُرجع الإنسان إليه البصرة كرة بعد كرة، ليتحقق بابتلاءات القرآن، وليكابد حتىٰ يصل.

ومن المعاني ما كُرر في الوحي، وتكراره باب عظيم لإفادة القلب؛ فإن طول الطرق يُسمع.

---

(١) القواعد النورانية: (٨٣).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٤٧٣).

إن التعلق بالوحي وملأ النفس به، والصلة بالله- جل جلاله- عبودية ومحبة وافتقارًا، وقيامًا بالأمر والنهي، والصلاة، والذكر، والصلة، ونفع الخلق = كفيلة بسد حاجة الناس عن كل باب من أبواب اللهو ومتع الفن والجمال أو حتىٰ التعلق بالخلق.

وإن النفس لا تطلب نعيمها ولا سرورها ولا سعادتها من جهة غير جهة الله إلا لنقصها عن مراتب الكمال.

فطلب الناس لغذاء روحي غير الوحي ومتاع العبودية = إنما يرجع لنقص نفوسهم وضعفها، والخلل الموجود في قابلية المحل عندهم للانتفاع بالوحي؛ كالذي لا يعلم من أصناف الطعام إلا الأصناف الرديئة فهو ربما ينفر ولا يقدر علىٰ الاستمتاع بالفاخر جدًّا من الطعام .. فكثير من الناس لا يجد غذاء روحه في القرآن، وإنما يجده في الأناشيد أو حتىٰ الغناء والموسيقىٰ أو السماع أو سائر فنون الفن والجمال واللهو = لنقص نفسه وقلة صبره علىٰ رعاية قلبه حتىٰ ينبت فيه الوحي ثمره، ويعظم ضرر هذا حين يستغني بما يملأ روحه من تلك الأبواب، ويحسب هذا ملأ روح، والوحي ملأ روح، وهو هنا إنما يغفل عن فرق النفع والرواء بين البابين؛ فإنه ليس كل ما يملأ يكون نفعه واحدًا بل ولا خلوه من الفساد واحدًا؛ فإن الوحي مادة تملأ الروح كما لا يملأ غيرها وتنفع كما لا ينفع غيرها، وتروي كما لا يروي غيرها، وتخلو من الضرر كما لا يخلو غيرها، وهذا فرق ما بينها وبين غيرها، والفرق ها هنا لو تعلمون عظيم.

وفي الوحي البصائر التي تنير للسالك طريقه، ليبصر الحق، ويبتعد عن الباطل، ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

«إن مثل القرآن ومثل الناس في هذا الزمان، كثلاثة مسافرين تَاهُوا في الصحراء بليل مظلم! صحاري وظلمات لا أول لها ولا آخر ..! فبينما هو كذلك إذ شاهدوا في السماء نجمًا مُذَنَّبًا لاهبًا، لم يزل يخرق ظلمات الأفق

بنوره العظيم، حتىٰ ارتطم بالأرض! فافترقوا ثلاثتهم إزاءه علىٰ ثلاثة مواقف:
فأما أحدهم: فلم يُعِرْ لتلك الظاهرة اهتمامًا، بل رآها مجرد حركة من حركات الطبيعة العشوائية!

وأما الآخران فقد هرعا إلىٰ موقع النَّيْزَكِ فالتقطا أحجاره المتناثرة هنا وهناك . . وكانا في تعاملهما مع تلك الأحجار الكريمة علىٰ مذهبين:

فأما أحدهما فقد أُعْجِبَ بالحجر؛ لِمَا وجد فيه من جمال وألوان ذات بريق، وقال في نفسه: لعله يستأنس به في وحشة هذه الطريق المظلمة، ثم دسه في جرابه وانتهىٰ الأمر!

وأما الآخر فقد انبهر كصديقه بجمال الحجر الغريب! وجعل يقلبه في يده، ويقول في نفسه: لا بد أن يكون هذا المعدن النفيس القادم من عالم الغيب يحمل سِرًّا . .! لا يجوز أن يكون وقوعه علىٰ الأرض بهذه الصورة الرهيبة عبثًا . .! كلا كلا . .! لا بد أن في الأمر حكمةً ما! ثم جعل يفرك حجرًا منه بحجر، حتىٰ تطاير من بين معادنه الشَّرَر . .! وانبهر الرجل لذلك؛ فازداد فركًا للحجر، فازداد ذلك تَوَهُّجُ الشَّرَرِ . . وجعلت حرارة معدنه تشتد شيئًا فشيئًا؛ حتىٰ وجد ألم ذلك بين كفيه! بل جعلت الحرارة الشديدة تسري بكل أطراف جسمه، وجعل الألم يعتصر قلبَه، ويرفع من وتيرة نبضه . .! لكنه صبر وصابر، فقد كان قلبه -رغم الإحساس بالألم والمعاناة- يشعر بسعادة غامرة، ولذة روحية لا توصف! . . وما هي إلا لحظات حتىٰ تحول الحجر الكريم من يديه إلىٰ مشكاة من نور عظيم! ثم امتد النور منها علىٰ ذاته، حتىٰ صار كل جسمه سَبِيكَةً من نور، وكأنه ثُريا حطت سُرُجَهَا ومصابيحَها علىٰ الأرض! وجعل شعاع النور يفيض من قلبه الملتهب فيعلو في الفضاء، ويعلو، ثم يعلو، حتىٰ اتصل بالسماء! . . كان الرجل يتتبع ببصره المبهور حبل النور المتصاعد من ذاته نحو السماء، حتىٰ إذا اتصل بالأفق الأعلىٰ تراءت له خارطة الطريق في الصحراء! واضحة جلية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك! ووقع في قلبه من الفرح الشديد ما جعله يصرخ وينادي صاحبيه معًا:

أخويَّ العزيزين! .. هَلُمَّا إِليَّ! .. لقد وجدت خارطة الطريق! .. لقد من الله علينا بالفرج ..! أخويَّ العزيزين! .. انْظُرَا انْظُرَا! .. هذا مسلك الخروج من الظلمات إلىٰ النور! شَاهِدُوا شُعَاعَ النورِ المتدفق من السماء .. إنه يشير بوضوح إلىٰ قبلة النجاة! .. فالنجاةَ النجاةَ!

أما الذي احتفظ بقطعة من الحجر في جرابه فلم يتردد في إتباع صاحبه والاقتداء بهديه؛ لأنه كان يؤمن بأن لهذا المعدن الكريم سِرًّا! ولقد أبصر شعاعه ببصيرة صاحبه، لا ببصيرة نفسه!

وأما الأول الذي لم يرَ في النجم الواقع علىٰ الأرض شيئًا ذا بال؛ فإنه رغم نداء صاحبه له لم يبصر شيئًا من أمر الشعاع المتدفق بالهدىٰ! لقد كان محجوبًا باعتقاده الفاسد، فلم تَعْكِسْ مِرْآةُ قلبِه الصَّدِئَةُ نورًا! ولذلك لم يصدق من نداء صاحب النور شيئًا من كلامه، بل اتهمه بالجنون والهذيان! ومضىٰ وحده يخبط في الصحراء، ضاربًا في تيه الظلمات! ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ **[النور: ٤٠]**.

ثم انطلق الرجلان المهتديان يسيران في طريق النور .. وإنما هما تابع ومتبوع، فالمتبوع داعية يرىٰ بنور الله .. ويسير علىٰ بصيرة من ربه؛ بما كابد من نار الحجر وشاهد من نوره! والثاني مؤمن بالنور مصدق بدعوة صاحبه، يسير علىٰ خطاه وهديه .. ولكنه يكابد في سيره عثرات من حين لآخر وهَنَاتٍ؛ وذلك بسبب ما يلقي إليه الشيطان من وساوس ومخاوف! وليس لديه ما يدفع به كيد الشيطان إلا ما يتلقىٰ عن صاحبه!

وبينما هما كذلك يسيران مطمئنين في طريقهما، إذ سأل الرجلُ التابعُ صاحبَه المتبوع فقال: أناشدك الله أن تخبرني كيف اكتشفت سر النور في هذا الحجر الكريم!

لكن صاحب النور وجد أن اللغة عاجزة عن بيان حقيقة النور لصاحبه، فما كان منه إلا أن دس قطعة من الحجر الذي كان بين يديه في كف السائل؛ فصرخ الرجل من شدة حر الحجر الكريم والتهابه! وجعل يقلبه بين يديه ثم

ألقاه بسرعة في كفه صاحبه! لكن صاحب النور قبض عليه بيد ثابتة مطمئنة! فعجب منه رفيقه وقال: إنما أنت قابض علىٰ الجمر!

قال: نعم، هو كذلك! إنه القبض علىٰ الجمر! لكن لذة الروح بما يشاهد القلب من نور، وبما يجد من سعادة غامرة؛ ترفع عن الجسد الشعور بالألم، وتمنع حدوث الاحتراق! وإن نار الشوق والإيمان لهي أقوىٰ ألف مرة ومرة من نار الكفر والفسوق والعصيان! ولو وقعت الأولىٰ علىٰ الثانية؛ لجعلتها سلامًا وأمانًا علىٰ قلب العبد المؤمن! ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ **[الأنبياء: ٦٨ - ٧٠]**.

نعم يا رفيقي في طريق النور! إن مكابدة القرآن في زمان الفتن، والصبر علىٰ جمره اللاَّهِبِ في ظلمات المحن؛ تلقيًّا، وتزكيةً، وتدارسًا، وسيرًا به إلىٰ الله في خلوات الليل؛ هو وحده الكفيل بإشعال مشكاته، واكتشاف أسرار وحيه، والارتواء من جداول روحه، والتطهر بشلال نوره .. النور المتدفق بالحياة علىٰ قلوب المحبين، فيضًا ربانيا نازلًا من هناك، من عند الرحمن، الملك الكريم الوهاب!»[(١)].

فدونك الوحي= فتعرض له!

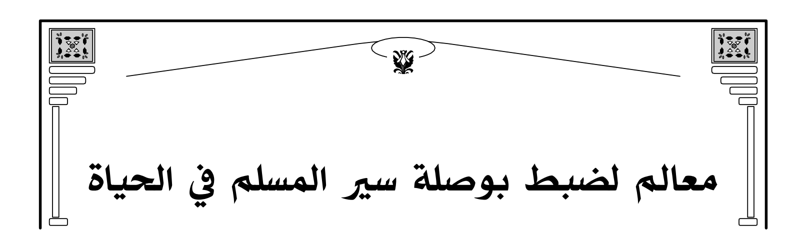
وإذا أقبلت إلى الوحي فأنصت = فإنها رسائل الله إليك!

حظك من كتاب الله كل يوم = هو زاد قلبك ووقود روحك.

وأكمل النور ما توقده أنت بقلبك، وأتمه ضياء ما تُسرجه أنت بيدك؛ ليبدد ظلام نفسك ..

---

(١) هذه رسالات القرآن، للشيخ د. فريد الأنصاري.



معالم لضبط بوصلة سير المسلم في الحياة

هدىٰ النمر(*)

(١) معالم لضبط وجهة السير

ماهية فطرة الله:

يقول ربنا ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فما هي حقيقة تلك الفطرة التي فطر الله الناس عليها؟

فَطَر الشيء لُغةً: خلقَه وأوجده وابتدأه من عَدَم، ويلحق به دلالةً، الإنشاءُ والإبداعُ علىٰ غير مثال سابق. والفطرة التي أنشأ الله عليها الإنسان هي الْخِلقة التي يكون عليها كل موجود أَوَّلَ خَلْقِه، بالطبيعة السليمة التي لم تُشَب بعَيْب.

وهذه الخِلقة الأولىٰ التي طُبع عليها الإنسان، جوهرها الخير، لا الشر، ولا الحياد، كما تدَّعي بعض التصورات الفلسفية. فتصور فطرة الإنسان

(*) حاصلة علىٰ ليسانس ألسن بامتياز، قسم اللغة الإنجليزية وآدابها.

كاتبة ومحاضرة ومترجمة في مجالات الفكر والأدب والتهذيب الذاتي وبناء الشخصية.

مؤلفة روايات وأدبيات تربوية وفكرية:

www.goodreads.com/hoda-alnimr

www.hmisk.wordpress.com

محايدة؛ يجعل النفس الإنسانية أشبه ما تكون بآلة، كالسكين -مثلًا-، يستوي عندها أن تقطع بها تفاحة، أو تمزّق بها أحشاء بريء! وذلك لأنَّها مُعدَّة لتقطع، والسلام . . ! وبالمثل، فالنفس الإنسانية مهيئة للخير والشر سواء بسواء، يستوي عندها أن تقوم بذلك أو تفعل ذاك. وهذا ما ليس واقعًا بحال . . ! ولا يستقيم تصور أن تكون فطرة الإنسان الأُولىٰ أصلها الشر، والخيرُ طارئ عليها بالاكتساب؛ لأنَّ هذا التصور يستلزم أنَّ الإنسان يولد والشر لصيق بنفسه! فهو يسعد ويطمئن ويستريح لفعل الشر بكل ألوانه، ويشقىٰ لفعل الخير في مختلف الصور، ولن تفلح تربية في محو أثر الشقاء أو الأنس الداخليين؛ لأنَّنا نتكلم عن الأصل في النفس، وليس الطارئ عليها. لكن الواقع كذلك يُكذِّب هذا التصور . . !

ومن ثَمَّ فجوهر فطرة الله التي فطر الناس عليها هو الخير، وهذا هو التصور اللائق بجلال الله- جل جلاله- وبديع صنعه. وإذا جئنا نحلل هذا الخير الكلّي لعناصر؛ ليكون أقرب للوقوف علىٰ حقيقة هذه الفطرة يمكن أن نحلله لأربعة عناصر أساسية:

التوحيد:

أي إنَّ الروح مجبولة علىٰ صفاء التوحيد لله رب العالمين، والإقرار به خالقًا وربًّا وإلهًا، ليس كمثله شيء، وهو المستحق للعبادة دون كل شيء. وهذا مقتضىٰ البيان النبوي من قوله ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ؛ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أو يُنَصِّرَانِهِ، أو يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تَنْتِجُونَ الْإِبِلَ، فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ حَتَّىٰ تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا؟!**». ومقتضىٰ الميثاق الكامن في قوله -جل جلاله-:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

ويستلزم كونُ الإنسان مفطورًا علىٰ التوحيد كونه مفطورًا علىٰ مبدأ العبودية لمعبود ما، سواء اختار أن يوافق فطرة التوحيد فيعبد الله المعبود الحق، أو يعبد ما سواه من آلهة يبتدعها ويخترعها، كما سيأتي تفصيل ذلك في بند (**الحرية**).

أصول القيم والأخلاق بخيرها وشرها:

أي أنَّ هنالك ثوابت متعارف عليها لدىٰ كل الناس سواسية، فلا نحتاج أن نثبت -مثلًا- أنَّ قيم الصدق والإتقان والأمانة هي الخير، وضدها هو الشر. وحتىٰ السارق لا يحب أن يُسرق، ولن يعتبر السرقة من أبواب الخير، ولا الكاذب يقبل أن يُكذب عليه، أو يعتبر الكذب (فضيلة). هذا العرف البشري والتوافق البديع الذي لا يتخلف في الزمان والمكان، ليس إلَّا جزءًا من الفطرة الربَّانية المغروسة في بني آدم كلهم، بغضِّ النظر عن تعدد المسمَّيات التي قد ينسب إليها ذلك التعارف، كالضمير الإنساني أو الضمير الجمعي.

المبادئ والقوانين العقلية البدهية التي لا يختلف عليها اثنان:

ككون الشيء لا يخلق نفسه، والكلام المتناقض باطل، والشيء لا يكون موجودًا ومعدومًا في آنٍ معًا . . . إلخ.

التطلع الأخروي:

تخيَّل لو عرض عليك أن تُعطىٰ من المال والجاه ألوفًا مؤلفة، وتعيش في الدنيا عيشة الملوك، وكل ما يمكن أن تشتهيه ستجاب إليه، شريطة أن تكون هذه الدنيا هي آخر المطاف بالنسبة لك، ويكون الموت عين الفناء، فلا آخرة ولا خلود! أكنتَ تقبل بهذا وتسعد بعاقبته؟! لا ريب أنَّك كنت لتستاء منه وترفضه ما دام أنَّ مآله لفناء لا عودة بعده. وفي قوائم المنتحرين والمكتئبين من أصحاب الأموال والجاه ممَّن أنكروا المعاد والآخرة ما هو أبين من أن يُحصىٰ!

فالله فَطَرَنا علىٰ نفس توَّاقة، تتطلع في طبعها السوي للخلود، وحقيقة أشواقنا ورغائبنا معلقة بذلك الخلود الأخروي، والنعيم الذي لا ينقطع.

إذن في ضوء هذه الفطرة الموحَّدة والميثاق الكامن، كيف يختلف الناس من بعد في اختياراتهم الحياتية . .

بداية: كون فطرة الإنسان الأصلية هي الخير؛ فهذه هي طبيعته السليمة قبل أن تُشاب بعيب، كما ذكرنا في التعريف. فكونه (مفطورًا) علىٰ الخير لا يعني أنَّه (مجبور) أو (مقهور)، وإنَّما مدلولها أنَّه (مطبوع)، أي: إنَّه لا يستريح ولا يأنس ولا يطمئن حتىٰ يوافق أصل خلقته، كما أنَّ الترس في آلة لا يستقر حتىٰ يوافق موضعه الصحيح.

ومن جهة أخرىٰ: جعل الله الإنسان قابلًا للتأثر بمؤثرات تعزز هذه الفطرة الأولىٰ أو تحيد بها عن مسارها الأصلي. فمن هذه القابلية للتفاعل والتأثر؛ كان مناط التكليف والابتلاء والاختيار: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [**الإنسان: ٣**]. وكل سبيل له عواقبه وتبعاته التي بينها الله للعباد بجلاء، بدءًا من الشقاء النفسي لمخالفة الفطرة، وختامًا بالعذاب الآخروي لمخالفة أمر الله.

ويبقىٰ السؤال الأخير لاستكمال تصور الفطرة:

لماذا قد يبدو أهل المخالفة للفطرة -من عُتاة عُصاة المؤمنين أو غير المؤمنين مطلقًا- في توافق واستقرار مع نهجهم المخالف لأمر الله، ولا يظهر عليهم هذا الشقاء المترتب على المخالفة؟

هذه الظاهرة تُفسَّر في ضوء مفهوم (انتكاس الفطرة). ويرسم لنا ملامح ذلك الانتكاس حديث المصطفىٰ ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّىٰ تَصِيرَ عَلَىٰ قَلْبَيْنِ عَلَىٰ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ**

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» [مسلم].

والرسم التالي يوضح مراحل الانتكاس المستفادة من الحديث، بدءًا من التعرُّض للفتن (المؤثرات التي تحيد بالفطرة عن مسارها)، ثم التفاعل بالإيجاب معها، أي: يتقبلها أو مسايرتها، بدل غلق بابها أو صرف النفس عنها، ثم المداولة علىٰ هذا التفاعل حتىٰ تختتم السلسلة بإشرابها.



وبالتالي؛ فدوام مخالفة الفطرة ومعاكستها يؤدي في النهاية لانتكاسها. وتكون تلك الراحة البادية من ثَمَّ نابعة من (موافقة) نهج حياة الحائد عن أمر الله لِمَا صارت عليه فطرته من الحيود عن الصفاء الأول الذي طُبعت عليه. وعلىٰ تلك الراحة (البادية)؛ فأصحاب هذا النهج لا ينفكون عن المنغصات التي تمرُّ بهم كما غيرهم، لكنَّهم لا يجدون (حقيقة) الراحة التي يجدها المؤمن بالله والموافق لفطرة الله.

مراتب الحرية وإطارها:

لنَقُل: إنَّ شخصًا اختار أن يوقع عقد عمل لمدة سنة مع شركة ما في الثانية السابقة لتوقيعه الخطِّي كان حرًّا في اختيار العمل معهم أو رفضه، بناءً علىٰ ما وضحوه في العقد من شروط وجزاء. أما في الثانية التالية لتوقيعه؛ فقد صار مقيدًا بمسؤولية قراره الذي اتخذه حين (كان) حرًّا.

هذا مثال بديهي بقرار من قرارات الحياة المشتركة لكل الناس، لدفع وهم ما يُسَّمىٰ الحرية المطلقة، وزَيْف دلالتها الشائعة بأنَّها تعني التحرر من كل مسؤولية وكل التزام. فالحقيقة: أنَّ حريتك في أي موقف تكمن في اتخاذك قرار كيفية التعامل معه، ثم بمجرد اتخاذ القرار يصير في حقك التزامًا

لا فِكَاك منه، ولا حرية لك بعده فيه. إذن؛ حرية المرء في الاختيار رهن بأن (يلتزم) بعد ذلك بما اختار؛ وإلَّا ما كان للاختيار معنىٰ!

إنَّ الحرية قرار، والقرار مسؤولية، والمسؤولية التزام. والحرية ثقيلة وليست خفيفة؛ لأنَّها تعني -علىٰ الحقيقة- مواجهة المسؤوليات والالتزامات لا التحرر منها. ومن هنا: كانت الحرية من مقوِّمات التكليف الرباني ومناط المؤاخذة الشرعية.

وفي التصوُّر الربَّاني للوجود، فمراتب الحرية المخوّلة للإنسان تكمن في مساحتين رئيستين:

(١) أن يختار من يعبد، وليس في اختيار العبودية أم لا!

وتوضح القاعدة كما يلي:

«إنَّ الحُر، حرية كاملة، هو الذي لا قيود علىٰ تصرفه البتة، هو الذي يفعل كل ما يريد. لكن الفعل يحتاج إلىٰ علم وإلىٰ إرادة وقدرة، فالحر حرية كاملة: يجب أن يكون ذا علم كامل، وقدرة كاملة، وإرادة نافذة، ولا يمكن أن يكون للفاعل علم كامل، وقدرة كاملة، وإرادة نافذة إلا إذا كان مستغنيًا عن غيره استغناءً كاملًا، لا يحتاج إلىٰ أن يتعلم منه شيئًا، ولا أن يكتسب منه مقدرة؛ لأنَّ الحاجة إلىٰ علم الغير أو مقدرته قيدٌ يتنافىٰ مع كمال الحرية [...]، وكل الناس -بما فيهم منكرو وجود الخالق -جل جلاله- مُقِرُّون بأنَّ الإنسان ليس هو الذي أوجد نفسه، ولا هو الذي يُبقيها، وأن علمَه مكتسب، وهو علم ناقص، وأنَّه يعتمد في استمرار حياته علىٰ ظروف لا قِبَل له بالسيطرة عليها. فالضياء يأتيه من الشمس، والماء من المطر، والزرع من الأرض، وهكذا. فأنَّىٰ يكون حرًّا؟ وأنَّىٰ يكون مُستقبلًا بقراره؟ فالإنسان ليس -إذن- مُخيَّرًا بأن يكون حرًّا أو يكون عبدًا، بل هو مخير بين عبوديتين: [التوجُّه للإله الحق، أو لِمَا عداه ممَّا ينصِّبه محلَّ الإله، من هوىٰ أو عقل أو علم أو آلهة مخترعة ... إلخ»[1].

(١) «الحرية والعبودية»: جعفر شيخ إدريس.

(٢) أن يصدِّق عبوديته أو يكذبها من بعد

فمن يدّعي دعوىٰ الإيمان بالله، محاسبٌ علىٰ مدىٰ تصديق نسق حياته لهذه الدعوىٰ، ولو كان الإيمان بمجرد الدعوىٰ دون جهد لَمَا تخلَّف أحدٌ. وكما قال المتنبي:

لَوْلَا المَشَقْةَ سَادَ النَّاسَ كُلّهُمُ ... الـجُـودُ يُـفْـقِـرُ وَالإقـدامُ قَـتَّـالُ

مفهوم المرجعية:

بناء علىٰ كون الإنسان خُلق عبدًا، وفُطِر علىٰ التوجه لمعبود، وفي ذات الوقت مُنح حرية اختيار ذلك المعبود -سواء وافق فطرة التوحيد، أم لا-؛ فلا بُدَّ لكل إنسان في هذا الوجود من مرجعية ما، يستقي منها إطار حركته، ويستمد منها ملامح كينونته، يتساوىٰ في هذا كل الأفراد المتبعين لدين ما -وإن كان الّلا دين!- فلا يوجد فرد علىٰ وجه هذه البسيطة إلَّا وهو متبع لاعتقاد أو عقيدة أو دين، أي: تصور وجودي معين تنبثق عنه طريقة معيشته وإدارة حياته، ومرجعية يصدر عنها في مبادئه وفكره وحركته.

يترتب علىٰ ما سبق أن ارتضاء اعتقاد ما يستلزم انضباط حياة معتقده به، وأنَّ العقيدة يُراد منها أن تتحاكم إليها لا أن تُحاكمها، فإذا كنت تحاكم اعتقادك؛ فهو ليس اعتقادًا بعدُ، وإنّما ما زلت تستدلُّ عليه أو تقيّمه، أمَّا بعدَ زعم اختياره، وادِّعاء الإيمان به؛ فلا بُدَّ من تصديق دعوىٰ الإيمان بالالتزام.

وبهذا التمهيد ننتقل للبنة الأخيرة في بناء معالم السير الذي يعنينا ونقصده.

إذن ما معنىٰ اعتقادي في الإسلام دينًا؟

وما مقتضيات هذا الاعتقاد؟

(١) مراعاة قَدْر المخلوق وجلال الخالق:

من الأفكار الشائعة في صناعة الأفلام، ثيمة (فرانكشتاين)، التي تقوم علىٰ صَنْعَةٍ ما (روبوت، أو مستنسخ) تبدأ في (التمرد) علىٰ صانعها، وتمردها يبدأ عادة بتخطي حدود ما صنعت له، بل وتخطي حدودها كصنعة لمناقشة الصانع بكل ندِّيَّة في عمله. حبكة هذه الأفلام وجذور العقدة فيها تبدأ بالضبط من بزوغ هذه (الندِّية) في وجدان الصنعة. وبقدر ما تلقىٰ هذه الأفلام رواجًا، قد لا يخطر لنا أن نسقط هذا التصور علينا نحن البشر . . !

إلىٰ أي مدىٰ نستحضر ونستشعر حقيقة أنَّنا (صنعة) في تعاملنا مع هذا الوجود وموجِده -جل جلاله-؟ ونردد في حصص التربية الدينية علىٰ مدار سنوات أننا (مخلوقون)، لكن هل تعامُلُنا مع الله- جل جلاله- يعكس حقًّا تعاملًا من منطلق مخلوق؟، وكثير من تساؤلاتنا حول قَدَر الله وتدبيره ورزقه وحكمته فيها من تجبُّر النبرة ما **لا يدل علىٰ أدب مخلوق مع خالق. وفي ذات الوقت لا تكاد ننشغل بنفس القدر بمحاسبة أنفسنا عمّا إذا كنا (حقًّا) لله علىٰ ما يريد، وليس علىٰ ما (نظن) أنَّه يريد، فمن الذي له حقٌّ علىٰ مَن؟! ومَن الذي يحاسب مَن؟!**

كم نصيح في أعماقنا

لماذا خلقتني كذا وكذا؟!

لماذا أنا من أنا؟ لماذا ظروفي هكذا؟!

لماذا أهلي على هذه الشاكلة؟!

لماذا تعطي فلانًا وتمنعني؟!

أنا (لست سيئًا)، فلماذا كل هذه الابتلاءات؟!

لماذا يتنكد عيشي هنا لأدخل جنتك هناك؟!

ماذا أفعل أكثر ممَّا أفعل وأنا أصلي وأصوم؟!

ماذا تريد لأصل لما أريد؟!

وفي مقابل ذلك: لعلنا لا نتساءل أبدًا عن أفعالنا نحن في حق الله: أي صلاة وأي صيام وأي عبادة؟ كم من مصلٍّ صائم ولا حظٌ له إلا القيام والجوع! وما مفهومنا للسوء عندما نرىٰ أننا «لسنا سيئين»؟ أهو أنَّنا لا نصل لارتكاب كبيرة، لكن الإغراق في الهوىٰ والشهوات والغفلات ليس من السوء عند الله بمكان؟ وأيُّ فهم للإرادة ذاك يجعلنا نحسب أنَّ الله مَعبَر أمانينا، أو بنك أحلامنا، نودِع له رصيد أعمال؛ فيردُّها لنا في استجابة أمانينا وتحقيق آمالنا؟ وأي نظر قاصر وتجنٍّ علىٰ الله ذاك الذي يجعلنا لا نرىٰ نكَد العيش صورة متفرعة -لا منفصمة- عن سلسلة أفعال ونمط حياة، لو كان في الله حقًّا ما أوصل لهذا السؤال؟ وأي استصغار لوزن الجنة التي الله عن عملنا ودخولنا فيها غني ونحن المحتاجون؟!

إنَّ أول الخيط في كشف حيرات المحتارين في فهم الكون والحياة والتقدير، هو إدراك حقيقة أنفسنا وحجمها ودورها. أول الغيث أن نفهم ونعي وندرك أنَّنا عباد الله، والعبد (مِلْك) لسيده؛ وأنَّنا مخلوقون، والمخلوق تبع لمشيئة خالقه فيه، الذي لو شاء ما كان أو شاء فكان. وإذا كانت المملوكية في حق البشر -مع كونها مجازًا؛ لأنَّه لا أحد (يملك) آخر حقيقة- لها مسؤوليات تلزِم المملوك بطاعة مالكه وتركه يتصرف فيه، فكيف مع الخالص الذي يملكنا حقيقة؟

وتكثر من تشبيه صلتنا بالله بصلتنا بآبائنا من حيث كونه- جل جلاله- رحيمًا رؤوفًا بنا، لكنَّه تشبيه فاسد من حيث كون وَالِدينا لا يملكوننا حقيقة، ولم يخلقونا حقيقة، ولسنا لهم تبعًا حقيقة، ولا مدينين لهم بحق الخالقيَّة وكينونة الوجود، ولولا أمر الله فيهم وما فُطر عليه الولد من تقدير الوالد ما كان لهم علينا حقٌّ، شرعًا ولا عُرفًا؛ فتأمل! أما الله: فيملكنا حقيقة، وخلقنا حقيقة، ونحن له تبع حقيقية. فمن حيث النتيجة المنطقية المترتبة علىٰ هذه الحقيقة الواقعة = الله- جل جلاله- حرُّ التصرف في ملكه وأرضه وعبيده ومخلوقاته، بلا أدنىٰ معارضة أو سؤال له عن تبرير ما يفعل! ولا مجالَ حتىٰ

للتشبيه أو المقارنة بأي مخترع واختراعه، أو أي صنعة وصانع؛ لأنَّ الله- جل جلاله- ليس كمثله شيء!

فإذن؛ أول مقتضيات الإسلام هو: أن نخلع عن بصائرنا غشاوة النِّدِّيَّة، وعن قلوبنا غطاء الجبروت، ونتسربل بلباس العبودية، وتواضع المخلوقية في تعاملنا مع ربنا -جل جلاله-، وفهمنا عنه.

(٢) إحسان الظن بالله، وهو فرع عن صدق اليقين به:

حسن الظن بالله- جل جلاله- لا يعني وضع قائمة بالأمنيات، وتصورًا بالتطلعات وتوقعات بالنتائج، ثم ننتظر من الله أن يلبي لنا علىٰ ما نهوىٰ! مهما تسترت تلك النفسية وراء شعارات صحيحة من باب الطمع في فضل الله وكرمه؛ فهي عقديًّا غير سويَّة. ذلك أنَّ حسن الظن بالله = أن تظن بالله ما الله أهله، بغضِّ النظر عن أيِّ اعتبار آخر. فمهما جاءت نتيجة علىٰ غير توقع، أو وقع أمر دون معرفة وجه الحكمة؛ يظل اليقين بالله يقينًا لا يتزعزع؛ لأنَّه يستمد أنفاس حياته من الله رأسًا، فالله أهل كل خير وحكمة قطعًا. فافهم عن الله ما الله أهله، وأيقن بذلك (بالغيب)، بما يعني: دون تشرط أو طلب دليل إثبات!

وحسن الظن بالله يعني: الافتقار لفضل الله، لا لذات الأمنيات، ورجاء كرم الله بغير تحجيره في صورة معينة إذا لم تتأتَّىٰ خاب الظن فيه! بل لنفهم عن الله سُننه التي سنَّها في تدبيره وأرضه وبين خلقه، وما وعد به؛ فلنلزمه ولا نزيد عليه توقعات من عند أنفسنا.

الله وعد بالإجابة، لكن ليس في التو واللحظة، ووعد بإكرام السائل، لكن ليس بنفس تصوُّره القاصر لجواب مسألته، وهو يَقدُر لنا الخير قطعًا، لكنَّه (الخير حيث كان)، كما في دعاء الاستخارة، وذلك لأنَّ الله يعلم ونحن لا نعلم، فإمَّا التسليم المطلق لله بالغيب، فلن يخيب ظنُّك أبدًا، أو الحيود عن ذلك، ولن يتحقق لك ظن أبدًا.

«والإيمانُ الصحيح هو بشاشة الروح، وإعطاء الله الرضا من القلب، ثقة بوعده ورجاء لِمَا عنده، ومن هذين يكون الاطمئنان. وبالبشاشة والرضا، والثقة والرجاء = يصبح الإيمان عقلًا ثانيًا مع العقل، فإذا ابتلي المؤمن بما يذهب معه الصبر ويطيش له العقل، وصار من أمره في مثل الجنون؛ برز في هذه الحالة عقله الرُّوحاني، وتولَّىٰ سياسة جسمه حتىٰ يفيق العقل الأول، فيغلب أقواهما الأضعف، ويخرج الأعز منهما الأذل»[١].

(٣) الإيمان بالله يقتضي الاستجابة لشرعه:

فمن يبحث عن (الاقتناع) بأمر الله بعد ادِّعاء الإيمان به، لم يؤمن بالله أصلًا حقَّ الإيمان. فنحن لا نعبد الله علىٰ شرط كشف حساب بحِكَمه في كل أمر وعند كل ناصية؛ وإلَّا فهذا ليس إيمانًا به بداية بما يعني أن تثق به وتسلِّم له دون شروط. وحقيقة الإسلام الذي نَدين به أنَّه عهد استسلام وتسليم لله -جل جلاله-. ليس تسليم مسلوبِ الإرادة أو اللَّا مُكترث، أو الذي جُبل علىٰ الطاعة لا يستطيع غيرها، بل تسليم ذي إرادة واختيار، أيقن بالله يقينًا صادقًا ووثق به بالغيب، فدفعه ذلك لتسليم أمره له، مُطمئنًا إلىٰ أنَّ مولاه لا يريد به إلَّا خيرًا، وأنَّ أقداره حكمة كلها، وعدل كلها، ورحمة كلها[٢].

ومن تكاليف الشرع ما تعبدنا الله- جل جلاله- بالاستجابة له أو الامتناع عنه لعلة التعبد ذاتها، دون بيان وجه الحكمة المباشرة منه؛ لأنَّه ليس من حقوقنا كعباد مخلوقين تتبع ذلك، ناهيك عن تشرطه علىٰ الخالق! وهذا مقتضىٰ الحديث: «**لا يؤمِنُ أحدُكم حتىٰ يكونَ هواه تَبَعًا بِمَا جِئْتُ به**»، **[أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين، وانظر «فتح الباري» (١٣/ ٢٨٩)]**: أي تطويع هوانا ورضانا القولي والفعلي

(١) «وحي القلم»: مصطفىٰ صادق الرافعي.

(٢) سيأتي تفصيل ذلك في بند التخطيط.

والنفسي؛ ليكون وفق مراد الله -جل جلاله-، وما يجري به تشريعه وتقديره، لا أن نجعل مراد الله -جل جلاله- تبعًا، أو أن نطالب الله- جل جلاله- «ببيان» تبرير لكل تشريع وتوضيح حكمة لِما يُقدرُ لنا؛ لنتمكن من موافقته راضيين!

مثلًا: لماذا حرَّم الله الربا، وأحل البيع؟ من أنَّ المناقشين لهذا التحريم في الآية وضحوا بأنَّه: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ **[البقرة: ٢٧٥]** ففيه من المتاجرة والتراضي مثل ما يكون في البيع، فلماذا حُرِّم الربا وهو كالبيع؟! فجاء الرد الربَّاني الحاسم: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ **[البقرة: ٢٧٥]**، انتهىٰ.! وعلىٰ نفس النفس، لماذا المسح علىٰ ظاهر الخف في التيمم لا باطنه؟ ولماذا نصلي لقبلة محددة، مع أنه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ **[البقرة: ١١٥]**؟

ومن جهة أخرىٰ: فالتشريع عامر ببراهين الإحكام الرباني لمن لديه الصدق في إنفاق الوقت والجهد، لفقه حقيقة ما يقول إنَّه آمنَ به، واتخذه عقيدة يرضىٰ أن يُحاسب علىٰ أساسها! ومن لا وقت لديه ليتعلم ويتفقه؛ فخير له أن يتأدَّب بأدب العبودية والتسليم لله بما الله أهله، ولا يجمع علىٰ نفسه تقصيرَ الجهل وإثمَ التبجح علىٰ الله، بمناقشته في تشريعه مناقشة الندِّ للندِّ!

(٤) الجِدُّ في فقه أمر الله والعمل بما تبيَّن:

«البحث عن مراد الله!».

سرىٰ هذا الاصطلاح في الوسط الملتزم سريان النار في الهشيم. بدأت شرارته بقصد إصلاحي ووقع تنبيهي لأهمية العناية بفقه الدين كمرجع للحياة، ودليل لحسن التعامل معها وفق سنن الله في أرضه، ثم انقلب في النهاية لنار حقيقية تسري في هشيم فعلي! فغدا المصطلح مظلة فضفاضة، تتسع للاعتذار عن التخاذل في أخذ الدين والحياة والعمر بقوة، وتمتد لتشمل تبرير التوهان المتكلف في أمر الله، والحيرة المتوهمة في كثير من الأحيان عن سبل رضاه.

ذلك أنَّ مراد الله علىٰ الحقيقة واضح بيِّن؛ فالدين قد اكتمل بالفعل،

بما أنزل الله علينا من قرآنٍ فصْل، وبما تركنا عليه نبينا ﷺ من «**مَحَجَّة بيضاء، ليلها كنهارها**»، فليس من مزيد وحي يتنزل، ولا رسول منتظر ليبعث، ولا جديد هدىٰ يُتوقع. واستشعار أنَّ مراد الله شيء غامض في ظلام دامس مبثوث في مكان ما في أرجاء الكون، بما يستلزم أن يَهيم الفرد باحثًا عنه ذات اليمين وذات الشمال، يكاد يساوي القول المباشر بأنَّ الدين لم يكتمل، وأنَّ الله- جل جلاله- حين قال: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٣] قد طالبنا بمُتعذَّر علينا؛ لأنَّه لم يُبيِّن لنا ما أَمَرَنا أن نستقيم عليه!

ولأنَّ معرفة مراد الله وسُبل مراضيه إنَّما يتوسل له بأركان لازمة ثابتة بمقدور الكل. أولًا: بدوام دعائه- جل جلاله- وصدق الافتقار لهداه والاستعانة به علىٰ الرشاد، ثم بالعلم الجاد الراسخ، ثم مكابدة الصدق في محاولة المعايشة، والصبر علىٰ ذلك ما امتدت بالمرء حياة. وليس له دهاليز أخرىٰ خفية. مراد الله ليس مفرقعات فجائية خارقة، ولا نجومًا تسطع في سماء البعض مصادفة وتترك أخرىٰ مظلمة، ولا هبة تهبط علىٰ النائمين في المنام أو تزور المنتحبين علىٰ الأطلال. وإنَّما (يُستجلب) من عند الله كما سلف، بما أمر الله به، وما ترك بين أيدينا من سبل ووسائل تدل عليه، لكن لمن يأخذها بعزم ويصبر عليها بيقين، ثم لا يلتفت ولا يتذبذب، ولا يمل ولا ييأس. لكن كم من جاهلٍ يقنع بالبكاء علىٰ أطلال الجهل؛ ومتعلِّم يصر علىٰ استشعار التيه رغم ما اتضح ممَّا تعلم، ويتعجل ما لم يتضح دون صبر علىٰ الطلب؛ وعامل يستقل من العمل ما ظهر، ويتعجل ثمرة ما بعد، ثم يترك الكل مللًا أو يأسًا، فلا هو ثبت علىٰ ما تبين، ولا هو بالتالي بلغ ما بعده.

والنمط أو القالب المتبادر للذهن عند ذكر اصطلاح الباحث عن مراد الله: أنه إنسان هلامي، تائه، شارد، حيران، حزين، مكتئب، يائس! ربما يصلي ويصوم بالفعل لكن دون التفات لروح تلك العبادات ومقاصدها، فذلك ليس علىٰ كل حال المراد الذي يبتغيه هو من مراد الله! لأنَّ مراد الله الذي

ينتظر تكشفه له لا بُدَّ أن يكون «ميزة» خاصة به تفرقه عن غيره، ويا له من حظ نفس صريح؛ فتأمل!

وقد يسوء خُلق ذلك الباحث، ويضيق صدره بمن حوله، ويبطش في أهله ومَن حوله غضبًا، ويقلب البيت براكين مستفزة علىٰ الدوام، لكن هذا مبرر في حقه؛ لأنَّه مستاء بسبب خفاء أمر الله عنه، ولا يدخل في إساءته تلك مخالفة أمر الله بحال!

وقد يعمل في التطوع والإدارة، في مؤسسة تطوعية أو دعوية أو خيرية، بما يشمل ضمن ما يشمل أوقاتًا مهدرة في السفسطة الفكرية، والمهاترات (الإدارية)، والدردشة (الدينية)، وإطلاق النظرات والابتسامات بغير ضابط من تقوىٰ ولا رادع من ورع، لكن لا بأس؛ لأنَّه وسط كل هذه المعمعة من المخالفات سيجد -بصورة ما- مراد الله التائه عنه!

وهكذا يُغرق (الباحث) نفسه في تِيه صَنَع دهاليزه باختياره، ويصر علىٰ الدوران حول نفسه والبوصلة في جيبه، ثم تلبس كل هذه الأعراض الانهزامية وعادات النفس التخاذلية وحظوظها من الدلال والتثاقل والتعجل واشتراط الثمرة، وتنسب لمراد الله، تعالىٰ الله عن ذلك ..! وشتان بين الصبر علىٰ نفس تجاهد حتىٰ تنقاد، والتمادي في إعذارها ومهاودة كسلها والتبرير لقعودها عن الأخذ بما تبين، وتلبيس ذلك بانتظار مراد ليس إلا صورة من صور حظ النفس بدرجات، وإن نسبة من نسبه إلىٰ الله، تعالىٰ الله عن ذلك.

وكم من منشغل عن الله .. باسم الله!

وكم من طالب لله .. يطرق باب كل خلق الله إلا الله!

وكل امرئ على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره!

(٢) نهج سيرك في الحياة: أرْنَبيٌّ أم مستقيم؟

لا تكاد مادة تتناول تنظيم الوقت وتخطيط سير الحياة تخلو من ذكر مصفوفات زمنية وقواعد إدارية شهيرة، جلُّها من مستوردات علوم الإدارة وتطوير الذات. نتوقّف في عجالة عند نمطين، بهدف نتبين مدىٰ الضرر الواقع

علىٰ المدىٰ البعيد من استيراد منظومات فكرية علىٰ شكل أفكار مجتزأة، بمعزل عن البيئة التي نشأت فيها.

قائمة الإنجاز (Do List-To):

تقوم فكرة هذه القائمة علىٰ ترتيب ما تود إنجازه من مهام في يومك بحسب أولياتها عندك، بدءًا بالأهم فالأقل أهمية وهكذا. ووفقًا لقاعدة «باريتو» Pareto Principle؛ فإنَّ (٨٠%) من قيمة إنجازك يتم تحصيله بإتمام (٢٠%) من المدوّن في القائمة. فإذا كان علىٰ القائمة (١٠ مهام) -مثلًا- مرتبطة بأولوية، وأنجزت أول اثنتين فحسب في يومك، تستحق أن تنضم لمصاف الناجحين في استثمار أوقاتهم!

لندع القائمة جانبًا، ولنلقِ نظرة أعمق علىٰ أبعاد الفلسفة الفكرية والتصور الكامن وراء ذلك المنهج.

إذا تخيَّلنا اليوم علىٰ هيئة خطٍّ مستقيم، وتطلعاته أو أهدافه تمثل منحنيات علىٰ طول الخط، علىٰ النحو المرسوم أدناه، ماذا تلاحظ بين كل منحنىٰ والذي يليه؟

ثغرات أو فراغات!

والآن: لنتخيل أنَّ الخط المستقيم تمثيل لعام كامل، والمنحيات هي (أهداف الإنجاز) في ذلك العام.

ثم لنتخيل أنَّ الخط المستقيم يمثِّل عمر المرء كاملًا، والمنحنيات هي (أهداف الإنجاز) في حياته.

فما الذي نلاحظه علىٰ النطاق الأوسع؟

فراغ إلىٰ فراغ إلىٰ فراغ .. فإذا بها .. كارثة!!

إنَّ الذي ينفق أيامه -وفق ذلك التصور المستورد- علىٰ شكل قفزات أرنبية، منتقلًا من هدف للذي يليه، ومعياره الأوحد للنجاح مدىٰ تحقق أهدافه

وتقدم إنجازاته، هذا الشخص ينجز لا ريب، لكن هل هو يحيا حقيقية؟!

وفي تصورنا الأصيل، هل الحياة التي أُرِيدَ لنا أن نحياها ونعمر نفوسنا فيها بقدر أنفاسنا، هي مجرد (كومة) من الأهداف أو قفزات من الإنجازات؟ أم هي خطٌّ متصل من العمران المستمر، في أوقات الفراغ وأوقات العمل وأوقات الترويح وأوقات الانتظار، وحتىٰ أوقات النوم ودخول الخلاء؟! هل الحياة بالنسبة لنا هي محطات أهداف متباعدة، أم رحلة بنائية متكاملة؟

ثم إنَّ الذي يعيش بنفسية الأهداف المتجزئة والإنجازات الأرنبية، سيعاني في كل مرحلة إنجاز من حشد أعتىٰ طاقات العزم والتركيز والمثابرة ليتم هذا الهدف أو ذاك، فإذا تمَّ عاد لسيرته الأولىٰ وطبعه الأصلي المعاكس لكل هذه المعاني السامية. وبالتالي: ينقلب الإنجاز عملية معاكسة مستمرة للنفس وطبائعها وعاداتها. أمَّا الذي يأخذ الحياة بالتصور الكلي والخط المستقيم، تصير تلك المعاني بالنسبة له مفردات حياته اليومية، ويكون هو في طبعه وتصرفاته تجليًّا طبيعيًّا لها. فمن جاهد نفسه حتىٰ استقامت وصار العزم والجد طابعه، لا يحتاج لتكلفهما كل حين والآخر، بل شقاؤه الحقيقي يكون في الفتور والخمول والتبطل.

ولتقريب المثال: تخيَّل الفارق بين غطَّاس ماهر، الغطس رياضية يومية له، وبالتالي يصير بدنه ونفسيته في وضعية استعداد دائم وتفاعل طبيعي مع الماء؛ وأحد الهواة ممَّن يمارسه كل عام مرة، أو كل بضعة أشهر، بالتأكيد سيستغرق وقتًا أطول ليستعد قبلها، ويتأقلم أثناءها، ويسترخي بعدها؛ لأنَّ النشاط ككل، فيه استفزاز لعاداته البدنية والنفسية. أو تخيَّل الفارق بين تنفس الهواء علىٰ اليابسة والتنفس تحت الماء. إنَّنا لا نكاد نشعر بالأول -ناهيك أن نتكلفه- لأنَّه صار طبعًا وجزءًا من التكوين، بخلاف التنفس تحت الماء لمن لم يعتده.

قانون «باركنسون» Parkinsons Law:

«العمل يتوسع لكي يملأ الوقت المتاح لإنجازه، وهذا يدعو إلىٰ عدم تخصيص وقت طويل لتنفيذ عمل ما».

هذه القاعدة -في إسقاطها علىٰ التنظيم الزمني- تهدف لمحاربة نفسية التلكؤ والتراخي في إنجاز الأعمال، بما يجعل صاحبها يقضي ساعات -مثلًا- في إنجاز ما لا يستحق أكثر من بضع دقائق أو ساعة واحدة أو أنَّه كان مركزًّا في عمله، ومحددًا لوقت أقل من المتوقع للإنجاز.

لكن من جهة أخرىٰ: دوام تطبيق هذه القاعدة -إلىٰ جانب النفسية الأرنبية المذكورة أعلاه- تعني أنَّ صاحبها قد يقع في فخٍّ آخر أسوأ وأنكىٰ، خاصة علىٰ المدىٰ البعيد: حمَّىٰ الإنجاز، وضغط الشحن النفسي، وربما رداءة الإنتاج في غمرة اللهفة إلىٰ الانتهاء! ولا تحدّث بعد ذلك عن وقت للتدبر، أو ساعات للحوار مع النفس، أو أي عمل ممَّا فيه (تمهّل) أو تروٍّ يعرقل سرعة قطع المسافة لخط النهاية!

إذن: ما الوسط بين أفخاخ هذه القواعد الذهبية

ظاهريًا في إدارة الوقت، والتدميرية باطنها في إدارة النفس؟

الوسط في تصوُّرنا الأصيل، يكمن في إعمال قاعدتين نبويتين:

(١) **«اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»** [البيهقي].

(٢) **«أحبُّ الأعمال إلىٰ الله أدومها وإن قَل»** [البخاري].

هاتان القاعدتان ممَّا لا يمكن تكلفه وقتيًّا، بل لا بُدَّ من (التخلق) به؛ ليمكن تنفيذه، فالذي يعيش حياته بنفسية (الاغتنام) للموجود قبل فواته لا يمكن أن يكون طبعه متلكئًا أو رخوًا في العمل. وفي ذات الوقت الحريص علىٰ المداومة مهما قلَّ حجم العمل، لا يمكن أن يكون بطبيعة الحال من

المشحونين نفسيًّا بكمِّ الإنجاز علىٰ المدىٰ القصير، ثم الانقطاع عنه علىٰ المدىٰ الطويل.

نَخلُص من هذا العرض إلىٰ الفارق بين العيش بالنفسية الأرنَبيّة أو محطات الأهداف (المنحنيات)، والنفسية المستقيمة أو رحلة الحياة (الخط المستقيم).

النفسية المستقيمة تعني: أنَّ حياتك رحلة متصلة من التهذيب والتنمية والتطوير الممتد ما أذن الله لك من عمر، فتأخذ الحياة بقوة وعزم في تُؤَدة ورفق وأناة بغير تشنج ولا جزع ولا استعجال، واعيًا أنَّ هذه الدنيا معبر لا مستقر، وأنَّ كل المكتسبات هنا هي مكتسبات مؤقتة لا تدوم في ذاتها إلَّا أن تتخذها وسيلة للدار الآخرة والحياة الخالدة بإذن الله -جل جلاله-.

أمَّا النفسية الأرنبية فتعني: أنْ تعيش حياة مضطربة محمومة، فتلهث في كل مرة تريد بلوغ شيء، ثم إذا بلغته تخمد وتخمل، وبعد حينٍ لا يعود يكفيك هذا الإنجاز حتىٰ تريد الذي بعده، ولا تدري -علىٰ الحقيقة- إلىٰ أين تذهب، وإنِّما تُسيِّرك رغباتك وتطلعاتك بغير رابط بينهما، فتجري جري اللَّاهثين وتجمع مع الجامعين، ولا تُدرك مع ذلك طمأنينة المُسدَّدين.

(٣) زاد سيرك في الحياة: الوقت

ما هو الوقت؟

تعريف الوقت لغة: مقدارٌ من الزمان قُدِّر لأَمرٍ مَّا، وغاية الوقت المحدَّد لشيء معيّن (ابتداء أو انتهاء). فإذا جئنا نرسم ملامح لتعريفه في التصور الربَّاني الذي يرتبط برؤيتنا لهذا الوجود وغاية وجودنا فيه؛ نجد هذه الملامح في قول الله- جل جلاله- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ [**الملك**: ٢]. كل لفظة في هذه الآية لها من الدلالات ما يرسي تصورًا متكاملًا، علىٰ النحو الموضح تاليًا:

الذي خلق (توقيت مقصود)، الموت والحياة (مدىٰ زمني معيّن)، ليبلوكم (اختبار)، أيكم (مسؤولية فردية)، أحسن (معيار للحسن والتفاضل في الأداء)، عملًا (العمل المراد من الخلق «العبودية».

من الملامح المبيَّنة، يمكن إعادة صياغة التعريف كالتالي: «الوقت هو زمن مقدَّر للفرد لاختبار مدىٰ إحسانه للعبودية»، فغاية الوقت في التصور الربَّاني هو تزمين أو توقيت المساحة المعطاة لك للاختبار هنا (في هذه الدنيا).

وبناءً عليه:

ما أهمية الوقت؟

عندما تخطط لسفرٍ ما، تكون مدة السفر من أهم العوامل التي تحكم حجم الحقيبة التي تحتاج، ونوعية ما ستملؤها به. فإذا فرضنا أنَّك لا تعرف مدة سفرك، لكنَّك تعرف غايته ووجهته، كيف سيكون ترتيبك إذن؟. ستكون حريصًا علىٰ اصطحاب كل ما يغلب علىٰ ظنِّك أنَّك تحتاجه، وانتقائيًّا في مفاضلة الأولويات؛ لأنَّ حجم الحقيبة -مهما اتسع- محدودٌ. وكذلك يقتضي سفرنا في مدة هذه الحياة الحرص علىٰ استثمار كافة مساحات الوقت المتاح، بينما هو متاح الآن، (أي: دون تسويف وطول تأجيل)، والانتقائية فيما ننفق فيه أوقاتنا ونشغلها به، (بما يعني فقه مراتب الأعمال وفضائل الأوقات . . .).

فما أهمية رعاية الوقت؟

رعاية شيء، تعني تولِّي أمره، والقيام عليه، وتعهده بما يصلحه. ومفهوم رعاية الوقت في دلالته أكثر أصالة وعمقًا من مجرد (إدارته) أو (تنظيمه)؛ لأنَّ رعاية الوقت وحسن استثماره وفق تسلسل التصوُّر المعروض حتىٰ الآن، لا يمكن إلَّا أن (خُلقًا) و(طبعًا) ملازِمًا للمسافر، لا مجرد فورات مؤقتة وحماسات علىٰ الورق وقوائم الإنجاز! ومن ثَمَّ لن يستقيم لسائر في الحياة سير ربّاني بغير أن يصحح تصوّره وشعوره بالوقت علىٰ أنه أنفاس

معدودة لخاتمة ممدودة، فتصير رعاية الوقت من ثَمّ طبع حياة، وليس آليات طوارئ دفاعية.

وقتك سلّم ترقى به للسماء[١]!

(٤) مصباح سيرك في الحياة: التخطيط

بين التخطيط لحياتنا والاستسلام لأقدارنا:

(١) إنَّ اختصاص الله- جل جلاله- بتصريف الأقدار وتقسيم الأرزاق لا يعني مطلقًا جبر الإنسان علىٰ أفعاله ولا الظلم في تصريف أقداره.

(٢) ذلك أنَّ عِلَم الله- جل جلاله- بأفعال كل خلق من خلقه، وما ستكون عليه خاتمته وجزاؤه ومصيره، هو علم سابق لا سائق، ينتج عنه الكَشف لا الجَبر. بمعنىٰ: أنَّ الله يعلم مسبقًا علمًا شاملًا محيطًا بكلِّ ما سيصدر عن كل مخلوق في كل حين. ثم اختص نفسه- جل جلاله- بهذا العلم ولم يطلع عليه العباد. فكل واحد من ثَم يسعىٰ باختياره الحقيقي، وسعيه يُصدِّق ما علم الله قبلًا وما هو مكشوف عنده مسبقًا. فإذا كنَّا نندهش أحيانًا من تبدُّل حال أحد أو تحوّله لشخص آخر مثلًا، فهو عند الله- جل جلاله- مكشوف بلا مفاجآت؛ لأنَّه- جل جلاله- مطلع بداية علىٰ حقيقة الحال.

(٣) وممَّا قد يقرَب هذا التصوّر مثال الأستاذ الذي يتوقع لطلبته ترتيبتهم ودرجاتهم وفق ما أطلع عليه من أحوالهم طوال العام، ثم توافق نتيجتهم النهائية في الامتحان توقعاته. موافقة حالهم لتوقعاته لا تعني أنَّه أجبرهم، وإنَّما عِلْمه بهم كان صائبًا في محله. ولله- جل جلاله- المثل الأعلىٰ، فهو -جل جلاله- لا (يتوقع)؛ لأنَّه يعلم مُسبقًا ما خلق: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

---

(١) لمنهجية عملية في استثمار الأوقات وغربلة الأولويات، راجع الفصل الثالث من كتابي «إضاءات علىٰ طريق بناء الذات».

(٤) ولعل أوضح تجلٍّ لذلك بين أيدينا هو (سورة المسد): هذه السورة نزلت في حياة أبي لهبٍ، تقرر خاتمته ومصيره، وهو بعدُ علىٰ قيد الحياة! كان بوسع أبي لهب أن ينطق الشهادتين -ولو كاذبًا-؛ ليطعن في صدق القرآن وصدق نبوة سيدنا محمد ﷺ، لكنَّه لم يفعل! مع أنَّه كان حُرًّا، ولم يجبره أحدٌ علىٰ الاستمرار في الكفر، وظلَّت الدعوة تُدندن حوله، لكنَّه استمر علىٰ كُفره وعناده، حتىٰ خُتم له بالخاتمة التي قررها الله له في القرآن من قبلُ، وهو بعدُ علىٰ قيد الحياة! لا ريبَ -إذن- أنَّه تنزيل ممَّن عِلْمه محيطٌ وشامل وأكيد بأنَّ هذا الشخص لن يؤمن مهما حصل، وستكون هذه خاتمته قطعًا، وقد كان! هل يزعم أحد منطقيًّا بعد ذلك أنَّ أبا لهب كان مجبورًا علىٰ الخلود في النار؟!

(٥) وفي ظلِّ هذا العرض يستقيم فهْم الأحاديث والآيات التي تتعلق بالشفاء والسعادة، وبحسن الخاتمة أو سوئها، فالله- جل جلاله- لا يخفىٰ عليه حال أحد، ولا يظلم مثقال ذرة. وخواتيم الناس ليست إلَّا تجليات لحقيقة ما كانت عليهم نفوسهم ممَّا هو معلوم عند الله، وإن خفي علىٰ الناس أو التبس عليهم ما (ظهر) لهم منهم.

(٦) وبناء علىٰ علم الله- جل جلاله- السابق، وليس منفصمًا عنه، كان ترتيبه- جل جلاله- للأقدار -ابتلاءً ونعمة- وتقسيمه للأرزاق -منعًا ومنحًا- بحسب كل شخص؛ لذلك تقديره- جل جلاله- أحكم تقدير وأعدله؛ لأنَّه مبني علىٰ علم يقيني بحال كل أحد، ومُراعٍ لسياقه الذي أوجده هو- جل جلاله- فيه ووُسعه الذي أمكَنَه منه، ومحقق في نفس الوقت لطبيعة هذه الدار الدنيا من كونها دار اختبار مستمر لا جزاء خالد.

(٧) وليس غير الله- جل جلاله- يجمع تقسيمه للأرزاق المحاسن كلها: العدل والرحمة والعلم والحكمة. وتقديرات الله- جل جلاله- في جوهرها خير كلها وحكمة كلها وتربية كلها، لمن فهم عن ربه لا عن هواه.

(٨) فنحن حين نُسلِّم ونرضىٰ، إنَّما نُسلِّم لله- جل جلاله- لا لذات

القدَر، ونرضىٰ بقضائه من حيث إنَّه من عنده- جل جلاله- لا بذات المقضيِّ، فالمؤمن لا تُطغيه نعمة عن حمد المنعم، ولا يشتطُّ به الحزن حتىٰ يُوقعه في التسخط، وقول ما يُغضب الله. ونجد هذا الفهم فيما ورد -مثلًا- في وصف المصطفىٰ ﷺ عند حضوره وفاة ولده إبراهيم:

«فَجَعَلَتْ عَيْنَا رسول اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عبد الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: وَأَنْتَ يا رسول اللَّهِ؟ فَقَالَ: «يَا ابن عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ»، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَىٰ، فَقَالَ: «إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، ولا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَىٰ رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ». [البخاري]. **وفي الحديث كذلك: إِنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، ولا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، ولكنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا وأَشَارَ إِلىٰ لِسَانِهِ أو يَرْحَمُ»**. [البخاري].

قوانين التدبير الرباني والسعي الإنساني:

(١) ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]

(أ) سنن الله في الأسباب والمسببات ليست رياضيات قطعية، ولا هي ملزِمة لله- جل جلاله- وهو المتصرف كيف يشاء، فهو الذي يسبب السبب أو يمنعه.

(ب) ومن جهة أخرىٰ: ينبغي دوام التنبُّه إلىٰ أن الأصل في هذه الدار الاختبار لا الجزاء، وكل ما يوفَّاه العباد هنا نفحات ممَّا يُنتظر في الدار الآخرة ليس إلَّا!

(ج) والحرية التي منحنا الله إياها هي امتحان وتكليف، لا مغنم وتشريف.

(د) فحقيقة الحرية التي امتحننا الله بها، لا تكمن في تصريف الأقدار علىٰ ما نهوىٰ، ولا تطويع سنن الكون علىٰ ما يرضينا، ولا تحصيل نتائج علىٰ قدر ما نأتي من أسباب.

(هـ) بل هي حقيقة في تصريف هوانا نحن ليكون تَبعًا لِما قضىٰ به مولانا، وتطويع إرادتنا نحن؛ لتسلِّم له تسليم موقن فيه بما هو أهله، وليس

بمجرد ما تبدو عليه ظواهر التقدير من نعم وبلوىٰ، ثم مجاهدة أنفسنا وهواجسها وظنونها الضيقة المتحجرة؛ لتسلِّم فتسلَم، ليس استسلامًا متخاذلًا؛ بل تسليم راضٍ بما يرتضي له سيده وربه وخالفه ومالكه، مطمئنًا إلىٰ أنَّ عاقبة أمره كله -كله- خير، ما دام يشكر ويصبر، ويأخذ بالأسباب سعيًا علىٰ الأرض تحقيقًا لغاية العبودية ليس إلَّا؛ لكن رجاءه وأمله ونظره معلق بالسماء.

(و) هذا هو قَدْر ما يُتاح لنا من حرية علىٰ الحقيقة، وهذا مناط الاختبار، ومحل تفاوت درجات المؤمنين أنفسهم، أن تعقد جدائل قلبك علىٰ عقيدة محبة وولاء وثقة مطلقة، فلا يكن في صدرك منه حَرَج ولا هاجس.

(ز) وأنت في كل يوم تربط عقدة، أو تحل عقدة، حتىٰ تلقىٰ ربك، فتوفىٰ عند ذاك الجزاء الأوفىٰ.

(ح) وإن القَدَر سيجري علىٰ كل حال بما كان «رُفِعَت الأقلام وجَفّتِ الصّحُف»؛ فإذا أن يجري عليك مأزورًا، أو مأجورًا. الاختيار لك، والعاقبة لك أو عليك.

(٢) ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ **[الطلاق: ٣]**

(أ) حقيقة غاية التخطيط ومراده هو التعبد لله بمفهوم «الإعداد» الذي أمرنا به؛ لأنّ الحرص علىٰ الإعداد من علامات الجدية في تحمُّل المسؤولية، خاصة حين ننظر للدنيا بالمنظور الرباني علىٰ أنَّها حرث للآخرة ومزرعة لها. فمن ذا الذي يؤتيه الله أرضًا، ثم لا يهتم باستثمار كل شبر فيها وتنويع بذورها ليحصد منها أفضل ما يستطيع؟ فأيُّ بذور أغلىٰ بالتعهُّد من أنفاس الإنسان؟ وأيُّ أرض أولىٰ بالاستثمار من العمر؟

(ب) وقد جرت سنة الله- جل جلاله- في الكون بأن يجعل للمُسبَّب سببًا؛ ليكون أخْذ عبده بالأسباب وبذل جهده في الطلب في حسن طاعته وصحة التوكل عليه. ومن هنا فتمام التعبد عدم التشنج لذات الأسباب

أو حسابات النتائج، وتعليق الرجاء بالله- جل جلاله- وفضله وحده. فالأخذ بالأسباب ليس إلَّا فعل عبادة من بين أفعال في منظومة العبودية الشاملة لله -جل جلاله-، والأخذ بها غايته التعبد لا التعلق بما تأتي به من نتائج؛ لأنَّ الأسباب بذاتها لا تُؤدِّي لشيء إلَّا بما أذن الله به وقضىٰ بأن جعلها كذلك.

(جـ) والمؤمن الذي لا يأخذ مفهوم الإعداد وسبب التخطيط مُقصِّر في التعبد بهذا السبب، ومن هنا يكون التقصير في توكُّلِه بحسبه. وقد ينتهي به المطاف محتارًا متخطبًا مشتت الجهود في مسارات الحياة، مع أنَّ رسولنا ﷺ قد تركنا علىٰ محجّة بيضاء ونهج واضح لا يَزيغ عنه إلَّا هالك، وذلك في تصورات الوجود الكبرىٰ وفي دقائق الأعمال كذلك.

(د) ففي حين يقطع صاحب الإعداد الطريق علىٰ بصيرة ويوفر علىٰ نفسه ومن عمره كثيرًا من مزالق التجارب غير المسددة، ويحسن التعبّد لربه باستكماله الوسع في استثمار أنفاسه وغربلة أولوياته وتعهد مقاصده، تجد غير المُعِدِّ يخبط في عمىٰ ولو بحسن نية، ولو أحسن التوكل لأحسن الفهم، ولو أحسن الفهم لاستكمل من الأسباب ما وسعه؛ لأنَّ سنن الله- جل جلاله- في الكون والحياة والتقدير وسداد السعي بيّنة، وليست دراما غامضة كما قد يخيل للكثيرين بسبب قلة الفقه وغفلة مقاصد السير.

(هـ) وتسلسل ما سبق يلفت النظر إلىٰ أهميَّة تحرِّي (الأسباب) عندما نتكلم عن إتقان العمل وحسن الفهم لطبائع الأشياء، وليس الأخذ بأي أسباب والسلام. وفي المثال التالي ما يبيِّن المقصود:

عندما يسعىٰ طالب لتعلم لغة ما، تجد (الأسباب) المتعارف عليها هي المسارعة بالتسجيل في كورس أو تتبع المدرسين الأعلىٰ كلفة أو حشد المكتبة بالكتب وتحميل جهازه بالمواد اللغوية . . . إلخ. هذه كلها ليست (أسباب) طلب العلم باللغات، بل صور ممارسات شائعة لمن يريد التعلم عامة أو تعلم

اللغات خاصة، وهي في غالبها خاطئة المنشأ والمبدأ والمنتهي، لذلك يندر أن تثمر ثمرًا نافعًا مهما بذل المرء وسعه في الأخذ بها، فتأمل! إنَّما حقيقة الأسباب الموصلة لتعلم لغة ما، تتعلق أول ما تتعلق بالعلم، ثم بطبيعة اللغة. فالذي لا يملك مفاتح العلم الأولية من جدية ذاتية ومسؤولية فردية وحرص علىٰ النظام والمثابرة والصبر علىٰ النتائج والمنهجية في الطلب، لن تنفعه أي أسباب (خارجية) في أي نوع من العلوم كانت؛ لأنَّ العلم لا يُسقىٰ بملعقة، وإنَّما يطلب بشق النفس. وقد ينبغ طالب في أصعب ظروف التعليم وفي غياب كفاءة المعلمين، لجده في الطلب الذاتي وعزمه علىٰ البلوغ وصدق استعانته بالله، ولا يتعلم آخر مهما كان معلمه حائزًا علىٰ شهادات عالمية!

وأمَّا ما يتعلق بطبيعة اللغة؛ فأول الأسباب الموصلة للتمكن من اللغة هو الممارسة المتوازية مع البناء العلمي، وليست المنفصمة عنه. فكم من دورات تقوم علىٰ الممارسة فحسب، بمعنىٰ ترك الطالب يَهطل بالكلام علىٰ علته، زاعمين أنَّه مع الوقت (يكتسب) الصواب، دون العناية ببناء أساس علمي! ومنذ متىٰ كان الوقت وحده يغير أي شيء بله أن يغير الإنسان نفسه! فلا بُدَّ أن يحيط الطالب نفسه بممارسات لغوية صائبة يحاكيها هو في البداية، قبل أن ينطلق في الممارسة بمفرده، فيسمع كثيرًا ويقلد ما يسمع، وينتبه للتراكيب وهو يقرأ ويمضي علىٰ نسقها في إنشائه، وهكذا. كذلك كثير من الدورات تعتمد عيون الأدب وأمهات الكتب في التدريس، وهذا مخالف لقوانين تطور اللغة ناهيك أن يكون من أسباب تطويرها! فلا بُدَّ من المرحلية والمنهجية بأن يُعامل كل متعلم للغة ما، علىٰ أنَّه كالطفل فيها، فيترقىٰ في مراحلها كالطفل في التعامل مع لغته الأم، وبالتالي لا يعود اكتساب اللغة عذابًا مُقيمًا ومخالفة مستمرة للنهج الطبيعي في تشكيل ملكات النطق والسماع والفهم السريع.

(و) والله- جل جلاله- الموفق والمستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم في كِّل آن.

(٣) ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ **[الإسراء: ٢٠]**.

(أ) ينطبق ما سبق من سنن التخطيط والتقدير علىٰ المؤمن وغيره. وفي الحديث: «**لو كانت الدنيا تَعدِلُ عند الله جناحَ بعوضةٍ؛ ما سقىٰ كافرًا منها شربةَ ماء**». [الترمذي].

(ب) أمَّا غير المؤمن بالله؛ فإذا أذن الله بنجاحه في الدنيا، يظل خائبًا في الآخرة؛ وإذا خابت مساعيه في الدنيا، فقد خاب كغيره في الدنيا، ويزيد عليه في الآخرة؛ فهو في الحالتين خاسر!

(ج) أمَّا المؤمن؛ فسواء أذن الله بنجاح مساعيه، أو خابت لتقصير منه أو ابتلاء من الله، فهو في الحالتين أفلح؛ لأنَّه تعبَّد لله ببذل الوسع، ولأنَّه يرجوه احتسابًا، فعاقبته في كلٍّ خير في ميزان الله -جل جلاله-.

(د) فالله يوفق المؤمن خاصَّة لحسن التعامل مع كل السياقات بما يضمن حسن عاقبته في المحنة والمنحة علىٰ السواء، في حين غير المؤمن لا يوفق لذلك ويوكل لنفسه، فعاقبته خسران في كل الحالات. وهذا الفهم هو مضمون تقريره ﷺ: «**عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ**، (أي: في المحنة والمنحة)، **وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ**؛ (لأنَّه الذي يفقه كيفية التعامل مع أمر الله كما يريد الله): **إنْ أصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ**، (أي: كان تعامله بالشكر هو الخير، وليس السراء في حد ذاتها)، **وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكانتْ خَيرًا لهُ**، (أي: تعامله بالصبر هو الخير وليس الضراء نفسها»).
[مسلم].

محاذير عند التخطيط:

(١) الانشغال بالمستقبل عن الحاضر:

أين ترىٰ نفسك بعد عشر سنوات . . .؟!

«**خطط لمستقبلك**».

«**الخطة الخمسية**»، «**الخطة العشرية**» . . . **إلخ.**

قبل تعيين الإشكالات الكامنة في تلك التوجهات الحياتية، نتوقف عند دلالة مفهوم التخطيط الذي نعنيه في هذا التصور. التخطيط من حيث المبدأ يُراد به التنظيم، والتنظيم بديهيًا لا يمكن أن يكون إلا لمَا هو موجود أو قائم، مع تطلّع موزون لما يترتب عليه أو يستتبعه. تمامًا كما لو أنك في الدور الأرضي في بناية ما وتتطلع للوصول للعاشر، وكل دور له متطلباته التي لن تعرفها حتىٰ تبلغه. فمن حسن الإعداد أن تخطط بإتقان لعبور الأول، واضعًا في الاعتبار تطلعك للوصول للثاني. أمَّا أن تظل في تخطيط وحسابات وتوقعات وتخمينات حول العاشر وأنت بعد في الأول، فهذا لم يعد تخطيطًا ولا تطلعًا في محله.

ذلك أنَّه بقدر ما تؤدي الغفلة عن الرؤية الكلية لتخبط خطوات السير المرحلية، كذلك التطلع للطريق عن بعد ليس كالسير الفعلي فيه. الطريق لا يتضح إلا لسالك. فبدون التركيز في حاضرك لن يمكن لرؤيتك المستقبلية أن تنضج أو تتضح. وإذا لم تقدِم علىٰ الخطوة الأولىٰ ولم تبلغ الدور الأول في البناء، فلن يمكنك حقيقة تصور ما بعده؛ لأنَّه ليس من أساس تبني عليه تصورًا صائبًا. وأي إغراق في تصورات الدور العاشر ومتطلباته وأنت بعد في الأول، لا تعدو كونها تخمينات وضربًا في عماية.

إذن: الإشكال الأول في هذه التوجهات بعيدة المدي؛ أنَّها كثيرًا ما تحيد بالتخطيط عن تنظيم الحاضر الفعلي للانشغال بما سيكون عليه المستقبل، وما ستصير إليه النتائج، وما سيوافقه من توقعات ويلائمه من سياقات. وإنَّه

لمن العبث الواهم أن تصرف فكرك وطاقاتك وجهد في التخطيط التفصيلي ممتد الأمد، ليس فقط لأنَّك لا تضمن عيش تلك السنوات الخمس أو العشر، (أو اليوم التالي حتىٰ!)، بل المؤثرات حولك ستبقي علىٰ حالها.

أضف إلىٰ هذا أن ذلك التوجه في مجمله وآثاره النفسية علىٰ المدىٰ البعيد، مناقض لمفاهيم قِصَر الأمل وذكر الآخرة في مرجعيتنا. إن نفسية (طول الأمل) التي تغرسها تلك التوجهات تحوّل المستقبل من استبشار بغد جديد تستزيد فيه خيرًا وعملًا صالحًا، إلىٰ هاجس مقيم عما سيقع في الأسبوع التالي والشهر المقبل والسنة الجديدة، وكم ستدخر؟! وماذا تصرف؟!وماذا لو احتجت كذا؟! أو لم يتيسر كذا؟! وماذا لو كبر الصغيرة؟! أو مرض الصحيح؟! ومتىٰ ينتهي هذا المشروع؟! وماذا لو استغرقت أكثر من «المخطط»؟! وماذا لو لم يسعفك العمر لإتمام قائمة الإنجازات؟! وقائمة لا تنتهي من (اللّو والسّوف والإذا) . . . ! فتعيش حياتك لاهثًا من الجري المستقبلي وراء ما لا يتسع وقتك للاستمتاع به أو معايشته الآن! وتتحول أيامك لقفزات أرنبية من محطة إنجاز للتي تليها، في سباق محموم لا مبدأ له ولا منتهي.

ومن هنا قد يغرق كثيرون في أحلام اليقظة وأوهام العظمة المنتظرة، في محاولة لا إرادية للهروب من مشقة العمل الفعلي، والتركيز في بناء الحاضر حتىٰ تبلغ به المستقبل المتطلع. فالتطلع للطريق أيسر بكثير من السير نحوه، ونشوة التخطيط للتخطيط أكثر جاذبية من ملل الصبر علىٰ الصغير حتىٰ يكبر، وعلىٰ الطريق حتىٰ يتضح، وعلىٰ الرؤية حتىٰ تنضج، وعلىٰ الكتاب حتىٰ ينتهي، وعلىٰ الآيات حتىٰ تحفظ، وهلّم جرًّا. وإن لك أن تطمح لأعلىٰ درجات الإنجاز والنجاح التي ترجو أن تبلغها، لكنها لن تتعدىٰ التخيلات ما لم تشرع في السير الفعلي تجاهها، بأي خطوة مهما صغرت، وفي ضوء الرؤية المتاحة في سياقك الحالي مهما بدت غير مكتملة.

لذلك كان من فقه سلفنا الصالح مقولة «**سيروا إلىٰ الله عُرجًا ومكاسير، فإن انتظار الصحة بطالة**». عيْن البطالة هو في انتظار المستقبل المثالي أو اللحظة المواتية أو التفرغ الكبير أو المساحة المعتبرة أو الظروف الملائمة، ويمضي الوقت آكلا معه من أعمار المنتظرين!

أما التفاؤل الحقيقي في عقيدتنا فهو الجمع بين أن تعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا ولآخرتك كأنك تموت غدًا، كليهما معا، لأن أحدهما يصب في الآخر ويعين عليه. لكننا اتكأنا علىٰ نصف المعادلة الأول حتىٰ رزح تحت وطأة ثقلنا، فلا صلحت دنيانا لأننا لن نعيش حقيقة أبدًا، ولا أدركنا آخرتنا فعلًا لو متنا غدًا . . . !

«أتدري كيف يسرق عمر المرء منه؟ يَذْهَل عن يومه في ارتقاب غَدِه، ولا يزال كذلك حتىٰ ينقضي أَجَله، ويده صِفر من كل خير، إننا نتعلم بعد فوات الأوان أن قيمة الحياة في أن نحياها: نحيا كل يوم منها وكل ساعة»[(١)].

(٢) هواجس الضمانات:

والإشكال الثالث في ذلك التوجه يكمن في هاجس (الضمان) الذي تسلل إلىٰ نفسيات المتعايشين به. فتجدهم يضعون القواعد للمستقبل ويتكلمون بنبرة ليست لمنظمين متفائلين مستعدين، بل لضامنين واثقين من حساباتهم وأرقامهم . . . ! ومع أن الله- جل جلاله- قرر: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسُۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان:٣٤]، لكننا بهواجس المستقبل المحمومة نقول لله إنَّنا ندري ماذا نكسب غدًا! ونضمن أننا سنعيش حتىٰ ننهي الخطط الخمسية والعشرية، وننفق ما أمضينا أعمارنا في ادخاره وتكديسه، ونثق أن العمر سيمتد بنا حتىٰ نؤدي قائمة الأولويات المؤجلة ونعتقد أرواحنا لن تشيخ وهي تنتظر التحرر من أغلال القوالب السائدة والواجبات التي لم يكلف الله بها عباده، بل ابتدعوها من

(١) «جدد حياتك»: محمد الغزالي.

عند أنفسهم وليتهم ابتغوا بها رضا الله! فمن دوّامة الدراسة، إلىٰ العمل، إلىٰ الزواج، إلىٰ الأبناء، ثم الحلقة المفرغة من المدارس الدولية، والخروجات العالمية، والإعداد الأسطوري لنوابغ الزمان، شهرزاد وشهريار ...! ليعود الأبناء فيكرروا آثار آبائهم، وتفني أعمار الساعين في جمع ما لا ينفقون لينفق من لا يشهدون!

إنَّنا نتعامل كأنَّنا بالتخطيط (نصنع) أقدارنا حقيقة. ونخشىٰ أن نخطو أي خطوة نحو مستقبل (مجهول)، أي: بغير ضمانات محسوبة، مع أن كل مستقبل هو في الحقيقة مجهول مهما حسبنا حساباتنا؛ لأنَّه ليس ثمة ضمانات علىٰ الحقيقة مهما توهّمنا ذلك. الضمان الوحيد هو ما وعد الله به من الحياة الطيبة للمتوكل الحق، وعاقبة الخير للمؤمن الحق. وغاية ما في التخطيط كما سلف هو (التعبد) لله وليس (التأمّر) أو (التشرّط) عليه -جل جلاله-.

وقد نبهنا المصطفي ﷺ للفارق بين استبشار العامل بعواقب سعيه وهواجس الضمان، بمعيار (المقاربة والسداد). فالله- جل جلاله- لم يتعبّدنا بضمان المستقبل أو نجاح الخطط، وإنَّما بصدق التوجه وإتقان الحاضر. «**استقيموا ولن تُحصوا، وإنَّما سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنَّه لن يُدْخلَ الجنَّةَ أحدًا عَملُهُ**»، قالوا: «**ولا أنتَ يا رسول الله؟!**»، قال: «**ولا أَنا وإلَّا أن يتغمَّدَنيَ الله منهُ برحمةٍ**». ومفهوم الوصية النبوية أنه لن يستطيع أحد تحمل أمانة الوجود وأدائها بحوله وقوّته وحده **(لن تُحصُوا)**، وإنَّما بعون الله -جل جلاله-. ولن يبلغ أحد أداء حقه- جل جلاله- علىٰ كل حال، فلذلك غاية الأمر السداد، أي لزوم المرجعية الربانية والنبوية: والمقاربة: أي التوسط بين التشديد علىٰ النفس حتىٰ ينفّرها التعنّت أو التساهل معها حتىٰ يفسدها الدلال؛ **(أبشروا)** برحمة الله- جل جلاله- وفضله، فليست العبرة بمن استكثر وغرق في دوامات الأشغال، وإنَّما بمن صدق وأخلص ما استطاع ليصفو سعيه لله.

يقول الله- جل جلاله- في (سورة يوسف) حين نجح في ضم أخيه بنيامين إليه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن

يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦] ففي حسن تدبير الله لنا ما يغنينا عن كل الهواجس والقلق. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فلا منتهىٰ لبرِّه وإحسان تدبيره لعباده -جل جلاله-، لمن توكل عليه بقلب موقن. ولعلك تحسب الخير في أمر فتقدم عليه، ثم لا تأتي النتائج علىٰ ما تحب وترضي، وأو تحجم عن آخر ثم يبدو لك من النتائج ما يجعلك تحسب أن خيرًا فاتك. كل هذه الهواجس لا تطوف بقلب المؤمن الحق؛ لأنَّ التوكل في حقيقته، هو ميثاق عهد بإخلاص العبد في السعي واجتهاده في المقاربة والتسديد، والثقة والمطلقة من بعد في التدبير الإلهي واللطف الرباني، مهما تكن النتائج، وإن خفيت الحكمة عنّا حتىٰ حين.

(٣) الخلاص من هذه المحاذير يكون بتفعيل نفسية:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠].

تأمل الدقة القرآنية في قوله- جل جلاله- ﴿مِّن قُوَّةٖ﴾: المطلوب أن تكون مستعدًا بما تستطيع الآن، وتسدد في التخطيط لما يحضرك من قوة بين يديك، وعلىٰ السائر بالتيسير. الخطوة تدل علىٰ أختها، فتوكل علىٰ الله واخط الخطوة التي تبيّنت، يتضح ما بعدها في حينها. خذ الحياة بقوة (الآن)، فأنت عند الله بما عليه تموت وعليه تبعث، وليس لك من ذلك إلا ما أحسنت الآن، ثم ما نويت فأخلصت. وما أشقىٰ من يعيش منتظرًا أن يحيا ...!

(٥) وقود سيرك في الحياة: نفسك

(١) بعد بيان ما سبق من ملامح السير الأساسية لكل عابر في هذه الحياة، ممَّن يرجو الله والدار الآخرة، بقي أن نلتفت للملمح الذي يجعل لكل سائر أثره الخاص وبصمته المتفردّة.

(٢) وإذا كان صاحب المكان هو الذي يحدد لموظفيه أدوارهم الوظيفية، فما الوظيفة التي حددها لك خالقك في منظومة الوجود؟

(٣) الجواب الأساسي الذي يتبادر للذهن هو: وظيفة العبودية لله -جل جلاله-.

(٤) بناء عليه: ما مفهوم العبودية لله -جل جلاله-؟ الجواب في إيجاز يخدم هذا المقام خاصة: أن تتصرف علىٰ أرض الله، حيث يجعلك الله، كما أمر الله، لوجه الله.

(٥) فإذن، كل عمل تقوم به علىٰ أمر الله داخل بالضرورة في مهامك الوظيفية.

(٦) وكأي وظيفة، تتنوع الأدوار والأحجام والمسؤوليات. هذا التنوع تتداخل عدة عوامل في تشكيله، منها الموهبة الفردية أو الطابع الشخصي. لذلك من الاختزال أن يُنظر للموهبة علىٰ أنها العامل الأوحد المحدد لكل فرد مساره الخاص في الحياة.

مفهوم الموهبة وتجلّياتها:

(٧) والموهبة ليست علىٰ الحقيقة هيلمانًا باهرًا أو مفرقعات صاخبة أو عصًا سحرية، وإنَّما هي ببساطة: مَلَكة أو مَلَكات مُعيّنة يمكن تصريفها في وجهة ذات نفع متعد للغير. والمَلَكة: هي أيّ أمر أو مهارة أتقنتها حقًّا بحيث مَلكتَ مَفاتحها وبالتالي تتقنها وتبرع فيها حال أدائها.

(٨) وفق هذا التعريف، لعله يدهشك كّم الأعمال التي يمكن أن تصنف علىٰ أنها مواهب وإن لم تكن رنانة جماهيرية! وكذلك كمّ المواهب التي يمكن اكتسابها بالجدية في الإتقان والمنهجية في التعلم.

(٩) فما هي العوامل التي تشكّل من موهبة الفرد وملامح شخصيته، ومن ثَمَّ توجه اختياراته في الحياة؟ وما مدىٰ حضور الدين أو نور التشريع في بيانها لصاحبها؟

مدىٰ اجتهادك في إنضاج مداركك:

أول ما يحكم نضح المدارك هو العمر من جهة، ثم البناء المنهجي للفرد من جهة أخرىٰ، بما يتفق مع كل مرحلة عمرية. ومهما فرط من بناء المرء في سنوات عمره الأولىٰ التي يكون غيره فيها قائمًا عليه، فمداركه تصير مسؤوليته المباشرة منذ بلوغه السن التي تمكنه من القيام علىٰ أمر نفسه.

ومن الظواهر العجيبة تراخي الكثيرين خاصة الشباب في تعهد ذواتهم بالتهذيب وطلب العلم واكتساب المهارات الحياتية المختلف، متعللين بأنَّهم لا يعرفون بعدُ ما هي موهبتهم المحددة ليعملوا علىٰ تنميتها! والقاعدة الصائبة هي البدء بعمران النفس وإعدادها بالثوابت اللازمة لأي مخاضة في الحياة، ثم مع التقدم في السير والعمر تبدأ ملامح التوجه المحدد، أو التوجهات المتعددة، تتضح تلقائيًا. وذلك أشبه ما يكون بقيامك بلبس الحذاء كتمهيد أساسي لأي إقدام علىٰ الخروج، بغض النظر عن الوجهة المحددة تاليًا.

طبيعة السياقات والخبرات التي تتعرّض لها:

وتحكمها درجات الأعمال من حيث الفرضية العينية أو الكفائية أو الاستحباب. وبدون مراعاة هذه الأولويات سيقع صاحبها لا محالة في كثير من إشكاليات التخطيط والسعي المذكورة أعلاه[١].

فلتسعك نفسك:

لنرفع هذا الشعار في مواجهة ما نشهده اليوم علىٰ ساحة وسائل التواصل الاجتماعي من فورات التقلبات النفسية، وشدة الحرص علىٰ جلب الاهتمام والتعاطف والإعجاب، بمشاركة كل نفسية يمر بها صاحبها علىٰ الملأ. وليس

(١) للتفصيل في مراحل بناء الذات وأولويات كل مرحلة، راجع بند «مراحل بناء الذات» في الفصل الثاني من كتابي «إضاءات علىٰ طريق بناء الذات».

القصد نفي أي درجة من درجات الشعور الإنساني أو حتىٰ فوضويته في بعض الأحيان؛ فإنَّ هذا لا بُدَّ وارد وكلنا نمر به، لكن القصد ألا يكون هذا الانفلات العاطفي هو الطبع الرئيس، ولا هذه الدراما الجماهيرية هي مبلغ همّ الواحدِ منا! لأنَّه ببساطة لا وقت لذلك، وليست هذه النوبات النفسية والتقلبات القلبية ممَّا يُتعبد بها لله بذاتها، وإنَّما بكيفية التعامل الصحيح معها، بما يعني، ألا نتبلد شعوريًا من جهة وأن نخشوشن نفسيًا أكثر من جهة أخرىٰ، وذلك إذا كنا جادين في أن نكون حلولًا بذواتنا وأممًا في أنفسنا. فيلملم كل منا شَتات نفسه بنفسه، وإذا تعثر فلا يُطِل العَثْرة ولينهض سريعًا؛ وليعلم كل ذي ابتلاء أنه ليس متفردًا في البلاء، وأن بلاءه ليس نهاية العالم، وإنَّما نهايته هو وحده إذا قرر أن يكون كذلك.

وفي مقابل تلك الجماهرية في العواطف، تجد الغرق في نوبات الاكتئاب والإحباط والحسرة؛ حتىٰ يقعد الإنسان عن كل خير، وهذا كذلك ممَّا لا يُتعبد لله به وليس حلًّا لأي كان، وإنَّما هي صور هروب متسترة! فثَمة فارق بين صور التفريغ العاطفي التي مهما طالت أو أراحت مؤقتًا لا تحل شيئًا، والسعي الجاد في حل مشكلة ما لا بُدَّ من مواجهتها مهما طال التهرب منها. والهرب من ثقل مسؤولية هذه الحياة وهذا العمر لن يرفع عنك عاقبة المحاسبة عليهما.

وإذا كان من المشروع اتخاذ صحبة للتعاون التثبيت، فلا بُدَّ من التنبه إلىٰ أن الصحبة إنَّما تراد في الله، وليست بديلًا عنه ولا ملاذًا مشتركًا معه -جل جلاله-. ذلك أنه مهما يكن من أمر؛ فالله له، ولا رفع لضر أو اجتلاب لنفع حقيقة إلَّا به وحده. لذلك «استعن بالله ولا تعجز»، كما في الحديث وليكن الله ملاذك الأول قبل سماعة الهاتف أو تدوينات الفيسبوك، ومن كان الله ملاذه الأول؛ لم يحوجه لغيره، بل إنَّه- جل جلاله- هو الذي يوقف لك الشخص المناسب ليشير عليك بالمشورة المناسبة، بدل أن تذهب توزع خبابا نفسك علىٰ هذا وذاك. وليترفق علىٰ ساعٍ للشكوىٰ أو طالب

للفضفضة، فما منا إلَّا وهو ذو هم، ولذلك من الخير أن يكفي كل امرئ أخاه همه ولا يزيده عليه، وأن يقتصر قدر المستطاع علىٰ مشاركة دواخله عند حاجته للمشورة، لا لمجرد الشكوىٰ أو مجرد المشاركة.

نصف قلب!

وإذا كنت ترجو الله وحده؛ فلا تعش بنصف قلب، إذا أردت وَصْلا فَصِل في وضوح، أو شئت قطعًا فاقطع في أدب. إذا عزمت فتوكل وإذا خُيِّرت فاستخر واختر. إذا كنت ستعمل؛ فاعمل أو كنت ستغادر؛ فغادر. تريد طلب العلم؛ اذهب واطلب، أو تريد رياضة الجسم؛ انزل وامشِ. خذ الحياة بقوة واتخذ القرارات بحسم، وامضِ في عمل ما تريد عمله، بدل الدلال والتكاسل ثم الشعور بالرِّثاء لنفسك أو السَّخَط عليها. إنَّك إذا لم تنهض بنفسك لنفسك اليوم، فلن ينهضك أحد ولن يدفعك شيء، لا غدًا ولا بعد غد ... ولا أبدًا!

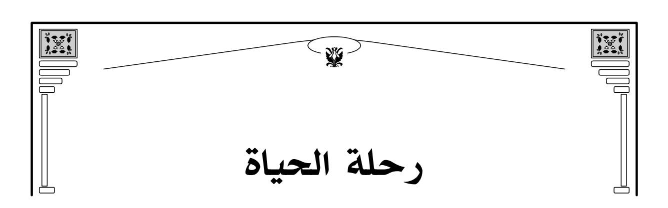
ملتفت لا يصل:

من مواعظ التابعي الجليل عطاء بن رباح، لهشام بن عبد الملك:

«اتق الله في نفسك يا أمير المؤمنين! واعلم أنَّك خُلقت وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك. ولا والله! ما معك ممَّن ترىٰ أحد».

فليجعلها كل منا نَصب عينيه، وليقبل علىٰ نفسه إقبالًا صادقًا جادًا مستعينًا بالله، وليدع بشاشة الإيمان تخالط قلبه، وأشواق الحياة الربّانية تعانق روحه، ثم ليلزم ذلك، ولا يلتفت.

فملتفت لا يصل ...!



رحلة الحياة

بين الإيمان والعمل
والدعوة الإصلاح

أحمد سالم(*)

«إنَّ ترتيل سُبع القرآن في تهجد قيام الليل، مع المحافظة علىٰ النوافل الراتبة، والضحىٰ، وتحية المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودبر المكتوبة والسحر، مع النظر في العلم النافع والاشتغال به مخلصًا لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمه، وزجر الفاسق، ونحو ذلك، مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر، وكثرة الدعاء والاستغفار، والصدقة وصلة الرحم، والتواضع والإخلاص في جميع ذلك؛ لشغل عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين».

[الإمام شمس الدين الذهبي]

عندما أمسكت بالقلم متهيئًا لكتابة هذه الورقة، دارت في ذهني أسماء الحقول التي يتصدىٰ الناس للكتابة فيها، في أيامنا هذه، هل أكتب في

(*) كاتب وباحث مصري، له عدد من الكتب والدراسات والمشاركات البحثية، منها: صورة الإسلاميين علىٰ الشاشة.

السياسة، أم في الفكر، أم في الأدب، أم هل أقص عليك هنا شيئًا من التاريخ، أو شيئًا آخر أوظف فيه شذرة قرأتها هنا وورقة قرأتها هنا؟

لا يخلو الأمر من نوع من الانتقاء النخبوي يفرض نفسه علىٰ الناس بلا شك، دوامة معيارية صامتة تجذبك إليها، تفرض عليك بقوتها الناعمة موضوع كتابتك، هناك شيء يشبه ماركات اللباس العالمية، (براندات) للكتابة لا بُدَّ أن تسلكها حتىٰ لا يزري بك الناس باعتبار إنك (لوكال) يا عم الحاج.

ثم سألت نفسي:

لماذا لا يكتب الناس عن الإيمان؟

لا؛ لا أقصد تلك الكتابة الفلسفية أو اللاهوتية، أو تلك الكتابة الروحية الملحقة في فضاءات تصوف المتشدقين بالعبارات الشعرية؛ فتلك خدعة أخرىٰ تريد أن تبقيك داخل حزام نخبة الكتاب المختارة.

أنا أقصد الإيمان الآخر، إيمان الجوامع والصوامع والدراويش، ومُطعمي الطعام، المصلين بالليل والناس نيام.

إيمان أرصفة المشافي، وعمار البيت والناهلين من زمزم، والواقفين بطابور الروضة.

إيمان زوار القبور، الساعين علىٰ الأرامل والأيتام والمساكين.

إيمان أهل الله وخاصته ممَّن رزقهم الله العمل ووقاهم شر الجدل.

لماذا لا يكتب الناس عن هؤلاء؟

ربما يخشىٰ الكُتاب من وصمة الدروشة، أو أن يعدهم الناس وعاظًا قد سأم الناس منهم.

ربما يرون محنة التدين التي تغمر الناس في أيامنا؛ ستزري بهم أن كلموا الناس عن هذا.

لا أدري، لكن الذي أعلمه جيدًا: أنَّ الأرض تعج بالذاكرين والذاكرات أهل العمل الصالح عمار جوف الليل، من لم تشغلهم فتن الدنيا وأمواجها عن طلب الله والدار الآخرة.

ربما أزرىٰ بهم أهل الأحاديث الكبرىٰ، والهموم العظمي، والانشغالات الجسيمة لكنَّهم لا يبالون، تراهم حول البيت خشعًا أبصارهم، قد فرغوا من الدنيا وفرغت منهم.

عن إيمان هؤلاء أريد أن أتحدث معك.

-الصلاة، والزكاة، والصيام، وزيارة البيت الحرام.

-قراءة القرآن، وصلة الرحم، وإطعام الطعام.

-نفع الناس، والسعي علىٰ الأرملة واليتيم والمسكين.

-عيادة المرضي، واتباع الجنائز.

-دوام ذكر الله ودعائه، وتعلق القلب به وتوكله عليه.

هذه أوراد النفس، وزاد الروح، ودواء نصب الأيام، سعادة الدنيا وزينتها وجنتها، وطريق الآخرة وسعادتها وجنتها أيضًا.

إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لن تجد في الوحي شيئًا يساق مثالًا علىٰ العمل الصالح وشعب الإيمان كهذين، ولن تجد يوم القيامة شيئًا ينفعك كهذين، ولن تجد شيئًا يستهين الناس بمنزلته في إصلاح الأمم وإقامة الدين كهذين.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [**الحج**: ٤١].

إنه السير إلىٰ الله -جل جلاله-، والاعتبار في السير إلىٰ الله، إنَّما هو بسير القلب، وربما يسير الجسد أميالًا، فقط ليتحرك بالقلب خطوة واحدة للأمام.

ولم أرَ لحفظ الإيمان، وحياة القلب، وسلامة الصدر واللسان = مثل إدامة ذكر الله ودعائه والثناء عليه، ماشيًا، أو قائمًا، أو قاعدًا، أو علىٰ جنبك.

ولا يميت القلب مثل الذنب بعد الذنب، ولا يحيي مواته مثل الطاعة بعد الطاعة، كأنما تدق حجرًا قاسيًا بمعول دؤوب حتىٰ تتفجر منه الأنهار.

ولا شيء أسرع بينة من ضعف الإيمان، ولا أدل عليه من التثاقل عن الصلاة، والنفرة من المكث في المسجد، وطول الغفلة عن الذكر، وهجر القرآن.

وكما يعلو القلبَ السوادُ نكتة بعد نكتة = فإنَّه يزول عنه سجدة بعد سجدة، ولربما تجده وهو قاس مظلم، ثم لا يلبث أن يلين ويعلوه نور الله.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

لكن الناس لا يصبرون علىٰ هذا الطريق، وسرعان ما تتخطفهم الشياطين قاطعة طريق سيرهم.

-هجر القرآن.

-هجر الجماعة في المسجد.

-تضييع رواتب الصلاة والصيام.

-غياب الصدقة ممارسةً متكررةً ومنهجيةً.

-جفاف اللسان من الذكر.

-سوء الصحبة أو الخلو من الصحبة الصالحة.

من العبث بعد هذا أن تشتكي همًا، أو ضيقًا في الصدر، أو حرمانًا للتوفيق، أو معصية غالبة.

أنت من فتحت نوافذ قلبك للهوام تعشش فيه.

عندما يقع البلاس أو تُقبل الفتنة = ينتصب الشيطان؛ فهي ساحة معركته معك، فإما أن يجدك آخذًا للأهبة معدًا للعدة = وإما أن يجد خصمًا سهلًا قد بدت مقاتله.

والطاعة درع القلب، لا يتركها العبد إلا بقدر ما يريد أن يدع صدره عاريًا لا يحجزه عن السيف شيء.

وإن الباب الأعظم للشيطان ليس أن تقع في الذنب، الباب الأعظم للشيطان هو في أن تهجر الطاعة وتصير الذنوب لك حالًا دائمة.

فالمشكلة الكبرىٰ في الذنب ليست هي نفس الذنب، ولكن أن يتركك الذنب في حالة وهاء نفسي، يختلط فيها احتقار النفس بتخلي حفظ الله عنك = ممَّا يقود للاسترسال في ذنوب شتىٰ، ويقود للمصيبة الكبرىٰ حقًا = وهي ترك الطاعات. ولعل هذه هي الأزمة العظمي التي تتسبب فيها كبائر الذنوب، أنها تقود إلىٰ هذا أسرع بكثير.

فمن أسوأ عقوبات المعاصي: أنَّها تفقدك الثقة بنفسك، وتحدث خللًا في جهازك المناعي. وهذا هو الأصل الذي يندرج تحته ما يذكر من أنَّ من عقوبة الذنب: الذنب بعده. فأنت تكونُ بعد الذنب في حالة وهاء نفسي وفقدان للثَقة، وهذه الحالة هي مفتاح القنوط.

لكنَّها ليست حالة لازمة لا فكاك منها، وإلَّا لَمَا قال ﷺ: «**وأتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسَنَةَ تَمْحُهَا**».

ومن أعظم الوسائل المعينة علىٰ استعادة الثقة بعد الذنب: التوبة، والاستغفار، والفزع إلىٰ الصلاة، وقراءة القرآن. وإن عدت للذنب = عد ثانية لهذا العلاج؛ فإنَّه: « **لَنْ يَمَلَّ اللَّهُ حَتَّىٰ تَمَلُّوا**».

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وفي الخبر أن النبي ﷺ قال: «**لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ، لخَلَقَ اللهَ خَلْقًا يُذْنُبِونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**».

فما أعلمك إيَّاه: هو أن تصنع لك مسارًا ثابتًا للطاعة، لا يتأثر بوقوعك في الذنب، واحرص علىٰ عدم الاسترسال في ذنوب أخرىٰ حتىٰ ولو ابتليت بذنب أصررت عليه لا تطاوعك نفسك علىٰ تركه، فلا تنتقل من خانة إلىٰ خانة، لا تنتقل من خانة الإذناب بلا بإصرار إلىٰ خانة الاسترسال في الصغائر، ولا تنتقل من خانة الاسترسال في الصغائر إلىٰ خانة الوقوع في كبيرة، ولا تنتقل من خانة الوقوع في كبيرة إلىٰ خانة الذي لا يبالي أي محارم الله انتهك، حتىٰ يُختم له بالكفر، والعياذ بالله . . . !

دائمًا احرص علىٰ الوقوف بالخسارة عند حدها الأدنىٰ واحرص علىٰ بقاء مسار الطاعة ثابتًا لا يتأثر بمسار المعصية، فإذا كنت تحرص علىٰ الجماعة ولك ورد من القرآن والذكر = فلم تترك شيئًا من هذا إذا وقعت في ذنب؟ إنَّك كمن وجد في بيته ذبابة ففتح كوة الحائط لتتسرب منها سائر أنواع الهوام، فلا يلبث الحائط أن يسقط ويتهدم البيت كله.

ثم إنِّي أحذرك أن تكون ممَّن يستبشع ما يستبشعه الناس من ذنوب الشهوة مثلًا، ثم إن لسانه ليسترسل في أعراض الناس، وإن قلبه ليحمل الضغائن والأحقاد وتعشش فيه سموم القلوب.

مهما غلبتك نفسك لا ينبغي أن تنقطع عن ثوابت العمل اليومية، والتي هي بمثابة زادك الروحي، أعني: القرآن، والصلاة، والذكر، والدعاء، وتذاكر كلام النبي صلىٰ عليه وسلم وسيرته وسير أصحابه، وتربية النفس علىٰ مكارم الأخلاق.

وبعض الناس ربما أنكرت نفسُه أنَّه يلازم هذه الثوابت، ثم إنَّ قلبه لا يلين، ونفسه لا ترتدع عن سقطات الذنوب المتتابعة، والحق: إنَّ العلم

والعبادة، ولين القلب، وملازمة المساجد، ووصال القرآن، وسائر شُعب الإيمان = لا تعطيك حلاوتها إلَّا مع الصبر والمجاهدة، وكثرة القرع علىٰ بابها. وأكثر الناس يقرع ثلاثًا، ثم ينصرف، فكيف يصيب حلاوتها؟!

سياسة النفس لا تكون إلا بتوفيق الله، فلا يكلك الله إلىٰ نفسك، ومن توفيق الله لك أن يرزقك إطالة النظر في محاسبتها وتلمس مواطن قوتها ومواطن ضعفها.

من حرمان التوفيق، أن تطحنك الحوادث فلا تجد وقتًا لتقف مع نفسك.

معالجة النفس = مفتاح النجاة.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ **[العنكبوت: ٦٩]**.

إن كمالك في نقصك ...

وليس ذلك من جهة أنك تنقص، وإنَّما من جهة أنك تجاهد في علاج النقص.

صدق البلاء في معركة الهوىٰ، هذا هو شرف الإنسانية.

وشجرة العنب لا تحمل، ولا تنتج ثمرتها المعتبرة؛ إلا في السنة الخامسة. كل عام من هذه الأعوام الخمسة يتدخل الزارع؛ ليقلم فروع العنب، ولا يُبقي إلَّا أقل القليل من الأغصان النابتة، لكنْ هذا التقليم السنوي يَزيد من قوة الأغصان الباقية حتىٰ لا يبقي إلَّا أقواها، فيحمل الثمار الناضجة تملؤها العافية.

وكذا:

-تزكية الرجل لنفسه؛ يزيل الآفات منها.

-وتربية العالم طلابه؛ يستصلح منهم ويُبعد.

-وسنة الذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

-وامتحان الله للمؤمنين؛ يميز الخبيث من الطيب.

كل ذلك يزيد في قوة الزرع، ويمحصه، وينفي عنه خبثه.

انتفاش الأغصان يغر، وكثرتها تصير لها سطوة وسلطة، وتصير محرابًا يُطلبُ رضاه. وإذا حدتَّ عن الطريق، وأعجبتك الأغصان المنتفشة فلم تهذبها، وصارت تأسرك كثرتها = فلا تحزن بعد ذلك إذا لم تحمل ثمرًا يطيب للآكلين، ولا تطلب منها ظلًا؛ فإن ظلها مرعىٰ الهوام، ولا حتىٰ هي تنفعك تشعل بها نارًا، فهي حينئذ ذات دخان خبيث.

إن التعامل مع مجموعة متتالية من التحديات الصغيرة والجزئية علىٰ مدار اليوم، فالأسبوع، فالشهر، فالعام = هذه هي حياة الإنسان، وطريقته وقِيمه في التعامل مع هذه التحديات: هي ما يشكل مصيره. وهذا بطبيعته يحتاج إلىٰ حضور ذهن، وجهاد نفس، وسعي متواصل لتحيل المهارات والمعارف التي تعين علىٰ التعامل مع هذه التحديات، مع دوام الاستعانة، وتعليق القلب بالحي القيوم.

هناك بلا شك طريقٌ أسهل من ذلك كله؛ وهو: أن تكتفي بالثرثرة. ولكنَّه ليس طريق الذين يُنادَون في كل يوم: حي علىٰ الفلاح.

هذا عن الإيمان ... فماذا عن العمل ...!

هل أتاك نبأ الأسطول الروسي، والحشود الصينية، والتهيئة الإعلامية، والتحذيرات الأمريكية، والمشاورات الألمانية؟

هل رجف قلبك؟

هدير الهواجس يطحن قلبك؟

طوفان الخيالات المرعبة يكاد يهلكك؟

كم مرة فكرت في الفرار من هذه البقعة الملتهبة من العالم؟

أنا لا ألومك، فسيل الأخبار والمعلومات الذي يحيط بنا من كل جانب = يكمن فيه إرادة الإصابة بهذا التشويش عينه.

لذلك قررتُ أن أكتب لك أنت بالذات هذا المقال.

هل يمكنني أن أطلب منك أن تهدأ تمامًا؟

اعلم يا سيدي الكريم! أنه علىٰ أي جوانبها تدور الرحىٰ؛ فإنَّها لا تدور إلا لتُلقي برأسك علىٰ عتبة مولاك، صابرًا علىٰ البلاء، شاكرًا علىٰ النعماء، مستغفرًا من الذنوب، مطيعًا مفتقرًا ترجو رضاه والجنة.

إنَّ كل تقلبات الدنيا وأيامها ليس لها غرض وإلَّا اختبار جانب العبودية فيك، غنيًا كنت أم فقيرًا، معافىٰ أم مبتلىٰ، مريضًا أم صحيحًا، في بقعة هادئة آمنة من العالم، أم في الجانب الملتهب المستعر منه.

تختلف الأسئلة والامتحان واحد ...

امتحان العبودية، امتحان أداء الذي عليك، امتحان فعل ما يجب عليك فعله، امتحان قيامك بأمر الله ما استطعت في السراء والضراء، علىٰ المغنم والمغرم، والعافية والبلاء.

ليس مهمًا ما سيكون في الغد، المهم هو كيف ستصنع في هذا الذي تلقاه في الغد، ومن رزقه الله القيام باستحقاقات العبودية؛ فهو الفائز السعيد، سواء كان مجندلًا يتضرج في دمه، أو مات في فراشه سليمًا معافىٰ لم يغادر الدنيا حتىٰ سئمها.

احفظ هذا؛ فإنِّي أرجو إن وعيته؛ أن ينجيك طول أمل يُدخل عن الطاعة ويصرف عن الآخرة؛ فإنَّ طول الأمل يقع في الخير والشر سواء.

والأصل الذي ينبغي أن يكون بيِّنًا بين العين والأنف: أنَّ هذه الأمة يُصاب منها لكنَّها لا تُستأصل، وأن عاقبة قضاء الله كلَّه خيرٌ، وأنه قد قضىٰ الله لنا بدعاء نبينا أنَّه لا تزال طائفة من المسلمين علىٰ الحق، لا تُستأصل شأفتهم، ولا يضرهم من خذلهم، وأنَّه لن تموت أُمة حتىٰ تستكمل أجلها ورزقها، وأنَّ الله أمرنا بالعمل لا نتخاذل عنه، ولو قامت القيامة وبَيدِ أحدكم فَسِيلةُ خير؛ فليضعها موضعها، لا يعجز ولا يكسل، ولا يُقعده عن ذلك أن الحياة أُنُف.

وأن غمسةً في الجنة تُنسي كلَّ بؤس وشقاء ...

هناك خيار شيء اختارته الصحوة الإسلامية بشقيها السلفي والإخواني، بقصد حسن أحيانًا وبقصد شغل أذهان جندها أحيانًا أخرىٰ، أعني خيار إسلام عقول وقلوب أتباعها لسيل الأخبار اليومي تحت ذرائع فهم الواقع تارة، والاهتمام بأمر المسلمين أخرىٰ، وكان لهذا الخيار السيء ثلاثة آثار سلبية أساسية:

الأول: انشغال الناس وهدر مواردهم فيما هو خارج دائرة تحكمهم وتأثيرهم.

الثاني: ضعف القلب والنفس والشعور الميت بالعجز وقلة الحيلة، بحيث يؤول كل ذلك إلىٰ نوع مقيت من البطالة وفقد الفاعلية والإحساس بفقدان الجدوىٰ.

الثالث: تصدر من شغل قلبه بهذا للتحليل والتنظير والقول بغير علم، بل شعوره بالاستعلاء بما بين يديه من قصاصات الأخبار.

إنَّ الأمم القوية أو التي تريد أن تمهد لقوتها لا تصنع هذا، إنَّما تسلك الأمم مسلك التوزيع المنضبط للكوادر والكفاءات والمواهب بحيث تشغل ثغور حاجتها الصانعة لمواطن قوتها، ويكون حظ كل فرد منها ممَّا هو خارج موطن إتقانه وقوته = حظًّا لا يعود بالنقص أو التقصير علىٰ عمله الذي يحسنه ويتقنه.

نعم لا يخلو صاحب العزيمة من أن يكون طالب آخرة أو طالب دنيا، ولا يخول واحد منهما من الهم أبدًا، فمن استعاذ بالله من هم الدنيا، وجعل الآخرة أكبر همه، واستعان بالله ولم يعجز وتوكل عليه- جل جلاله- = كان أسعد الناس حقًّا، وليس موضع سعادته أنه لا يهتم، وإنَّما موضع سعادته أنه يهتم لأمر آخرته وما يتصل بها من أمر دنياه، ثم ينزل همه بالله ويتوكل عليه ويستعين به، وما يكون في ذلك من مشقة؛ هو ألم الطلب الذي لا تخلو منه الدنيا، والذي علىٰ قدره يكون جزاء الآخرة.

وإن من حمل الهم أن يحمل الإنسان هم إخوانه من المسلمين؛ فإن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ومثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ. ورغم أنَّ حديث من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم؛ حديث منكر شديد الضعف لا يثبت عن رسول الله ﷺ = إلَّا أن النصين الأخيرين هنا كلاهما صحيح ثابت عن رسول الله ﷺ يغنيان عنه، والاهتمام بأمر المسلمين شعبة إيمانية ثابتة لا تحتاج لهذا الحديث، لكن هذا الاهتمام لم يُقصد به أصالة في كلامه ﷺ تتبع أخبار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، بل رأس هذا الاهتمام هو ثغوره المشهودة التي تستطيع أن تؤثر فيها وتصلح فسادها وتجبر كسرها وتعوض نقصها، أعني: بر الوالدين، وصلة الرحم، والسعي علىٰ الأرملة والمسكين، والصدقة علىٰ الفقير وابن السبيل، وتعليم العلم ونفع الناس، فكل هذا من الاهتمام بأمر المسلمين، ومن ضيعه وظن أن تتبع الأخبار في القنوات وعصر العين تباكيًا، ثم التولي عن الواجبات

والمندوبات التي تحت يديه بالفعل = فهو آثم مهدر لعمره، وقليل يزعم أنه يحسن الجمع ويوفي القريب والبعيد حقه، وقليل من هذا القليل يصدق زعمه، وقد خبرنا أحوال من نعرفه؛ فوجدنا أكثرهم يحرق عمره، وربما أضاع أهله.

هو يظن أنَّه منشغل بأمر عظيم ما دام يتابع أخبار كوارث المسلمين الكبرىٰ، والواقع أنَّه بطّال ليس له من المتابعة إلا أجر ما يقع في قلبه من التأذي لضُر المسلمين، لكنَّه بعد ذلك يظل فارغًا لم يصنع شيئًا يثقل ميزانه ويجيب به عن سؤال العمر الفاني.

«لم ينشغلوا بتغيير العالم ... كان كل طموحهم ينحصر في إيصال أقلام الرصاص لأطفال المدارس في القبائل الأفريقية»!

كم مضي على اقتناعي بالمفهوم الذي تشير له هذه العبارة المقتبسة؟

أظن عشر سنوات، تعلمت فيها أن اكتفي بالضروري من المعلومات الذي لا أستغني عنه في تخصصي ولا أكون معه معزولًا، وفي الوقت نفسه لا يقعدني ويفسخ عزيمتي أو يحرق عمري.

وليس يُعاب رجل من المسلمين اختار لنفسه ما يحفظ قلبه ويعينه علىٰ طلب ما ينفعه في الدنيا والآخرة.

إن سعادة الإنسان ومفتاح خلوصه من إحباطات الحياة المتتالية، ومفتاح العمل الحقيقي لا بطالة الشعارات = يكمن في نجاحه في صناعة الإنجازات الصغيرة المنتظمة والمتتابعة، التغييرات التي لا يشعر بها معظم الناس، ولا يجدونها أعمالًا عظيمة، لكنها تمثل شيئًا عظيمًا جدًا للذين فعلتها لهم.

وكما في اقتباس عظيم آخر:

- «إن كل هذا الذي تفعله، ليس إلا قطرة في بحر».
-«ربما، ولكن، ليس البحر يا سيدي إلا كمًّا من القطرات».

الفسيلة لن تغير العالم، لكنك أمرت بغرسها ولو قامت القيامة؛ لأنك تجدها في ميزان حسناتك تثقله، وهذا هو المهم.

ثمانون بالمائة من وقتك وجهدك وتركيزك وعملك وتفكيرك يجب أن تنصرف للدائرة التي تؤثر فيها بالفعل وتغير من واقعها بنفسك، هذا علىٰ الأقل، أما دائرة الاهتمام بالأحداث والمواقف التي ليس لك تأثير فعال فيها، ولا تقدر علىٰ التحكم في مسارها = فينبغي أن تكون ضيقة جدًا وأن تسرع بأداء ما يمكنك نحوها من دعاء أو دعم معنوي أو مالي، ثم تنصرف سريعًا لدائرة تأثيرك الفعالة.

بغير هذا: سيضيع عمرك دون إنجاز أو فاعلية، وستكتفي بأن توهم نفسك وتوهم الناس أنك مهموم مشغول.

في البخاري من حديث عمر، أنهم كانوا يترقبون غزوًا من الروم، بينما عمر يداول الأيام بينه وبين صاحب له، هذا يعمل يومًا وذاك يذهب لرسول الله ﷺ ومجالسه والعكس، ونصيب الغزو المترقب: مجرد سؤال عابر يسأله عمر لصاحبه.

فإياك أن تسمح لما لا تستطيع تغييره،
أن يحول بينك وبين ما تستطيع تغييره ...

«لا تتولوا ما كُفيتم، ولا تُضيعوا ما وُليتُم»

هذا هو أصل الإصلاح وذروة سنامه؛ ألا يشغل الإنسان عمره إلا بما يتقنه ويقدر علىٰ تجويده والتميز فيه.

ابحث بهدوء وأناة عن مواهبك ومكامن تميزك، وطورها وأصلحها وأصلح بها.

فاعلية المجموع من فاعلية الأفراد، وعندما لا يقوم كل فرد بدوره علىٰ أتم وجه = لا تنتظر من أي أمَّة أن تكون أمَّة فاعلةَ مؤثرةً.

وقيام كل فرد بدوره يعني عدة أمور:

أولًا- أن يبذل أقصي جهده في الفعل المتقَن لما يُحسنه.

ثانيًا- أن يستمر في تطوير نفسه علىٰ مستوىٰ الرؤي والأفكار ثم علىٰ مستوىٰ تجويد الأدوات وتجويد الفعل وتجويد ما يُحسن وزيادته.

ثالثًا- أن ينطلق في فعله من مرتكزاته الخُلقية والقِيمية وأن يجعلها أساس تحديد الخيارات.

رابعًا- شُعَبُ الخير والإيمان وأبواب خدمة الدين كثيرة؛ فلا تنصرف عما تحسن إلىٰ شيء لا تُحسنه، أو إلىٰ شيء لا تطيقه، أو إلىٰ شيء قد قام به غيرك.

خامسًا- دوائر اهتمامك ينبغي ألا تطغىٰ علىٰ دوائر تأثيرك، اهتم بقضايا المسلمين لكن لا تبذل في هذا الاهتمام إلا أقل طاقتك، والباقي اصرفه للقضايا التي تستطيع أن تُحدث فيها تغييرًا ملموسًا.

ستؤجر علىٰ كل باب من أبواب المسلمين تحمل همَّه، لكنك ستُسال عن كل باب لم تقم فيه بما كان في وسعك، ووزر التقصير يأكل أجر الهمَّ العاري عن الفعل.

أي شيء ينفعك الهمُ والحيرة والضيق بواقع المسلمين = بينما أمام عينك وبجوار بيتك، وعلىٰ طَرفَ الثَّمَام منك، وبين جنبات نفسك = أبوابٌ مُشرعةٌ وشُعبُ إيمان تنتظر من يشغلها؟!

مشروع الحياة: هو أفضل أداة اتزان تحمي الإنسان في مسيرته الشاقة في هذه الدنيا. هذا المشروع أشبه بخطوط السكك الحديدية، مهما اعتور القاطرةَ من فتور، أو محاولة زحزحة أو توقف، يظل دائمًا بالنسبة لها مصدر جذب وتثبيت، ودافع إعادة تشغيل وحركة.

صياغة هذا المشروع نفسها أشبه بنسق مفتوح، وليس مغلقًا، بمعنىٰ أنه قابلٌ دائمًا للتعديل والتطوير. هناك الإطار العام للمشروع وهو تحقيق العبودية لله -جل جلاله-، والقيام بأمره في العسر واليسر، والمنشط والمكره.

تأتي بعد ذلك محاور هذا المشروع، تمتد من النفس إلىٰ المجتمع، بكل تقسيمات هذا المجتمع، وبكل مجالات عمل هذه النفس. كل محور سيتم تشكيله من مجموعة من حلقات الأهداف المرحلية والنهائية. صياغة هذه الأهداف لا بُدَّ أن تراعي فيها إمكانات الشخص الذاتية، وفرصه المتاحة لتوظيف إمكانياته، وطبيعة بيئته ومجتمعه.

في كل ذلك ومعه يكون دور المعرفة والعلم؛ فالمعرفة لحياة الإنسان عمومًا، وللمشروع الحياتي خصوصًا؛ أشبه بالغلاف الجوي، لا تتنفس أي مرحلة من مراحل حياة الإنسان، ولا أي محور من محاور مشروعه؛ إلا من خلاله وهي الوقود المُغذي وآلة التطوير لهذا المشروع.

لا بُدَّ أن تترك هذه الانشغالات اليومية التي تأكلك أكلًا، وتنحت أيامك نحتًا، وتغرق أنت فيها جميعًا دون أي حصيلة إنجاز طويلة الصلاحية! أنت تحرق نفسك وعمرك بهذه الصورة.

استعن بالله -جل جلاله-، واكتب، وأكثر من الكتابة

ما أنا؟ وما إمكانياتي؟ وما ظروفي؟ وما الذي أحسنه وأتقنه؟ وما الذي ينقصني؟ وما الذي يحتاجه الناس من حولي أستطيع نفعهم به؟ وكيف يمكن أن أكون بحيث ألتفت إلى ما مضى من حياتي عند موتي؛ وأقول: هذا حسن، قد فعلت ما أستطيع؟

الطريق من هنا

إذا أراد الإنسان أن ينتقل من الدائرة العامة للإيمان والعمل الصالح إلىٰ دائرة السعي إلىٰ الإصلاح = فينبغي أن يعلم أن الرؤية الإصلاحية السليمة منهجيًا ينبغي أن ترتكز علىٰ أساسين:

أولًا- صياغة خاصَّة لمنهج النظر في النص والواقع.

ثانيًا- جمعٌ حسنٌ لمعطيات النص والواقع، التي سيشتغل عليها المنهج؛ لاستخراج الرؤية الإصلاحية.

بعد ذلك تتم صياغة الرؤية الإصلاحية لباب معين، أو أبواب متعددة، بحيث تشتمل علىٰ:

(١) الصورة النقية للصواب الإصلاحي.

(٢) إشكاليات الواقع ومسافات البعد بينه وبين هذه الصورة النقية، والأسباب والعوامل المنتجة لتلك الإشكاليات.

(٣) القدرات والأدوات والفرص المتاحة، والقدرات والإمكانات والفرص المطلوبة لتخطِّي هذه الإشكالات، وصولًا للصورة النقية، وكيفية عبور الهُوَّةِ بين الممكن والمطلوب.

(٤) إمكانات الحركة، ومجالات العمل والتطوير، وفرص الإصلاح في واقع القصور.

وسيق الخلاف -ولا بُدَّ- بين الرؤىٰ الإصلاحية وبعضها، وربما حصل هذا في كل عنصر من العناصر الستة الماضية؛ فما هو فرصة ومجال للعمل والإصلاح عند البعض = سيكون عند آخرين طريقًا مسدودًا. وما هو خيار متاح عند البعض = سيكون عند آخرين طريقًا غير ناجع ولا مثمر. وما هو مقدمة علمية ومنهجيَّة منتجة لتصور إصلاحي معين عند البعض = هو عند آخرين مقدمة متوهمة حصل الخطأ في تحريرها وتصورها.

ومثل هذا الخلاص من جنس اختلاف الفقهاء، وتقع فيه مراتب اختلاف الفقهاء، والأصل أن يتم التعامل معه بالحوار العلمي، شريطة الاستيعاب الكامل لأسس ومنطلقات التصور الإصلاحي المخالف.

وأعظم الخلل في تعامل المسلمين مع الرؤىٰ الإصلاحية نابع من أمرين:

الأول- أن أكثر الرؤىٰ الإصلاحية المتداولة لم يُبذل فيها ذلك الجهد العلمي والمنهجي الذي يجعل الخطأ فيها قليل الفساد، بل الواقع أنها عجولةٌ قليلة الحظ من الفقه ومن الإحكام المنهجي، بل ربما سار قوم كثيرون علىٰ خطة إصلاحية وَضَعها من لا يُعرَف بفقه حسن، ولا بمنهج محكم!

الثاني- قلة التأمل في التعامل مع الرؤىٰ الإصلاحية ونقدها، فتقع العجلة لانتقاد رؤىٰ إصلاحية بانتقادات خاطئة، وتصورات ناقصة، فلا ينتفع الناقد من الحق الذي فيها؛ فإنَّه لا تخلو رؤيةٌ إصلاحية مهما كثر خطؤها من حق يجب الانتفاع به، وإن العجلة للانتقاد، وضعفَ العمق في النفاذ لصلب المقولات الإصلاحية = لا يجعل الإنسانَ ينتفع بهذا الحق؛ فيفوته خيرٌ كثيرٌ، وتضيع رؤىٰ إصلاحية حسنةٌ جدًّا في زحمة حرب الأفكار، ويضيع حقٌ حسنٌ جدًّا في رؤىٰ إصلاحية بسبب كثرة خطئها، وعدم صبر منتقدها علىٰ استخلاص الحق من بين براثن الخطأ.

إنَّ الإشكالات المعرفية، والإشكالات في تصور قيم العملية الإصلاحية = أنتجت خللًا كبيرًا في الخطط الإصلاحية المقترحة من قبل السَّلفيِّين، خاصة في ارتباط هذه الخطط بمفهوم التمكين. ولعلنا نشير هنا إلىٰ شيء من سنن الإصلاح التي أدىٰ غيابها إلىٰ خلل كبير في الخطط الإصلاحية؛ أنتج الخلل في التعامل مع المجتمعات الذي سنشير إليه.

إنَّ العلاقة بين الإصلاح ومساراته، وبين التمكين = ليست علاقةَ سبب ومسبب. بمعنىٰ: ليست مسارات الإصلاح وعملك فيها هي فقط طرف المعادلة الأيمن التي متىٰ توفر حصل الطرف الأيسر. بل قد تبذل جهدَك بلا عوائق = ولا يبلغ الإصلاحُ هدفَه. وقد تبذل جهدَك كاملًا وأيضًا = لا يبلغ الإصلاحُ هدفَه، ولكن هنا يساهم في ذلك وجود العوائق. وقد لا تبذل كل جهدِك ويجتمع تقصيرُك مع العوائق = ورغم كل ذلك يبلغ الإصلاحُ هدفَه.

الحقيقة: أنَّ معادلة الإصلاح أكثر تعقيدًا بكثير ممَّا يظن الناس. والله- جل جلاله- لم يكتب علىٰ عباده بلوغ الظهور والغلبة والظفر، وإنما كتب عليهم استفراغ الوسع بالعمل علىٰ المشروع المقدور عليه. وهذا القدر ينبغي أن يكون متفقًا عليه. وأكثر النزاع في مسارات الإصلاح يكون بسبب تحقيق مناط أحد المقامين (المشروع، والمقدور).

لكن القضية الأهم التي أحاول بيانها ها هنا: هي أنه حتىٰ سلوك المشروع المقدور، لا يعني في كثير من الأحيان أكثر من كونه مجرد توفير لبيئة صالحة تتفاعل فيها باقي مجهولات معادلة الإصلاح، فإن المساراتِ الإصلاحية -كما تقدم- ليست هي المكون الوحيد لطرف المعادلة الأيمن.

وإذن: فعند النزاع في المقدور، أو المشروع = لا ينبغي الاحتجاج بأنَّ المسار المعين لا يؤدي لبلوغ الإصلاح هدفَه، أو أننا جربناه ولم يؤدِّ، فليستْ هذه حجةً صحيحةً، فغاية أي مسار من مسارات الإصلاح أنه يساهم في صناعة البيئة، ليس غير، وبالتالي: فمجرد عدم تأدية مسار معين للتمكين ليس حجة صحيحة، وإنما الحُجج الصحيحة هي التي ترجع لبيان وصْفَي القدرة

والمشروعية، ومدىٰ تحققهما في المسار المقترح، وإن كان قد يُحتج بعدم فاعلية المسار مطلقًا في تحقيق هدفه الرئيس علىٰ كونه من المعجوز عنه، أو من غير المشروع، وهذه حجة صحيحة.

النَّبي ﷺ بلغ هو وخلفاؤه التمكين، لكنك لو تأملت في أدواتهم الإصلاحية؛ تجد أنها فقط إنما كانت ناجعة لأنها كانت جزءًا من معادلة أكبر، أكتفي الآن بذكر ثلاثة من مكوناتها:

الأول- بعثة النبي ﷺ علىٰ حين ضعف كبير وتقاتل وتشرذم في الإمبراطوريتين العظيمتين: فارس، والروم.

الثاني- مقتل رؤوس الملأ في يثرب يوم بُعاث؛ ولذلك كانت بيئة إقامة الدولة في المدينة مُهيأةً لإمامة النَّبي ﷺ، علىٰ عكس مكة.

الثالث- وجود اليهود في المدينة، وتحديثهم بمبعث نبي قد أظل زمانه، ممَّا هيأ نفوس الأنصار لدعوة النبي ﷺ.

فهذه العوامل المهمة جدًّا، هيأ الله بها أدوات النَّبي ﷺ وأصحابه لتعمل عملها، وهناك عوامل أخرىٰ كثيرة في هذه المعادلة غير ما ذُكر. ورغم كل ذلك، ورغم عظمة هذا الجيل، فهو لم يستطع سوىٰ الاستيلاء علىٰ مقاطعات الروم العربية، أما الإمبراطورية نفسها فلم يستطع أن يصنع معها كما صنع مع الفرس. وهذا درس كبير جدًّا من دروس الإصلاح، يجعلك تنجو من الرومانسية في تقدير أدواتك الإصلاحية وقدرتها علىٰ بلوغ أهدافها، وفي الوقت نفسه لا تقع في المادية المفرطة التي تنسىٰ أن لله يدًا تعمل. هذه فكرة أساسية يجب أن نتفق عليها ولو اختلفنا في تحقيق مناطها، أو حاول البعض أن يتحج بها لصحة تصرفات قد لا نوافقه عليها.

فعمل المصلح في حدود استطاعتك، وفيما شرعه الله، وفيما تطيقه، وليس فيه دخول فيما تعجز عنه = هو المسار الإصلاحي الصحيح، وغايته أن تضع لبنة في معادلة أعمق من تصوراتك وأكبر من قدراتك، والله- جل جلاله- هو وحده يخلق ما يشاء ويختار، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

ومن شريف كلام رسول الله ﷺ الدال علىٰ أن الخير والأجر بيد الله، ووفق تقدير الله، وأن ليس الأجر والنصر سواء، وأن ليس النصر والخير سواء، وأن ليس الإخفاق والشر سواء = قوله ﷺ الذي في «صحيح مسلم»: **«ما من غازيةٍ -أو: سريةٍ- تغزو فتغنمُ وتَسلمُ إلا كانوا قد تَعجلوا ثُلثي أجورِهم، وما من غازية- أو: سريةٍ- تُخفِقُ وتُصابُ إلا تمَّ أُجورُهم»**. فتأمل حال أولئك الذين تم لهم أجرهم وقد أُصيبوا وأَخفقوا ..! وعن خباب ﷺ، قال: هاجرنا مع النَّبي ﷺ نلتمس وجه الله، فوقع أجرنا علىٰ الله، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير، ومنا من أينعت له ثمرته، فهو يهذبها.

نعم؛ يسعىٰ الناس في القيام بأمر الله في هذه الدنيا، وما من رجل مات ولم يشهد عاقبة سعيه نصرًا وغلبة في الدنيا = إلا وهو أتم وأعظم أجرًا ممَّن شهد الظهور والغلبة.

وأولو العزم من الرسل باستثناء خاتمهم محمد ﷺ = لم يبلغوا مرادهم من أقوامهم وما آمن لهم إلا قليل، وهم خير الرسل وأفضلهم، وهم خير وأفضل عند الله من الأنبياء الذين ظهروا وغلبوا ومكنهم الله في الأرض. والخلفاء الراشدون لم يفتح لهم في الأرض ويظهروا فيها كما فتح لبني أمية وبني العباس، وهم عند الله أفضل من أولئك. ونور الدين محمود يقدمه العلماء علىٰ غيره، وهو أشبه بالراشدين من صلاح الدين، رغم إنه لم يُفتح له ما فتح لصلاح الدين.

وأصل هذا الباب كله واحد: أن المنزلة عند الله بالسعي المحقق لأرفع مقامات العبودية، لا بالظهور والغلبة.

* وإن من حقائق الوحي والإيمان التي ينبغي أن يملأ بها عباد الله قلوبهم وتطمئن إليهم نفوسهم= أن يعلموا أن وعد الله لعباده بالنصر المحتم الذي لا يختلف إنما يقع علىٰ ثلاث صور أساسية:

* **الأولىٰ**- هي الفوز العظيم يوم يقوم الأشهاد حين ينصر الله المؤمنين علىٰ الكافرين؛ فيودعهم الجنة دار الكرامة، بينما يحل الكفار علىٰ النار دار الذل والمهانة.

* **الثانية**- ما يكتبه الله- جل جلاله- للمؤمنين في الدنيا من الهداية للحق والقيام بأمر الله -جل جلاله-، والظهور بالحجة والبيان، والدعوة للإيمان والتنعيم بالتعبد والعلم وإن لم يكن مع ذلك الغلبة الدنيوية والتمكين في الأرض والسلطان علىٰ الكافرين، بحيث يكن من قتل شهيدًا أو ضيق علىٰ غير المؤمنين دنياه= هو المنصور حقًا وإن كان السلطان والغلبة لمن قتله أو ضيق عليه.

* **الثالثة**- نصر الله المؤمنين علىٰ الكافرين، ولو في العاقبة البعيدة التي تنتصر فيها أمه لأمة سبقتها بأجيال وقرون من ورثة أمة سبقتها بأجيال وقرون، ولو بالعذاب والبلاء والخزي من غير فعل من المؤمنين، ولو علىٰ يد قوم آخرين.

وفي حديث هرقل: «كيف الحرب بينكم وبينه؟ قالوا: الحرب بيننا وبينه سجال يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرىٰ. فقال: كذلك الرسل تبتلىٰ، وتكون لها العاقبة». والعاقبة للرسل قد يكون علىٰ يد من بعدهم من القرون، وقد نص علىٰ ذلك الطبري وغيره. فهذه صور ثلاث لتحقق وعد النصر الذي لا يتخلف أبدًا عن عباد الله المؤمنين.

* تبقىٰ صورة من النصر، هي موضع الفتنة والشبهة، وهي التي يضل الناس حين يحملون كل نصر في الوحي عليها: وهي النصر الدنيوي والغلبة والتمكين في الأرض لفئة معينة من المؤمنين أو لجيل معين من المؤمنين: وهذا اللون من النصر والغلبة، من الأسباب المعينة عليه؛

تحري تحصيل الرتب العالية من الإيمان والاتباع والطاعة، ونقصان كل واحدة من هذه يكون من أسباب الهزيمة؛ إلا أنه لا حتمية هاهنا كالصور السابقة؛ فقد يتخلف فلا يحدث للفئة المؤمنة رغم كونهم من أهل المقامات

الإيمانية العالية، لذنب ونقص فيها يعاقبهم الله عليه وإن كان لا يعاقب غيرهم ممن أتوا هذا الذنب وأعظم منه وليسوا أحسن من أولئك إيمانًا؛ لأن هذا هو الخير الذي يريد الله أن يرفع درجاتها به، ففواته حينها هو النصر حقًا، واختيار الله لتأخير النصر عنهم يكون لأسباب تزاحم ما عندهم من الإيمان في طرف المعادلة الأيمن؛ فترجع عليه.

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

فإن العلاقة بين النصر الذي هو الغلبة الدنيوية والتمكين في الأرض وبين الإيمان كما قلنا: ليست علاقة ضرورة رياضية: فقد يعد الله فئة معينة من المؤمنين بالتمكين في الأرض، والله لا يخلف الميعاد، فتراه يوفيه لهم كما حدث مع بني إسرائيل ومع نبينا وأصحابه.

قال -جل جلاله-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فهذا وعده- جل جلاله- لنبينا وأصحابه، لكن الله- جل جلاله- لم يعد كل فئة من المؤمنين لهذا اللون المعين من النصر، وإنما النصر الذي يعد الله به كل فئات المؤمنين وعدًا لا يخلفه؛ هو ما كان من الصور الثلاث الأولىٰ. أما نصر التمكين في الأرض والغلبة الدنيوية فقد يرزق الله به الأنقص إيمانًا ويمنعه الله عن الأكمل إيمانًا، بل قد يجعل نقص الأقل كفرًا علىٰ الأعظم كفرًا= من نصر الله رغم كونه لقوم كفار، كما في نصر الروم، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

فالإيمان وتحقيقه والمجاهدة للسلامة من النقص من أسباب الغلبة الدنيوية، ونقص الإيمان والذنوب من أسباب تخلفها، هذا ليس محلًا للنزاع،

لكن تحصيل ذلك ليس شرطًا كافيًا لحصول الغلبة الدنيوية يغني عن غيره، بل ثمة عوامل وشروط وظروف أخرىٰ ينظر بها للغلبة الدنيوية الآنية لفئة معينة، كما ان هذه العوامل والشروط المادية الظاهرة قد تتوفر ومع ذلك يتخلف النصر؛ لأن الله يرىٰ هذا أصلح لعباده، ولا بُد أن يكون ذلك من عند أنفسهم أيضًا لكنه قد يكون بذنب يسير اختار الله أن يعاقبهم به، بينما لا يؤاخذ غيرهم بذنب كبير وإنما يكتب لهم النصر، بحيث قد تتحقق الفئة المؤمنة بمقام إيماني عال وقوة مادية ومع ذلك يتخلف النصر عنها، وقد تكون الفئة المؤمنة أنقص إيمانًا وأبعد عن الوحي ممن هزمت ومع ذلك يتحقق لها النصر.

والغلبة الدنيوية حين تفوت أهل المقامات العالية من المؤمنين وبغير ذنب عظيم ظاهر أتوه= فهذا من القرح الذي يبتلىٰ به الناس علىٰ قدر دينهم، فمن عظم دينه؛ اشتد بلاءه. لكنهم رغم هزيمتهم هم الأعلون المنصورون حقًا وإن لم يغلبوا تلك الغلبة، فإن الله مظهر دينه، ولا بُد معذب أعداءهم ولا بُد.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [**آل عمران: ١٣٩-١٤٠**].

والغلبة الدنيوية حين يدركها الأنقص إيمانًا والأبعد عن الوحي= فهي من تقدير الله لدفع الناس بعضهم ببعض، وقد تكون من البلاء والفتنة والاستدراج، وإنما أوتيها هؤلاء لحق قوم مؤمنين سبقوهم لا لفضلهم في أنفسهم.

* **والحقيقة**: أن فوات الغلبة الدنيوية وعدم تحصيل أهل المقامات العالية من المؤمنين لها= كثير جدًا في تاريخ الإسلام، وليس نادرًا أو قليلًا، بل أكثر الغلبة الدنيوية في تاريخ الإسلام لم تكن للأكمل إيمانًا ولا للأجيال الأحسن والأفضل.

* ومن دقائق فقه الوحي: أن النصر مستمر لا ينقطع عن أمة محمد ﷺ، فلا بد من طائفة منصورة لا تزال من أمته قائمة علىٰ الحق، وقيامها علىٰ الحق وإظهار الدين هو ذلك النصر الذي لا يتخلف أبدًا، وليس النصر الذي لا يتخلف: هو الغلبة الدنيوية والتمكين، فإن هذا يقع ويزول.

وإن الغلبة المعجلة لفئة معينة في الدنيا تحصل للمؤمن وللكافر، وتحصل للأكمل إيمانًا والأنقص إيمانًا، وهي ضرب من النصر شديد القابلية للمتغيرات عصي علىٰ المعادلات الرياضية، أما النصر حقًا وصدقًا فلا يختلف عن القوم المؤمنين قط؛ فهو ما يكتبه الله للمؤمنين من الفوز في الآخرة والهداية للحق والإيمان في الدنيا والعاقبة لهم علىٰ الكافرين، ولو بعد حين وقرون وسنين.

(٠٨)

* ومن أبصر هذه الحقائق التي هنا= نجاه الله من فتنة الذين قالوا: ما وعدنا الله رسوله إلا غرورًا.

* خلاصة معضلة الإصلاح كما تجسدت في ممارسة الإسلاميين عمومًا والسلفيين خصوصًا؛ أن الطموحات أكبر بكثير من الإمكانيات، والتحديات أعظم بكثير من القدرات، ولا صبر لأحد علىٰ استيعاب حدود إمكانياته، وربط طموحاته بها والسعي لتطوير قدراته وتجاوز ما يمكن تجاوزه من الفجوة بين الغاية الواقع.

لا أحد يريد استيعاب أن الإصلاح لَبِنات، وأن وظيفتك هي أن تجوّد بناء لبنتك لا أن تبني البناء كله، حتىٰ رسول الله ﷺ نبي الرسالة الخاتمة= كان لبنةً في بناء. ثم لا يريد أقوام الإصلاح إلا أبراجًا سابقة التجهيز، وإلا قعدوا وألصقوا بالأرض.

بعضهم يصوغ الأمنية صياغة المشرع الإصلاحي، فيطمح إلىٰ شيء بينه وبين واقعه وإمكانياته مسافات كبيرة، ويسوق أمنيته في الناس علىٰ أنها مشروع إصلاحي، والواقع أنه ما لم يكن مقترحك لقطع المسافة بين الواقع والطموح مقترحًا محددًا وقابلًا للقياس، فأنت تتكلم عن أمنية وحلم، وليس عن مشروع إصلاحي حقيقي.

وبعضهم يصنع صنيع الأول، لكنه يقترح بالفعل إجراءات محددة وقابلة للقياس لقطع المسافة بين الواقع والطموح، لكن تحديدها وقابليتها للقياس كتحديد من يقول لك سأقطع المسافة بين الأرض والقمر عن طريق دراجة، فهي إجراءات من حيث الظاهر، وأوهام عبثية من حيث إمكان تحققها.

* والنتيجة هي انحراف بوصلة الإصلاح عن هدفها الأسمىٰ وهو تحسين نسيج المجتمع ورفع درجة التدين العام فيه.

والتاريخ في أكثر حقبة، والواقع في معظم صوره، المستقبل في أغلب تحقيقاته= لم ولن تتعلق أغلب أهم وأنفع صور إقامة الدين فيه إلا بالدوائر الفردية والخيارات المجتمعية.

* أما إقامة الدين واجبًا من واجبات السلطة الفوقية وأساسًا قيميًا تلتزم به السلطة السياسية= فنوع من أنواع إقامة الدين مهم، وله أثر ونفع لا شك فيه، وطلبه واجب ما دام من وجهه وممن يطيق مؤنته ويأخذه بحقه، لكنه في تاريخ الدنيا كلها لا الإسلام فحسب= وليس بالوزن الذي يتصوره الناس، وليس هو بوابه الطوبيا التي يحلم بها الناس، طوبيا أن يصير المثال واقعًا، طوبيا أن يصير المثال واقعًا لا تكون، وحلم أن تكون المسافة بين المثال والواقع أقل ما يكون= حلم يجب طلب تحقيقه، لكن تحقيقه أقل ما يكون، ولم يتحقق في تاريخ الإسلام كله إلا مددًا مفرقة لجمعتها لا تكاد تبلغ ثلاثين عامًا، وهي تنقطع وتتفرق ثم لا تدوم؛ لأن هذه هي حال الناس، والناس هم من يحملون سكينهم ليقطعوا استمرار أيام تحقق الحلم، ولو كانت حال الناس يمكن معها أن تطول تلك الأيام= لما كانت الدنيا دار ابتلاء.

* وأنت إذا فقهت أن هذا الحلم نادر الوقوع، وأن شروط تحقيقه أعسر ما يكون= استطعت أن تضع نفسك وعملك وجهدك حيث ينبغي أن يكون؛ فإن أقل المسلمين في حقب معينة وشروط معينة هم فقط الذين سيكلفهم الله أن يكونوا جزءًا من الأيام القليلة التي يأذن الله فيها بتحقيق الحلم ثم هي تزل ثانية؛ ليبلوكم أيكم أحسن عملًا.

وليس من حسن العمل أن تستجلب حلمًا لم تتهيأ أسبابه، فتمر أيامك أنت، لتلقىٰ بها ربك ليس معك مما كلفك إلا سعيك في غير ما كلفك.

كان من بني إسرائيل من ضروب الشر والفساد ما يحوج إلىٰ إصلاح كثير، ورغم ذلك جاءت رسالة موسىٰ أول ما جاءت إلىٰ فرعون المتسلط عليهم، حتىٰ إذا أبىٰ ولم تكن لموسىٰ شوكة= هاجر موسىٰ ببني إسرائيل وعانىٰ بعد ذلك إصلاحهم حتىٰ مات في التيه ولم يبلغ مراده منهم.

* ورسالة موسىٰ عليه السلام، أصل في أن التوجه بالإصلاح للساسة والسلاطين قبل أو مع المجتمع= أصل مشروع يقصد، والغرض منه هو أن يُخلىٰ بين الداعية وبين الناس، وأن يسهل عمليات الإصلاح المجتمعي، مما يؤكد مركزية هذا الأخير لكنها مركزية لا تعني إهدار غيره بل قد تجعل غيره وسيلة له.

وبُعث المسيح عليه السلام لإصلاح دين يهود، ولك يتوجه برسالته لقيصر روما ولا نائبه الوثني علىٰ الأرض المقدسة، رغم ما كان لهذا الحاكم من فساد قادة إلىٰ قتل يحيىٰ النبي عليه السلام.

* ورسالة عيسىٰ أصل في أن التوجه بالإصلاح للمجتمع وترك مجابهة السلطة المتحكمة في هذا المجتمع= أصل مشروع يقصد، وليس علمانية لا شيئًا من كذب الناس الذي يلوكونه، وهي أصل مشروع يقصد رغم ضحالة النتيجة الإصلاحية نتيجة لتدخل السلطة.

* ورسالة لوط عليه السلام أصل في الإصلاح الأخلاقي ومركزية حفظ المجتمع من الفواحش.

* ورسالة شعيب أصل في إصلاح الفساد المالي مركزية حفظ المجتمع من علمنة الاقتصاد.

* وجاءت رسالة محمد ﷺ جامعة للخير في كل الرسالات مفعلة جميع جوانب الإصلاح في الرسالات قبلها، وكانت جديرة بهذا؛ لأنها الرسالة الخاتمة التي لا رسالة بعدها ولا نبي بعد نبيها محمد ﷺ.

والداعية إلىٰ الله مأمور بتفعيل جوانب الإصلاح هذه بحسب حاجة مجتمعه، وبحسب قدرته وعجزه أيضًا.

وإذا عدنا للتأمل في رسالة موسىٰ وعيسىٰ ثانية؛ سنجد أن حال بني إسرائيل في زمن موسىٰ لم يكن أحسن من حالهم في زمن عيسىٰ، ومع ذلك كانت رسالته المركزية إلىٰ السلطة، وأتىٰ بنو إسرائيل وإصلاحهم بعد إياسه من السلطة عجزه عن مواجهتها. وسنجد أن السلطة في زمن عيسىٰ لم تكن أحسن حالًا من السلطة في زمن موسىٰ، ومع ذلك كانت رسالة عيسىٰ الأولىٰ إلىٰ المجتمع، رغم علمه أن السلطة لن تتركه بل ستعاون علىٰ الشرع في قتله، ولكن مع ذلك أرسله ربه وهو العليم الخبير.

وهذا يثبت فساد قولين، قول من يلغي طلب إصلاح السلطة من المطالب الإصلاحية، وأيضًا قول من يجعل إصلاح السلطة هو المركزي أو تحصيل السلطة وهو وسيلة الدعوة الأساسية، كل ذلك باطل.

* والأصل: هو الجمع بين مسارات الإصلاح عند القدرة، ما دامت إقامة الدين تفتقر إلىٰ تحصيلها كلها، وتجويد هذا الجمع بحيث لا يفسد مسار مسارًا ولا يؤدي السعي في أحدها إلىٰ إفساد العملية الإصلاحية كلها بكل شعبها.

* ومن هنا تعلم: أن ضعف القدرة علىٰ تفعيل مسار، والتي قد تؤدي للمطالبة بترك هذا المسار مؤقتًا أو تقليل الجهد المبذول فيه وتحجيم أهدافه مؤقتًا= أن ذلك من الفقه وأنه علىٰ مثله أرسل نبي عظيم من أولي العزم من الرسل، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

ودعوات الأنبياء قبل نبينا ﷺ إنما نسخ منها اتباع غيره وبعض تفاصيل الأحكام، أما الخير المحكم في دعوات الأنبياء فلم ينسخ، وإنما احتوته دعوة نبينا وأكملته وأصلحته واستعملت كل خير منها في موضعه، وفقه هذا عزيز يحتاج لتدبر الدعاة واستنباط المصلحين.

وبالتالي، فنحن لا نمنع منعًا مطلقًا طلب الوسائل التي تبلغنا إقامة الدين عبر السلطة الفوقية، بحيث يكون هذا المنع شاملًا للزمان والمكان، لكننا فقط نريد أن نلفت النظر إلىٰ أن قلة حصول ذلك في التاريخ بصفة عامة، وكثرة ما يدخله من الدخن حين يتحقق، وصعوبة بلوغ ذلك وكثرة المحارق التي وقع فيها بسبب محاولات البلوغ الفاشلة، التي لا تستوعب طبيعة واقعها= كل ذلك يجعل الوزن النسبي للجهد المبذل في ذلك، والقواعد الحاكمة لمحاولات بلوغ ذلك: مرتبطًا ارتباطًا أساسيًا بالمجتمع ونشر التدين العام فيه وما يمكن أن يعود علىٰ هذه العمليات بالضرر.

* ومعنىٰ هذا: أن يكون النطاق المركزي للعمل الإسلامي، والذي تنضبط باقي النطاقات علىٰ وفقه؛ هو نشر الدين العام في الناس، بأي وسيلة متاحة، وأن كل مسارات الإصلاح ليست أهدافًا ذاتية، وإنما هي وسائل لهذا الغرض. لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا.

هذا هو إطار القيم والأهداف للعملية الإصلاحية كلها. أن تهدي وأن تعلم أنك ولو لم تفز في عمرك كله إلا بواحد= فقد فزت. أما أن يتحول مسار العمل الإسلامي من مسارات إلىٰ أهداف ذاتية، تُقدم لذاتها، مهما عاد الاستغراق فيها بالضرر علىٰ هذا النطاق المركزي!

والواقع أن ممارسة الإسلاميين للمسارات السابقة كانت نوعًا من الغرق في بحر الدولة الحديثة من حيث ظنوا أنهم يحاولون النجاة منه إلىٰ شاطئ حكم رشيد يرضاه الله، «وإذا أردنا أن نجرد فكرة هذه الممارسة السابقة علىٰ اجتلاب نموذج الدولة القومية الحديثة يمكننا الاستعانة بمفهوم «النطاق المركزي» الخاص بكارل شميت، والتي تبحث في تحديد «القوة المحركة»

داخل الأنظمة، حيث يشير كارل شميت إلىٰ أنه عندما يصبح نطاق ما مركزيًا، فإن مشكلات النطاقات الأخرىٰ تُحل في إطار هذا النطاق المركزي، وتُعد هذه المشكلات ثانوية؛ إذ يأتي حلها بصورة تلقائية ما إن تحل مشكلات النطاق المركزي.

ففي الوقت الذي كان الدين هو النطاق المركزي في جميع صور الممارسة السابقة علىٰ الدولة القومية الحديثة، الأمر الذي جعل التنشئة الإيمانية الأخلاقية، وقيم الجهاد، ومفهوم الأمة المكلفة من قبل الله- جل جلاله- هي الشغل الشاغل لجميع قطاعات الأمة. الأمر الذي تحل بشكل جذري في نموذج الدولة القومية؛ حيث أصبح قيامُ الكيان السياسي في ذاته وبقاؤه، هو النطاق المركزي؛ لذا يمكن تجميد أي نشاط للأمة، ولو كان الجهاد مثلًا! في سبيل الحفاظ علىٰ الدولة وتماسكها، بل يمكن التضحية بأي جزء من الأمة في مقابل الحفاظ علىٰ وجود النظام أو الدولة/النظام أيضًا!

وعلىٰ الرغم من أن ظاهرة الصحوة الإسلامية في بدايات القرن العشرين، مثلت ردة فعل علىٰ الترهل الذي أصاب مؤسسة الخلافة- أو الكيان السياسي الجامع إذا تحرينا الدقة- المتمثلة في السلطنة العثمانية؛ الترهل الذي تلاه إعلان مصطفىٰ كمال أتاتورك إلغاء العلاقة السياسية الجامعة بين ديار الإسلام، الأمر الذي كان بمثابة دقات ناقوس الخطر لاستنفار جميع الجهود في جميع ديار الإسلام، سواء للحفاظ علىٰ الكيان السياسي الجامع قبل سقوطه، أو القيام ببعض وظائفه المعطلة، أو لإعادة تأسيس الكيان السياسي وذلك بعد إلغائه.

ومع تراوح ردات الفعل بحسب الظروف التاريخية المختلفة التي مرت بها ديار الإسلام، وذلك بقدر نسبة التحديث التي تعرض لها هذا الإقليم أو ذاك؛ فكلما قلت درجة التحديث التي تعرض لها أهل هذا القطر أو الإقليم؛ كلما جاءت ردة فعلهم متجهة ناحية القيام بأحد الوظائف التي ينبغي عليهم القيام بها دون النظر إلىٰ أي عوامل أخرىٰ، وكلما زادت درجات

التحديث، مثل لعراق مصر وإيران وتونس وتركيا والهند؛ كلما أصبحت الحركات والتنظيمات والجماعات الإسلامية متشربة لفكرة النطاق المركزي المتعلق بالدولة القومية الحديثة لا بالنطاق المركزي المتعلق بوظائف الخلافة، وذلك بالحفاظ علىٰ الدولة القائمة، ولكن مع تطويعها لقيادة جديدة! وعلىٰ رغم أن كثيرًا منها نشأ غير مشوه بالكلية، بل رافضًا في جزء كبير من أدبياته لفكر القومية أو القطرية، وما تبعها من نطاقات ثانوية، ولكن ما لبث أن غلب عليه الواقع الذي ولد فيه، فالإنسان ابن بيئتهّ ومعظم هذه الحركات، وخاصة الجماعة الإسلامية في الباكستان، والإخوان المسلمين في مصر هي بنت الحداثة»[١].

غرق السلفيون كما غرق باقي الإسلاميين في معركة مفتوحة لا طاقة لهم بها، وكلما جمعوا لها جندًا= أكلته الريح، وغفلوا غفلة شبه تامة عن منطق التغييرات الكيفية البطيئة التي تعمل عمل التهيئة لما هو خارج عن إرادتنا وقدراتنا مما يقدره الله، أجزاء صغيرة جدًا فعالة يجري العمل عليها باشتغال دؤوب وتجويد وإتقان وصياغة هادئة للمعارف ومنطلقات العمل، ونشر الحق والدعوة إليه بمختلف الوسائل وعلىٰ تنوع الجبهات ومقاومة الباطل التي تعرف متىٰ تقدم ومتىٰ تحجم، ومتىٰ تنطق ومتىٰ تسكت، والتي تحسن التغيير فعلًا ولا تقتل صاحبها لتزيل الذبابة عن وجهه.

* إنه السعي لإقامة دين الله بمعايير الدقيقة لا القرن، والغرفة لا الدولة، والحالة لا المجتمع، والشخص لا الأمة، أي: ليس بالمعايير الضخمة التي لا تساعد عليها الموارد ولا القوة ولا طبيعة النظام العام وشبكات علاقاته، ليس بالمعايير التي تجعل المصلح كالمنبت بلا ظهر باق ولا أرض مقطوعة.

---

(١) أيمن عبد الرحيم، مقال «الخلافة الممكنة»، موقع مصر العربية.

إنها دقة وتنوع وبصيرة أحمد رَحِمَهُ اللهُ الذي صبر علىٰ المحنة وصدع بالحق عندما تعين عليه، لكن في الوقت نفسه نهىٰ الناس عن الدم وخوفهم من الفتنة، يوم أن كانت الفتنة والمصلحة والمفسدة مناطات شرعية لها رمتها، ولم يأت عليها زمان كزماننا يستبيحها فيه جاهل يسخر منها، أو مخذول يتخوض متسترًا بها عماية الضلالة.

كثرة الضجيج لا تهزم عدوًا .. لا تجدها في الوقت نفسه في موازين الحسنات يوم القيامة.!

قرنان ونصف، ضيع فيها كثير من الناس دوائر الفعل والتأثير الحقيقية، التي هي قدر المقاومة الحقيقي والمشروع والمقدور تعاني من قلة طالبيها وندرة العاملين عليها، وهي وحدها مناط الأجر يوم القيامة؛ ليستغرق الناس في دوائر مغلقة ملعونة، كل أمة تكرر أخطاء سابقتها بغفلة منقطعة النظير.

إن أحد أسوأ أنواع الأيديولوجيا، هي الأيديولوجيا اليوتوبية التي تحاول تركيب متخيل يسمح بتجاوز الواقع، وذلك التركيب المتخيل يتم بمجرد رسم صورة زاهية الألوان، وجعلها هدفًا لحملة الأيديولوجيا؛ وتكون هذه الصرة حينها بمنزلة الحلم المتجاوز للواقع والمغيب للواقع والمزيف له في الوقت نفسه، إنها كما يقول ريكور: تكتفي برسم معالم المأمول المستحيل، لكنها لا تملك أداة لتحقيقه.

تحتوي الأيديولوجيا اليوتوبية علىٰ طاقة هائلة في الدفع إلىٰ التغيير، خاصة عندما تتوسل بالشعارات أو بوصل نفسها بحقب تاريخية تحقق فيها هذا التركيب المتخيل، ورغم طاقة الدفع المبنية علىٰ الشعارية والتاريخ القديم، إلا أن الأيديولوجيا اليوتوبية لا تملك الوسائل والسبل التي تسمح بتحقيق مشروع التغيير هذا؛ فوظيفة الشعارات: أن تُشعرك بأن من غذاك بها قد حصل

مضامينها بالفعل، ليتطور هذا الشعر ويتم تصديره من صانع الشعار إلىٰ المتكلمين به.

* **والواقع**: إن الفجوة كبيرة جدًا بين الشعار وبين تحصيل مضامينه، والذي يقوم به الشعار: هو أنه ينشئ علاقة إرجائية تامة بين المتكلم به، وبين مضامين الشعار. والحقبة التاريخية التي تحقق فيها التركيب لمتخيل بقطع النظر عن جودها بالفعل ودقة تصور سماتها من عدمه= فإنها لم تحدث إلا بوسائل وأدوات وفي ظل ظروف وشروط، وهي غير قابلة للتكرار إلا بوسائل وأدوات وظروف وشروط مختلفة، اقتضىٰ اختلافها اختلاف الزمان والمكان والإنسان.

* **وبالتالي**: فالشعار والتاريخ القديم لا تزيد وظيفتهما علىٰ إشعال الحماس وبث الطاقة تزويد الوقود، لكن الحماس والطاقة والوقود لا بُد لهما من أشياء كثيرة أخرىٰ ليحصل التحرك، والتحرك ولا بُد له من أشياء كثيرة أخرىٰ ليكون فاعلًا منتجًا وفي الاتجاه الصحيح، وكل ذلك لا يملك منه كهنة الأيديولوجيا اليوتوبية شيئًا؛ ما يؤدي في النهاية بحملة هذه الأيديولوجيا المتخيلة إلىٰ إحدىٰ حالتين:

* إما الانعزال عن الواقع والهروب منه، والعيش في دائرة تخدير ينتظرون قدوم المهدي ونزول المسيح.

* وإما أن يمتزجوا بالواقع ويحاولوا سرقة وسائل أيديولوجيات أخرىٰ وركوبها لتحقيق اليوتوبيا المستحيلة التي يحملون بها؛ فلا تخرج مصائرهم عن السقوط والانهزام: إما بأن يذوبهم الواقع داخله، وإما بأن يحرقهم في محارقه.

(٠٩)

* إن أعظم بلية كانت في تاريخنا، بدرجات تقل أو تكثر، فأخذها إسلاميو عصرنا ونفخوها وتلبسوا بعظائمها إلا من رحم الله: هي الصراعات

التي أقاموها بينهم لتتسع رقعة كل حزب فيهم بين الناس، والواحد منهم يلبس هذا لباس الحق والسنة والدين، وأنه إنما يريد زيادة رقعة الحق الذي معه؛ لأنه الحق الذي جاء به محمد، الحال: أن كل أولئك من جنس الملوك والسلاطين فيهم شعبة من إرادة الحق وشعبة أخرىٰ من إرادة العلو في الأرض وتحصيل السلطة المعرفية والنفوذ الجماهيري.

وإن الآفة التي سيطرت علىٰ كثير من رموز التيارات الإسلامية: هي آفة طلب النفذ السلطوي: أو المجتمعي، أو هما معًا، وكثير من ذلك إنما يكون آفة؛ لأنه من طلب العلو في الأرض، وإن ألبسه التأويل لباس نصرة الدين بالسلطان.

وطلب النفوذ مع فقد عدته الحقيقية، يقود إلىٰ طلب عُدة من جنس ما يتاح لك، إما المال، وإما الأتباع، وإما السلاح، وإما طلب رأس سلطة تظن أنه يتاح لك بالسياسة.

* وأنت إذا أدرت قسمة التيارات الإسلامية علىٰ هذا المفتاح= استقام لك تصنيفها، وأعانك ذلك علىٰ فهم كثير مما يبدو لك غير مفهوم من تنازعهم وشقاهم وشدة البأس بينهم.

دعنا نأخذ مثالًا يبدو لأول وهلة بعيدًا عن الصراعات، أعني: جناح الإسلاميين المتفرغ لتحرير العلم والدين والدعوة، وبث الدين في نفوس الناس، بلا اشتغال سياسي في الظاهر، كالوعاظ والسلفية العلمية والاتجاهات الدعوية ونحوها= سترىٰ أنه يصيب كثير منهم ما أصاب غيرهم من طلب النفوذ، وكانت عدتهم في هذا هي طلب كثرة الأتباع، واستجلاب الأتباع له آليات؛ ولذلك لم يقنعوا بدعوة الناس بث ما يستطيعون من الحق فيهم بما يطيقون، ولكنهم طعموا فوق هذا بنفوذ يزيد في وسائلهم الدعوية، ويزيد بالتالي في أتباعهم. أولئك الأتباع هم من نفس المجتمع، ولكن ذلك الداعية لا يصبر علىٰ دعوتهم وبث الحق فيهم، دون أن يحاول جذبهم بسنارته إلىٰ شباك تياره الخاص جماعته المعينة، وطمعه في الجذب يقضي أن يحتال

ليقوي شبكته، والشبكة الجاذبة تتم تقويتها بثلاث وسائل أساسية:

* **الأولىٰ**- احتكار الصواب والحق.

* **الثانية**- المال.

الثالثة- الاستعانة بنفوذ السلطان.

* حديثي الآن عن الثالثة فحسب؛ لأنها تعين علىٰ فهم بعض الاحداث القريبة.

السؤال: ما طريق تحصيلهم لنفوذ السلطان، وليس لهم اشتغال سياسي ولا قوة يذعن لها خصم؟

* طريقه -للأسف- هو الدخل في السلاطين، والطمع فيما عندهم، وقبول جزرتهم، والغفلة عما وراء هذه الجزرة من أغراض، ثم الاحتيال بجهاز التأويل علىٰ الاستسلام لهذه الأغراض بعد ذلك وشرعنتها، فمستقل ومستكثر.

تعطيهم الأنظمة أشياء تافهة يسمونها هم مكتسبات، درسًا في مسجد، قناة قضائية، ترخيصًا لجمعية خيرية، انتشارًا دعويًا بلا حاجز أمني، ثم تتركهم ليذوقوا عسيلة هذه الأشياء ذوقًا لا ننفي أنه يتمكن منهم بسبب شعبة في نفوسهم؛ إرادة هداية الناس. حتىٰ إذا استملحوها= ساوموهم عليها، وهنا يأتي جهاز التأويل ليخدر الضمائر باسم المصلحة والمفسدة، حتىٰ يتدرج الحال بهم أحيانًا؛ ليكونوا بمنزلة مساند للمؤسسات الدينية السلطانية؛ لتبتلعهم الدولة في دولابها تمامًا. هذه آفة عظيمة جدًا، وهي من الباطل الذي يختلط بالحق، فيحمل الناس علىٰ بغض الحق والباطل معًا.

وإذا تأملت جيدًا في هذه الآفة= ستستطيع تفسير كثير مما بدا لك مستعصيًا علىٰ الفهم، مثل كيف تدرج نوريّو الإسكندرية في الضلالة، ومن أين

يخرج عليك وعاظ الضلالة بمبادراتهم، ومن أين فسدت السلفية العلمية والدعوية وجعلتها الأنظمة ساعدًا لها إلا من رحم ربك.

هل يعني ذلك أن الإسلاميين لا إرادة لله والدين والإيمان عندهم؟

اللهم إني أبرأ إليك من أن أزعم هذا، لكن العقل العاجز عن التفكير السليم، هو وحده من يحاول التحليل عبر العوامل الأحادية، ويغفل عن أن الظواهر كالنفوس معقدة مركبة تتنازعها العوامل والإرادات، وإذا كان الله- جل جلاله- قد خاطب خيرة الخلق فقال لهم: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ فإن من بعدهم أنقص منهم، وإن الجماعات يجتمع فيها الخير والشر، وإن الرجل من أهل الخير هو نفسه يجتمع فيه الخير والشر، غاية ما هنالك أن خيره ربما كان أكثر، لكن هذا لا ينفي أن في أفعاله وتصرفاته إراداته شر.

وإن أكثر أهل الديانة لا تتمحض فيهم إرادة الله وحدها، أو إرادة الهوىٰ وحظ النفس وحدها، بل تتركب خلف أفعالهم الإراداتان، وفصلهما يحتاج إلىٰ جهاد كبير، تُقعد عنه الغفلة، وتحجز عنه قلة العلم. يقول شيخ الإسلام: «والناس هنا ثلاثة أقسام: قوم لا يقومون إلا في أهواء نفوسهم؛ فلا يرضون إلا يما يعطونه ولا يغضبون إلا لما يحرمونه؛ فإذا أعطىٰ أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال والحرام زال غضبه وحصل رضاه وصار الأمر الذي كان عنده منكرًا- ينهىٰ عنه ويعاقب عليه؛ ويذم صاحبه ويغضب عليه- مرضيًا عنده وصار فاعلًا له وشريكًا فيه، ومعاونًا عليه، ومعاديًا لمن نهىٰ عنه وينكر عليه. وهذا غالب في بني آدم يرىٰ الإنسان ويسمع من ذلك ما لا يحصيه. وقوم يقومون ديانة صحيحة يكونون في ذلك مخلصين لله مصلحين فيما عملوه، ويستقيم لهم ذلك حتىٰ يصبروا علىٰ ما أوذوا. وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم من خير أمة أخرجت للناس. وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا؛

وهم غلب المؤمنين، فمن فيه دين وله شهوة تجتمع في قلوبهم إرادة الطاعة وإرادة المعصية، وربما غلب هذا تارة وهذا تارة . . . ولهذا؛ لما كان الناس في زمن أبي بكر وعمر اللذين أُمر المسلمون بالاقتداء بهما كما قال ﷺ: «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر» أقرب عهدًا بالرسالة وأعظم إيمانًا صلاحًا، وأئمتهم أقوم بالواجب وأثبت في الطمأنينة: لم تقع فتنة؛ إذ كانوا في حكم القسم الوسط. ولما كان في آخر خلافة عثمان وخلافة علىٰ كثر القسم الثالث؛ فصار فيهم شهوة وشبهة مع الإيمان والدين، وصار ذلك في بعض الولاة وبعض الرعايا ثم كثر ذلك بعد؛ فنشأت الفتنة التي سببها ما تقدم من عدم تمحيص التقوىٰ والطاعة في الطرفين، واختلاطهما بنوع من الهوىٰ والمعصية في الطرفين: وكل منهما متأول أنه يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر وأنه من الحق والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوىٰ؛ ففيه نوع من الظن وما تهوىٰ الأنفس؛ وإن كانت إحدىٰ الطائفتين أولىٰ بالحق من الأخرىٰ. فلهذا يجب علىٰ المؤمن أن يستعين بالله، ويتوكل عليه في أن يقيم قلبه ولا يزيغه ويثبته علىٰ الهدىٰ والتقوىٰ، ولا يتبع الهوىٰ»[(١)].

ويقول شيخ الإسلام أيضًا في نص نفيس مستقرئًا حال الاجتهاد وعلاقته بالهوىٰ، مقسمًا حالات المجتهدين إلىٰ ثلاث حالات، مبينًا أن الحال المركب من الاجتهاد والهوىٰ هو الغالب: «المجتهد الاجتهاد العلمي المحض ليس له غرض سوىٰ الحق، وقد سلك طريقه، وأما متبع الهوىٰ المحض: فهو من يعلم الحق ويعاند عنه. وثم قسم آخر- وهم غالب الناس- وهو أن يكون له هوىٰ، وله في الأمر الذي قصد إليه شبهة، فتجتمع الشهوة والشبهة؛ ولهذا جاء في حديث مرسل عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**». فالمجتهد المحض مغفور له أو مأجور، وصاحب الهوىٰ المحض مستوجب للعذاب،

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ»، (١٠/١٤٧- ١٤٩).

وأما المجتهد الاجتهاد المركب علىٰ شبهة وهوىٰ: فهو مسيء، وهم في ذلك درجات بحسب ما يغلب، وبحسب الحسنات الماحية. وأكثر المتأخرين- من المنتسبين إلىٰ فقه أو تصوف- مبتلون بذلك»[١].

وإن تحصيل النفوذ السلطوي والمجتمعي، وزيادة الحظ في الناس= سعي تتركب إرادته من إرادة الله ونصرة دينه، ومن إرادة العلو في الأرض، وقلما تتمحض واحدة منهما إلا في قلة من أهل العلم والإيمان والجهاد والمراقبة والمحاسبة.

* وطريق جهاد النفس في هذا: أن تجعل الدين كله لله، وأن يكون همك في نشر الحق أن يدخل الناس في الإسلام العام الذي كان يبايع عليه الأعرابي ويجعله رسول الله في خطبه ورسائله، وأن ترد كل ضلالة بحسبها ولا تتعدىٰ بها قدرها، وبما لا يهدر ما بين المؤمنين من حقوق ولا يفسد دين عامة الناس.

* وفي خلافك مع إخوانك: انصح لا تجامل في الحق أحدًا، ولا تترك بينًا واجبًا عليك لا يسعك تركه، واحفظ حقوقهم واقدر خيرهم قدره، ولا تفسد قلوب الناس لغيرة أو نفوذ أو صراع تلبسه لبوس الدين، وحاسب نفسك فلا تنتصر لها إلا نادرًا بالحق، وأن تجعل همك نشر الحق لا كثرة الأتباع عليه، وأن تجمع بين نصرة الحق ورحمة الخلق، وأن تحب المسلمين جميعًا وتدع لهم وترحمهم حتىٰ من يؤذيك.

* وارفع شأن الاستغناء وعظمه وعظم دروة سنامه= ألا تطلب نفوذًا وانتشارًا يغرسك في وحل السلطة.

* لا يكلفك الله أن تتوسع وتستكثر علىٰ نحو يفوق طاقتك أو يجلب عليك الفساد، وإن لم يكن بد من التوسع والاستكثار إلا أن تدخل في طاعة

---

(١) «القواعد النورانية»، (ص/ ١٨٧).

هؤلاء، وتقبل جزرتهم وما وراءها= فالله غني عن طريق السوء هذا؛ فإنه يؤدي إلىٰ أن يجتمع الباطلان الكبيران معًا: العلو في الأرض، مع الفساد.

* طريق خطاب الناس بعيدًا عن أن تحتويك الأنظمة= صارت أرحب مما مضىٰ، ولا يزهدنك فيها ضعف الثمرة أو قلة المحصول؛ فإنك لا تكلف إلا وسعك، وليكن استغناؤك عن المكتسبات المزعومة أهون عليك من غض طرف عينك عن أذىٰ لو تركته هتك قلبك.

* تدبر كثيرًا من الفساد الذي تنكره= ستراه يرجع إلىٰ باب واحد: كيانات أرادوا حفظها فبذلوا دينهم ثمنًا لها.

* الأخرىٰ الجليلة: أن تدع الدنيا بنفوذها وسلطتها وكثرة الأتباع فيها= جيفة يلغ فيها من يشاء، فلا تطلب منها إلا ما يطمئن قلبك لخلوص إرادتك لله فيه؛ فإن الدنيا لو كانت تدوم لدامت للأنبياء والراشدين دوامها للملوك والسلاطين.

* احفظ هذا؛ فإني أرجو أنك إن وعيته= نجوت وجعلت الدين لله خالصًا لا تريد به علوًا في الأرض ولا فسادًا.

* واعلم إنُنا حين ندعو لهذا لا ندعو إلىٰ تصوف انسحابي، ولا إلىٰ علمنة من نوع آخر، وهذه الفكرة تحتاج إلىٰ بيان لكثرة اللبس الذي يحدث فيها.

* فالعلمنة هي الممارسة الدنيوية منزوعة القيمة، والمطالبة بإدارة الشأن العام وفق الترشيد العقلاني من غير خضوع لسلطة مرجعية عُليا. والناس منهم من يحاول مخالطة هذه الممارسات المعلمنة ليقلل شرها بممارسة تشتبك معها وتصارعها علىٰ نفس مناطق النفوذ لكنها ممارسة خاضعة للوحي. ومنهم من يعتزل طريقة الاشتباك هذه ولا يراها تؤدي إلىٰ تقليل الشر، ويرىٰ تعذر وصولها لهذا التقليل، وأن الغالب هو أن تبتلع الممارسة المعلمنة هذا الذي يحاول تقليل الشر وتغلبه علىٰ دينه وقيمه، أو يتم إقصاؤه عن مناطق الاشتباك إقصاء عنيفًا يعد بالضرر علىٰ مساحات واسعة من موارده. وصاحب هذا القول

قد يختار هذا الاعتزال أحيانًا أو بصفة دائمة، وقد يطرح بديلًا بدرجة ما، وقد يقر بعجزه عن إيجاد بديل ولا يرىٰ ضرورة وجود هذا البديل، وقد يختار الاعتزال وقد يختار المشاركة المحدودة.

ومن الأمثلة لهذه الإشكالية: قضية المصرفية والبنوك، فتجد نموذج المصرفية الإسلامية كمحاولة لمزاحمة الممارسة المصرفية المعلمنة والربوية. وستجد في المقابل تيارًا ينقد معظم أو كل نماذج المصرفية الإسلامية، ويراها أسلمة فاشلة للمصرفية الربوية وخضوع لمنطقها وشرعنة لعملياتها. في ساحة البحث الاقتصادي والمصرفي تدار النقاشات بين الاتجاهين بموضوعية غالبًا، وهي نقاشات ثرية ومفيدة ومن أجمل نقاشات البحث الفقهي المعاصر.

إذا انتقلنا للسياسة المعلمنة؛ ستجد نفس الاتجاهين لكن النقاشات بينهم تفسدها الأدلجة، وصلة المسار السياسي بالمسار الحركي الذي يتقبل أي محاولة لتحجيم مخالطة السياسة المعلمنة بحساسية شديدة وتوتر، ومن هنا يُرمىٰ كل من يريد اعتزال أو تقليل نسبة المخالطة للسياسة العلمانية بتهمتين.

* التهمة الأولىٰ: هو أنه بدعته الإسلاميين لعدم أو تقليل مخالطة السياسة العلمانية: يريد فصل الدين عن السياسة، بالتالي هو يدعو للعلمنة. والحقيقة أن هذه مغالطة تعتمد علىٰ الاشتراك في لفظ السياسة، فإن فصل الدين عن السياسة هو: طلب إقامة ممارسة سياسية لا سلطة للوحي عليها ... أما طلب اعتزال/تقليل مخالطة الممارسة السياسية التي لا سلطة للوحي عليها= فهذا رأي تناقش صحته وفساده، لكن لا علاقة له بالعلمنة علىٰ لإطلاق. وإنما هو كالمطالبة بتقليل مخالطة بيئة فاسدة؛ لما يرىٰ من سطوة فسادها علىٰ المخالط، هل يمكن أن يسمىٰ هذا مطالبة بعزل الدين عن الحياة؟!. العلمنة هي: طلب إقامة الفعل من غير سلطة وحي، ومطالبة هؤلاء هي بمنع/تقليل مخالطة هذا الفعل المعلمن لسوء أثر هذه المخالطة وغلبة شرها.

بالتالي فالمطالبون بالتقليل أو المنع، هؤلاء يريدون السياسة الشرعية، وهي إدارة الشأن العام تحت مظلة السلطة المرجعية للوحي، والإقرار بوجوب

التزامها، وإن وقع في ممارسة هذه السياسة خلل ومعصية، فإن لم توجد هذه السياسة= فإنهم لا يختارون الاشتباك مع سياسة وضعية ثبت عندهم بالوقائع الكثيرة أن الاشتباك معها ضره أكثر من نفعه، ويرون أن الاشتباك مع الواقع والمجتمع أقل كلفة ولذلك يدعون أيضًا إلىٰ ألا يكون هذا الاشتباك مع المجتمع صورة مبطنة من الاشتباك السياسي وصراعات النفوذ، بل يكون اشتباكًا بالدعوة والبيان وإصلاح دين الناس ودنياهم بالعمل المجتمعي الموازي، وأن كل تضييق ستوقعه عليهم السلطة سيكون أقل كمًا وكيفًا من التضييق الذي يحدث عند الاشتباك السياسي أو عقب الفشل فيه. ليسوا كلهم يحرمون المشاركة السياسية، بل منهم من يحرمها ومنهم من يجوزها ولكن يمنعها منعًا مصلحيًا مرتبطًا بظروف زمانية ومكانية، ومنهم من لا يمنعها لكن فقط يريد تقليل وزنها النسبي في مساحة العمل لدين الله.

* التهمة الثانية: التصوف، ومن يرمي بهذه التمهة يقصد أن يقول إن من يطلب تقليل منع هذه المخالطة فيه شعبة من انسحابية الصوفية. وهذه أيضًا مغالطة، فإن الصوفية الانسحابية، (وهذا قيد فليس كل التصوف انسحابيًا) ينسحبون من أي مخالطة إصلاحية للدنيا موازنة لفساد المخالطة ومصلحتها وبدن تفريق بين مخالطة ممارسة شرعية ومخالطة ممارسة معلمنة؛ فالواقع أن التصوف الانسحابي ينسحب عن الدنيا كلها بقطع النظر عن الزمان والمكان والظروف والصلاح الفساد، فهم مثلًا: يعتزلون حتىٰ سياسة الشرعية التي يغلب خيرها شرها، ولا يقتصرون علىٰ منع مخالطة لسياسة وضعية يغلب شرها عند المخالطة كما هو قول أصحابنا.

* أضف إلىٰ ذلك أن معظم من يدع لمنع/تقليل مخالطة السياسة الوضعية= يدعون للاشتباك الواسع المفتوح مع المجتمع ومحاولة نشر الحق والقيم فيه. وليس هذا الاشتباك من سمة العلمنة ولا من سمة التصوف الانسحابي؛ فظهر مما تقدم سقوط هاتين التهمتين، وأنهما تشميع لا حجة فيه، الحقيقة إن هذا التشنيع من جنس التشنيع علىٰ من ينهىٰ الناس عن إحراق

أنفسهم في معارك خاسرة، وأن يحسنوا إدارة هذه المرحلة من صراعهم= بأنه يُنظر للقعود، وهذا كذب يشبه بالضبط من يتهم واعظ المريض ألا يصوم مع مرضه: بأنه يدع لترك الصيام!!

وطريقة الاعتزال عند بلوغ الضرر مبلغًا معينًا بحيث يصير الاشتباك أعظم ضررًا= هي طريقة نبوية، وسيأتي علىٰ الناس زمان يكون فيه حتىٰ الاشتباك المجتمعي ممنوعًا، وهو زمان الاعتزال الذي أذن به النبي ﷺ وأنبأ به في الحديث الصحيح، لكنه لم يأت بعد ولا زال الاشتباك المجتمعي أرضًا مفتوحة يخرج فيها الداعية بنتائج جيدة، إلىٰ حد كبير، ما لم تكن الكثرة معياره.

* هذا هو تحرير منطقة النظر العلمي في هذا الموضوع، وبيان أنه بحث فقهي علمي وثري يمكن أن يدار البحث فيها بنزاهة وطلب للحق، وتبقىٰ دائمًا وجوه لمناقشة حجج وتفاصيل قول المانعين/المقللين هؤلاء، يتسع فيها النقاش العلمي بعيدًا عن تهم التشنيع ودعايات الأدلجة.



عن الدعوة والداعية والمدعو

✍ د. محمد علي يوسف(*)

(دعوة، دعاة، مدعوون).

عن تلك المصطلحات العتيقة التي غابت عن أذهان الكثيرين قبل أن تغيب عن واقعهم= سأتحدث.

تلكم القيم التي تصدعت في نفوس جمع لا بأس به من الخلق، بعد أن كانت يومًا علىٰ ألسنتهم، وفي قلوبهم، وضمن همومهم.

فقط أولئك الذين يحملون همَّ الأمة، ويعنون بشأن المسلمين، ويحيون بقيمة حمل الرسالة، يدركون وقع تلك الكلمات جيدًا.

يدركون ذلك الهمَّ الذي كانوا يحملونه تجاه الناس، ورغبتهم الصادقة في أن يذوقوا ممَّا ذاقوا، ويغترفوا ممَّا اغترفوا، ليس استعلاءً أو تفضلًا، ولكن إيمانًا، علامته أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، كما أخبرنا قدوتنا ﷺ .. والمرء يحب لنفسه مرضاة الله والجنة.

وكذلك كان يومًا يحبهما للخلق، وإن جفوه وأنكروه وآذوه، فمعذرة إلىٰ ربهم ولعلهم يتقون.

(*) طبيب أسنان مصري.

كاتب ومحاضر في مجالات الدعوة والتربية، من كتبه المنشورة: «أنماط»، و«صالح للاستهلاك الفكري»، ومن برامجه المعروفة: **طرقات علىٰ باب التدبر.**

اليوم تهاوت تلك القيم العظيمة في أنفس الكثيرين، واستُبدلت بعداوات عامة شملت الفاسد والمفسد، وعمت الرأس والذيل، وغمرت التابع والمتبوع، وأُطلقت علىٰ الضال والمضل، والجاهل ومن جهله.

صار تمني الهداية وصلاح الحال وتبدل المآل= مندثرًا في غياهب أنفس قررت تعميم الكراهية . . لا شكَّ أنَّ هناك مضلين ومفسدين. هناك من يستحق العداوة والبغضاء، وأوثق عرىٰ الإيمان الحب في الله والبغض في الله . . وهناك من لا بُدَّ من مفاصلته مفاصلة تستبين علىٰ إثرها سبيل المجرمين.

لكن هل هذا يشمل الجميع؟

هل رُفع التكليف بالبلاغ، وبطَل أمر هداية الناس، الذي أوصىٰ به النبي ﷺ في مقام مقارعة يهود خيبر قائلًا لقائد جيشه علي رضي الله عنه: «لَأنْ يهدي بك الله رجلًا واحدًا خير لك من حُمْر النَّعَم».

الجواب: لا! . . لم تزل الدعوة مطلوبة، ولم تزل الأمة مبتعثة، ولم يزل التكليف قائمًا؛ «بلغوا عني ولو آية».

وهذا التكليف لا بُدَّ أن يقوم علىٰ شعور بالحرص والرغبة الصادقة في هداية الخلق، أو علىٰ الأقل جزء من الخلق. جزء هو أحوج ما يكون للهداية التي قد يجعلك الله سببًا فيها.

أنت ... أنت أيُّها القارئ الكريم.

نعم أنت! قد تكون سببًا في هداية الناس، وتغيير واقع علاقتهم بالله جل جلاه إلىٰ الأفضل. فقط إن حملت ذلك الهمَّ الذي طالما حمله الأنبياء والصالحون المصلحون من قبلك.

لطالما كان هناك رجال من هذا الصنف الذي لم يحقر أفراده أنفسهم، بل قاموا وقالوا الحق، وأعلنوه ودعوا الخلق إليه.

فعل ذلك أصحاب الكهف: ﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾.

ولَكَم تكرَّر هذا المعنىٰ في كتاب رب العالمين، ولَكَم ترسخ هذا المفهوم في كلام سيد المرسلين ﷺ، ولتستقر تلك العقيدة ولتضرب تلك القيمة بجذورها في قلوب المؤمنين.

قيمة البلاغ والصدع بالحق، والرغبة في هداية الخلق، بغض النظر عن الظروف والمعاملات والمؤثرات المحيطة، وبدون تعليق الأمر علىٰ مظانِّ الاستجابة من عدمها، إنَّها قيمة غرس الفسيلة حتىٰ لو كان ذلك بين يدي الساعة، وتيقن استحالة إدراك الثمرة.

بتلك القيمة= ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

ورغم وجود نبيين أثناء تلك اللحظات الحاسمة التي أمر الله فيها بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، ومواجهة القوم الجبارين، وقعود بني إسرائيل عن ذلك، ورغم أنَّ كثيرًا من الناس سيعلقون هنا مسؤولية النصح والبلاغ علىٰ النبيين موسىٰ وهارون عليهما السلام إلَّا أنَّ رجلين من عوام الناس-علىٰ قول جمهور المفسرين-لم يفعلا!

إنَّهما رجلان أنعم الله عليهما بالتقوىٰ والإيمان، والفهم الصحيح، والعقل الراجح؛ قد استشعروا مسؤولية، وعَلِمَا أنَّ عليهما واجبًا تجاه أمتهما، فلم يحقرا نفسيهما كحال كثير من الناس، بل تكلَّما ونصحَا وصدعَا وأعذرَا.

صحيح أنَّ بني إسرائيل لم يستجيبوا لهما، لكن يكفيهما أنَّ ربهما قد ذكرهما، وأنعم عليهما، وخلد سيرتهما بتلك القيمة التي تُبرز أرقىٰ معاني الإيجابية والرغبة في تغيير الناس للأفضل، مهما قست طبيعتهم ووعرت نفوسهم وصعبت استجابتهم.

وبتلك القيمة أيضًا خلد ذكر أولئك الناهين عن السوء في قصة أصحاب السبت. أولئك الذين حاول المثبطون تخذيلهم، وإبطاء حركتهم الدعوية،

متحججين بهلاك الناس لا محالة، ومدعين أنَّه لا سبيل لهدايتهم، ولا قيمة لوعظهم ودعوتهم، فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾. فكان الرد حاسمًا ساطعًا برَّاقًا: ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وعلىٰ الدرب نفسه، سار من قبلهم مؤمن آل فرعون! ذلك الرجل الذي كان يكتم إيمانه خوفًا من بطش الطاغية مدَّعي الألوهية.

لكن تلك اللحظات التي برزت فيها قيمة الجهر بالدعوة، والحرص علىٰ الأخذ بيد الخلق إلىٰ الحق كانت قد آنت، وحان موعدها، ومن ثَمَّ تكلم الرجل، وفاض ما في قلبه إلىٰ لسانه وجوارحه التي ظهر عليها مدىٰ خوفه علىٰ قومه ورغبته في هدايتهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾.

لم يكن الأمر قاصرًا علىٰ الدفاع عن موسىٰ، أو الذب عنه، والتخذيل عن قتله -كما يظن البعض-، بل لقد كان الأمر= دعوة! موعظة وتذكرة عامة، تقصد القلوبَ وتغمر الأفهامَ والألباب، ولعل أعظم دوافع تلك الدعوة بعد ابتغاء مرضاة الله= ذلك الخوف الذي أشرت إليه. خوف الحريص علىٰ أن يذوق كلُّ الخلق ما ذاقه، وأن يغترفوا ممَّا اغترف. خوف المشفق الذي يعلم ما ينتظر من لم يغترف. من ليسوا متنبهين لحجم الخطر لا يخشونه علىٰ أنفسهم. لكنَّه يخشىٰ عليهم.

﴿وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

ما أجمل دعوته ..!

إنَّ دعوته لهي دعوة الفطرة، والحق، والخير العظيم، والنصيحة، والحرص الأمين علىٰ استنقاذ الخلق من العذاب المهين. دعوة مزينة رقيقة

يقطر منها الحرص، وتفوح منها الرغبة في الخير للمدعو. أشرف وأحسن قول يمكن أن يوفق إنسان لقوله.

البلاغ عن الله.

لقد كانت دعوة مؤمن آل فرعون، لمن يتأملها ويتدبر أركانها= نصيحة شاملة جامعة جمعت بين الترغيب والترهيب والتذكير وضرب الأمثال، وحوت المنطق العقلي، والمعالجة الإيمانية والبعد التاريخي، وزينها تواضعه وأدبه واحترامه للمخاطب.

وهذه من أهم عوامل قبول الدعوة.

الأسلوب!

طرق الباب قبل الدخول! الاستئذان بشكل مهذب رقيق ليس فيه اقتحام للخصوصية أو استعلاء أبوي أو جلد للمدعو وتقريع له. شيء من الاحترام، وعدم فرض النفس بشكل مبالغ فيه؛ سيفرق كثيرًا. أن يشعر المتلقي أنَّك لم تأتِ لتستعلي عليه، أو لتستعرض ما عندك، أو تشعر وتشعره بفضلك، فتلك من مفاتيح القلوب التي تسهِّل قبول الدعوة أو النصيحة. هكذا كانت دعوة مؤمن آل فرعون. ومثله كانت دعوة مؤمن آل ياسين. لقد كانت هي أيضًا من أوضح النماذج القرآنية التي يتجلىٰ من خلالها هذا المعنىٰ وتبرز تلك القيمة.

قيمة الدعوة.

الدعوة المتجردة المنطلقة التي لا تعرف عوائق ولا تعطلها شبهات، لعل أهمها عدم استشعار المسؤولية وعدم توقع حدوث التأثير أو انعدام الحاجة إلىٰ قيام المرء بتلك الدعوة. فظاهرًا لم تكن الحاجة إلىٰ ذلك الرجل ماسَّة ولم يكن الأمر عليه متعينًا. إنَّ في مدينته أنبياء. ليس نبيًّا واحدًا ولا اثنين، بل ثلاثة أنبياء كانوا هنالك.

- وهو رجل عادي من عوام الناس، فماذا عساه أن يزيد عليهم؟

- ما الفارق الذي يمكن أن يصنعه في وجود كل هذا العدد من أفاضل الخلق وأحسنهم بيانًا وأبلغهم حجة ومنطقًا؟

- وهل بعد تكذيب مدينته لأولئك المعصومين؛ يُنتظر له استجابة أو يُظن به قدرة علىٰ التأثير؟!

ربما دارات كل تلك الأسئلة والخواطر في ذهن حبيب النجار، كما تدور في ذهن كثير من الخلق؛ معطلة إيَّاهم عن الدعوة إلىٰ الحق. لكن هذه الافتراضات أو إن شئت فقل: الشبهات= لم تعطل مسعاه ولم تعرقل بذله ولم تعكر صفو نيته، أو تقلل من همته بينما هو في طريقه من أقصىٰ المدينة ساعيًا مُجِدًّا في سيره؛ ليبلغ مكان اجتماع الناس ومنتداهم. ولربما استرجع في تلك اللحظات ما لقيه المرسلون من عنت وصدود وتكذيب. ولعله قد درات بخلده مشاهد الإهانة والتوبيخ التي قوبل بها أولئك الأخيار، والتي تجعل غالب الظن بعد كل ذلك أن يلقىٰ ما لقيه أئمة الحق أو أشد . . . لكنَّه كما سبق وقدمنا مع ذلك= ما انفك عن السعي وما تباطأ به المسير أو قعد عن البذل!

إنَّه رجل يعرف هدفه جيدًا، ويدرك أبعاد قضيته بشكل واضح، ويعلم أن مناط تلك القضية ليس مطلق ترتب الثمرة ولا حصول الاستجابة؛ فتلك أمور بيد مولاه، لكن الصدع بالحق كان هو مبتغاه، والبلاغ عن الله كان هو غاية مسعاه.

لذلك جاء . . .

ومن أقصىٰ المدينة سعىٰ . . .

ومن أعمق أعماق نفسه صدع: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾.

كلمات نورانية رقراقه، تخاطب العقل والروح معًا في آنٍ واحد، نطق بها الرجل في هذه الظروف العصيبة، ورغم كل ذلك التكذيب وتلك العوائق والعقبات التي واجهت من هم أعلىٰ منه منزلة وأجل قدرًا.

ولئن كان من معتذر عن الدعوة إلىٰ الحق والصدع بكلماته؛ لوجود مظنة التكذيب وتوقع عدم الاستجابة= لكان رجل يعيش بين قوم كذبوا ثلاثة أنبياء ولم يقبلوا منهم حقًّا، ولم يصدقوا حرفًا وما استجابوا لهم؛ هو أولىٰ الناس بذلك.

هو أولىٰ الناس بأن يقطع الطمع في هداية الخلق، أو يفقد الأمل في هدايتهم إلىٰ الحق؟

لكنَّه لم يفعل . . . ولم يتعذر ولم يتلكأ. لم يحقر نفسه، ولم يتحجج بعدم أهمية قوله، أو يحتج بقلة قيمة صدعه. بل جاء من أقصىٰ مدينته، وسعىٰ وتكلم وصدع ونصح ووعظ. ولقد أعذر.

- فأي همة تلك؟!
- وأي إصرار هذا الذي استقر في نفسه؟
- وأي حرص ذاك الذي بدا علىٰ كلماته وأفعاله؟!

إنَّه الحرص علىٰ أن يعلم الناس عن ربهم مهما كان الثمن. ولئن كان الثمن؛ حياته نفسه، فسيدفعها عن طيب خاطر . . فقط لكي يكون قومه ممن يعلمون . . .

لعل أشد ما يثير الدهشة والعجب في تلك القصة، وذاك الموقف القرآني الباهر؛ هو الموطن الذي قيلت فيه تلك الكلمة: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ . . لقد قال الرجل تلك الكلمات في دار غير الدار، وحال غير الحال!

لقد قالها وهو يكاد يدلف إلىٰ الجنة!

خرجت منه تلك العبارة بعد أن دفع الثمن بالفعل!

قالها بعد أن قتله قومه، ونال علىٰ أيديهم الشهادة!

رغم ذلك كان كل همه أن يعلموا!

كانت رغبته وما يشغل ذهنه؛ أن يدرك الناس ما عند الله من المغفرة والإكرام!

إنَّه مشهد يجسد حرصًا غير عادي، وتفانيًا منقطع النظير، ورغبة عارمة في هداية الخلق وتعريفهم بالحق . . .

حتىٰ بعد موته؛ ظلت رغبته في هداية الناس يقظة، وحرصه علىٰ نصحهم وإرشادهم متأججًا، فقال حين عاين النعيم وأبصر الجنة: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾. في ذلك المقام الذي كان من الممكن أن ينشغل فيه عن كل ذلك بالطيبات التي بها أُكرم، وينسىٰ واجب البلاغ، لكنَّه أيضًا لم يفعل، فلم ينقطع أمله في قومه، ولم يتكاسل عن نصحهم، وبذل الوسع في الأخذ بأيديهم طالما كان فيه عرق ينبض.

بل استمر علىٰ شأنه حتىٰ بعد أن لم يعد ذاك العرق ينبض، وانتقل إلىٰ دار القرار؛ فلم تعطله -كما قلت- شبهة، ولم تعوقه مزاعم جوفاء أو أفكار سلبية؛ مثبطة تنتشر للأسف بين كثير ممَّن ابتلي بتخذيلهم المسلمون.

لعلَّ من أخطر هذه الأفكار السلبية والشبهات المعوقة عن الدعوة والتي يصر هؤلاء علىٰ بثها= تصوير الدعوة علىٰ أنَّها من التدخل في شؤون الغير، وكيف أنَّ المرء لا شأن له بغيره ولندع الخلق للخالق، وكأنَّ هؤلاء لم يقرؤوا بين دفتي المصحف كل ما سبقت الإشارة إليه من النماذج التي تصيح أحداث قصصها ببطلان مزاعمهم.

لم يطلعوا في (سورة الكهف) علىٰ قصة صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن، وكيف ظل هذا الأخير يحاوره ويكلمه ويعظه ويحذره من مغبة أفعاله، لدرجة أن قالها له صريحة في النهاية:

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾

بمنطق هؤلاء المثبطين عن الدعوة؛ فإن الرجل المؤمن أخطأ بسؤاله لصاحبه، وأجرم بنصحه له وتدخله في شؤونه، وكان عليه أن يدع الخلق للخالق، ويتركه في حاله، أو أن يستدعي شيخًا بعمامة؛ ليعظه ويذكره بالله!

هل يعقل أن يذكر لنا ربنا تلك القصص لنرفض ما فيها من القيم التي تغرسها عن رجال من عموم الناس، قاموا بالحق، ودعوا إليه في كل زمان ومكان، ليسوا بأنبياء ولا مرسلين، بل هم بشر عاديون غير معصومين، جمعت بينهم الدعوة إلىٰ الحق الذي عرفوه، والإيمان الذي خالطت بشاشته قلوبهم، وامتزج ضياؤه بقناعة عقولهم، فلم يملكوا كتمانه، بل فاض من تلك القلوب، حتىٰ عبر الألسنة، وتجاوز أصحابها إلىٰ غيرهم.

أناس لم يشترطوا علىٰ ربهم أن تنجح دعواتهم، ولا أن تثمر مسيرتهم، فكان حالهم ومآلهم نموذجًا عمليًّا وتطبيقًا واقعيًّا لتلك القاعدة الربانية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ استجابة الناس له، وطلبهم لسماعه، وقبولهم لقوله، فإن غلب علىٰ ذلك الظنِّ أنَّهم سيستجيبون؛ نطق، وإن آنس منهم رغبة في سماعه؛ تكلم ونصح، وإن كانت الأخرىٰ؛ سكت وأعرض!

قد طابت نفسه وارتاح ضميره بمسكنات (لا فائدة)، ومهدئات (هلك الناس)، ونسي هؤلاء-أو تناسوا-أنَّ المرء إنَّما يدعو لينجو، وينصح؛ ليُرضي ربًّا لم يتعبده بالنتائج، ولم يكلفه بالثمار، وأنَّه أحوج إلىٰ النطق بالحق والدعوة إليه من أولئك الذين يسمعونه، سواء استجابوا له، أم لم يستجيبوا، متمثلًا نهجًا قويمًا لطالما سلكه الدعاة، وأقره كتابه الله .. نهجًا فحواه: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾. وما يدريه ألا يكونوا من أهل قوله جل جلاله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؟!

وذلك الأمر -دائمًا- ممكن .. **لعلهم يتقون ...**

مهما كانت طبيعة المدعو أو حالته أو المكان الذي يتواجد به، أو الظروف التي يحياها= فإنَّ هدايته ممكنة، والسعي لإيقاظ مشعل الهداية لتقتدي به النفوس التائهة= مُراد ومطلوب.

في هذا المكان البئيس الذي يجتمع فيه عادة شرار الخلق من السراق والقتلة والغاصبين، وقد يندر أن تجد بارقة نور ولمسة صلاح= وجد سجينان جنائيان ذلك المشعل .. مشعل الهداية.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

كان هذا هو المعيار الذي بنيا عليه لجوءهما إليه، وتلك كانت الصفة التي أخذت بقلبيهما إليه. لقد التمسا في نبي الله يوسف عليه السلام سمتًا حسنًا وخلقًا وورعًا؛ جعلوه أهلًا للسؤال ومظنة للإجابة.

لم يكن لسؤاليهما علاقة بمعتقده أو معتقداتهما.

لم يسأله صاحباه عن ربه، ولم يشاوراه في شأن أربابهما.

السؤال كان عن رؤيا ... عن حلم رآه كل منهما ...

لكن إجابة نبي الله يوسف عليه السلام كانت في صميم العقيدة. وقبل أن يسارع بتأويل الرؤيا وإجابة السؤال؛ تذكر رسالته، والهَمَّ الذي يحمله في صدره. نظر إلىٰ حال المخاطبين، وتأمل طبيعة المتلقين؛ فكانت الرسالة قبل الإجابة، والدعوة قبل النفع المباشر.

في البدء كانت الطمأنة أنّ الجواب لديه.

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾

هكذا قرر يوسف عليه السلام وبيَّن أنَّه علىٰ علم بالتأويل، وأنَّ مطلبهما عنده وزيادة، لكن ذلك كله ليس بفضله أو بكسبه، وإنَّما هو من عند ربه. وهنا يأتي التدرج في توصيل المعنىٰ، والرسالة التي يريد لها أن تصل.

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾

لقد أدار دفة الحديث إلىٰ أمر الدين بشكل سلس ويسير، ثم استمر في رسالته وأداء مهمته.

﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾

هكذا عرف يوسف عليه السلام نعمة الله عليه، ولم تُنْسِه إيَّاها تلك الجدران الرطبة والأسوار العالية التي هو حبيس بداخلها، والنعم التي هو محروم منها،

فكل ذلك يهون ما دامت النعمة العظمىٰ موجودة؛ نعمة الحق وشرف معرفة خالقه وتوحيده وعبوديته، هكذا عرف النعمة وشكرها، ثم عرَّف الخلق بها، ودعاهم لمعرفتها، ومعرفة من أنعم بها.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

دعوة رقية راقية، ومنطق سهل بسيط، والأهم رسالة لا ينساها حاملها.

ثم بعدها، جاءت إجابة السؤال وتأويل الرؤىٰ. لكن الأهم كان ذلك الهمّ الذي يشغله. همٌّ إنقاذ صاحبيه من ظلمات الشرك في الدنيا ونيران الجحيم في الآخرة. ذلك الهمُّ الذي نسيه البعض اليوم، والذي لم يعد يشغلهم في ظل حمىٰ التأطير والتصنيف المتبادل.

همٌّ أخشىٰ أن يتحول بعد حين إلىٰ تاريخ يُتحاكىٰ عنه، بعد أن يندثر تحت طبقات سميكة من تصفية الحسابات، وسوء الظن والصراع المحتدم الذي يجعل الناس في النهاية إمَّا أعداء، وإما أولياء.

إنَّه همُّ الدعوة إلىٰ الحق، والحرص علىٰ هداية الخلق.

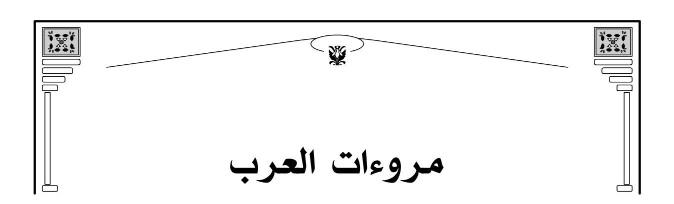
عندما يستعيد حملة الرسالة تلك القيمة، وتتعالىٰ من جديد في نفوسهم؛ سيدركون أنَّ كثيرًا من تلك الجدالات والاستدراج إلىٰ مراء وصراعات لم تكن -دائمًا- هي الأوْلىٰ، وأن إجابات أخرىٰ وهمومًا مختلفة كانت أولىٰ بقلوبهم وصدورهم.

وأن ليس كل مخالف عدوًّا حتىٰ وإن بدا كذلك في الظاهر.

فقط لو كانت قلوبًا صادقة في حملها للرسالة وتحملها للأمانة.

أمانة الدعوة.

والمدعو.



مروءات العرب

✍ أحمد عبد الباقي(*)

«إني لأعلم متى تهلك العرب:
إذا ساسها مَن لم يُدرك الجاهلية فيأخذ بأخلاقها،
ولم يُدركه الإسلام فَيَقِذُهُ الورعُ»(١)

❋ لا يزال العربي الكسير في زماننا يُكَفَّأُ بالبلاء حتىٰ يأتيه أجله، لا يصدّه ولا يصدفه عن نفض ما عَلِقَ بأنسجة عقله وما تعشَش علىٰ جدران قلبه وما يدوِّي في أذنه، من طول استماعه وقراءته للأكاذيب عن دينه وعربيته وقيمه ومروءات أجداده، إلا تعلّقه بتلك الظِّنَّةِ الكاذبة التي أوهمه بها عدوّه وزيّن له سبيلها بعد أن سلّط عليه سوط الترويض الفكري والتقويم العلمي، واحتشد له أبواق صُنّاع المفتريات وطقوس الوأد ونشر الإفك الشعوبي يُحضّضُون ويُحرّضون؛ فأعادوا صياغة ثقافته وعقله علىٰ احتفار أمّته وازدراء تاريخه، ونبش الخلافات وإثارة الإحن بينه وبين أبناء عمومته؛ فلا يعبر العربي تلك المنعطفات والتشقيقات والخلافات إلا وقد توارىٰ في حالٍ من الكمون والانكفاء؛ منعزلًا يشعر بالذّلّة والاستكانة والخضوع والضعف، فترىٰ علىٰ

(❋) باحث في الدراسات الأدبية واللغوية.

(١) ورد بألفاظ مختلفة تدور كلها حول هذا المعنىٰ، ويقذه: أي يُسكِّنه ويمنعه من انتهاك ما لا يحلَ ولا يجمُل.

وجهه الوجوم والقطوب والانكسار إذا ذُكّر بهويته العربية، أو تجده قد سقط في لجج من التّية متأرجحًا مع كل ناعق ينعق بحادثةٍ، حتىٰ إذا انكشف الغطاء عن سراجٍ الناعق انكشافةً ظهرت معها خديعته؛ انطفأ معه العربي الكسير وعاد مسلوبًا طريدًا مستصرخًا يبحث من جديد عن ومضة الحق، ولكنه يُفاجأ حينها بشراع النجاحة قد طُوِي أو وُئِدَ مع مَن وُئِدوا تحت ركام البحث عن حضارةٍ وقيم زائفة؛ فخرج علىٰ إثر ذلك جيل من أبناء العرب لا يعرف من القيم الإنسانية والأخلاق إلا تلك القيم الغربية الأجنبية عنه -أو ما يمكن أن يطلق عليه «لَبْرَلَة أو علمنة للأخلاق والقيم» - التي فرضها عليه المستعمِر الفكري والثقافي قبل الحربي، وزبانيته من المستغربين، وما عداها من قيمٍ وأخلاقِ دينه، ومروءات أجداده؛ فهو جاهل بها أو غافل عنها أو متغافل قد غُلّقت بينه وبينها أبواب مؤصدة لا ينفذ إليه منها شيء ولا يبرحه شيء منها، حتىٰ عمّت الفواحش والرذائل والأراجيف وخوارم المروءات؛ بل وتعارف بعض أهل زماننا عليها فألفوها وأصبحت من عوائدهم وأحوالهم وحيلهم، التي لو اطّلع أحد من العرب الأُوَل عليها؛ لدفن وجهه في كفيه حياء وخجلًا، فنزل هذا الجيل من رتبة الإنسانية إلىٰ درك البهيمية.

❁ ❁ ❁

* إن الجهل بحقيقة حياة العرب الأُوَل وأحوالهم وعاداتهم ومروءاتهم، لعبت دورًا كبيرًا في استيطان تلك النظرة العبثية للعربي في عقول أجيال من بني جلدتنا، سطّرتها أقلام محترقة اعتمدت التلفيق والتلزيق منهجًا لها، واتَّخذت الرَّيب والشَّك، والظن والتوهُّم، أعمدةً لصدور أحكامها، ساعدتها في الرسوخ والثبات آلة التصوير والإخراج السينمائي وما بثته وتبثه من صور زائفة مشوهة عن العرب؛ حتىٰ جاثمت علىٰ الصدور، وأصبحت معترضًا بين عربي زماننا وبين اعتزازه بعروبته وإفاقته من سباته، لكنها تتبرج له في مظاهر ومؤثرات خدّاعة تُوقع بقلبه في محل الاطمئنان لها.

ولا يهتدي العربي ولا ترجعه إلىٰ سبيل الحق إلا رواجع الهداية والتوفيق من الله جل جلاله؛ فتلوح له بصائر من العلم يبصر بها العزة والمكرمة في دينه وهويته وعربيته المبينة.

وإن الدارس لحياة العرب الأُوَل ليعجب غاية العجب من مكارم أخلاقهم، ويدهش حقًا من مروءاتهم وقيمهم التي أضفت علىٰ الحياة المعاني المفتقدة في الحضارة الغربية بعد الإيمان بالله ورسوله، «ومن عجائب صنعه جل جلاله أن الأمة العربية قد جمع فيها من مكارم الأخلاق ما تشتت في صنوف العالم أجمع، فكأيّن من أمة اختصت بمكرمة واحدة لا يوجد بها سواها بخلاف الأمة العربية؛ فإنك لا تجد شاذة ولا فاذة من أنواع المكارم إلا وقد أخذت منها بالحظ الأوفر والنصيب الأكبر خَلْقًا وخُلُقًا»[1].

* وهذه مشاهد ولقطات سريعة واضحة من أخبار القوم وقصصهم وأحوالهم؛ تكشف لك عن صور عظيمة من مروءاتهم ومكارم أخلاقهم، حتىٰ تبرق منها أسرّة وجهك، وإن كنت متغلغلًا في التجريد أو واقعًا تحت جُنَح الكره لعرب اليوم؛ مما قُذف في روعك من أباطيل عنهم، أو مما تراه وتسمعه من تخاذل كبرائهم عن نصرة إخوانهم الذين امتُحِنوا بالبلاء، وعن مجون بعضهم . . .

*** ومن تلك الخصال التي امتُدح بها العرب الأُوَل:**

* الكرم، والشجاعة، والصدق، والستر، والحياء، وفزعهم من تكشّف العورات حتىٰ مع القتل وعند الموت، وبغضهم للخيانة والغدر والكذب، وحفظهم للعهد والأمانة والوفاء بالوعد، وإجارتهم للمستجير الغريب وإن كان مجرمًا، واتقاء الشبهات، والمحافظة علىٰ الأعراض، وتوقير الكبير، وتسويد المستحق، وإنزال الناس منازلهم، وحفظ السر، والعفاف، وغنىٰ النفس وصيانتها، والفراسة، والصبر علىٰ شظف العيش، وتجنّب المنة . . .

---

(١) «المواهب الفتحية» للشيخ حمزة فتح الله ت١٣٣٦هـ، ط، مكتبة التراث- القاهرة.

*** وها هي بعض صور تلك الخصال:**

* يوم حاصر المشركون دار النبي ﷺ ولم يتقحموا عليه -مع قصر الجدار- ينتظرون خروجه؛ إذ همّ بعضهم بالولوج عليه؛ فصاحت امرأة في الدار؛ فقال أحدهم: «والله إنها للسُّبَّة في العرب؛ أن يتحدّث عنّا أنّا تسورنا الحيطان علىٰ بنات عمّنا، وهتكنا ستر حرمتنا».

* وقال حاتم الطائي يصف مروءاته: «ما خاتَلتُ جارةً لي قط؛ أريدُها عن نفسها، ولا اؤتُمِنْتُ علىٰ أمانة إلا قضيتُها، ولا أُتِيَ أحدٌ من قِبَلي بسَوْءة- وفِي رواية: بسُوء».

*** وقال المقنع العبدي يصف حفظه لعرض جاره إذا غاب عن بيته:**

أَرَىٰ دَارَ جَارِي إِنْ تَغَيَّبَ حِقْبَةً ... عَلَـيَّ حَـرَامًا بَـعْـدَهُ إِنْ دَخَـلْـتُـهَـا

قَلِيلٌ سُؤَالِي جَارَتِي عَنْ شُؤُونِهَا ... إِذَا غَابَ رَبُّ الْبَيْتِ عَنْهَا هَجَرْتُهَا

أَلَـيْسَ قَـبِـيـحًـا أَنْ يُـخَـبَّـرَ أَنَّـنِـي ... إِذَا كَانَ عَنْهَا شَاحِطَ الدَّارِ زُرْتُهَا

* وقال صفوان بن المعطّل، الذي قيل له ما قيل من حديث الإفك متعجبًا مما نسبوه إليه: «سبحان الله! فوالذي نفسي بيده ما كَشَفْتُ من كَنَفِ أُنْثىٰ قط». أي: سترها، وهو كناية عن عدم الجماع.

* وقال بشر بن عمرو بن مرثد، يوم مقتله- وهو يوم قلاب- بعد أن هُزم جيشه، قال لسبع بن الحسحاس وبني أسد، بعد أن دفعه سبع في نحره فوقع بشر مستلقيًا، فأخذ سبع برجله، ثم أتبع السيف فرج الدرع حتىٰ خاض به كبده، فقال بشر: «أجيروا سراويلي؛ فإني لم أستعن»[1] أي: لم أحلق شعر عانتي!

* وقال عَوْف بن النعمان الشيباني يصف حفظه للوعد:

«لأن أموت عطشًا أحبُّ إليَّ من أن أموت مِخْلَافًا لموعدة»

---

(١) راجع «فرحة الأديب» للأسود الغندجاني، تحقيق: د. محمد علي سلطاني، ص٣٩، ط، دار النبراس.

* ومن وصايا عمرو بن معدي في الحث علىٰ بغض الغدر والهرب منه:

وإنْ دُعِيتَ لغدرٍ أو أُمِرْتَ به فاهرُبْ بنفسِكَ عنه آبِدَ الهَرَبِ

* وبينما خُبَيب عند بنات الحارث أسيرًا يوم مقتله؛ إذ استعار من إحدىٰ بنات الحارث موسَىٰ يستحدّ بها للقتل، فأعارته، فما راع المرأة -ولها صبي يدرُجُ حتىٰ أتاه وهي غافلة- إلا بخُبَيب قد أجلس الصبي علىٰ فخذه، والموسىٰ في يده، ففزعت المرأة فزعة عرفها خُبَيب، فقال خُبَيب: «أتخشَيْن أنِّي أقتله! إن الغدر ليس من شأننا».

* وفي قصة حماية عبد الرحمن بن عوف ﷺ لأمية بن خلف يوم بدر، لما كان بينهما من عهد ومكاتبة بالحفظ؛ مروءة نادرة وحفظ للعهد ووفاء بالوعد، يقول عبد الرحمن ﷺ: «كاتبتُ أميةَ بن خلفٍ كتابًا بأن يحفظني في صاغيتي (أي: مالي، أو حاشيتي، أو أهلي) بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت الرحمن؛ قال: لا أعرف الرحمن، كاتِبْنِي باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبتُه عبد عمرو، فلما كان في يوم بدر خرجتُ إلىٰ جبلٍ لأُحرزَه (أي: لأحفظه) حين نام الناس، فأبصَرَه بلالٌ، فخرج حتىٰ وقف علىٰ مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيتُ أن يلحقونا؛ خَلَّفتُ لهم ابنه لأشغلَهم، فقتلوه، ثم أَبَوْا حتىٰ يتبعونا، وكان (أي: أمية) رجلًا ثقيلًا فلما أدركونا قلت له: ابْرُكْ، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه؛ فتخللوه بالسيوف من تحتي حتىٰ قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، وكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه».

* علّق الإمام ابن بطال القرطبي- ووافقه علىٰ فقهه الإمام بدر الدين العيني- علىٰ هذا الأثر بقوله: «وفيه من الفقه: مجازاة المسلمِ الكافرَ علىٰ البرّ يكون منه للمسلم، والإحسانِ إليه علىٰ جميل فعله، والسعي له في تخليصه من القتل وشبهه».

* وتأمل قول النعمان بن المنذر يصف إجارتهم للمستجير الغريب وإن كان مجرمًا: «وإنه ليلجأ إليهم المجرمُ المُحْدِثُ من غير معرفة ولا قرابة؛ فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله».

* ويفتخر الربيع بن أبي الحقيق، برعاية وحماية قرابته إذا احتاجوا إليه، ويتوارىٰ عنهم ويبتعد في حال استغنائهم عنه؛ لشجاعته وقدرته علىٰ الكسب والدفاع عن نفسه:

وسوفَ تَعْلَمُ يَوْمَ الرَّوْعِ ما حَسَبي ... إذَا الذي كُنْتَ تَرْجَو خَامَ أو خَمَلا
أَنَا ابن عَمِّكَ ما نَابَتْكَ نَائِبَةٌ ... وَلَسْتُ مِنْكَ إذا ما كَعْبكَ اعْتَدَلا

*** ويفتخر خُفَاف بن ندبة ببعده عن الدناءة وأهلها بقوله:**

أَدَعُ الدّنَاءَةَ لا أُلَابِسُ أَهْلَهَا ... وَلَدَيّ مِنْ كَيْسِ الزّمَانِ نَصِيبُ

*** ويصف الحصين بن الحُمام المُرِّي شجاعته وعزة نفسه بقوله:**

فَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسُبَّةٍ ... وَلَا مُبْتَغٍ مِن رَهْبَةِ الموتِ سُلَّمَا

*** ويصف الشَّمَّاخ بن ضِرار حياءه، وكيفية تعامله مع مرضىٰ القلوب؛ فقال:**

أُجَامِلُ أَقْوَامًا حَيَاءً وَقَدْ أَرَىٰ ... صُدُورَهُمُ تَغْلِي عَلَيَّ مِرَاضُهَا

*** وتدبر قول النعمان بن المنذر يصف سخاء العرب وكرمهم:**

«وأما سخاؤها؛ فإن أدناهم رجلًا الذي تكون عنده البَكْرَة والنَّاب، عليها بلاغه في حموله وشبعه وريّه، فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزي بالشّربة؛ فيعقرها له، ويَرضَىٰ أن يخرجَ عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر».

*** وكانوا يعدون الحديث مع الضيف من القرىٰ وكرم الضيافة؛ قال الطفيل الغنوي:**

أُحَدِّثُهُ إنَّ الحَدِيثَ مِنَ القِرَىٰ ... وتَكْلأُ عَيْنِي عَيْنَهُ حِينَ يَهْجَعُ

* وفي ترجمة أبي عبد الله قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري -من زهاد الصحابة وكرمائهم- كان ﵁ يطعم الناس في أسفاره مع النبي ﷺ، وكان إذا نفد ما معه؛ يستدين ويطعم، وكان ينادي في كل يوم: هلموا إلىٰ اللحم والثريد. حتىٰ قالت له عجوز ذات يوم: أشكو إليك قلة الجرذان. فقال: ما أحسن هذه الكناية! املؤوا بيتها خبزًا ولحمًا وسمنًا وتمرًا.

* وقد رأىٰ تلك المروءات وتنبَّه لها كثير من المستشرقين، فيقول المستشرق الرَّحَّالة السويسري، جون لويس بوركهارت، في رحلته إلىٰ سورية، وتنقله بين قبائل المنطقة الرُّحَّل، وبخاصة قبيلة عَنَزَة عام ١٨٠٩م عن كرم ضيافتهم:

«إن الضيف عند عَنَزَة مُقدَّس. فحياته مصونه، ولم يذكر أحد قط أنه قد حدث إخلال بالضيافة بخيانة الضيف. ومَن يكن له حام واحد في أيِّ قبيلة؛ يصبح صديقًا لكل القبائل الصديقة لها. ولذلك فإنه يمكن أن يوثق بعنزيّ علىٰ الحياة، والممتلكات بأمان تام، ويمكن أن يصحبه المرء حيثما يذهب، لكن أعداءه يصبحون أعداء الرجل الذي هو في حمايته».

* ومن بديع وصايا العرب بمكارم الأخلاق والمروءات؛ وصية هاشم ابن عبد مناف، لما تنافرت إليه قريش وخزاعة، فخطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة؛ فكان مما أوصاهم به: «المرء منسوب إلىٰ فعله، ومأخوذ بعمله، فاصطنعوا المعروف تكسِبوا الحمد، ودعوا الفضول تُجَانِبْكم السفهاء، وأكرموا الجليس يَعْمُر ناديكم، وحاموا الخليط يُرغَب في جواركم، وأنصفوا من أنفسكم يُوثق بكم، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدَّنيّة فإنها تضع الشرف، وتهدم المجد، وإن نَهْنَهَة الجاهل أهون من جريرته، ورأس العشيرة يحمل أثقالها، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به».

*** ووصية عبد قيس بن خُفَاف لابنه جبيل:**

اللـهَ فاتّقِهِ وأَوْفِ بِنَذْرِهِ ... وإذا حَلَفْتَ مُمَارِيًا؛ فتَحَلَّلِ
واتْرُكْ مَحَلّ السّوْءِ لا تَنْزِلْ بِهِ ... وإذا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ؛ فتَحَوّلِ

واسْتَغْنِ ما أَغْناكَ ربُكَ بالغِنَىٰ ... وإذا تُصِبْكَ خَصَاصَةٌ؛ فتَجَمّلِ
وإذا تَشَاجَرَ في فُؤَادِكَ مَرَّةً ... أَمْرَانِ= فَاعْمِدْ لِلْأَعَفِّ الأَجْمَلِ
وإذا هَمَمْتَ بأمرِ شَرٍّ؛ فاتَّئِدْ ... وإذا هَمَمْتَ بأمرِ خَيْرٍ؛ فاعْجَلِ
وإذا افْتَقَرْتَ؛ فلا تَكُنْ مُتَخَشِّعًا ... تَرْجُو الفواضِلَ عندَ غيرِ المُفْضِلِ

* ووصية النابغة الشيباني:

وَكُلُّ أُخُوَّةٍ فِي اللهِ تَبْقَىٰ ... وَلِيْسَ يَدُومُ فِي الدُّنْيَا إِخَاءُ
أَصِبْ ذا الْحِلْمِ مِنْكَ بِسَجْلِ وُدٍّ ... وَصِلْهُ، لا يَكُن مِنْكَ الْجَفَاءُ
وَلَا تَصِلِ السَّفِيهَ ولا تُجِبْهُ ... فَإِنَّ وِصَالَ ذي الْخَرَبَاتِ دَاءُ
وَإِنَّ فِرَاقَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ ... وَصَرْمَ حِبَالَ خُلَّتِهِ شِفَاءُ
وَضَيْفَكَ مَا عَمِرْتَ فلا تُهِنْهُ ... وَآثِرْهُ وَإِنْ قَلَّ الْعَشَاءُ
وَلَا تَجْعَلْ طَعَامَ اللَّيْلِ ذُخْرًا ... حِذَارَ غَدٍ، لِكُلِّ غَدٍ غَدَاءُ

* ووصية عبيد بن الأبرص:

وَلَا تُظْهِرَن وُدِّ امْرِئٍ قبلَ خُبْرِهِ ... وبعدَ بلاءِ المرءِ فاذْمُمْ أو احْمَدِ
وَلَا تَتْبَعَن الرَّأْيَ منهُ تَقُصُّهُ ... ولكنْ برأيِ المرءِ ذي اللُّبِّ فاقْتَدِ
وَلَا تَزْهَدَن في وَصْلِ أهلِ قَرَابَةٍ ... لِذُخْرٍ، وفي وَصْلِ الأباعِد فازْهَدِ

* * *

* وبعد هذا العرض السريع لجملة من مروءات العرب ومكارم أخلاقهم، فلعلك تبصر الآن معنىٰ قول النبي ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

* وقوله ﷺ لما سئل: مَن أكرم اناس؟ قال: «**أكرمهم؛ أتقاهم**». قالوا: يا نبي الله ليس عن هذا نسألك. قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله**». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فعن معادن العرب تسألوني؟**» قالوا: نعم. قال: «**فخياركم في الجاهلية= خياركم في الإسلام إذا فقهوا**».

* وقوله ﷺ: «**ورجل وسَّعَ الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلِّه فأُتِيَ به، فعرَّفَه نعمه؛ فعَرَفها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تُحبُّ أن يُنفقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ ليُقال هو جوادٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ علىٰ وجهه ثم أُلقِيَ في النار**».

قلتُ: تلك الخيرية والمكارم والمروءات كانت في العرب سجية وطبعًا قبل الإسلام، ولكن شابتها شائبة الشرك وفقد الوحي، حتىٰ جاء الإسلام فأتمها وزال عنها درنها وغوائلها، فكان خيار العرب في الجاهلية؛ خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وأول هذا الفقه: النية الصادقة وإخلاص القول والعمل لله جل جلاله، فكان من إتمام النبي ﷺ لمكارم الأخلاق؛ توجيه نية فاعلها إلىٰ الله جل جلاله ابتغاء وجه الكريم، فلقد كان الرجل قبل الإسلام يفعل المكرمة والمروءة؛ اجتلابًا لمحمدة قومه وقبيلته وخوفًا من هجائهم له، ويَرضَىٰ أن يخرجَ عن دنياه كلها فيما يُكسِبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر، كما مرّ معنا من كلام النعمان بن المنذر. لذلك عدّ العلماء حديث «إنما الأعمال بالنيات» من الأحاديث الأصول التي يدور عليها الدين. والعربي المسلم لا حصن له ولا منعة إلا في دينه وهويته ومروءات أجداده وتعلمه.

* وأولىٰ ما يبدأ به طالب المروءات ومكارم الأخلاق؛ هو بالدرجة الأولىٰ الذي لا مناص منه، ولا يقدّم عليه شيء= استقراء حياة النبي محمد ﷺ وأخلاقه ومروءاته مع العالمين (مؤمنهم وكافرهم)، فهي معدن المكرمات وذروة الكمال البشري، ودراستها دراسة صابرة متأنية مجردة عن الهوىٰ، فهي خيط اليقين الذي نهتدي به إلىٰ الكشف عن مكنونات حقيقة القيم ودورها في سعادة البشرية والحفاظ عليها، مع ما يتخلل هذا الخيط من خرزات فضائل ومروءات أصاحبه رضي الله عنهم، ثم مروءات عامة العرب قبل الإسلام وبعده.

* «وبالجملة فمَن تبصّر في أحوال العرب وأخلاقهم الممتازين بها عن غيرهم = وضح له من طريق العقل أن لا بدع في أن سيد الأنبياء وخاتمهم بالرسالة العامة ﷺ لم يبعث من سواهم، فلقد انتهت إليهم في جملة الأخلاق

الكريمة، مكانة الصدق والوفاء والكرم والشجاعة وحرمة الجوار، ولا يزال أحدهم يفرط في الكرم حتىٰ ينفَد مالُه فيعمِد إلىٰ استعمال الشجاعة لنَيل ما يسخو به، إلىٰ أن عدّلت الشريعة ذلك ونحوه. كما يتضح له بطلان القول بأنهم لم يكن لجاهليتهم حظ في الفلسفة، فإن في تتبّع أقوالهم وأحوالهم ما يذهل عقول الحكماء في جميع ضروب الحكمة، والله يختص برحمته مَن يشاء»[١].

* ولقد كانت أحلام ومروءات أهل الجاهلية مضربًا للمثل في القرون التي تلت الإسلام. قال أبو وائل للأعمش: «يا أبا سليمان إن أمراءنا هؤلاء ليس عندهم واحدة من اثنتين؛ ليس عندهم تقوىٰ أهل الإيمان، ولا أحلام أهل الجاهلية».

* فمحاولة الإحاطة بمثل تلك التفاصيل الدقيقة واستخراجها من النصوص الشرعية والشعرية؛ تمثل الركيزة الأساسية التي بها نفهم سبب اختيار الله جل جلاله لهذا الجنس العربي من دون العالمين، هؤلاء الذين حملوا هذا الدين إلىٰ أهل الأرض، ونصروه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم.

* أما النظر في النصوص بعين واحدة واختزال عملية شرحها في بيان المعاني المعجمية، والاستعراضات النحوية والصرفية، وبعض الأحكام الفقهية، لن تستطيع -وحدها- أن تكشف لنا عن ركامٍ من المعاني الثاوية للمروءات ومكارم الأخلاق المحتجبة خلف غشاء من العلاقات التركيبية التي تمثل النص ككل، وهو درب لن تضيئه وتكشف أمره وتخرجه من عتماته إلا معارف الشارح الراسخة وفهمه لحقيقة حياة العربي وعاداته وتقاليده وطرائقه في نظم المعاني، ومدىٰ اطِّرادها وفلسفته في الحياة بشكل عام قبل الإسلام وبعده، ومن ثمّ يخرجه الشارح إلىٰ عموم الناس في صور مبسّطة فعّالة تناسب عقولهم وزمانهم وأعرافهم.

---

(١) «المواهب الفتحية» للشيخ حمزة فتح الله.

* وإن كنا اليوم قد بعدنا عن أجدادنا بعدًا لا قرب له؛ فلا يزال لدينا من أخبارهم وأشعارهم ونثرهم ما يشحذ الهمم ويقوي العزائم، فيسلك بها العربي سبيل التّأسّي.

* وإن كان من نصيحة في ختام هذه الكلمة؛ فهي:

تَعَلَّم المروءة ومَارِسْهَا.

* قال الشاعر:

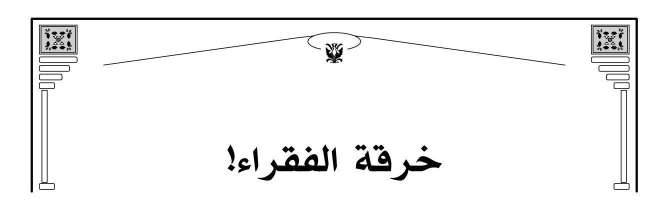
إِذَا المرءُ أَعْيَتْهُ المرُوءةُ نَاشِئًا   فَمَطْلَبُهَا كَهْلًا عَلَيْهِ شَدِيدُ

* وأَيْقِنْ أن المروءات هي أزكىٰ ما تغرس في النفس بعد كلام الله جل جلاله، وأنه لا خير في حياة امرئٍ حُتَّتْ مروءته.

* قال كعب بن سعد الغَنَوي:

فتىٰ لا يُبالِي أنْ يكُونَ بِجِسْمِهِ   إِذَا نالَ خَلَّاتِ الْكِرَامِ شُحُوبُ

* وقال الإمام محمد الخضر حسين: «إذا كانت المروءة تقتضي الإعراض عن كثير من اللذات؛ فإن في المروءة نفسها لذة تفوق كل نعيم في هذه الحياة. وإذا كان في حفظ المروءة ملاقاة كثير من المشاق؛ فإن راحة الضمير التي يجدها الرجل عندما يبلغ في المروءة غاية سامية تنسيه كل مشقة، ولا يبقىٰ معها للتعب باقية».



خرقة الفقراء!

✍ وجدان العلي(*)

خُلِق ضعيفًا فقيرًا، محاطًا بجَرَّة الطين التي نسميها (الأرض)، أقوىٰ ما فيه احتياجه وفاقته!

وقد أدركته عناية ربه تبارك اسمه فوصل أسبابه به، وجعل تلك الفاقة المبثوثة في جبلته سبيلَه إلىٰ تحقيق العبودية ضراعةً ومسألةً والتجاءً إلىٰ سيده ومولاه جل جلاله وبحمده، فيفتح في نفسه نوافذ النور، ويلهمه دعاءه والثناء عليه جل جلاله وبحمده، حتىٰ إن العبد ليكون خافت الذكر خَفِيًّا في الأرض، قد صام لسانه عن آذان الناس والتعرض إلىٰ مسألتهم، ولَكنَّ له صلصلةً في الملكوت، ولقلبه دويٌّ، ولاسمه شهرة في الملأ الأعلىٰ، وما رفعه إلا هينمة الدعاء والضراعة، واللياذ بالله، والاستعانة به، والفزع إليه ليلًا ونهارًا في مجالس الفقر وسجدات الدعاء الضارعة.

ولنِعْمَ العبدُ، عبد تعرَّفَ إلىٰ ربه جل جلاله وبحمده من بوابة الدعاءِ؛ فإن في الدعاءِ لصبغةً تصبغ القلب بحقيقة العبودية، وقد قال ﷺ في بيانٍ نبوي شريف جليل: «الدعاء هو العبادة». ومن أنعم النظر ودار بروحه في ذلك الفلك العلوي الشريف= وجد أن أعظم الناس تحقيقًا لمعنىٰ العبودية؛ هو أكثرهم حظًّا من ذكر ربه جل جلاله وبحمده، ومسألته ودعائه.

(*) كاتب وأديب ومحاضر مصري، صدر له من قبل كتاب: «ظل النديم».
ومن برامجه المشهورة برنامج: نوري.

ولذلك كان أعبد الخلق ﷺ يذكر الله جل جلاله في كل أحايينه، وما من فعل يأتيه إلَّا وهو في خفارة الدعاء، عند نومه ويقظته، ووضعه ثيابه، وارتدائها، وفي سفره وعودته وحزنه وفرحه، ومع أهله، وفي ليله ونهاره وكل شأنه: الدعاء سمتٌ عام لا يفارقه ﷺ. وفي حربه كان يُبَوِّئُ المؤمنين مقاعد القتال، ويحشد صفوفهم، ويقوم ليله في حشد ضراعات العبد المستغيث بربه، يمهد الطريق إلىٰ فَلَق العزة والنصر.

وهذا يكشف لك الستر عن سر عظيم من أسرار الدعاء، وهو أنَّ الدعاء ليس حركة لسان تتهادىٰ منه العبارات والكلمات، ولكنَّه موسمٌ لتربية النفس واستخراج مكامن الذلة فيها، وبعثها ضعيفة خاشعة تلبس ثوب الضراعة الذي يمتد سابغًا علىٰ النفس والروح والفؤاد، فإذا بليَ أو تخرق، هيأ الله برحمته ولطفه من الأقدار ما يجدد في النفس وهج الدعاء، ويرمم في الروح ما هدمته يد الغفلة وتطاول الأمد.

فليس الدعاء محرابًا تقطف النفس فيه ثمار الإجابة وحسب، ولكنَّه ذِلَّةُ مسكينٍ مُحاصَرٍ بالضعف، مثقلٍ بذنوبه، يمدُّ يدَه برجفات الحاجة وهمهمات الندم، فيقوم وقد أورق في قلبه نورُ الاستقامة والهداية، قد قُبِل هو ودعاؤُه معًا بسعة الرحمة وهِبَاتِ العفو من رب العالمين.

وإن العبد ليجثو داعيًا فلا يغادر مقامه حتىٰ يؤوب إلىٰ ربه مستقيمًا.

* وقد أنار القرآن ببصائره تلك المعاني وأبان عنها في غير موضع، فقال جل جلاله وبحمده: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ **[الأنعام: ٤٢، ٤٣]**. والضراعة كلمة ناطقة بما في أطوائها من الذلة والخشوع والإخبات والاستكانة، كأنك تبصر في ظلالها وجها غمرته إطراقة الخشوع والإخبات، عاين فقره وفاقته، وأجاءته الكربة إلىٰ ربه جل جلاله وبحمده، فهو يدعو ويرجو، ويتوب ويستغفر، ويطل إلىٰ وجه الماضي منكسرا نادما علىٰ ما فرط منه، ويستمطر رحمات ربه بلسان العفو

والرجاء، وليس يريد ربه الرحيم منه سوىٰ تلك الذلة المنكسرة؛ فالكبر فكرة تصادم أصل الإنسان؛ لأن الفقر أخص صفات العبد، والغنىٰ المطلق أخص صفات الرب.

* ثم إن في الدعاء سرا أجل وأكبر، وهو التعرف إلىٰ جمال الرب والدخول إليه من بوابة المسألة، وإنه ليحب من عبده سؤاله والطمع فيه واللياذ به! ولقد قال ﷺ في وصاته للحبر ابن عباس رضي الله عنهما: «**تعرف إلىٰ الله في الرخاء؛ يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**» .. وذلك عرفان عظيم يهدي القلب إلىٰ معرفة الرب جل جلاله معرفة الخواص من خلقه جل جلاله وبحمده، وهي معرفة جماله في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته!

وهاهنا يسعىٰ القلب بين يدي صاحبه في مشهد الضراعة؛ ليريه ملكوت العرفان الأعظم، فيطالع كرم الرب وإحسانه وفضله وإنعامه، وإغاثته عبده، ولطفه به، ورحمته إياه، وهدايته لسؤاله، وإذاقة قلبه حلاوة الطمع في الرب ..!

فلا يزال العبد في مسألته يرتقي ويصعد من درج السؤال إلىٰ درج العرفان، فيرىٰ ربوبية ربه، وآثار أسمائه وصفاته، وتفرده بالإلهية= رؤية قلبية تورثه يقينا في ربه جل جلاله وبحمده، وتطلعه علىٰ خفايا أسراره في قضائه وقدره، فيطعم قلبه طعم حلاوة الإيمان، فيعود بأعظم من مسألته: وهو حبه لرب العالمين وفرحه بكرمه وإحسانه، ومشاهدة جمال أسمائه وصفاته في فعله وقضائه وقدره جل جلاله وبحمده.

* ولله عطاءات وأسرار في الضراعة والدعاء لا تنفد، وما صحب عبد الدعاء وكان في خفارته إلا نالته بركة الولاية والمعية الخاصة، فيؤثر ربه جل جلاله وبحمده ويلهج بالثناء عليه، ولا يزال يثني ويثني حتىٰ يكون الثناء علىٰ ربه أحب إلىٰ قلبه من مسألته!

وفي الكرب يقف المرء فارغا من مطالعة الأسباب، نافذا بفقره إلىٰ مشاهدة منة ربه، راجيا في رحمته، مادا يد الذل مخدوش القلب، داعيا بالنفس المخضوب بالفقر، والحرف المنكسر بالفقر، والدمعة المغموسة في الفقر، والوجع الكظيم، أعجميا إلا من الثناء علىٰ ربه، يتكلم بصمته المسكين قائلا: «الله الله ربي، لا أشرك به شيئا»، قد فني عن مشاهدة عمل صالح وفق إليه فلا يشهد إلا وحدانية ربه، وإلهيته، وتنزهه عن الشريك والنظير، كأنما يقول: «إنما أنا بك لا بعملي، أنت الرب، وأنا العبد، منك النعمة ومني الاعتراف بالذنب، وأنت أكرمتني بالتعرض لنفحات عطائك، فاكشف الكرب عن عبد وفقته للثناء عليك، وإفرادك بالألوهية!» فيتهاوىٰ غمام الهم، وتشرق شمس الفرحة وضيئة مترفة بالنور في قلب عبد لاذ مثنيا علىٰ ربه في مضيق كربه!

ولهذا كانت سجدة الثناء الكبرىٰ يوم الحشر من نبينا ﷺ= نافذة الفرج وكاشفة الكرب، فكل من كان مثنيا علىٰ ربه= كان ناجيا في الدنيا والآخرة! قال سيدنا أبو القاسم ﷺ: «**وما أحد أحب إليه المدح من الله**». وهذا الثناء الذي ينطلق به لسان العبد، لا يدع القلب إلا مغمورا بالنور، محفوفا بالرحمات والبركات والمنن التي لا يلحقها وصف.

وهذا مقام له شرف وهيبة وجلال: فهذا عبد عاين منة رب العالمين عليه فانطلق لسانه بالثناء إقرارا بفضل ربه عليه وإحسانه إليه= وهذا عبد لا يلتفت إلىٰ عمله، ولا يبصر منه شيئا، فلا يرىٰ وسيلة إلىٰ ربه إلا الثناء عليه= وهذا عبد قد جهده الكرب وأحاطت به الهموم، ولا يرىٰ ربه منه إلا حسن الثناء عليه= وهذا عبد قد بسط الحب سلطانه علىٰ قلبه فهو مشغول بحبيبه وخالقه الودود، لا يلتفت عنه ولا يبصر لنفسه حاجة إلا أن يثني عليه= وهذا عبد أبصر جلال أسماء ربه وصفاته، وباشر قلبه أنوارها، فامحت من قلبه أسئلته وحاجاته ورغائبه، وليس إلا الثناء علىٰ ربه وسيده وفاطره ورازقه ومقيته وراحمه، الذي لم يزل يعفو عنه، ويستره، ويعافيه، ويكلؤه، ويعينه، ويسدده،

ويهديه، ويبسط له من الحب في قلوب الخلق، والرزق الذي تقوم به حياته، ويصرف عنه السوء، ويقضي له حاجاته، ويحسن إليه مع إساءته وتقصيره، ويجيبه في ضرائه وشدته، ويشكره علىٰ القليل، ويحجب عن الخلق سوءاته ومثالبه، ويحوجه إليه ليمن عليه، ويضطره إليه ليلوذ به . . . فيردد الفقير ما قاله أعلم الخلق به: سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك!

فمن قام بقلبه مثل هذه المشاهد العلوية= ارتفعت عنه أدخنة المحن، وتكشفت عنه سحب الهم، وقام يرفل في سعادة تضحك وتهرول في أودية الروح هرولة الطفل في حقول النور . . . ولذلك كانت أدعية الكرب ناطقة بالثناء علىٰ الرب تبارك اسمه وتعالىٰ جده:

«لا إله إلا الله العظيم الحليم . . لا إله إلا الله رب العرش العظيم . . لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم. الله الله ربي لا أشرك به شيئا . . لا إله إلا أنت سبحانك! إني كنت من الظالمين!».

وإنها لأبجدية حب، تسبق بالضراعة سبقا بعيدا، وتحمل أنفاسها صاعدة بها إلىٰ العرش، عائدة بالإجابة من رب شكور، كريم، كتب علىٰ نفسه الرحمة منة منه وفضلا . . ! فأي جمال أعظم من هذا الجمال الجليل!

* أرأيت إلىٰ ذلك العبد الكظيم يحمل أثقاله، وكلما هم بضراعة هم، قبض لسانه عن ذكر حاجته -وإنها لعظيمة تقطع الضحك والنوم والكلام- ليخلص ضراعته كلها لأهازيج الثناء علىٰ الرب العظيم!

أتظن أن الله جل جلاله لا يكرمه وهو يؤثر ثناء الرب علىٰ ذكر حاجة النفس وإن كانت عظيمة؟! حاشا لكرمه الجليل! بل يعطيه كل ما يريد وفوق ما يريد؛ إن ربنا لكريم جميل.

❁ ❁ ❁

* ومن منازل العرفان العظمىٰ في مشاهدات الدعاء الضارع= منزلة الطمع في الرب الكريم الجواد. فإنه لا يدعوك إلىٰ سؤاله وحسب، ولكن يدعوك إلىٰ تعظيم المسألة والرغبة فيما عنده، كما قال النبي ﷺ: «**إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**».

فهو تبارك اسمه يحب أن تسأله، ويحب أن تطمع فيه، وأن تعظم الرغبة.

والكريم من الناس إذا سئل الشيء القليل= أحس أن السائل يستبخله، فكيف بالله رب العالمين الذي لا تنفد خزائنه ولا يرد سائله، ولا يخيب طمع لائذ به ضارع بين يده مفتقر ذليل، فما أطمعه ولا أجرىٰ لسانه ولا وفقه للدعاء إلا هو!

* يقول أبو جعفر ﷺ في تفسيره في الكلام علىٰ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾: و«عسىٰ» من الله واجبة، وإنما وجه قول أهل العلم: عسىٰ من الله واجبة= لعلم المؤمنين أن الله لا يدع أن يفعل بعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء علىٰ أعمالهم، والعوض علىٰ طاعتهم إياه، ليس من صفته الغرور. ولا شك أنه قد أطمع من قال ذلك له في نفعه، إذا هو تعاهده ولزمه، فإن لزم المقول له ذلك وتعاهده، ثم لم ينفعه، ولا سبب يحول بينه وبين نفعه إياه، مع الإطماع الذي تقدم منه لصاحبه علىٰ تعاهده إياه ولزومه= فإنه لصاحبه غار بما كان من إخلافه إياه فيما كان أطمعه فيه بقوله الذي قال له!. وإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائز أن يكون جل جلاله من صفته الغرور لعباده= صح ووجب أن كل ما أطمعهم فيه من طمع علىٰ طاعته، أو علىٰ فعل من الأفعال، أو أمر أو نهي أمرهم به، أو نهاهم عنه؛ فإنه موف لهم به، وإنهم منه كالعدة (يعني: الوعد) التي لا يخلف الوفاء بها= قالوا: «عسىٰ» و«لعل» من الله واجبة. ومن الآيات المطمعات في كرمه قوله جل جلاله في سياق المنة: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾، وحاشاه أن يمتن بما لا يقع! يقول

ابن الأنباري رَحِمَهُ اللَّهُ: «تقدير الآية: وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه؛ لأنا لم نسأله شمسا ولا قمرا، ولا كثيرا من نعمه التي ابتدأنا بها». (اهـ). وهذا من بركات اسمه جل جلاله: الأول.

ومن تدبر القرآن كله= لن يجد أحدا لجأ إلىٰ الله جل جلاله في ضر فرده قط، ولو كان السائل لئيما أو مشركا! والقرآن مليء بشواهد هذا، حتىٰ إنه جاء كقاعدة كلية تدلك علىٰ جليل كرم الرب، ثم علىٰ خسة كثير من النفوس المعتمة بظلمات الجحود: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾!

وإنه ليكشف ضر من لاذ به ولجأ إليه، وهو يعلم خبء قلبه ودنس نفسه الآسنة، وهي تتململ في المحنة تتلمس منافذ الفرج، فيمن جل جلاله بجميل جوده وعظيم إحسانه، ويكشف الكرب ويطوي بساط المحنة، فيخرج بعض الناس من وطأة المحنة بفضل ربه عليه، وأول ما ينساه هو فضل ربه عليه! وفي القرآن بيان أليم عن هذه الخسة العاقر، فيقول ربنا جل جلاله في صفة ذلك الجحود الكنود: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾!

وفي لفظة (مر) هذه من الدلالات والمعاني ما فيها!

فليطمع العبد في كرم ربه بكشف الضر؛ فلا أعظم كرما منه! وليخلص نفسه من شوائب الزيف والخسة؛ ليكون ممن يشكر ربه ويأوي إليه في السراء والضراء لا يفارق معنىٰ العبودية والفقر، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه!

❁ ❁ ❁

* وفي الضراعة سر شريف لمن فقه كلام رب العالمين وطالع قلبه معاني كتابه المجيد، وهو حب ربنا جل جلاله وبحمده أن يسأله عباده، ومن

ولج إلىٰ الدعاء من بوابة الحب والاصطفاء؛ فقد تعجل نعيما فردوسيا أكبر من الدنيا وما فيها!

إن المحب ليسمع ربه يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾، ويسمعه يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾، ويسمعه جل جلاله يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، ويسمعه جل جلاله يقرع المشركين الذين اتخذوا آلهة لا تغني عنهم شيئا، فيقول جل جلاله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾!

* ويرىٰ ربنا يجعل الدعاء ثلث أعظم سور القرآن المجيد، وهي الفاتحة، التي فيها أعظم الدعاء وهو دعاء الهداية إلىٰ الصراط المستقيم والنجاة من سلوك المغضوب عليهم والضالين، ويجد خاتمة الزهراوين (البقرة، وآل عمران) مغمورة بأنفاس الدعاء الضارع لله جل جلاله! ثم يجد آخرة (سورة الأنبياء) تجول بالروح في أودية الأدعية والنداءات النبوية علىٰ لسان أيوب ويونس وزكريا عليهم السلام.

* ويجد أن طريق الكليم عليه السلام بدئت بسؤال الرب جل جلاله، وملئت باللياذ به في المخاوف والكربات، فحفظه الله من كيد فرعون وملئه.

* وكم صحب ذكر الخليل عليه السلام في القرآن ذكر ضراعاته المباركة، وأدعيته المخبتة، والتي كانت ثمرتها العظمىٰ في سيد العالمين ﷺ.

* كل هذه الشواهد القرآنية تدلك علىٰ حب ربنا جل جلاله وبحمده أن يقصده عباده في حوائجهم؛ لأن في هذا تبيان معدن عبوديتهم له جل جلاله وبحمده.

* ويخبرنا خليله أبو القاسم ﷺ عنه جل جلاله أنه ينزل كل ليلة في الثلث الأخير إلىٰ السماء الدنيا فينادي:

«هل من داع فأستجيب له! .. هل من سائل فأعطيه!

هل من تائب فأتوب عليه! . . هل من مستغفر فأغفر له!».

وهذا نداء تصغىٰ إليه قلوب المحبين، وتقوم بين يدي ربها تسأله وتستغفره طامعة خاشعة تحت سقف الليل وفي محراب النجوىٰ الدامعة!

* ولقد تقدس في كرمه تبارك اسمه فجعل ترك سؤاله سببا للغضب؛ لتمام كرمه وجلال ربوبيته جل جلاله وبحمده.

* كل هذا ناطق بحب رب العالمين للدعاء والداعين، واصطفائه لهم؛ إذ جعل الدعاء سمتا عاما في المصطفين الأخيار من عباده من لدن آدم إلىٰ سيد ولد آدم عليه السلام.

* وشتان ما بين من حملته حاجته إلىٰ المسألة، ومن حملته محبته إلىٰ المسألة!

* وإن عبدا أقامه في مشهد الضراعة علمه بحب ربه للمسألة= لعبد قد رزق الخير كله.

❁ ❁ ❁

* والدعاء خير كله -عاجلا وآجلا-؛ فإن ثماره الثلاث كلها خير:

- إما جواب معجل.
- وإما ثواب مؤجل.
- وإما وقاية من البلاء المنزل!

قال ﷺ: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**» قالوا: «**إذا نكثر!**»، قال: «**الله أكثر!**».

لقد فرح الصحابة بتلك الغنيمة السماوية، وحملهم الخبر النبوي على الطمع في الاستكثار من هذه العبودية المأمونة الرابحة، فأطمعهم سيدنا ﷺ ودلهم على أن عطاء الله أعظم وخزائنه لا تنفد ومواهبه لا نهاية لها ولا

غاية، فاستكثروا ما شئتم؛ فإنه يقابل أدعيتكم بأعظم منها فضلا وعطاء وإحسانا؛ لأنه الكريم الجميل.

وها هنا ظل وارف من السكينة إلى عدة الله جل جلاله والرضا بنواله وإحسانه، فيكون قلب العبد في ضمانة اليقين، وحصانة الاستسلام لله رب العالمين، فلا يعجل متضجرا، ولا يقنط متكدرا، وفي هذا قطع لمادة الوسوسة التي يجلب فيها الشيطان بخيله ورجله فيوقع الإنسان في جب القنوط واليأس المقعد الذي يقطع العبد عن ربه جل جلاله وبحمده، ويقول: دعوت فلم يستجب لي!

* وإذا لطف الله بعبده أقام الدعاء مقام الولي البصير الذي يدل العبد على آفات النفس وعيوبها، فيكون جسر التأخير ميدان مكاشفة لمراجعة دفاتر النفس وما علق بها من آفات وعلل.

فيكون في تأخير الإجابة مضاعفة المنة، بخلاص النفس من آفاتها، ونيل حلية الإجابة عن سؤالاتها.

❁ ❁ ❁

* وفي زماننا تآكلت النفوس وصدئت فيها معالم اليقين، وخفت صوت الضراعة أمام صخب المادة التي تركت الناس كالعصف المأكول، حتى شقي إنسان هذا العصر شقاء عظيما؛ لأنه يتكئ على منسأة ضعفه، وحساباته المبتورة عن الاستعانة بالله، المأسورة في حجاب الطين والغبار والمادة، فليست تبصر غيبا خلف ذلك العالم، قد نصبت ميزان المادة فحجب القلوب والأبصار أن ترى غيره.

بينما يقف الدعاء على ذروة منازل سعي الإنسان في تحقيق آماله، ونيل مآربه. يقول أبو العباس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مجموع الفتاوى»:

والسعي سعيان:

* سعي فيما نصب للرزق؛ كالصناعة والزراعة والتجارة.

وسعي بالدعاء والتوكل والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك؛ فإن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

* وهذا السعي إنما يقوم به ذوو القلوب المعلقة بالعرش، التي تعلم أن فوق هذا الكون ربا مدبرا قديرا على كل شيء، وعنده خزائن كل شيء، ولا يتعاظمه شيء جل جلاله وبحمده.

وهذا الدين العظيم لا يجعل معيار القوة شدة البأس والمنعة المادية وحسب، بل يجعل من وراء هذا وبين يديه قوة القلب الموصول بربه، الذي تهادت منه أنفاس الضراعة صاعدة إلى العرش، تمهد الطريق بين يدي الناس، وتصنع في الأرض والسماء متسعا ترحب به الحياة، وتمحى به الكروب.

وقد أبان هذا سيدنا أبو القاسم ﷺ في حديثه إلى خاله سعد رضي الله عنه، فقال وقد رأى سعد له فضلا في النزال على من دونه، فقال النبي ﷺ: «**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم**»؟

وكان يلتمس ﷺ قوة هذا الضعف؛ لأنه لم يكن رجلا دنيويا يتطلب ملكا وينشد سلطانا، بل كان يلتمس بركة هذا الضعف الشريف الذي خلا من بهرج الدنيا وألوائها، وتوقد قنديله صافيا يشق بنوره الدروب فتنكسر بين يديه ظلمات الكروب والمحن والبلايا، وإذا الكون قد كان معتما فأضاء! فينادي في المسلمين: «ابغوني الضعفاء؛ فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم».

ولفظة «**ابغوني**» هنا فيها دلالة على الطلب الحثيث الملح من أعلم الخلق بربه ﷺ، وأعلمهم بميزان الله جل جلاله في الأمور تأييدا ونصرا، وأن الله جل جلاله يحب تلك الذلة، فهي أعظم أسباب الرفعة في الدنيا والآخرة.

فقبل سل السيوف، هنالك التماس راكض لمن يسلون قلوبهم بيضاء صافية من شوائب الزيف وكدر التعلق بالدنيا، فيكون على يدها الفتح والفلاح. وهذا هو الباب الذي قل طارقه، لكثرة الصخب والتكاثر بالكلام!

فما انكسر عبد، وجلس حافي القلب ذليلا؛ إلا أقبلت عليه هدايا الفرح والفرج!

وقد فقه الصالحون ذلك، فهذا الفاروق ﷺ يجثو على ركبتيه في محنة غضب النبي ﷺ وقد أكثر من قول: «**سلوني**»، فقال سيدنا عمر ﷺ جاثيا: «رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا». وورد في مرسل «السدي» أنه قبل رجل النبي ﷺ، فسكت رسول الله ﷺ وسكن.

وفي ترجمة شيخ الإسلام مطرف بن عبد الله في السير قال: حبس السلطان ابن أخي مطرف، فلبس مطرف خلقان ثيابه -يعني: ثيابه البالية الرثة يذل نفسه لله-، وأخذ عكازا، وقال: أستكين لربي، لعله أن يشفعني في ابن أخي.

وقال التاج السبكي في ترجمة والده تقي الدين السبكي رحمة الله عليهما: وأما الذي اتفق من الشيخ الإمام؛ فإنا صلينا المغرب واجتمعنا على العشاء، ثم صلى الشيخ الإمام عشاء الآخرة وأوتر، وصعد السطح. فحكى أهل البيت أنه استمر واقفا في السطح مكشوف الرأس مطرقا ساكتا لا يتكلم، قائما على رجليه إلى أن طلع الفجر. ثم نزل فصلى الصبح بوضوء العشاء، وأنه قال للنساء وهو نازل: انقضى شغل أرغون شاه -كان واليا غشوما- لا يتكلم أحد! فحسبنا، ففي يوم الثلاثاء خرج الجيبغا من طرابلس ووصل إلى دمشق ليلة الخميس وأمسكه تلك الليلة ثم ذبحه ثاني ليلة!

وهذه كانت حالة الشيخ في توجهه: يكشف رأسه، ويجعل المنديل في رقبته، ويقوم على رجله مطرقا ساكتا، ويصير عليه من المهابة ما يعجز الواصف عن وصفه، ويكاد من يراه في تلك الحالة يوقن أنه لو لسعه زنبور في تلك الحالة لما أحس به!

والأمثلة كثيرة كثرة هائلة تدل على أن كل دعوة اتكأت على هذا الافتقار والضعف القوي= ارتفعت في السماء وكان لها دوي!

ومن نفائس ما في هذا الباب الشريف القدر ما ذكره أبو القاسم ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تاريخ دمشق بسنده، عن محمد بن رجاء مولى بني هاشم، قال: قال دهقان لأسد بن عبد الله وهو على خراسان، ومر به وهو يدهق في حبسه -يعني: يعذب-: إن كنت تعطي من ترحم، فارحم من تظلم! إن السماوات تنفرج لدعوة المظلوم، فاحذر من ليس له ناصر إلا الله جل جلاله، ولا جنة -يعني: وقاية- إلا الثقة بنزول التغيير، ولا سلاح إلا الابتهال إلى من لا يعجزه شيء! ويا أسد! إن البغي يصرع أهله، والبغي مصرعه وخيم! فلا تغتر بإبطاء الغياث من ناصر، متى شاء أن يغيث أغاث! وقد أملى لقوم؛ لكي يزدادوا إثما! وجميع أهل السعادة: إما تارك سالم من الذنب، وإما تارك للإصرار. ومن رغب عن التمادي فقد نال إحدى الغنيمتين، ومن خرج من السعادة؛ فلا غاية إلا الشقوة!

وإنما يشرف هذا الضعف ويتم تمامه باقتفاء أثر النبي ﷺ والنسج من أبجديته الشريفة المقتبسة من نور الوحي؛ فإن في أدعيته ﷺ الغناء والكفاية والبركات التي لا عدل لها، مع يسر اللفظ ووجازته، وبلاغة المعنى وإحاطته، وضمانة السلامة من الاعتداء والتزيد، التي قل أن يسلم منها دعاء من الأدعية المخترعة بعد الأزمنة الفاضلة التي قل فيها نور الاتباع.

ومن كانت له عناية بالنظر والتدبر في أدعية النبي ﷺ، وتضلع من كوثرها العذب= وجد لها حلاوة وجلالا يصرفه صرفا عن كل ما سواها مهما تأنق صاحبه في لفظه وتزين!

ثم إن الناظر في أدعيته ﷺ يعلم طرفا عظيما من جمال رحمته ﷺ بهذه الأمة وتمام نصحه؛ إذ ساق إليها هدايا الخير في أيسر الألفاظ على النفس، وأعظمها بركة في المعنى. فما من بد على مطالع أدعيته بعين المتدبر وبصيرة المتأمل= إلا أن يحبه ﷺ حب الأعمى الظامئ في صحراء موحشة= وجد الهادي الدليل الذي يحفظه ويعينه ويرشده ويرويه ... ﷺ.

وتدبر أذكار الصباح والمساء في ظلال مشاهداتك لأسمائه وصفاته تبارك اسمه، وابسط المعنى على اتساعه ولا تلبسه ضعف البشر وقصورهم= تجد ما قلت لك.

* فإذا قلت مثلا: **اللهم عافني في بدني**= فاحمل هذه العافية على أوسع معانيها التي تتوالد في ظلال كرم الرب، فهي عافية تتجاوز صلاح آلة الجسد إلى معنى أن يكون هذا الجسد مطيتك إلى الخير وحاملك إلى المعالي= وأن لا يكون هذا الجسد موطنا لمعصية الله جل جلاله= وأن لا يقعد بك هذا الجسد عن تحصيل الخير والمنافع الدينية والدنيوية= وأن يكون هذا الجسد في معية الحفظ من كل الآفات الدنيوية والأخروية، من حسد حاسد وتسلط مرض واعتداء ظالم، وخلوصه من نقمة الله وعذابه في الدنيا والآخرة ... إلخ ما تطيقه كلمة العافية عند سؤالك رب العالمين، مما تعلم ولا تعلم ...

ومن جرى على هذا النسق في أوراده وأذكاره وضراعاته= كان له من البركات والنور والرحمات ما لا ينتهي مدده أبدا، وقد قال ﷺ: «**إذا سأل أحدكم ربه؛ فليعظم الرغبة**»، ومن هذا التعظيم ما ذكرته لك آنفا، والله أعلم.

* إن فقه الدعاء والضراعة مغيب عن كثير من السائلين، وما خطئ سائل التوفيق إلا لتغيبه عن محفل الضراعة، وما نال نبي ولا صديق ولا عالم مآربه بمثل دعائه لربه جل جلاله وبحمده.

ولقد كان النبي ﷺ يبث هذا النور الذي يخلص النفس من شوائب الاعتماد، ويضيئها بأنوار التوكل والافتقار، فكان يعاهد بعضهم أن لا يسألوا الناس شيئا، وكان يرى الهم قد غمر واحدا من أصحابه لدين مسه، فيدله على معراج الدعاء، وحلية الأمن القدسية في اللياذ بالله دعاء وضراعة.

وكان يعلمهم أن يسألوا الله كل شيء، حتى شسع النعل؛ لتكون النفوس حرة لا تركن إلى خذلان الاعتماد على المخلوقين، فتذهب من النفوس شعبة من شعب الاستقامة والعبودية، وتخدش بهاء الافتقار لله جل

جلاله في القلب. وكان يعلمهم ﷺ الاستخارة في الأمر كله؛ ليكون هذا المعنى راسخا في النفس.

وكم يغفل هذا الخلق عن شعار الفقر بركعتي استخارة تهديان إلى منازل السعادة، وتنشئان للعبد كونا خاصا يسلم فيه -بإذن الله- من آفات النقص والضعف والعجز الإنساني!

وإنه لمشهد عظيم يرقى بالعبد إلى سدرة المنتهى؛ إذ يقف في كسوة الذل بين يدي ربه مستخيرا يقول: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسأل من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب ... ». وما هذا الحرف الجليل إلا إعلان فقر بين يدي رب العالمين، يقول فيه العبد: لن أفعل حتى تأذن وتبارك!

وأرجو أن تمثل لنفسك نبيلا من الناس كريما في قومه، يعرفونه بالحكمة وسداد الرأي= يأتي إليه من يستشيره لا يفارق مشورته، ولو كان المستشير لئيما، أفيليق به أن يدله على ما فيه ضره وهلاكه، وقد جاء إليه واعتصم به؟! فكيف بالذي يعلم السر وأخفى، وهو يرى عبده آتيا إليه لائذا به، فارغا من شهود نفسه الضعيفة= فإنه ليكرمه ويعصمه ويهديه ويسدده ويرشده ويؤيده ويجعله في خفارة الحفظ ومعية الإعانة، ويبارك له وعليه ويجعل له دربا مطمئنا يابسا في بحر الحياة المضطرب المتلاطم! ولعل هذا يكشف لك سر تعليم النبي ﷺ صحابته الاستخارة في كل شيء، كما يعلمهم سورة الفاتحة!

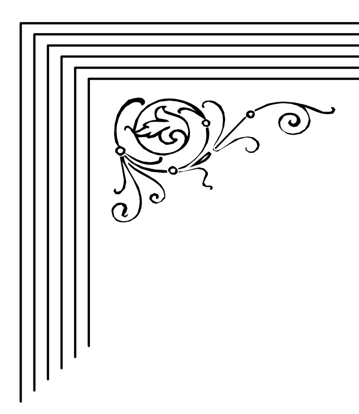
وإنه لوقت يسير، في ركعتين صغيرتين، تتقدمان العمل فتعصمانه وتسددانه، وكم من ناس هذا المشهد المتدثر بالجود والحفظ، فلا يزال يشكو عثرات الحياة وصعاب الطريق!

* وفي رسالة الإمام أبي الفرج ابن رجب رحمه الله «نور الاقتباس» قدر وافر من كلام السلف وأدعيتهم، حري بالقلوب أن تطالعها، وتطالع الكتب التي أوصى بها.

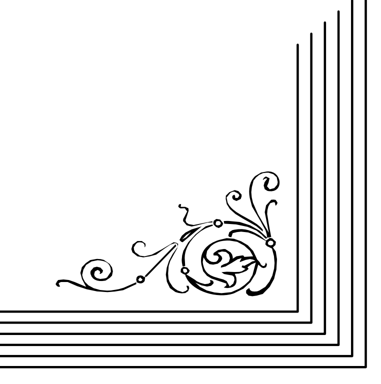
* وفي كلام شيخه شيخ الإسلام أبي عبد الله ابن قيم الجوزية رحمه الله كلام جليل متناثر في «**الداء والدواء**»، وفي «**البدائع**» في تفسير قوله جل جلاله ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ نثر فيه نفائس من فقه الضراعة والحب ما يكسو الروح نورا وجمالا.

وقد جعل الله جل جلاله سجلا خاصا يصحبه الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم، حجبته نوازع الجحود عند الكافر، وقترة الغفلة عند المسلم= وهو سجل إحسانه وكشفه الضر، وإغاثته للملهوفين.

والحمد لله وحده لا إله إلا هو، وصلى الله وسلم على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه والتابعين.



ونفس وما سواها





النفس والسرداب -القبو-، قصة النفس والآخر، السعادة والشقاء

عبد الرحمن ذاكر الهاشمي(*)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحابته أجمعين، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وأهلا وسهلا بكم في بداية رحلة، ربما بدت طويلة في أولها، لكنني أرجو أن تكون نافعة بإذن الله . . .

لافتة: لا أحب لنفسي ولا لمادتي أن تخلو السطور من أصولها القرآنية والحديثية وكلام السابقين من أهل الذكر والفضل، ولكني اضطررت لغرض الإيجاز أن أقلل من ذكر الشواهد والاقتباسات، والله المرجو والمؤمل . . .

(*) طبيب استشاري علم النفس التربوي، استشاري العلاج النفسي.
* دبلوم الفلسفة والدراسات الإسلامية.
* بكالوريوس علم النفس العام.
* بكالوريوس الطب والجراحة العامة.
* ماجستير علم النفس التربوي.
* ماجستير علم النفس العيادي.
* الاختصاص العالي في العلاج النفسي.
* خبرة ٢٠ عامًا في مجال العلاج الأسري والتربوي والنفسي.
* باحث في (فقه النفس) أو (المنظور الإسلامي لعلم النفس).
* محاضر ومدرب في (فقه النفس).

وكعادتي، سأبدأ القصة من أولها: قدر الله لي أن أنشا محبا لأمرين، النفس، والدين، ولا أراهما ينفصلان عن بعضهما أبدا، كما لا أراهما ينفصلان عن أي شأن من شؤون الحياة، ومن هنا، فقد قضيت من عمري وقتا أبحث في النفس وتاريخها وأحوالها وعلاقتها بالدين والتدين والسعادة والفلاح، فرأيت صنفين نقيضين:

الصنف الأول: أولئك المتدينون الذين يحيون الدين بسعادة بالغة، رغم ما يمر بالنفس من ابتلاءات، لكنهم (يحيون) حياة طيبة، ولا (يعيشون) فقط.

الصنف الثاني: أولئك الذين (يزعمون) أنهم (متدينون)، لكنهم لا يجيدون أكثر من الشقاء والضيق والنكد؛ رغم أنهم (يمارسون) التدين!

ترك هذا في نفسي أسئلة كثيرة

حاولت الإجابة عن كثير منها عبر أسئلتي وقراءتي وملحوظاتي الشخصية. ثم بدأ الأمر يتخذ شكلا أكثر (علمية ومهنية) عندما درست الطب والجراحة العامة، وعلم النفس، ثم علم النفس التربوي، وأخيرا العلاج النفسي. واكتملت الصورة في العيادة النفسية على مدى قرابة العشرين عاما، حتى لحظة كتابة هذه الكلمات.

وليس من المبالغة القول: إن (معظم) ما أتلقاه من الحالات في العيادة النفسية، (أو حتى خارجها) تعاني من ذات الأمر. سواء كانت الشكوى حول خوف، أو ضيق، أو قلق، أو كآبة، أو عشق غير مرجو العاقبة، أو ولد عاق، أو بنت مراهقة، أو شاب مدمن، أو فتاة متشككة، أو فراق حبيب أو ولد، أو خشية على العمل ولقمة العيش، أو غير ذلك من حالات لا أكاد أحصرها. أقول: معظم هؤلاء، وجدتهم يعانون من نفس (الأصل) الذي تتفرع عنه كل هذه المشكلات وأخواتها= جهل النفس وسوء تقديرها.

* ومن هنا، رأيت أن أوجز رؤيتي لما أود أن يعلمه الناس عن النفس في قصة معبرة، أسميتها (النفس والسرداب). وهذه القصة هي أشبه ما يكون بما نعرفه في الطب باسم (التاريخ الطبيعي لنشوء المرض= The Natural History of Disease). ولكن، بين يدي القصة، وكي تتحقق الفائدة منها، دونكم هنا كلمات في مقدمات مهمة حول (النفس والآخر):

لأسباب كثيرة، تبدأ منذ طفولتي، منذ أن يبدأ وعيي بما حولي ومن حولي، أبدأ بالانشغال (المبالغ فيه) بما حولي ومن حولي.

فأبدأ بالالتفات إلى الناس وآرائهم ونظراتهم ورضاهم.

كل هذا على حساب (نفسي).

سـؤال:

لماذا تنشغل النفس (طبيعيا) بالآخرين؟

أولا: فطرة (الأنس) بالآخرين. وفي «لسان العرب»: سمي الإنسان إنسانا؛ لأنه يأنس ويؤنس به، وجاء في مقدمة (ابن خلدون) أن «الإنسان مدني بطبيعته».

نعم، الأصل في النفس الأنس بالآخرين، وهذه (حاجة) حقيقية، أو (طبيعية)، أو (فطرة) في ذات النفس، فالنفس تبحث عن (الأنس) بما حولها، وأقرب (أنس) لهذه النفس يوجد فيما (تألفه ويشبهها)، فيكون (الأنس بالآخرين) من أشد (الحاجات) النفسية، كما هو من أشد أنواع (الفتن) التي تعرض للنفس، ولعل هذا يفسر (عقوبة السجن الانفرادي)، التي هي من (أشد) أنواع العقوبات المستخدمة قديما وحديثا.

ولتحصيل هذا الأنس، تسعى النفس إلى (الآخرين) من خلال (التعارف)، وهذا (الأنس) لا يأتي (خاليا منفردا)، بل يتجاوز (مجرد الأنس) إلى ثمرات أخرى، فإذا كان من طبيعة النفس الميل إلى الراحة والكسل؛ فإنها تبحث عن (آخرين) يعينونها للوصول إلى (راحتها)، وبهذا: فإن الآخرين

يكونون سببا في تلبية حاجات النفس ونواقصها، ومن هنا: فإن الآخرين هم ميدان (التدافع والتفاعل)، ومن هنا أيضا: فإن الآخرين (مسخرون) للنفس، كما هي (النفس) مسخرة لهم، والآخرون، بكل ما سبق، سبب من أسباب (إسناد) النفس في حاجات كثيرة، ومع هذا (التدافع والتفاعل) بين النفس والآخرين، ومع اشتعال النفس بوظيفتها في هذا الوجود تظهر أهمية لوجود (الآخرين) في حياة (النفس)= أن يكونوا (ميدان الدعوة)، فلا تتصور (النفس) الدعوة بغير (الآخرين)؛ وإلا فأي دعوة؟! ومن ندعو؟! إذا لم يكن ثمة (آخرين)!

وبكل ما سبق، يصبح الآخرون شكلا من أشكال (الشهوات) التي تلذ بها النفس، ولكنها (شهوة) يلزم النفس أن (تهذبها) كما هو حال غيرها.

ثانيا: الحواس منافذ الآخرين إلى النفس، ونوافذ النفس إلى الخارج، ومن (طبيعة النفس) أنها (تتوجه) نحو (الخارج) قبل (إدراك الذات)، خصوصا إذا كان في (الخارج) ما يخاطب في النفس فطرتها، ويداعب شهواتها، ويستهويها ويتبع هذا بالضرورة سهولة (الانشغال) بالآخر عموما، وبالآخرين خصوصا، والغفلة بسببهم، واللهو معهم ومن خلالهم.

ثالثا: التربية (التقليدية) الجاهلة، وأعني بها هنا: أثر (التقليد والمحاكاة) في تثبيت (الانشغال) بالآخرين، بل وربما (الذوبان فيهم)، وهذه (التربية التقليدية) هي أكثر ميادين (المرض) أثرا في النفس هنا، يوجه الآباء والأمهات أطفالهم لإرضاء الآخرين عن طريق الشكل أو أداء مهارة معينة أو لباس معين، ثم يوجه الآباء والأمهات (أيضا) أطفالهم للتنافس مع الآخرين في العائلة والحي والمدرسة.

لافتة: المدرسة هي من أكثر ميادين التنافس السالب، حيث المنافسة الرقمية التي لا تبقي قيمة حقيقية للنفس، منافسة رقمية فقط، ويشارك غالب المجتمع الآباء والأمهات في ترسيخ تلك (المنافسات) المذكورة سابقا، في السوق والشارع والعمل والمهنة وغيرها.

يضاف إلى هذا عامل (الجهل التربوي) في تربية الأطفال على بعض المفاهيم مثل: التعاون، التسامح، الإيثار، الطيبة، الشخصية الاجتماعية، ثم (الجهل التربوي) في تدريب الأطفال على التعبير عن النفس بإبانة وحرية وصدق ووضوح.

إذن؛ هذه الثلاثية هي إجابتي عن السؤال: لماذا تنشغل النفس (طبيعيا) بالآخرين:

أولا: فطرة (الأنس) بالآخرين.

ثانيا: الحواس منافذ الخارج إلى النفس، ونوافذ النفس إلى الخارج.

ثالثا: التربية (التقليدية) الجاهلة، وعملقة الآخرين في مقابل أقزمة النفس.

وهذه الثلاثية تؤدي إلى ما أسميه (الغفلة المغفورة)، وأعني بـ (الغفلة المغفورة)، انشغال النفس عن ذاتها انشغالا لا تأثم به لمجرد حصوله (طبيعيا)، وأقول: الغفلة المغفورة؛ لأنه سيلي الحديث لاحقا عن (الغفلة الآثمة).

سؤال:

إذا كان الانشغال بالآخرين (طبيعيا)، وإذا كان الآخرون (ضرورة) لكل ما ورد من (أسباب)، فما الذي يضير النفس من الآخرين؟

الآخرون (حاجة طبيعية). لكن كونهم (حاجة طبيعية) لا يعني أن هذه الحاجة (لا تهذب). بل هي-كغيرها مما جبلت عليه النفس- في حاجة إلى تزكية وتهذيب.

ومع أن (الآخرين) سبب من أسباب (الإسناد)؛ إلا أنهم لا ينبغي أن يكونوا سبب (الاعتماد) عليهم، ومن هنا: الآخرون إسناد لا اعتماد، ومع (سنة التدافع)؛ فإن النفس تعرض لطرفي نقيض؛ فإما الوقوع في الإفراط (الذوبان في الآخرين)، وإما اختيار التفريط (الاعتزال والهروب)، وخير من هذا وذاك، التزكية (الوسط)، فلا إفراط ولا تفريط.

سـؤال:

هل يعني هذا أن (الآخرين) يمكن أن يكونوا (خطرا) على النفس؟

سبق القول بأن الآخرين كغيرهم من (الحاجات والشهوات والغرائز)، في حاجة إلى تزكية وتهذيب وإلا، فإن الآخرين (كغيرهم) يمكن لهم أن يكونوا (نعمة) أو (نقمة).

وأول عواقب الانشغال بالآخرين= الانشغال عن النفس. وهذا هو الأصل الذي يتفرع منه كل ما يلي:

الجهل بالنفس: ومن (مخاطر الجهل بالنفس) تصدر أهمية (فقه النفس) وضرورة فهمها ومعرفتها، والجهل بالنفس أصل لما يتفرع عنه مما يلي:

*التوجس من النفس، لأن النفس تتوجس مما تجهله. وهذا التوجس ربما تحول إلى خوف من النفس. وهذا يؤدي إلى وحشة الخلوة بالنفس؛ لأن النفس تستوحش ما لا تألف ولا تعرف. وهذا يؤدي إلى رفض النفس والفرار/النفور منها؛ لأن النفس تطلب (الأنس) وتفر من (الوحشة). وهذا يؤدي إلى ما يلي:

-و الغربة عن النفس.

- غموض النفس ومشكلاتها.

- صعوبة التشخيص والعلاج.

- سوء الظن بالنفس.

- القنوط والملل واليأس (من النفس).

فإذا وصلت النفس إلى هنا، كان من الطبيعي أن يكون التالي:

- الأنس بالآخرين، فقط: وهذا الأنس بالآخرين يظهر في أحد العرضين التاليين:

* الطمع في رضاهم.

* الخوف من رضاهم.

وفي مقابل هذين العرضين، يظهر عرض (مناقض) لهما.

- الوحشة مع الآخرين.

فيكون كل ما سبق سببا كافيا لما يلي:

* تدسية النفس والتقصير في حقها، وظلمها، فلا نقد للذات، ولا مراقبة لها، ولا انشغال بها، ولا اشتغال بتزكيتها، بل الانشغال بالآخرين فقط، والاشتغال بهم: «هذا مقصر، وهذه متبرجة، وهذا صوته مزعج، وهذا يتكلم بطريقة مختلفة، وهذه لباسها غريب، إلخ».

* التهاون في تزكية النفس واللين معها، في مقابل الشدة على الآخرين.

أما الطمع في رضاهم؛ فإن الحرص على رضا الآخرين ربما أوصل النفس إلى ما يلي:

- الرياء والشرك الخفي، أو (على الأقل) تشوه الإخلاص.

- العبودية للمخلوق: الآخرين، وهذا ما يحولهم إلى طواغيت.

- الكذب، الذي هو (مخالفة الظاهر للباطن)، ومنه إلى:

- النفاق (الاجتماعي)، والعيش خلف القناع، أو الأقنعة.

- التفكير بـ (طريقة) تفكير الآخرين، والشعور بـ شعور الآخرين، والسلوك تبعا لـ سلوك الآخرين.

- التقليد والمحاكاة (الموضة)، والوقوع في فخ الجهل الجمعي (ولا أقول: العقل الجمعي)، حيث التبعية السالبة للجماعة.

- الحرص على أن يكون ظاهر اللباس ومتاع البيت كما يرضى الآخرون.

- الضحك اعتمادا على ضحك الآخرين، والحزن انطلاقا من حزن الآخرين، والفرح لمجرد فرح الآخرين.

لافتة مهمة: الحديث هنا عن (الانطلاق من شعور الآخرين لأشعر)، ولا علاقة لهذا بطبيعة (التفاعل الطبيعي والتعاطف). فالتعاطف طبيعة نفسية متقدمة، ولكن التحذير هنا من (انعدام) الشعور (الحقيقي) إلا إذا (شعر الآخرون).

- السعادة اعتمادا على وجودهم.

- الشقاء نتيجة لـ غيابهم وفقدهم.

- يلي هذا بالضرورة: إدمان (التواصل الاجتماعي)، حتى لو كان (افتراضيا)، أو ما يعرف الآن بـ (الإدمان الإلكتروني).

- الطمع في الأضواء والشهرة.

- انتظار التقييم والتقويم من الآخرين دائما.

- تقدير النفس اعتمادا على تقدير الآخرين.

لافته: النفس تأنس بمدح الآخرين لها، لكن الحديث هنا على (إلغاء التقدير الذاتي) مع (الاعتماد) على تقدير الآخرين.

- ومن هذا أيضا: الانشغال بالتأثير فيهم: (كيف أؤثر في الآخرين)!

لافتة (تنموية): هذا من أهم المغالطات النفسية التي يقع فيها أهل (شعوذة التنمية البشرية)، حيث تدور عناوين دوراتهم التدريبية ومحاورها في (فلك الآخرين).

- الطمع في الإعجاب والتصفيق ومشاركة الآخرين (التغريدات والمنشورات) على (مواقع التواصل الاجتماعي) مثلا.

- انتظار الشكر من الآخرين والاعتماد على ذلك للإنتاج والعمل، ويلي هذا بالضرورة:

- الانقطاع عن العمل أو تأخر الإنجاز، أو التسويف رجاء ما لدى الآخرين من ثناء أو نقد:

- منافسة الأقران.

- الغيرة غير السوية (الأشقاء، الأصهار، أهل الزوج، زملاء العمل، وغيرهم).

فإذا كان (الآخرون) يمثلون (ثقافة الغالب)، ظهر عرض آخر من الأعراض:

- عقدة المغلوب والشعور وبالنقص، فتظهر هذه العقدة في صور مختلفة مثل: البدع الفكرية، التمرد على الموروث (المغلوب)، حركات التحرر، الحلم الأمريكي، وغيرها، أما الخوف من رفضهم، فهي وجه آخر لذات العملة، ومن شأنها أن تصل بالنفس إلى ما يلي:

- الخوف وما يليه من وسواس وقلق واكتئاب.

- الرهاب الاجتماعي.

- ضعف النفس عن مواجهة الآخرين بما يخالف آراءهم ورغباتهم (مثل: الوالدان، الأصحاب، ولي الأمر، وغيرهم).

- إذلال النفس وإهانتها والزهد بها في حضرة الآخرين.

- قبول تجاوز الآخرين وتعديهم وظلمهم.

- السكوت عن الحق.

- الرضا عن الباطل، بسلبية السكوت عن الحق.

وبعد الحديث عن الطمع في رضاهم والخوف من رفضهم؛ نتوقف هنا لنسأل سؤالا مهما، هو من (توابع) ما سبق بالضرورة، والسؤال هو:

ماذا لو لم يتحقق لي ما أطمع فيه من رضا الآخرين، ولم آمن ما أخافه من رفضهم؟

هنا، تسقط النفس في فخ ما هو (مناقض) للعرضين السابقين، ففي الحين الذي تحاول النفس فيه أن (تأنس) بالآخرين، وتجتهد في (كسبهم) وتفزع من (خسارتهم)، يكون الآخرون مصدر (خوف) للنفس، فينتج كل ما يلي الخوف من أعراض (نفسية) في وجود الآخرين، فيصبح الآخرون مصدرا

من مصادر الوسواس والقلق والاكتئاب، وغيرها من أمراض (قلوب/ نفوس)، وهنا، تجد النفس أنها بين أمرين أحلاهما مر، فلا هي مستأنسة في (خلوتها)، ولا هي مستأنسة في وجود (الآخرين)، وهكذا تقع النفس في عرض آخر، لم تكن ترجوه ولا تتوقع حصوله: الوحشة مع الآخرين.

وكما كان العرضان السابقان، فإن للوحشة مع الآخرين أعراضها أيضا (وقد سبق المرور عليها في قصة النفس والسرداب)، السلبية وعدم التفاعل، التزام الصمت والانكفاء على النفس:

- الاضطراب في وجود الآخرين، خشية صدور ما لا ترضاه لهم أو لها.

- سوء الخلق مع الآخرين؛ ويحصل هذا عند تعرض النفس لما يستثيرها أو يستفزها، خصوصا بعد كل ما سبق.

- اعتزال الآخرين؛ حيث تلجأ النفس له كمحاولة (دفاعية) خشية الوقوع في مزيد من الأخطاء. وربما بلغ الأمر بالنفس في وحشتها مع الذات والآخرين، أن تصل إلى ما يلي:

- كراهية النفس والآخرين.
- القنوط والملل واليأس (مع الآخرين).
- الانتحار، حقيقة أو مجازا.

وهذه الأعراض، على ما (يظهر) منها من سوء، إلا أنها دوافع قوية من شأنها أن تدعو لإرجاع البصر في (فقه النفس) والتوقف مع أحوالها، ولكن أي إرجاع للبصر؟! وأي توقف؟! في (عصر العولمة)!!!

في (عصر العولمة): لا تجد النفس فسحة كافية لإرجاع البصر والتوقف بما يفي بحق النفس.

في (عصر العولمة): حيث الجسد يطغى على حساب الروح، وحيث الفردية طاغية على حساب الجماعة، وحيث المادية طاغية على حساب الإنسان.

في (عصر العولمة): حيث الخلوة لم تعد خلوة، وتم استبدالها بـ (مواقع التواصل الاجتماعي)، وحيث الخصوصية لم تعد خصوصية، وذابت النفس في (مشاركة الآخرين) حياتها اليومية، وحيث الخوف من الوحشة لم يعد (حقيقيا)؛ لان النفس وجدت (الأمان) في عالم (الوهم الافتراضي).

في هذا العصر: أصبح من الصعوبة بمكان أن تستجيب النفس لـ (نداء الروح)، وأصبح من المجاهدة أن تستوحش النفس (حقيقة) لأنها محاطة بعالم من (الناس)، ومع أن هذه (العوالم) افتراضية، لكنها تمنح النفس (وهم الأنس)، ولا يعود من (السهل) على النفس أن (تشعر بالوحشة) التي هي (ضرورة) لتعلم النفس (حقيقة علتها ومرضها) وتسعى للعلاج.

وبهذا؛ وفي عصر (العولمة): فإن النفس أكثر عرضة لـ (سرطان الوحشة) الذي يغزوها في ثوب (الأنس الرقمي). قوة ظاهرة، باطنها ضعف!

ومن أعراض الانشغال بالآخرين (أيضا)، سواء كان الطمع في رضاهم أو الخوف من رفضهم، أعراض تظهر على أنها (قوة)، لكنها في باطنها وحقيقتها (ضعف)، ومن هذا مثلا:

- الانشغال بـ (هم)، وبإثبات النفس لـ (هم)، بطريقة تخالف (هم)، أو تستثير (هم)، أو تستفز (هم). المهم في هذا كله الحصول على اهتمام (هم) ولو كان الأمر في ظاهره انشغالا عن (هم).

- ومن هنا، يظهر (الضعف) في (ثلاثية الأنا) من (أمراض القلوب): العجب، الغرور، الكبر، بل إذا لم تتمكن النفس من الاشتغال بما ينفعها دون الآخرين؛ فإن من الطبيعي (وغير السوي) أن تقع فيما يلي: السخرية، والتجسس، والغيبة، والحسد، والنميمة، والطغيان، والظلم، وغيرها من أمراض القلوب والنفوس.

إضاءات (داعية)!

كنت أقدم هذه المادة، فإذا بأحد الأخوة الحضور قد أتى لي بقصاصة من كتاب لأحد (الدعاة)، وكان الكتاب يحمل في أعلى صفحاته (إضاءات)، وكانت إحدى هذه (الإضاءات) ما يلي:

«الناس الذين حولنا مصدر لسعادتنا، وينبغي أن نجعل إسعادهم هدفا لنا»!

كانت هذه الكلمات جديرة بأن ترسم على وجهي ابتسامة (الشفقة) على ما نقدمه من (إضاءات) للجمهور!

دراسات عن الشقاء بالآخرين:

تظهر لنا الدراسات النفسية أن (الآخرين) يشكلون أكثر من (٨٠%) من أسباب (الاستشارات النفسية).

فضيحة وانتحار!

ولعل من أعراض طمع الرضا وخوف الرفض، ما نراه من حال (المشاهير) إذا ما (فضحوا)، فيكون أول ما يفكرون فيه: الانتحار، لأنهم لا يملكون التفكير في حياة (لا ترضي الآخرين، أو تتسبب في رفضهم لهم)! ولا يملكون المشي في (ميادين الحياة اليومية) دون أن يكون لهم (أفضل مظهر) في مواجهة (الآخرين).

كاميرا خفية!

من أعراض الانشغال بالآخرين، رضا (كثير من الناس) بمظاهر مختلفة من (الذل والعار، والعيب)، ألا ترون بعض أعمال (الكاميرا الخفية) تكاد تودي بحياة النفوس، هذا إذا تجاوزنا حقيقة أنها تودي بكثير من (الأدب والحياء والذوق)، وما هذا لشيء إلا لمجرد (الظهور على الشاشة)، مهما

كلف الأمر، وكأن لسان حال نفوس هؤلاء: كله يهون من أجل الظهور أمام العيون وعلى صفحات الإنترنت وشاشات التلفزيون، وحول الطمع في رضاهم والخوف من رفضهم.

هذه نصيحة من ابن القيم «ولا تستصعب مخالفة الناس، والتحيز إلى الله ورسوله ولو كنت وحدك؛ فإن الله معك وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك، وإنما امتحن يقينك وصبرك، وأعظم الأعوان لك على هذا، بعد عون الله، التجرد من الطمع والفزع، فمتى تجردت منهما هان عليك التحيز إلى الله ورسوله وكنت دائما في الجانب الذي فيه الله ورسوله، ومتى قام بك الطمع والفزع فلا تطمع في هذا الأمر ولا تحدث نفسك به». [ابن القيم، «الفوائد»].

سؤال:

ألا يقودني تصور الأمر بهذا الشكل إلى الشعور بالأنانية؟ ما هي الأنانية المقصودة هنا؟

لافتة: دافع هذا السؤال، هو محاولة (تحرير) مفردة (الأنانية) الشائعة من (القيد السالب) التي تم اختزالها فيه، ومن المعلوم أن مفردة (أنانية) إذا تم إطلاقها عند عامة الناس، (بل وكثير من خواصهم أيضا)، اتجهت لمعاني سالبة.

ومن المعاني السالبة: الأثرة بالخير دون الآخرين، التسلق على حساب الآخرين، تقديم النفس بمعايير (الجسد) أو (الدنيا)، فإذا كان هذا هو المعنى المقصود السؤال عنه، فالإجابة= لا؛ بل إن اتباع (الوحي) كفيل بأن (يزكي) النفس بما يجعل (الاشتغال بالنفس ومحبتها) طريق الاستقامة التي يرضى بها الله جل جلاله.

أما إذا كانت الأنانية غير ذلك فأقول:

إذا اتفقنا (عقلا، ووحيا، ونظرا) على أن فقه النفس أولا، وأن العلاج يبدأ من النفس أولا، وأن أول ما يجب أن نعمل على الاعتناء به وإصلاحه وتزكيته هو النفس، وليس الآخرين، وأن الظلم الحقيقي قبل أن يكون ظلما للآخرين فهو ظلم للنفس وبالنفس، وكذلك الخسارة الحقيقية إنما هي خسارة النفس أولا، فالنفس هي الأمانة التي في أعناقنا، وهي موطن الامتحان، وهي موطن النتيجة، وهي التي تشعرني بالنجاح أو الإخفاق.

أقول: إذا لم يكن هذا كله كافيا ليؤهل النفس؛ لأن أهتم بها أولا قبل الآخرين، فلا بد لي من (عقل)، ولعل الأفضل أن أسمي نفسي اسما غير اسمي؛ لأنني أعيش لشخص، أو لأشخاص آخرين، ولست أنا أنا، في حين أنني إذا أعطيت نفسي حقها أولا، صار من الممكن حينها أن أعطي الآخرين (حقوقهم)، فإذا ظهر بعد هذا كله من يظنون أن الاهتمام بالنفس (أولا وقبل الآخرين) هو ضرب من ضروب الأنانية (السالبة). قلت لهم: نعم، أنانية، ولكنها أنانية إيجابية ترتقي بي لأتمكن من الأخذ بيد الآخرين لأرتقي بهم أيضا.

انظروا في القرآن إلى مفردة النفس. اتلوا ما قاله الله جل جلاله في حق النفس. اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾. واقرأوا أيضا: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

إذن، هي أنانية، ولكن:

ثمة فرق كبير بين الأنا (السالبة) والأنا (الموجبة).

- الأولىٰ= منكر شرعي وانتحار نفسي.
- الثانية= واجب شرعي وسعادة نفسية.

سـؤال:

ما ثمرات الانشغال بالنفس إذن؟

باختصار:

- كل ما هو من ثمرات (فقه النفس).

- وكل ما هو ضد ما سبق ذكره عند الحديث عن (ضرر الانشغال بالآخرين).

ولكني أترك هنا بعض السطور التي ربما سلَّطَت الضوء علىٰ (تطبيقات) مختلفة من (ثمرات الانشغال بالنفس والاشتغال بها):

الإناء ينضح بما فيه، وفاقد الشيء لا يعطيه، فكيف أتصور أن بإمكاني أن أبث الطمأنينة فيمن حوالي، في الوقت الذي أفتقر فيه أنا إلىٰ هذه الطمأنينة؟ كيف أزرع الصدق فيمن حولي وأنا أفتقر إليه؟ كيف يمكنني أن أعلم الآخرين لغة أجهلها؟

ولطالما كررتها في حلقاتي التدريبية والتعليمية:

ليس في الإسلام (أنا أحترق لأضيء للآخرين)، بل (أنا أضيء لنفسي، فأضيء للآخرين)، والفرق كبير جدًّا بين: «أنا أحترق لأضيء للآخرين» و«أنا أضيء لنفسي؛ فأضيء للآخرين».

الأولىٰ انتحار غبي، والثانية تزكية ذكية!

كثيرًا ما أواجه نفوسًا من الجنسين تحمل همومًا كبيرة:

تحرير القدس ... تغيير العالم من حولهم ... الثورة علىٰ الطواغيت ... العمل التطوعي والخيري، وغيرها من هموم كبيرة لكنَّهم يغفلون عن العمل علىٰ ما هو أهم من ذلك كله: النفس، ولعل هذا ما يفسر فشل كثير من هؤلاء في اختبارات الحياة اليومية البسيطة.

هل سمعتم بـ (الإجبار المقنع بالاختيار)؟

إنّه الوصف الملائم لتلك الحالة التي أمارس فيها ممارسة تظهر علىٰ أنها من (اختياري) في حين أنني وقعت تحت الإجبار حيث لم أرَ لها بديلًا.

مثال: عندما (أصحب) نوعًا من الناس لا أحبهم (حقيقة) ولا أتفق مع مبادئهم ولا أؤيد سلوكهم، ولكنني لم أرَ لهم بديلًا! فيظهر أنني (اخترت) صحبتهم بنفسي، إلَّا أنَّني في الحقيقة (أُجبرتُ) عليهم بسبب جهلي أو ضعفي عن التعبير عن نفسي، أو في خوفي من الوحدة، ومن أمثلة ذلك (الإجبار المقنع بالاختيار): ما يظهر أنني أحبه، أو أفضله من طعام، أو شراب، أو لباس، أو مواد سمعية، أو مرئية؛ إلا أنَّني في الحقيقة تحت تأثير و(إجبار) الآخرين الذين لا أريد أن (أسيء) إليهم، أو أريد أن أريهم أنني (مثلهم) أو غير ذلك، كل هذا لأنني لم أكن (نفسي) بل كنت (صورة الآخرين) التي يريدونها.

من ثمرات الانشغال بالنفس والاشتغال بها= الصدق.

ومن أظهر أعراض الصدق= سرعة التأثر، والرحمة، ولعل البكاء هو من هذه الأعراض، ومن ثمرات الانشغال بالنفس والاشتغال بها أيضًا= أثرة التلذذ بالعلم وثمراته، فتتنازع النفس في مشاركة كل ما (تتلذذ به) مع الآخرين، ولولا المصلحة الشرعية والعقلية وما ينشأ عنها من (ثمرات) علىٰ النفس والأمة، لما خرجت النفس من (خلوتها).

كتبت مرة:

تنازعني نفسي في كتابة كل ما أقرأ من (فوائد)، ولكن يمنعني من هذا رغبتي بأن أشعر بأنني أقرأ لنفسي، وليس للحديث عمَّا أقرأ دائمًا!

لافتة: وجدت عددًا من المتصدرين للدعوة لا يقرؤون إلا ما سيطرحونه بين يدي (جماهيرهم)، وكنت لما أسألهم عما يقرؤونه (لأنفسهم)، أجد الإجابة= شبه العدم. وهذا فضلًا عن أثره السالب علىٰ النفس؛ فإنَّه ربما جرح (الإخلاص) أيضًا.

ومن ثمرات الانشغال بالنفس والاشتغال بها= الأنس بالله. إذا حييت مع نفسي وانشغلت بتزكيتها واشتغلت بالله ثم بها عن الآخرين، أدركت حينها معنىٰ (الأنس بالله)، ولعل من أكثر الأمثلة التي تكررت في مادة (فقه النفس) عبر سنوات قصة ابن تيمية في سجن القلعة، فلما أراد أعداؤه أن (يعاقبوه)، بل (يعذبوه)، بأن (يحبسوه) حبسًا (منفردًا) في (عزلة) عن الناس. بعبارة أخرىٰ: أرادوا أن يعاقبوه بحرمانه من (الأنس بالآخرين)، فماذا كانت استجابته؟!

روىٰ عنه تلميذه ابن القيم: قال (ابن تيمية) لي مرة:

«ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري. أين رحت فهي معي لا تفارقني. إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة». [ابن القيم، «الوابل الصيب»].

ومما نقله ابن القيم عن ابن تيمية أيضًا قوله:

«لو بدلت لهم (يعني: خصومه) ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، ولما جزيتهم علىٰ ما سببوا لي فيه من الخير»، [ابن القيم، «الوابل الصيب»].

كما روىٰ ابن القيم عن ابن تيمية قوله:

«المحبوس من حبس قلبه عن ربه جل جلاله؛ والمأسور من أسره هواه، ولما دخل القلعة وصار من داخل سورها، نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾». [ابن القيم، «الوابل الصيب»].

ولابن القيم كلمات رائعة في ضرورة الانشغال عن الآخرين بالله: «إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعادات من تركها لغير الله؛ فأما من تركها صدقًا مخلصًا من قلبه لله، فإنَّه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة، وذلك ليمتحن أصادق هو في تركها أم كاذب، فإن صبر علىٰ تلك المشقة قليلًا استحالت لذَّةً. قال ابن سيرين: سمعت شريحًا يحلف بالله ما ترك عبد الله شيئًا فوجد فقده. وقولهم «من ترك لله شيئًا عوَّضه الله خيرًا منه» = حق؛

والعوض أنواع مختلفة، وأجل ما يعوض به: الأنس بالله ومحبته وطمأنينة القلب به وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه جل جلاله». [ابن القيم، «الفوائد»].

وأختم الحديث عن (الأنا الإيجابية) بكلمات من [سيد قطب، «أفراح الروح»].

«لم أعد أفزع من الموت حتىٰ لوجاء اللحظة، لقد أخذت في هذه الحياة كثيرًا؛ أعني: لقد أعطيت أحيانًا، تصعب التفرقة بين الأخذ والعطاء؛ لأنهما يعطيان مدلولًا واحدًا في عالم الروح في كل مرة أعطيت، لقد أخذت لست أعني أنَّ أحدًا قد أعطىٰ لي شيئًا، إنَّما أعني: أنَّني أخذت نفس الذي أعطيت؛ لأنَّ فرحتي بما أعطيت لم تكن أقل من فرحة الذين أخذوا».

سؤال:

إذا كان أمر الانشغال عن النفس بهذه الخطورة، فما عساي أفعل؟

حان الآن أوان قصة (النفس والسرداب):

بعد أن استدعيت كل ما مضىٰ من (حقائق) حول النفس والآخرين، سأتوهم أنَّني في قصر كبير، بابه مُشرَع معظم اليوم والليلة، يدخل منه (الضيوف) بلا حصر أو حد، ويملؤون ردهات القصر وغرفه، وأنا بين هؤلاء وهؤلاء، لا يشغلني إلَّا أن أقوم عليهم، وأن (أحسن) ضيافتهم، وألا يجدوا مني إلا ما يرتاحون له ويمدحونه، فأعتني كل الاعتناء بألَّا أقول إلا ما يريدون، وألا أريهم إلَّا ما يحبون، وألَّا أقدم لهم إلَّا ما يشتهون، وألَّا أمارس إلَّا ما يقبلون، وأنا في هذا، مجتهد أيما اجتهاد، في شغل مع الآخرين، مهما كانت (خدمتهم وضيافتهم) صعبة أو مجهدة أو حتىٰ (غير عقلية/ منطقية)!!!

وفي غمرة هذا الانشغال اليومي، وهذه الغفلة، أنسىٰ أو أتناسىٰ ذلك الكائن المسمىٰ بـ (النفس)، فلا يبقىٰ لي إلَّا أن ألقي بنفسي، (أو بجزء منها،

وهو الجزء الخفي والأهم: الجزء الروحي) في السرداب (أو القبو)، فترة من الزمان، حتىٰ أكاد لا أعرف عنها شيئًا، ولا أكاد أستجيب لها، إلا إذا صرخت بأعلىٰ صوتها؛ لحاجة شديدة للماء أو للغذاء أو لقضاء حاجة أو لغير ذلك، ثم لا ألبث أن أعيدها قسرًا إلىٰ السرداب؛ ثم أمضي في حياتي اليومية، لأنغمس في تلبية حاجات الجسد والعيش مع الآخرين فقط، بعيدًا عنها، عن نفسي. أما نفسي، فهي حبيسة السرداب، مسجونة فيه، ممنوعة من الخروج إلىٰ (ساحة البيت)، لا هي تملك أن يراها الناس، ولا هي تتكلم في حضورهم، ولا هي تصرّح برغباتها في وجودهم، ولا هي تحيا ما تعتقده إذا ما خالفهم. وأنا، لا أعيرها اهتمامًا، ولا أسمع لها صوتًا، يشغلني بصخب (الدنيا)، ومن فيها من ضيوف يملؤون عليَّ (حياتي).

بل ربما كنت أشد الحرص علىٰ هذه الشواغل والمشتتات، المستغفلات، أجد فيها ما يغنيني عن الخلوة بنفسي ومجالستها، شاشات فضائيات، وهاتف جوال، وشبكة (عالمية) تضاعف عدد الضيوف حتىٰ لا أكاد أملك حصرهم أو عدَّهم، ومواقع (تواصل) اجتماعي، ومنتديات أفلام، وتطبيقات غناء وموسيقىٰ، وألعاب رقمية تجذب الكبير قبل الصغير، وغير ذلك من مستغفلات؛ بل ربما بلغ بي الأمر من (المخادعة) أن أراني في اجتهاد وجد ونفع، أتقلب بين منتدىٰ قراءة، وموقع أخبار، ومنصة حوارية ثقافية، ومنابر أهل ذكر وعلم، وغيرها من (مستغفلات)، ولكنها مستغفلات (مقبولة) وربما (مأجورة) كما (أتوهم)!!!

كل هذا، وأنا لا أكاد أسمع لنفسي حسًا ولا صوتًا، فإذا ما حصل وسمعت صوت استغاثتها، سارعت (فورًا) إلىٰ تلك المستغفلات، فانهمكت فيها، لأخفض صوت نفسي، وربما بلغ بي الأمر حد (خنقها)؛ إذا ما كان صوتها (يزعجني) أو (يؤرقني) فيقض عليَّ مضجعي!. وهكذا أعيش يومي وليلتي، في البيت، وفي الشارع، وفي المسجد، وفي المدرسة، وفي

الجامعة، وفي النوادي العلمية والعملية والرياضية والاجتماعية والمهنية!.
أعيش عالة علىٰ هذه الحياة، لست أحيا ما خلقت من أجله، ولست أشعر بالطمأنينة أو بالسعادة أو بالرضا! كل هذا، من أجلهم هم، من أجل الآخرين، هكذا تربيت، وهكذا (أعيش)!!!

وهنا، تطفو علىٰ السطح أسئلة كثيرة، منها:

- ما الذي يحصل معي؟!
- هل أنا أدرك حقيقة ما أفكر فيه، وأشعر به، وأسلكه؟!
- لماذا هذا الضيق المتردد بين الآن والآن. دون سبب ظاهر؟!
- ما الذي أعرفه عن النفس، وعن نفسي أنا؟!
- ما الذي يجعل البعض (أسوياء) والبعض (مرضىٰ)؟!
- لماذا يمكن أن تتدهور العلاقة بيني وبين نفسي؟! وكيف يمكن أن تدنو الأمور إلىٰ هذا الدرك؟!
- كيف لي أن أشعر بالطمأنينة أو السعادة أو الرضا وأنا في حالة الغربة عن نفسي؟!
- كيف لي، إذا كانت هذه حالتي، أن أكون سببًا في العبادة/استعمار الأرض/الاستخلاف؛ ومفاهيم مثل (النهضة) مثلًا؟!

وعودة إلىٰ قصة (النفس والسرداب):

هكذا، تمر لحظات عمري وأنا في غفلة شديدة عن النفس وعن حاجاتها (الطبيعية)! وحينها تسير الأمور علىٰ النحو التالي:

- انشغالٌ عن النفس وحاجاتها (الطبيعية).
- تدهور حال النفس (في سردابها) دون إدراك مني؛ حتىٰ تبدأ بإطلاق نداءات استغاثة؛ طلبًا للنجدة والعون والإنقاذ.
- زيادة في الانشغال عن النفس مع شيء من المخادعة (أو الحيل الدفاعية)، ولعل أبرزها هنا:

- الإنكار والتجاهل؛ فيكون الشغل الشاغل: الناس/المهنة/الهاتف الجوال أو الخليوي/التقنية الإعلامية(التلفزيون)/الإنترنت وما فيه، وعلىٰ رأسها مواقع التواصل الاجتماعي/مراكز تحفيظ القرآن/الدروس والمحاضرات العامة/الدورات التدريبة/العمل الخيري، وغيرها.

- زيادة في تدهور حالة النفس حتىٰ تظهر أعراض ليس لها سبب عقلي/ منطقي (ظاهر) مثل: ضيق الصدر، أو خوف من أمر غير اعتيادي ولا منطقي، أو تحول سالب في الرغبة أو الاستمتاع في الحياة وأنشطتها المتنوعة، وغير ذلك. وربما عبر البعض عن هذه الأعراض بكلمات مثل: أريد أن أبكي ولا أعرف لماذا ..!!! لماذا لا أشعر بالسعادة مع تحقيقي لإنجازات كثيرة؟!

- شعور عارم بـ عدم العلم أو الجهل بالسبب الحقيقي وراء ما أنا فيه (وهو النفس حبيسة السرداب)، ويظهر هذا عادة في تكرار عبارة (لا أعرف)! وهنا، تبدأ سلسة أخرىٰ من المخادعات والحيل الدفاعية.

لافتة: هنا تظهر (الغفلة الآثمة) التي سبق الحديث عنها، زيادة في الانشغال عن النفس مع شيء من تنويع وسائل (الهروب) منها، والصبر والمصابرة والمكابرة علىٰ (وجعي)!!!

تكرر ظهور الأعراض التي ليس لها سبب ظاهر!!!

وصول صوت النفس (من السرداب) إلىٰ بعض من يجلسون في ردهات القصر وغرفه، حتىٰ إذا ما سألني بعضهم عن مصدر الصوت، تهربت من الإجابة وخادعتهم بأن الصوت ليس من (نفسي) وإنَّما من (نفس مجاورة)! أو منهم هم! أو من (التلفزيون) مثلًا!!!

تكرر ظهور الأعراض التي ليس لها سبب ظاهر، حتىٰ يبلغ الأمر حدًا (مخيفًا) مثل: سلوك مفاجئ وغير معتاد/انهيار عصبي/محاولة انتحار، أو غيرها من أعراض (مفاجئة)!!!

محاولة السعي لمعرفة السبب، لكن مع خوف المواجهة وضعف الإرادة للإصلاح، ويظهر هذا في المراوغة الشديدة عندما يحاول البعض توجيهي نحو

النفس، وقد يصل الأمر إلىٰ محاربتي لهم وانقلابي عليهم، ويظهر هذا في تهربي من الجلوس مع كل من يذكرني بنفسي أو بتقصيري في حقها أو بضرورة مواجهتها وتزكيتها، ومن أبرز هؤلاء: أهل البيت/الأب/الأم/الزوج/الزوجة/ الأبناء/الأصدقاء المقربون الصادقون الصرحاء/أهل الاختصاص النفسي، وغيرهم.

التساهل في إلقاء اللوم علىٰ أي شيء، حتىٰ ولو كانت أشياء (مقدسة) مثل: الله/القضاء والقدر/العدل الإلهي، وغيرها؛ المهم أن يبقىٰ اللوم خارج حدود النفس.

إذا اقتربت مساعي البحث من حدود النفس، تحولتُ من الضعف إلىٰ القوة، ومن الطيبة إلىٰ الشراسة، ومن الدفاع إلىٰ الهجوم، هنا تظهر كل أنواع الحيل وأسلحة الدفاع (الذاتية)، ولعل أبرزها:

محاولة هدم وإسقاط كل شيء. في هذه اللحظة (الواعية) تكمن أولىٰ خطوات الحل: **إخراج النفوس الأخرىٰ من القصر، بقصد الالتفات إلىٰ النفس**، وهذه خطوة ليست سهلة في هذا العالم المزدحم، خصوصًا بعد كل ما سبق ذكره من أسباب (طبيعية) ومن (مستغفلات).

وهنا، علىٰ النفس أن تجتهد في (إغلاق بوابة القصر ونوافذه)، فلا ينفذ إليها من (المستغفلات) ما يسرقها من ذ اتها، وليس في الأمر سر أو عصا سحرية، بل هي أعمال يسيرة علىٰ النفس إذا ما صدقت العزم: إمساك النفس عن فضول الكلام والمعرفة، إغلاق الهاتف الجوال والحاسوب وغيره (ساعات محددة من اليوم واللية)، الاجتهاد في فقه الأولويات (الله-النفس-الآخر)، الخلوة بالنفس بين الآن والآن (الصلوات وقبيل النوم)، قول كلمة (لا) لكل ما يشبه ما مضىٰ من (مستغفلات). إذا ما وصلت إلىٰ حدود النفس، أي: إذا ما اقتربت من السرداب، وإذا ما تجاوزت المخادعات (الحيل الدفاعية) وأسلحتها.

هنا، ربما فاجأتني تلك الرائحة الكريهة الصادرة من (النفس)، ممَّا يدفعني لمراجعة التفكير في (فتح الباب) أو (مواجهة النفس)، وهذه المرحلة ليست سهلة ولا قصيرة (حتىٰ وإن ظهر الأمر هكذا في الكتابة عنها)، بل قد أستغرق فيها أيامًا وليالي وأسابيع وشهورًا!!!

فإذا صدقت النية والعزم والتوجه، وإذا تمكنتُ من التقدم نحو باب السرداب وفتحه (وهو ما سنعبر عنه لاحقًا باسم: التبصر وقراءة النفس)، تظهر المفاجأة؛ حين أكتشف أنني أمام كائن غريب عني، وكأني أراه لأول مرة.

هنا يظهر لي أنَّني لا أعرف نفسي؛ وهنا يظهر السبب الحقيقي الذي كنت أجهله، (أو أتجاهله)، والذي هو وراء ما أنا فيه= الجهل بالنفس.

هنا، وداخل هذا السرداب (الذي أصبح أشبه ما يكون بـ الحصن العنيد)، وبعد أن انتهينا من حرب ضروس لنصل إلىٰ ما وصلنا إليه؛ تبدأ الحرب الحقيقية، وتبدأ المواجهة الأصعب، المواجهة مع النفس.

هنا تخيم حالة من الهدوء الذي يعبر عنه البعض بأسئلة مثل:

- **ما الذي ينبغي عليّ أن أفعله إذا جلست وحدي؟**
- **ماذا أقول لنفسي إذا خلوت بها؟**
- **لماذا أشعر فجأة بأن الكلمات تتفلت من ذهني ويمسكها لساني؟**
- **لماذا أشهر فجأة أن كل ما كنت أعده لهذه الجلسة من كلمات اختفىٰ وغاب؟**
- **هل من الطبيعي أن أشعر برغبة في الهرب من هذه المواجهة؟**

وغيرها من أسئلة تدور في نفس الفلك، وهذا الهدوء هدوء ذو حدّين:

فإمَّا أن يكون الهدوء الذي يسبق العاصفة، عاصفة الهجوم الشرس وغير المسبوق علىٰ الآخر أو علىٰ نفسي، وهو هجوم ناتج عن الخوف الشديد من نفسي، أو الحنق عليها، والخوف سببه جهلي بها والذعر ممَّا آلت إليه حالتها في السرداب، كما أن الحنق سببه التساهل في تحميل النفس الذنب فيما دنت

إليه؛ فأبدأ بهدم كل ما حولي داخل هذا الحصن، وهذه حالة (طبيعية وغير سوية).

وإمَّا أن يكون الهدوء الذي يسبق حالة من الحزن والندم والبكاء، لنفس الأسباب التي دفعتني للخوف والحنق، ولكن تلك الأسباب تدفعني هنا للشعور بالذنب تجاه نفسي، وهذه حالة (طبيعية وسويّة).

وهنا قد أعود فأرتدّ علىٰ عقبيّ، وأنتكس مرة أخرىٰ، فأختار إحدىٰ اثنتين:

الأولىٰ: أن (أنتكس) بأن أهرب، فأحبس نفسي في سردابها مرة أخرىٰ، وأعود إلىٰ العيش مع الآخرين، ولكن هذه المرة، علىٰ علم مني ووعي، إلا أنني وبعد فترة من الزمن، قد أغيب في العالم الخارجي، ويغيب معي علمي ووعيي، فيستحيلان نوعًا من الوهم الذي يصحبه توهم آخر، يبدأ بوعي وينتهي بحالة قريبة من اللاوعي.

هنا، أشعر بأنه (لا مشكلة هناك) أو (أنا أفضل من غيري)!

ومن صور هذا التوهم، الهرب إلىٰ عالم الوهم والهلوسة، فهذا يهرب من مواجهة نفسه ليقول إنه (المهدي المنتظر)، أو (المسيح) أو (بوذا) أو (القديس أوغسطين) أو (زائر من الفضاء)، وتلك تهرب من مواجهة نفسها لتقول إنها (مريم العذراء) أو (معشوقة من جني) أو (مسكونة بالجن) أو (مصابة بالعين أو الحسد)، أو أي صورة تستدعيها النفس (المصابة بالخوف من المواجهة) من مستودعها، لتهوِّن علىٰ ذاتها من ضعفها وفشلها في مواجهة علتها وغير ذلك من أنواع الوهم الكثيرة!

لافتة مهمة: لا يعني هذا إنكار حقيقة العين أو الحسد أو المس، ولكنني أتحدث هنا عن أولئك الذين يهربون إلىٰ هذه المفاهيم دون اجتهاد في التزكية، كانت هذه هي الصورة الأولىٰ من الانتكاستين.

و (الثانية): أن (أنتكس) بأن أنضم إلىٰ نفسي في سردابها، وأكون أنا الآخر حبيسًا في هذا العالم، أعيش ولا أحيا، جسدًا بلا روح فاعلة، وهذا

ضرب من ضروب الاكتئاب؛ فأبقىٰ حبيس السرداب، ولكن باختياري هذه المرة.

أما إذا اخترت الهدوء، فيبقىٰ لي حينها أن أجلس إلىٰ نفسي، وأن أخلو بها، وأن أستمع لها، وأنصت إليها، أي: أن أبصرها وأن أقرأها، وهذه القراءة ليست سهلة أو يسيرة، بل هي رحلة طويلة ربما تخللتها كثير من المحطات التي قد أجد فيها ما لا يسرني.

فإذا ما قرأت نفسي، بقي لي حينها أن أعلم أنها (مخلوقة ضعيفة قاصرة)، فأقبلها كما هي، بعيوبها وبعلَّاتها وبسوءاتها، قبولًا لا يعني الموافقة علىٰ ما هي فيه، أو ما آلت إليه إنَّما هو قبول يسبق التعارف والتصالح والتوافق؛ وهذا أقل ما تستحقه نفسي مني جزاء إهمالها، فإذا ما قبلت نفسي، أصبح من السهل عليّ أن أقدّرها، أن أصلح من حالتها، أن أطهّرها= أن أزكّيها.

وتحصل التزكية بأمرين متتابعين:

الأولىٰ: التخلية (أو التفريغ).

والثاني: التحلية (أو التزود والشحن).

أما التخلية، فتكون بالعمل علىٰ إزالة كل ما في النفس من شوائب وعيوب ومساوئ، سواء كانت متعلقة بعلاقة النفس بالله، أو النفس بذاتها، أو النفس بالآخرين، وسواء كانت متعلقة بالماضي أو بالحاضر أو حتىٰ بالمستقبل، وهنا تستدعي النفس ما تعلمته في مدرسة (التزكية) باسم (أمراض القلوب)، مثل: الجهل، والشبهات، واليأس، والقنوط، والكبر، والكره، والغيظ، والحسد، إلخ . . . بهذه التخلية؛ تصبح النفس مؤهلة بما فيه الكفاية ليتم تحليتها (أو تزويدها) بما يصلحها ويزكيها.

هنا، يمكن للنفس أن تتوجه إلىٰ طلب العلم، أو حضور حِلَق العلم والذكر، أو الاستماع إلىٰ داعية أو وعظ، أقول هذا؛ لأنَّ كثيرًا من النفوس

التي رأيتها تشك (في دينها) إنَّما قفزت إلىٰ (التحلية) دون (تخلية)، ودون أن تعد النفس بما يكفي لذلك.

أقول لهذه النفس/النفوس: كأسك تمتلئ بالشوائب، فأي ماء نقي يوضع فيها= وجدته عكرًا، وصدق المتنبي هنا:

ومـن يـكُ ذا فـمٍ مُـرٍّ مـريـض　　　يـجـد مُـرًّا بـه الـمـاء الـزلالا

وأما التحلية، فتكون بتزويد النفس بما يصلحها جسدًا وروحًا، ويكون هذا بأمرين: العلم، والعمل، وأعني بـ العلم: العلم بـ[من أنا، ولم أنا]. ويتبع هذا بالضرورة (ما لا يسع النفس جهله)، أو (ما لا يسع المسلم جهله)، وأعني: بـ العمل: الانشغال فورًا بتحقيق ما أعلمه في حياتي اليومية.

هنا، وفقط هنا، يمكن لي أن أكون سببًا في تحقيق العبادة/العبودية والخلافة وإعمار الأرض، ولعلي أختم بأسئلة موجزة لعلاقة النفس بالآخرين:

- هل أنا (مشتغل) بنفسي؟! كيف؟!
- وما أقل قدر من الوقت يلزمني لذلك؟!
- هل أخلو بنفسي؟! متىٰ؟! وكيف؟!
- هل أسعىٰ إلىٰ (الحق)؟! أم أسعىٰ لأثبت (أنني) علىٰ حق؟!
- متىٰ كانت آخر مرة واجهت فيها نفسي؟! وما السبب؟! وبم خرجت؟!
- هل آنس بنفسي؟! أم أستوحش معها؟
- هل أظنني أعرف نفسي؟! أم أراني أعرف الآخرين أكثر من نفسي؟!
- هل آنس بالآخرين؟! أم أستوحش معهم؟!
- هل (أعتمد) علىٰ الآخرين حتىٰ أنني (أشقىٰ) بدونهم؟!
- هل أجلس مع أهل بيتي والناس من حولي، أم مع العالم الافتراضي؟! وأيهما أفضل لي؟! (ربما كان ما أفضِّله غير ما أفعله حقيقة).

- هل أفعل في خلوتي ما أفعله أمام الآخرين؟! (أستثني هنا ما هو من دواعي الحياء والخصوصية).

- هل أسعىٰ إلىٰ (هدفي) دون النظر إلىٰ الآخرين؟!

- هل أجد حرجًا في الحديث عن (حسنات نفسي) أمام الآخرين؟!

- هل قرأت صفة صلاة النبي ﷺ؟! (علاقة هذا الأمر بموضوع النفس والآخرين له تفصيل في مادة فقه النفس التدريبية).

- هل لي (ورد يومي) من القرآن؟! متىٰ؟! وكيف؟! (علاقة هذا الأمر بموضوع النفس والآخرين له تفصيل في مادة فقه النفس التدريبية).

آنسني الله وإياكم به، وبأنفسنا ولا جعل وحشتنا إلا بالبعد عنه. الله الله .. في أنفسكم.!



الصفاء النفسي

د. محمد الشامي(*)

منذ أن يولد الإنسان، وهو يسعىٰ إلىٰ إرضاء نفسه وتحقيق سعادته من خلال توفير احتياجاته الذاتية وتجنب إيذائها. هذه الأهداف علىٰ اختلاف أشكالها وأنواعها يبذل فيها الإنسان كل ما أوتي من قدرة طوال حياته حتىٰ يصل إليها. فالسعادة والرضا هدفان يطلبان لذاتهما من جميع البشر، علىٰ اختلاف السبل والوسائل والوسائط.

لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، ولذلك يتعرض الشخص لكثير من الأمور التي تؤثر عليه في مراحل حياته المختلفة، منذ الطفولة إلىٰ المراهقة والزواج وما يتخلل ذلك من دراسة وعمل. وهذه المؤثرات يتغير استقبالها وتأثيرها من شخص لآخر، حتىٰ وإن توحدت. فترىٰ -مثلًا- الإخوة في بيت واحد يتعرضون إلىٰ نفس المؤثرات من الوالدين ويختلفون في استقبال الأمور فينتجون شخصيات مختلفة.

أول وأهم المؤثرات في نفسية الشخص، هي بيئة التربية التي ينشأ فيها الإنسان. فمنذ الأيام الأولىٰ من حياة الطفل، يبدأ هذا المؤثر في التأثير علىٰ الطفل من خلال طريقة تعامل الأبوين له. ولقد وضعت نظريات نفسية لدراسة

(*) استشاري الأمراض النفسية، ومؤسس قسم الطب النفسي بمستشفىٰ ٥٧٣٥٧.

المدير الطبي لموقع شيزلونج، وله مشاركات استشارية نفسية، إعلامية متنوعة.

هذا المؤثر ونتائجه، فيما سمي بعلم نفس النمو. وقد أخذت هذه النظريات- علىٰ اختلافها-في الاعتبار سمات شخصية الأبوين التي تؤثر علىٰ بناء شخصية الطفل. ومنذ ذلك الحين، تبدأ الشخصية في التبلور والتحور والتغير إلىٰ أن تتشكل بشكل كامل مع نهاية مرحلة المراهقة في سن العشرين.

ثاني هذه المؤثرات، هو الصراع داخل الشخص بين كل من الاحتياجات ومدىٰ توفر تغذية هذه الاحتياجات وموانع هذه ا لتغذية. ومثال ذلك؛ الاحتياج إلىٰ الحب، سواء كان من الأب أو الأم أو الأخوة أو الأصدقاء أو الزوج أو غيرهم، فالإنسان يحتاج إلىٰ الحب من كل هؤلاء؛ إذ إنَّ شكل الحب يختلف من شخص لآخر. وليس شرطًا أن يتوفر كل هؤلاء لدىٰ الشخص، وإذا توفروا فليس شرطًا أن يوفروا الحب، وإذا توفروا هم ووفروا الحب فليس شرطًا أن يصل نقيًّا إلىٰ الشخص، بل قد يصل مشوشًا بعوامل أخرىٰ كالعنف مثلًا.

وبناءً علىٰ هذه المؤثرات-وقد سردنا البعض وليس الكل-فإنَّ الشخص يتعرض إلىٰ متغيرات نفسية كثيرة علىٰ مدار حياته. ولك أن تتخيل أن منظمة الصحة العالمية، في إحدىٰ إحصاءاتها، ذكرت أن ما يقارب (١٠%) من البشر قد تعرضوا للاكتئاب في سنة واحدة، وأن واحدًا من كل (١٣ شخصًا) يعاني من القلق، وأن شخصًا واحدًا من كل خمسة أشخاص يعاني مرضًا نفسيًّا!!

وتمارس المجتمعات العربية والإسلامية حالة من الإنكار علىٰ المستوىٰ الثقافي للمشكلات النفسية، علىٰ اعتبار أن أغلب هذه المشكلات راجع إلىٰ نقص الإيمان، وأنها من عمل الشيطان!!. ولذلك الاعتقاد أسباب كثيرة يطول سردها، لكن هذا لا يعني انفصال الدين عن النفس ودوره في تغذيتها وإشباعها وعمل حصون دفاعية لها من بعض الآثار النفسية السيئة المترتبة علىٰ

البعد عنه. بل نؤمن بدور الدين في بناء النفس وثباتها، ونؤمن كذلك بأنَّ هناك أمراضًا نفسية تصيب المؤمنين كما تصيب غيرهم. ولعلنا نذكر هنا بعض المشكلات والأمراض النفسية التي قد تصيب الإنسان علىٰ مدار حياته. كما نذكر بعض النصائح العامة التي يحتاجها الشخص كذلك.

تقوية الشخصية وتعزيز الثقة بالنفس:

كيف ومتىٰ تتكون الشخصية؟

تتكون الشخصية علىٰ مدار طفولة الإنسان ومراهقته، وتتشكل تبعًا للظروف التي تربىٰ فيها. وكلمها زادت تجارب الإنسان والمواقف التي مر بها، والخبرة التي اكتسبها من تلك المواقف، كلما نضجت شخصيته وأصبحت أقوىٰ. ويأتي ذلك من خلال الاستفادة من هذه المواقف ومحاسبة النفس علىٰ ما حدث فيها إذا كان قد تصرف فيها بشكل صحيح أم لا.

أسباب تكوّن الشخصية الضعيفة:

الشخصية الضعيفة في أغلب الأحوال، نشأت بسبب قلة الاختلاط بالآخرين، وربما تظل ترفض التواصل معهم بحجج مختلفة مثل أن الناس كلهم سيئون وأن مخالطة الناس لا تأتي بخير. ولو قارنت-مثلًا-الأشخاص الذين قيدوا أنفسهم في العالم الفضائي للكمبيوتر والإنترنت كمهندسي الشبكات بمندوبي المبيعات، الذين يحاولون كسب ود الناس لبيع منتجاتهم؛ لاحظت الفرق واضحًا. ومع اعتبار ما حدث في السنوات الأخيرة من زيادة استخدام مواقع التواصل الاجتماعي، فقد جعلت الناس يغلقون علىٰ أنفسهم أكثر فأكثر؛ فيفقدون مهارات التواصل المهم لدعم الشخصية، ثم نهج البعض في اختيار أسماء وهمية زيادة في التخفي والبعد عن الناس؛ فزادت الفجوة

بينهم وبين الآخرين. ويستمر التخفي أكثر فأكثر، ثم تزيد الشكوىٰ بأنَّنا لا نستطيع التعامل مع الناس.

في حالات أخرىٰ، يكون سبب الشخصية الضعيفة؛ كمية العنف الذي تعرض له الشخص علىٰ مدار حياته؛ ممَّا أفقده هويته الذاتية. العنف قد يكون عنفًا لفظيًّا أو بدنيًّا، أو في التعاملات العامة مع الآخرين، مثل: مصادرة الحقوق والمطالب، أو التكليف بما لا يطاق، أو الظلم وعدم العدل وغيره.

كيف تقوي الشخصية؟

الإجابة الأولىٰ والأخيرة؛ هي زيادة الاختلاط بالناس والذي من خلاله يكتسب المرء مهارات أفضل للتواصل، تنتج ثقة بالنفس أفضل؛ فتجعلها أكثر ثباتًا في المشكلات الحياتية، وتقل المشاكل النفسية علىٰ إثر ذلك. ويتضمن الحل أمورًا منها:

(١) العمل علىٰ وضع الشخص نفسه في تجمعات مختلفة، في مناسبات ومواقف مختلفة، كالمسجد أو النادي أو التطوع أو الرحلات أو المعسكرات أو اللقاءات الأسرية أو غيرها.

(٢) إلقاء الألواح التي يحملها الإنسان تحت إبطه، أن الناس فيهم وفيهم، وقد أصابني منهم ما أصابني وأن البعد عنهم غنيمة ... إلخ.

(٣) محاولة الاقتراب من أشخاص قليلين يشعر الشخص أنهم ممَّن يشتركون معه في أمور شخصية كثيرة؛ لتكوين صداقات حميمة، ثم زيادة عدد هؤلاء الأشخاص مع الوقت.

(٤) محاسبة النفس علىٰ المواقف التي يتعرض لها الشخص، فيسترجع الموقف ويفكر ما الذي كان من الأفضل فعله في هذا الموقف؟ فإذ تكرر الموقف نفسه؛ فعل الشيء الأحسن الجاهز في مخيلته، وتستمر المحاسبة.

(٥) لا بُدَّ من أن يكون هناك بعض المشكلات التي ستحدث أثناء التعامل مع الآخرين، لكن كل موقف يُكسب الشخص خبرة إضافية تضاف إلىٰ خبرته. فإذا تكرر الموقف؛ تعامل مع المشاكل بشكل أفضل.

(٦) تجنب التفكير تمامًا في: ما الذي يفكر فيه الناس عني؟ ودعك من «سيقولون عني كذا وكذا». الناس في كل الأحوال ستتكلم فأرح نفسك. تأسَّ بالرسول ﷺ الذي ترك الناس تتحدث، فقالوا عنه كذا وكذا، ومضىٰ في دعوته.

(٧) اعرف أنَّ كل يوم يمر عليك، وأنت متجنب للتعامل مع الآخرين؛ تؤخر فيه نفسك أكثر فأكثر عن حل المشكلة. كثير من النساء سيقولون «نحن نجلس في البيت وليس لنا دخل في كل هذا». والإجابة ستكون: عليكن أن تعلِّموا أولادكن الشخصية القوية وفاقد الشيء لا يعطيه.

(٨) في خلال سعيك لزيادة الثقة بالنفس، امدح نفسك وشجعها في كل مرة تتعامل بشكل إيجابي؛ حتىٰ تكون أفضل وأفضل في المرات القادمة.

(٩) لا تجعل نفسك أسيرة للتفكير في سلبياتها فقط، انظر لنصف الكوب المملوء الذي بداخلك، وداوم علىٰ ذكر تلك المحاسن لنفسك فتتبناها حقيقة لا افتراضًا.

(١٠) اسمع نصيحة من حوالك ممَّن يحبونك، فهم المقياس لمدىٰ التحسن الذي يطرأ عليك.

صعوبة الحفظ والنسيان المتكرر:

قدرة الحفظ تتفاوت بين شخص وآخر؛ تبعًا لتفاوت القدرات العقلية عند البشر، كاختلاف أوصافهم. وأكثر شكوىٰ وسؤال يسمعه الطبيب النفسي: كيف أتخلص من داء النسيان؟ وللرد علىٰ السؤال أوضح نقاطًا.

مراحل الحفظ:

لكي يحفظ الإنسان شيئًا؛ فإن هذا يمر في مراحل:

(١) تركيز الانتباه كله في ما يحفظه الشخص. وذلك من خلال جعل كل وظائفه العقلية تركز في عملية الحفظ. فالعين والأذن واللسان والمخ من وراء ذلك كله، أعضاء مهمومة بحفظ هذا الشيء.

(٢) مع أول دخول للمعلومة في المخ، ينبغي تثبيت تخزين المعلومة، من خلال مراجعتها في خلال الدقائق التالية لذلك. عادة ما يكون من خلال قراءة الشيء مرة ثانية بشكل سريع.

(٣) تدخل المعلومة إلىٰ ما يسمىٰ بالذاكرة قصيرة المدىٰ، (يعني كأنك تنقش الكلام علىٰ القشرة الخارجية للمخ). فهي لا تثبت في الدماغ إلا إذا ذهبت إلىٰ الذاكرة بعيدة المدىٰ، (وهي أعمق من القشرة الخارجية) ويكون ذلك من خلال تكرار المعلومة مرات أخرىٰ.

(٤) في حالة عدم تذكير الشخص لنفسه بالمعلومة، أو استرجاعها لفترة طويلة؛ تحل بعض المعلومات الجديدة محل بعض المعلومات القديمة التي لم تثبت بشكل كافٍ في مراكز الذاكرة المتعددة. فالنسيان له أكثر من تفسير، أحدها ما ذكرناه من إحلال المعلومات الجديدة مكان القديمة. والتفسير الآخر هو ما ذكرناه في الفقرة السابقة من أن المعلومة المخزنة قد تتآكل مع الزمن؛ بسبب قلة استرجاعها وبقائها بشكل سطحي في الدماغ.

قدرة الإنسان علىٰ الحفظ:

قدرة الإنسان علىٰ الحفظ تفوق الخيال البشري في التصور، لكن قليلًا ما يتم استغلال هذه القدرة. وتقول الأبحاث إنَّ الشخص إذا بذل قصارىٰ جهده في الحفظ مدىٰ حياته؛ فإنَّه سيستغل حوالي (٢٠%) فقط من قدرة الذاكرة التي وهبه الله إياها.

ولقد كانوا قديمًا يحفظون المعلقات كاملة من أول مرة. وكانوا يحفظون مئات الآلاف من الأحاديث بأسانيدها، وغير ذلك من الكتب والمتون وكلام العلماء. وقبل انتشار أجهزة الكمبيوتر والتليفونات المحمولة، كان الناس يحفظون كثيرًا من أرقام الهواتف؛ لاعتمادهم علىٰ استرجاعها في أوقات كثيرة، وطول المدة اللازمة للرجوع لهذه الأرقام من الدليل. لكن مع تطور الزمن وتنوع العلوم والمعلومات المطلوبة، أصبحت الذاكرة مشتتة بين أمور عدة.

ما الذي يؤدي إلىٰ النسيان المتكرر؟

(١) المشكلة الرئيسية تكمن في التأثير علىٰ المرحلة الأولىٰ من الحفظ، وهو تركيز كل الانتباه نحو الشيء المحفوظ. فالتشتت هو أكثر سبب يؤثر علىٰ دخول المعلومة من البداية، ولذلك فهي لا تتخزن؛ لأنَّها قد تأثرت بدخول أشياء أخرىٰ في أثناء محاولة الحفظ. أشهر مثال لذلك ما يشتكيه كثير من النساء أنهن نسين الأكل علىٰ النار، وذلك يكون بسبب انشغالهن بأشياء أخرىٰ في نفس الوقت في البيت؛ فيتأثر تخزين هذه المعلومة عندهن.

(٢) فقد الحماس للمعلومة، من خلال عدم فهم السبب من المعلومة وعدم الاستمتاع بها. أشهر مثال علىٰ ذلك: إذا قارنَّا بين معلومات الدراسة وبين ما يحفظه الرجال عن مباريات الكرة أو النساء عن مقادير الأكلات. ففي الوقت الذي تجد الطالب يشتكي من صعوبة المذاكرة، هو في نفس الوقت يحفظ مباريات كرة القدم عن ظهر قلب لسنوات. وكذلك تجد الطالبة تحفظ قوائم الأكل في المطاعم، أو مقادير الأكل في المطبخ، أو أنواع الملابس وماركاتها وأسعارها، في مقابل صعوبة الدراسة.

(٣) عدم مراجعة المعلومات أولًا بأول، حتىٰ تثبت في العمق الدماغي، فلا تُنسىٰ في وقت قصير. وأشهر مثال لذلك حفظ القرآن الكريم.

(٤) عدم ربط المعلومة بالواقع العملي، فمثلًا: من أهم العلوم التي نتعلمها في المدرسة، علم الفيزياء، الذي يشتكي منه الغالبية العظمىٰ من الطلاب. وهذا العلم، علم جليل يمنحك معرفة طبيعة كل شيء يحدث من حولك. مشكلته: هو عدم ربطه بواقع حياة الإنسان. وكذلك العلوم التي لم يعد الإنسان يستخدمها في حياته العملية، مثل الأدب في اللغة العربية ومدارس الشعر وبحوره. وكذلك علم حساب المثلثات بشكل كامل، الذي ليس له في الواقع العملي أي مكان إنَّما هو للمتخصصين.

(٥) الاعتماد كثيرًا علىٰ الذاكرة قصيرة المدىٰ (الضغط علىٰ النفس أيام الامتحانات)، وهو ما يبدو منطقيًّا، لكن ليس هذا حلًّا في المطلق؛ إلَّا أنَّه ينفع في الأشياء شديدة الصعوبة، مثل الأسماء الصعبة لبعض الأشياء، مثل أسماء المركّبات في مادة الكيمياء.

(٦) جميع المشاكل النفسية؛ تبدأ بضعف التركيز والنسيان، وأكثرها شهرة في تأثيرها؛ مشكلة القلق. فمثلًا يتضاعف القلق أثناء أيام الامتحانات عند بعض الطلاب، يقلق بشكل مبالغ فيه، فيؤدي ذلك إلىٰ ضعف التحصيل الدراسي، فيقلق أكثر؛ فيقل التحصيل أكثر، ويدخل في حلقة مفرغة. وهذا العامل علىٰ الرغم من قوة تأثيره علىٰ الشخص في الحفظ؛ إلَّا أنَّه من أقل الأسباب التي تلقىٰ اهتمامًا في علاجها؛ لارتباطها بالحواجز الاجتماعية والثقافية في علاج المشاكل النفسية، وأشهرها وصمة العلاج النفسي.

تسويف الأهداف:

مشكلة تحديد الأهداف وتسويفها، هي مشكلة موجودة في كل البشر، إلَّا القليل جدًّا منهم. ولعلاجها فلا بُدَّ من جدية لحلها؛ وإلَّا فستبقىٰ كما هي. هناك حديث للنبي ﷺ: «لكل عمل شِرة، ولكل شرة فَترة . . . »، وهو صحيح. ومعناه أنَّ لكل عمل نشاطًا، لكن هذا النشاط له فتور وضعف.

ولذلك صح عنه ﷺ أيضًا أنَّه قال: «**اللهم إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل . . .**». وتأمل الكلمتين (العجز والكسل) كيف اقترنتا ببعض.

كما ذكرت، فإن الجدية في الحل هي المفتاح. وينبغي اتباع الآتي:

(١) لا بُدَّ أن يتم تحديد الأهداف بدقة، الأهداف الكبرىٰ والصغرىٰ، ومثال ذلك: مطلوب أن أذاكر المنهج كله كهدف كبير، فيقسم إلىٰ أهداف أصغر، أن أذاكر كل مادة، فيقسم إلىٰ أهداف أصغر، أن أذاكر كل فصل أو باب.

(٢) لا بُدَّ أن تكون كل خطوة محددة بتاريخ بداية ونهاية. سأبدأ في هذا اليوم كذا، الساعة كذا، وأنتهي منه يوم كذا، الساعة كذا. ويستلزم أن يكون في الحسبان مساحة للوقت الضائع والمهدر خارج إرادة الشخص، فأعمل علىٰ تقليله قدر المستطاع.

(٣) محاسبة النفس لحظة بلحظة علىٰ التأخير عن المواعيد المحددة، وتذكير النفس دائمًا بموعد الانتهاء من الهدف، فيكون في البال دائمًا.

(٤) عقاب النفس علىٰ التأخير؛ وذلك من خلال أمور كثيرة؛ مثلًا غلق الهاتف أو الإنترنت، أو عدم الخروج لحين الانتهاء أو غيره.

(٥) حبذا أن يشارك الآخرون الهدف مع الشخص، فيذكر بعضهم بعضًا به. وأفضل منه أن يسلم كل شخص العمل للآخر، فعندها لا بُدَّ لكل شخص أن ينتهي من الجزء المخصص له؛ فيساعد هذا علىٰ إنجاز الأمور بشكل أفضل وأسرع وأكثر جدية.

(٦) لا بُدَّ أن أعلم جيدًا ما الذي يمنعني من هدفي، وعندها ستستلزم وقفة جدية لوقف هذا المانع بدون أي تكاسل عن وقفه.

النوم الصحي:

النوم من أهم الأمور التي تضبط حياة الإنسان أو تؤثر عليها سلبًا أو إيجابًا؛ ولذلك: في أي مشكلة نفسية؛ تجد أن النوم يتأثر بشكل أو آخر.

فمثلًا في الاكتئاب، يكون النوم صعبًا ويتأخر في أغلب الأحوال، ويأتي مصحوبًا بأحلام مزعجة كثيرة، وفي حالات القلق، يتأخر الدخول في النوم كثيرًا بسبب كثرة التفكير.

ما هي فترة النوم المناسبة للجسم؟

(٨) ساعات، لو أقل من ذلك؛ يتسبب في همدان في الجسم وصعوبة في التركيز. وأكثر من ذلك؛ يتسبب في خمول زائد، وقلة نشاط، والإحساس بالاحتياج الزائد للنوم.

كيف نحصل علىٰ نوم جيد؟

(١) تثبيت مواعيد النوم والاستيقاظ، مع تغيير محدود جدًّا أيام الإجازات.

(٢) لا تدخل إلىٰ السرير إلَّا وأنت في قمة النعاس.

(٣) تعمد أخذ قوت كافٍ قبل النوم؛ لتفريغ الدماغ من أية أفكار في أمور الحياة المختلفة؛ خاصة المشكلات الحياتية، وذلك عن طريق قراءة شيء مسلٍ أو مشاهدة شيء مشت للذهن.

(٤) أخذ حمام دافئ قبل النوم؛ يساعد علىٰ الدخول في النوم بسهولة.

(٥) شرب مشروب دافئ قبل النوم.

(٦) تجنب الحديث مع أحد في مواضيع شائكة أو فيها جدل ومناظرة قبل النوم.

(٧) إذا لم تنم في خلال نصف ساعة؛ فلا بُدَّ أن تترك سريرك وتذهب لعمل شيء مختلف لمدة ربع ساعة، ثم عد إلىٰ السرير متىٰ غلبك النوم.

(٨) التزم بالأوراد قبل النوم.

(٩) فكر من داخلك أن غدًا سيكون يومًا جديدًا بهمومه ومشاغله، وارمْ هموم اليوم المنتهي وراء ظهرك.

(١٠) لا مانع في حالة عدم جدوىٰ كل ما سبق؛ أن نلجأ لبعض الأدوية التي تساعد علىٰ الدخول في النوم لفترة مؤقتة، مع الانتظام علىٰ التعليمات. وهذه الأدوية لا بُدَّ أن تكون تحت إشراف الطبيب.

الاكتئاب:

الاكتئاب: هو اضطراب المزاج والإحساس بالحزن والضيق وعدم الشعور باللذة والاستمتاع المعتاد، وغير ذلك، كما سنذكره التفصيل. ويمكن أن يصيب الأشخاص من كل الأعمار والمراحل: الأطفال والمراهقين والناضجين وكبار السن. ولا يتم تشخيص الاكتئاب إلَّا إذا مرَّ علىٰ الأعراض أسبوعان علىٰ الأقل، وهذا هو الفرق بين الاكتئاب والحزن. فالحزن: هو الشعور بعدم السعادة أو البهجة لفترة أقل وبدرجة أقل، فيكون مؤقتًا وشدته أقل، وعادة ما يكون له سبب ظاهر. فإذا زاد الحزن في الشدة والمدة أصبح اكتئابًا. الحزن تفاعل بشري فطري طبيعي في كل الناس، أما الاكتئاب فهو مرض يحتاج إلىٰ علاج.

أعراض الاكتئاب:

- اضطراب المزاج (المزاج الحزين).
- فقد اللذة، أو الاستمتاع بالأشياء المعتادة.
- ضعف الشهية للأكل.
- اضطراب النوم/ صعوبة النوم، أو القلق بالليل كثيرًا.
- الأحلام المزعجة (الكوابيس).
- ضعف القدرة علىٰ التركيز.
- الإحساس بعدم القيمة للشخص.
- الإحساس الشديد بالذنب أو التقصير في حق الله.
- الإحساس بعدم قيمة الحياة.

- التفكير في الموت.
- الإحساس المستمر غير المبرر بالإجهاد.
- اليأس وعدم الأمل.

درجات الاكتئاب:

إذا كانت أغلب الأعراض المذكورة موجودة عند الإنسان (خاصة التفكير في الموت أو الأفكار الانتحارية)؛ فهو اكتئاب شديد. وإن كان لديه نصف هذه الأعراض (بدون الأفكار الانتحارية)؛ فهو اكتئاب متوسط. أما إذا كان هناك القليل منها، فهو اكتئاب بسيط.

السبب البيولوجي للاكتئاب:

الأحاسيس والأفكار، هي عبارة عن مواد كيمائية في المخ، (والمسماة الموصلات العصبية بين الخلايا العصبية في الدماغ)، وعند تغير هذه المواد الكيميائية (أشهرها السيروتونين) ينتج عنه الاكتئاب. ويكون دور الأدوية ضبط هذه المادة في الدماغ. وهذا في كل الأمراض النفسية، فذكرناه هنا حتىٰ لا نكرره مع كل مرض.

علاج الاكتئاب:

يتحدد علاج الاكتئاب علىٰ حسب درجته. ففي الدرجة البسيطة؛ يكون العلاج عن طريق الجلسات النفسية، وأشهرها العلاج السلوكي المعرفي، وهي جلسات يعمل فيها المعالج النفسي علىٰ تنظيم الأفكار وتصحيحها وترتيبها في رأس المريض؛ حتىٰ يستطيع أن يرىٰ الدنيا بمنظور أفضل من تلك النظرة التشاؤمية. أما في الدرجة المتوسطة والشديدة؛ فيبدأ العلاج بالأدوية، بالإضافة إلىٰ احتمالية الاحتياج إلىٰ جلسات العلاج النفسي.

البعد الديني:

لا أجد وصفًا أدق في وصف الاكتئاب هو أشد دقة من قول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾؛ فـهـو وصـف رائع، كيف أن صدر الإنسان يضيق وكأن الأرض كلها علىٰ سعتها تنطبق علىٰ صدر المكتئب فلا تسعه الأرض ولا حتىٰ نفسه. قال صاحب «الظلال» في قوله جل جلاله ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾، فكأنما هي وعاء لهم تضيق بهم ولا تسعهم، وتضغطهم فيتكرب أنفاسهم.

ولدور الدين في مقاومة الاكتئاب مكانة مهمة؛ فالإيمان الكامل يهوِّن من وقع الصدمات الحياتية علىٰ نفس الإنسان، ويعينه علىٰ التكيُّف الأفضل مع ما قدره الله له. لكن هذا لا يعني أن المؤمن في حرز تام من الإصابة بالاكتئاب، فهو مرض مثله مثل غيره من الأمراض. ومشكلة المؤمن حينما يصاب بالاكتئاب؛ أن الإرادة والنشاط يكونان من أشد الأمور تضررًا من ذلك الاكتئاب، فيكون النهوض من الاكتئاب من خلال طرق العلاج الدينية، (وهو أول ما يبادر الشخص لفعلها، وهو ما ينصحه بها الآخرون من حوله) صعبًا، بل أحيانًا يؤدي للإحباط والتفكير بأن الإيمان قد فقد. ولا شكَّ أنَّ المساندة الدينية مهمة، لكن كذلك العلاج النفسي سيكون ضروريًّا، خاصة في الدرجات المتقدمة.

القـلـق:

القلق: هو التفكير المبالغ فيه المزعج المؤرق للشخص، والذي لا يستطيع وقفه أو طرده، وهذا المرض موجود عند كل البشر (سواء لفترة قصيرة أو طويلة) في فترات من حياتهم، لكنَّه يعتبر اضطرابًا عندما يزيد عن الحد الطبيعي، فيكون مستمرًا مع الشخص طوال الوقت ويعيقه عمَّا يريد فعله أو التفكير فيه.

يشكل القلق عنصرًا مهمًّا في الكثير من المشكلات النفسية؛ ولذلك فإنَّ هناك ما يسمىٰ باضطرابات القلق. نذكر أهمها:

- اضطراب القلق العام.
- الوسواس القهري.
- اضطراب ما بعد الصدمة.
- الفوبيا (الخوف من أشياء محددة).
- حالات الهلع (وتسمىٰ الفزع أحيانًا).
- الرهاب الاجتماعي (الخوف من مواجهة الآخرين).

وسنتناول هنا الحديث عن القلق العام والوسواس القهري وإشارة سريعة للفوبيا والرهاب الاجتماعي.

أعراض القلق:

أعراض القلق بصفة عامة، تختلف من شخص لآخر. لكنها تشترك في أعراض يجمعها الاضطراب الأول الذي ذكرناه وهو اضطراب القلق العام. نذكر أهمها.

- عدم القدرة علىٰ السيطرة علىٰ التفكير.
- الشعور بمخاوف من احتمالات وعواقب سلبية للأمور.
- فقد السيطرة علىٰ الأعصاب، والانفعال السريع.
- الاندفاعية وعدم القدرة علىٰ أخذ القرار بِتَرَوٍّ.
- فقد القدرة علىٰ التركيز والحفظ، (والقلق هو أهم سبب لهذا العَرَض علىٰ الإطلاق).
- زيادة معدل ضربات القلب أحيانًا.
- زيادة سرعة التنفس أحيانًا.

- الشعور بآلام في عضلات الجسم المختلفة (إحساس بأن العضلات مشدودة خاصة في الظهر والفخذين).

- الشعور بصعوبة الهضم (القولون العصبي هو أشهر مثال لأعراض القلق الجسدية).

- الأرق (صعوبة الدخول في النوم) أو النوم المتقطع.

- ضعف إنتاجية الشخص بصفة عامة فلا ينجز ما يريد.

هل القلق وراثي؟

الأبحاث العلمية تؤكد علىٰ أن الأمراض النفسية بشكل عام تزيد احتمالية إصابة الأبناء بها في حالة إصابة أحد الأبوين بها. وهو صحيح في القلق-موضوع حديثنا-وغيره. لكن الذي أريد أن أؤكده هو أن طبيعة القلق تنتقل أكثر من خلال البيئة التي يتربىٰ الشخص فيها. فلو افترضنا أن شخصًا يعاني أبواه من القلق، لكن حظي ببيئة هادئة تربىٰ فيها بمنأىٰ عن الأبوين؛ فإنه قد يمتاز بالهدوء عكس أبويه. ولذلك يظهر في بعض المجتمعات (كالمجتمع المصري والجزائري علىٰ سبيل المثال) زيادة نسبة القلق عند الكثير من المجتمع فينتشر أكثر وأكثر عبر الأجيال.

متىٰ يكون القلق طبيعيًّا ومتىٰ يكون مرضيًّا؟

عندما يزيد القلق عن حده ويؤثر علىٰ تفكير الإنسان وجسده -كما ذكرنا في الأعراض- وإنتاجيته يكون مَرَضِيًّا؛ ويكون طبيعيًّا عندما يستطيع الشخص السيطرة عليه، أو عندما يكون مؤقتًا بشيء ما (كالامتحانات)، وبدرجة معتدلة لا تؤثر علىٰ إنتاجية الشخص (كالحفظ والاسترجاع أيام الامتحانات).

علاج القلق:

أولًا علاج القلق بصفة عامة:

لكن قبل أن أبدأ في ذكر العلاج أضرب مثالًا بسيطًا لشرح المشكلة والحل في أثناء الطبخ لا بُدَّ للقِدر (الحَلّة) علىٰ النار أن تخرج بخارًا؛ حتىٰ تُنفِّس عن الحرارة الموجودة بداخلها. لو لم يخرج هذا البخار؛ لانفجرت القدر بما فيها من أكل. إذًا فعلاج القلق مبني علىٰ تنفيس شحنة التوتر الداخلية عند الشخص.

هناك أشياء كثيرة جدًّا يمكن للشخص فعلها للتنفيس عمَّا بداخله قبل أن تزيد حدة التوتر. وهذه الأفعال تنفع في القلق الطبيعي أو المرَضي بالدرجة البسيطة، لكن الدرجات المتوسطة والشديدة من القلق تستلزم مساعدة طبية متخصصة من طبيب نفسي. ومن لم يستطع أن يطبق هذه النصائح أو لم تنفعه؛ فعليه أن يراجع طبيبًا.

من هذه الأشياء علىٰ سبيل المثال، وكل إنسان له ما يفضله منها أو غيرها:

- أخذ أقساط متفرقة للراحة أو وقت خاص بالنفس لا يشاركه فيه أحد، وليس من المطلوب، يمكن لخمس دقائق فقط أن تكون كافية. أهم شيء خلالها هو حظر التفكير في أي أمر من الأمور التي تسبب له توترًا في هذا الوقت.

- تغيير الجو عن المحيط الضاغط عليه: كالمشي يوميًّا ولو لوقت محدود.

- قراءة ما يحب لتشتيت التفكير عن الأشياء المزعجة.

- سماع أو مشاهدة ما يحب كذلك.

- التحدث إلىٰ صديق أو شخص قريب.

- تمارين التنفس؛ وهي فعالة جدًا، ولا تحتاج إلىٰ وقت. وكل ما علىٰ الإنسان أن يغمض عينيه ويملأ صدره كله بالهواء ثم يخرجه ببطء شديد، ويكرر ذلك (٤-٥ مرات) لتجده قد هدأ.

- عمل شيء مختلف في مكان مختلف عن مكان القلق، مثل أن يذهب فيغسل وجهه أو يتوضأ عندما يكون قلقًا.

- كل فترة وأخرىٰ يحتاج إلىٰ السفر ليوم أو بضعة أيام للتنفيس عن هموم النفس.

- للعلم، إن العصبية لن تحل شيئًا، بل ستزيد الطين بلة كما يقال.

- عدم افتراض الأمور السلبية في المستقبل؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله.

- الإيمان اليقيني الكامل: «أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك». وهذا أنفع علاجات القلق.

فائدة: هناك بعض البرامج التي يمكن تنزيلها علىٰ الهاتف المحمول؛ فتعمل علىٰ تهدئة الشخص من خلال أشياء يسمعها بشكل يومي.

ثانيًا: نفرق بين أنواع القلق لذكر تفاصيل علاج كل نوع:

(١) القلق المؤقت المرتبط بفترة ما، مثل قلق الامتحانات، وينتفي عند نهاية الامتحانات. وهذا القلق يُعالج عن طريق:

(أ) تعليمات يمكن للشخص أن يفعلها؛ فتهدئ من توتره، مثل ما ذكرناه سابقًا.

(ب) أدوية تهدئ من هذه العصبية عند عدم نجاح الشخص في تطبيق التعليمات. وهذه الأدوية عادة ما تكون أدوية مهدئة تصرف بصفة مؤقتة عند اللزوم للشخص حتىٰ ينتهي من ما يقلقه. الأدوية لا تسبب تعودًا طالما أخذت من خلال طبيب مختص. مشكلة هذه الأدوية أنها قد تزيد ساعات النوم، وقد يكون هذا العرض الجانبي مطلوبًا خاصة في حالات القلق العالية.

(٢) القلق المرتبط بموقف ما، مثل الرهاب الاجتماعي أو الفوبيا من أشياء محددة. وعلاجه يكون بالتعويد ومحاولة التكيف مع ما هو مقلق للشخص. مثال لذلك: الشخص الذي يخاف (والخوف نوع من أنواع القلق) من الكلب ويريد أن يعالج المشكلة، فلا بُدَّ له أن يواجه الكلب بدلًا من الهرب منه، ليواجه هذا الخوف، فيمكث فترة (أيامًا) يشاهد الكلب من بعيد، ثم فترة أخرىٰ يبدأ في أن يقترب منه بمساعدة شخص غير خائف، ثم يلمس ظهره في مرحلة ثالثة ويكررها، إلىٰ أن يتشجع فيبدأ في التعامل العادي مع الكلب.

وفي حالة الرهاب الاجتماعي، تكون المواجهة المتكررة بالآخرين هي بداية الحل. تبدأ بمواجهة أعداد قليلة تزيد مع الوقت، حتىٰ ينتهي الخوف من المواجهة. وفي الحالات ذات الدرجة العالية؛ سيحتاج الشخص لعلاج دوائي بشكل يومي، وهو علاج للقلق وليس مجرد مهدئ.

(٣) القلق المستمر (أو القلق العام)، وفي هذه الحالة يطبق الشخص التعليمات التي ذكرناها سابقًا في الدرجات البسيطة، وسيحتاج الشخص أيضًا لعلاج دوائي مع التعليمات أو التمرينات المطلوبة منه في الدرجات الأعلىٰ. ويمكن معرفة الدرجة من خلال العرض علىٰ طبيب نفسي، أو عمل اختبارات القلق المتوفرة علىٰ الشبكة العنكبوتية.

البعد الديني:

لقد تكررت في القرآن والسنة مصطلحات مختلفة معبرة عن القلق، مثل: الخوف والفزع؛ ولذلك فإن من نعيم الآخرة الذي ذُكر مرارًا في القرآن أن المؤمنين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فقد أمِنوا من الضيق والحزن والخوف والقلق، فليس لهم أن يخافوا ولا أن يحزنوا، بل يفرحوا ويأمنوا.

وعلاج القلق في الدنيا من الناحية الدينية، يتلخص في بضع كلمات من كلام الله جل جلاله ورسوله ﷺ إذا آمن بها المرء إيمانًا كاملًا؛ فقد وقىٰ نفسه من عذاب أليم:

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، وهذه كافية لعدم التفكير في ما هو غيب نسبي للشخص.

«. . . واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلَّا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلَّا بشيء قد كتبه الله عليك؛ رفعت الأقلام وجفت الصحف». [أخرجه الترمذي وصححه].

«ما أصاب أحدًا قطُّ همٌّ ولا حزنٌ، فقال: «اللهم إنِّي عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي» = إلَّا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحًا». [رواه أحمد، وابن حبان، وصححه الألباني].

الوسواس القهري:

الوسواس القهري: هو مرض نفسي، تتكون أعراضه من تردد فكرة مزعجة للشخص، يعلم أنها ليست صحيحة أو منطقية، ولا يستطيع طردها؛ (ولذلك سمي قهريًّا)، وتقهر هذه الأفكار الشخص فيضطر لعمل عمل لا يراه منطقيًّا؛ تنفيذًا لهذه الأفكار التي يحاول مقاومتها ولا يستطيع؛ (ولذلك سمي قهريًّا). وتتكرر الأفكار والأفعال بشكل مستمر فتعطل حياة الإنسان. مثال ذلك وساس النظافة، فالشخص المريض يظن أن يديه غير نظيفتين؛ فيذهب ليغسل يديه، ثم يعود فيشعر أنَّهما غير نظيفتين مرة أخرىٰ، وهو يعلم أنَّه قد انتهىٰ من غسلها، لكنَّه لا يستطيع طرد هذه الفكرة، فيذهب مرات ومرات

لغسل يديه، ولا يتوقف حتىٰ يُنهك من كثرة تكرار ذلك؛ ولذلك يتضح أنَّ هذا الوسواس يختلف تمامًا عن وسواس الشيطان وحضه علىٰ فعل المعاصي ومخالفة الأوامر الدينية المنصوص عليها في القرآن والسنة.

أنواع الوسواس القهري:

تأتي الوسوسة بأنواع مختلفة، فيمكن أن تكون الوسوسة خاصة بالنظافة أو الطهارة، فما أن ينتهي من الوضوء حتىٰ يتوضأ مرة أخرىٰ. أو تكون الوسوسة في الصلاة والتأكيد علىٰ التكبيرات وعدد الركعات والركوع والسجود وغيرها. وتكون كذلك في الأمور الدينية المختلفة مثل أفكار خاطئة عن الله جل جلاله، أو الدين أو الحكمة من وجود الخلق. ويمكن كذلك أن تأتي في عدّ الأشياء، فيكرر-مثلًا-عدَّ المال الذي في جيبه مرات عديدة، ويأتي في صورة التأكيد المتكرر علىٰ غلق الأبواب أو النوافذ أو إطفاء النار في المطبخ، ويأتي في أمور مختلفة، وقد ذكرت أشهرها.

طبيعة الشخص المصاب بالوسواس القهري:

ينبع الوسواس من طبيعة قلقة للشخص، فالوسواس يصنف من أحد أنواع القلق، وطبيعة الشخصية القلقة أنَّها أسيرة للتردد في أغلب أمورها؛ ولذلك لا يُستغرب في الشخص الموسوس أنه كان يعيش في ماضيه إنسانًا قلقًا بالطبيعة. وبحكم الخبرة أستطيع القول: إنَّ الوسواس القهري يصيب أكثر الشخصيات التي تلتزم بالدين، فهي عرضة أكثر للإصابة بالوسواس القهري؛ وذلك بسبب زيادة الوازع الداخلي أو ما يسمىٰ بالنفس اللوامة، فهي تلوم الشخص أنه فعل العبادة لكن ليس علىٰ أكمل وجه، فتُعاد العبادة مرات ومرات.

ملاحظة: لا يفهم من الكلام أنَّ الأشخاص البعيدين عن الدين لا يصابون بالوسواس، ولا يفهم من ذلك أن كل من اقترب من الالتزام بالدين فهو معرض لهذا التعب؛ فهذا ليس صحيحًا.

هل هناك فرق بين الوسواس القهري والشخصية الموسوسة؟

نعم؛ الشخصية الموسوسة هو اضطراب في الشخصية، ويسمىٰ أيضًا الشخصية الكمالية، (يعني التي تسعىٰ للكمال)، أو الدقيقة أو باللهجة المصرية (المحَسوِكة). ومشكلة هذه الشخصية أنَّها تسعىٰ-دائمًا-للكمال فتفعل الأشياء ببطء شديد، ولا تستطيع إنجاز الأعمال بسبب كم الترتيبات والتعقيدات التي تضعها لنفسها من أجل الوصول للكمال. كذلك فإنَّ مشاكل الشخصية تبدأ من سن مبكرة (سن المراهقة أثناء تكوين الشخصية)، وتستمر كطبيعة للشخص، عكس الوسواس الذي يمكن أن يبدأ في أي وقت من العمر.

هل هناك عامل وراثي لهذا المرض؟

نعم، فإصابة أحد الأبوين بالمرض تزيد احتمالية إصابة أحد من ذريتهما، لكن هذا لا يحدث بالضرورة. تمامًا مثلما هو الحال في الأمراض الطبية الأخرىٰ التي لها أسباب وراثية، كالسكر مثلًا.

علاج الوسواس القهري:

العلاج الأساسي له: هو الدواء الذي يعمل علىٰ تقليل الأفكار الوسواسية في ذهن الإنسان. ليست هذه الأدوية أدوية مهدئة، ولكنَّها أدوية تعمل علىٰ تعديل المواد الكيمائية التي سبق شرحها.

العلاج الثاني: هو العلاج السلوكي المعرفي الذي يساعد الشخص علىٰ تخطي ما تبقىٰ من الوسواس إن بقي منه شيء بعد الدواء. ويقوم كذلك علىٰ تغيير طبيعة تفكير الشخص، فإذا أوقف العلاج الدوائي؛ لم ترجع هذه الأفكار إلىٰ الشخص مرة أخرىٰ.

هل يعود الوسواس القهري بعد الشفاء منه؟

ليس في الطب ضمان مدىٰ الحياة من عودة أي مرض للشخص، إلَّا في أمراض قليلة، التي تتسبب فيها فيروسات معينة، حيث يحدث للجسم مناعة

بعد الإصابة منها طوال مدة حياته؛ فلا يصاب بها مرة ثانية، كالجدري مثلًا:
أما الأمراض النفسية، فمثلها مثل بقية الأمراض العضوية: ليس هناك للأسف ما يضمن أن الشخص إذا ما عولج من أي مرض لن يعاوده المرض مرة أخرىٰ. وهناك عامل هام في مسألة تكرار المرض النفسي، وهو ضرورة علاج السبب النفسي الرئيسي الذي أدىٰ إلىٰ الإصابة بالمرض النفسي، مثل مشاكل الشخصية التي قد تنتج مرضًا نفسيًّا، فيتم علاج المرض، ولا يتم علاج مشاكل الشخصية؛ فيتكرر المرض مرة أخرىٰ.

البعد الديني:

لم يفرق علماء المسلمين المتقدمين بين وسواس الشيطان والوسواس القهري؛ إذ لم يكن وقتها قد تم الوصول إلىٰ الأمراض النفسية بالتصنيف المعاصر، فاعتبروا الاثنين واحدًا، وذكروا أمثلة في كتبهم لما نسميه حاليًا بالوسواس القهري. فقد ذكر ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس» أمثلة، فقال في باب تلبيسه-يعني: إبليس-عليهم في الاستطابة والحدث، «من ذلك أنَّه يأمرهم بطول المكث في الخلاء، وذلك يؤذي الكبد، وإنَّما ينبغي أن يكون بمقدار، ومنهم من يقوم فيمشي ويتنحنح ويرفع قدمًا ويحط أخرىٰ، وعنده أنه يستنقىٰ بهذا، وكلما زاد في هذا نزل البول». وقال: «ومنهم من يلبس عليه بالنظر في الماء المتوضأ به، فيقول من أين لك أنَّه طاهر، ويقدر له فيه كل احتمال بعيد»، «وربما أطال الوضوء؛ ففات وقت الصلاة، أو فات أوله وهو الفضيلة أو فاتته الجماعة». وقال في تلبيسه عليهم في الصلاة: «من ذلك تلبيسه عليهم في الثياب التي يستتر بها، فترىٰ أحدهم يغسل الثوب الطاهر مرارًا، وربما لمسه مسلم فيغسله، ومنهم من يغسل ثيابه في دجلة لا يرىٰ غسلها في البيت يجزئ، ومنهم من يدليها في البئر كفعل اليهود»، «ومن الموسوسين من يقطر عليه قطرة ماء فيغسل الثوب كله، وربما تأخر لذلك عن

صلاة الجماعة، ومنهم من ترك الصلاة جماعة؛ لأجل مطر يسير يخاف أن ينتضح عليه»، ومن ذلك تلبيسه عليهم في نية الصلاة: «فمنهم من يقول أصلي صلاة كذا ثم يعيد هذا ظنًّا منه أنه قد نقض النية، والنية لا تنقض وأن لم يرضَ اللفظ، ومنهم من يكبر، ثم ينقض، ثم يكبر، ثم ينقض، فإذا ركع الإمام كبر الموسوس وركع معه». وقال: «عن ابن عقيل حكاية عجيبة أنَّ رجلًا لقيه، فقال إنِّي أغسل العضو وأقول ما غسلته وأكبر وأقول ما كبرت فقال له ابن عقيل دع الصلاة؛ فإنَّها ما تجب عليك، فقال قوم لابن عقيل كيف تقول هذا، فقال لهم: قال النبي ﷺ: «**رفع القلم عن المجنون حتىٰ يفيق**»، ومن يكبر ويقول ما كبرت فليس بعاقل، والمجنون لا تجب عليه الصلاة»، فعد الوسواس من الجنون. إلىٰ أن قال: «واعلم أنَّ الوسوسة في نية الصلاة سببها خبل في العقل وجهل بالشرع». [والأمثلة كثيرة من الكتاب (صفحة/ ١٣١، وما بعدها)، طبعة دار القلم].

لماذا لا أذهب إلىٰ الطبيب النفسي؟

قد تمر بالشخص فترة ضعف أو مرض لا يستطيع فيها أن يمارس حياته الطبيعية ولا يقوىٰ علىٰ النهوض بنفسه وعلاج مشاكله بذاته وعندها يحتاج الشخص إلىٰ الذهاب للطبيب النفسي. إلَّا أنَّ هناك موانع متعددة قد تتدخل في عملية اتخاذ قرار الذهاب إلىٰ الطبيب النفسي، وهذه الموانع تزيد من تأخر المشكلة عند الشخص، ممَّا يزيد المشكلة صعوبة في حلها. نذكر أهم الموانع والرد عليها:

أنا لست مجنونًا لكي أذهب لطبيب نفساني:

وهذا الكلام مبني علىٰ أن الشخص معتز برأيه ولا يريد أن يسمع ما لا يوافق رأيه أو هواه. فهو يتحجج بأن المشكلة، أن الطبيب النفسي يعالج

(المجانين) فقط، وهذا قطعًا غير صحيح. وهو نابع من عملية إنكار داخلية؛ أن هناك مشكلة لدىٰ الشخص نفسه وأن المشكلة عند الآخرين.

نسبة الأمراض النفسية التي تُفقد العقل، مقارنة بالأمراض الأخرىٰ، نسبة ضئيلة جدًّا جدًّا. خذ مثالًا أن الاكتئاب يصيب (١٠%) من البشر في العام الواحد، بحسب أرقام منظمة الصحة العالمية في حين أنَّ مرض الفصام (الشيزوفرينيا)، وهو الذي يسميه الناس جنونًا يصيب (١,٥%) من المجتمعات فقط.

المشكلة هي أني بعيد عن الله، وليست المشكلة نفسية:

لا زالت المشكلة في إنكار المشكلة النفسية. ربما تكون هناك مشكلة دينية، لكن ليس هناك ارتباط سببي بين الحالة الإيمانية والحالة النفسية. يعني ليس نقص الإيمان أو ضعفه سببًا في المشكلة النفسية: وإلَّا لكان غير المؤمنين كلهم مرضىٰ نفسيين، وهذا غير صحيح. ولقد ذكرت في الوسواس القهري ما وجدته من خلال خبرتي في المجال-وهو غير مذكور في الكتب لكن هي ملاحظة شخصية-وهو أنَّ الكثير من المصابين بالوسواس القهري (خاصة في الطهارة) هم من الملتزمين دينيًّا. كذلك تجد أن المشاكل الزوجية المؤثرة علىٰ الزوجين والأولاد كثيرة، حتىٰ في بيوت الملتزمين دينيًّا. عكس هذه الفكرة هو الصحيح؛ يعني أن المشاكل النفسية كلها بلا استثناء تؤثر سلبًا علىٰ علاقة العبد بربه.

لو سلمنا جدلًا أنَّ الإيمان فعلًا يعصم من الأمراض النفسية، فهو في حالة الإيمان الكامل، فمن يملك هذا الإيمان في هذا الزمن؟ ولو افترضنا أنَّه موجود؛ فإن الحقيقة أنَّ العصمة هنا من الأمراض النفسية-مثلها مثل بقية الأمراض-هي بسبب حب الله للعبد وحفظه لعبده، وليس لأن الدين يمنع كل الأمراض النفسية. لا يُفهم من كلامي أن العامل الديني ليس له دور في علاج بعض الحالات. وقد ذكرت فيما سبق أدلة علىٰ ذلك.

المشكلة التي عندي، منبعها السحر والحسد وليس مشكلة نفسية. والأطباء النفسيون لا يؤمنون بالسحر ولا بالحسد:

قبل أن أرد علىٰ هذا؛ أحب أن أؤكد إيماني بوجود السحر والحسد وبتأثيرهما علىٰ الإنسان، وأنِّي لا أنكره مثلي مثل بقية المؤمنين، أطباء وغير أطباء ممَّن آمنوا بما ثبت في الكتاب والسنة. وكيف ننكر شيئًا ذُكر في القرآن؟ والأطباء النفسيون مثلهم مثل غيرهم من البشر يعتقدون ما يعتقده الآخرون. والتخصص في الطب النفسي لا يفرض علىٰ الشخص اعتقادًا معينًا.

هنا المشكلة لها أبعاد كثيرة أخرىٰ؛ أذكر منها:

(١) الأمراض النفسية انتشارها أكثر بكثير جدًّا جدًّا من السحر والحسد. فلا يكاد يوجد شخص علىٰ وجه الأرض إلا ويعاني من مشكلة في نفسه (ليس بالضرورة أن يكون مرضًا نفسيًّا ويحتاج لعلاج نفسي). بينما عدد المصابين بآثار السحر والحسد أقل من ذلك بكثير، والدليل علىٰ قلة نسبتهم أن كل من يؤمن أنه محسود أو مسحور يلجأ بنفسه أولًا للقرآن والأذكار، ثم لشيخ يقرأ عليه، وكثيرًا ما تستمر المشكلة مع الشخص، ولا يجرؤ الشخص أن يقول إن المشكلة في العلاج الديني، لكن يظل متمسكًا بأنَّ المشكلة دينية؛ ليهرب من العلاج النفسي.

(٢) نحن ما زلنا لا نحب الاعتراف بمشاكلنا التي لنا دور فيها، وأسهل علىٰ الشخص أن يقول إن هذا بفعل آخرين من الجن «وأنا ليس لي دخل بما يحدث لي». أو بعبارة أوضح في العقل الباطن «لو أنا مريض فسأكون مسؤولًا عن مشاكلي وسيلومني الناس، ثم يطلبون مني إصلاح الأمور، الأفضل أن أنسبها للجن وأرتاح».

(٣) هل هناك مانع من قراءة القرآن والأذكار كعلاج واستشارة طبيب نفسي في ذات الوقت وأخذ علاج لو هناك حاجة له؟

الإجابة قطعًا لا مانع مطلقًا.

لو ذهبت لطبيب نفسي سيقال عني: مجنون ووقتها لن أستطيع التقدم للزواج أو للعمل:

حقيقة، هذه أوهام يوهم بها الشخص نفسه؛ وأبسط رد علىٰ ذلك: أن هناك مئات الآلاف من البشر إن لم يكن ملايين يذهبون إلىٰ الطبيب النفسي كل يوم علىٰ وجه الأرض. ويأتي إلىٰ العيادات الصغار والكبار والمخطوبون والمتزوجون وآخرون، وقد تخلصوا من هذه الأوهام حتىٰ لا يعطلوا أنفسهم عن العلاج ولا يظلوا فرائس لمشاكلهم.

- أخشىٰ أن أذهب إلىٰ طبيب نفسي فلا يستمع إليَّ ...
- قد ذهبت إلىٰ طبيب لكن لم يسمعني ولا أريد الذهاب مرة أخرىٰ ...
- ذهبت إلىٰ طبيب نفسي وشعرت أنه لم يفهمني ...

لتشخيص المشكلات النفسية؛ هناك علامات كثيرة ليس كلها من خلال الكلام، بل إنَّ الطبيب المتميز يستطيع تشخيص بعض المشاكل من مجرد نظرة للشخص حتىٰ لو لم يتكلم. وهناك بالفعل بعض الأشخاص الذين يأتون للعيادات النفسية ولا يتكلمون، إما بسبب الاكتئاب الشديد أو الحرج أو الخوف أو غيره. والطبيب النفسي يستطيع معرفة السبب ويشخص من خلال ذلك.

صحيح أنَّ من حق طالب الاستشارة التحدث بكل ما بداخله، وهو حق كامل له، لكن ستجد أن الطبيب يركز علىٰ نقاط محددة هي التي تنقصه ليكمل تشخيصه، بغض النظر عما يحكيه الشخص، وكثيرًا ما تجد أن الطبيب يسمع وهو يعلم أن الذي يحكيه الشخص ليس ضروريًّا في التشخيص أوأو أو العلاج، لكن أحيانًا يعطيه وقت حتىٰ لا يقال إنه لم يتكلم.

أخاف أن أذهب لطبيب نفسي، فيكتب لي علىٰ أدوية مهدئة:

واقعيًّا هذا بعيد جدًّا، فالأطباء النفسيون هم من أقل الأطباء الذين يصفون أدوية مهدئة، فكيف لطبيب يعالج الإدمان والمدمنين أن يصف علاجًا قد يسبب عند سوء الاستخدام إدمانًا؟

إنَّ المرضىٰ النفسيين لهم طبيعة خاصة، فلا يمكن كتابة علاج يتخوف الطبيب من أن يتجرعه بمعدل خاطئ. أنواع الأدوية النفسية كثيرة واستخدامها متنوع، ونسبة الأدوية المهدئة إلىٰ غير المهدئة قليلة جدًّا، ووصفها كما ذكرنا من الطبيب النفسي نادر جدًّا. أكثر من يصف هذه الأدوية هم أطباء الألم والمخ والأعصاب (بعد العمليات الجراحية)، والأورام وغيرهم، ومع ذلك لا تجد شخصًا يشعر بالقلق من تلك التخصصات.

الأدوية المهدئة، هي أدوية لعلاج مشكلات مختلفة؛ وإلَّا لَمَا تم الاعتراف بها ولا تداولها كعلاج. ولا حرج من استخدامها، لكن تحت إشراف طبيب. والواقع يقول: إن كثيرًا من البيوت المصرية، مثلًا-ولا أكون مبالغًا إذا قلت: الأغلبية العظمىٰ-قد لجأت إلىٰ الصيادلة مباشرةً طلبًا للأدوية المهدئة؛ بسبب مشاكل النوم أو القلق؛ فهم يفعلون ما يدّعون أنَّهم يهربون منه.

ربما يكون هذا النفور من علاجات الأمراض النفسية راجعًا إلىٰ أنَّ مدة العلاج للأمراض النفسية المختلفة يطول، فأحيانًا تكون مدة العلاج ثلاثة شهور كأقصر مدة، وفي أغلب الحالات تزيد عن ذلك إلىٰ ما شاء الله، حسب طبيعة المشكلة وشخصية الإنسان ومدة المرض ومدىٰ الاستجابة. وعندها يظن المريض أنه قد تعود علىٰ الدواء او أدمنه فلا يستطيع وقفه، مع أنه لا يستطيع وقفه؛ لأن مدة العلاج طويلة.

كذلك ربما يكون السبب في سيادة الاعتقاد بأن الأدوية النفسية هي مهدئة وليست معالجة، راجع إلىٰ عدم معرفة الناس أن المشكلات النفسية

نابعة من اضطرابات في المواد الكيميائية في المخ، والأدوية التي تضبطها. فيظن الناس أنَّ دور الأدوية المهدئة هو تهدئة المشكلة الحالية وليس حلها من أصلها.

وكذلك من الاحتمالات التي تجعل الناس يظنون أن الأدوية النفسية هي أدوية مهدئة، هو أن بعض من كان يتناول الأدوية إما أنه تركها من نفسه أو من خلال الطبيب؛ فعاد إليه المرض، فيظن الناس أنه تعود علىٰ الدواء وسيحتاج إليه باستمرار؛ وهذا ليس صحيحًا، فهناك عوامل تجعل الشخص ينتكس: منها أنه لم يكمل الاستفادة من الأدوية، ومنها كما ذكرنا سابقًا أنَّ طبيعة الشخصية قد تحتاج للتغيير كعلاج وكوقاية من المرض الذي وقع فيه سابقًا، وهذا يحتاج لمجهود ووقت كبيرين من الشخص، فإذا توقف العلاج تقع المشكلة مرة أخرىٰ.

إذا ذهبت لطبيب نفسي سيكتب لي أدوية نفسية وأدخل في دوامات، أريد أن يقول لي فقط تعليمات أنفذها، ولا أريد أي أدوية:

الإجابة: يا ليته ينفع.

بسبب ثقافة المجتمع التي تؤخر العلاج النفسي-وهو ما أحاول أن أواجهه في هذا المقال-يصل الشخص إلىٰ العيادة النفسية متأخرًا جدًّا، وبعد ما استنفد كل الوسائل المتاحة للتخلص من المشكلة. ومن خلال خبرة شخصية أقول: إنَّ الكثير من الناس يتأخرون سنين حتىٰ يأخذوا الخطوة الأولىٰ باتجاه العيادة النفسية. وبعد ذلك يقول: لا، فقط قل لي ماذا أفعل وسأفعله. الطبيب لو كان واثقًا من أنَّ هناك أملًا في حل للمشكلة بدون دواء؛ فبالتأكيد سيخلص في نصحه ويوفر هذا الأمل؛ وصف الدواء مسؤولية كبيرة علىٰ الطبيب، وهي مسؤولية أمام الله والقانون والناس.

في البلاد الأجنبية يكاد يكون ثمة معالج نفسي لكل شخص، يشكي له أموره أولًا بأول، فيبدأ سريعًا في العلاج قبل أن تتفاقم الأمور، أما في

بلادنا، فلو أنَّ شخصًا عانىٰ من وجع نفسي، يمكن للمحيطين به التطوع بمعالجته بالمخدرات، بدلًا من أن يذهبوا به للطبيب النفسي!!!

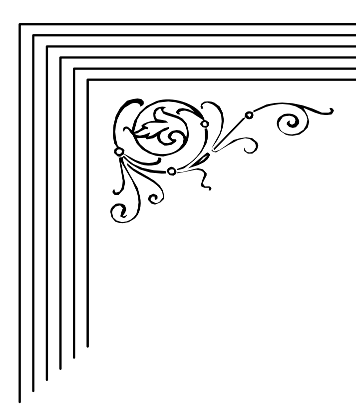
أنا ليس عندي الموانع التي ذكرتها، ومقتنع بضرورة الذهاب إلىٰ الطبيب النفسي، لكن أهلي لن يوافقوا!

الإجابة: هذه حجة داحضة، ومن أراد أن يفعل شيئًا فعله. فالأهل، ومهما كانت معاناة الشخص، لا يشعرون بحجم المشكلة، فهو الذي يعاني، وهم لا يستطيعون تصور هذه المعاناة، كذلك فهم لديهم الحجج السابق ذكرها، ومقاومتها ليست سهلة لمن هو أصلًا يعاني.

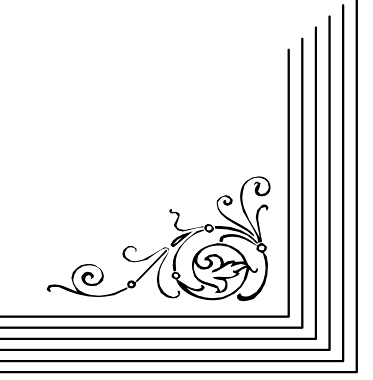
ولو أراد الشخص الذهاب للطبيب النفسي ومنعه الأهل، فيمكنه الآن أن يكشف من خلال الإنترنت ويأخذ استشارته كاملة من البيت، وذلك بفضل التكنولوجيا الحديثة التي قربت المسافات بشكل واضح.

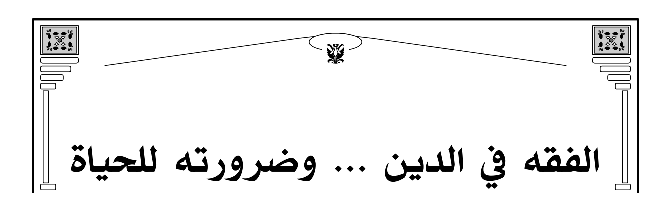
- حاليًا يمكن أن تكشف علىٰ نفسك من البيت من خلال الإنترنت.

أما إذا كان الأهل يعترضون علىٰ الذهاب للاستشارة النفسية فلا يساعدون المريض ماديًّا، فمتاح له أن يحصل علىٰ الخدمة المناسبة في المستشفيات الحكومية والجامعية بالمجان أو بأجر رمزي.



في المعرفة وسبل العيش





الفقه في الدين ... وضرورته للحياة

د. البشير عصام(*)

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وآله.

من سعادة المرء أن يجد في حداثة سنه، من يرشده إلىٰ مواطن الخير، وأقصر السبل للوصول إليها؛ يحذره من محافل الشر، ما يوصل إليها من قول أو عمل.

فإن لم يجد هذا المرشد الناصح؛ فإن تجارب الحياة، وما فيها من نهوض وسقوط، وعُلوّ وسفول، كفيلة بأن تتحمل هذه الأمانة، وتؤدي هذا الدور أحسن أداء!

ولقد كان لي -منذ ميعة الصبا- تجارب كثيرة مختلفة، أثمرت معرفة خاصة أضفت لها المعارف العامة المتلقاة من الكتب، وصار في هذا المجموع ما يمكن لكثير من المبتدئين الاستفادة منه.

كنت أيام الصبا، أقرأ كثيرًا من الجرائد، وأطالع المجلات الفكرية، وأتابع ماجَرَيات الأحداث، فتفزعني كثرة الاختلاف الفكري والسياسي بين الناس؛ وكنت أرىٰ نفسي في هذا الاختلاف مثل راكب البحر الخضم، الذي لا يجد مرفأً آمنًا يحط فيه رحال عقله وقلبه!

(*) كاتب وباحث مغربي، تخصص في الهندسة، وحصل علىٰ درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، له عدد من الكتب منها: «تكوين الملكة اللغوية»، بالإضافة لعدد كبير من المحاضرات العلمية والمشاركات البحثية والنشاطات الدعوية.

وكنت أتقلب بين المذاهب والطوائف والأفكار بسرعة فائقة، وبمجرد الرأي الفطير النابع من فكرة سانحة، أو معلومة مستجدة. وقد يحدث أن أنقلب من الرأي إلىٰ نقيضه بعد قراءة كتاب أو مقال، أو عند التأثر بموقف متميز لشخصية بارزة، أو نحو ذلك.

وأذكر -مثلًا- أنني في حرب الخليج الثانية التي تلت احتلال الكويت -وقد كان عمري يناهز الثامنة عشرة بقليل- تزعزعت كثير من قناعاتي الفكرية، بسبب الغليان القومي الذي ساد تلك المرحلة التاريخية؛ وأذكر أنني وضعت لنفسي قرارات شخصية، وبرامج عملية، لمواجهة الطوفان الفكري الذي كان يكتسح الأمة!، لكن كان ينقصني الإطار الصحيح للتفكير والفهم.

تغير الحال كله، حين منَّ الله جل جلاله علي بدخول حرم العلم الشرعي، وحين بدأت القراءة والحفظ في العقيدة والحديث والفقه وغيرها. وأحمد الله جل جلاله أنني لم أشغل وقتي في هذه المرحلة العمرية بالذات، بمتابعة الأخبار، والقراءة الفكرية والفلسفية الخفيفة، بل جاء ذلك بعد مرحلة زمنية كافية، وضعتُ فيها الأساس المعرفي الذي اكتفيتُ -فيما بعد- بتكميله وتزيينه بلبنات الفكر والعلم.

*** لكن:**

*** ما علاقة مصطلح الحديث وأصول الفقه وعلم التوحيد والتفسير والفقه والنحو والصرف وغيرها من علوم الشريعة، بفهم الواقع وحسن التصرف في الحياة؟**

*** ما الذي يجعل هذه المواد النظرية، الجامدة في ظاهرها، والتي لا يظهر ارتباطهما المباشر بالواقع؛ بهذه القوة التأطيرية الهائلة، التي تجعل الراسخ فيها مطمئنًّا في مواجهة الحياة وتقلباتها؟**

تمهيد

ولأبدأ بتقرير المعنىٰ الذي أقصده بـ «الفقه في الدين»، فأقول:

ليس المقصود الفقه الاصطلاحي الخاص، الذي هو أحد العلوم الشرعية المعروفة؛ ولكن المقصود: الفقه بمعناه الأصلي الوارد في مثل قول رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا؛ يفقهه في الدين**»؛ وهو مطلق الفهم في دين الله، ومعرفة مراد الله جل جلالة من المكلفين. فيشمل ذلك: العلوم الشرعية، وفن تزكية النفوس، والمعارف المكملة والمساعدة.

* فالعلوم الشرعية: تشمل علوم القرآن، والحديث، والعقيدة، والفقه، وأصول الفقه، وعلوم العربية، وعلم السيرة، والتاريخ، والتراجم.

* وفن تزكية النفوس: يشمل الاطلاع علىٰ أقوال أطباء القلوب من الأئمة والمربِّين، ومعرفة تأصيلاتهم في تشخيص أحوال النفس البشرية، وسبل إصلاحها.

* والمعارف المكملة هي: النافع من العلوم الإنسانية، وواقع الناس وماجَرَيات الأحداث.

وفي الكتاب والسنة عدد كبير من النصوص الدالة علىٰ فضل التفقه في الدين، ورفعة منزلة العالم علىٰ منزلة الجاهل، والأجر الأخروي الذي أعده الله جل جلاله لطالب العلم. وليس من غرضي أن أجمع في هذا المقال، شيئًا من ذلك، فهو مبثوث في الكتب، مبذول لمن أراده. وإنما غرضي أن أُبين الفوائد الملموسة في واقعنا اليوم للفقه في الدين، مع بيان ماهية الفقه النافع الذي تتحقق به هذه الفوائد.

* المطلب الأول: أوجه الحاجة إلىٰ الفقه في الدين

يظهر لي من خلال خبرتي الشخصية، ومن خلال تتبع أحوال الواقع من حولي، وما يرد عليّ من الاستشارات الاجتماعية والفقهية، ومن خلال قراءاتي المتنوعة في العلوم الشرعية والإنسانية: أن التفقه في الدين يثمر مجموعة من الفوائد العلمية والعملية، وينمي عددًا من المهارات والقدرات التي تؤهل لمواجهة تصاريف الحياة. وهذا أوان بيان بعضها.

تأسيس المنهج المعرفي:

إن الفرق بين الإنسان المفكر الناجح الثابت الخطىٰ، والإنسان الحائر الفاشل المتذبذب، ليس فرقًا في كمية المعلومات المخزنة، وإنما هو فرق في المنهج المعرفي الذي ينخل به هذا الإنسان المعلومات المجمعة لديه، ويحسن تصنيفها وصهرها في قواعد كلية، تنير له الطريق، وتؤطر مسيرته الفكرية العملية.

والمنهج المعرفي الإسلامي، منهج شامل لجميع مناحي الحياة، ومتكامل في آلياته ومخرجاته المعرفية، بحيث لا يحوج إلىٰ التماس زيادة من خارجه. لكن، لا يمكن تحصيل هذا المنهج وتمثل معالمه الكبرىٰ، إلا من طريق العلوم الشرعية. وأخص بالذكر العلوم التالية:

* **العقيدة**: وهو علم يوفر لدراسة منهج التأصيل لفهم الكون والحياة والعلاقة مع الله. وفي هذا العلم -إذا سلم من الشقشقات اللفظية والمؤثرات الكلامية والفلسفية- الجواب الشافي عن الأسئلة الكبرىٰ التي لا يكاد ينفك إنسان عن طرحها، منذ أن يبدأ تأملاته في الحياة، من قبيل: سؤال الغاية من الوجود، سؤال الخلق والتدبير، سؤال الإرادة والاختيار، سؤال الشر، سؤال العقل والنقل، إلىٰ غير ذلك. كما أن هذا العلم يوفر جواب السؤال المعروف عند المبتدئين: ما تعريف هذه الفرق العقدية الكثيرة، وما الفروق الدقيقة بينها؟ وما مقدار ما لكل واحدة من الحق؟ إلىٰ غير ذلك.

إن من فوائد دراسة العقيدة، أنها تتيح للدارس التعامل المطمئن المريح مع النظريات الفلسفية المتباينة، التي قد يصادفها خلال دراسته للعلوم الإنسانية، أو عند الخوض في النقاشات المجتمعية المعاصرة، التي لا تخلو من آثار ظاهرة أو متسترة لهذه النظريات.

* **مصطلح الحديث**: وهو العلم الذي يؤسس منهج توثيق النقل، ويحمي من الغرق في أمواج النقول والآثار، ويوفر الأدوات المنهجية لتمحيص المعلومات وتنقيحها بتمييز الأصيل عن الدخيل.

وأذكر أن مدخلي الأول إلىٰ العلم الشرعي، كان من طريق هذا العلم. وكانت دراستي الأولىٰ فيه من كتاب «**علوم الحديث ومصطلحه**» للدكتور صبحي الصالح. وقد أعطتني هذه الدراسة، دفعة هواء هائلة داخل (رئتي المعرفية) وأنقذتني من اختناق فكري قاتل، بفعل المعلومات المسمومة التي تشبعتُ بها قبل التعرف إلىٰ هذا الفن النبيل.

ومن الجدير بالتنبيه عليه، أن المنهج المبثوث في هذا العلم، وإن كان في الأصل خاصًّا بالحديث النبوي الشريف؛ فإن من الممكن -بل من المحبذ- طرده في كافة مناحي الحياة، وإعماله لتحقيق التعامل الإيجابي مع القصف المعلوماتي الخطير الذي نتعرض له في عصرنا هذا.

* **أصول الفقه**: وهو العلم الذي يبني منهج الاستدلال، ويضبط الاستنباط الشرعي.

وقد لاءم هذا العلم تكويني الرياضي السابق، الذي تعلمته في دراستي النظامية، ووجدت فيه بغيتي؛ لأنه أفادني كثيرًا في ضبط نقاشاتي العلمية، والتأصيل لاختياراتي الفقهية.

وهذا العلم -وإن كان خاصًّا بالاستدلال الفقهي، والاستنباط من الكتاب والسنة- فإنه نافع في جميع ما يحتاج إلىٰ برهنة واستدلال. والجمع بين هذا العلم ومصطلح الحديث، تأسيس للبناء الفكري، بتصحيح النقل، وتحصين العقل.

* **علوم العربية**: لأنها مفتاح التراث الإسلامي كله، ولا سبيل إلىٰ تحصيل شيء من العلوم السابقة إلا من طريقها. وقد رأيت من أقراني من لم يعتنِ بتعلم العربية، يتعثر في فهم نصوص التراث، ولا ينتفع بقراءاته أتم انتفاع، بل يبقىٰ عالة علىٰ من يترجم له كنوز التراث بلغة عصرية تلائمه!

ثم إن العربية هي أيضًا آلة الخطاب، ومن فقدها لم يتح له التفاهم مع غيره، ولا التعبير السليم عن أفكاره.

التعامل مع الخلاف:

لا يخفىٰ علىٰ مطلعٍ علىٰ الفكر الإنساني عمومًا والإسلامي خصوصًا، أن الخلاف موجود في كل شيء تقريبًا، من الأصول العقدية الكبرىٰ إلىٰ الفروع الفقهية الجزئية، مرورًا بوسائل الإصلاح المجتمعي والسياسي.

ومن أعظم فوائد العلم الشرعي أنه يُمكّن صاحبه من التعامل مع الخلاف بعيدًا عن المشاركة المتشنجة والعزلة الحائرة.

* ومن أهم ملامح هذا التعامل الأمور التالية:

* انتفاء الحيرة والاضطراب أمام هذه الخلافات الكثيرة، وذلك بمعرفة حجم الخلاف أفقيًّا، ومرتبته عموديًّا.

والعجز عن التعامل مع الخلاف: أول ما يشتكي منه المبتدئون. ويلجأ كثير منهم -لقلة العلم الشرعي- إلىٰ القول بـ(نسبية الحقيقة)، ظنًّا منهم أن ذلك يحل الإشكال. والحق أن حيرتهم تزيد، لعدم إمكان القول بنسبية مطلقة، والاضطرار إلىٰ الرجوع إلىٰ ثوابت لا يقبل الخلاف فيها. وتحديد هذه الثوابت، يحتاج منهم إلىٰ ضوابط علمية لا يملكونها، فيقعون في الحيرة ولا بُد.

* معرفة مراتب الخلاف، والضوابط الكلية المميزة للخلاف المعتبر السائغ والخلاف غير السائغ، والتمييز بين ما يدخل في كل منهما من المسائل الأصلية والفرعية.

* ضبط وسائل الترجيح في الخلاف المعتبر عند الحاجة والقدرة، أو التقليد عند العجز عن الترجيح.

* الحكم علىٰ أطراف الخلاف بالعلم والعدل، ومعرفة من هو مجتهد مصيب مأجور أجرين، أو مجتهد مخطئ مأجور أجرًا واحدًا، أو مخطئ موزور لتكلفه الاجتهاد قبل استكمال آلته، أو مبتدع ضال، إلىٰ غير ذلك. وتنزيل هذه الأحكام -ولو نظريًّا- لا يكون إلا بالعلم.

* معرفة مراتب الإنكار العلمي: ما يجوز منه وما لا يجوز، وما يناط بمراعاة المصلحة والمفسدة، وما هو من قبيل المنكر المتفق عليه وما هو من قبيل المنكر الخلافي، ونحو ذلك من فقه إنكار المنكر.

تحقيق الاستقامة الصلبة بدلًا من الاستقامة السائلة:

يعاني كثير من المتدينين اليوم من سيولة شديدة في استقامتهم الدينية، والتزامهم بأحكام الشريعة.

ومن معالم الاستقامة السائلة: النسبية في ضبط الحلال والحرام، مما ينتج مرونة تصل إلىٰ درجة الميوعة، مع الاستعداد لتغيير الاختيارات الفقهية الشخصية من النقيض إلىٰ النقيض بسرعة فائقة، في غياب آلية الاستدلال الشرعي، عجزًا أو اختيارًا.

ولهذه السيولة أسباب كثيرة بعضها نفسي شخصي، وبعضها مرتبط بالمزاج الفكري الغالب علىٰ الثقافة المهيمنة اليوم، وهي ثقافة السيولة وانعدام الثوابت الصلبة. ويتأكد ذلك كله بقلة العلم بأحكام الشريعة، وتمييز ثوابتها من متغيراتها.

إن هذه السيولة تمنع من تكوين أساس معرفي صلب للاستقامة علىٰ الدين، يمكن به تفادي الانتكاسات التي تأتي من الاطلاع اللاحق علىٰ أمور لم تكن معلومة عند الشخص في السابق.

إن الاستقامة التي لا تقوم علىٰ أساس علمي -ولو في حده الأدنىٰ- استقامة هشة (= معرضة للانتكاس)، وسائلة (= قابلة للميوعة والانحلال والنسبية).

والعلم هو الذي يوفر الضوابط والقيود التي تحمي الالتزام بالحكم الشرعي من أن يكون مجرد ارتباط عاطفي قابل للتغيير بمؤثرات نفسية سطحية. وهذا لا يعني أنَّ مراجعة القناعات الفكرية غير مقبولة، ولكن ينبغي أن تأتي المراجعة بعد عملية استدلالية رصينة، لا بمجرد التأثير العاطفي.

وقد رأيت مرات كثيرة نماذج مؤلمة لهذه التغيرات السريعة، الناتجة عن انضباط (هلامي) بقواعد الشريعة. رجل يلبس ثوبًا معينًا، أو يعفي لحيته بشكل معين، لا لشيء إلا لأنه وجد في حاضنته الإسلامية الأولىٰ، هذا الصنف من اللباس والسمت، فالتزم به في الظاهر، مع الاستعداد الباطن لتغييره عند أدنىٰ مناسبة. وقل مثل ذلك في لباس النساء المسلمات، وفي أحكام الزينة والعلاقات الاجتماعية ونحو ذلك. بل حتىٰ في أحكام العبادات -مع أنها منضبطة أكثر في المدونة الفقهية التراثية بخلاف ما سبق من الأحكام- التي يتضخم فيها جانب الجدة، ويعدّ بعضها من قبيل النوازل العصرية.

ولا أزال أذكر طالبًا مبتدئًا كان يقول لي ضاحكًا: «أنا أفعل في الصلاة هكذا؛ لأنني رأيت بعض الإخوة يفعلون كذلك، وصديقي هذا يفعل بخلافي؛ لأنه رأىٰ (إخوة) كذلك يفعلون، ولا أحد منا يعلم لماذا!».

وتتأكد الخطورة حين تتعلق هذه النسبية بأمور العقائد المؤسسة للمنهج الفكري، والمؤطرة للعمل الحركي. وقد رأيت من ذلك نماذج خطيرة، لأناس تشبعوا بمقولات عقدية وحركية، أخذوها دون وعي، واقتبسوها دون استدلال، فكانت علاقتهم بها سطحية، تلامس القلوب ولا تهيمن عليها. وقد نتج عن ذلك مهازل في التصورات والتصرفات، ومآسٍ من الانتكاسات والتراجعات، خلال سنوات (الخلخلة الفكرية) الهادرة، التي عرفناها في ما يسمىٰ بالربيع العربي!

سيولة تامة، وغياب كامل للركائز المعرفية الصلبة، وقابلية مستحكمة للانقلاب رأسًا علىٰ عقب!

من الصحيح أن هذا التغيير العاطفي، قد يكون موافقًا -في بعض صوره وأحواله- للعلم الصحيح المبرهن عليه بالحجج القوية. ولكن المشكلة أن هذا الباب حين يفتح؛ فإنه يؤدي لا محالة إلىٰ تغييرات أخرىٰ من الصحيح إلىٰ الغلط، ومن الحق إلىٰ الباطل؛ لأن السيولة إذا دخلت علىٰ الاستقامة، لم تميز بين المقامين، وإنما هي النسبية المطلقة.

وقد رأيت -مثلًا- أقوامًا كثيرين كانوا يحرّمون -بالطريقة ذاتها التي شرحت آنفًا، أي بمجرد سلطة الالتزام بالفكرة السائدة بين أفراد المجموعة- جميع أنواع التدافع السلمي من مظاهرات واعتصامات وجمعيات المجتمع المدني ونحو ذلك. ثم اكتشفوا بأخرة، وبسبب قوة ضربات المخالف وتغير الظروف السياسية العامة، أن هذا التحريم بإطلاق محل نظر، فرجعوا إلىٰ إباحة جميع مظاهر العمل السياسي الحديث، دون التزام بضوابط شرعية واضحة، ودون تمييز بين ما يجوز حقًّا، وما لا يجوز!

هذه السيولة في الالتزام الديني، كارثة منهجية، تمنع أي نهوض للفكر الديني داخل الأمة، وتبني أجيالًا من المذبذبين المؤهلين لهدم كل شيء، والعاجزين عن بناء أي شيء.

ولا شك أن الحل في العلم الشرعي، ولكن بالصفات التي سيأتي ذكرها في المطلب الثاني.

المشاركة السليمة في الحياة الاجتماعية:

وقد يبدو هذا غريبًا علىٰ من لا يعرف من العلم الشرعي إلا جوانبه النظرية، أو لا يرىٰ فيه إلا الصراعات المذهبية، والنقاشات الفكرية. والحق أن في العلوم الشرعية كنوزًا معرفية لا تقدر بثمن، في مجال الحياة الاجتماعية. وذلك في محورين: الفهم والمشاركة الفعالة.

*** المحور الأول (فهم العلاقات المجتمعية):**

ويبدأ ذلك بفهم النفس الإنسانية عمومًا، ومعرفة حاجاتها ومتطلباتها، وما يحصل به رقيها وهبوطها، وما تظهره وتبطنه من الأحاسيس والحيل. ويمر ذلك عبر فهم العلاقة بين المرأة والرجل، في إطارها النفسي والجسدي. ويصل بعد ذلك إلىٰ فهم العلاقات الأسرية، كما هي وكما ينبغي أن تكون؛ ثم أخيرًا إلىٰ فهم سائر العلاقات المجتمعية عمومًا.

إن في التوجيهات القرآنية والنبوية، وأحداث السيرة النبوية، والقصص المرورية في التاريخ عن أكابر الأئمة وفضلاء الأمة، ما يؤسس هذا الفهم تأسيسًا حسنًا، يفوق بكثير بعض تأصيلات التنمية البشرية أو الاستشارات النفسية والاجتماعية المعاصرة، المنبتّة عن الوحي.

*** المحور الثاني (المشاركة المجتمعية):**

وذلك بالتسلح بآلية عملية لضبط العلاقات المجتمعية، بالمعيار الشرعي الواضح. ولا شك أن علم الفقه -من حيث اعتناؤه بتقنين الحلال الحرام- هو أولىٰ العلوم بتوفير هذه الآية. لكن غيره من العلوم الشرعية، مفيد أيضًا في هذا الباب.

* ومما يدخل في ضبط العلاقات المجتمعية:

* توفير سبل حماية العلاقة بين المرأة والرجل من عوامل الابتذال والانحلال، أو العزوف والانعزال.

* طرق تكوين الأسرة التي هي النواة الصلبة للمجتمع، والأساس الذي يبنىٰ عليه استقراره.

* التعامل السليم مع طباع الناس المختلفة.

وقد رأيت نزاعات خطيرة داخل الأسر وخارجها، منشؤها العجز عن فهم اختلاف الطباع، مما هو مسطر في كتب السيرة والتراجم، بكثرة بالغة، تغني عن كثر من النظريات النفسية والاجتماعية العصرية.

*** فهم الماجَرَيات (السّنَنيّة):**

من المعلوم عند الدارسين، أن كثيرًا من أحداث السياسة -معناها الشمولي- تخضع لسنن كونية مطردة، تتكرر عبر التاريخ، وإن اختلفت السياقات الظروف.

وفي العلم الشرعي مجال رحب للتعرف إلىٰ النواميس الكونية التي جعلها الله جل جلاله حاكمة لحركة التاريخ؛ وفيه معرفة بأصول السياسة الشرعية وما هو فيها من قبيل الثوابت وما هو من قبيل المتغيرات؛ وفيه إتقان قواعد الولاء والبراء، والأسماء والأحكام، المؤسسة لتميز الجماعة المسلمة عن غيرها من الجماعات، والمشكِّلة للُّحْمَة الجامعة للأمة الإسلامية؛ وفيه الإجابات عن كثير من الأسئلة التي تثيرها فلسفات الحكم الوافدة من ديمقراطية وعلمانية وغيرها.

وقد رأيت خلال العقود الأخيرة، كثيرًا من الشباب المبتدئين في العلم الشرعي، يخوضون لجج الأحداث الكبرىٰ داخل دولهم وخارجها، ويعلقون علىٰ الماجريات بثقة كبيرة، ويحاولون التشبث ببعض (الثوابت واليقينيات) في مجال يعج بالتحولات السريعة والنسبية الفكرية؛ فما يلبث قاربهم أن ينكسر أمام الموج العاتي، ويصبحون نهبًا للأيديولوجيات المناقضة للإسلام.

وإذا كان العالم الراسخ في العلم الشرعي والمطلع علىٰ العلوم الإنسانية، قد تزلّ به قدمه عند التعامل مع هذه الماجريات، فكيف بالذي يخوض غمارها وهو ضعيف الاستعداد، قليل الحيلة؟!

*** تحقيق الطمأنينة النفسية:**

إن الالتزام بمنظومة القيم حين يكون مبنيًّا علىٰ علم مؤصل بفوائدها ومقاصدها وخطورة تركها، يكون أقوىٰ من الالتزام الناشئ فقط من الخطاب

الوعظي المجرد. ولا يفهم من هذا الاستهانة بالخطاب الوعظي وأثره الكبير في النفوس، ولكن المقصود أن إضافة مكون علمي يساعد كثيرًا علىٰ رسوخ هذه المعاني الوعظية في القلب، وصمودها أمام أعاصير الشبهات والشهوات.

المطلب الثاني: ملامح الفقه المطلوب

لقد تفطن كثير من الشباب المسلم اليوم إلىٰ أهمية العلم الشرعي، نظرًا لكثرة كلام الدعاة والعلماء في الموضوع. ولذلك يندر أن يوجد اليوم من يشكك في هذا المعنىٰ، من الناحية النظرية. ولكن الإشكال الحقيقي يرد عند التطبيق، وذلك في اتجاهين اثنين:

* إما بترك الاعتناء بتعلم العلم الشرعي، مع الإقرار بأهمية ذلك من الناحية الدنيوية والأخروية. وهذا الترك قد يكون كاملًا، علىٰ صيغة الهجر التام، وإما ناقصًا بإعطاء العلم الشرعي فضول الأوقات والجهود.

* وإما بالاشتغال بمجالات علمية قليلة الفائدة، أو يعتورها خلل منهجي عميق، علىٰ ما سيأتي تفصيله.

ولذلك فما أكثر المدَّعين للتعلم والتعليم، المصطفِّين في طوابير طلبة العلم، والمحسوبين علىٰ العلم الشرعي الشريف؛ وهم مع ذلك من أبعد الناس عن تحقيق غايات العلم في أنفسهم ومجتمعاتهم!

إن التفقه في الدين لا يؤتي أُكُله؛ إلا إن توفرت فيه صفات معينة في محوري الجلب والدرء، أي صفات يجب أن توجد فيه، وأخرىٰ يجب أن يجانبها ويتفاداها.

* وقد ظهر لي أنها ثلاث صفات في كل واحد من هذين المحورين:

* **المحور الأول (الجلب)**: ويطلب فيه أن يكون الفقه في الدين علمًا متصفًا بثلاث صفات أساسية:

(١) أن يكون علمًا تأصيليًّا:

والمقصود أنه علم يعتني بتقرير القواعد الجامعة، وضبط الأصول والكليات، التي تندرج تحتها فروع كثيرة، وجزئيات غير منحصرة. وما كان كذلك، فإنه يصلح أن يكون أساسًا يوضع عليه ما لا يحصىٰ من اللبنات، الواردة من الأحداث المستجدة، أو من تراكم المعارف، وذلك بأن توضع كل لبنة في موضعها الملائم لها، من البناء المعرفي المتكامل.

وأما العلم غير التأصيلي، فإنه ينغمس في جمع المعلومات الكثيرة، وبحث الجزئيات المتناثرة، فلا يؤهل صاحبه لامتلاك أداة معرفية يحسن من خلالها التعامل مع الحياة من حوله. فهو علم (كميّ) جامد، في مقابل الأول الذي هو علم (كيفي) متحرك ومؤثر!

* ففي علم الفقه مثلًا، لا بُد من العناية الفائقة -بعد علم أصول الفقه- بالقواعد والضوابط الفقهية، وبعلم المقاصد الشرعية.

* وفي التوحيد، يلزم الاشتغال علىٰ طرق الاستدلال ومآخذ المسائل، والقواعد العامة، التي تحدد منهج أهل السنة والجماعة في العقيدة، وتميزه عن المناهج الأخرىٰ.

* ومن النافع جدًّا معرفة قواعد التفسير وأصوله، قبل تجميع مسائل الفن المتناثرة. وقل مثل ذلك عن العلوم الشرعية كلها.

(٢) أن يكون علمًا استدلاليًّا:

والمقصود أن يكون العلم قائمًا علىٰ البرهان النقلي والعقلي، ليكون أقوىٰ علىٰ مواجهة الزعزعة التي تثيرها الشبهات في النفوس.

ومن الآفات المنتشرة جدًّا في عصرنا: (التقليد في صورة الاجتهاد)، وذلك بادعاء الاجتهاد في كثير من المسائل، ويكون الاستدلال فيها قاصرًا علىٰ حجج سطحية، يراد بها موافقة ما قرره بعض علماء العصر المنظور إليهم. فهي عملية ظاهرها استنباط الحكم من الأدلة التفصيلية، وباطنها

الاستدلال للحكم الذي يسمّىٰ (راجحًا)؛ لأنه ما رجحه بعض العلماء المخصوصين.

ومن الآفات أيضًا الخضوع للسائد في البيئة العلمية، وتهيُّب مخالفته ولو تبين للناظر أن هذا السائد مخالف للدليل الصحيح، أو لقول جماهير العلماء. وبسبب هذه الآفة -الموجودة خصوصًا في بعض البيئات المنغلقة، التي فيها سطوة علمية لبعض العلماء الكبار- تُهدَر أقوال فقهية صحيحة، يقول بها جمهور المتقدمين، لا لشيء إلا لأنها مخالفة للمذهب السائد.

ولأجل هذه الآفات؛ فإن العبرة في كون العلم استدلاليًّا أو لا، في مراعاة ضوابط الاستدلال الصحيح التي قعدها جماهير الأصوليين، لا في الطرق المحدثة المتعارف عليها بين المعاصرين.

(٣) أن يكون علمًا متوازنًا:

وذلك بان يكون سالمًا من المبالغة في الميل إلىٰ جانب علىٰ حساب آخر. وقد نظرت خلال السنوات الأخيرة في كثير من البرامج العلمية التي يقترحها بعض العلماء أو طلبة العلم، فوجدت في كثير منها، نوعًا من عدم التوازن، وذلك يأتي -في الغالب- من أحد أمرين:

* تغليب مخرجات التجربة الشخصية لمقترح البرنامج، وقد يكون ذلك البرنامج ناجحًا -علىٰ الرغم من عدم توازنه- في حالته هو، لأسباب خاصة، قد يتعذر تعميمها علىٰ غيره. ومثال ذلك: عالم درس العلوم الشرعية في صباه، بطريقة المتون فقط، نجح في الصول إلىٰ مبتغاه العلمي، فهو يقترح علىٰ الطلبة البرنامج نفسه، والحال أن ذلك قد يكون غير ملائم لبعض الناس، لاختلاف المؤهلات والاستعدادات النفسية.

* الرغبة في الرد علىٰ ميل إلىٰ جانب معين، ففي سبيل ذلك يقع الميل إلىٰ الجانب الآخر المناقض! ومثال ذلك: أن بعض العلماء يرىٰ كثرة اعتناء الطلبة بالكتب العصرية، واحتقارهم لكتب التراث، فيقترح برامج علمية تنبني

علىٰ الكتب التراثية القديمة وحدها، ويهمل عمدًا كتب المعاصرين، مع ما قد يكون في بعضها من الفوائد العلمية والمنهجية!

* والتوازن المطلوب يكون في أمور كثيرة، منها علىٰ الخصوص:

التوازن بين القديم والجديد:

وذلك لتحصيل الخير الموجود في القديم التراثي والجديد المعاصر، والمقصود بالقديم هنا: ما كان قبل قرون الجمود الفكري للأمة، أما ما جاء بعد ذلك فلا يستفيد منها الطالب كبير شيء.

والاعتماد الكلي علىٰ الكتب التراثية، تحفة -في عصرنا- إشكالات كثيرة، منها: صعوبة العبارة، وعسر الترتيب للموضوعات والأفكار، وكثرة الاستطراد، وغياب المناهج الأكاديمية التي اعتادها المعاصرون، بحيث يقل انتفاعهم بالكتاب إن لم يلتزم بها.

كما أن الاعتماد علىٰ الكتاب العصري وحده، يفضي إلىٰ إشكالات منها علىٰ الخصوص: قلة التأصيل العلمي، وكثرة التناقض بين الجزيئات لضعف الانضباط في الكليات، وكثرة الحشو والتكرار في التعبير بسبب الالتزام بضوابط المنهج الأكاديمي.

والحق أنه إذا كان الكلام في النوازل العصرية؛ فلا بد من اعتماد البحوث العصرية، المستنيرة بالتأصيلات التراثية؛ وإذا كان في غيرها، فليعتمد علىٰ الكتب التراثية القديمة، مع الاستعانة بالأبحاث العصرية المتميزة لتحقيق فهمها.

التوازن بين العلوم المختلفة:

لأن العلوم الشرعية بناء متكامل، لا يمكن تحقيق الإفادة التامة من بعضه إلا بالاطلاع الشامل علىٰ جميعه، ولو في الحد الأدنىٰ للاطلاع. وتغليبُ بعض العلوم علىٰ بعضها الآخر يؤدي إلىٰ آفات منهجية خطيرة.

والمثال المشهور هو التوازن بين علمي الفقه والحديث. فتغليب جانب الفقه، يبعد الطالب عن معين الوحي، ويربطه بأقوال الرجال واستدلالاتهم؛ وتغليب جانب الحديث، يفضي إلىٰ الظاهرية والاستنباط السطحي من النصوص؛ مع ما في الصورتين من البغي علىٰ الطائفة المخالفة، واحتقار ما لديها من العلم!

وتحقيق هذا التوازن، لا يمنع من التخصص في علم معين، ولكن بعد الاطلاع علىٰ سائر العلوم، ومعرفةٍ دنيا لأصولها وقواعدها ومسائلها وكتبها، بحيث يسهل علىٰ الطالب استخراج المسألة من مظنتها في أي علم من العلوم الشرعية.

التوازن المنهجي في طرق الطلب:

وقد كثر اللغط في السنوات الأخيرة، عن مناهج الطلب، والمقارنة بين أنجع السائل، وأقربها إلىٰ الصواب؛ حتىٰ صار أول ما يقرع سمع الطالب؛ هذه المناقشات التي لا تنتهي، ولا يُطمع في أن يعرف وجه الحق فيها من وجه الباطل؛ وذلك لأنها أمور اجتهادية، لا يجزم فيها بخطأ المخالف. وهذه الظاهرة مأخوذة -في الغالب- من الدراسة الجامعية الأكاديمية، التي تعلّم الكلام في مناهج العلوم أكثر من الكلام في مضامين العلوم. وهي ظاهرة غير صحية؛ لأن الناس ما رزقوا كثرة الكلام، إلا حرموا العمل!

والمتعين -في أغلب هذه المباحث التي يقع النقاش حولها- تحقيق التوازن بين المناهج والطرق المختلفة، جمعًا بين ما فيها من الخير المبثوث. فيكون التوازن بين القراءة والحفظ، وبين الحفظ والفهم، وبين المتون والكتب المدرسية، وبين منهج الجمع بين العلوم المختلفة في آنٍ واحد ومنهج الاكتفاء بعلم واحد لا يجاوزه لغيره حتىٰ يحسنه، وهلم جرا.

* **المحول الثاني (الدرء)**: والمطلوب أن يبتعد التفقه في الدين عن مزالق ثلاثة، تهلك الطالب في تربيته صلاحه، أو تهدر عمره فيما لا يعود عليه بنفع.

(١) أن يكون العلم بعيدًا عن الانشغال بالقشور:

والمقصود بالقشور ما ليس من صميم العلم ولبّه، بل هو مما ألحق به، وزيد في كتبه، خاصة في مصنفات المتأخرين.

فمن القشور التي لا ينتفع الطالب بها، بل يتضرر كثيرًا إذا انشغل بها عن الأولىٰ:

* النقاشات حول ألفاظ المتون، ومنطوقها ومفهومها، ومطلقها ومقيّدها، وتتبّع كلام الشراح والمحشّين، حول هذه الصناعة اللفظية التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

* الصراعات حول الحدود والتعاريف، وتكلف الجهد البليغ في ضبط محترزاتها، والتأكد من طردها وعكسها، ومدىٰ جمعها لذاتيات المعرّف، نحو ذلك.

* المقدمات الكلامية والفلسفية، التي دخلت لكثير من العلوم الإسلامية، خاصة العقيدة والتفسير.

* المادة المنطقية المستشرية في بعض العلوم الشرعية.

(٢) أن يكون العلم بعيدًا عن التعصب:

وذلك لأن التعصب للأشخاص أو الجماعات، يرهن فكر صاحبه بفكر غيره، ويقيد قدرته علىٰ التحليل والنقد والمناقشة الحرة، فيحجب عنه نور الحق، ويعرضه للخضوع لبعض الباطل مختارًا، غير متفطن للخطر. والتعصب داء خفيّ، مستتر في بواطن النفس البشرية، يحتاج لاقتلاع جذوره منها إلىٰ كثير من التجرد والإنصاف، ومحاسبة النفس، ومراجعة مواقفها بموازين العلم والعدل. ولأجل خفائه، فلا يكاد يعترف به واقع فيه؛ بل الناس أجمعون

مقرّون بذمه نظريًّا، وبأنهم لا يرون العصمة لأحد من الناس بعد الرسل والأنبياء، وإن كانوا يرفعون عمليًّا بعض الأشخاص إلىٰ هذه المرتبة!

والتعصب يتسرب إلىٰ النفوس الضعيفة، متىٰ قل علمها بالخلاف، وضعفت معرفتها بأقدار العلماء ومراتبهم. وأكثر ما يدخل علىٰ الطالب، في أوائل الطلب، حين يرىٰ الشيخ أو الإمام الذي يأخذ علمه، ولا يرىٰ غيره، فلا يعتد بأحد إلا بذلك العالم، ويتعصب لأقواله، بل لبعض أفعاله! فإن لم يتدارك نفسه بالمحاسبة والتعليم، أوشك أن يمضي عمره كله متبتلًا في محراب ذلك العالم، لا يخرج عن دائرته العلمية والفكرية.

وقد رأيت بعض من ينتمي لهذا الصنف، قد أغلق بصره عن النظر إلىٰ غير ما ألفه في أيام الطلب الأولىٰ، فلا يقرأ إلا كتبًا لمدرسة علمية مخصوصة، ولا يستمع إلا لعلماء هذه المدرسة؛ فما مضىٰ يسير من الزمان حتىٰ وجد نفسه في معارك فكرية مستجدة تحتاج إلىٰ سلاح غير الذي اعتاد علىٰ استعماله في مدرسته تلك، فزعزعته العواصف العاتية، وألقته طريح الشبهات!

(٣) أن يكون العلم بعيدًا عن الجدل العقيم!

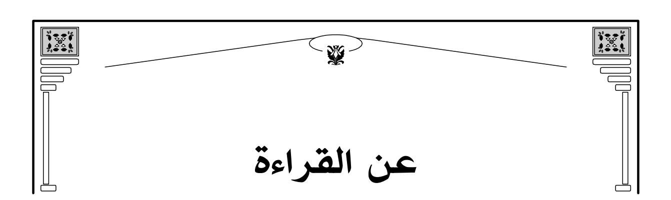
فإن المراء والجدل، ما دخل علىٰ طالب علم إلا أهدر عمره وأهلكه في خاصة نفسه، ولا فشا في طائفة إلا شتَّتَها شَذَر مَذَر، وقلب حبَّها عداءً، وولاءها براءً!

والجدل العقيم، هو الذي لا يتبين فيه الحرص علىٰ الحق، ولا إرادته؛ بل يكون همُّ الداخل فيه: الانتصار للنفس وحظوظها، فلا ينتهي برجوع أحد الطرفين عما أخطأ فيه، ولا باعترافه بغلطه في الاستدلال أو التوثيق.

* **ومن الجدل العقيم**: صراعات التصنيف التي يخوض فيها بعض المعاصرين، فلا تأتي بنفع، غير تضييع الأوقات، وإثارة أحقاد النفوس.

* ومنه تتبع نزاعات الشيوخ، ما قاله فلان في علان، ونصْب المحاكمات بينهم لتصويب هذا وتخطئة ذاك، دون أن يترتب علىٰ ذلك فائدة علمية معتبرة . . . إلىٰ غير ذلك.

والله الموفق



عن القراءة

✍ **خالد بهاء الدين**(*)

الحمد لله وحده . .

في بعض الليالي، اصطحبني أحد أخوالي مع أخي الأكبر، وأنا في حدود السابعة أو الثامنة من عمري، واشترىٰ لنا مجموعة من قصص الأطفال، لكلِّ واحدٍ ثلاثَ أو أربعَ قصصٍ . .

أمّا أخي، وهو بالمناسبة طبيبٌ ناجح حاصل علىٰ الماجستير من هولندا، في تخصّصٍ لا يُنال إلا من جامعتَين اثنتَين في العالم آنذاك، فهو ذو صبر عظيم ومجاهدة للمذاكرة الأكاديميّة البغيضة، كما ينبغي لطبيب يحترم نفسَه أن يكون.

قرأ أخي في تلك الليلة نصف قصّة، وأمّا أنا فقرأتُ جميعَ قصصي وقصصَه قبل أن أنام تلك الليلة.

كانت هذه هي أقدم واقعة عالقة بذهني، اعتقدتُ علىٰ إثرها أنني أحبُّ القراءة بلا مجاهدة نفس ولا تصبُّرٍ علىٰ ما تكرهه نفسي، اعتقدتُ أنّه محض عطاء ربّانّي.

ثم تقلّبَت الأحوال تقلُّبَها بصبيٍّ ينمو فيصير مراهقًا، ثم بالغًا، ثم شابًّا في أواخر العقد الثاني من عمره، يحطّ رحله في الجامعة، وهذه الفترة التي لا تتعدّىٰ عشر سنوات، أو تزيد سنتين أو ثلاثة علىٰ الأكثر؛ لا بدّ أن تكون

(*) خريج كلية أصول الدين، وباحث في الدراسات الشرعية.

هي أكثر فترات العمر التي يتقلّب فيها الإنسان وتتبدّل أحواله حتىٰ إنه ربّما ينام علىٰ فكرةٍ، ثم يصحو علىٰ نقيضها.

هل ذكر الأطباء النفسيّون والباحثون في النّفس الإنسانيّة أن هذه الفترة هي أزهىٰ فترات التقلّبات النفسية والسّلوكيّة؟ لا بدّ أن يكونوا قد فعلوا، فهذا شيء لا تخطئه عين راصد لنفسه ومن حوله.

فهو تارة يُقبِل علىٰ الطّاعة، وتارة تثقل عليه .. تارة يحب زيدًا من أصدقائه، حتىٰ يُفشيَ له كلَّ أسراره، لكنّه يكتشف فجأة أنّ زيدًا لا يستحقّ، فينتقل عنه إلىٰ عمرٍو فيفشي له كلَّ أسراره!

ربّما يكتشف بعدها أنّ فكرة الصداقة كلّها خادعة؛ فينزوي!

وهو يتملّق أباه لغرض، سيعرف بعد ذلك أنّه غرضٌ تافه، فإن وافقَ أبوه، فهو ممتنٌّ لهذا الأبِ الحنون الرّائع، وإن رفض؛ فهو ظالم جانٍ، لا أدري كيف يمكن لهذا الإنسان أن يكون أبي، هل هو أبي حقًّا؟!

وهو يحبُّ ابنة جاره، ويعتقد أنّها ملكةُ قلبه، يومًا وأسبوعًا وشهرًا، ربّما سنةً، لكنّه لا يلبث أن يكتشف لأيّ سببٍ، أنها مجرّد (سحليّة مسلوقة) كما يحبّ الأستاذ أحمد خالد توفيق أن يعبّر، فهي لا تستحقُّ إنسانًا عظيمًا مثلَه.

إلىٰ آخر تلك الأحوال الإنسانية، التي هي في حقيقتها تجارِب ثريّةٌ للتعرّف علىٰ الحياة، يضحك الإنسان بعد ذلك منها غالبًا.

- حسنًا، إنّ القراءة هي الشّيء الذي يمكن أن يصحب الإنسانَ في أشدّ أحوالِه تطرّفًا، ثم يعودُ فيصحبُه في حالٍ تُناقِض الحالَ الأولىٰ، بلا ضجرٍ.

- القراءة يمكن أن تكون أثرًا، ويمكن أن تكون مؤثّرًا ..

فالمرء يفرح فيقرأ، أو يحزن فيقرأ، أو يحلُم فيقرأ .. يَنزوي فيقرأ، ويخالطُ النّاسَ فيقرأ، الإنسان يريدُ؛ فيقرأ.

كما أنه يقرأ فيفرح، ويقرأ فيحزن، ويقرأ فيحلُم، ويقرأ فينزوي، ويقرأ فيخالط النّاس . . فالإنسان يقرأ؛ فيفعل.

- يعي فيقرأ، أو يقرأ فيعي!

كلّ ذلك صحيح، «والكتاب هو الجليس الذي لا يُطريك، والصّديق الذي لا يُغريك، والرّفيق الذي لا يَملُّك، والمستمع الذي لا يسترثيك، والجارُ الذي لا يستبطيك، والصّاحب الذي لا يُريد استخراجَ ما عندك بالمَلْقِ، ولا يعاملك بالمَكْرِ، ولا يخدعُك بالنّفاق، ولا يحتال لك بالكذب»، كما قال بعض القدماء.

وجدتُ-وأنا أشِبُّ تقلّبُني تجارِبُ الحياةِ-مكتبةَ أبي الصّغيرة، التي لا تتجاوز مائة مجلّد وكتاب، ربّما أقلّ، وجدتُها ثريّةً متنوّعةً، فأقبلتُ عليها مدفوعًا بـ (اعتقادي) القديم أنني مجبولٌ علىٰ حبِّ القراءة بهبةٍ ربّانيّة، خلافَ أخي الأكبر، فأنا قرأتُ كلّ (القصص) التي اشتراها خالي، وهو الذي اكتفىٰ بنصف قصّة!

قرأتُ ثلاثة مجلّدات من (السلسلة الصّحيحة) للألبانيّ، واثنين من (الضّعيفة) له، عدة مرات جردًا علىٰ فترات متباعدة، قرأتُ ما لا أحصي من المرات (الطرائف العلميّة) الكتاب العظيم للدكتور صبري الدمرداش رحمه الله، قرأتُ (الإسلام وثقافة الإنسان) لسميح عاطف الزين، وكان تجربة ثوريّة في تلك السنّ المبكّرة . . (غرائب العالم) . . (فقه اللغة وسرّ العربيّة).

لكنّي لَم أقوَ حينها أبدًا علىٰ (فتح الباري) لابن حجر، كان صعبًا ولا يجذبني فيه شيء، ولا (ظلال) سيّد قطب، كان هناك حاجزٌ ما بيني وبينه، لم أدرِ ما هو، ولا علاقة له بالمناسبة بالصّدّ الممنهج عن الكتاب، الذي عرفتُه بعد ذلك.

كنت أكرّر بعض العناوين كثيرًا بلا ملل، ولا أقوىٰ علىٰ عناوين أخرىٰ، مهما كنتُ في حال إقبال علىٰ القراءة، حتىٰ أنني أفضّلُ أن أقرأ الجريدة اليوميّة كلّها، إلىٰ صفحات الوفيات، علىٰ أن أقربَ تلك الكتب!

لقد حاولتُ كثيرًا، مدفوعًا باعتقادي القديم أنني (مجبول) علىٰ حبّ القراءة، خلاف أخي، ثم ما لبثتُ أن تركتُ المحاولَة.

أمّا أخي، فأنهىٰ دراساته الثانوية بتفوّق، رغم أنّه لم يتمكّن من الالتحاق إلا بكلية الهندسة، لا الطبّ كما أراد.

اشترىٰ أدوات الهندسة وانتظم في الدّراسة، ليفاجِئَ الجميعَ بعد ذلك بقرار تركها وإعادة الثانويّة، سعيًا للالتحاق بكليّة الطبّ التي طالما أرادَها!

ورغم المعارضة، نجح في فرض قراره، ثم في النّجاح فيما أراد، التحق بكلّية الطبِّ، وصرتُ أراه يقرأ في اليوم ما يزيد علىٰ ستّ وثمان ساعات يوميًا، حتىٰ كنتُ أحيانًا أروح وأجيء وأنام وأقوم، وهو جالسٌ مجلسَه لا يفارق الكتاب!

أمّا أنا، فكانت مرحلة الجامعة استمرارًا في قراءة ما أحبّ، ومحاولة قهر نفسي علىٰ حبّ ما ينبغي أن أقرأ.

إنه هو هو، أخي الأكبر الذي اكتفىٰ بنصف قصّة من قصص الأطفال ونحن صغار، وأنا هو أنا .. الذي قرأ كلّ القصص في سويعات!

في مرحلة الجامعة، بدأَتْ ثقتي في نظريّة حبّي الجبلِّي للقراءة تهتزّ حتىٰ سلّمتُ مع نهاية الجامعة بخطأ تلك الفكرة، تحديدًا عندما عانيتُ وأنا أقهر نفسي علىٰ قراءة ما لا أحبُّ، لضرورة الالتزام بمنهج محدّد في طلب العلم.

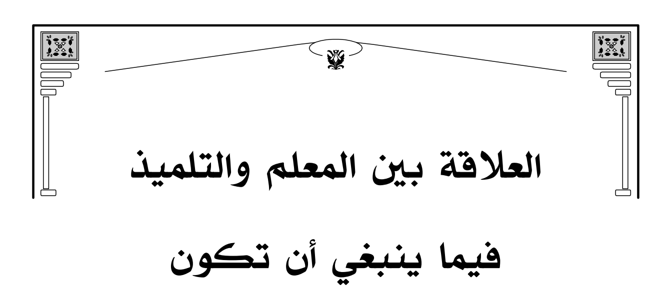
لا لم يكن حبًّا جبليًّا للقراءة، كلّ ما هنالك أنّني وجدتُ ما أحبُّ فقرأته، ولم يجد أخي ما يحبّه فتركه.

لا شكّ أنّ الإنسان بحاجة إلىٰ أن تتنوّع قراءته حتّىٰ يشكّل وعيًا متَّزنًا، ويصنع شخصيّة ثريّة، وحتّىٰ ينجح في حياته العمليّة، حتىٰ يكون طالب علم، حتىٰ يُحسِن التعرّف علىٰ نفسه وعلىٰ العالم، وهذا يقتضي أن يصبر علىٰ قراءة ما لا يهوىٰ، لكنّه لا بدّ ألا يعجل ويحكم علىٰ نفسه أنّه لا يحبّ القراءة، فإن التدرّب علىٰ المطالعة التي لا يحبّ ليس هيّنًا.

كثيرًا ما تحضرني هذه التجرِبة، عندما يشكو لي بعض الشّباب عدمَ حبّه للقراءة، وغالب هؤلاء لم يحسن اكتشاف نفسه، فقط.

وكل ما عليه -قبل أن يقنع نفسه أنّه غير قادر- هو فقط يكتشف ما يهواه، ويعطي نفسه متعتها، فيغذّيها، ثم يدربّ نفسه شيئًا فشيئًا ليقهرها في النّهاية علىٰ ما لا تهواه، اكتشف ما تحبّه، ودع نفسك تأتيه طوعًا ومتعة، ثم أطعمها غير ذلك إلىٰ أن تملكها.

اقرأ ما تحبّ، حتىٰ تحب أن تقرأ، فتحبّ ما تقرأ.



العلاقة بين المعلم والتلميذ فيما ينبغي أن تكون

محمد عبده(*)

«إنَّكم تجلسون من كراسي التعليم علىٰ عروشِ ممالك، رعاياها أطفال الأمة، فسُوسهم بالرِّفق والإحسان، وتدرَّجوا بهم من مرحلة كاملة في التربية إلىٰ مرحلة أكمل منها ... إنَّهم أمانةُ الله عندكم، وودائع الأمة بين أيديكم، سلَّمَتْهم إليكم أطفالًا؛ لِتردُّوها إليها رِجالًا، وقدَّمَتْهم إليكم هياكلَ؛ لتنفخوا فيها الروح، وألفاظًا؛ لِتَعْمُرُوها بالمعاني، وأوعيةً؛ لتملؤوها بالفضيلةِ والمعرفة»[١].

هكذا سطَّرها يراعُ العلامَّةِ محمد البشير الإبراهيمي -قبل نحو قرن تقريبًا- في رسائله للجيل وقتذاك، ويا لها من كلمات وقعت علىٰ جرح الأمة النازف موقعَ البلسم الشافي، لو أخذ أهلُ التعليم بمرامي تلك الكلمات.

إنَّ الأمم المتطلعة للنهوض بعد الكبوات، ولليقظة بعد الغفوات، لا سبيل أمامها لذلك النهوض وتلك اليقظة؛ إلَّا من خلال نافذةِ العلم والتعليم، وعبر هذه النافذة -فقط- يكون النَّفاذُ إلىٰ فضاء المعرفة الواسع، والالتحاق بركب الحضارة والتقدم، وفي هذا الفضاء الرحيب؛ تتكوَّن وتُستكمل أدوات النهوض، وتتشكل وتتحدَّد معالم الاستفاقة، ويظل حجر

(*) مشرف تربوي وكاتب وشاعر مصري.

(١) «آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي»، (١/ ١٦١).

الزاوية في كل ذلك هو المعلم صاحب الرسالة والقضية؛ فهو الجسر بين الأهداف المرجوة، والأوعية المُستقبلة للمعرفة، وهو حلقة الصلة بين المُخطِّط التربوي والواقع الفعلي . . ومن هذا الملمح استمدت العلاقة بين المعلم والتلميذ أهميتَها في سُلّم الأولويات عند بناء الأمم، وفي مسيرة الطامحين للصعود.

ولا أُغالي إذا قلتُ: إن فَتْل جدائلِ المستقبل، وحياكةَ خيوطِ المجد تبدأ من تلك العلاقة الراشدة بين المعلم والتلميذ، ولستُ أعني أيَّ معلم؛ إنَّما أعني ذلك الرجل المهموم برسالته، صاحب القضية، المُفكِّر فيها، المُتمحور حولها، لا يبرحها حتىٰ يعود إليها، يَجْهَدُ لأجلها، ويتخذها زلفىٰ بين يدي الله، ووسيلةً يَلجُ بها إلىٰ الدار الآخرة . . فهي له مَسِيرٌ ومصير، فبنجاحها ينجح، وبإخفاقها يخفق!!

وغنيٌّ عن البيان؛ أنَّ المعلم المشغول بقضية الاكتساب والاسترزاق -فقط- هو أبعد ما يكون مقصودًا بتلك العلاقة الراشدة مع التلميذ، ورغم أن الاكتساب لا يُنافي الاحتساب في الأصل؛ لكن المعلم حينما يجعل الاكتساب شُغُلَه الشاغل، وقضيتَه الأولىٰ؛ فإنَّه لن يلتفت إلىٰ متطلبات تلك العلاقة في مسيرة الأمة نحو نهوضها، فَضِيقُ أُفُقِه المحدود بالارتزاق = عائقٌ كبير يحول دون رؤية الأهداف الكبرىٰ، فضلًا عن السعي إليها، والتخطيط لها، بل إنَّه -علىٰ العكس من ذلك- سيتخذ التلميذ وسيلةً للتكسب والربح، لا مشروعًا استثماريًّا في عقل بشري في طور التَّشكُّل يمكن أن يضيف لبناء الأمة لبنة نافعة، فيضفي -بنظرته القاصرة تلك- علىٰ العلاقة بينه وبين تلميذه طابعًا ماديًّا تُستباح به منظومة القيم، وتتحطم علىٰ صخرته الصلدة أهداف الأمة الكبيرة.

إنَّ قَدَرَ المعلمين جعلهم القنطرةَ التي يَجُوزُ عليها كلُّ العابرين إلىٰ المستقبل، والتي يستحيل ألا يمرَّ عليها أحدٌ ينشده؛ فالأطباء، والمهندسون،

والحُكَّام، والعلماء، وسائرُ أرباب المهن .. كلُّهم مرُّوا عبر هذه القنطرة، ومن الخطورة بمكان أن يكون هذا المعلمُ القنطرةُ خاليَ القيمة، غيرَ مؤمنٍ برسالته، أو مؤمنًا بما يناقضها، فأيُّ ثُلْمة خطيرة في بناء المجتمع يمكن أن تحدث إن كان هذا حال معلميه؟!

* ولهذا؛ فإنَّ المعلم هو نقطةُ الانطلاق في أي إصلاح، قبل المناهج والمقررات والمحتويات والوسائل التعليمية والمباني الحديثة؛ بل ولا إصلاح -علىٰ الحقيقة- إلَّا من خلاله، ودعوني أستعِر مقولةَ الشيخ محمد الغزالي ﷺ في القضاة، وأعيد صياغتها لتناسب المعلمين .. قال ﷺ: «إنَّ القاضي النزيه يُكمل بعدله نقصَ القانون الذي يحكم به، وأمَّا القاضي الجائر؛ فهو يستطيع الميْلَ بالنصوص المستقيمة»[1].

* وأنا أقول: إنَّ المعلم المؤمنَ برسالته، المُتيمَ بالمعرفة؛ الحريصَ عليها من مظانها، يستطيعُ أن يُكمل -بهذا الإيمان والتتيم والحرص- نقصَ المناهج، وانحرافَ التوجهات، وأخطاءَ المُخطِّطين، وشُحَّ الوسائل! ... والمعلم المسترزِق فقير البضاعة، ضحل القيمة؛ ينحرف بطلابه نحو الهاوية، رغم توفُّر المحتوىٰ الجيد، والمنهج القويم، والتخطيط المُحكَم، والوسائل العلمية المتطورة!

ولهذا السبب حرصتْ الدول المستبدَّة في إطار سيطرتها علىٰ عقول الناشئة وصبغهم بصبغتها الواحدة، واستنساخهم عبر قوالب جاهزة؛ لتجعلهم متطابقين وفق تصوراتها للحياة، مَدِينين لها بالولاء والانتماء .. أقول: حرصت علىٰ أن تَدُقَّ إسفينًا في علاقة المعلم بالتلميذ، من خلال تجريد المعلم من أسباب قوته، وحيويته، وتأثيره، عن طريق إضعافه علميًّا، وإفقاره ماديًّا، وإرهاقه في دروب ومسارب الحياة؛ بحيث ينشغل عن مهمته الأولىٰ؛ فينصرف عن تمتين علاقته بطلابه، وغرس منظومة القيم فيهم، إلىٰ تحصيل

(١) «جدد حياتك» لمحمد الغزالي.

رزقه بطرق مُلتوية أرهقته، وأنهكته، وأزْرَت به في عيون تلامذته؛ فخرجت من تحت يده أجيالٌ خاويةٌ من القيمة، لا تحمل مشاعر الود والتوقير له، فحينما يبصر التلاميذُ معلِّمَهم، وقد غاص إلىٰ آذانه في وحل الماديات؛ احتقروه ومقتوه، واستبدلوا السخريةَ والاستهزاءَ بالتوقير والاحترام .. وتحوّلت علاقة المرحمة بينه وبينهم إلىٰ علاقة احترابٍ وكيْدٍ وتربُّص!!

إنَّ تكوين الشخصيةِ المسلمةِ السَّوِيَّةِ المتزنة علميًّا ووجدانيًّا ومهاريًّا وجسديًّا؛ ليس بالأمر الهيِّن، فيُؤتىٰ له بالمكاسير، وأنصاف الرجال، والباحثين عن العمل؛ بل هي مهمة جسيمة تستحق أن تُسخَّر لها العقول النيِّرة، والأقلام المحترفة، والهمم المُحلِّقة، والخبرات الطويلة، والبرامج الرصينة الهادفة؛ فإنَّ من شأن عملية التربية ليس -فقط- أن تمد الصغار بالمعارف والخبرات؛ بل تتعداه إلىٰ تكوين الاتجاهات، وبناء الميول والاهتمامات، وترسيخ القيم والوجدانيات، وصقل الهوايات والمهارات .. ويستحيل أن يتحقق بعض ذلك، فضلًا عن جميعه بمعلم ضحل الثقافة محدودها، خالي القيمة أو فقيرها، أجبرته يدُ الأقدار أن يسلك هذا المسار، أو من خلال علاقة باهتة خالية من الروح بين جنبات جدران الفصل البارد!!

ونقطة أخرىٰ جديرة بالانتباه في كيفية إفساد العلاقة بين المعلم والتلميذ: وهي الطريقة التي يُختار بها معلمو اليوم؛ ليمارسوا أشرف المهن، فقد صار المجموع الذي يحصل عليه الطالب في الثانوية العامة هو المعيار الوحيد لامتهان الطالب مهنة التعليم، ولا عبرة لاختبارات الشخصية ولا الهيئة، وإن أُجريت؛ فاستكمالٌ لإجراءات روتينية لا أكثر .. بل ولا عبرة لرغبة الطالب أصلًا!! وكم دخل حقلَ التعليم بسبب هذا المعيار الجامد عشراتُ الألوف ممَّن لا يرغبون في ممارسة هذه المهنة الشريفة، ولا هم من المؤهَّلين لممارستها، ولا بالمؤمنين برسالتها، فاتخذوها وسيلة للتكسب

والاسترزاق، وصارت المهنةُ الشريفة مهنةَ من لا مهنةَ له؛ فأضرُّوا كثيرًا، وانحرفوا بالدَّفة عن وِجهتِها؛ فخرجت من تحت أيديهم أجيالٌ مُشوَّهة، لا تُمسك علمًا، ولا تحمل قيمة!

*** نحو علاقة والدية:**

ولكي تُؤتي عمليةُ التربية أُكُلَها في الصغار؛ لا بُدَّ أن تقوم علاقة المعلم بالتلميذ علىٰ الحب والتعايش، فهذه العلاقة -في حقيقة الأمر- أكبرُ من مُجرَّد علاقة مُقيَّدة بمُقرر دراسي، أو مادة علمية، تنتهي بمجرد خروجها من فم المعلم؛ بل هي علاقة عبر مسار الحياة، ودائرتها باتساع دائرة الحياة؛ إذ كيف تكفي الحصة الدراسية لتنمية المواهب والقدرات، وصقل الهوايات والمهارات، وتكوين الميول والاتجاهات؛ فضلًا عن اكتشاف الطاقات وسبر غورها؟!

إنَّ علاقة المعلم بالتلميذ هي علاقة والد بولد، وشيخ بِمُريد؛ ولذا فأساسها الحب والمرحمة والحرص من قِبَل المعلم، يقابله الاحترام والتوقير والإكبار من قِبَل التلميذ، وفي هذه التربة الخصبة الزاخرة بالمشاعر الفياضة = يكون العطاء والبذل والغرس؛ فتثمر الثمار اليانعة المتغياة بإذن الله.

والرحمة التي أعنيها؛ هي الرحمة بكل ما فيها من عطف وحنان وتلطف وشفقة وحزم أحيانًا .. فمعلم لا تسري في شرايينه الرحمة؛ لا يستحق أن يُمسك بين أنامله الطبشور، وتأتمنه الأمة علىٰ حبّات فؤادها وفلذات أكبادها، وما أجمل ذلك الوصف، وأبر هذا القسم الذي صدر من معاوية بن الحكم السلمي ﵁ في حق المعلم الأول: «بأبي هو وأمي، ما رأيت معلِّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه»[١]، ولندع معاوية ﵁ يحكي القصة بنفسه يقول:

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحة، (رقم/ ٣٣).

«بينا أنا أُصلِّي مع رسول الله ﷺ إذ عَطَس رجلٌ من القوم، فقلتُ: يرحمك الله، فرماني القومُ بأبصارهم، فقلت: واثُكل أُمّياه! ما شأنكم تنظرون إليَّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم علىٰ أفخاذهم، فلمَّا رأيتهم يُصمِّتونني، لكنِّي سكت، فلمَّا صلَّىٰ رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ معلِّمًا قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعليمًا منه، فوالله ما كَهَرني ولا ضَربني ولا شتمني، قال: «إنَّ هذه الصلاةَ لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنَّما هو التسبيحُ والتكبير، وقراءة القرآن»[١].

والمعايشة تعني كلَّ ما في المعايشة من معانٍ .. فالمعلمُ الحاذِقُ صاحب القضية؛ في حقيقته داعيةٌ إلىٰ الله، وهو في هذا يمارس الدعوة مع صغاره بكل أدبيَّاتها، فهو يُخطِّط لرمي شباكه حولهم؛ ليصيدَهم إلىٰ فكرته، ثم هو يَجْهَدُ لهم من فكره، ويمنحهم الكثيرَ من وقته؛ ويُمتِّن العلاقة بينه وبين أولياء أمورهم؛ ليتعرف بِعُمْقٍ علىٰ شخصياتهم، وظروف نشأتهم، ويعيش مشكلاتهم، ويساهم في حَلِّها فيكونَ -بذلك- فردًا فاعلًا كأنه من أفراد أُسَرِهم، مع مراعاة خصوصياتهم، فتتسع دائرة العلاقة بهم خارج إطار المقرر الدراسي وجدران الفصل الجامدة الباردة، وهي بهذا علاقة إنسانية دافئة في المقام الأول، علاقة متحركة متنامية بين إنسانين، وهكذا كان المعلم الأول ﷺ مع صحابته الكرام، يُجالسهم، ويؤاكلهم، ويشاربهم، ويمازحهم بما لا يخدش حجاب الحشمة، ويعيش مشكلاتهم بكل أبعادها وتفاصيلها، ويجهد لهم في حلِّها، وقصصه مع الصحابة في ذلك أكثر من أن تُحصر، ويكفي ما فعله مع جابر بن عبد الله في طريق عودته من غزوة ذات الرقاع، وسندع جابرًا رضي الله عنه بنفسه يحكي اهتمامَ النبي ﷺ به، وتفقُّدَه له ..

قال جابر: «خرجت مع رسول الله ﷺ إلىٰ غزوة ذات الرقاع من نخل، علىٰ جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تمضي،

---

(١) السابق.

وجعلت أتخلف، حتىٰ أدركني رسول الله ﷺ فقال: **ما لك يا جابر؟** قال: قلتُ يا رسول الله أبطأني جملي هذا، قال: **أنخه،** فأنخته، وأناخ رسول الله ﷺ، ثم قال: **أعطني هذه العصا من يدك** -أو: **اقطع لي عصًا من شجرة**- قال: ففعلت، قال: فأخذها رسول الله فنخسه بها نخسات، ثم قال: **اركب،** فركبت، فخرج -والذي بعثه بالحق- يُواهق ناقته مواهقة (يسابقها لسرعته)، قال: وتحدثت مع رسول الله ﷺ فقال لي: **أتبيعني جملك هذا يا جابر؟** قال: قلت: يا رسول الله بل أهبه لك، قال: **لا، ولكن بِعْنيه،** قال: قلت: فسمنيه يا رسول الله، قال: **قد أخذته بدرهم،** قال: قلت: لا، إذن تغبنني يا رسول الله، قال: **فبدرهمين،** قال: قلت: لا، قال: فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ في ثمنه، حتىٰ بلغ الأوقية، قال: فقلت: أفقد رضيت يا رسول الله؟ قال: **نعم،** قلت: فهو لك، قال: **قد أخذته،** قال: ثم قال: **يا جابر: هل تزوجت بعد؟** قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: **أثيِّبًا أم بكرًا؟،** قال: قلت: لا، بل ثيِّبًا، قال: **أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟** قال: قلت يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أُحد، وترك بنات له سبعًا، فنكحت امرأة جامعة، تجمع رؤوسهنَّ، وتقوم عليهنَّ، قال: **أصبت إن شاء الله**»[١].

وعند البخاري قال ﷺ: «**ادع لي جابرًا، قلت: الآن يرد عليَّ الجمل، ولم يكن شيء أبغض إليَّ منه، قال: خذ جملك ولك ثمنه**»[٢]. فرجع جابر رضي الله عنه بأوقية الذهب، وبالجمل يقضي عليه حاجته علىٰ بغضه له.

هذه لقطة واحدة من آلاف اللقطات التي تصور العلاقة بين المعلم ﷺ وتلامذته رضي الله عنهم .. وما أحوج معلمي اليوم لأن يَقْبَسُوا قبسةً من ذلكم الشلال الذي يهدر بالنور؛ ليضيئوا به العتمات التي تكتنف حياتنا!

---

(١) رواه أحمد، (رقم/١٤٦٠٨).

(٢) البخاري، باب شراء الدواب والحمر، (رقم/١٩٥٥).

إنَّ العلاقة الإنسانية السوية= علاقة لا تَحُدُّها أُطُرُ الدِّراسة وقوالب النظام؛ بل الأصل فيها الفضاء الرَّحْب، والأُفُقُ الفسيح، وبهذا يكون للتربية تأثيرها الشامل والعميق في نفس ووجدان المتربي، والذي ينبغي أن يكون هو؛ أن يتحوَّلَ كلُّ مُعلم إلىٰ أخصائي اجتماعي بنسبة ما، أو بمعنًىٰ أدق، أن يمارس الإنسانية كما ينبغي أن تكون فينفُذ بحُسن بصيرته وفراسته وأخلاقه وتعامله إلىٰ قلب الصغير وباحة بيته . . يجبر الكسر، ويأسو الجراح، ويحل المعضلات، ويقيل العثرات، ومن بعد ذلك يكتشف القدرات، ويخرج المخبوء من الطاقات، ولا سبيل إلىٰ ذلك إلا بترك التكلُّف والمبالغة في الرسميات، والتعايش الحقيقي مع الطالب، ولست أعني بذلك أن ينزل المعلم للطالب نزولًا يهتك حشمة العلم، أو يُذيب الفوارق بينه وبين الطالب . . كلا . . فهذا لا يخدم عملية التربية؛ بل يضر بها غاية الضرر؛ إنَّما القصد التبسط وترك التعقيد، عبر علاقة أبوية حانية ترشد وتوجِّه في رحمة وعطف وتلطُّف.

وهنا يجدر بنا تسليط الضوء علىٰ أنواع الجلسات التي يجلسها المُربي من المتربين، وأي جِلسة هي اللائقة لممارسة التربية والتعليم:

(١) **الجِلسة الفوقية**: وفيها يؤدي المعلم دورَه من خلال بُرجٍ عاجيٍّ، بأَنَفَةٍ وكبرياء مبالغ فيه، يمارس فيه كلَّ أنواع العَسْفِ والتسلُّط والإرهاب والقهر، فوظيفته -في هذه الجِلسة- ليس غيرُ: إملاء الأوامر، وإصدار النواهي، وعلىٰ التلميذ التنفيذ دون أن يناقش أو يستفسر، فضلًا عن أن يعترض، وهي جلسة ملائمة لتفريخ العبيد، وإنتاج أجيال محقونة بثقافة القطيع، وهي -بلا شك- لا تصلح أبدًا لعلاقة إنسانية راشدة، فضلًا عن أن تكون وسيلة مثلىٰ للتربية، فإن ذلك يستفز المتربي للعناد والمشاكسة، أو إضمار المخالفة وإنْ أبدىٰ الطاعة، أو استسلامه ورضوخه وانسحاق شخصيته، وبهذا يخرج عن هذا اللون من التربية واحد من ثلاث شخصيات هي أخطر ما تكون علىٰ أي مجتمع:

- المتمردون والمناكفون.

- المنافقون والوصوليون.

- العبيد والتابعون.

وكلُّهم شرٌّ ماحق، ورُزْءٌ ساحق، لا يستفيد المجتمع من ورائهم بطائل، إلا مزيدًا من تصدُّعِ أركانِه، وتقوُّض بُنيانه.

إنَّ الشخصية السوية هي غاية التربية، وهي وعاء القيم، فإذا انخرم هذا الوعاء بدوام الطَّرْق عليه؛ فإنَّه لن يُمسك قيمة، ولن يُبقي خُلُقًا، وكلما دخلته قيمة تسربت عبر ثقوبه وندوبه!!

(٢) الجلسة التحتية: وفيها ينزل المعلم نزولًا مَهِينًا إلىٰ طلابه، فيهتك حجاب حشمته، ويهدِر كرامته، ويُزْري بنفسه، ويذيب فوارق السن والعلم بينه وبينهم، فيصير مهيضَ الجناح، مستباحَ الكرامة، ساقطَ الهيبة .. وكلُّ جِلسة تنكسر فيها هيْبةُ المُربي أمام المتربي = تُفقد التربيةَ عنصرَ التأثير، فلا تأثير إلا عبر احترام وتوقير.

(٣) الجلسة المعتدلة: ولا أفضل من هذه الجلسة في ضبط العلاقة بين المعلم والتلميذ، وهي ما عُبِّر عنها في أثر منسوب لعمر بن الخطاب ﵁: «وصاحبه سبعًا»[(١)]؛ فإنَّ المصاحبة في هذه السن ومد جسور التلاقي، وإشعار المتربي بالأمان وإحاطته بالحنان؛ هي كفيلة بأن يَبُثَّ أسراره نحو مربيه، ويجعله مستودعها ومخزنها؛ وبالتالي يسهل علىٰ المربي معالجة كل بادرة جنوح بحكمة وروية، وإذا لم يجد المُتربِّي ذلك في مُربِّيه؛ فإنه ولا شكَّ باحثٌ عن مستودع آخر خارج إطار التربية الصحيحة، وهو مُلاقيه حتمًا، وفي الغالب لن يكون المستودع الجديد علىٰ نفس المسؤولية، وعلىٰ نفس القدر من الأمانة وحسن التوجيه، وهنا يدخل قرناء السوء علىٰ الخط، مختطفين هذا الصيد الثمين بعيدًا عن محضن التربية الراشد.

أرأيت كيف عالج النبي ﷺ الأمر في قصة الشاب الذي طلب إذنه في

---

(١) في صحة هذه النسبة نظر.

الزنىٰ؟! وأي جلسة حوارية جلسها النبي ﷺ مع الشاب؟![1] ثم ما تمخضت عنه هذه المحاورة الفذة الفريدة؟! وهكذا يجب أن يكون المربون .. إنَّه لولا شعور هذا الشاب بقدرة النبي ﷺ علىٰ احتوائه؛ لما تجرَّأ ابتداءً علىٰ طلبٍ كهذا في مجتمعٍ عربيٍّ غيور!

إنَّ هذه الجِلسة المعتدلة إنَّما تعني = العلاقةَ الوالدية المتزنة، تغلب عليها الرحمة، لكنها لا تخلو من الحزم، تقوم علىٰ التباسط وترك التكلُّف، لكنَّه تباسط لا يُذهب بالهيبة، معايشةٌ وسؤالٌ عن أحواله، دون أن يهتك ذلك الخصوصية والستر، فهي جلسة تختلف -تمامًا- عن كثير ممَّا يُمارس اليوم في الحقل التعليمي والميدان التربوي من عجرفة، وتسلط، وقهر، وأنفة مُدّعاة!!

وهذا -الذي ذكرتُ- مبثوثٌ في تراثنا الإسلامي في مواضع كثيرة، فيؤكد ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ المعلم أن يحسن معاملة الطالب فيقول: «وكذلك ينبغي أن يترحَّب بالطلبة إذا جلسوا إليه، يُؤنسهم بسؤالهم عن أحوالهم، وأحوال من يتعلق بهم بعد درسهم، وليعاملهم بطلاقة الوجه، وظهور البِشْر، وحسن المودة، وإعلام المحبة، وإضمار الشفقة»[2].

ويقول النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وينبغي له أن يحنو عليه، ويعتني بمصالح نفسه وولده، ويُجريه مجرىٰ ولده في الشفقة عليه، والاهتمام بمصالحه»[3].

* نماذج ممَّا رأيت وعشت:

في ذاكرة كل واحد منا صور لا تنمحي حول مواقف الإحسان والمعايشة من بعض المعلمين، نُقشت نقشًا في جدران الذاكرة؛ بحيث تمر السنوات الطويلة دون أن تندرس هذه النقوش، أو تتوارىٰ خلف غبار الأحداث، وركام

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، (رقم/ ٢٢٢١١)، وصححه الألباني في «الصحيحة»، (١/ ٧١٣).

(٢) «تذكرة السامع والمتكلم»، (رقم/ ٦٥).

(٣) «المجموع شرح المهذب»، (١/ ٣١).

المواقف الكثيرة التي يمر بها المرء في مسيرة حياته.

وقد مرَّ بي عدد كبير من المعلمين، لكنَّهم هم القلائل الذين بقيت نقوشهم في محفورة في خلايا الذاكرة الكليلة، وكان القاسم المشترك بينهم= عشقهم لمهنة التعليم، وتضلعهم من مادتهم العلمية، واقترابهم الواعي من طلابهم، ومعايشتهم لهم؛ ولهذا استمرت العلاقة بهم من بعد انقطاع علاقة الدراسة النظامية؛ لأنَّها ارتقت إلىٰ علاقة إنسانية عبر مسار الحياة، وانعتقت من علاقة الجدران إلىٰ فضاء علاقة الإنسان!

وأذكر ذلك المعلم الذي تدرّج في مسيرته العلمية حتىٰ نال درجة الدكتوراة في الفلسفة الإسلامية، وكيف حبَّبني في اللغة العربية والعلوم الشرعية، ولم تكن البداية بين جدران الفصل فقط؛ بل كانت في باحة المسجد كذلك، في أطول حلقة قرآنية -في قريتنا- استمرت قرابة الثلاثة أعوام، حفّظني خلالها -مع آخرين- سورة البقرة آيتين آيتين، مع التفسير، وإسقاط ما فيها من تعاليم وأحكام علىٰ واقع الناس، ثم لم يكتفِ بذلك؛ بل كثيرًا ما كان يدعوني لبيته المضياف لاحتساء الشاي، أو تناول العشاء، رغم أنَّه كان فقير الحال، وفي بيته اطلعتُ علىٰ مكتبته الزاخرة، وسمعت أذني اسم شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن الجوزي، وابن رجب، وكلّما سألته عن كتاب؛ شنّف أذني بشرح مختصر لمحتوياته، فحبّبني في القراءة والاطلاع، ونصحني بالكتب المناسبة لسني، وحدّد لي المدة المناسبة للاستعارة، واستنهضني للإنجاز قبل الوقت المحدد، ثم بعد الفراغ من القراءة؛ كثيرًا ما كان يُجري معي مناقشة سابرة لمحتويات الكتاب، يسائلني عن استفادتي وآرائي . . قرأتُ معه العقيدة الطحاوية، والواسطية، وفتاوىٰ شيخ الإسلام، ومدارج السالكين، وخاض بي عُباب الأدب العربي شعره ونثره وبلاغته ورواياته وقصصه.

وكتاب من بعد كتاب، وجلسة من بعد جلسة؛ تعلّقتُ بالرجل، ورأيت

معالم الإنسانية الحقة تتجلىٰ من مُحيّاه الباسم، وكرمه الحاتمي رغم ضيق ذات يده، فلم أنسه منذ ذاك الحين في سجداتي؛ فقد جعلتُ له سجدة أخصه فيها بالدعاء دون خلق الله أجمعين بعد والديّ . . واستمرت علاقتي بالرجل إلىٰ يوم الناس هذا، ظل فيها أنيسي وجليسي ومستشاري، لا أقطع أمرًا دون مشورته . . حتىٰ غدا اللقاء به طقسًا يوميًّا من طقوس الحياة.

هذه ومضة عجلىٰ من تاريخ مشرق مع الرجل . . وهذا ما ينبغي أن يكون بين المعلم والطالب، ولو أن كل معلم خرج بعلاقته مع طلابه إلىٰ هذا الفضاء الرحيب، تُرىٰ كيف يكون حال الجيل، ومن ورائه حال الأمة؟!

إنَّها حرارة الإيمان بالقضية، والغرام بالمهنة، والشعور بالتَّبِعة، وإن احتسابًا كهذا الاحتساب لا يُمكن -بحال- أن يُنافي الاكتساب؛ لكنَّه التوفيق الإلهي، والفقه بمواطن اكتساب الأجور، ومراتب الأعمال؛ وإلا فالأصل ألا يعجز أحد عن ذلك!

* ثم ساقتني الأقدار لأنتظم مُعلِّمًا في ذات المسار، فتحتَّم الوفاء برد الجميل، فقد ذُقت كأس العطاء علىٰ يدي معلمي من قبل، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، ومن اغترف أحسن بالعطاش؛ ففاض من كأسه عليهم، ولم يمنع أحدًا أن يرد عليه مورده؛ فخير ما يُعلِّم المرءَ العطاءَ؛ العطاءُ نفسه، إنها سلسلة من الكرام يسلِّم بعضهم لبعض راية العطاء، وسند متصل من الأجاويد إلىٰ سيد الجود والكرم محمد ﷺ.

سلكتُ مسارَ التعليم منذ العام (١٩٩٩م) في مدينة الإسماعيلية، وبدأتُ مع طلابي أمارس نفس الدور الذي مارسه معي معلمي، وسلكتُ معهم طريقة الدعوة الفردية التي استفدتُها من أدبيات بعض الإسلاميين، وكانت تبدأ بتمتين العلاقة الإنسانية بالطلاب، والتعايش الحقيقي معهم، فنفذتُ بها إلىٰ بيوتهم، وتمتّنتْ -كذلك- العلاقةُ مع أولياء أمورهم، فوصلت إلىٰ حد الزيارات العائلية، وكلما عجز وليُّ الأمر عن حل معضلة مع ولده؛ كان العلاج السحري لا يُصرف إلا من صيدليتي؛ فكانوا يرجعون إليَّ في كل صغير وكبير

فيما يخصُّ أبناءهم، وكانت زيارات الطلاب إلىٰ مسكني لا تكاد تنقطع خارج حدود الدراسة النظامية، واستثمرتُ ذلك في التوجيه والإرشاد وغرس أصول القيم، وفتحتُ آفاقهم علىٰ ينابيع السنة النبوية، وركزتُ فيهم المفاهيم الإسلامية الغائبة عن بؤرة شعور غالب الناس، وكان لقاء الفجر للصلاة هو بداية اكتحال العيون بالعيون، ويا له من لقاء مفعم بالمشاعر مع أنسام الفجر المعبقة بأنفاس المؤمنين الصادقين، حتىٰ قد حفَّزت هذه العلاقة بعضَ المعلمين ليقتفوا أثري؛ فسلكوا مع طلابهم نفس المسلك، فكان ذلك الحي من المدينة يتحدث عن تلك الثلة من الشباب حديثي العهد بالتدريس وما رسّخوه في نفوس الطلاب من معان وأصول، ومرّتْ ثلاث سنوات كالبرق قبل أن أزمع السفر، ويا له من يوم حزين علىٰ هذا الحي وعلىٰ نفسي، وقد أتتني وفود أولياء الأمور تثنيني عن قرار السفر والعودة إلىٰ الديار، وكان قرارًا مصيريًّا يعسر تجاوزه، خلَّفتُ أبناءهم كأنما خلّفتُ أبنائي الذين هم من صلبي، فلم أستغرب ذلك الدمع الهتان الذي همت به العيون، ولا ذلك الحزن الذي جاهدَتْ في مُداراته انسدالاتُ الجفون . . ومرّت سنوات لم ينقطع خلالها حبل الوصال عبر الهاتف، ثم أتت ثورة برامج التواصل الاجتماعي؛ فاكتحلت عيني برؤيتهم من جديد، ولكن تغيرت القسمات واكتملت السمات، وكم تملكتني سعادة عارمة حين علمتُ أنَّهم علىٰ العهد باقون، وعلىٰ حبل القيم مستمسكون، وقد صار حسن مهندسًا، وسالم محاسبًا، ومحمد طبيبًا، ومثله صار أحمد . .

فالحمد لله أن تكلّلت مسيرتي بتلك الغراس اليانعة، ولو أعلم أن الله تقبّل مني واحدًا منهم؛ لكان أحبَّ إليّ من الدنيا وما فيها . . وقد كنتُ كلما رأيتُ غراسي؛ طاف بخلدي كلام ابن جماعة رَحِمَهُ اللهُ حين قال: «واعلم أنَّ الطالب الصالح أعودُ علىٰ العالم بخير الدنيا والآخرة من أعز الناس عليه، وأقرب أهله إليه؛ ولذلك كان علماء السلف الناصحون لله ودينه يُلقون شبك الاجتهاد؛ لصيد طالب ينتفع الناس به في حياتهم، ومن بعدهم، ولو لم يكن

للعالم إلا طالب واحد ينتفع الناس بعلمه وهديه وإرشاده؛ لكفاه ذلك الطالب عند الله؛ فإنَّه لا يتصل شيء من علمه إلىٰ أحد ينتفع به إلَّا كان له نصيب من الأجر»[١].

* وممَّا يُقوِّي العلاقة بين المعلم والتلميذ -إضافةً لِمَا سبق- أمور .. أُجملها في الآتي:

(١) إقامة العدل بين الطلاب: فلا يُحابي أحدًا علىٰ حساب أحد؛ فالجميع عنده سواسية في المعاملة، وهذا ممَّا تلحظه عيون الطلاب مهما دقَّ أمره أو صَغُر، يبصرون فيه تباين القسمات، وإشارات العيون، فكيف بالأقوال والأفعال؟! ولا يمقتُ الطلاب شيئًا من معلميهم كالحيف والمحاباة، وتكثر مجالسهم من التندُّر علىٰ المعلمين الذين يتلطخون بذلك، ويضمرون لهم العداوة، وإن كانوا بارعين متقنين. وقد اهتم علماؤنا ببيان ذلك، حتىٰ لقد عقد ابن سحنون بابًا (ما جاء في العدل بين الصبيان) ساق فيه بسنده إلىٰ الحسن رَحِمَهُ اللهُ قال: «إذا قُوطع المعلم علىٰ الأجرة؛ فلم يعدل بينهم -أي الصبيان- كُتب من الظلمة». وقال أيضًا: «وليجعلهم بالسواء في التعليم، الشريف والوضيع، وإلَّا كان خائنًا»[٢].

(٢) اهتمام المعلم بالأنشطة اللَّاصفية ومشاركته الطلاب فيها:

ذكرتُ أنَّ أساس العلاقة بين المعلم والتلميذ تقوم علىٰ الحب والمعايشة، ولا يتحقق ذلك إلَّا بالاقتراب من التلميذ قربًا حقيقيًّا خارج أُطر الدراسة، وذكرتُ أنَّ من مهام المعلم الكبرىٰ؛ اكتشاف القدرات وتفجير الطاقات، وصقل المواهب، ولا يتحقق شيء من هذا إلَّا عبر مشاركة للطالب في أنشطته اللَّا صفية، ففي الأسر والجماعات المدرسية متنفس للطالب؛ ليظهر فيها شخصيته، وميوله ورغباته، ثم هو يتصرف فيها علىٰ سجيته

(١) «تذكرة السامع والمتكلم»، (ص/ ٦٣).

(٢) «آداب المعلمين» لابن سحنون، (ص/ ١١٥).

بلا تكلف وافتعال، والمعلم البارع هو الذي يشارك الطلاب مناشطهم؛ ليتعرف علىٰ الجوانب الغامضة من شخصياتهم ويمتّن عبرها العلاقة بهم، وكلَّما كانت الموهبة تجمع المعلم والطالب؛ كانت فرص التلاقي والتقارب أكثر وأكثر؛ فجماعات الإذاعة والصحافة والأناشيد والرياضة بأنواعها، والإعلام ونحوها = طريق المعلم لسبر أغوار طلابه، وصيد قلوبهم، ولا يُفرِّط فيها، أو يزهد بها إلا من لم يُحسن فهم دوره.

(٢) الاعتدال في معالجة الأخطاء:

إنَّ الصبر علىٰ الجفاء، وتحمل سيئ الطباع = من محاسن الأخلاق، والتربية بالفعل أبلغ من التربية بالقول، ولو أنَّ كل موقف انتقم فيه المعلم لنفسه، وبالغ في تقدير الخطأ؛ هل يُبقي له من مُحب بين الطلاب؟! .. يقول ابن جماعة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وينبغي أن يعتني بمصالح الطالب، ويعامله بما يعامل به أعز أولاده من الحنو والشفقة عليه، والإحسان إليه، والصبر علىٰ جفاء ربما وقع منه نقص لا يكاد يخلو الإنسان عنه، وسوء أدب في بعض الأحيان، ويبسط عذره بحسب الإمكان، ويوقفه علىٰ ذلك مع ما صدر منه بنصح وتلطف، لا بتعنيف وتعسف، قاصدًا بذلك حسن تربيته، وتحسين خلقه، وإصلاح شأنه، فإن عرف ذلك لذكائه بالإشارة؛ فلا حاجة لصريح العبارة، وإن لم يفهم إلَّا بصريحها أتي بها، وراعىٰ التدرج في التلطف»[١].

(٤) ألا يفشي لطالبه سرًّا:

إذا أحب الطالب معلمه؛ بثَّه تباريح قلبه، وأسرَّ له بما لا يجرؤ علىٰ سرده بين يدي والديه، وهذا شاهدناه كثيرًا في الميدان التربوي، ولا يفعل الطالب ذلك إلا عن حب وثقة في المعلم، وإذا شعر الطالب يومًا أن معلمه ربما يبوح بسره؛ فإنَّه لن يبوح له ابتداءً، وإذا حدث ذلك؛ انهارت كل جسور المحبة بين الطالب والمعلم، وصارت العلاقة أقرب للعداوة منها إلىٰ الجفا؛

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم»، (ص/ ٥٠).

فلا يدمر العلاقة بين البشر كبوح السر، فما الظن بعلاقة صغير مع كبير وثق فيه، وأولاه شيئًا لم يُول به أبويه؟!

(٥) أن يكون ابن عصرهم لا ابن عصره:

ممَّا يُقرِّب المعلم من طلابه = أن يشاركهم اهتماماتهم، وأغلب اهتمامات الشباب اهتمامات عصرية، والمعلم الذكي هو الذي يتباسط معهم، ويعيش موضوعاتهم، دون أن يتلبّس بما يُزري بشخصه، فهو تبسُّط هادف وموجَّه، فلا مانع من أن يكون لديه خلفية عن مباريات كرة القدم، وأسماء بعض اللاعبين، ونتائج بعض الفرق، ومثل ذلك متابعة برامج التواصل الاجتماعي، ومواكبة كل جديد في التقنية، بما لا يجعله غريبًا عنهم؛ فإنَّ الناس لا تألف الغريب، وتنفر منه. وقد نُقل عن سقراط قوله: «لا تُكرهوا أولادكم علىٰ آثاركم؛ فإنَّهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»[1]. وهذا صحيح في العوائد والأعراف المتغيرة، وإذا لم يراعِ المُربي ذلك؛ صار نشازًا ومرغوبًا عنه.

(٦) تجنب إحراجهم:

جرح الكرامة لا يندمل إلَّا بصعوبة بالغة، تمرُّ السنوات وتظلُّ تلك الندبة ظاهرة في جدار الذاكرة لا تنمحي، ولا يجرح شخصية الطالب كتعمد إحراجه، والمعلم الحكيم هو الذي لا يخسر الطالب تحت أي ظرف، وإن المعالجة الهادئة، والنصح علىٰ انفراد؛ يستل أظافر العناد من النفس البشرية، ويُروّض محترفي مكانيزمات الدفاع النفسي، وأما الإحراج فإنَّه يستفزهم علىٰ المشاقة والتمادي في الخطأ؛ انتصارًا للنفس، وثأرًا لجرح الكرامة. وكم من كلمات تفوَّه بها بعض المعلمين لم يُلقوا لها بالًا، ولم يحسبوا حسابها؛ فعلت

---

(١) «الملل والنحل» للشهرستاني، (٢/ ١٤٤).

في طلابهم ما لم تفعله المقاريض، ونسفت كل خير قدّموه، وحلَّ الجفاء محل الود، وانفصمت العرىٰ بعد توثقها.

(٧) الأمانة العلمية:

والأمانة العلمية في ميدان التعليم هي أقوىٰ جسور الثقة بين المعلم والتلميذ؛ ولا سيما التلميذ النابه؛ فكثيرًا ما يكون باعث السؤال عند بعض الطلاب؛ هو اكتشاف تلك النقطة في المعلم، وخاصة طلاب المرحلة الثانوية، والمعلم الأمين هو الذي يُحسن أن يتوقف عن الجواب إذا غاب عنه بأن يقول: لا أدري، أو لعلي أراجع المسألة، أو أتأكد منها، أو أسأل عنها[١].

إنَّ الأمانة العلمية زينة العلم، وروحه الذي يجعله زاكي الثمر، لذيذ المطعم، وإذا قلّبت النظر في تراجم رجال العلم رأيت بين العالم الأمين وقرينه غير الأمين بونًا شاسعًا، ترىٰ الأول في مكانة محفوفة بالوقار، وانتفاع الناس منه في ازدياد، وترىٰ الثاني في منزلة صاغرة، ونفوس طلبة العلم منصرفة عن الأخذ منه أو متباطئة[٢].

وقل لي بربك كيف تكون نظرة الطلاب للمعلم الذي يجيب بلا علم، أو يجيب ويتبين له خطأه ثم لا يقبل الاعتراف بالخطأ؟! هل يقبلون منه علمًا أو نصحًا أو توجيهًا؟!

إنَّ مبنىٰ أي علاقة راشدة بين شخصين هي الثقة، فإذا ذهبت الثقة؛ تصدّعت أركان تلك العلاقة، وصارت ورقة تُذرِّيها الرياح، والأمانة العلمية هي لب تلك الثقة بين المعلم والطالب. يقول ابن جماعة: رَحِمَهُ اللهُ «اعلم أنَّ قول المسؤول: «لا أدري» لا يضع من قدره -كما يظن بعض الجهلة-؛ بل يرفعه؛

---

(١) ««مع المعلمين» محمد بن إبراهيم الحمد، (ص/ ٢٣).

(٢) «رسائل الإصلاح» محمد الخضر حسين (١/ ١٥).

لأنَّه دليل عظيم علىٰ عظم محله، وقوة محله، وقوة دينه، وتقوىٰ ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحسن تثبته، وقد رُوِّينا ذلك عن جماعة من السلف.

وإنَّما يأنف من قول: «لا أدري» من ضعفت ديانته، وقلت معرفته؛ لأنَّه يخاف سقوطه في أعين الحاضرين، وهذه جهالة ورِقَّةُ دين، وربما يشهر خطؤه بين الناس، فيقع فيما فر منه، ويتصف عندهم بما احترز عنه»(١).

* يتضح ممَّا سبق أنَّ الشُّقَّة بين النظرية التربوية الصالحة، وواقعنا التربوي= شُقَّةٌ بعيدة، وهي في اتساع لا يصلح معه الترقيع؛ بل تحتاج إلىٰ إعادة نظر في العملية التربوية برُمَّتِها، ومع ذلك يستطيع المعلم -الذي وصفتُ- أن يفعل الكثير في تقليص مساحة هذه الشقة، إذا استجمع الهِمّة، وسل سيف العزم، ووطَّد العلاقة بطلابه، وفهم حقيقة الدور المنوط به، وسلك درب أصحاب الدعوات، وإن لم يكن بوسعه أن يقوم بالأمر كله بمفرده، ويكفيه أن يتعلّق بأهداب الأجر، ولا يكلِّف الله نفسًا إلَّا وسعها، وليكُن نُصب عينه حديث النبي ﷺ: «فوالله! لَأَن يُهدىٰ بك رجلٌ واحدٌ= خيرٌ لك من الدنيا وما فيها»(٢).

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم»، (ص/٧٩).

(٢) متفق عليه.



المرحلتان الثانوية والجامعية

تعيين مسار .. ولكن!

أحمد محمود شومان(*)

الثانوية العامة -في مصر خصوصًا- هي المحكّ الذي قضت الأعراف أن يضع الآباء أبناءهم عليه، وأن تكون شخصية الطالب بعده مغايرةً لِمَا كانت عليه قبله، وكَثْرَ مَا كانت نتيجة الثانوية سهمًا مسمومًا أصاب طموح الأسرة في مقتل، وخنجرًا باردًا ذبحت به نفسية الطالب، وتشوشت علىٰ إثرها خطاه، ومضىٰ هائمًا بلا هدف، تسوقه الأقدار إلىٰ حيث ألقت رحلها أم قشعم.

وما ذلك إلَّا جزءٌ ضئيلٌ جليّ الفساد من منظومة أعراف كثيرة تكاد تكون الأسوأ علىٰ المحورين التاريخي والجغرافي، وعسىٰ أن أوفق إلىٰ تقديم عرضٍ وافٍ وحلٍّ أوفىٰ لتلك المشكلة، وأتطرّق -قليلًا- إلىٰ بعض مُهمّات المرحلة الجامعية.

التعليم النظامي في مصر، يعرف القاصي والداني أنَّ أضراره الثقافية والفكرية أضعاف نفعه، وأنَّه لا يعتدُّ به داخليًّا في سوق العمل أو معرض الثقافة، ولا خارجيًّا في المجالات البحثية، الأكاديمية، أو العملية[1]، ومع

(*) كاتب مصري، يدرس حاليًا بكلية الطب جامعة المنصورة.

(١) «في التصنيف العالمي لجامعة «شنجهاي جياو تونج» لعام ٢٠١٦، حصلت أول جامعة مصرية وهي جامعة القاهرة علىٰ مركز في المرتبة ٤٠١ من ٥٠٠ .. وقد حلت مصر في تقرير المنتدىٰ الاقتصادي العالمي لعام ٢٠١٦ المركز الـ ١٣٩ من ١٤٠ دولة في جودة التعليم الأساسي، والمركز ١١١ في جودة التعليم العالي والتدريب. =

ذلك؛ فالهموم والجهود المبذولة في مقابل مستوىٰ التعليم غير معقولة ولا متكافئة علىٰ الإطلاق، وما ذلك إلّا كأهل قرية لا عُملَةَ لديهم ينفقونها ويتعاملون بها إلَّا أوراق مزورة، يعرفون ذلك ويرضونه لعدم وجود البديل، ومع أنَّ البديل موجود إلَّا أنَّ الوعي به غير متوفر في جيل الآباء وقليل في جيل الأبناء، علىٰ أنَّ قليلًا من القليل الواعي= هو من لا يتأثر ويخضع لسلطة المجتمع متحملًا الصوت الخافت في داخله الذي يسخر من سعيه وراء سراب، وإتلافِه عمرَه وصحته النفسية وقواه الذهنية في مطلوب حقير.

يجب أن يعرف الطالب علىٰ وجه اليقين مع نهاية المرحلة الإعدادية -إن لم يكن قبلها- ما التخصص الذي يحبه، وما هي مواهبه، وما المجال الذي يستطيع أن يتكفف منه عيشه بما يرضي طموحه؛ حتّىٰ لا يدخل في حيرة لا طائل من ورائها كمن سبقه: حرفة أتقنها أم أكمل التعليم؟ علمي أم أدبي؟ علوم أم رياضيات؟ طب أم هندسة؟ أسافر أم أستقر؟

علىٰ هذا ينبغي أن يُفهم جيدًا أنَّ تعيين المسار هو اختيار خاصٌ بالشخص نفسه بالدرجة الأولىٰ لا بأهله -ولا يدخل بر الوالدين في ذلك ويحرم عليهما كأصلٍ أن يرغما الابن أو البنت علىٰ طريقٍ معينٍ لا يرضيانه- وليس من قبيل الحتم الذي تحدده النتيجة والتنسيق. وكل هذا يجب أن يساعد الآباء أبناءهم فيه وأن يتّعظوا من تجاربهم، وحتىٰ إن أتت مخرجات التعليم بخير مع الآباء، فلا يصح أن يطبقوا علىٰ أولادهم ما لا يصلح لهم؛ فليس هناك مقياس يصلح للجميع، ويُعرف من قول سقراط: «لا تُكرهوا أولادكم علىٰ آثاركم؛ فإنَّهم مخلوقون لزمان غير زمانكم . . . »، فإن اختار الابن

= أما في تقرير منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية عن جودة التعليم لعام ٢٠١٦، فمصر لم تكن موجودة أصلًا في التصنيف!.. وفي مجال كالطب مثلًا، ففي نهاية عام ٢٠١٦ كل كليات الطب المصرية هي كليات غير معتمدة من قِبل ECFMG كنيوزيلندا ومؤسسة حمد وغيرهم!

-مثلًا- حِرْفَةً، أو اختار أن يساعد أباه في عمله الخاص، وما إلىٰ ذلك؛ فليس علىٰ الأب لابنه سوىٰ النّصيحة بما يراه مناسبًا لقدرات ابنه، ولطباعه النفسية، ولبيئته الاجتماعية، ثم يدعمه بعد ذلك ويوفر له ما يضمن به نجاحه في طريقه، وإن اختارت البنت علىٰ حساب إكمال الدراسة النظامية= دراسة شرعية، أو أعمالًا منزلية، أو تدرس علىٰ الإنترنت وتعمل من خلاله علىٰ سبيل المثال freelancer developer or designer؛ فيشجعها علىٰ ذلك ويرغّبها فيه، إن ظهر منها أمارات علىٰ حبّ ذلك الطريق ومهارتها فيه.

ونفترض الآن أنَّ الطالب قد اختار إكمال التعليم وحدد هدفه، مع بداية المرحلة الثانوية، إن لم يعتمد الطالب علىٰ نفسه في التعليم الذاتي، وجعل اعتماده كاملًا علىٰ التعليم النظامي؛ فهذا لا يعول عليه، ولو بلغ ما بلغ من الدرجات العلمية، القراءة المستمرة في المجال أو المجالات التي يهواها الطالب -ويجب أن يعوّده أبواه حب القراءة من صغره باختيار ما يناسبه وذلك مذكور في «**السبل المرضية**»[1] بتفصيل-، مع القراءة التخصصية في المجالات التي يختارها، ويحسن جدًّا أن يعرف شيئًا عن كل شيء بأن ينوع مجال قراءته ولو كتابًا أو كتابين عن كل موضوع لم يقرأ فيه قط؛ ليحيط علمًا بأسسه، فلا يجلس مع قومٍ إلَّا وهو يعلم عمَّا يتحدثون، ولا يسمع اصطلاحًا إلَّا وهو يدركه صحيحًا أو لا يفهمه خطأً. والمواد التي لا يحسنها في دراسته النظامية= إن درس فيها مدخلًا غير المفروض عليه من مناهج الدراسة في العطلة الصيفية -مثلًا- أو مع الدراسة، فسوف يرفع ذلك من مستواه جدًّا فيها. ثم إنْ أحبَّ اللغات؛ فهو خيرٌ عظيم؛ لأنَّ الفكر قائمٌ علىٰ اللغة، ولو برع في العربية والإنجليزية؛ فسينال علمًا غزيرًا وفهمًا دقيقًا، ويعوِّد نفسه التحليل والنقد لكل ما يتعرض له. ومن جهة شخصية أرىٰ الاطلاع علىٰ الروايات العالمية وسير

(١) كتاب: السبل المرضية، لأحمد سالم.

العظماء ومؤلفاتهم؛ تحمل النفس علىٰ عدم الرضا بالدون، وتكسب الإنسان خبرة بالحياة، وفهمًا عميقًا للنفس البشرية وطباعها، وأحوال الناس وكيفية التعامل معهم علىٰ صنوفهم، وهذا مكسب عظيم، وليتعوَّد ألَّا يشغل نفسه بالأحداث الجارية حوله، ولا يسبق لسانه فكره فيما يحيط به، ويحرص علىٰ ما ينفعه فقط، ولا يمنع نفسه ممَّا يحبه؛ لأنَّ النفوس تمل، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «أجموا النفوس بشيء من الباطل؛ ليكون عونًا لها علىٰ الحق». يعني بالباطل؛ ما لا فائدة فيه لذاته، كاللعب، والسفر، والسّماع -المباح منهم- وما إلىٰ ذلك.

أما بخصوص التعليم النظامي، فما سيدرج عليه في أول سنة هو ما سيستمر عليه، مع إضافات يسيرة في السنة الأخيرة؛ فليختره بعناية. إمَّا أنَّه سيحضر في مدرسته ويكتفي بها ويذاكر يومًا بيومٍ ما يتعلمه جديدًا مع حل تمارين علىٰ الدّرس. ومذاكرة المادة الواحدة بعد الحصة المدرسية، والحلّ عليها لا يستغرق أكثر من نصف ساعة -بتركيز-، فإن كان يدرس سبع موادٍ والمدرسة ٦ ساعات فيضيف عليها ثلاث ساعات للمذاكرة -علىٰ الأكثر- بعد المدرسة، وعنده خمس عشرة ساعة يقسمها كيف شاء، ويحدد لنفسه يومًا في الأسبوع يراجع فيه ما أخذه طوال الأسبوع، وعلىٰ المدرِّس أن يحدد له كل فترة اختبارًا علىٰ فصول وأبواب معينة لكيلا ينسىٰ القديم.

وإن اختار طريق الدروس -وهو ما أنصح به- فالأغلب أنَّ الدرس ثلاث مراتٍ أسبوعيًّا، ويذاكر بعد الدرس ويحل ساعة، فيكون المجموع (٦ ساعات) في اليوم، وعنده باقي اليوم يصرفه كيف شاء، ولا يحضر في المدرسة قدر الإمكان، ولا يشتت نفسه بين مُدرِّسين في نفس المادة ما أمكن. ومن شروط اختيار المدرّس، أن يفهم منه جيدًا فلا يصبر علىٰ من لا يفهم منه، وأن يكون ذا تاريخٍ، فقد يستوي مدرسان في تفهيمه إلَّا أن ذا الخبرة يعلمه كيف ينال الدرجة في الاختبار وكيف يصوغ الإجابة بشكل يجبر المصحح علىٰ إعطائه الدرجة كاملة، وألا يكون المدرِّس مولعًا بإضاعة

الوقت، وأن يكون ممَّن يعطون تمارين ويجيبونها مع الطلبة، وعندهم حصص للامتحانات والمراجعة لا لمجرد الشرح فقط.

وممَّا يجب التنبيه عليه في أمر المدرس: دورك في العملية التعليمية أكبر من دور المدرّس؛ هذا أمر مفروغ منه، المدرّس أو الأستاذ الجامعي الذي تحضر له درسًا خاصًّا إمَّا أنَّك تفهم منه أو لا تفهم، إن كنت تفهم وحصلت علىٰ تقدير مرتفع فبها ونعمت، وإن لم تحصل علىٰ تقديرٍ مرتفع فإما لغياب التوفيق أو لظرف؛ وهذا بيد الله، وإمَّا لأنَّك لم تكن تذاكر وهذا بيدك، وإمَّا أنَّه لم يشرح كل ما أتىٰ في الامتحان ولم يحلّ تمارين عليه أو شبهه؛ وهذا اتركه، وإن لم تكن تفهم منه، فأخبره، فإن أعاد بنفس الأسلوب، فلا تكرر ثالثةً واتركه، أمَّا إن كنت كلما سمعت بواحدٍ أفضل من آخر وأنت منتفع مقتنع بالذي تدرس عنده تركته وذهبت لسواه، فستعود بخُفَّي حنين؛ فافهم!

وإن اختار طريق التعليم الإلكتروني والسّحابي، وما إلىٰ ذلك؛ فهو أدرىٰ بما يصلح له، لكن يبقىٰ علىٰ صلة بزملائه يخبرونه بأهمِّ ما ينوه به وينبه عليه مدرسوهم في الدروس والمدرسة، وما إلىٰ ذلك. وخلط التعليم الإلكتروني والبحث علىٰ الشبكة، والمواقع التعليمية، واليوتيوب، والمنتديات المتخصصة عن معلومات أو شرح، والاستعانة بالنابغين ممَّن هم أكبر منه، خلط ذلك مع حضور الدّروس؛ هي الطريقة المثلىٰ للتفوق في التعليم النظامي.

ولا يشغل الطالب نفسه أنَّ زملاءه يذاكرون أكثر منه، وعليه أن يستعين بالله في دراسته ويكثر الدعاء، ويستحضر نوايا صالحة حتىٰ لا يكون مخذولًا، كنيّة نفع المسلمين بما تعلّمه، وسد ثغرٍ وحاجةٍ، وإسعاد والديه، وكفاف نفسه ورفع الجهل عنها، وغير ذلك.

* أمَّا في السنة الثالثة، سنة الشهادة؛ فهناك ضغوط كثيرة وأسئلة تواجه الطلاب وسأذكرها في صورة نقاط أو سؤال وجواب:

* ضغط والديه عليه ومقارنته بغيره من أقاربه وأصدقائه وتعليقهم آمالًا عليه أن يكون كفلان وفلان.

- من جهة الأبوين؛ فمعلومٌ إرادتهما أن يكون ابنهما خيرًا منهما، لكن فليحتفظا بهذا الطموح داخلهما ولا يظهرانه كتوبيخ وضغط وإلحاح علىٰ الابن؛ فهذا لا أذكر أنَّه أتىٰ بخيرٍ أبدًا، وليستبدلا ذلك بتنشئته من صغره علىٰ حب القراءة، وتعليقه بخالقه، ورسم مسار حياته الأولىٰ منضبطًا، وتعويده القرآن من عمر سنتين أو ثلاث؛ فهذا يقوي ملكة الحفظ جدًّا، ويفتق لسان المرء علىٰ العربية، ويُقوِّم اللسان علىٰ الإعراب ويحفظه من اللحن، وتلقينه الإنجليزية بعد بداية تعلمه العربية بعام، وتربيةً لا تنقل عُقَدهما إليه ولا تضره نفسيًّا وتكسبه خصال الرجال كالصدق وتحمل المسؤولية والشجاعة واحترام الكبير والكرم والصبر والعزة، وتشجيعه في الثانوية وصرفه عمَّا يشغله من الهموم، خلاصة الأمر أن يكون أملهما فيه حافزًا إيجابيًّا لا سلبيًّا.

- ومن جهة الطالب؛ فعليه أن يعلم إن ضغط عليه أبواه أنَّ هذا بتأثير عادات المجتمع، ويشق علىٰ العموم التخلص من رواسبها؛ فليسع قدر الوسع، وليبذل مجهوده في تحقيق هدفه، ولا تصرفه إرادتهما عن إرادته، ولا يهتم كثيرًا بردِّ فعلهما إن اختار غير اختيارهما أو لم يوفق في مراده، فهما لا محالة سينسيان، وستمر وتيرة الحياة، ومصابهما عمومًا لن يكون كبيرًا؛ لأنَّ المنظومة التعليمية أصلًا -كما قلنا- هي أولًا وآخرًا لأجل شهادة لا تسمن ولا تغني من جوع إلا في المظهر الاجتماعي ونحوه.

* ضغط المجتمع عليه ونظرته إليه ونداؤه بألقاب كـ (يا دكتور، يا باشمهندس) وغيرها منذ صغره، وهذا أمره سهلٌ يعتمد علىٰ أن يُواجه الطالب برغبته وهدفه من يخاطبه بغيره؛ لكي يقطع دابر هذا الضغط قبل أن يتفاقم، وإن لم يشأ أن يصرح بطموحه؛ فلا أقل من أن يقول: «لا أحب أن أكون كذا، ولي أهداف أخرىٰ»، وينتهي.

* المشاكل المادية التي ستواجهه في الدّروس؛ أمرها يسيرٌ؛ فالمدرسون الذين يقدرون هذا الظرف كُثُرٌ، والمساقات الإلكترونية، والشروحات الصوتية والمرئية متوفرة بكثرة، ويمكن أن يقتصر علىٰ المواد التي يحتاج فيها شديدًا إلىٰ مدرّس يساعده.

ما المدة المطلوبة للمذاكرة؟
وهل يمكن أن أمارس أشياء بجوار الدراسة؟

المدة هي نفسها التي ذكرناها بالأعلىٰ في السنة الأولىٰ مع زيادة يسيرة لتأكيد المحفوظ، ويهتم جدًّا ألَّا يمر عليه شيءٌ لا يفهمه، فيحاول فهمه بقدر الإمكان، ويسأل زملاءه المتفوقين؛ لأنَّهم خير من يفهم مراده وإشكاله ويشرحه له، وطبعًا يمكن أن يمارس أشياء بجوار الدراسة، فكما قلنا: تحتاج إلىٰ ست ساعات يوميًّا في الدّروس وحل التمارين والواجبات والمذاكرة، نزيدهم إلىٰ ثمانٍ أو تسعٍ في السنة الأخيرة، وتنام من خمس إلىٰ ثمان ساعات، ويبقىٰ عندك باقي اليوم تفعل فيه ما تشاء، وأفضل ما تفعله هو ممارسة رياضة بدنية؛ لأنَّها تجدد الدورة الدموية وتزيد نشاط الإنسان وقدرته علىٰ الفهم والتركيز وتزيد إفراز هرمونات السعادة، وتزيد ثقة الإنسان بنفسه وتروِّح عنه وغير ذلك، ويزيد في آخر شهرين قبل الامتحان مذاكرته ومراجعته للقديم إلىٰ مدة تتراوح من ثلاث إلىٰ سبع ساعات في اليوم -غير الدروس- بحسب حالته، ويحاول أن يكون مُستحضرًا معظم المنهج في جميع مواد دراسته ويكثر الحلّ ويستخدم فن الاستذكار المعروف باسم mnemonics ويبحث عنه في الإنترنت.

كيف أذاكر بتركيز، لا أستطيع التركيز فيما أقرأ ..؟

ليعرفَ الطالب إن كان يذاكر بتركيز أم لا: بعد أن يقرأ إجابة سؤال، أو جزئية معينة حفظها= يتلوها بلسانه أو في رأسه، ولا يلزم بنصّها، ولكن يكون مستحضرًا الفكرة العامة وعدد نقاط الإجابة، ويكثر من دعاء الحق جل جلاله أن يوفقه ويكون معه، ولا يكون بجواره ملهيات تشتت تركيزه، كخلفية موسيقية أو ضوضاء أو إضاءة ضعيفة أو هم يشغل فكره؛ فيحاول صرفه أو يفرغ ممَّا يشغله قبل أن يشرع في المذاكرة، ومن جميل الوصايا في ذلك؛ ما ذكر من أن المنذر، قال للنعمان ابنه: «يا بُني أُحب لك النظر في الأدب بالليل؛ فإن القلب بالنهار طائر، وبالليل ساكن، وكلما أوعيت فيه شيئًا علقه»، فتعقب الخطيب هذه الوصية بقوله: «إنَّما اختاروا المطالعة بالليل لخلو القلب؛ فإنَّ خلوه يسرع إليه الحفظ؛ ولهذا لمَّا قيل لحماد بن زيد: ما أعون الأشياء علىٰ الحفظ؟ قال: قلة الغم. قال -أي الخطيب-: وليس تكون قلة الغم إلا مع خلو السر، وفراغ القلب، والليل أقرب الأوقات إلىٰ ذلك»(١).

وأحب أن يجعل وقت مذاكرته من بعد الفجر إلىٰ الظهر، وإلا فبالليل، وتكون رائحة المكان الذي يذاكر فيه طيبةً، لا لأجل حالته النفسية فقط، ولكن لأن المخ يفرز في هذه الحالة هرمونات ومواد كيميائية تساعد علىٰ التركيز، وإن استخدم الألوان الفسفورية؛ فحسن Markers or Highlighters، فيجعل العنوان الأساسي بلون والعناوين الجانبية بلون، والأسماء المهمة بلون والنقاط المهمة بلون والكلمة الأهم في وسط الإجابة بلون ونحو ذلك، وإدخال المؤثرات الشمية والبصرية في عملية الاستذكار فعّال جدًّا، ولا يكثر من الطعام إلىٰ التخمة؛ فيصير لا يفقه شيئًا، وأكرر أن لا يتحسر الطالب إن لم يُغنِ كل هذا مع عدم الدعاء شيئًا.

---

(١) من الطبعة الأولىٰ لكتاب السبل المرضية.

أحيانًا تضيع مني صلوات بسبب الدروس، هل من بأس ..؟

كبيرة عظيمة، والصلاة لا تعوَّض فلا تستسهلها، دروسك ليست أغلىٰ من دينك، وتقديم الفانية علىٰ الباقية سفه، وهل تظن أن الله يرضىٰ عنك ويوفقك في حياتك أو يسعدك فيها وأنت هكذا؟ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦]. استأذن من المدرس وصلِّ، تأخر علىٰ الدرس وصلِّ، صلِّ بين الدروس، صلِّ في الدرس أو اتركه إن لزم الأمر، لكن لا تخرج الصلاة عن وقتها إلىٰ وقت الصلاة الأخرىٰ.

لا أحب المذاكرة، ولا أطيق الجلوس علىٰ الكتاب فماذا أفعل ..؟

كذلك محدثّك -والله المستعان- ولكن سدد وقارب، في الأثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إنَّ للنفس إقبالًا وإدبارًا، فإن هي أقبلت؛ فاستكثروا من النوافل، وإن هي أدبرت فألزموها الفرائض».

وفي قول الشاعر:

إذا هبَّت رياح فاغتنمها فعقبىٰ كلّ خافقة سكونُ

فيهما الجواب عن سؤالك.

* **بدايةً**: إن شغلتك المذاكرة عن فرائضك وذكرك ربك، وشغلت بها كغاية في ذاتها لا وسيلة لما هو أسمىٰ من طلب الآخرة والنوايا التي سبق وعددناها، فلن تحبّها ولن تذاكر، وإن راغمت نفسك وذاكرت ونجحت ستضيع حياتك سدًىٰ بلا متعة ولا هدف ولا نجاح حقيقي بل صوريّ، وستعلم

ذلك يوم القيامة. وازن بين المذاكرة وعملك الباقي في الأخرىٰ، ولا ترضَ لنفسك بالدون في أيهما بين أقرانك، وحتىٰ لا تمل من المذاكرة؛ إن وجدت نفسك تدعوك إليها -وهذا قليل؛ فلا يحزنك- فذاكر؛ لأنَّها فرصة لا تعوض وستفيدك جدًّا، وتحس بزيادة مستواك ممَّا يشجعك علىٰ المذاكرة أكثر، وإن لم تكن نفسك داعية إليها بعد ذلك، وإن أبت نفسك وضاق صدرك فقرِّب إليك مادة تحبها أو يسيرة عليك وحل بعض مسائلها أو ذاكر. فيما يخصني كنت أحل تمارين نحوية أو واجبات رياضية أتسلىٰ بها، وإن لم تسطع فهذا وقت الترفيه مع احتساب النية وذكر الله دائمًا ودعائه أن يفرج عنك وييسر لك الدراسة. وإن ذاكرت كمية كبيرة أو فوق ما كنت تظن؛ فكافئ نفسك بأي مما تحب؛ فلذلك أثر جميل، شعور التحدي والمتعة والمكافأة بعدهما حافز جيد.

وأخيرًا: لا تحاول أبدًا جعل جانب المذاكرة يطغىٰ طغيانًا علىٰ جانب العبادة أو الترفه؛ لأن النفوس تضيق.

* القصة العربية والقصة أو القصتان الأجنبيتان غالبًا درجاتهن مضمونة.

كما هو واضح من اسمها، قصة تقرؤها مرات عديدة كلما حانت لك فرصة، لا تحاول حفظ نصّها إلَّا المواضع المشهورة فيها والـ quotations، ومع كثرة القراءة بتركيز ستحبها وتحفظها، وأكثر الحل عليها، فالمطلوب منك أن تحكيها بأسلوبك لا بنص الكتاب، لو عددتها منهجًا مطالبًا به، فغالبًا ستكرهها وتشكل لك عائقًا ولا حاجة لذلك.

جدول المذاكرة لا أستطيع استخدامه وأحس بضياع الوقت فما الحل ..؟

لست من هواة الجداول، وإن لم تكن أنت منهم فلا لزوم له، لكن المطلوب منك أن تحدد لنفسك قدرًا معينًا في وقت معينٍ ولا تتأخر عنه مهما حدث ومهما انشغلت، فاليوم -مثلًا- ستذاكر درسين في الأحياء واثنين في الفيزياء ووحدتين من اللغة الإنجليزية وهكذا، أو في خلال هذا الأسبوع سأنهي مراجعة مادتي الفيزياء واللغة العربية، لكن أن تجعل ساعة معينة لدرس معين وساعة أخرىٰ لدرس آخر وهكذا؛ فهذا يشتت ولا لزوم له، ولا تزد عن ثلاث مواد في اليوم الواحد، ولا تفصل كثيرًا بين أيام مذاكرة المادة الواحدة.

أنا متأخر في الدراسة والامتحانات علىٰ الأبواب ولست مستعدًّا! لم أوفق في الثانوية العامة!

وأنا أعرف أناسًا بدأوا الدراسة أصلًا حقيقةً ومجازًا والامتحانات علىٰ الأبواب، وكانوا من أوائل محافظاتهم، فليس الأمر عسرًا ولا مستحيلًا، وإنَّما هو توفيق من الله جل جلاله وإكثار من الدّعاء والخضوع له مع حسن الظن وتقوىٰ الله والأخذ بأسباب استجابة الدعاء وبالأسباب الدنيوية إلىٰ آخر ثانية، فممن أعرف: شابٌّ كان في ورطات كثيرة طول سنة دراسته حتىٰ ظنّ أهله أنه لن ينجح، وكان قليل المذاكرة جدًّا كثير النّوم، وقبل أيام امتحاناته وأثناءها بذل جهده وأكثر من دعاء الله، وظن فيه ما الله أهله، فكان يخرج من الاختبار وهو يعلم أنَّه أخطأ في كذا وكذا، ويثق في كرم الله ويدعوه، ويخرج من الاختبار وهو يعلم أنَّه لم يخطئ فيفرح، ويوم النتيجة وجد الله أكرمه فيما دعاه فيه وأتم له درجاته، ووكله إلىٰ نفسه طرفة عينٍ فيما فرح فيه فنقص فيه الشيء اليسير لاعتماده علىٰ إجاباته لا علىٰ الله.

بل أعرف طبيبًا جرّاحًا هو في الطاقم الجامعي، كان من أوائل الجمهورية وثاني دفعته في الكلية وهذا كلامه: «توفي أحد المقربين لي قبل امتحان الدكتوراة بثلاثة أسابيع، ولظروفٍ ما قررت تعجيل زواجي ليكون قبل امتحان الماجستير بثلاثة شهور، وقبل امتحان الباطنة بأسبوع نزّل رئيس القسم كتابًا كاملًا أكثر من (٥٠٠ صفحة) mcq وقال: إن الاختبار منه، وكله كان جديدًا وغريبًا جدًّا، ويوم نزول الكتاب أعلن رئيس القسم أنه لا شيء يلغىٰ في المنهج! وقبل امتحان الهستولوجي بيوم حصلت لي حادثة، وقبل امتحان الفيزياء في الثانوية العامة بيومين ونصف قرر صاحب البيت تكسير وتجديد شقته التي هي فوقنا مباشرة، وأيامها لم أكن أستطيع المذاكرة في وجود أي صوت بجواري، ورفض صاحب البيت تأجيل التكسير لبعيد الامتحان، ولم يكن الأمر مقتصرًا علىٰ وقت النهار؛ لأنَّ صاحب البيت الذي يسكن فيه والداي يعمل مقاولًا، فالعمال كانوا يعملون له حتىٰ منتصف الليل، حاول والدي توفير مكان آخر لي لأذاكر فيه ولكنَّه باء بالفشل، ودخلت امتحان الفيزياء دون مذاكرة ما قبل الامتحان، هذه بعض الأمثلة لظروف في الغالب خارجة عن إرادتك، هذا غير الضغوطات الأخرىٰ المعتادة وهي كثيرة كذلك .. وعادي! كله أصبح ذكريات تُحكىٰ!

وكم أستغرب ممَّن لا يصدق هذا -وأدعوه ليراجع إيمانه- إن قيل له اسعَ جهدك، والمصححون أو ووزير التعليم معك فاطمئن= فرح بما قيل له واطمأن قلبه، وإن قيل له اسأل من أمرك وأمرهم وأمر دنياكم كلها بكلمة منه= شكَّ وابتأس؛ أعساه يردّك وهو الكريم؟ وإن ردك وهو اللطيف الخبير ألرحمة منه بك أم لسوءٍ -تعالىٰ عنه، والشر ليس إليه-؟!

فقط حتىٰ لا يظن قارئ هذا الكلام أنَّ العالم ورديٌّ، أعلم أناسًا منهم من هو من أذكياء العالم وأقسم علىٰ ذلك، ومنهم من كان الأول علىٰ مدرسته

ومنهم ومنهم، ولم يوفقوا في دراستهم الثانوية، وأعلم يقينًا أنَّ ذلك ما كان إلَّا لأنَّ الله يعلم أنَّ ذلك خيرٌ لهم إن لم يكن في دنياهم، ففي أخراهم، والآخرة خيرٌ وأبقىٰ، ولحظة في الجنة تنسيك شقاء الدنيا كله، والبلاء مكفرٌ، فاصبر عليه وارضَ به؛ تزدد أجرًا وتكفيرًا لذنوبك اللاتي لا تحصيها عددًا في يوم واحد فكيف بما مضىٰ من حياتك؟ اعلم يا مسكين أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن رزقك الذي ستناله مكتوب عليك وأنت في عالم الذرّ، وأن قلقك وسخطك لا يمنع قدرك، ولا عليك أن تدخل امتحان الثانوية إلَّا كما تدخل امتحانًا دوريًّا في درس ليس يترتب عليه شيء، ثم اعلم أنَّ الثانوية ليست نهاية المطاف إن لم توفق فيها، علمتَ أنَّها لا تساوي ثمن ما تدفعه من أجلها ماديًّا ومعنويًّا، وعلمت أنَّها لا تحدد مستقبلك، بل أنت تحدده فيها، نظرك كان ضيقًا متناسبًا مع ما يحدده النظام لمرحلتك العمرية، ولكن ماذا إن نظرت بشكلٍ أوسع قليلًا؟ ماذا إن بحثت في مواقع المنح علىٰ الشبكة وما أكثرها عن منحة دراسية في أي دولة، والمنحة توفر لك في الغالب عملًا تقتات منه هناك ويكفيك في الإنفاق إضافة إلىٰ دراستك، ماذا إن دخلت كلية غير ما تمنيت وتفوقت فيها وصرت أستاذًا جامعيًّا، ماذا إن اعتمدت علىٰ مواقع الـ moocs والمساقات الإلكترونية كـ (رواق Edx Coursera وغيرهم، وفيها شهادات معتمدة من جامعات عالمية، ومنها ما هو مجاني! ماذا إن توكلت علىٰ ربك حق التوكل؛ فيرزقك كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا.

علاقتي بزميلي/زميلتي كيف يجب أن تكون؟
حب زميلتي، لا أستطيع نسيانها، أفكر فيها، أخاف أن تضيع مني إلخ ..

الأصل أن لا تتعامل إلَّا مع جنسك إلَّا إن دعت الحاجة لذلك؛ فلا بأس بقدر الحاجة مع عدم الريبة -ورقيبك الداخلي هو ما بينك وبين الله في ذلك- وعدم الخضوع بالقول منها، ولا يكلف الإنسان فوق طاقته من جمود وجه أو تبسم أو تبسط أو تخوّف، يكون علىٰ سجيته ويتقي الله ما استطاع ويذكر أن الله هو المنتقم وهو الشكّور. تلك التّي تحبّها إن كان ثمة طريق للوصل في مرضاة الله؛ فاسع فيه إمَّا أن تكلم أهلها أو تجعل أهلك يوصلون ذلك إليهم أو تتفق معهم علىٰ ارتباط بعد إنهاء الدراسة وما إلىٰ ذلك بما يناسب مجتمعك، وضع في حسبانك أنك إن رأيت غيرها في الجامعة مثلًا؛ فستعرف إن كنت تحبها حقًّا أم كان مجرد إعجاب بصورة أكملها ذهنك، فلا تتسرع في قرار كهذا أبدًا، فليس قلب الأنثىٰ كقلب الذكر يتحمّل الهجران، والصرم بعد التعلق، وإن تقطعت بك سبل الوصل فتعلق أنت بحبال النسيان، وخير ما يمحو حبًّا قديمًا حب أعظم منه كحب الله وحب الرسول ﷺ، اسمع دروسًا عن حب الله وحب نبيه وتدبر القرآن، واقرأ في السيرة النبوية. اختلاف النهار والليل يُنسي، الشغل ينسي والفراغ يقتل، ادعُ الله ألا يعلق قلبك بأحد سواه، واعلم أنَّ مشاعرك غالية؛ فلا تصرفها لمن لا يستحقها واحفظها لمن يبذل في سبيل ودك دمه. تخلص من كل ما يذكرك بها كرسائل أو هدايا، وفكّر في عيوبها الخُلُقية ومناتنها الخَلقية، وابتعد عن مواطن لقياها كدرسٍ هي فيه، وكيف أنها لا تناسبك وأن مرآة الحب عمياء. وجاهد نفسك واكسر هواها وحاذر أن تقودك هي .. كن رجلًا عليها، أهانت نفسك عليك إلىٰ أن تذلها لمن لا يرغب فيها؟ أو إلىٰ أن تضيع دنياك وأخراك بعرَض زائل؟ والأهم أن تقتنع أنك قادرٌ علىٰ النسيان وأنها مرحلة وستمر، وأن في حياتك

شغلًا وأمورًا أهم بكثير ممَّا يجول بخاطرك فتتبعه فكرك، وكم من عاشق عوفي من بلائه والتفت إلىٰ ماضيه متعجبًا من حاله بمجرد أن ابتعد عن المعشوق فزال عنه سحره.

ما أفضل طريقة للمذاكرة الجامعية (الكليات العملية بوجه خاص) ..

بالإضافة إلىٰ ما ذكرت بالأعلىٰ من طرق المذاكرة في المرحلة الثانوية والتركيز.

* توحيد مصدر للمذاكرة أيًّا كان هذا المصدر: كتاب القسم أو مذكرات أو كتاب مرجعي، يكون ممَّا يثني عليه زملاؤك الأكبر منك، ويكون شاملًا قدر الإمكان لموضوعات المنهج.

* عدم الانسياق وراء تعدد مصادر المذاكرة، يمكنك أن تسمع وتقرأ ما شئت لكن الزيادات توضع في المصدر الرئيسي، ولا تترك نفسك للانسياق وراء الزيادات التي لا داعي لها.

* فهم المنهج، سواء كان الفهم بالمحاضرات أو بالكورسات أو بالقراءة الفردية أو بالدروس المسجلة، وما يضيع وقتك دون فائدة فدعه.

* اربط المنهج بالشق العملي قدر المستطاع، إن لم تقدر ونظام الجامعة لا يسمح فلا بأس.

* حسن تنظيم الوقت أيام الامتحانات، وهي أهم فترة في السنة، والانقطاع عن عامة ما يشغلك هذه الفترة، ومحاولة تجميع المنهج كاملًا، وعدم الاعتماد علىٰ مرة واحدة فقط في قراءة المنهج؛ لأنَّ المرة الأولىٰ تتبخر، حاول التكرار مرتين وثلاثة كلما استطعت.

* حسن إدارة الوقت داخل الامتحان، وفقًا لما عندك من الإجابات والوقت المتاح، لا تجب سؤالًا إجابة تامة وتترك سؤالًا دون إجابة لضيق الوقت، كن ذكيًّا ومرنًا!

* انقطع تمامًا عن كل ما يضايقك أو يعكر عليك صفوك، كالسادة الزملاء الذين يتصلون أيام الامتحانات ليقول لك أحدهم أنه قلق وقد أنهىٰ المنهج عشر مرات، دعك من أمثاله!

* الخبرة تزداد بالتجربة، أداؤك في السنين الأولىٰ ليس كَهُو في الأخيرة، وكلما نضجت؛ سيتحسن أداؤك ما دمت تتدارك أخطاء الماضي[1].

تعبت من الامتحانات ومن مشغوليات الدراسة؛ ساعدني ..

لم تتعايش مع الامتحانات بعد؟ هي دورة حياة ثابتة، تبدأ بأنك مهموم بالمذاكرة طول العام إلا أنك لا تذاكر! قبل الامتحان بشهر يبدأ القلق، تحاول المذاكرة فلا تستطيع وترىٰ كمّيات مهولة من المعلومات، أصحابك يذكرون أنهم لا يذاكرون وأنت لا تدري صدقوا أم لا، تبدأ المذاكرة مع قناعة استحالة إنهاء المناهج، تقطع شوطًا في المذاكرة؛ فتحس أنك نسيت كل ما ذاكرت، نسيت العنوان، نسيت الباب كاملًا، لا أستطيع إجابة سؤال واحد!، أنهيتَ المذاكرة وشبح المراجعة جاثم علىٰ صدرك، كيف أراجع؟، أحاول الفهم أم أحفظ فقط لضيق الوقت؟ لا تعرف ما تذاكر وما ترجئ لعدم أهميته، اتصالات زملائك، وكلام بعضهم الخالي من أي معنًىٰ، المستفز لجميع الدفعة.

ما من طالب إلَّا يمر بهذا دوريًّا، تعوّدْ عليه، وعش حياتك وهو أساسي فيها، ليس الامتحان هو يوم القيامة، وأنت تؤدي ما عليك، والتوفيق من الله،

---

(١) للدكتور حسام حامد من وحي إجابة من موقع askfm.

ومثلك مثل الجميع، الضغط العصبي أمر اعتيادي لكن لا تحاول أن تتمادىٰ فيه وتزيده؛ كي لا ترهق، ولا تلغِهِ فتدخل الامتحان بلا مذاكرة. يومًا ما سيكون هذا كله في خزانة ذكرياتك، فتجاوز أيام الدراسة بأقل قدرٍ من الخسائر الروحية والنفسية والعضوية، واجعل لك وردًا من القرآن يغسل روحك، وعليك بالصلاة والدعاء(١).

أعاني مشاكل مادية، أستحي أن أطلب من أهلي مالًا وأنا في الجامعة، أودّ الاستقلال بأي طريقة عن أهلي ..

اعمل يا أخي، لست صغيرًا، فابحث عن عملٍ يوازي دراستك واعمل واجتهد فيه «إنَّ أفضل ما أكل الرجل من كسبه»، لا تطلب ما لا يقدر أهلك عليه واقتصد ولا تسرف، ولا تخجل من فقرك فليس عيبًا، إنَّما خلقك الله كذا كما خلق الغنيّ وكما خلق الأسود والأبيض والصحيح والمريض، قال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من فضل العلم والزهد في الدنيا= أنهما لا يؤتيهما الله إلا أهلهما ومستحقهما، ومن نقص علوِّ أحوال الدنيا من المال والصيت= أن أكثر ما يقعان في غير أهلهما، وفيمن لا يستحقهما»، وفقرك هذا ييسر عليك الحساب، وحتّىٰ لو كان أهلك ميسوري الحال؛ فاعمل واجتهد واكسب خبرات لحياتك المستقلة بعد الدراسة، وكن رجلًا أمام الأيام يفتخر أبناؤك بك وأهلك، ليس العمل عيبًا ولا الفقر، وقد عاش أكرم الخلق فقيرًا أيامًا من حياته وعمل في الرّعي والتجارة قبل قيادة دولة المسلمين، أفترىٰ نفسك أكرم منه عند الناس وعلىٰ الله؟

---

(١) للدكتور حسام حامد من وحي إجابة من موقع askfm.

انتقلت إلىٰ مدينة جامعية،

سكن جديد والأيام مملة فكيف أقضي يومي ..

أنت في نعمة لا تحسّ بها، فوقتك أنت الوحيد في الدنيا الذي تتحكم به الآن، كما أن الانتقال والسّفر من مبهجات الحياة إن استغلها المرء بشكل مثالي، بعد أن تفرغ من دروسك تمامًا، اجعل لنفسك وردًا من القرآن الكريم، اقرأ في كل المجالات التي تحبها، مارس رياضة، تعرّف علىٰ أناس جدد واقضِ معهم أوقاتًا تحددها وراعِ عاداتهم واختلافهم عن مجتمعك ووسع ثقافتك، مارس هواياتك كالشعر أو الخطّ أو الرسم أو الغناء أو أيًّا كانت، تعرّف علىٰ معالم المدينة وزر الأماكن البارزة فيها كالمطاعم والشواطئ والملاهي والمكتبات كلّها إن قدرت علىٰ ذلك، اجعل لنفسك جدولًا من العبادات لا ينضبط يومك إلا به، كالصلوات الرواتب والسواك وأعداد من التسبيح والاستغفار والصلاة علىٰ النبي وغير ذلك. تعلّم الطّبخ، اكتب في ورقة مئة أمر يجعلك سعيدًا ثم أبقِ نصفَهم فقط، الذي تفضله أكثر، ثم أضف خمسين أخرىٰ، وبذا يكون لديك (١٥٠ أمرًا) تحبهم وتريد إتمامهم أو التفوق فيهم ربما شغلوك طول سني دراستك.

هل أشارك في الأنشطة والأسر الجامعية ..؟

مؤسسة ابتداءً لمن يعاني من الفراغ ولا يجد ما يشغل وقته، فإن كنت تضيع أوقاتك فيما لا ينفع، بل ما قد يضر؛ فلا بأس أن تشترك فيها، وتنفع الناس قدر ما يمكنك علىٰ ألا يؤثر سلبًا علىٰ دراستك، ولا ينتهي لما

لا يحمد عقباه بين الجنسين، وإن لم تكن مضبوطة بقيود الشرع فلا، أما إن كنت تدير وقتك بشكل جيد وتنفع النّاس وأنت لا تشترك فيها؛ فلا معنىٰ للاشتراك، وسيضرك.

هل يجب أن أقصّ علىٰ أهلي كل ما يحدث لي ..؟

لا؛ قد كبرت، سواء كنت ذكرًا أو أنثىٰ؛ اجعل شخصيتك مستقيمة مستقلة، وليس يحرم عليك ألا تخبرهم بأي شيء لا يخصهم، ولا تكن محتاجًا إلىٰ أن تقص يومياتك علىٰ أي أحدٍ دومًا، قراراتك مسؤوليتك لا تقلق ولا تخف منها ولا تحمّلها غيرك، احكِ؛ لأنَّك تحبهم، ولأنك تريد إشراكهم في بعض الأمور وإحقاقًا لحقهم عليك، ولأنه لا مانع من إخبارهم، لا لأنك تحتاج إلىٰ ذلك! بحيث إنك إن حكيت مرة وتركت مرة لا يتعجبون ولا يغضبون ويعتادون علىٰ ذلك، وأن حياتك لا ينبغي لهم أن يديروها وفق إرادتهم قسرًا.

زملائي وأصحابي لا يكلمونني إلا لمصلحة ولا يساعدونني إن احتجت إليهم ..

طبيعيٌّ في زماننا ومنذ عهود!، احمد الله أنَّك من هؤلاء: «إنَّ لله جل جلاله عبادًا اختصهم بحوائج الناس، يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك هم الآمنون من عذاب الله»، واعمل لله ولا تنتظر أجرًا من سواه.

تعثرت دراسيًّا ومنيت بحمل مواد للدور الثاني وأيست، ما العمل ..؟

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، افعل ما تقدر عليه حتىٰ تتخلص من حملك هذا العام، لا أن يتراكم عليك للعام القادم، مذاكرتك الآن أسهل قطعًا من مذاكرتك في الدّور الأول؛ لأنك رأيت معظم هذا وفهمته وحفظته قبلُ، هذا قدرك المسجّل الذي هو خير لك، و«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر؛ فكان خيرًا له». و«ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذىٰ ولا غم حتىٰ الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه».

والرّضا مرتبة فوق الصبر، والحمد فوقهما، وعلىٰ قدر ما تأتي من المراتب يكون عطاء الكريم، والزم الدعاء فله مفعول السحر، بل السّحر له مفعول يشبه مفعول الدعاء!

عندي مشكلة العادة السرية، الأفلام الإباحية، أقع في ذنوب لا يليق بمثلي الوقوع فيها، أستحي من العودة إلىٰ الله كلما أصابتني مشكلة، وأنا علىٰ هذه الحال، هل تؤثر علىٰ دراستي، وهل يغفر الله لي ..؟

بدايةً؛ احمد الله أن وهبك قلبًا حيًّا يستشعر الذنب ويتألم له، قلبًا يرجو إرضاء ربه ويهفو أن يكون مع الله كما يحب الله منه أن يكون، قلب فيه من الإيمان والحياة ما يستلزم منك شكر ربك علىٰ نعمته، فكم من قلوب ماتت في صدور أصحابها وهم لا يشعرون، لا يؤلمهم تتابع الذنوب ولا يشعرون

لوعة البعد عن ربهم، فهنيئًا لك تلك اللوعة وذاك الألم، لو تعلم كم يحب الله منك ذلك الندم والانكسار!؛ فالله قريب من قلوب المنكسرين، ولأنين التائبين النادمين أحب إليه من زجل المسبحين المستكبرين المدلين.

استمر في جهادك لنفسك، وابتعد عن أسباب فتنتك، ولا تختلِ بنفسك قدر المستطاع، ولا تسترسل في خطرات نفسك، وأحط نفسك بالصالحين، واستفرغ طاقتك في أعمال الخير والبر والعبادات وقضاء حوائج المحتاجين، كرر التوبة والرجوع مهما تتكرر السقوط، فكما تحب أن يكرر الله لك عفوه ومغفرته كرر، قال ﷺ: «إنَّ الله لا يمل حتىٰ تملوا»، فلا يمل المغفرة لك؛ حتىٰ تمل من التوبة إليه، وإبليس قال لربه: «لأغوينهم مادامت أرواحهم في أجسادهم»، فقال الله له: «وعزتي وجلالي لأغفرن لهم ما استغفروني»، وفي الأثر «لولا أنكم تذنبون؛ لخلق الله خلقًا يذنبون يَغفر لهم».

«الباب الأعظم للشيطان ليس أن تقع في الذنب، وإنَّما أن تهجر الطاعة وتصير الذنوب لك حالًا دائمة. فالمشكلة الكبرىٰ في الذنب ليست هي نفس الذنب، ولكن أنه يتركك في حالة وهاء نفسي، يختلط فيها احتقار النفس بتخلي حفظ الله عنك= ممَّا يقود للاسترسال في ذنوب شتىٰ، ويقود للمصيبة الكبرىٰ حقًّا= وهي ترك الطاعات، والحالة ليست لازمة، والزلل ملازم لكل بني آدم، اصنع لك مسارًا ثابتًا للطاعة، لا يتأثر بوقوعك في الذنب، واحرص علىٰ عدم الاسترسال في ذنوب أخرىٰ حتىٰ ولو ابتليت بذنب أصررت عليه لا تطاوعك نفسك علىٰ تركه، فلا تنتقل من خانة إلىٰ خانة، من خانة الإذناب بلا إصرار إلىٰ الإذناب بإصرار، ومن الإذناب بإصرار إلىٰ الاسترسال في الصغائر، ومن الاسترسال في الصغائر إلىٰ الوقوع في كبيرة، ومن الوقوع في كبيرة إلىٰ أن لا تبالي أي محارم الله تنتهك حتىٰ يُختم لك بالكفر والعياذ بالله. ثم إني أحذرك أن تكون ممَّن يستبشع ما يستبشعه الناس من ذنوب الشهوة، ثم إن لسانه ليسترسل في أعراض الناس، وإن قلبه ليحمل الضغائن

والأحقاد وتعشش فيه سموم القلوب»[١].

الاستمناء في دين الله إما من الصغائر أو مباح إن ألجأتك الشهوة إليه، وهو خيرٌ من مشاهدة أفلام الخنا التي تؤثر سلبًا علىٰ القدرة الذهنية للإنسان وعلىٰ نفسيته، بخلاف الاستمناء فلا ضرر له علميًّا، والصغائر يكفرها اجتناب الكبائر، والإكثار من الحسنات، فلا فرق بينه وبين أيّ صغيرة يرتكبُها أحدُهم كلّ يوم، ولا يجدُ في نفسه من السّوء ما يجده في الاستمناء، وأنا هنا لا أهوّن من شأن الصغائر، ولا أدعو إليها أصلًا، بل أنزلها منزلتها التي أرادها الله لها، فهو جل جلاله الذي قسّم المعاصي إلىٰ كبائر وصغائر، وجعل لكلّ قسم حكمه، ولن يكون أحدٌ أكثر غيرة علىٰ شرعه منه جلّ وتقدّس! وإنَّما ضخَّم المسألةَ الوعاظُ وأخذوا يصرخون ويبكون علىٰ ضياع العفّة، وأشباه هذا الكلام الذي ملؤوا به دروسهم، وليس لهم فيه سلف، حتىٰ أصبح الشاب إذا وقع في هذه العادة يتمنّىٰ أن لو تنخسف به الأرض؛ لما يرىٰ من عظيم الجرم الذي ارتكبه، ولم يكتف هؤلاء الشيوخ بالقول علىٰ الله جل جلاله بغير علم، بل تقوّلوا علىٰ علم الطبّ أيضًا، فاخترعوا أضرارًا لها. أكثر الشباب يمارسون العادة السريّة، وهذا هو الأصل فيهم، هذه حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكرها في هذا الزّمان إلا أن يكون كاذبًا، ولا فرق بين متديّن أو غيره، فهذا تفريق باهت يعتبِر الشباب المتديّن حجارة صمّاء، ولكن الفرق الحقيقي أنّ المتديّن يخفي وغيره يعلِن. العرب كانت تعرف هذه العادة، وعنها تحدّث بعض الصّحابة الكرام والتابعين، وتأتي مناسبتها غالبًا في حال الحرب؛ فقد كان الشّباب يفعلونها إذا خرجوا للجهاد، وابتعدوا عن نسائهم، فلك أن تتخيّل أنَّها كانت شائعة معروفة في هذا الزّمن الذي كان الزّواج فيه واتّخاذ الإماء أكثر وفرة من الماء، ولا يكاد الواحد منهم يصل سنّ البلوغ

(١) من مقال «العنب» لأحمد سالم، منشور علىٰ مدونات الجزيرة.

حتىٰ يكون متزوّجًا بامرأة وامرأتين، فكيف لو كانوا في زماننا الذي من العبث أن أتكلّم عن حجم الفتن فيه!

كم من شاب مرض نفسيًّا بسبب ظنّه أنه يرتكب كبيرة من الكبائر، وكم من شاب أفرط فيها حتىٰ استولتْ علىٰ عقله لما يئس من تركها، وكم من شاب ترك التّوبة لمّا أدمنها وظنّ بنفسه السّوء، فأدمن المواقع الإباحيّة، ومقارفة المحرّمات، ومصاحبة الفتيات، فلم تفلح معه المواعظ في شيء، بل قالوا: كلّها ذنوب ولا فرق فقد ضعْنا، ولن يغفر الله لنا، وكم من شابّ لا يشعر بوجَع في قلبه عندما يخرِج الصّلاة عن وقتها -وهذا من أكبر الكبائر-، ويكاد يحترق قلبُه إذا استمنىٰ.

أخي الشاب الكريم السّاعي إلىٰ إرضاء ربّه الرّحيم، في مسألة خلافية كهذه، عليك بسؤال مَن تثق في دينه وعلمه: فإن أفتاك بالحرْمة= فاعتقدْ تحريمها، وإن غلبتْك نفسُك فوقعتَ فيها، فلا تسوّغْها لنفسك، بل ابقَ علىٰ القول بالتّحريم، لكن بادر بالتّوبة دون أن تيأس، أو يؤثّر ذلك علىٰ نفسيّتك وعبادتك، ومن أحسن ما تفعله في هذه الحال؛ أن تتبعها بعمل صالح، فالحسنات يذهبن السّيئات، وأتبع السّيئة الحسنة تمحها، وكلّما ضعفتَ عُدْ مرّة أخرىٰ، وهكذا؛ فإنَّك إن عجزتَ عن المقاومة لن تعجز عن التوبة، وصالح العمل، ولا تقل: لا فائدة من التّوبة، فأنا لا أكاد أبتعد عن الذنب حتىٰ أعود عليه، فهذا مسلك من مسالك الشيطان الرّجيم، ليبعدك عن التّوبة، وينحرف بك نحو المحرّمات!

وإن أفتاك بالإباحة= فإيّاك إيّاك أن تأتي معها بمحرّم آخر، فلا تشاهد صورًا عارية، ولا فلمًا خليعًا، ولا قصّة مهيّجة لمشاعرك، وغضّ بصرك ما استطعتَ، فإنّك إن لم تفعل أفسدتَ عليك قلبك، ونزعتَ منه الخشية من الله جل جلاله. واعلم أنّ الاستمناء أهون ألف مرّة من نظرك إلىٰ ما يحرُم عليك، ولا تكثرْ منها، حتىٰ لا تسيطر علىٰ عقلك، وتدمنها، وتصير أسيرًا لها، فتخرِج صلاتك عن وقتها، وتبطِل صومَك، وتصاب بأضرار عضويّة، بل

حاول تنظيمها ما استطعتَ، وأن تجعلها عند الحاجة إليها فقط، فلا تستدْعِها ابتداء.

أعظم ذنب هو الكفر، ومع ذلك قال الله للكفار: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ **[الأنفال:٣٨]**، ورغبهم في التوبة وهم كفار فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **[المائدة:٧٤]**، فأي ذنب يتوب الإنسان منه مهما كان عظيمًا= فالله يتوب عليه ويغفر له، لكن يتوب توبة صادقة؛ فيبدل الله سيئاته حسنات! قال جل جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ **[الفرقان: ٦٨-٦٩]** عقوبة عظيمة، فماذا لو تاب؟ قال جل جلاله بعدها: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **[الفرقان: ٧٠]**، وقال لمرتكبي الكبائر: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ **[الزمر: ٥٣]**، فلا تؤخر التوبة فالشيطان يرجو أن تموت علىٰ هذه الحال، ولا تقس الله بمقاييسنا؛ فتخجل من العودة في الشدة، المطلوب أن تستمر بعد رجوعك ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ **[الأنعام: ٤٣]** يزين لك الشيطان البقاء وعدم العودة في الشدة، ولا عليك من نظرة الناس لك وحسن ظنهم فيك، فهذا ستر الله عليك، فاحمد الله عليه(١).

(١) أطلنا في هذا؛ لأهميته بالنسبة للشاب في هذه المرحلة العمرية، وجلّه نقل من شيوخ فضلاء.



البحث عن كوكب مناسب ..

عن تغيير مجال الدراسة والعمل

بسام سالم(*)

منذ عامين ونصف تحديدًا انتهت علاقتي بالوظيفة بمعناها التقليدي، ولأكون دقيقًا فلم تكن لي علاقة بالوظيفة والعمل بمعنييهما التقليديين أبدًا، وربما لهذا الجانب حديث آخر.

مهندس متقاعد من قبل التخرج، وتائه بَحَث عن الاحتراف حتىٰ احترف البحث! تكسّبتُ من وظائف لم أكن أتخيل وجود كل منها قبلها بشهور، وتعلمت أشياء ظن البعض أنَّها منوطة بالشهادات، وظن آخرون أنَّها لا تُعلّم أصلا، لكنِّي ظللت مريضًا بذات الجوع إلىٰ مزيد لم أكتفِ منه إلىٰ يومنا هذا.

المهم أنَّني في مثل هذا اليوم تقريبًا كنت في بيتي أتمتع ببعض الوقت -أخيرًا- لتخطيط المرحلة الجديدة، كنت قد عرفتُ نفسي بما يكفي لأحاول توجيهها لِمَا تتميز فيه، وطورتها بما يكفي لأختار بين الطرق الجديدة، والحمد لله علىٰ حيرةٍ بين نِعم.

لا ينضج الرجال بتتابع الأعوام واشتعال المشيب؛ ينضجون بخوض غمار الحياة والتعلم بكل خطوة، ينضجون باختيارهم وإن قصرت الآجال.

(*) مصري، درس الهندسة البحرية، وانشغل بالبحث العلمي، ثم انتقل عبر وظائف ومجالات مختلفة حتىٰ استقر كمدير واستشاري للإدارة والتسويق، مهتم باللغة والتسويق وعلاقتهما بقيام الأمة الإسلامية.

* بداية دعائية مكررة:

إن كنت من هؤلاء الذين ينامون كل يوم علىٰ همّ الاستيقاظ لعملٍ يكرهونه، فتراهم يهربون منه هروبًا عبثيًّا بالسهر ويصحون متأخرين متعبين كارهين لهول حياتهم كل صباح، جنتُهم وجحيمُهم في نهاية أسبوع العمل وأوله، وإذا كنت من أولئك الذين يعانون من مللٍ مُضنٍ لا فكاك منه رغم فرح الناس بنجاحك الظاهر، إليك كتبتُ هذا المقال.

أمَّا إن كنت ممَّن قرأ فقرتي السابقة فخاف أن تكون وصفًا لمستقبله خلال سنوات قليلة، أو كنتَ ممَّن لديهم موهبة أو هواية أو حلم بوظيفة ما وتخشىٰ أن تعيش عمرك حبيسًا عنها، وأخيرًا إن كان كابوسك أن تعيش كمجموعة سطور في شهادات الميلاد والنجاح والتعيين والزواج والوفاة بدون أي بصمة حقيقية أو تغيير إيجابيّ لبناء وقضية تحيا بهما ولهما، فإليك -بفتح الكاف وكسرها- هذا المقال أكتب، مَجدُولًا من تجارب شخصية فشلت فيها بعدد ما نجحت، وتعلمت منها بالطريقة الأصعب؛ لذا أدعوكم أن تتعلموا برفاهية توفير سنين من أعماركم أنفقتُها مضطرًّا لأكتب ما ستقرؤون.

* منهجية المقال غير المنهجي:

بما أنَّ هذا المقال مكتوب كنصيحة من أوله لآخره؛ فقد آثرت كتابته كما أحب أن أُجيب من يستنصحني في حياتي اليومية: بمزيج غير متجانس -لكنَّه عقلاني مترابط فيما أظن- من التجارب الحياتية أحكيها كما هي، والمعلومات العلمية التي أفادتني أو عرفتها -غالبًا- بعد فوات أوانها، وتحليلي لهذين المُكوّنين، وقد شرحت منهجية المقال كيلا يُختزل في نظريات بعيدة عن التطبيق أو قصص شخصية بعيدة عن تكوين قاعدة يستفيد بها كل قارئ.

علىٰ قدر ما أكره رؤية قصصي الشخصية ذات طعم الفشل وبعض رائحة النجاح، وقدر ما لا يُفضّل لكاتب سويِّ النفس أن يذكر نفسه ويستخدم ضمير

المتكلم بهذه الكمية، خاصة وهو يدّعي النصح؛ إلَّا أنِّي فقط أدعوكم أن تتخيلوا هذا المقال كفيلم روائي وثائقي كُتب في أوله «مبني علىٰ قصة حقيقية، دعك من كل هذا واستفد!».

* أسطورة (الشغف)، والشغف بالأساطير:

موضوع (الشغف) الذي صدعتنا به كتابات المشاهير علىٰ الفيسبوك، هل هو حقيقيّ فعلًا؟ أم إنَّه ظاهرة Trend مثله مثل بوستات محبي القهوة، ثم كارهي القهوة، ثم محبي الشاي باللبن، وتلك السلسلة السخيفة من متسولي الاهتمام ومستغلي المواضيع المشتركة والشائعة؟

وددتُ لو أمكنني موافقة هذه الظاهرة تمامًا لأنضم إلىٰ ركب الحكماء الداعين لها، أو حتىٰ التظاهر بعدم وجودها لأتحدىٰ الظاهرة (الترنيد) وأجنيَ مزيدًا من المتابعين، لكن اعذروني إن كانت أولىٰ نصائح المقال: لا سؤال -تقريبًا- في هذه الحياة الدنيا قطعيّ الإجابة، اللهم إلا ما قطع به الوحي.

الشغف حقيقة لمن جعله حقيقة، كثيرون قد يعيشون حياتهم كلها دون أدنىٰ تساؤل عن سبب معيشتهم، بدون أي اعتراض عن سبب اختيار أهلهم مجال دراستهم والذي يتبعه -غالبًا- مجال العمل، ويعيشون عمرهم كله مكتفين بأداء واجباتهم راضين عما فُرض عليهم مُتبلّغين في هذا الطريق القفر بلحظات من سعادة الأسرة والصداقة وأوهام الحكومات لشعوبها بوجوب التعب والكد، بغض النظر عن غياب التعليم والتوجيه والدعم وسوق العمل المحترم.

لكنَّك لست كذلك! أتوقع -كرجل تسويق- أنَّك -غالبًا- شاب أو فتاة ما بين العقد الثاني إلىٰ الرابع علىٰ الأكثر، وأغلب هؤلاء يسميهم أهل التسويق «جيل (لماذا) Why Generation» كوصف دقيق لأهم سمة تجمع غالب تلك الفئة العمرية؛ التساؤل عن كل شيء، والسعي وراء هدف، والتوقف إن غاب الهدف، والفشل -أو علىٰ الأقل الملل- إن لم يُعرف الهدف من الحياة.

ولأنَّك لست كذلك؛ وجب عليك أن تفهم أن سبب مشاكل الملل والتخبط والتيه والإرهاق النفسي وصعوبة التفوق التي تشعر بها يكمن أولًا في عدم وجودك بمكانك الصحيح: بمجال دراستك المناسب، ومجال عملك الذي يلائمك، أيُّ أسبابٍ للفشل دون ذلك ستكون بعدها في الكسل والتقصير أو الابتلاء لا غير، ولا يُضيع ربُّك أجر من أحسن عملًا، لكنَّ إحسان العمل يبدأ باختيار ما يمكنك إحسانه دون غيرك.

إن لم تُجبك ثرثرتي النظرية السابقة، فدعني أجيبك إذن بمشهدين من حياتي: الأول مشهد أمي الأرملة التي أنهكتها الحياة وهي ترجع يوميًّا من عملها كمديرة إدارة تعليمية، تعود مجهدة الروح أكثر بكثير من إجهاد الجسد، غاضبة دون احتكاك وكأنها تشرح المثل المصري «تعارك ذباب وجهها»، لا يمكنها تخيل مزيد من المثابرة في التعامل مع أسرتها بعدما أنهت كل وقودها النفسيّ لتوفر لهم هم ما يأكلونه، ومن ثَمَّ لا يمكنها فهمهم لو تعجبوا من عجزها عن تحمل أخطائهم والتغاضي عن توافه حيواتهم الصغيرة.

المشهد الثاني هو ما كتبته من بضعة أشهر لأتعلم ممَّا يحدث لي: «من عشر سنين أو أكتر .. نفس موظف الدور -حسن- اللي كان بيبلغني بنتيجة أعمال السنة (أقرب من أو تساوي صفر) عشان غياباتي وتطنيشي للكلية علىٰ حساب المجالات اللي كنت باكتشفها بطرق مختلفة، هو نفسه اللي بلغنا انهاردة بانتهاء وقت محاضرتي في نفس الكلية عن المجال اللي لقيت نفسي فيه».

لو قارنّا المشهدين -وليس الشخصين؛ لأنَّ أمي لا تُقارن بأحد مهما اجتهد- فربما ندرك أنَّ الفارق الوحيد؛ هو اختيار ما نحب فعله، كانت أمي مجبرة بضغط المجتمع علىٰ ترك اختيار الطب وقبول اختيار التدريس، وكانت أمي عظيمةً؛ فاختارت الترقي إلىٰ الإدارة ليساعدها دخلها أكثر علىٰ نمو أسرتها الصغيرة، لكنها دفعت ثمن هذا نفسيًّا وجسديًّا بصورة قاتلة تجبرني كل يوم علىٰ الشفقة عليها والتسليم بأنَّها أدَّت أكثر ممَّا نستحقُ منها بكثير.

المشهد الثاني ما هو إلَّا مقارنة دارت بيني وبين ذكرياتي عن شابٍّ كان أكثر زملائه الطلاب تثبيطًا، لا يزور كلّيته فضلًا عن مذاكرة موادها، وتحوّل نفس الشخص فجأة إلىٰ شخص آخر يعمل ستة أيام بالأسبوع اثنتي عشرة ساعة يوميًّا ليكتسب الخبرة، ثم يحضر تدريبات متواصلة في يوم الإجازة لاثنتي عشرة ساعة أخرىٰ لا تنقطع إلا للصلاة، لم يختلف أي شيء بين الشخص الأول والثاني إلَّا الاقتراب ممَّا يريد فعله في الحياة، هذا هو الشغف، وتلك فائدته العملية باختصار.

هذان المثالان الشخصيان، أحصيتُ تكرارهما عشرات المرات فيمن حولي لأتأكد بالتحليل كون الأمر قاعدة لا قصة شخصية متفردة بذاتها: عملك بما خلقتَ له يضمن لك تفوقًا مبهرًا (لعملك ما يسهل عليك)، ومتعة جمّة (لعملك ما تحب)، وصبرًا علىٰ الاستمرار (لتحملك في سبيل ما تختاره)، وتصالحًا مع الذات؛ (لأنَّ ما اخترته يحقق لك التوازن بين احتياجات نفسك أو أغلبها)، وهذه النقطة الأخيرة سيأتي ذكرها في الجزء التالي، لكن لنتذكر الآن القاعدة النبوية إن جاز تعميمها «كلٌّ ميسّرٌ لما خُلق له».

في عام (١٩٣٣م) بدأ الكاتب الأمريكي «جيري سيجل» Jerry Siegel بمساعدة رسوم المراهق الموهوب «جو شوستر» Joe Shuster قصة طفل عادي جدًّا من كوكب منهار، أرسله أهله إلىٰ كوكب آخر لينجو بحياته، فكان من حظه الرائع -الذي اختلقه الكاتب- أنَّه وصل لكوكب أزرق مختلف في طبيعته بحيث أصبح لبطلنا فيه قدرات خارقة، وتحول من مواطن طبيعي -قد ينتهي به الأمر في كوكبه كموظف عادي- إلىٰ أن أصبح في كوكبنا ما نعرفه الآن بـ(سوبر مان)، والفارق الوحيد أنه قد وجد الكوكب المناسب الذي تتحول فيه صفاته الطبيعية إلىٰ قدرات خارقة، أظنك الآن فهمت عنوان المقال ولماذا كان اختياره.

* وهم المجال الأوحد:

وصولك لتلك النقطة من المقال؛ تعني أنك علمت أهمية اختيار المجال الأنسب في حياتك وحياة من حولك، أو هكذا أرجو، الآن يجب أن نؤسس لمعنىٰ آخر يقع في فخه الكثير من الباحثين عن غرض حياتهم: هل هناك مجال واحد مناسب لكل منا؟ الأمر أشبه ما يكون بسؤال آخر اشتهر في مجال مختلف من البحث عن التوازن: هل لكل منا رفيق حياة واحد نحبه ويحبنا ونرتاح معه ويسكن إلينا؟

قدر ما أعلم أنَّ الاختلاف في إجابة مثل هذا السؤال كبير؛ إلَّا أنَّني مقتنع تمامًا أن لكل منا (نوعًا)، أو أكثر من رفاق الحياة المحتملين (بمعنيي الصداقة والزواج) وأن هذا النوع هو ما يضمن التوافق والسكينة والتكامل بيننا وبين أولئك الرفاق، نعم لا أنكر أن في قدر الله لنا أناسًا سنقابلهم أحيانًا بأعجب تصاريف القدر؛ فنألفهم ونصحبهم ونحبهم، لكني كذلك أقول إن فكرة حصر احتمالية الصداقة والحب في أولئك القلة الصغيرة التي قابلناها؛ هي فكرة مضحكة تم الترويج لها لرومانسيتها الشديدة ليس إلَّا، هناك مَن يناسبك من الناس في كل بلد وكل زمن، لكن الله رزقك منهم هؤلاء الذين وجدتهم وستجدهم، وله التدبير جل جلاله.

لماذا دخلنا في السؤال السابق؟ لأنَّ إجابته -وهو معتاد أكثر من سؤال مجال العمل- هي إجابة سؤالنا المهم: هل لي مجال واحد لن أتفوق وأرتاح وأبدع إلا فيه؟ الإجابة كسابقتها: بل لك كثير من المجالات المناسبة، يرتبط تناسبها معك بعوامل عدة نذكرها حالًا، وبطبيعة ظروفك وتصاريف قدرك ستقابل منها مجالًا أو أكثر إن كنت محظوظًا بالقدر الكافي.

هذا المعنىٰ شديد الأهمية في البحث عن مجالك المناسب في الحياة؛ كيلا يتحول الأمر إلىٰ سعي بائس للتخصص في مجال واحد مهما دفعتك ظروفك واحتياجاتك بعيدًا عنه، ويتذرع أصحاب هذا السعي البائس -غالبًا-

أنَّه لا مجال له غيرهم، لذا وجب التنبيه: لديك دائمًا فرصة لتعرف نفسك أكثر، ثم تبني عليها احتمالات أكثر تلائمك وتنفعك وتنفع بك، فلا تحجر(ي) واسعًا أرجوك.

سواء وافقت معي أو رفضت فكرة المجالات المتاحة المتعددة، فمن المؤكد أن المقال لم يفدك بعد بكيفية معرفة تلك المجالات، (أو ذلك المجال الأوحد حتىٰ)، دعوني -إذن- أقدم تلك الخطوة بمبدأ أصيل في فهم ذاتك وتوازنها.

* إيكيجاي!

عام (١٩٩٠م) نشر الصحفي (كوباياشي تسوكاسا) مقالًا في الجريدة اليابانية الاقتصادية المرموقة (نيهون كيزاي شيمبون)[١] يتحدَّث عن مبدأ عاش به مواطنو اليابان قرونًا متواصلة، وأوصت الجريدة بإحياء هذا المبدأ في الحياة؛ للوصول الحقيقي للتوازن والسعادة، ثم توالت الدراسات العلمية عن هذا المبدأ وفائدته العميقة لكل شخص يطبقه، ولكن هلا نظرنا إليه قبل أن نخوض فيما يحققه لنا؟

هذا المبدأ -(مبدأ إيكي جاي)- والذي قد يترجمه لك ياباني متحمِّس كـ«سبب القيام من النوم كل صباح»، ويترجمه آخر حرفيًّا كـ«سبب الوجود» يتلخص في محاولة مستمرة وعميقة لفهم الذات والجمع بين كل مطالبها كلها في مشروع أو عمل واحد تجعله هدف حياتك وقوامها اليومي.

الفكر ببساطة يا سادة؛ أن أي مجال أو مشروع يُرضي هواياتك، وتتقن فعله، وتتكسب منه، وتخدم به قضية تحبها: هو ما سيحقق لك التوازن الذي تبحث(ين) عنه في حياتك.

(1) Kobayashi Tsukasa (04 04 1990). »Ikigai Jibun no kanosei kaikasaserukatei«. Nihon KeizaiShinbun. Tokyo.]Translation "Ikijai the process of" allowing the selfs possibilities to blossom].

وأرجوك لا تتخيل أنَّ ما نتكلم عنه هو ضرب من ضروب (التنمية البشرية) التي دهسها الإسفاف والمبالغات غير العلمية دهسًا. وقد يفيدك هنا قراءة ورقة بحثية طبية نشرها الباحث الياباني ريشيروا إيشيدا Riichiro Ishida بجامعة نيجاتا باليابان[١]، الورقة تقرر أنَّ هذه الطريقة عملية فسيولوجية طبيعية جدًّا ينشط بها الفص الأمامي للمخ، وهي طريقة طبيعية للتماشي مع ضغوط الحياة وقلقها «وهو ما أُثبت في بحث آخر كسبب من أهم أسباب طول عمر سكان إقليم (أوكيناوا) Okinawa باليابان»[٢].

الجميل أنَّ هذا المبدأ الياباني العتيق ليس مفيدًا فحسب؛ لتفهم فائدة التوازن في الحياة واختيار مشروع مناسب، بل ويمكنك استخدامه كأول أداة أنصحك بها لتجد عدة احتمالات لما يصلح أن يكون مشروع حياتك ونقطة اتزانك، فتعالوا نهرب من كل هذه الثرثرة بتطبيق عملي يجد به كل منكم منطقة اتزان حياته.

(١) أحضر أربع ورقات، اكتب في الأولىٰ قائمة بكل ما تحب فعله، سواء أحسسته تافهًا أو مهمًّا، اكتبهم بحيث تفصل كلًّا منهم عن الآخر، وإن أردت أمثلتي الشخصيَّة فمنها: قراءة الأدب، كتابة الشعر، بعض ألعاب الحاسب، الغناء وحدي، حل المشكلات، المناقشات ذات الهدف، المرونة الوقتية، التغيير في حياة من حولي، وهكذا إلىٰ آخر قائمتي الشخصية باختلاف جدية كل عنصر.

(٢) الآن اكتب في ورقتك الثانية قائمة بما تتقن فعله سواء تفه أم أهم، وسواء تبقىٰ علىٰ تمام إتقانك بعض التدريب أو الدراسة أم لا، ولا تهتم إن

(1) Ishida Riichiro (November 2011). »Purpose in life (Ikijai) a frontal Lobe Function Is a Natural and Mentally Healthy Way to Cope with Stress«. Division of Clinical Preventive Medicine Graduate School of Medical and Dental Sciences Niigata University Niigata Japan.

(2) WWW.Ted.comtalksdanbuettnerhowtolivetobe100

تكررت بعض العناصر بين هذه الورقة وسابقتها، من أمثلتي لتلك القائمة: حل المشكلات، التصميم الهندسي، كتابة الشعر، الغناء، البحث، التعليم، التسويق، وهكذا.

(٣) في الثالثة، قائمة بما يمكنك التكسّب منه الآن أو ببعض التدريب سواء أعجبك أم لا، وسواء أتقنته أن أمكنتك الظروف من التربّح منه بلا إتقان (معضلة أخلاقية موجودة)، ولا مشكلة من تكرار بعض العناصر الموجودة سابقًا مادامت تلائم القائمة، (بل إنَّ وجود بعض التكرار هو الطبيعي)، أمثلة من قائمتي: الهندسة البحرية (بحكم الدراسة الجامعية)، التسويق، التصميم الجرافيكي، الإخراج، الغناء! المبيعات، وهكذا.

لاحظ هنا أن ورقتك الثالثة قد لا تحتوي علىٰ مجالك المرغوب، هي مجرد قائمة بما يمكنك أن تربح منه أيًّا كان.

(٤) في آخر ورقة لك افرد قائمة بالقضايا التي ترىٰ أن العالم يحتاجها، سواء كنت أنت جزءًا من خدمة هذه القضايا أم لا، بعض من قائمتي: الوعي الثقافي، اللغة العربية، التربية والتعليم، الثقافة المهنية، الوعي الديني، وهكذا.

تذكر أن تستعين في بناء تلك القوائم بكل ما تقدر عليه لاكتشاف نفسك، وأهم مصادرك نفسك ذاتها، ثم من يعرفونك جيدًا.

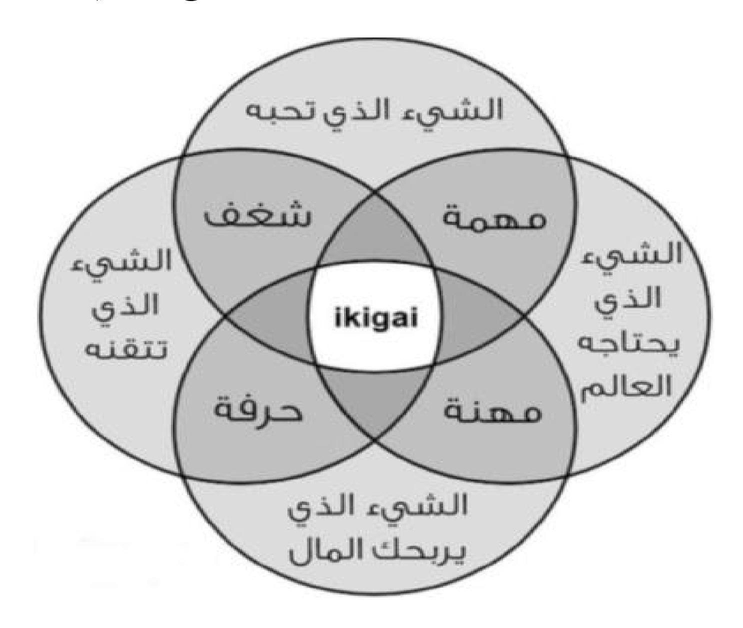
الآن أحضر ورقة أخرىٰ (لا تنظر إليّ هكذا!)، وارسم عليها أربعة دوائر متساوية الحجم متقاطعة بانتظام كما ترىٰ بالرسم:



* الآن املأ كل دائرة بورقة من أوراقك الأربعة، بحيث تتواجد النقاط المكررة في أماكن التقاطع المكررة في أماكن التقاطع بين كل دائرة وصاحباتها.

رائع! .. رسمت الآن حياتك؛ لديك دائرة بهواياتك التي تحب، وأخرىٰ بمواهبك وقدراتك، وثالثة بمصادر دخلك المحتملة، ورابعة بالقضايا التي تهتم بها، كل ما تبقىٰ عليك فعله أن تعصر مخك في إيجاد نقاط التقاطع بين تلك الدوائر، قد تكون تلك النقاط واضحة (كتكرار عنصر «حل المشكلات» عندي في قائمتي الهوايات والقدرات)، وقد تحتاج منك مزيدًا من التفكير لمزج نقطتين من دائرتين مختلفتين؛ لإخراج نقطة تقاطع (كالمزج عندي بين «التغيير فيمن حولي»، و«التعليم» لإيجاد نقطة تقاطع جديدة بين دائرتي القدرات والحب في نقطة قد نسميها «التدريب والرعاية» Mentorship وكلما كانت نقاط التقاطع بين عدد أكبر من الدوائر كلما اقتربنا من غايتنا: مشاريع الحياة.

من المفترض أن تبدو لك الأداة بعد عصارة المخ كالآتي:



قام مدون ما -أظنه يدعىٰ فهد- بترجمة الرسم كما ترون، وإن كنت لا أتفق مع دقة الترجمة؛ إلَّا أنَّ الأهم هنا فهم كل منطقة تقاطع وأثرها علىٰ حياتك بغض النظر عن اسمها، والأمر لن يخرج عمَّا يلي:

* إن كان ما ستفعله أغلب حياتك -وأغلب حياتك يكون بين الدراسة والعمل في معظم الأحيان- في أحد الدوائر الأربعة، لكنَّه لا يتقاطع مع أي دائرة أخرىٰ (المناطق الأربعة فاتحة اللون)؛ فإنَّ إحساسك بعدم الاتزان سيكون في أشده؛ إمَّا أن تختار دائرة الحب فقط؛ فتعيش مشغولًا بما تحب، لا تملك إتقانًا له ولا مالًا تعيش عليه ولا هدفًا تخدمه، (وهي العبثية التي يربينا مجتمعنا عليها حتىٰ الاصطدام بمسؤوليات العمل والأسرة!)، وإمَّا أن تختار ما تتقنه ولا تحبه ولا يربحك أو يخدم هدفًا، (ولم أرَ أحدًا في حياتي يختار هذا المسار)، أو أن تختار ما يحتاجه العالم فقط؛ فتعيش درويشًا بلا إنفاق، ضعيفًا بلا إتقان، ملولًا بلا متعة حقيقية غير تسرية نفسك بعلو هدفك، (وهؤلاء رأيتهم فيمن يتقلَّدون مهامًا لا علاقة لهم بها في الكيانات

الدعوية التطوعية للأسف)، أو أن تختار دائرة الإتقان فحسب؛ فتعمل فيما يربحك المال ولا تتقنه أو تحبه أو يخدم هدفًا، (وهو اختيار من يعمل بشهادته أو عمل أبيه بلا أي علاقة بشخصه مثلًا)، وهذه كلها اختيارات لا أنصح بها أبدًا لمن أراد حياة متزنة بأي المقاييس.

* إن كان أغلب حياتك ستقضيه في تقاطع دائرتين معًا (الأربع مناطق متوسطة الدكانة)؛ فأمامك أن تجمع ما تحب بما تتقن في صورة هواية متقنة وإن لم تملك منها مالًا أو تخدم هدفًا، (وهي منطقة مساعدة لمن اختار خدمة قضية والربح فقط)، أو أن تجمع ما تحبه بما يحتاجه العالم (وهي منطقة مساعدة كذلك لمن له عمل يربح منه ويتقنه)، أو أن تجمع ما تتقنه بما تربح منه، (وهي متلازمة يعاني منها ما يقارب نصف شعوبنا من الموظفين التقليديين التائهين في نجاح ظاهر، أو أن تجمع بين ما تتربح منه ويخدم هدفًا، (وهو ما يعاني منه النصف الآخر تقريبًا من شعوبنا كمدرس أو طبيب لا يتقن عمله) وهذا بكل صراحة؛ أكثر اختيار يعاني من أزمة أخلاقية وشرعية قد تصل بصاحبها إلىٰ كسب المال الحرام، ولا يتفوق عليه خطأ إلَّا سابقه الذي يعمل بلا إتقان أو قضية حتىٰ.

* قد يكون اختيارك أكثر تطورًا (ما تراه في المناطق الأربعة الداكنة تمامًا) مثل جمعك ما تحب بما تتقن بخدمة قضية، (وإن كُفيت ماديًّا فستبلغ شأنًا عظيمًا، هل تذكر قول أم سفيان الثوري له: «يا بني، اطلب العلم وأنا أكفيك من مغزلي»، أو اكتفاء ابن المبارك من التجارة والتفرغ لعلمه)، وقد تختار أن تجمع بمشروعك الحب والقضية والتربح (تذكر هنا مرة أخرىٰ أنك ستكسب مالك بصعوبة أو بتقصير فيه، ولن تحس بإنجاز حقيقي لعدم تفوقك في فنك)، والثالثة أن تخدم قضية بصورة ربحية بما تتقنه (وهذه لا عيب فيها إلا الملل، ومثلها الشخصي عندي كان في مجال الهندسة)، والأخيرة أن تختار مجالًا تتقنه وتحبه وتكسب منه، وهي الأقرب لرضاك إلا إذا شغلتك قضية ما ولم تستطع خدمتها بوقت فراغك أو بفائض مواردك.

* لم تتبقَّ إلَّا المساحة البيضاء الأخيرة، وهي أن تحدد مجالًا أو أكثر يشبعون الاحتياجات الأربعة معًا، وهي الإيكي جاي ذاتها! وكلما اقتربت من معرفة نفسك بسؤالها وسؤال من حولك وتجربة مجالات اهتمامك واحدًا بعد الآخر؛ كلما بدأت تملأ هذه المنطقة بمجالات عمرك المقترحة بأيدٍ واثقة، هذا ما فعلتُ وما زلت أفعل.

علامات علىٰ الطريق:

الأداة السابقة، كانت لبيان أهمية توازن حياتك، ثم للسعي المستمر في سبيل معرفة مشروع حياتك الذي تحيا له وبه في سعادة من جميع المستويات، دعني الآن أجمع سريعًا باقي الأدوات والطرق التي ستساعدك كثيرًا في طريقك لتغيير مجالك أو اختياره من الأساس.

* الاختبارات الشخصيَّة من أسرع وأسهل الطرق لزيادة معرفة نفسك بنفسك، هذا إن اخترت اختبارات معتمدة علميًّا وأجبتها بدقة وصراحة، أهم تلك الاختبارات بالنسبة لي هو MyersBriggs Type Indicator والذي تختصره MBTI، وهي أداة تطورت لما يقارب المائة عام حتىٰ الآن[١]، ما عليك فعله أن تجتاز اختبارًا (يوجد منه نسخ مجانية)[٢] ينبئك عن نوعية شخصيتك بميولها وميزاتها وعيوبها وأثر ذلك علىٰ جوانب حياتك، التي من أهمها تحديد مجال دراستك وعملك.

* الاختبار الآخر الذي قد أنصح به؛ هو أي اختبار قائم علىٰ نظرية هولاند[٣] Hollands theory المعتمدة أيضًا لاختبار ومعرفة الشخصيات ومناسبة بيئات الدراسة والعمل المختلفة لها حسب ستة أنوع من الميول أو الشخصيات -في حين كانت MBTI توجه لستة عشر نوعًا- بما يتناسب مع غرض الأداة

(1) www.capt.orgmbtiassessmentisabelmyers.htm

(2) www.16personalities.com and in Arabic www.16personalities.comar

(3) Holland John L. Making vocational choices A theory of careers. Prentice Hall 1973.

لسوق العمل بالأخص، وهناك اختبارات مجانية له، لكني ما زلت أبحث عن أدقها.

* الاستعانة بالمحترفين؛ خطوة مهمة في طريق فهم نفسك بصورة صحيحة، ولا تتعجبوا؛ فهي خطوة أساسية في حياة كل فرد في الغرب من الحضانة حتىٰ الكلية وبعد الكلية، في تجربتي الشخصية لم أجد هؤلاء المحترفين بمصر إلا بعد انتهاء التجربة إلىٰ مجالي المناسب، وهم الآن -فيما أعرف- أقل من أصابع اليدين عددًا؛ إلَّا أنَّهم موجودون لمساعدتكم بتكلفة بسيطة وأثر فعال بإذن الله.

سواء جربت أن تبحث عن مجالك (الإيكي جاي) ووجدت بعض المساحات أو الاقتراحات مبهمة، أو جربت إحدىٰ الأداتين المذكورتين؛ فاقترحت عليك مجالات لا تعلم عنها الكثير، أو حتىٰ كنت مهتمًّا أو موهوبًا في مجال ما لكنك تخاف أن تنخدع فيه؛ فالحل الطبيعي هنا؛ هو التجربة العملية والتخيلية ولا شيء مثلها، قد تكون التجربة في مجال ما سهلة بالتدريب والاختلاط بأهلها (كمجالات إدارة الأعمال)، وقد تصعب لاحتياجها شهادة ما أو غير ذلك فتكتفي أنت بالتعلم عن بيئة العمل فيها ومتطلباته الفطرية والتراكمية (كالطب مثلا)، ولا تنس أبدًا أن تتخيل التجربة كلها: كيف وماذا وأين ستدرس؟ ثم -وهو الأهم- كيف وماذا وأين ستعمل؟ ما الذي يجب عليك تحمله جهدًا أو إنفاقًا لتنجح؟ وبالطبع: هل تحب كل هذا أم أنك منجذب إليه بفعل انجذاب الناس له؟ قد يفيدك في هذا التخيل مصادر التعليم المفتوحة[1]، وقد يفيدك استشارة من يعملون بالمجال. لن

---

(1) www.edraak.orgcourses
www.rwaq.orgcourses
www.edx.orgsubjects
www.coursera.orgbrowse

أنسىٰ أبدًا أني فكرت يومًا ما في دخول مجال الطب، وكانت زيارة واحدة لمتحف كلية الطب مع جارٍ يدرس بها كفيلةً بصنع قرار نهائي لم أندم عليه.

عقبات وسدود:

لعل هذه الفقرة من أهم ما يجب أن يذكر عن تغيير المجال في بلادنا، فعقبات هذه الخطوة أكثر من أدواتها بمراحل، وسأحاول أن أذكر من تلك العقبات ما واجهني أو رأيته، وكيف أرىٰ لك أن تتخطاه.

* ضغط المجتمع هو أكبر ما قد يواجهك في سعي تحديد المجال وتغييره، والمجتمع هنا يتمثل في الأهل ثم باقي دوائر الناس الخارجية، إن كنت (تقرأ) لي فسيكون الضغط أكبر؛ فهم يهيئونك لتنشئ بيتًا وتجمع مالًا وتبهر أسرةً ما كعريس (لقطة) يومًا ما، أما إذا كنت (تقرئين) ما أكتب فالعبء أقل والاختيارات أكثر مرونة، ويزداد هذا الضغط من جهة الأهل في سن الدراسة وما بعدها بقليل، ثم ينقلب إلىٰ ضغط مجتمعي بزيادة السن والمسؤوليات.

* والحل: كلما قرأت هذا المقال صغيرًا وبدأت التغيير؛ كلما كان أسهل، وإن كنت كبيرًا -بالأخص رجلًا- فعليك أن تتهيأ لمعركة تتناسب مع حجم التغيير الذي تريده ومدىٰ غرابته علىٰ مجتمعك. حين غيرت مجالي - وقد جربت مجالات عدة لأصل لما أريد- وُوجهت بعاصفة أهلية ومجتمعية لم تهدأ إلا باستلام المرتب والترقيات وخلافه، وهذه الأشياء لا تأتي في أول التجربة غالبًا. الخلاصة أنَّ مجابهة التيار هنا ضرورة، وإقناع من يهمك أمرهم مستحبة جدًّا، والاستعانة بمن جمعوا الوجاهة المجتمعية والعقل المتفتح لإقناع أهلك وسيلة ذكية، أما عن باقي المجتمع فليقل ما شاء، إن أخذت بالأسباب فستُذكِّرهم وأنت علىٰ العرش بوقت ما كانوا يلقونك في بئر الفشل.

* عقبة أخرىٰ تبدأ صغيرة وتكبر مع سنك: هي التزاماتك المادية، وهي كبيرة في بلاد -كبلادنا- لا تعطي معونة للعاطل وإن اجتهد، وتزداد تلك العقبة

صعوبة إن كنت مستقبلًا زيجة أو مولودًا أو حتىٰ متزوجًا زواجًا مستقرًّا، وإن كانت تقل كثيرًا إن اخترت شريك الحياة متمتعًا بقدر من الثقة بك والدعم لك، وحبذا بتفكير منفتح قليلًا (موضوع اختيار الشريك شديد الأهمية، لكن فقرة في مقال لا تتسع له بكل تأكيد).

* والحل: لو لم تكن قد تحملت مسؤوليات مادية بعد؛ فعليك أن تتقبل تأخر مستهدفات حياتك قليلًا كضريبة تدفعها لتتمتع بباقي حياتك أصلًا كما تحب، (وهو عنوان العقبة القادمة)، أما إن كنت قد تحملتها بالفعل، فلعل الحل هنا في التدرج؛ ابدأ في انتقال تدريجي بين مجالك الأول والثاني بما يتضمنه ذلك من ادخار المال الكافي وتعلم العلم الكافي، وتجربة المجالات في وقت الفراغ، وتهيئة الأجواء النفسية للأهل أو الزوج/ة، (وقد قابلت صديقي الذي ترك الهندسة المعمارية بالتدريج ليفتح مطعمه الخاص والناجح بفضل الله، والآخر الذي خطط لثلاث سنوات كيف يترك العمل الوظيفي إلىٰ العمل الحر في مجاله، وغيرهما الكثير).

* العقبة الأخرىٰ: هي تأخر المستهدفات؛ وهي نتيجة طبيعية لمن اختار تغيير مجاله بعدما انخرط في دراسة معينة أو عمل محدد، وكالعادة فالأمر نسبي حسب تعلقك بما اخترته لنفسك، واحتياجك لقرب مستهدفاتك التي سيؤخرها تغيير المجال، والمستهدفات هنا تشمل الزواج والسفر وتحمل مسؤولية مالية ضرورية وغير ذلك.

* الحل: أن تتصالح مع نفسك تمامًا فيما تستعد أن تؤجله؛ لتستمتع بحياة صحيحة منتجة بغض النظر عن رأي الناس في هذا التأخير؛ لأنهم ببساطة يرونه تأخيرًا غير مبرر، وأنت لا تراه كذلك! المهم أن تؤخر ما تراه أنت قابلًا للتأخير، وتتقبل ما لا يمكن تأخيره كقدر قد يلجئك لاختيار مجال ثالث (لي صديق ترك كلية الألسن بعد عامين ليلتحق بإدارة الأعمال، وهو الآن متزوج ويعمل معي، وآخر ترك الهندسة بعد ثلاث سنوات وهو يدرس

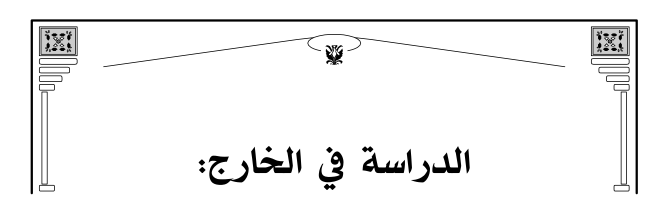
الآن الإعلام بالخارج، وثالث فتح شركته بعد ترك الهندسة، وكثيرون جدًّا كذلك).

* العقبة الأخيرة: هي صعوبة التغيير؛ قد أعلم مجالي المفضل لكن يصعب وأحيانًا يستحيل علي الانضمام له، ونصيحتي هنا تتناسب مع مدىٰ شغفك بهذا المجال تحديدًا، لكني لذلك أرهقت نفسي وأرهقتك معي بفقرة نسف «وهم المجال الأوحد»، فعلمك أن مجالًا ما قد أغلقته من دونك الأقدار قد يلجئك إلىٰ اليأس، لكن علمك أن هناك مجالات أخرىٰ قد تحقق لك نفس التوازن أو أكثر؛ سيدفعك إلىٰ مزيد بحث، ثم مزيد نجاح -إن شاء الله- (في حالتي -مثلًا- كانت المحاماة مناسبة، لكنها في مصر ليست كذلك شهادةً ولا تطبيقًا، والتدريس الجامعي أصبح صعبًا؛ لأنني درستُ ما لا أحبه في الجامعة، لكنَّه ليس مستحيلًا باحتراف مجال التسويق، ثم دراسته والتفوق فيه، وهكذا قد ينغلق الباب، ويصعب باب آخر، وتفتح أبواب كثيرة).

الختام الدرامي:

ملحوظة: إن تشرفت هذه الأسطر بعيني بعض الكبار المسؤولين عن أطفال وشباب سيحملون قريبًا هم الغد وطاقاته؛ فبالله عليكم أعدوا أبنائكم لحياة سليمة منتجة وممتعة بدلًا من غرسهم بأحلامكم وقناعاتكم أنتم عن كيفية اختيار حياتهم، استثمروا أوقاتكم معهم في فهمهم ومعرفتهم لتوجهوا طفولتهم ومراهقتهم نحو ما سيبهرونكم فيه من فرط تميُّزهم بأدنىٰ مجهود إن أحسنتم الغرس.

ثم لمن قرر أن يخوض غمار التجربة: لا تخف! لا تخافي! بعض الوقت والجهد لمعرفة نفسك واختيار ما يصلح لها؛ سيوفر عليك الكثير من العمر والجهد والإحباط والحزن فيما بعد، وستذكرون ما أقول لكم.



الدراسة في الخارج:

تجربة غير ذاتية لفهم إشكالية الرؤية والتخصص ولمعرفة متطلبات الدراسة، والحصول على المنح الأكاديمية في الجامعات العالمية

خالد عثمان الفيل(*)

هذه تجربة لشاب تخرَّج من كلية الهندسة الكهربائيَّة والإلكترونيَّة في جامعة الخرطوم في (٢٠١٣م)، وقام بتغيير مجاله إلىٰ الاقتصاد السياسيّ للتنمية بعد تخرجه، وخلال سنة ونصف من تخرجه حصل علىٰ القبول لدراسة الماجستير من الجامعة الأولىٰ في السويد Lund University ثم حصل علىٰ قبول لدراسة الماجستير من الجامعة الأولىٰ في أستراليا The Australian

---

(*) درس البكالوريوس في كلية الهندسة.
* قام بتنسيق وإبداع فكرة: «الدَلِيلُ الإرشَادِيُ لطلابِ وطالبات البَكَالَوريُوس والدِرَاسَاتِ العُلْيا في العالم العربيّ»، وهو عبارة عن مجموعة مقالات كتبها أكثر من ٢٢ باحث متخصص في مجال التعليم عن المشكلات والتحديات التي تواجه الطالب العربي أثناء مسيرته التعليميّة.
* ترجمة لورقة «تدوينات نحو أنثروبولوجيا الثورات السياسيَّة» تناقش تطور الإرث الأكاديمي لأنثروبولوجيا الثورات السياسية والعصيان المدني، للعالم الأنثروبولوجي بيورن توماسون، ونشرت من قِبل جامعة كامبريدج في العام ٢٠٠٢، ستصدر قريبًا.
* كما له ورقة أخرىٰ بعنوان: «الاقتصاد السياسيّ للأيدولوجيا والدولة في العالم العربيّ: مناقشة حالة الدولة السودانيَّة الحديثة أنموذجًا» تصدر قريبًا بإذن الله.
* للتواصل مع خالد الفيل:
Khalfeel@hotmail.com

National University، ثـم حصـل علىٰ القبـول ومنحة القادة الأفارقة PFAL لدراسة الماجستير في الجامعة الأولىٰ في أوروبا والثانية في التصنيف العالمي في العلوم الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة London LSE School of economics and Political science، وقبل كل ذلك حصل علىٰ القبول ومنحة كاملة لدراسة الدكتوراه في جامعة أمريكيَّة تحتل المرتبة الـ (٥٩) في التصنيف العالمي ألا وهـي University of Illinois at UrbanaChampaign. كـمـا أنَّ صـاحـب هـذا المقال في منتصف العام (٢٠١٦) قد حصل علىٰ قبول ثانٍ وبمنحة كاملة لدراسة ماجستير ثانٍ في الجامعة الأولىٰ في أوروبا، والثانية في التصنيف العالمي في العلوم الاجتماعيَّة LSE، والتي سبق ذكرها قبل قليل!

هذه المقدمة لم يُقصد منها إبراز عضلات الكاتب وكونه شخصًا عظيمًا، وإنَّما وبكل بساطة هو اتباع لنموذج «بيرنيس مكارثي» في التعلُّم والذي يقوم في الأساس علىٰ فكرة: «قبل أن أستمع إليك؛ أقنعني لماذا يجب عليَّ ذلك ... ما الجديد لديك؟»، وأعتقد أنَّ هذه المقدمة قد أبرزتْ الجديد الذي يمكن أن أقوله وأعطت إجابة لسؤال: لماذا يجب أن تقرأ هذا المقال؟ إذ يبدو كما ورد في المقدمة؛ أنَّ كاتب هذا المقال الذي يناقش قضيَّة تغيير التخصص والدراسة بالخارج؛ هو صاحب تجربة جديرة بالتأمل والنظر، نوعًا ما!

*** يُفترض أن يجيب هذا المقال علىٰ أربعة أسئلة بالترتيب:**

(١) كيف نتعامل مع إشكالية تغيير التخصص، وعدم وضوح الرؤية الكليَّة عند الشباب العربي؟ أو ما أطلق عليه (أزمة تحديد القدرات والرغبات والفرص).

(٢) كيف تتمكن من الحصول على قبول أكاديميّ للالتحاق والدراسة بالجامعات العالميَّة؟

(٣) أين وكيف تتحصَّل على معرفة المنح الأكاديميَّة أو المعونات الماليَّة التي ستغطي تكاليف الدراسة بالخارج؟

(٤) كيف تفوز بالمنح الأكاديميَّة؟

(١) إشكالية تغيير التخصص:

«إنَّ تأخير تَكوين المثقف/ العامل/ السياسيّ/ الباحث الشرعي في العالَم العربي أمر يُؤثر في التنمية؛ فهذا يعني أنَّ الكثيرين يتساقطون في أثناء العملية التربويَّة، وإن من يخرج سليمًا منها؛ فإن سنين العطاء عنده تكون محدودة للغاية». نقلًا -بتصرف- عن المفكر عبد الوهاب المسيري.

أزْعمُ أنَّ أحد المشكلات الرئيسة التي أراها في أغلب الشباب من حولي، (والتي عانيت منها أنا بنفسي)، سواء كانوا مُقبلين علىٰ الحياة بعد التخرج، أو في أثناء دراستهم، أو حتىٰ من بادروا وشيَّدوا لأنفسهم ذخيرة معرفية أو عملية، وبصورة عامة أتحدث عن الشباب بين سن العشرين وسن الثلاثين= هي إشكالية عدم وضوح الرُّؤْية الكلِّيَّة لحياته، أو التبعْثر في سُبل الحياة ومشاريعها، مثل التَّردد بين أي المجالات سيعمل؛ المجال العَملي أم المجال العِلمي؟ وداخل أي مجال سيختاره، ما هي المُشكلات والاهتمامات التي ينبغي أن يعمل عليها؟ ومثل ذلك من الأسئلة المهمة. ولا أذكر أنَّني جلست مع شاب أو صديق إلَّا وكان -غالبًا- يعاني من هذه الإشكالية، سواء كانت بنسبةٍ كبيرةٍ أو بنسبة أقل.

ومن ناحيةٍ عقْلية تحليليَّة مَحضة، فهذا أمرٌ طبيعيٌّ بدرجةٍ كبيرةٍ في بيئة تربويَّة وسياسيَّة مثل بيئتنا لثلاثة أسباب -فيما أرىٰ-:

* **أولها**: أنَّ تحديد المسار أو المشروع العملي أو العلمي يكون بصورة عامة وفقًا لثلاثة أمورٍ رئيسة: (**أولها**): معرفة الإنسان بقدراته وإمكاناته ونقاط ضعفه وقوته، و(**ثانيها**): هو معرفة الإنسان بميوله وتفضيلاته الشخصيَّة، و(**ثالثها**): هو معرفة الإنسان بالفرص التي تقذفها الحياة أمامه والتحديات التي تفرضها عليه. والأمر المزعج هو أنَّ هذه الثلاثة ليست ثابتة في بيئتنا التعليميَّة والتربويَّة والسياسيَّة؛ فلا يوجد في نظامنا التعليمي والتربوي أيُّ منظومة أو مشروع أو حتىٰ مُقاربة عمليَّة تساعد الطالب علىٰ اكتشاف قدراته وإمكاناته،

وعلىٰ اكتشاف ميوله ورغباته الشخصيَّة، كما لا يوجد نظام سياسيّ عادل ومُستقر يمْكن للطالب معه أن يتنبأ بحجم الفُرص التي يمكن أن يجدها في أي طريق من طرق الحياة. هذا الواقع المتغير لهذه الأمور يخلق عدم الوضوح في الرُّؤْية الذي تراه متفشيًّا جدًّا، والذي بدوره يؤدي للاضطراب في مسارات الحياة وعدم الانضباط بمسار كُليّ معين للمرء في حياته، ممَّا يجعل جهود المرء مبعْثرة في طرائق متعددة، ولا يوجد مجموع لهذه الجهود في طريق معين يثمر إنجازًا يحفز الإنسان علىٰ المُضي في ذلك المسار، فينظر الشاب فيما قدم فيجد جهودًا مبعثرةً موزعةً؛ فلا يكون مردود ذلك إلا الإحساس بالعجز والخَور.

* **وثانيها**: أنَّ البيئة التي نعيشها هي فعلًا سبب للتبعثر، فإذا افترضنا أنَّ هذا الإنسان الذي يسعىٰ لهدف معين أو مشروع كبير في حياته يكون مدفوعًا بالقيم والأخلاق وبتنمية وتطوير حال بلاده وأهله؛ فإنَّ الواقع الذي نعيشه هو واقعٌ متدهورٌ علىٰ كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتنموية والعلمية؛ ممَّا يُشعر هذا الإنسان بالرغبة في التحرك في كل الاتجاهات والمَساعي، فالإناء كما يقول السودانيون (مَخروقٌ من كل مكان)!

* **الأمر الثالث**: لا أبالغ إن قلت: إن حالة عدم الوضوح في الرُّؤْية في هذه الفترة (بين العشرين والثلاثين عامًا)؛ هي سمةٌ غالبةٌ لكثيرٍ ممَّن أنجزوا مشاريع عظيمةً، ونبغوا في مجالاتهم، ولو تواضعنا في العبارة فهي (نمطٌ غالبٌ) ومنتشرٌ في كثيرٍ ممَّن نجحوا وبرّزوا في هذه الحياة، حتىٰ مع وجود نظام سياسيّ وتعليميّ مُستقر ومُتطور. ولا زلت أذكر مقولة قرأتها للمسيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فترة تخرجي من الجامعة عندما كنت أقرأ كتابه «رحلتي الفكرية» أعادتْ إليّ بعض الأمل، يقول المسيري: «أذكر واقعة حدثت لي في الولايات المتحدة. كنت في سن الأربعين تقريبًا، وكانت إحدىٰ عاداتي أن أجري في الحدائق في المدينة الجامعيّة لأخفف من حدة التوتر الذهني ولأزيد من لياقتي البدنية. وبينما كنت أعدو، وجدت بعض الشباب في سيارة يقولون بسخرية:

«اذهب واحرق نفسك». وحينما استفسرت من أصدقائي، أخبروني أنَّني في مثل هذه السن لا بُدَّ أن أعاني ممَّا يسمىٰ أزمة منتصف العمر، والتي تعني أنَّ ما تبقىٰ من عمري أقل ممَّا فات، وأنَّه لا يوجد مجال للتجريب والخطأ. فدهشت كثيرًا؛ لأنَّني لم أكن قد بدأت حياتي الفكرية بعد، وأعرف كثيرًا من المفكرين والأدباء في الشرق والغرب والشمال والجنوب ممَّن بدؤوا حياتهم بعد سن الأربعين!»؛ تأمل كيف أن رجلًا بقامة وفكر وإنجاز المسيري بدأ حياته الفكريّة بعد الأربعين، وليس هذا فحسب؛ بل إنَّ الرجل يعرف كثيرًا من المفكرين والأدباء في كل أنحاء العالم قد بدؤوا حياتهم بعد سن الأربعين! هنالك مقال لطيف في هذا المعنىٰ اسمه

What 11 Highly Successful People Were Doing in Their 20s

ستجد فيه أنَّ أمثلة من أكثر الناس نجاحًا في حياتهم كانوا يفعلون أشياء لا علاقة لها بإمكاناتهم ولا بشغفهم الحالي ولا بالنجاحات التي حققوها، ومثل هذه القصص كثير فيما أعلم!

ما العمل إذًا ..؟!

أغلب النصائح التي تتحدث عن أي قضية تتعلق بالشأن الإنسانيّ، من زواج، أو عمل، أو دراسة، أو وضوح رُؤية؛ تُعاني من مشكلةٍ بنْيويةٍ في ذاتها، وذلك أنَّها تُقدَم علىٰ أنَّها حكمة أو نصيحة! وفي الحقيقة؛ فإنَّ النصائح أو الحِكم في هذا الشأن مثلها مثل غيرها من النصائح الاجتماعيَّة الإنسانيَّة التي قد تصل إلىٰ حد التناقض الذي تجده في أبسط الحِكَم والأمثال، مثل التناقض بين المَثَلين: «كل قارب له قبطانان، سيغرق»، وبين المثل الثاني: «رأسان خير من رأس واحدة»، بتأمل بسيط في هذين المثلين وفي غيرهما من الأمثال والحكم المشابهة؛ سيخرج القارئ بالتناقض الصريح بين كثير من هذه الحكم والنصائح.

يقول «سلافيوي جيجك» في هذا المعنىٰ: «أعتقد أنَّ الحكْمة هي أكثر ما يمكننا تخيله إثارةً للاشمئزاز، الحكْمة هي أكثر السبل تنميطًا وإلزامًا، فمهما فعلتَ في حياتَك؛ فسيأتي رجلٌ حكيمٌ من بعدَك ليبرر ما قمتَ به، كأن تقوم بشيء فيه مجازفة وتنجح، فسيأتي رجل حكيم ليقول شيئًا مقاربًا لحكمة سلوفاكيَّة -جيجك من سلوفاكيًا- قد يكون في بلادكم شيءٌ قريبٌ منها وهي: «لا يربح إلَّا من يجازف»؛ لنقل في المقابل إن شخصًا آخر قام بنفس ما قمتَ به ولكنَّه فشلَ، فسيأتي حكيم ليقول عن تجربة ذلك الآخر شيئًا مقاربًا لمثل سلوفاكي كذلك ينص علىٰ: «لا تستطيع التبول عكس الرياح»، هذه هي الحكمة، مهما فعلت فسيأتي رجل ليبرر ما فعلته، لذلك كان كيركغارد مناهضًا للحكمة، كل ما تقوله تستطيع تسويقه كحكمة، هذه هي المشكلة الحقيقية في كل مقولة يمكن أن نُسميها حكمة غير مَسبوقة بتحليل جيِّد، وفي كل رجل يدعي هذه الحكمة!».

هل هذا يعني فشل أو خطأ أي حكمة من الحِكم السابقة التي ذكرتها، أو التي ذكرها جيجك؟! بالتأكيد لا، وهذه نقطة خلافي مع جيجك في تعميمه ونقده للحكمة، فأي نصيحة اجتماعيَّة لا يُصطحب فيها سياق المرء الذاتي ستكون فاشلة، وسنطبق فيها النقد السابق الذي ذكرناه، إذًا فنجاح النصيحة الاجتماعيَّة يكون -غالبًا- مقيدًا بمعرفة السياق! وإذا كان السياق الشخصي، والسياق المكاني، والسياق الزماني كما ذكرنا في أول هذا المقال لا تساعد إلَّا علىٰ المزيد من الإضْلال، فما العملُ إذًا؟

الانخراط في تجربة عمليّة والاحتكاك بالواقع مباشرةً.

نعم؛ أفضل شيء يساعد في اكتشاف وتحديد الرُّؤْية هو الانخراط في تجربة عملية، (سواء في المجال العَملي، أو في المجال العِلمي)، وهذا ليس من قبيل الحكمة أو النصائح التي سبق أن انتقدناها، ولكن هذا من باب استكمال التحليل الذي بدأناه في هذه المقالة. فإذا كنا قد قررنا أن تحديد المسار والرُّؤْية يعتمد بصورة رئيسيّة علىٰ ثلاثة أمورٍ رئيسةٍ: **(أولها)**: هو معرفة

الإنسان بقدراته وإمكاناته ونقاط ضعفه وقوته، و(**ثانيها**): هو معرفة الإنسان بميوله وتفضيلاته الشخصية، و(**ثالثها**): هو معرفة الإنسان بالفرص التي تقذفها الحياة أمامه وتحدياتها؛ فإنَّ أفضل طريقة لاكتشاف هذه الأمور الثلاثة في حياة المرء؛ هي الاحتكاك والانخراط في الواقع، وليس بالتفكير المجرد أو التأمل (مع اعترافنا بأهمية هذا الشيء، وأنه لا بُدَّ منه).

من أبرز الأمثلة التي تظهر قوة الواقع في تعريفك بالمجال الذي تريده هو الدكتور حسن الترابي ﵀. فقد بزغ نجمه السياسيّ في ندوة جامعة الخرطوم التي كانت في يوم (٩ سبتمبر ١٩٦٤م)، والتي ناقشت قضية جنوب السودان، وهي الندوة التي كانت من أسباب بداية شرارة ثورة أكتوبر التي أطاحت بنظام الفريق عبود ﵀، أول ثورة عربيَّة تُطيح بحاكم عربي مُستبدٍّ. بعد تلك الندوة ارتفع الرصيد السياسيّ للدكتور الترابي بصورة كبيرة جدًّا حتىٰ أنَّه نال أكبر عدد من الأصوات في دوائر الخريجين في انتخابات عام (١٩٦٥م). كانت تلك الندوة بداية نقلة كبيرة في حياة الدكتور الترابي نفسه، حيث إنَّ الرجل (كما يقول في مراجعاته علىٰ قناة الجزيرة) كان قبل أيام من الندوة يبحث عن مطبعة تقوم بنشر رسالته للدكتوراه، فقد كانت آماله وتَطلُعاته يَغلبُ عليها الطابع الأكاديميّ، حتىٰ أنَّه لم يكن معروفًا داخل الحركة الإسلاميّة السودانيّة نفسها بصورة كبيرة قبل تلك الندوة، وكان «بالكاد معروفًا خارج الدوائر العلميّة في جامعة الخرطوم ومحيطها». تحول الدكتور الترابي من رجل قانون أكاديميّ إلىٰ رجل سياسيّ بكل ما تحمل الكلمة من معنىٰ، فقدَّم استقالته من عمادة كلية القانون في جامعة الخرطوم وتفرغ للعمل السياسيّ تمامًا، وسواء اتفقنا أم اختلافنا حول الدكتور الترابي؛ فهذا لا ينفي أبدًا حقيقة كونه واحدًا من أعظم السياسيين أو المفكرين الإسلاميين الذين أثَّروا في واقع الأمة الإسلاميّة والعربيّة. ولك أن تتأمل كيف ساعد الواقع الدكتور الترابي في تحويل مسار حياته بصورة راديكاليّة من عميد لكلية القانون ومهتم بالنشر والتأليف الأكاديميّ إلىٰ سياسيّ متفرغ تمامًا للعمل السياسيّ!

وذلك أنَّ الاحتكاك بالواقع يساعد علىٰ معرفة هذه الأمور الثلاثة بصورة أقرب إلىٰ الحقيقة من التفكير المجرد. ومن خلال الانخراط المسبوق بتخطيط عقلي وتفكير؛ سيكون الإنسان قد أوجد مُقاربة أكثر تماسكًا ووضوحًا عن الأمور الثلاثة الرئيسة لوضع أي رؤية أو خُطة. والأهم من ذلك أن يقف الإنسان بعد ذلك ثم يقيِّم تجربة الاحتكاك بالواقع، ثم يبدأ بالتعديل في رؤيته وخططه والسؤال والمناقشة لمن يثق في عقلهم وأفكارهم، فالحياة كما يقول المسيري: «ووفقًا لتحليلنا السابق الطويل» رحلة استكشاف مستمرة، رحلة نجاح وفشل وتحقق وإحباط، وعلىٰ المرء أن يدرك ذلك، عليه أن يبقي عقله منفتحًا علىٰ العالم وعلىٰ تجاربه، يحاول فهمها ثم يتحرك، وعلىٰ المرء ألا يحاكم الماضي، وإنَّما أن يستفيد منه وأن يتحرك في المستقبل، فالمستقبل هو دائمًا مجال الحرية، والماضي هو مجال العبرة، وعلىٰ المرء أن يحاول أن يكتشف ما بداخله، فإن كان شرًّا؛ فليحاول فهمه وتقويمه، وإن كان خيرًا؛ فليحاول التعبير عنه. وأخيرًا فلا بد من الإخلاص في السعي، فمع الإخلاص تعملُ يَدُ الله، التي تُقوِّم النقص، وتبارك في الفعل والثمرة.

(٢) كيف تتمكن من الحصول علىٰ قبول أكاديميّ للدراسة بالجامعات العالميّة؟

قبل سنة ونصف من الآن، (أي: بعد عام واحد من تخرجي في قسم الهندسة الكهربائيّة والإلكترونيّة -جامعة الخرطوم وبعد أكثر من عامين علىٰ قرار اتخذته عندما كنت طالبًا في السنة الرابعة بأنَّني سأكمل دراستي الهندسيّة، ولكنني لن أعمل، ولن أقرأ في أي مجال هندسي بعد تخرجي)، كنت أفكر في التقديم للقبول في الدراسات العليا في إحدىٰ الجامعات العالميّة كخطوة أولىٰ مهمة لوضع قدمي في المجال الجديد الذي أنوي الاهتمام به، وكنت وقتها لا أحلم أبدًا بأن أنال فُرصة في القبول من الجامعات التي تعتبر ضمن (١٠٠ جامعة) الأولىٰ في العالم، بل كنت أفكر أنَّني لو حصلت علىٰ القبول من جامعة تعتبر ضمن (٥٠٠ جامعة) الأولىٰ، فهذا سيكون منتهىٰ النجاح

والإنجاز، غير أنَّ تجربة واحدة -وكانت مجازفة فقط- غيرت طريقة تفكيريّ (١٨٠ درجة)!

بعد تخرجي، كنت مُهتمًّا بدراسة تَخصصيْ اقتصاديات التنميّة والاقتصاد السياسيّ، وكانت الوسيلة الأولىٰ لتحويل هذا الاهتمام إلىٰ معرفة متماسكة؛ هي القراءة في الكتب التي تناولت تلك الموضوعات، بالإضافة إلىٰ الالتحاق بدورات/كورسات الدراسة عن بعد Online التي تقدمها الجامعات ذات التصنيف العالميّ الجيد، والتي يوفرها الموقع التعليميّ المشهور كورسيرا Coursera. في الفترة من (مايو ٢٠١٤م)، وحتىٰ (مايو ٢٠١٥م) التحقت بخَمسة كورسات في الاقتصاد والاقتصاد السياسيّ، وقد استفدت منها جدًّا في بناء معرفتي بالمجال الجديد وقضاياه ومناهجه، بل إنَّ كثيرًا من أفكار هذه الكورسات وجدتها موجودة في دراستي للماجستير بعد ذلك. لذلك أرىٰ أن هذه الدورات/كورسات المتوفرة علىٰ الإنترنت من أفضل وسائل اكتساب وتطوير المعرفة في العلوم التطبيقيّة والاجتماعيّة، ومع وجود الضعف الأكاديمي والمؤسسي للجامعات العربيّة تُصبح هذه الكورسات من الأهمية بمكان لكل طالب علم يريد أن يطور معرفته ومهارته في مجاله. ولهذه الكورسات أهمية أخرىٰ متعلقة بتعلم وتطوير المهارات الإنجليزية؛ إذ إنَّ من الأسباب الرئيسة لتطوير لغتك الإنجليزية هو كثرة الاستماع للمحاضرات الإنجليزيّة، وقد لاحظت فرقًا كبيرًا في مستوىٰ لغتي الإنجليزيّة بعد تلك الكورسات.

بل لا أبالغ إن قلت: إنَّ هذه الكورسات مهمة حتىٰ لطلاب العلم الشرعي؛ ولهذا الأمر تجربة لطيفة حدثت معي: أذكر أنَّني في شهر أغسطس من عام (٢٠١٤م) كنت في مكتبة معهد الدراسات الأفريقيّة والآسيويّة بجامعة لندن، وكنت أريد أن أطبع بعض الصفحات من أحد المراجع، وكان يقف أمامي في ماكينة الطباعة شاب بريطانيّ في سني أو أكبر مني بقليل، وكان يقوم بتصوير صفحات من كتاب عربي، وهو كتاب واحد من كتب عربيّة كثيرة

تساقطت من حقيبته، انتابني الفضول فقمتُ بتدقيق النظر في اسم الكتاب فوجدته الجزء السابع من كتاب المغُني لابن قدامة، (وهو من أعظم كتب الفقه الإسلاميّ، والمذهب الحنبلي تحديدًا)، ثم قمت بقراءة بعض الكتب التي سقطت من حقيبته فوجدتها أمهات الكتب في علم البلاغة والفقه.

وفي ذات الشهر أرسل لنا البروفيسور، الذي سندرس معه كورس (عن بعد) في الاقتصاد السياسيّ، بريدًا إلكترونيًّا يدعونا فيه إلىٰ المشاركة في كورس آخر يقدمه عن الشريعة الإسلاميّة في الغرب، وعندما دخلت الكورس وجدت شروط القبول أكثر من صارمة (مع أنَّ الكورس مجاني ومفتوح)، فحتىٰ تنال مجرد شهادة المشاركة، لا بُدَّ أن: تكتب (٩ مقالات علميّة قصيرة) عن واقع الشريعة الإسلاميّة في الغرب، وتجتاز عددًا من الامتحانات والاختبارات، وتملأ استمارة القبول التي تبين فيها معرفتك وأسباب التحاقك بهذا الكورس، وتشارك في حلقات النقاش المباشرة التي يقيمها الدكتور نفسه مع كل عشرة طلاب، وأخيرًا لا بُدَّ أن تقدم بحثًا كاملًا في آخر الكورس في موضوع متعلق بالشريعة الإسلاميّة في الغرب. مدة الكورس ثلاثة أشهر، ومتوسط عدد الساعات التي ينبغي أن تبذلها في الكورس هو (١٠ ساعات) إلىٰ (١٥ ساعة) في الـ (٧ أسابيع الأولىٰ)، و(٢٠ إلىٰ ٣٠ ساعة) في الـ (٥ أسابيع الأخيرة)، هذا طبعًا بافتراض أنك متمرس جدًّا في اللغة الإنجليزية، وتتحدث بها وتقرأها بكل طلاقة!

ما أريد قوله= إن التصور الخاطئ الذي عَلِق في ذهن كثير من المسلمين، (وتحديدًا كثير من الدعاة والباحثين الإسلاميين)، والخلط الذي يفعلونه بين سلوكيات الساسة الغربيين وبين الباحثين الأكاديميين الغربيين، وجعْلهم كلهم في سلة أعداء الإسلام؛ هو من التصورات الخاطئة والتي أضرت كثيرًا بمستوىٰ البحث في قضايا الإسلام، وفي دراسة أسباب الانحطاط في الواقع وفي البحوث الإسلاميّة. وكثير من المنتوج الأكاديميّ الغربيّ هو من أرفع وأمتن المنتوجات المعرفيّة نظرًا للأدوات المعرفيّة

والقدرات البحثيّة المتوفرة لديهم والتي من أهمها الموضوعيّة. وأن غض الطرف أو عدم النظر لهذا المنتوج؛ هو من السفه وممَّا زاد البحث الإسلامي ضحالة وضعفًا. وإنَّك لترىٰ أنَّ من الأدوات التي لازمت كل طبقة الفكر في العالم الإسلامي والذين قدموا أبحاثًا علمية جادة (أمثال إسماعيل الفاروقي، وعبد الوهاب المسيري، وطه عبد الرحمن، ووائل حلاق وغيرهم)، هي اطلاعهم علىٰ منتوج الفكر والبحث في الغرب، بل وتمكنهم من لغة أولئك القوم. وعلىٰ مستوىٰ الدعاة والمشايخ؛ فإنَّك تجد أنَّ الذين اهتموا بدراسة المنتج المعرفيّ الغربيّ (أمثال إبراهيم السكران في كتابه الأخير «التأويل الحداثي للتراث»، وعبد الله العجيري في كتابه «مليشيا الإلحاد»، وغيرهم) قد أنتجوا دراسات علىٰ قدر من الرصانة والجدة المعرفيّة. بل إنَّ من الأمور التي لا يجادل فيها باحث علمي حقًّا؛ هو الأثر الواضح لدور النشر التي اهتمت بالدراسات الغربيّة عن الإسلام، (مثل مركز نماء للدراسات، والشبكة العربيّة للأبحاث والنشر، ومركز دراسات الوحدة العربيّة وغيرها) في تطوير البحث في قضايا الفكر والمعرفة والدراسات الشرعيّة.

بالعودة إلىٰ سؤالنا بعد هذا الاستطراد المهم، فقد كان أحد هذه الكورسات مقدمًا من جامعة University of Illinois، وهذه الجامعة تعتبر رقم (٥٩) في التصنيف العالمي للجامعات حسب QS World University Rankings. في أثناء دراستي لذلك الكورس عرفت أنَّه يوجد في تلك الجامعة ماجستير في الاقتصاد السياسيّ، وفي خطوة شجاعة (غير منطقيّة في ذلك الوقت) قمتُ بإرسال إيميل لبروفيسور، وذكرت في البريد الذي أرسلته بعض المعلومات العامة عني، وسيرتي الذاتيّة، ورغبتي في الالتحاق بالجامعة، وطلبت منه مساعدتي إذا كانت هنالك منحة يمكنني الحصول عليها؛ لأنَّ تكاليف الدراسة والمعيشة في أمريكا غالية جدًّا. رد عليَّ البروفيسور بأنَّه يمكنني الالتحاق بالماجستير، وأنَّ سيرتي الذاتيّة جيدة جدًّا للقبول ببرنامج الماجستير، وقتها فرحت جدًّا بمعرفة أنِّي جدير بالحصول علىٰ قبول للدراسة

بأحد الجامعات المرموقة جدًّا. لكن البروفيسور اعتذر بخصوص المنح الأكاديمية وأخبرني أنَّه لا توجد في الجامعة منح لدراسة الماجستير، غير أنَّه استدرك قائلًا لكن توجد منح لدراسة الدكتوراة في الاقتصاد السياسيّ، ما رأيك يا خالد أن تقوم بالتقديم لدراسة الدكتوراه مباشرةً وسأقوم أنا بمتابعة طلبك وإعطائك المنحة؟ ثم أردف قائلًا: خصوصًا أنَّك طالب سوداني، ولا يوجد بالجامعة طلاب سودانيون في برنامج الدكتوراة؟

استغربت جدًّا من فكرة تقديميَ للدكتورة مباشرة؛ إذ إنَّني لم أدرس الماجستير وقتها، وعرفت بعد ذلك أنَّ دراسة الدكتوراة في أمريكا لا تتطلب الحصول علىٰ درجة الماجيستير، ولا تتطلب حتىٰ أن تكون دراستك في البكالوريوس ذات صلة ببرنامج الدكتوراه الذي تريد التقدم إليه، فيمكن لخريج من كلية الطب أن يُحضّر الدكتوراه في الاقتصاد أو في العلوم السياسيّة؛ وبالتالي: فإنَّ أمريكا من الدول المقصودة التي يمكن أن يتوجه نحوها من يريد تعيير تخصصه؛ إذ إنَّ النظام التعليميّ به قدر من المرونة لا توجد في غيره من أنظمة التعليم. كما عرفت أنَّ المنح الكاملة لدراسة الدكتوراة في كثير من الجامعات الأمريكيّة تغطي بين (٩٠%) إلىٰ (١٠٠%) من طلاب الدكتوراة في تلك الجامعة، وأنَّه من الأيسر لمن يريد الحصول علىٰ منحة أكاديميّة للدراسة في أمريكا أن يقدم للدكتوراة بدل الماجستير.

واستغربت أكثر من فكرة أنَّ كوني طالبًا سودانيًّا سيساعد في قبولي لدرجة الدكتوراة وفوزي بالمنحة؛ (لأنَّ [كونك سودانيًّا] كانت في غالب الوقت، خصمًا من رصيدك في أي أمر تريد التقدم إليه). ولكن بعد بحثي في طرق التقييم العالميّة للجامعات وجدت أن التنوع في جنسيات الطلاب والمُحاضرين من المعايير التي تستخدم في تلك المناهج للتقييم. علىٰ سبيل المثال؛ فإنَّ من المعلوم أنَّ أشهر ثلاثة طرق لتقييم الجامعات العالميّة هي: QS World University Rankings الذي يصدر من المملكة المتحدة، وTimes Higher Education World University Rankings والذي يصدر كذلك

في المملكة المتحدة، ثم أخيرًا Academic Ranking of World Universities الذي يصدر من الصين. يدخل عنصر التنوع الدوليّ International diversity بنسبة (١٠%) في طريقة التقييم الأولىٰ، و(٥%) في طريقة التقييم الثانيّة. بمعنىٰ أنَّه في كلا الطريقتين، فإن اختلاف وتنوع عدد الجنسيات في الجامعة يزيد من عدد نقاطها في التقييم العالميّ؛ لذلك تسعىٰ الكثير من الجامعات لتحقيق هذا التنوّع سواء في الطلاب أو في المُحاضرين. ولذلك كثيرًا ما يُلاحظ الإنسان في صفحات الجامعات علىٰ الإنترنت؛ أنَّ الجامعات تهتم بإبراز نسبة التنوع في طلابها.

يمكن أن يكون عنصر التنوّع قد ساعد في حصولي علىٰ ذلك العرض لمنحة الدكتوراة، غير أنَّ من العناصر المهمة التي ساعدتني في ذلك؛ هو وجود دراسات وبحوث منشورة لي. وذلك أنَّني قبل أن أتحدث مع ذلك البروفيسور كنت قد نشرت بحثين: (أولهما): بحث التخرج الذي أكملناه أنا وصديقي حسام الدين عوض الله، بإشراف الدكتور عبد الرحمن كرار، والذي حمل عنوان Load Sharing Control on Generators، وقمنا بنشر ذلك البحث في مؤتمر IFAC 2014 بجنوب أفريقيا. البحث الثاني كان دراسة لي عن سياسات التعليم في السودان وتحدياتها Policies required in the area of knowledge generation in Sudan، والذي قمت بنشره في مؤتمر ICWIS 2015 في كوريا الجنوبيّة. كثير جدًّا من مناهج التقييم العالميّ للجامعات تهتم في الأساس بالمنتوج الأكاديميّ للجامعة ومدىٰ تأثيره في الواقع العلمي والعملي، لأجل ذلك تهتم أغلب الجامعات العالميّة بقبول الطلاب الذين يمتلكون مهارات البحث العلمي ولهم بحوث منشورة في مؤتمرات أو دوريات علميّة، وهذا ليس شرطًا أساسيًّا في القبول؛ لذلك لا تذكره أو تؤكد عليه الجامعات في حديثها عن شروط القبول، لكنَّه من الصفات التي تجعلك في الصفوف الأولىٰ من المرشحين للقبول في تلك الجامعات المرموقة عالميًّا؛ لذلك فإنَّ نصيحتي الأولىٰ لكل من يريد أن يزيد من احتمالية قبوله في تلك الجامعات

أن يقوم بالعمل علىٰ تطوير مشروعه أو بحثه في التخرج، ثم يقوم بنشره في إحدىٰ الدوريات أو المؤتمرات العلميّة.

لعلك ستستغرب إذا علمت أنَّني قد أكننتُ في نفسي رفضًا لتلك الفرصة للدكتوراة، ولكنني احتفظت بها كورقة معي (كحل أخير في حالة فشل محاولاتي الأخرىٰ)، وقد يصعب تبرير هذا الرفض في هذا المقال، لكن الفكرة بصورة عامة هي أن درجة الدكتوراة من أخطر الالتزامات الأكاديميّة التي تمر علىٰ الإنسان في حياته؛ إذ إنَّ تأثيرها كبير حدًّا (سلبًا أو إيجابًا)، وهذا التأثير الكبير هو نتيجة طبيعيّة لطول مدتها (من ٤ إلىٰ ٥ سنوات)، وهي مدة كفيلة بأن تترك أثرًا هائلًا في الحياة المهنيّة للإنسان، تخيل -مثلًا- أنَّ رجلًا قد اختار برنامج دكتوراة لا يناسبه أو أن البرنامج مناسب، لكن طرق التدريس ومناهجها في تلك الدكتوراة غير مفيدة، سيكون ذلك الشخص قد أضاع أو فرط في (٤ إلىٰ ٥ سنوات) عزيزة من حياته المهنيّة؛ لذلك فإنَّ من أكثر الخطوات التي ينبغي علىٰ الإنسان التريث فيها وعدم الاستعجال وأن يُكثر من الاستخارة ومن الاستشارة= هي خطوة الالتزام بدراسة درجة الدكتوراة. عمومًا هنالك ثلاثة مقالات نشرت في الدليل الإرشادي لطلاب البكالوريوس والدراسات العليا في السودان، الذي صدر عن مؤسسة الباحثين السودانيين والمتوفر في الشبكة، تعالج هذه المقالات قضية فكرة الدكتوراة وهل يحتاج الطالب فعلًا إلىٰ المضي في هذا الاختيار أم لا، أرجو الاطلاع علىٰ هذه المقالات فقد عالجت الأمور من جوانب عدة وبطريقة جيدة.

ورغم أنَّني بيني وبين نفسي قد رفضت ذلك العرض؛ إلَّا أنَّ هذه التجربة قد منحتني حماسًا وثقةً في نفسي جعلاني بعد ذلك بأسبوعين أقوم بالتقديم للالتحاق بماجستير قريب من اقتصاديات التنميّة في الجامعة الأولىٰ بالسويد والـ (٧٠) في التصنيف العالمي وهي Lund University، وقمت كذلك بالتقديم للالتحاق بماجستير في السياسات الاقتصادية، في الجامعة الأولىٰ بأستراليا، والـ (١٧) في التصنيف العالمي، وهي The Australian National University،

فكانت النتيجة هي القبول بفضل الله من كلا الجامعتين. هذه التجارب الثلاثة جعلتني ألفظ تصوري السابق عن مدىٰ إمكانية فوزي بمنحة أو قبول بإحدىٰ الجامعات المرموقة عالميًا، فقمت بعد ذلك بالتقديم لمنحة القادة الأفارقة (PfAL)، وقمت بعدها بالتقديم مباشرة لماجستير في الاقتصاد السياسيّ بكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسيّة London School of Economics and Political science. وهي الكلية المعروفة جدًّا والتي تعتبر الثانيّة في التصنيف العالمي في العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة. وبفضل وكرم من الله جل جلاله فقد فزتُ بالقبول في تلك الجامعة العالميّة، ثم فزتُ بالمنحة التي غطت كل تكاليف الدراسة والمعيشة.

*** عودة إلىٰ السؤال الذي بدأنا به هذا الفصل وهو:**

كيف تتمكن من الحصول على قبول أكاديمي للالتحاق والدراسة بالجامعات العالمية.

فسأختصر تجربتي في النقاط التاليّة:

(أ) قد تكون جنسيتك سببًا من الأسباب التي تزيد من فرصة قَبولك في الجامعات العالميّة.

(ب) تهتم أغلب الجامعات العالميّة بقُبول الطلاب الذين يمتلكون مهارات البحث العلميّ، ولهم بحوث منشورة في مؤتمرات أو دوريات علميّة، ومع أنَّ هذا ليس شرطًا أساسيًّا في القبول؛ لذلك لا تذكره أو تؤكد عليه الجامعات في حديثها عن شروط القبول، لكنَّه من الصفات التي تجعلك في الصفوف الأولىٰ من المرشحين للقبول في تلك الجامعات المرموقة عالميًّا؛ لذلك فإنَّ نصيحتي الأولىٰ لكل من يريد أن يزيد من احتماليّة قبوله في تلك الجامعات أن يقوم بالعمل علىٰ تطوير مشروعه أو بحثه في التخرج، ثم يقوم بنشره في إحدىٰ الدوريات أو المؤتمرات العلميّة.

(جـ) أغلب الجامعات الجيدة تشترط أن يكون الطالب قد تخرج بمرتبة الشرف الأولىٰ (ممتاز) (First Class)، أو بمرتبة الشرف الثانيّة «جيد جدًا» UpperSecond Class. ولكن إذا كنت لم تنجح في التخرج بإحدىٰ هاتين المرتبتين؛ فهنالك وسيلتان لمعالجة هذا الأمر: (الأول): أن تكون قد عَملتَ في المجال الذي تريد دراسته وتمتلك سنوات خبرة جيدة فيه. الطريق (الثاني): هو أن تقوم بالالتحاق ببرنامج ماجستير في إحدىٰ جامعات بلدك، وتجتهد في أن تكمل ذلك البرنامج إما بمرتبة الشرف الأولىٰ أو مرتبة الشرف الثانيّة. أي الخياران يجب أن تسلك؟ هذا يعتمد كثيرًا علىٰ أوضاعك الشخصيّة والماديّة، بالإضافة إلىٰ التواصل مع إدارة القبول بتلك الجامعة لمعرفة رأيهم في أي الخيارات يتفق معهم.

(د) الكورسات الأكاديميّة التي تُدرس عن بعد، من أفضل البرامج الأكاديميّة التي تزيد من معرفتك بمجالك، أو تبني لك معرفة منظمة في مجال جديد تود دراسته.

(هـ) من العناصر المؤثرة جدًّا في القبول في الجامعات العالميّة؛ هو جودة الرسالة الشخصيّة، أو Personal Statement، وهذه سأناقشها في الفصل الأخير من هذا المقال.

(٣) أين وكيف تتحصل علىٰ معرفة المنح الأكاديميّة أو المعونات الماليّة التي ستغطي تكاليف الدراسة بالخارج؟

كثير من المقالات التي تحاول الإجابة علىٰ ذلك تذكر عددًا من المنح المشهورة وغير المشهورة، وتعرف القارئ بتواريخ بدايتها ونهايتها، وهذه فيما أرىٰ طريقة غير فعالة. وذلك لأمرين: (أولًا): المنح الأكاديميّة غير ثابتة أو محددة سنويًّا، بمعنىٰ أنَّه يمكن جدًّا أن تظهر للوجود منحة أكاديميّة جديدة في هذه السنة أو في أثناء قراءتك لهذا المقال، وبالمقابل فإن هنالك عددًا من المنح يمكن أن تختفي أو تغيب نهائيًّا أو مؤقتًا. و(ثانيًا): قد تتغير مواعيد

وشروط القبول والفوز بكل منحة، لأجل هذين السببين؛ فإنَّ الاعتماد علىٰ نوع المقالات المذكور سابقًا غير مُجدٍ. ما هو البديل لذلك؟

أنا أرىٰ أنَّ أفضل طريقة لمعرفة المنح الأكاديميّة؛ هو متابعة المواقع التي تنشر معلومات عن هذه المنح بطريقة دوريَّة، لكن مع عدم التوسع في عدد المواقع المتابعة؛ حتىٰ لا يتشتت الإنسان. مثلًا فقد كنت أتابع بصورة يومية ثلاثة مواقع للمنح، وترتيبها حسب الأهميّة كالتالي:

(1) www.heysuccess.com

(2) www.opportunitiesforafricans.com

(3) www.opportunitydesk.org

أنصح كل من يريد معرفة المنح الأكاديميّة التي تناسبه أن يضع هذه المواقع كصفحات مرجعية Bookmarks في متصفح الإنترنت الخاص به، ثم يقوم كل يوم بمتابعة آخر المستجدات فيها، تمامًا كما يفتح مواقع التواصل الاجتماعي بصورة يوميّة. أنا أعتقد جازمًا أنَّ المنح الأكاديميّة المتوفرة في الجامعات العالميّة؛ إذا لم تجدها في هذه المواقع الثلاثة؛ فغالبًا لن تجدها في أي مكانٍ آخر. وأكرر عدم الإكثار من المواقع التي ترشدك للمنح؛ لأنَّ الإكثار منها يصيبك بالتشتت ولا يساعدك علىٰ التركيز والمتابعة، كما أن ما يعرض في هذه المواقع الثلاثة يعرض في بقية المواقع؛ فلا داعي للتكرار غير المفيد.

(٤) كيف تفوز بالمنح الأكاديمية؟

من المعروف أن لكل منحة من المنح الأكاديميّة متطلبات تختلف بها عن غيرها، فمثلًا منحة الحكومة البريطانيّة المعروفة Chevening تشترط أن يكون للمقدم للمنحة خبرة عمليّة تزيد عن العامين، وبعض المنح تشترط أن يكون المقدم لها قد حاز علىٰ درجة معينة في تخرجه، وغير ذلك من الشروط الظاهرة. لن يكون حديثي متناولًا لمثل هذه الشروط؛ لأنَّه من الصعب تغطية

كل الشروط في كل المنح، ولكننا سنتحدث عن شخص حقق كل المتطلبات الأوليّة للمنح، كيف لمثل هذا الشخص أن يضع نفسه من ضمن أوائل المرشحين للفوز بالمنحة. وسنناقش بالتحديد قضية كيفيّة كتابة طلب المنحة، أو المقالات التي تكون مطلوبة للتقديم للمنحة أو المعونة، والتي تؤثر كثيرًا في قرار الجهة المانحة للمنحة؛ إذ إنها من خلال هذه المقالات تتعرف بصورة دقيقة علىٰ شخصيات وتجارب الطلاب الذين يريدون هذه المنحة، وبالتالي يستطيعون اختيار أفضلهم.

أغلب هذه المقالات تكون متعلقة بخمسة أمور رئيسيّة في الغالب؛ إمَّا بأهداف الطالب للالتحاق بالبرنامج الأكاديميّ الذي تقوم بتوفير تكاليفه المنحة، أو تكون متعلقة بذكر الأسباب التي تجعل من الطالب يعتقد بأنَّه كفء للفوز بهذه المنحة، أو تكون متعلقة بذكر التجارب الأكاديميّة والعمليّة وذكر المهارات القياديّة للطالب عن طريق سرد الأمثلة والقصص الشخصيّة، أو تكون متعلقة بمناقشة خُطة الطالب بعد انتهائه من إكمال البرنامج الأكاديميّ الذي يود الالتحاق به، أو تكون متعلقة بذكر شخصيّة تركت أثرًا إيجابيًّا عميقًا في شخصية الطالب في حياته، ولماذا. هذه الموضوعات هي غالب الأسئلة التي ترد في طلبات المنح، وعلىٰ ضوء ما يكتبه الطالب كإجابة لهذه المقالات؛ تتحدد فرصة فوز هذا الطالب بهذه المنحة أو لا.

سأذكر هنا نصائح عامة يمكن أن تضمن لمن طبقها بطريقة صحيحة فرصة عالية جدًّا في الفوز بالمنحة الأكاديميّة التي يريد، وهذه النصائح تنطبق كذلك علىٰ كتابة الرسائل الشخصيّة Personal statement، والتي سبق أن قلنا: إنَّها تؤثر تأثيرًا كثيرًا في إمكانيّة قبول الطالب في برنامج الماجستير أو الدكتوراه الذي ينوي دراسته، والرسالة الشخصية يجب أن تغطي أمرين أو ثلاثة من الأمور التي ذكرنا أنَّها قد ترد في المنحة، لكن الفرق بين الرسالة الشخصيَّة وبين مقالات المنح، أنَّ الرسالة الشخصيّة لا بُدَّ أن تكتب كوحدة متكاملة، وأن تكون موجهة لإدارة القبول في الجامعة وليس لإدارة المنحة،

وبالتالي يركز المرء فيها علىٰ الأمور التي ستقنع إدارة الجامعة بقبول طلبه.
هذه النصائح التي تصلح لكتابة الرسالة الشخصيَّة أو للتقديم للمنح هي:

(أ) لا بُدَّ أن تبدأ إجراءات الكتابة قبل فترة كافية من تاريخ انتهاء التقديم، وذلك -وللأسف- لأنَّ أغلب تعامل الطلاب مع هذا الأمر يكون في الأيام الأخيرة من فرصة التقديم، وهذا كثيرًا ما يبوء بالفشل لسبب مهم جدًّا، وهو أن كتابة هذه المقالات أو الرسالة الشخصيَّة لا بُدَّ أن يُطبخ علىٰ نار هادئة من المراجعة والتدقيق والتعديل، وهذه العناية الحقيقة تستغرق وقتًا طويلًا في العادة، وكلما بدأ الطالب إجراءات الكتابة باكرًا كانت لديه فرصة جيدة لمراجعة ما كتب، وعرضه علىٰ ذوي الاختصاص والتجربة الذين يمكنهم أن يُفيدوا ويطوروا من مقالاته؛ بحيث تصير أكثر إقناعًا وقبولًا.

* (ب) من المواقع المهمة التي لا بُدَّ للطالب من النظر فيها هو موقع: wwwthestudentroomcouk ويمكن للطالب في هذا الموقع أن يجد الكثير الكثير من نماذج الرسائل الشخصيَّة الممتازة في المجال، أو العلم الذي يريد دراسته، وهي رسائل قد كُتبت من قِبل طلاب متميزين نالوا بها القبول من جامعات عالميَّة مرموقة. فمثلًا إذا كان الطالب يريد أن يكتب رسالة شخصيَّة لبرنامج ماجستير في العلوم الإداريَّة؛ فإنَّه يكتب في موقع قوقل التالي:

management personal statement in the student room؛

فيظهر له رابط يقوده لنماذج الرسائل الشخصيَّة التي كُتبتْ في الموقع.
يقوم الطالب بعد ذلك بالاطلاع عليها والاستفادة من طريقتها في الكتابة، وقد يستفيد من بعض التعابير والألفاظ والتراكيب، لكن لا بُدَّ أن يقوم الطالب بإدخال لمساته وتعديلاته في تلك الجمل أو العبارات التي نقلها، وذلك لأنَّ كل الجامعات والمنح؛ تمر كل المقالات فيها عبر منصة إلكترونيَّة للكشف عن السرقة الأدبيَّة Plagiarism؛ لذلك لا بُدَّ من الحذر من نقل جمل دون التعديل فيها أو إعادة ترتيبها. فائدة هذا الموقع (غير الفوائد المذكورة) أنَّه يعطيك

الإحساس والفكرة العامة بالمستوىٰ الذي يجب أن تصل إليه مقالاتك أو رسالتك الشخصيَّة للقبول.

(ج) بعد الانتهاء من كتابة الرسالة الشخصيَّة ومراجعتها، لعل من أفضل الوسائل للتطوير هو إرسال ما كتبته لشخص متخصص أو صاحب تجربة في الدراسة في الخارج؛ للاطلاع علىٰ ما كتبت ثم التعليق عليه والتعديل، وعلىٰ قدر ما يجتهد الإنسان في هذا علىٰ قدر ما يشحذ ويطور من جودة مقالاته ورسالته الشخصيَّة والذي يؤثر مباشرةً في احتمالية حصوله علىٰ المنحة أو/و القبول من الجامعة.

* آخر ما أريد قوله؛ هو أنَّ أغلب الفُرص والنجاحات التي وُفقت لاغتنامها وتحقيقها، كان العامل الرئيس في ذلك= مجهود صغير متواصل بذلته في وقت سابق في أمر (محدد) من الأمور. فابتداءً بتجربة مراسلتي مع البروفيسور من جامعة إلينوي، والتي أثرت كثيرًا في مساري بعد ذلك ومنحتني الثقة في نفسي والقوة، فإن تلك التجربة جاءت نتيجة لعمل متراكم في دراسة الكورسات (عن بعد)، والتي أكملتها في موقع كورسيرا ولم أكن أعلم، وأنا أدرس تلك الكورسات أنها ستقودني إلىٰ هذه التجربة التي فتحت لي الآفاق، وأيضًا منحة القادة الأفارقة لدراسة الماجيستير في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسيَّة (LSE)، والتي كنت أول سوداني يفوز بها، مع أن عمرها تجاوز الخمس سنوات، هذا الفوز والنجاح في تلك المنحة؛ جاء كذلك كنتيجة لاستراتيجيتي في البحث عن المنح التي ذكرتها هنا، ثم تطبيق هذا الأمر علىٰ مدة زمنية متتابعة من دون كسل ولا ملل. وهنالك الكثير الكثير من التجارب التي يمكن أن تذكر هنا. هذا الدرس جعلني أحتفي كثيرًا بالإنجازات الصغيرة المستمرة أكثر من أي شيء، وجعلني أطمئن كذلك أنني ما دمتُ أبذل قصارىٰ جهدي باستمرار ودون كسل (حتىٰ وإن كانت الإنجازات صغيرة) مع حسن ظنيّ بربيّ؛ فإن ذلك سيقودني للفوز والنجاح. قال الله جل جلاله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ

بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠]، فتأمل كيف جعل السعي والعطاء سببًا في التيسير والهداية لليسرىٰ، أي للسعادة أو للجنة، كما ورد في بعض التفاسير، وكيف جعل البخل والاستغناء والإعراض سببًا للضلالة والعسرىٰ، أسأل الله أن يوفقنا جميعًا للعمل، وأن يمنحنا القوة للاستمرار في العمل، وأن يرزقنا الإخلاص في العمل.

ماذا يعني أن تَدرس في الجَامِعَات الغَربيَّة؟ مقاربات في الأدوار الاجتماعية والسياسيَّة النقديَّة لمؤسسات التعليم العالي في الدول الغَربيَّة

باعتباري رجلًا مغرمًا بالإجراءات والخطوات ويدرس دراساته العليا في إحدىٰ الجامعات البريطانيَّة، فقد شدتني جدًّا الأدوار النقدية والعِلمية التي تلعبها مؤسسات التعليم العالي في الغرب، وشدني أكثر طريقة تفاعل هذه الأدوار مع بعضها.

ولو تجاهلنا الحديثَ عن أفضلية التعليم المنزلي علىٰ المؤسسات التعليميَّة الرسميَّة بكل أنواعها، أو الحديث عن نقد الجَامعات كوسائل للعبودية الجديدة، وكل هذه النظريات التي يمكن أن تَصْلحُ وتَصح (بدرجة من الدرجات) لنقد ووصف المؤسسات التعليميَّة في عالمنا العربي والأفريقي، والتي للعجب تَستندُ في أمثلتها الناجحة إلىٰ بعض النماذج الغربيَّة أو العربيَّة القليلة، وتَتَغافلُ عن أن المدّ الأعظم من الباحثينَ والمفكرين والعلماء في الغرب وفي العالم العربيّ؛ هم أبناء مؤسسات التعليم ما قبل الجامعيّ وأبناء مؤسسات التعليم العالي. والأهم من ذلك أنها تقومُ علىٰ فكرة مغلوطة ولا يتطرق الداعون لهذه النظريات لمُناقشتها وهي: لو سَلمنا بالقصور والاعتراف بهذه الأوصاف للمؤسسات التعليميَّة الرسميَّة، فهل من الأفضل (عند الحديثِ عن الفاعلية) أن نبدع أفكارًا ونخترع إجراءات تُقلل من هذا الضَّرَرَ، أم نقوم بالتَّحَوُّل مباشرةً لوسائل جديدة تمامًا -مثل التعليم المنزلي-

لا تَملكُ نَمُوذجًا لوضعها في إطار مُؤسسي لعلاجِ قضية مثل التَعليم في بلدٍ من البلدان؟!

إذ من المعلوم -كما يقول أستاذي محمد كاروري- أنَّه عندما يفكر الإنسان في شُؤونه الخاصة؛ فإنه «يفكر في عدم الفَشل»، لكن عندما يفكر في أي قضيَّة من قضايَا الشَّأْن العام أو المؤسسي سواءً كانت قضيةً اجتماعيَّة أو اقتصاديَّة أو سياسيَّة مثل قضيَّة التعليم في بلد معين؛ فإنه يفكر في «كيفية تَقليل الفشل إلىٰ أقصىٰ درجةٍ ممكنةٍ»، إلا إذا كانت هذه النظريات تقوم علىٰ مُسَلمة أن هذا الخلَلَ في المؤسسات التعليميَّة الرسميَّة لا يمكن معالجته بأي شكلٍ من الأشكال، وهذا ما لم تثبتْهُ هذه النظريات، أو أن هذه النظريات تقول بأن التعليم المنزلي مُكمل للقصور في المؤسسات التعليميَّة وهنا ينتفي خِلافنا معها.

وبالعودةِ لحديثنا، فعندما أتحدث عن الدور النقديّ والعلميّ للمؤسسة الأكاديميّة في الغرب؛ فأنا أعني في الأساس ثلاثةَ أمور وتَمَثُّلات لهذا الدور النقديّ:

* أولًا: مؤسسات التعليم العالي كمدارس للتفكير النقديّ:

إن نظامَ التَّعليمِ والتَّقويم فيها (علىٰ الأقل بصورةٍ عامةٍ في الجامعات المتميزة منها) يقوم في الأساس علىٰ بناءِ العقليَّة النقديَّة للطالب، ففي العلومِ الاجتماعيَّة (بكل فروعها وتقسيماتها من اقتصاد وسياسة وفلسفة وغير ذلك) يوجد في الغالب لكل مادةٍ أو Course محاضرتين، الأولىٰ هي لعرض الموضوع المعين ويُلقيها المحاضرُ، والثانية تكون فقط لمناقشةِ الأفكار والنظريات التي طُرحتْ في المحاضرة، ودائمًا يطالب الطالب بتوضيح مَوقفهِ من هذه النظريات سواء بالقَبول أو الرفض مع تقديم عِلَلٍ لكل موقف، ويكون من الطَّبيعيّ جدًّا أن تكون هذه المحاضرة الثانية عبارة عن مناظرةٍ بين طالبين أو بين مجموعة طلابٍ مختلفين في الرأي حول فكرةٍ أو نظريةٍ معينة، وقد

لا تُوجد محاضرتان، ولكن يُخصص وقتٌ في المحاضرة للنقاش والتساؤل والاعتراض. وأذكر أنني في العام ٢٠١٤ عندما كنت أقضي المدرسة الصيفيَّة Summer School في معهد الدراسات الأفريقيَّة والآسيوية بجامعة لندن SOAS في كورس مدته ثلاثة أسابيع، أقامت المعلمة بيننا -نحن طلاب ذلك الكورس- قُرابَة خمس مُناظرات فكريَّة جماعيَّة.

والنقطة الأهم من ذلك، أن نظام التَّقويم والتَصْحيح فيها؛ يقوم في الأساس علىٰ إعطاء الطلاب أصحاب المقدرة النقدية العالية أعلىٰ الدرجات الأكاديميَّة، فمثلًا درجات النجاح في نظام التعليم البريطاني عمومًا ثلاثة: نجاح Pass، جيِّد جدًا Merit، امْتياز أو مَرتبةُ الشَّرف Distinction: تُعطىٰ درجة النجاح Pass للطالب الذي يعتمد علىٰ ذِكر الأفكار الموجودةِ في المَرَاجِع والكُتب ويقوم بعَرضها، ويُظهر أنه ذو معرفةٍ بالموضوع وبوجهات النظر المختلفة فيه، أما دَرجة جَيِّد جدًا Merit فتُعطىٰ للطالب الذي يعرض الأفكار الموجودة في المَرَاجِع والكُتب ثم يقوم بتَّقديم نقدٍ لهذه الأفكار والأطروحات ويُبرز أَمَاكن القُصور فيها، أما دَرجة الامْتياز Distinction فلا تُعطىٰ إلا للطالب الذي يَقوم بعرضِ الأفكار الموجودة في الكُتب والمَرَاجع، ثم يقوم بنقدها، ثم يقوم ببناء نظريّة وموقفٍ شخصي من بين كل تلك النظريات. في مثل هذا النظام التعليمي يُجبر الطلاب تدريجيًّا علىٰ تكوين وبناء رأي شخصي وأيديولوجيا فكرية، وقبل ذلك يتعلم الطالب كيف يفكر وكيف يدافع عن أفكاره.

من تجاربي المهمة في هذا الأمر؛ هو ما مررت به في أواخرِ العام ٢٠١٣، عندما كنتُ أقرأ وأتدرب لامتحان الجي آر إي GRE Graduate Record Examination، وهو امتحان تطلبه أغلب الجامعات الأمريكيَّة والكنديَّة وبعض الجامعات البريطانيَّة والأوروبيَّة كمتطلب أساسيّ في الدراسات العليا. وقبل أن أخبرك ما حدث معي وحتىٰ تفهم ما أريد قوله؛ لابد أن تعرف أن

الجي آر إي هو امتحان لقياس قدرات الطالب الذهنيَّة واللغويَّة، وهو مُكَونٌ من ثلاثةِ أجزاء، الجزء الأول (وهو الذي يهمنا هنا) يتم فيه قياس مقدرة الطالب في الكتابة النقديَّة، ويتكون من شقين: الأول عبارة عن موقفِ أو فرضيةٍ مُعينة ينبغي أن تكتب مقالًا حِجاجيًّا مبنيًّا علىٰ أسس المنطق والتفكير النقدي، يدافع عن ذلك الموقف أو ينتقده، ويسمىٰ هذا الشق بـ : Analyze an Issue، ومدته ٣٠ دقيقة. علىٰ سبيل المثال، قد يكون السؤال في هذا الشق كالتالي:

«من المسؤوليات التي تقع علىٰ كاهل المؤسسات التعليميَّة، هي مقدرتها علىٰ ثني الطلاب عن دراسة المجالات/التخصصات التي غالبًا لن يستطيعوا أن ينجحوا أو يبدعوا فيها.

المطلوب: اكتب مقالًا تناقش فيه هذا الادِّعاء، وتوضح فيه إلىٰ أي مدىٰ تتفق أو تختلف مع هذا الادعاء. في كتابتك لحججك التي تدعم بها موقفك، تأكد أنك ناقشت الأسباب والأمثلة التي يمكن ذكرها للاعتراض علىٰ الموقف الذي ستتخذه من هذا الادعاء».

أما الشق الثاني فهو عبارة عن مقال مَكتوب مُسبقًا يدعم حجة معينة، دور الطالب في هذا القسم هو تفكيك وتحليل المقال، ثم كتابة رأيه وتقييمه فيما يتعلق بقوة حجج الكاتب أو ضعفها، وإلىٰ أي مدىٰ نجح الكاتب في التدليل علىٰ حجته، يُسمىٰ هذا الشق بـ : Analyze an Argumentوتكون مدته ٣٠ دقيقة أيضًا. الدرجة النهائية لكلا الشقين تُعطىٰ للطالب من ٦.

وباختصار شديد؛ فإن هذا الجزء الأول من امتحان الـ GRE؛ هو عبارة عن تفكيك للحجج، بالإضافة إلىٰ تركيب وبناء للحجج، وهو ما يتطلب من الطالب أن يكون ذا مقدرة وملكة نقديَّة عالية جدًّا. وهذا المعنىٰ، أقصد معنىٰ أن التفكير النقدي ليس هو مجرد نقد الأفكار وتفكيكها ومعرفة مسلماتها الأساسيَّة، وإنما يتضمن كذلك التركيب وبناء الحجج الصحيحة، هو من

الأفكار الرئيسيَّة التي انتقد بها المفكر السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد الفكر الغربيّ والإلحاد، وحاول بها أن يؤسس لفكرة **أسلمة المعرفة**(١).

بالعودة إلىٰ تجربتي مع امتحان الـ GRE؛ أذكر أنني عندما كنت أقرأ في الطبعة السابعة عشر من كتاب بارون (وهي سلسلة من الكتب لتدريب الطلاب علىٰ الامتحانات العالمية، مثل امتحان الجي آر إي، والآيلتس IELTS، وغيرهما)؛ وجدت في الصفحة ٢٧١ المقطع التالي:

---

(١) يقول محمد أبو القاسم حاج حمد في مطلع مقالٍ له في مجلة المنعطف بعنوان: «الأثر الغيبي في حركة الواقع»: السبت ٠٩/٠١/٢٠٠٤: «توفي الفيلسوف (جاك دريدا) دون أن يكتشف (معنىٰ) الموت، وبعد أن قضىٰ حياته كلها في التفكيك وحتىٰ دون أن يصل إلىٰ (العدمية) ليكون من (المبطلين). فالمبطلون هم (الدهريون)، ولكن دريدا فكك الدهرية نفسها دون أن يصل إلىٰ (التركيب)؛ فالتركيب لا يتم خارج (رؤية كونية) تحلق فوق فضاءات الأرض وموضعيتها.
ويبقىٰ حيًّا في المغرب فيلسوف التركيب، بعد أن أعياه العقل التفكيكي (المجرد) فصرعه باتجاه (العقل المسدد)، الذي يستجمع في الإنسان بين قراءتين، قراءة علمية استقرائية بالقلم؛ تهيمن عليها قراءة عقلية استدلالية تعطي الوجود بما فيه الإنسان (معنىٰ). ثم يحمل (العقل المؤيد) هذا المعنىٰ ليكتشف الوجود في معنىٰ الوجود. وذلك هو (طه عبد الرحمن) في معراج التركيب.
كلاهما متصل بالآخر، ولكن من علىٰ بعد، دريدا وهو يمضي إلىٰ اللامتناهي في الصغر تفكيكًا، وطه الذي يمضي إلىٰ اللامتناهي في الكبر تركيبًا، ثم يفترقان في معنىٰ (الموت) إذ يمضي طه إلىٰ الموت بخطىٰ (سرمدية مطمئنة) فيها البقاء، فيما يمضي دريدا إلىٰ الموت بخطىٰ (لا أدرية) قلقة فيها معنىٰ الفناء. والتفكيكيون لا ينتهون إلىٰ دريدا فقط، فالحفر المعرفي بكافة مضامينه وأشكاله، والمنطقية المعاصرة حتىٰ في نقدها لدغمائية الوضعية الكلاسيكيَّة وتحريرها لفلسفة العلوم الطبيعية منها، ودخول الجميع مجالات التاريخانية والألسنية إلىٰ تحليل النصوص والمقدس منها بالذات. كل ذلك يشكل أزمة اختبار للفكر الديني ولمفهوم الإله، فتغييب الإله يمضي تدريجيًّا، وأحسن المثقفين أحيانًا من يرجئ اللقاء به في الآخرة مع وصفه في مكان جانبي في الدنيا وهو (القلب) أما (العقل المبدع) فللحياة، حيث يتجلىٰ هذا العقل إما في مراكز الدراسات الاستراتيجية أو في المختبرات العلمية، خصوصًا ونحن في غمار الثورة الفيزيائية الفضائية التي تحقق نجاحاتها التطبيقية وفوائدها العلمية إن لم نقل بالاستنساخ البيولوجي دون أن تقول: (إن شاء الله»).
ويمكن لمن أراد التوسع في أفكار المفكر السودانيّ محمد أبو القاسم حول التفكيك والتركيب قراءة كتابه: «**العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة**».

«في الغالب أنت تمتلك معرفة مُسبّقة عن الدرجة التي تريد إحرازها من أجل الالتحاق بالجامعة أو الكلية التي اخترتها أنت مسبقًا. فمثلًا إذا كنت تريد الالتحاق بدرجة الدكتوراة في التاريخ بجامعة هارفرد؛ فلا بد إذًا أن تحقق في هذا الجزء من الامتحان أما ٥,٥ أو٦,» بمعنىٰ، لو كان هذا الامتحان الصعب يتم تقييمه من ١٠٠ فلابد أن يحقق الطالب درجة تقع بين ٨٤ إلىٰ ١٠٠؛ حتىٰ يقبل فقط في الدراسة بجامعة هارفرد لنيل الدكتوراة في التاريخ، ثم بعد ذلك قد تنال الدكتوراة وقد لا تنالها بحسب أدائك في البحث. وهذه المقدار المطلوب في امتحان الجي آر إي (المرتفع جدًّا) في مطلوبات القبول عند كليات الدراسات العليا تجده أيضًا في غالب المائة جامعة الأولىٰ علىٰ مستوىٰ العالم، وبالذات في برامج الدراسات العليا.

يمكنك الآن أن تتنبأ بقيمة وجودة الدراسات التاريخيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة التي سيصدرها طلاب الدكتوراة في جامعة هارفرد أو بقية الجامعات الغربية المتقدمة! كما يمكنك الآن أن تتفهم ما قاله المهندس «أيمن عبد الرحيم» في محاضرة «هندسة اللغة ضرورة أم رفاهية» في الدقيقة ٣٢ بعد الساعة الأولىٰ عندما سأل أيمن عبد الرحيم الدكتور العلامة المعروف **بشير موسىٰ نافع** قائلًا: «أريد أن أقرأ في التاريخ أحلني علىٰ كتب في التاريخ؟!» فرد الدكتور بشير قائلًا: «إيه أخبار اللغة الإنجليزية عندك؟!» فأجاب أيمن عبد الرحيم: «ضعيفة فأنا أقرأ في كتب البرمجيات» فقال الدكتور بشير: «لا لا، يجب أن تحسنها» ثم أردف قائلًا: «سأحيلك علىٰ قائمة فيها ٦٠٠ كتاب عن التاريخ الإسلامي وهي القائمة التي أحيل عليها طلاب الدراسات العليا، وكلها باللغة الإنجليزية ولا يوجد بديل باللغة العربية، والمكتوب باللغة العربية لا يمثل ٥% لتكوين عقليَّة الباحث المسلم المعاصر في التاريخ الإسلامي» ثم ذكر الدكتور بشير موسىٰ نافع: أن أفضل الكتب التي أُلفت عن الصوفية كان باللغة الإنجليزية، وأفضل ما أُلف عن شيخ الإسلام ابن تيمية كان باللغة الفرنسيَّة، إلىٰ آخر ما قال أيمن عبد الرحيم.

وأحد أسباب هذا التأكيد علىٰ أهمية النقد في المؤسسات التعليميَّة الغربية= أن المُحصلة المعرفيَّة التي يستقيها الباحث أو القارئ من أي كتاب أو مقالة علميَّة، ومدىٰ قدرته علىٰ إنتاج مفاهيم معرفيَّة جديدة من خلال دمج هذه المعارف، وتحديده لمواطن الخلل فيها وفي الحلول المطروحة سابقًا= يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالملكة النقديَّة لدىٰ الباحث وقدرته علىٰ التفكيك والتحليل، ثم التركيب والبناء.

وفي الواقع فإن أهمية الملكة النقديَّة تتجاوز حتىٰ كونها ضرورة للباحث العربي إلىٰ ضرورة للحياة الأفضل للإنسان العادي؛ لأن التفكير النقدي في أساسه ليس محاولة لإثبات ما هو خطأ في تفكير الآخرين والرد عليهم، بل محاولة لتحسين معتقدات وقرارات يتعين علىٰ كل منَّا اتخاذها، وهو الأداة الأهم للنقد الذاتيّ وتصحيح مسار حياتك.

وذلك أن التفكير النقدي يضمر مبدأ مهمًّا جدًّا؛ وهو أنَّ الحقيقة الكاملة ليست في حوزة أحد من البشر؛ لذلك لا بد أن نسعىٰ ونسعىٰ لنصل إلىٰ أقرب درجة من الحقيقة، وأن الحوار مع الآخرين هو أفضل وسيلة لفهمهم والاستفادة من تجاربهم، وأنَّك ينبغي أن تقدم تبريرات معقولة لسلوكياتك التي تنفذها كل يوم ولقراراتك اليوميّة ابتداءً من إلقاء التحيَّة علىٰ جارك وحتىٰ الشجار بينك وبين مديرك في العمل!

بين هذا الكم من المعلومات والآراء والتجارب، وبين كل هذه المقالات المتناثرة في الشبكة العنكبوتية، وهذه الكتب التي تقذف بها المطابع كل يوم، وبين كل الأحزاب السياسيَّة والمتحدثون من المثقفين والإعلاميين: ما هو الصواب؟! وما هو الذي يتناسب معي؟! ما الذي يجب أن أفعله الآن، وكيف؟!، كل ذلك= يساعدك فيه التفكير النقدي وأدواته.

*** ثانيًا: مؤسسات التعليم العالي كأداة للنقد المجتمعيّ:**

يمكننا القول: إنَّ مؤسسات التعليم العالي تُمثل آليةً وأداةً من أرفع وأفضل أدوات النقد المُجتمعيّ، سواءً بخصوص القضايا الفكريّة أو القضايا السياسيَّة. وأعني بذلك أن أغلب (إن لم يكن كل) من يُصبح ذا تأثيرٍ في الفضاء السياسيّ أو الفكريّ أو الاجتماعيّ ليس في بريطانيا فقط، بل في أوروبا والعالم ككل، فهو عُرْضَة لدعوةٍ من إحدىٰ مؤسسات التعليم العالي والأبحاث الأوروبيّة لإلقاء محاضرةٍ أو ندوةٍ يوضح فيها أفكاره وسياساته وتجربته الشخصيَّة أو سيرته الذاتية أمام جمعٍ غفيرٍ من خيرة العقول من الطلاب والباحثين، ثم يستقبل نقدهم وآرائهم علىٰ أطروحاته وأفكاره وتجاربه، وبذلك يكون الطلاب في تفاعلٍ حقيقيٍ ومعرفيٍ مع الواقع، ويكون السياسيُ والمفكر في علاقة نقديَّةٍ عاليةٍ ومستمرةٍ مع الواقع. وفي الغالب فإن هذه الندوات والمناظرات والأحداث تقوم بتنظيمها وترتيبها الجامعة نفسها من خلال فريق عمل متخصص في هذه الأمور.

*** ثالثًا: مؤسسات التعليم العالي كأداة للتنميط وللعنف الرمزي:**

وهذه النقطة وثيقة الصلة بالنقطتين السابقتين، وتنفي المِثالية التي يمكن أن يَتصورها القارئ عن هذه المؤسسات، وهي أن هذه المؤسسات التعليمية في الغرب ذاتها عُرْضَة للنقد الشديد من المجتمع الغربيّ؛ إذا حادت هذه المؤسسات عن القيم والأفكار التي يؤمن بها المجتمع واستقر عليها الأمر بين الناس. وهي بذلك تعتبر أحد أدوات الهيمنة (بحسب تعريف الفيلسوف غرامشي للهيمنة[1] السياسيَّة والفكريَّة. وذلك أن الجماعة المهيمنة علىٰ الجهاز

(١) أدرك غرامشي، أنَّ الطبقة المسيطرة لم تكن مضطرةً إلىٰ الاعتماد بشكل منفرد علىٰ القوة القسرية للدولة ولا حتىٰ علىٰ قوتها الاقتصاديَّة المباشرة علىٰ الحكم، بل كان بالإمكان من خلال هيمنتها المعبّر عنها في المجتمع المدني وفي الدولة؛ إقناع المحكومين بقبول منظومة معتقدات الطبقة الحاكمة وأن يشاركوها قيَمَها الاجتماعيَّة والثقافيَّة والأخلاقيَّة. =

المؤسَّسِي المسمَّىٰ بالدولة، تقوم بنفسها بصياغة هوية وثقافة المجتمع الذي سيُطلَقُ عليه اسم الأمة، هذه الأمة تمت صناعة هويتها باستخدام الجهاز التعليمي، والجهاز الإعلامي بالدرجة الأولىٰ، وهي ما يكمل ثنائية الدولة- الأمة، أو الدولة الحديثة.

علىٰ سبيل المثال، فإن من المعروف أن المجتمع البريطانيّ قد مرَّ بمعركة اجتماعيَّة حول حق المرأة في التعليم مع الرجال، وفي التصويت، وهذه المعارك ليست بعيدة جدًّا بل هي في الخمسين سنة الماضية، ولم يحسم بعضها إلا قبل سنوات قليلة. فمثلًا حتىٰ العام ١٩٧٠ كانت كل كليات جامعة أكسفورد العريقة إما للنساء أو للرجال فقط، ولا توجد كلية مختلطة نهائيًّا. وفي العام ١٩٧٤ كانت هنالك خمس كليات في جامعة أكسفورد المعروفة تُدرس كل التخصصات (فكرة الكلية في جامعتي أكسفورد وكامبريدج مختلفة عما يتم تداوله في العالم العربيّ)، ولا يدخلها إلا الرجال فقط، وهي: كلية Brasenose، وكليّة Jesus، وكلية Wadham، وكلية Hertford، وكلية StCatherines حدثت معارك اجتماعيَّة كثيرة متعلقة بالشأن التعليميّ، انتهت في

= إن مفهوم غرامشي للهيمنة أوسع من مفهوم الشرعية عند ماكس فيبر، لأنه لا يقيِّد نفسه بالعمليات التي يتّم بموجبها قبول وكلاء النظام للبنىٰ السياسيَّة من خلال القوة العسكريَّة، بل يبحث كذلك في ميدان الرضا الثقافي والأيديولوجيّ، ويشدد علىٰ دور الدولة بصفتها مربيًا. إن ما يطلق عليه غرامشي اسم «الدولة البوليسية» و«الدولة التشاركية» (أي الدولة بمفهوم وظائفها في فرض القانون والنظام والدولة بمفهوم مصالحها ووظائفها الاقتصاديّة، وهي الدولة التي ينطبق عليها تعريف ماكس فيبر السابق والقائم علىٰ السلطة والشرعية) إنما هي ببساطة مرحلة بدائية وضيِّقة، أكثر من كونها مرحلة معقدة، من مراحل تشكيل الدولة وتطورها. وبالمقابل، فإن مفهوم غرامشي حول «الدولة التكامليَّة» أو «الدولة بمجموعها الكليّ»، ليس مقتصرًا علىٰ الحكومة لكنه يشمل جوانب معينة من المجتمع المدنيّ، وهو مفهوم قائم علىٰ الهيمنة والقيادة. والدولة التي يتوفر فيها هذان المفهومان تحقق مقولة غرامشي «الدولة= المجتمع السياسي+ المجتمع المدني». وعليه، فإن مفهوم «الدولة التكاملية» غالبًا ما يربط بمفهوم «الدولة الأخلاقية» أو الدولة بصفتها مربيًا للشعب من خلال الإعلام ومؤسسات التعليم مثلًا كما سنذكر هنا.

العام ٢٠٠٨ بقبول أول رجل في آخر كلية كانت مخصصة للنساء فقط وهي StHildas. مع ذلك فإن هنالك جامعات وكليات ما زالت مخصصة للنساء أو للرجال فقط حتىٰ الآن، فعلىٰ سبيل المثال في جامعة كامبريدج المعروفة والمشهورة جدًّا، هنالك ثلاث كليات تدرس فيها كل التخصصات لكن لا يدخلها إلا النساء حتىٰ هذه اللحظة، وهي كلية Murray Edwards، وكلية Newnham، وكلية Lucy Cavendish. المقصود عمومًا أن الأفكار والقيم التي تدعمها أغلب الجماعات والأفراد الآن في بريطانيا؛ هي ضد التعليم غير المختلط، وهذه الأفكار ليست أفكارًا مجردة، بل مليئة بحمولة ثقافية ونفسيّة كبيرة؛ من جراء المعارك الفكرية والاجتماعيَّة التي صَحِبت التحولات في حقوق المرأة في التعليم والتصويت.

بالعودة إلىٰ فكرة أن المجتمع الغربيّ ينتقد المؤسسات التعليميَّة إذا انحرفت عن القيم والأفكار التي يؤمن بها المجتمع، وبالإشارة إلىٰ أن التيار العام في أوروبا يدعم بشدة التعليم المختلط، أذكر أثناء دراستي للماجستير بكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسيَّة London School of Economics and Political Science LSE، عندما نظمت جمعية الطلاب المسلمين في الكلية حفل عشاءٍ Gala Dinner، وكانت تذاكر الحفل قد وُزعت حسب الجنس، بمعنىٰ أن الرجال يأخذون تذاكرهم من طلاب الجمعية، والنساء يأخذون تذاكرهم من طالبات الجمعية. وفي العشاء تم فصل الرجال عن النساء بعازل قماشي أطلق الطلاب عليه وصف soft segregation.

هذا الحدث الذي يمكن أن نعتبره بسيطًا جدًّا، ويمكن حتىٰ أن يتم تفهمه، إذا قلنا: إننا في بلد ليبرالي متسامح مع حقوق الأقليات ويعطي الأفراد حرية الاختيار ما داموا لم يفرضوا هذا الاختيار علىٰ غيرهم[1]. مع

(١) يقول البروفيسور طلال أسد في حوار بعنوان «هل ينتمي المسلمون في الغرب؟»، يقول معلقًا علىٰ تناقض العلمانيَّة في رفض فكرة وجود متعالي عند غيرهم: «يبدو لي، ويا للمفارقة، أنَّه علىٰ الرّغم من قول مَن ينصِّبون أنفسهم ملاحدة بأنَّهم يرفضون «التعالي»، إلَّا أنهم في الحقيقة -وغالبًا ما =

كل هذا، فقد ألب هذا الحدث كثيرًا من المجتمع البريطاني وانتقد بشدة تحت تبرير أن هذا الحدث يسيء إلىٰ المرأة ويقيد الحريّة والعدالة بين الجنسين، وأن هذا الفعل الذي قامت به جمعية الطلاب المسلمين، من جامعة تعتبر من أفضل الجامعات في العالم ويدرس فيها نُخبة الطلاب الأوروبيون، هذا الفعل اعتبر إساءة للمرأة وإساءة لقيم المجتمع الأوروبيّ. وقد كتبتْ عن هذا الحدث وردود الفعل عليه صحفٌ بريطانيةٌ كبيرة، مثل Daily mailوThe telegraph و Evening standardوغيرهم. ونقلت صحيفة التليغراف المشهورة عن البروفيسور Alan Smithers المشرف علىٰ مركز التعليم والتوظيف بجامعة بكنغهام Buckingham University قوله: إنه يستغرب جدًّا كيف سمحت كلية لندن بحدوث مثل هذه التجمعات التي يفصل فيها الرجال عن النساء، ثم كررت هذا الاقتباس أربع مرات في نفس المقال!، وقالت صحيفة Daily mail: إن هذا الحدث ينتهك أحد قوانين وسياسات الكلية التي تدافع عن المساواة بين الجنسين، وتنص علىٰ:

«نحن (أي إدارة كلية لندن للاقتصاد LSE) نعتبر أي فصل بين الجنسين في التجمعات داخل كلية لندن LSE أو بواسطة كيان من مجتمع الكلية، نعتبر

= يكون ذلك عن طيب خاطر- يتبعون قوىٰ متعالية؛ من قبيل متعالي السوق، الذي هو جزء مصيريّ في المجتمع الرأسماليّ المعاصر، ومتعالي الدولة -الكيان السياسي الذي يعيش فيه الجميع في عالمنا، والذي يضع علىٰ عاتقنا مقتضيات مطلقة علىٰ ولائنا باعتبارنا مواطنين. وهناك بعد ذلك بالطّبع متعالي «حريّة التعبير»، ندَّعي في مجتمع ليبرالي أنها مقدَّسة، ومن ثَّم فهي تمتلك ميزة مطلقة. لكننا نعرف -أو ينبغي علينا أن نعرف- أنَّ «حريّة التعبير» تسكن مساحة مبنيّة derutcurts ليس فقط «خطاب الكراهية» هو المحظور قانونيًّا في المجتمع الليبراليّ، بل هناك أيضًا قوانين تحمي تداول الموادّ محفوظة الحقوق، وتقليد العلامات التجارية وبراءات الاختراع بدون موافقة صريحة. وبالتأكيد، لا يمكن لأسرار الحكومة والأسرار التجاريّة أن تُخترق دون أن يترتب عليها عقوبات شديدة؛ لأنَّها مظهر لمتعالي سيادة الدولة الحديثة».

ويمكننا أن نضيف إلىٰ قائمة المحظور قانونيًّا في المجتمع الليبرالي، من خلال هذه التجربة= السلوكيات التي تخالف القيم الغربية العامة، وتخالف تعريف الغرب لفكرة «احتقار المرأة».

كل ذلك خرقًا للقانون، ونستثني من ذلك التجمعات الدينيَّة للعبادة، أو التجمعات التي يتم فيها الفصل بين الجنسين اختياريًّا بالكلية entirely voluntary».

في المناظرة المشهورة بين الفيلسوف ميشيل فوكو وبين المفكر نعوم تشومسكي، وعندما طُرحت مسألة التغير السياسي والثقافي في المجتمع، وهو سؤال: «ما العمل الآن؟» كانت إجابة ميشيل فوكو الرئيسيَّة هي: «أحد المهام التي تبدو عاجلة وملحة بالنسبة لي فوق كل شيء آخر، علىٰ الأقل في المجتمع الأوروبي، أن نعتبر القوة مُتموضعة في يد الحكومة، وبأنها تمارس عبر عدد معين من المؤسسات كإدارة الرئاسة، الشرطة، الجيش، وجهاز الدولة، نعرف جميعًا بأن هذه المؤسسات صُنعت لتبث عددًا معينًا من القرارات لتطبيقها ومعاقبة من لا يطيعها. ولكني أعتقد بأن ممارسة السلطة السياسيَّة تتم كذلك عبر عدد آخر من المؤسسات، التي تتظاهر بأنها لا تملك شيئًا مشتركًا مع السلطة السياسيَّة، وباستقلاليتها عن الدولة، غير أنها ليست كذلك. يعلم المرء بأن الجامعة -وبصورة عامة كل الأنظمة التعليمية- التي تبدو وكأنها ببساطة تنشر المعرفة فقط، صُنعت للمحافظة علىٰ طبقة اجتماعية معينة في موضع القوة، ولحصر امتلاكها لأدوات القوة دون الطبقات الاجتماعية الأخرىٰ. يبدو لي أن المهمة السياسيَّة الحقيقية، في مجتمع كمجتمعنا، هي نقد عمل المؤسسات، وخاصةً تلك التي تبدو ظاهريًّا وكأنها محايدة ومستقلة، أي نقدها ومهاجمتها بطريقة تنزع النقاب عن العنف الذي تتضمنه بحيث نكون قادرين علىٰ النضال ضدها. إذا كنا نسعىٰ لطريق مباشر لنموذج أو لصياغة لمجتمع المستقبل، من غير توجيه نقد دقيق لهذه العلاقات بين أشكال العنف السياسيّ التي تُمارس في مجتمعنا، فنحن نغامر بأن نرىٰ سلطة الطبقة هذه تعيد إنتاج نفسها، حتىٰ بعد ما يبدو أنه عملية ثورية في الظاهر».

مشيل فوكو في تلك المناظرة كان مدركًا تمامًا لفكرة؛ أن المؤسسة الأكاديمية في هذا السياق الأوروبي ليست مجرد مكان لتلقي التعليم وتحصيل المعارف أو الشهادات، الجامعة أو مؤسسات التعليم العالي في هذا السياق تُمثل علىٰ المستوىٰ السياسيّ؛ وسيلة من وسائل فرض الأيديولوجيا[١] وميدان من ميادين القوىٰ والسيطرة الناعمة، لذلك لم يقبل الإعلام أي محاولة للتغيير، ليس في سياسات الجامعة وقوانينها، بل مجرد محاولة غض هذه القوانين الطرف عن أي سلوك «يمكن» أن يمثل أفكارًا مخالفة للمعتقدات وقيم المجتمع. وهذه الحادثة وغيرها تجسد كثيرًا مفهوم «العنف الرمزي». وهذا المفهوم المستعار من عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو، يعرض بشكل صحيح السيرورات المستخدمة في أساليب بث المعتقدات كمتمثلات مهيمنة في مجموع المجتمع. يشرح فليب برو ذلك المفهوم بأن المعتقدات أو الأفكار أو القيم، تنمو بالأصل في داخل أوساط محدودة العدد. وهي لا تستطيع أن تفرض نفسها في مجموع المجموعة الاجتماعية، أو في مجموع المجتمع إلا في نهاية سيرورة ترسيخ يشترط لفعاليتها عاملان:

١- عقلنة المتطلبات الخاصة بالوسط الذي شهد ولادتها، بعبارات عامة وكلية. مثلما انتقد هذا السلوك الذي قام به أعضاء جمعية الطلاب المسلمين بأنه احتقار للمرأة، وانتهاك لقيم المجتمع. فقد جعل الإعلام سلوك الفصل بين الرجال والنساء هو تمظهر من تمظهرات احتقار المرأة، ولذلك يجب علىٰ المجتمع أن ينتقد هذا السلوك ويمنعه. فكما ترىٰ فقد قدم الإعلام الانتقاد في صورة عقلانية، وتوسل في نقده لهذا الحدث بقوانين الجامعة. وإن كان غير

(١) يرىٰ فليب برو أن كلمة الأيديولوجيا قد استُعمِلت من أجل عرض مجموعة متماسكة من التَمَثُّلات الذهنية المتعلقة بالتنظيم الاجتماعي والسياسي، ولكن برو يرىٰ أن التعريف الشامل والصحيح لا بد أن يأخذ بالاعتبار ديناميكية الأيديولوجيا، أي قدرتها علىٰ التأثير علىٰ الممارسات الاجتماعيَّة (مثل التأثير في مؤسسات التعليم) عبر سيرورة (إعادة) بناء الواقع الذي تستدل عليه.

صحيح أن مجرد الفصل يعني احتقار المرأة، أو أن مجرد قانون وضعته جامعة ما، له الحق في انتهاك حقوق الأقليات.

٢- البث المهيمن لهذه المعتقدات بفضل مؤسسات تمارس في الواقع نفي المعتقدات المعادية أو الحط من قيمتها. وهذه المؤسسات هي وحدها (من خلال وجود علاقة قوىٰ فكرية، أو ثقافية، أو انضباطية) التي تسمح، علىٰ الصعيد العملي، بهذا «النفي» كما يقول بورديو، أو بهذا «الحرمان» كما يقول هابرماس. إن هنالك دائمًا، وعلىٰ الرغم من المظاهر، شرطة فكرية! وهذه الشرطة الفكرية قد تكون مؤسسات التعليم نفسها (كما قرأنا في قانون الجامعة)، أو سوائل الإعلام (كما يمكن للقارئ أن يرىٰ ذلك من خلال المقالات الصحفية التي أِشرت إليها) أو غير ذلك. ومتىٰ ما وجد في مجتمع معين تسلسل في الشرعية بين المعتقدات، والأجهزة الفعالة للبث الاجتماعي؛ يوجد بالضرورة دائمًا عمل أيديولوجي نشيط في داخله.

ختامًا:

وبالعودة إلىٰ نقد ميشيل فوكو والكثير من المقالات والكتابات النقدية الغربية التي وجهها أبناء الحضارة الغربية لدولهم وفلسفاتهم[١]، فكما يقول أحمد سالم، فلابد أن نسجل أولًا احترامنا لوجود الروح النقدية التي تنتقد صلب الإشكالات في الحضارة الغربية، مهما كان تفسيرنا لها ومهما رأيناها جزئية أو هامشية، خاصة كتابات المفكرين والفلاسفة الغربيين التي لا تحاصرها الحسابات والمصالح. وهذه الروح النقدية سواء إعلاميًّا في صورتها الجزئية أو عند الكتاب والمحاضرين بصورة أوسع= هي من الجوانب الإيجابية التي يجب مد جسور التواصل معها، خاصة وأنه ليس لها نظير

---

(١) يمكن للقارئ كذلك مشاهدة الفيلم الوثائقي ecnegilletnI on dellepexE dewollA، الذي يناقش وينتقد القمع الأكاديمي في الجامعات والمؤسسات التعليمية الأمريكية بخصوص قضية «التصميم الذكي» في قضية خلق الكون وإثبات وجود الخالق.

مقارب في العالم العربي، هذا وحده يستحق الإشادة ويستحق التفكير في إيجاد سبل للانتفاع بهذا الجانب النقدي في الحضارة الغربية حتىٰ ولو كان هذا النقد يتركز علىٰ منطلقات قيمية مختلفة، وحتىٰ لو كنا لا نتقاطع معه كليًّا.

هذه المساحة من النقد؛ هي أهم الأمور التي تجعل من المجتمع الغربي مجتمعًا شديد الحركة والتغيير وتعديل بعض المشكلات بداخل تجربته الحضارية. لذلك من الطبيعي مثلًا أن يكون البروفيسور هجون تشان HaJoon Chang، أحد أهم وأبرز نقاد الرأسمالية والحضارة الغربية محاضرًا في جامعة كامبريدج البريطانية، ومن الطبيعي مثلًا أن تستضيف كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية سلافيوي جيجك، وديفيد هارفي، وتوماس بيكتي، وغيرهم من نقاد الحضارة الغربية، بل أكثر من ذلك فإن كارل ماركس نفسه قد درس في المتحف البريطاني الذي كان رمزًا للإمبريالية الأكثر ضراوة في العالم، والتي اغتصبت الشعوب المستعمرة وحقوق البروليتاريا حول العالم أجمع -بحسب الماركسية!

أذكر أنه من ضمن الأسئلة التي طُرحت علىٰ نعوم تشومسكي في ذات المناظرة، بينه وبين ميشيل فوكو، السؤال التالي: «لدي سؤال إضافي بسيط أو بالأحرىٰ إشارة أود توجيهها إليك، وهي كيف يمكنك وبمواقفك الشجاعة جدًّا تجاه الحرب علىٰ فيتنام، أن تبقىٰ في مؤسسة تعليمية مثل معهد إم آي تي MIT (والتي تعتبر من أفضل الجامعات الأمريكية في التصنيف العالمي) والمعروفة هنا بأنها من أدوات دعم الحرب. وأنها من المنظرين الفكريين للحرب» وقبل أن تقرأ إجابة تشومسكي، ولكي تفهم هذا السؤال؛ فلابد أن تعرف أن نعوم تشومسكي يعتبر من الأناركية النقابية نقطة انطلاق لنموذجه الإصلاحي. وبرأيه فإنه من الضروري إنهاء كل أشكال الرأسمالية المختلفة لكي يتاح المجال لمساهمة العمال المباشرة في مجالس العمال وما إلىٰ ذلك. اللامركزية، الاشتراكية والمساهمة، أفكار مركزية في رؤية تشومسكي الإصلاحية، وهي رؤية تتعارض جدًّا مع النموذج الأمريكي الليبرالي. كانت

إجابة نعوم تشومسكي علىٰ هذا السؤال، والتي تعكس فكرة التوازن الذي تمثله المؤسسة الأكاديمية في الغرب كالتالي: «هنالك جانبان لهذا الأمر: أحدهما كيف يتسامح معهد إم آي تي معي، والآخر كيف أتسامح أنا مع هذا المعهد: بخصوص تسامُح معهد إم آي تي معي؛ فإنه هنا مرة أخرىٰ أعتقد أنه لا ينبغي لأحدهم أن يفكر بتفكير مؤامرتي بشكل مفرط، فصحيح أن الجامعة تعد مؤسسة كبرىٰ لبحوث الحرب، ولكنه صحيح أيضًا أنها تُجسد القيم التحررية المهمة جدًّا. والتي أعتقد أنها متأصلة بعمق في المجتمع الأمريكي لحسن حظ العالم، وبالرغم من أنها ليست متأصلة كفاية لإنقاذ الفيتناميين، ولكنها متأصلة بعمق كافي لتمنع كوارث أخرىٰ أسوأ بكثير» . . . ويواصل حديثه حتىٰ يقول «الأمر ليس بتلك البساطة: هو ليس جيدًا تمامًا، وليس سيئًا تمامًا، بل هذا التوازن الذي تتواجد فيه هذه الأمور معًا، هو ما يجعل مؤسسة تنتج أسلحة للحرب. تكون متسامحة في ذات الوقت للتعامل، بل في الحقيقة ولأكون صريحًا أحيانًا تشجع الشخص الذي يدخل في عصيان مدني ضد الحرب» ثم يمضي تشومسكي في بقية الإجابة علىٰ سؤال ذلك الشخص. والفكرة الرئيسية التي أردت عرضها من هذه الإجابة هي فكرة التوازن الذي تقوم به هذه المؤسسات التعليمية الغربية بين الأدوار النقدية الثلاثة، التي تبدو متعارضة بعض الشيء فيما بينها.

قد يرىٰ القارئ أن بين هذه الأدوار تعارضًا وتناقضًا، ولكن يمكن أن نفهمها جميعًا في صورة مستويات مختلفة، وإن كانت هذه المستويات متعارضة في الظاهر، فإنها تتفاعل في صورة مكملة لبعضها البعض، ومتسقة مع مُسلَّمة الصراع التي يقوم عليها المجتمع الغربي. فالدور الأول يهتم ببناء عقلية نقدية للأفراد والمواطنين في العالم الغربي، والدور الثاني يحاول أن يشكل حواجز نقد ومراجعة للأفراد العاملين بالشأن العام والمفكرين في الغرب. بينما يعمل الدور الثالث علىٰ الحفاظ علىٰ هوية المجتمع وقيمه وأيدولوجياته، ووسيلة من وسائل الهيمنة للحضارة الغربية وحفاظها من الذوبان في بقية الثقافات

والحضارات. بينما تسمح نفس هذه المؤسسات بحضور مستويات من النقد والتوجيه فيها؛ من أجل أن تخفف من حدة الهيمنة، وحتىٰ يشكل ذلك سبيلًا للمراجعة الذاتية والتقويم، وهو نفسه لا ينفصل عن الدور الأول المرتبط بتدعيم فكرة الأيديولوجيا؛ لأن التعريف الشامل والصحيح للأيدولوجيا، كما بحثتها بصورة موسعة في بحث آخر، لا بد أن يأخذ بالاعتبار ديناميكية الأيديولوجيا، أي قدرتها علىٰ التأثير علىٰ الممارسات الاجتماعية عبر سيرورة (إعادة) بناء الواقع الذي تستدل عليه. هذه الديناميكية تجعل من الأيديولوجيا غير ثابتة ثباتًا مطلقًا؛ لأنها تشهد عمليات نمو وتحول، وربما اختفاء وظهور جديدة. ويحدث ذلك في ضوء الأوضاع والمواقف الاجتماعية المختلفة والمتغيرة. وكثيرًا ما يرتبط ظهور الأيديولوجيا ارتباطًا وثيقًا بالتغيرات التي تحدث في مجتمع معين.

المراجع

١- خالد عثمان الفيل، **الاقتصاد السياسي للأيدولوجيا والدولة في العالم العربي**، بحث غير منشور.

٢- محمد أبو القاسم حاج حمد، مقال: «**الأثر الغيبي في حركة الواقع**»، نشر في مجلة المنعطف بجامعة محمد الأول، أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٤م، الموافق ٦ رمضان المبارك ١٤٢٥هـ.

3- Green، Sharon and Wolf، Ira (2008); Barron's: GRE)Graduate Record Examination17 ،(th Edition.

٤- أيمن عبد الرحيم، محاضرة: «**هندسة اللغة ضرورة أم رفاهية؟**»، فريق معرفة، بتاريخ ٤-٦-٢٠١٢.

https//:www.youtube.com/watch?v=hJHndcUqQOY

5- EXCLUSIVE: London School of Economics Islamic Society holds segregated dinner with a curtain across the room to separate male and female students:

http//:www.dailymail.co.uk/news/article/3492872-LSE-islamic-Society-holds-segregatated-event-veil-room-separate-male-fe-male-students.html

6- LSE criticized after Islamic Society holds segregated gala dinner:

http//:www.telegraph.co.uk/education/universityeducation/12194943/LSE-criticised-after-Islamic-Society-holds-segregated-galaa-dinner.html

7- Students hit back over LSE Islamic society's segregated gala dinner:

http//:www.standard.co.uk/news/London/students-hit-back-over-Ise-islamic-society-segregated-gala-dinner=a3206941.html

٨- نزيه الأيوبي، **تضخيم الدولة العربية: السياسة والمجتمع في الشرق الأوسط**، ترجمة أمجد حسين (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٠).

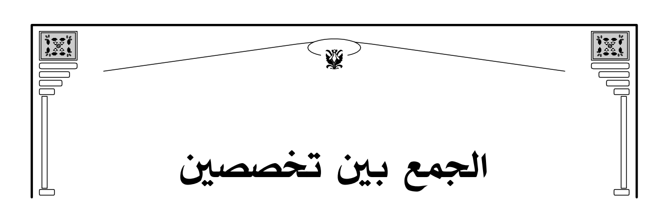
٩ -فيليب برو، **علم الاجتماع السياسي**، ترجمة محمد عرب صاصيلا (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٨).

١٠- طلال أسد، **هل ينتمي المسلمون في الغرب**، حاوره حسن أزد، ترجمة كريم محمد، أوراق نماء، ٧٤.

١١- أحمد سالم، **ذوبوا أو موتوا: ليس ثمة خيارات هنا**، مقال منشور علىٰ مدونات الجزيرة.

١٢- نعوم تشومسكي وميشي فوكو، مناظرة حول «**الطبيعة البشرية: العدالة ضد السلطة**» ترجمة فهد الحازمي وآخرون:

https//:www.youtube.com/watch?v=YcYOuffbQ8c



الجمع بين تخصصين

تجربة في فهم التحدي ومحاولة التجاوز

د. حسام الدين حامد(*)

«روبرتا» هي شابة إيطالية في الثلاثين من عمرها، متخصصة في طب الأورام، ثم تحولت إلىٰ الجراحة، تتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة، وتتمتع بمهارة جراحية معقولة، تكثر من العمل الخيري التطوعي، سافرت إلىٰ كينيا ومدغشقر وغانا ومالاوي في مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات كجزء من نشاطها التبشيري بالمسيحية، مع حياة أسرية واجتماعية معقولة بحسب ما تشاركه وما يظهر من حديثها!

تحضرني «روبرتا» وعديد من أمثالها! حين يسألني طالب عن مستقبله يخشىٰ أن يخرج عن إطار رَسَمه -أو رُسِم له- بأية صورة فيختل نظام حياته، يحول كل فرصة إلىٰ وسيلة لترقيه في المذاكرة والدرجات فحسب، لا يشكل العلم الشرعي -أو الدعوة أو السياسة أو الأدب أو الثقافة أو الرياضة أو صلة الرحم أو العمل الخيري- بالنسبة له أكثر من كونها بعض العوائق التي تمنعه من تحصيل الدرجات، مثلها مثل الهروب إلىٰ مواقع التواصل الاجتماعي أو المقاهي وسهرات الشباب المُلهية!

(*) طبيب مصري يحمل درجة الدكتوراة في الجراحة، يعمل بمركز جراحة الجهاز الهضمي بكلية الطب علىٰ درجة مدرس وله في مجاله عدة أوراق بحثية منشورة. وله نشاط في الدراسات الفلسفية والفكرية، صدر له في ذلك المجال: «لا أعلم هويتي»، و«الإلحاد بين وثوقية التوهم وخواء العدم»، بالإضافة لعدد كبير من المشاركات والمقالات المتنوعة.

إن الحياة أوسع من أن تختصرها في غاية واحدة، وربما كان ما يفوتك أعظم كثيرًا مما جرّبت، وسنين عمرك الأولىٰ هي فرصتك للتجربة، وشبابك أغلىٰ من أن تدفعه مقابل إنجاز في اتجاه وحيد ما دمت تستطيع، ثم إن كانت غايتك أن تركز علىٰ بناء مجدك الشخصي وحفظ اسمك مذكورًا في الآخرين، فلا شك أن الذي يحفر في صخرتين أجدر أن يذكر ممن لم يعرف إلا من صخرة واحدة في التاريخ، وكما قيل «**وقدر كل امرئ ما كان يحسنه**»!

إنّ حاجتك للجمع والتوفيق بين أمرين بينهما تجاذب -وأحيانًا بينهما تعارض ظاهر- ستقابلها كثيرًا في حياتك، وليست مقتصرة علىٰ المجال الدراسي أو المهني في حياتك فحسب، ستحتاج للجمع بين إعلان العمل والإخلاص، الجمع بين الزواج والابتعاث للخارج أو طلب العلم، الجمع بين سعادة زوجتك ورضا والديك، الجمع بين مواقع التواصل الاجتماعي وحياتك العملية والعلمية، والجمع بين الثقافة العامة والترقي في التخصص الدقيق، الجمع بين عملك الخاص وعملك الحكومي، الجمع بين الاتساق الأخلاقي والتصريح برأيك وزيادة دائرة معارفك، الجمع بين العمل الإداري والعمل الفني في مجالك نفسه، وغير ذلك كثير من الأمثلة التي تمس حاجتك وقدرتك علىٰ الجمع والتوفيق في شؤون نفسك وعبادتك وأسرتك وعملك وسائر أمور حياتك!

أستطيع -بسهولة ويسر- أن أعرض لك شريط حياتك إن كنت تنوي تلافي هذا الجمع فيها، أراك في المرحلة الثانوية وكل همك هو المذاكرة والتحصيل، تدون الشروح خلف الأساتذة ثم تذاكرها ثم تعود لتسأل ثم ترجع لتذاكر ثم امتحانات تجريبية ثم في نهاية العام تمتحن لتكون من أصحاب المجموع العالي، في كلية الطب -أو غيرها- ستكون سيرتك نفس المسيرة لم تختلف شيئًا سوىٰ أن التعامل صار مع المعيدين وأساتذة الجامعة ليس إلا، ثم بعد تعيينك في الجامعة سيكون كل همك هو المذاكرة والتحصيل والتعلم ليس إلا .... وفيما سوىٰ ذلك فأنت من أقل الناس اختلاطًا بزملائك في العمل،

ليس لديك أي نشاط رياضي أو أدبي أو ديني أو ثقافي يذكر، لن تتزوج! هذا هو النموذج الذي ينتظرك في نهاية الطريق إن كنت ممن سيختار راحة البال -كما تظن- ويركز جهده في شأن واحد وحسبك!

لا بد أن تعلم أولًا أن المجتمع في حاجة إليك؛ في حاجة إليك محاسبًا أو مهندسًا أو طبيبًا أو تاجرًا أو محاربًا، في حاجة إليك أديبًا أو كاتبًا أو فقيهًا، في حاجة إليك أبا مربيًا وابنًا بارًّا وزوجًا صالحًا، إن هذه الأمة التي ضرب الذل أرجاءها حتىٰ صار حالها فتنة يستعاذ منها وباطلًا يخلع علىٰ الحق الخالص اشتباهًا وحيرة، إن هذه الأمة في حاجة ملحة إلىٰ أصحاب الإنجاز لكثرة أهل البطالة فيها، فإن كان هدفك يتأتىٰ لك بنصف جهدك هذا فوفِّر النصف الآخر ليتحقق بجهدك هدفين وثلاثة!

عندما يردني سؤال من أحد المبتدئين عن المشروع المناسب لحياته، أتذكر عندما كنت في سن المراهقة أسمع عن فلان من الشيوخ ينام أربع ساعات فقط يوميًّا، يستفزني ذلك وأصر أن أفعل مثله، وبالفعل أنام أربع ساعات وأستيقظ، ثم؟!! ثم لا شيء! وهكذا عدة أيام أنام أربع ساعات وأستيقظ ها؟! لا أفعل شيئًا! مللت وعدت لعادة نومي، بعد ذلك بسنين، عندما كثرت الانشغالات صرت أحيانًا أنام أقل من ذلك، دون أن أشعر بهذا أو أحسب له!

إن الغالب أن السائل لم يفعل شيئًا بعدُ، هو في بداية الطريق ولكنه يريد أن يعرف نهايته!! يريد أن يعرف نتيجة مكتب التنسيق وهو في الابتدائية!! يا عزيزي! ما ضر لو دخلت من كل باب، وقطعت شوطًا في كل طريق، بما يتيسر لك من إرشادات جزئية؟! ما ضر لو فعلت ذلك؟! ومع الوقت ستجد لنفسك أهلية لغاية معينة دون كثير حسابات، فإن كنت في حيرة حينئذ فستكون بين عدد محدود من الخيارات مع وفرة من المرجحات وبصيرة بالمؤهل لدلالتك علىٰ الطريق!

لا تنظر أبدًا إلىٰ الوقت الذي تقضيه في التجربة حتىٰ تصل إلىٰ الاختيار علىٰ أنه وقت ضائع، لا تجعل تعلقك بالإنجازات المعلنة في سيرة غيرك ينسيك أن هناك «كواليس» لتحقيقها، تعود أن تستمع بالطريق ذاته كما تفرح بالنزول في محطة الوصول، لا تكن كما قال إيكارت تول «**يقضي بعضهم كامل حياته في انتظار أن يبدأها**»، تتخلص من محطة إلىٰ أخرىٰ تحسب أنك في النهاية ستفرغ للحياة كما تريد، هذا وهم كبير ومضيعة لمتعة عظيمة!

كنا مرة بصدد إجراء تدخل جراحي لمريض بالسمنة المفرطة تخطىٰ وزنه مائتي كيلوجرامًا، وطلب أساتذة التخدير أن يوقع المريض إقرار خطورة، فأقرّ دون أدنىٰ ممانعة وقال: «هو أنا عايش أصلًا عشان أخاف من الخطورة!!»، فاعجب إذن ممن لا يفعل شيئًا في حياته، ويخاف من احتمال أن يتعلم بطريقة معينة ثم يظهر له أن تلك المنهجية ليست هي الأمثل، اعجب إذن ممن لا يفعل شيئًا ولا يصبر علىٰ شيء، ثم يطلب من الناس تحديد مشروع الحياة!

فإنّ جربت ووقفت علىٰ ما تجد نفسك فيه من مجالات، فإن أول ما سيقف عقبة في طريقك للجمع، هو البحث عن القدوة، ونصيحتي ألا تنتظر كثيرًا أن تصل إلىٰ القدوة المتحققة في الواقع قبل أن تتخذ سبيلك، لأن غالبية المتصدرين في الواقع لم يتحقق منهم الجمع إلا بطريقة صورية، فتجد أن الجمع عنده يعني أنه حصل علىٰ شهادة الطب أو الهندسة أو التجارة، ثم حصل علىٰ درجة الماجستير -إن كان- بعد عشر سنوات من تخرجه، واتخذ صورة من صور العمل الخاص- إن كان أيضًا- بناء علىٰ هاتين الدرجتين، وهو في ذلك كله ليس له همٌّ إلا الطريق الآخر الذي اختاره دون أية بصمة في طريقه الأكاديمي! مثل هذه القدوات المتصدرة لا تصلح لك كي تحتذي بها وترسم أحلامك علىٰ منوالها!

كانت هناك ظروفٌ عدة دفعت بعض منتسبي الجامعات في العقود الثلاثة الماضية -وما زال لبعضها وجود حتىٰ الآن - للانطلاق في اهتمامات دينية أو سياسية أو ثقافية موازية للخط الجامعي، ثم تخرج هؤلاء وصار منهم من

يدعي الجمع بين السبيلين، وكانت كلفة هذا الجمع وتحقيق هذه الدعوىٰ يسيرًا في هذا الوقت لأن المجتمع -رغم دعوىٰ الانفتاح- كان مغلقًا علىٰ نفسه ورموزه إلىٰ حد كبير، ثم لما انفتحت السبل بالسفر للخارج والتواصل بالإنترنت ثم دخلت مواقع التواصل الاجتماعي علىٰ الخط، وتنامت المجالات العملية والثقافية والدينية رأسيًّا وبزغت الكوادر الصلبة في كل مجال، وبلغ التنظير حد الجدالات والنقد، لما حدث ذلك تبين أن كثيرًا ممن كان يدعي أو يشار له بالجمع بين سبيلين لم يجمع بينهما وإنما ترك أحدهما علىٰ الحقيقة! بل في كثير من الأحيان اتضح أنه لم يحقق أي إنجاز يذكر في أيٍّ من السبيلين!

وكثيرٌ مما ترىٰ عيناك ما هو إلا سراب لامع، وانتفاخ لا حقيقة وراءه، ودعاوىٰ كعرض المشرقين إفكًا وزورًا، وخديعة من غير وجل، وجرأة لا يخالطها خجل، تسير في فلكها نفوسٌ عجلىٰ، وعقول ساذَجة . . . وثِقْ أنه لو كان فينا معشار هذا الوهم حقيقة، وذلك الانتفاخ سمنًا، وتلك الدعاوىٰ صدقًا، وهذه المخادعة عملًا، وتلكم الجرأة إخلاصًا، لما كانت هذه حالنا، والله حليم رؤوف!

فليس أشأم علىٰ هذه الأجيال من هذه النفوس المهووسة بالتصدر، تلك التي تُشغِّب علىٰ النشء الصاعد بتهاويل ومخاريق وأكاذيب تخطف أبصارهم، فيجعلون من أنفسهم أحلامًا زائفة وسرابًا خادعًا يملأ وجدان هؤلاء الشباب، حتىٰ يخوض أحدهم في بحر من الكذب والتعالم من أجل مديح يلمع علىٰ الضفة الأخرىٰ. فضاع وأضاع! وضل وأضل!

سألني أحد الأصدقاء قبل امتحان دكتوراة الجراحة بعدة نصائح فيما يقرأ ويفعل قبل الامتحان فنصحته، كان ذلك بعد نجاحي بسنة تقريبًا في ذات الامتحان، فأخذ نصائحي وأخبر بها زملاءه؛ فقال له أحدهم بمنتهي الجدية «لا تسمع لفلان! فإنه نجح في الدكتوراة من أول مرة! عليك بفلان فقد دخل

الدكتوراة أربع مرات!»، فلما أخبرني بما حدث قلت له «إن كانت الغاية هي كثرة الدخول؛ فقد صدق!».

كثير من المسترشدين يقيس إنجاز الناس بالمدة، ويحسب الخبرة بالزمن، ويسترشد بالأقدم، ومعياره أسبقية الحضور وحسب، فكان عاقبة ذلك سوءًا أن تصدر أصحاب المظاهر، الذين يسترون خيبتهم بالمعارك القديمة والألفاظ الرنانة، يتمثلون قول القائل:

«إن الخبرة هي الاسم الذي يطلقه بعض الناس علىٰ أخطائهم لا إنجازهم».

"Experience is the name some people give to their mistakes!"

الغرض أن تنتبه أنك إذا رأيت الرجل يراوح مكانه، وكلامه الآن هو كلامه منذ أعوام، واهتماماته هي هي، وألفاظه هي هي، ومعاركه هي هي، وأهدافه هي هي، وليس له من انجاز إلا القدرة علىٰ رصف الكلام، والانتساب إلىٰ التعلم منذ ألف عام، فانفض يدك منه، وابحث عن أهل الجد الذين يفرض نجاحهم وإنجازهم نفسه، فذلك أجدر أن يختصر لك كثيرًا من السنين الغالية!

ومما يزيد البحث وعورة بخلاف تصدر من ليس أهلًا للاقتداء به، أنك في بداية رحلتك لن تكون مؤهلًا للوقوف علىٰ أسماء الكوادر في مجال واحد فضلًا عن الكوادر في مجالين، والكوادر الحقيقة بالظهور غالب شأنها أنها لا تظهر ولا تعرف، وأن انشغالها بالتعلم والإنجاز لا يترك لها وقتًا للظهور والتصدر، بل إن كثيرًا منهم يفر من هذا الظهور إلا حينما يكون الظهور نفسه جزءًا من متطلبات الإنجاز!

ثم إن استطعت أن تصل إلىٰ تلك القدوة فاحذر أن تصير هي نفسها عقبة لك من جهتين، الجهة الأولىٰ أن تبث في نفسك الإحباط، ذلك أنك ترىٰ المنتج النهائي لعملية السعي، ولا ترىٰ من هذا المنتج إلا الجزء الإعلامي الدعائي فيه، فتشعر -وأنت الذي لم تبدأ السعي بعد-أن الطريق مُشقة طويلة،

ثم إنك إن استطعت أن تغالب هذا الشعور وتبحث في السيرة الذاتية لهذا القدوة، فستجد أن غالب السير الذاتية تشبه السهم الذي ينطلق ليشير إلىٰ هذا الجانب الدعائي، وكأن هذا العَلَم وُلد ليكون هكذا!!

إن النفس البشرية تميل لأن تجعل من سيرتها قصة ذات معنىٰ كما يقال، تميل إلىٰ محو التفاصيل غير الجذابة، ونسيان التجارب المؤلمة، ودفن مواطن الفشل، تميل النفس إلىٰ تعداد خطواتها الثابتة الواثقة في عدّاد زمني متدرج حتىٰ يصل إلىٰ لحظة النجاح، بينما أنت في لحظتك الراهنة تتابع عليك المحاولات الفاشلة والعثرات التي بالكاد تنهض منها، تظن أن هناك بابًا واضحًا أنت لم تدلف منه بعد، بابًا تحاول التماسه محاولًا الوصول للسلم ومن ثم يبدأ العداد الزمني، بابًا لم تصل إليه رغم تكرار المحاولات؛ فتيأس وتفقد الأمل!

الجهة الثانية التي ينبغي الحذر منها حين تصل إلىٰ قدوتك أن تلتهمك وتسحبك إلىٰ الهالة التي حولها فتصير مجرد «معجب»، تمضي وقتك وأنت تحاول الاقتراب، ثم إن اقتربت صار منجزك الذي يشبع نفسك وتفخر به؛ هو أنك تعرف «فلانًا» ولك الأسبقية في معرفة أخباره وأعماله!! فتكون لا شيء إلا زينة في ثياب هذا «القدوة» كانت تلك الزينة شيئًا من الذهب أو شيئًا من القماش، صدقني! لا أحد في الأحياء يستحق هذا الهوس، فلا تكن مطارِدًا لأحد بهذه الصورة أبدًا!!

وآفة هذا الفخ؛ أنك تقع فيه وأنت لا تشعر، بل تتوهم أنك ما زلت علىٰ الطريق، وكيف لا؟! ألست مقربًا من السيد «فلان» تعرف أخباره ويسألك الناس عن أنبائه؟! ألست مساعده وصفيَّه وأول من يتبادر إلىٰ الأذهان لمعرفة أحوال هذا العَلَم؟! ألست متخصصًا في حياة العالم فلان وأدرىٰ الناس بسيرته وأعلمهم برحلة ترقيه؟! أليس في ذلك شيء عظيم من الجاه بين المريدين والطلبة والقراء؟! فخٌّ عظيم تسقط فيه وأنت لا تدري، بالعكس تنفد منك أيام عمرك وأنت -محلك- سعيد بهذا الفقد!! إن كان يُذمّ الرجل فيقال فيه «إنه

يتكلم عن العلم لا في العلم» فما بالك بمن غاية شأنه أنه يتكلم عن فلان»؟!

كنت أحضر لمدة مع أحد رموز جراحات المناظير في القاهرة، أثناء الجراحة يُمسك له كاميرا المنظار شخص واحد في كل المرات التي شاهدته فيها، ومن خبرتي بالمناظير ولأني تدرجت من حمل الكاميرا إلىٰ المساعدة إلىٰ أن أكون الجراح الأساسي؛ أستطيع تقويم أدائه بسهولة، إنه متمكن من التحكم في الكاميرا لدرجة الاحتراف، فما سألت أُخبرت أنه يمسك الكاميرا لهذا الجراح منذ ست سنوات، ويُثني عليه أحد الحضور بأنه أحسن من رآه يمسك الكاميرا في المناظير، نعم يا سيدي ولكنه مهما علا فإنه ما زال «حامل كاميرا» وليس جراحًا أساسيًّا؟!!

هناك أدوار أخرىٰ بخلاف دور «صفي الشيخ» أو «المساعد الأول»، أدوار أخرىٰ تبدو وكأنها مشبعة مفعمة بالإنجاز، مثل دور «المحلل أو المعلق» دون اشتباك بالأحداث، أحد الجراحين -ضعيف المستوىٰ-دخل علىٰ حالة استئصال طحال ووجد أن الحالة أصعب من أن يقوم بها؛ فاستعان بآخر أقل منه أكاديميًّا ليقوم بها، يُعتبر هذا في عرف الجراحين حرجًا بالغًا واعترافًا شديدًا بالقصور، الذي استوقفني أن الذين سمعوا الحكاية من الجراحين كان تعليقهم أنه لو كان ذكيًّا بما يكفي لقام بمساعدة أحد الجراحين الصغار من وضع المعلم المرشد، ولا يتصدر ليكون هو الجراح الأساسي، فوضع المعلم المرشد يسمح له بإلصاق الأخطاء بالجراح الأصغر، ولو حدثت مشكلة فلن يكون عليه نفس الضغط العصبي، وربما كان الجراح الأصغر أكثر مهارة فيكمل الحالة دون مشاكل أصلًا!

هناك مقولة شهيرة بالإنجليزية:

«من يستطيع يفعل، من لا يستطيع فإنه يُعلِّم»

He who can "does". He who cannot "teaches"!!

كثيرًا ما يكون دور «المعلم -المحلل-المعلق» ما هو إلا ستار لعدم القدرة وترك مخاطرة الاختيار وضعف العلم ليس إلا، هو لا يشتبك بأي ملف

علىٰ الإطلاق ولكنه «مهتم بالتحليل»، لا تستطيع أن تحسبه علىٰ نشاط علمي أو سياسي أو دعوي أو أي شيء، ولكنه ذو تعليق حاضر بعد انتهاء الاشتباك واستقرار الأحوال!

وهناك دور «المجتهد الجزئي» ذاك الذي لا يعرف من الأصول شيئًا إلا أن الاجتهاد يتجزأ، ولا يعرف من الفروع إلا الموضوعات الساخنة علىٰ ساحة الجماهير، كلّما عنّ له موضوع منها؛ ذهب فبحث عن بحث أو كتيب يتناولها، فتجده يعرف الأقوال المتعارضة في تلك الموضوعات، وشيئًا من مآخذ كل قول وأدلته تميزه عن العاميّ، ثم قد يرجح قولًا بحسب ما انتهت إليه قراءته، هذا في أحسن الأحوال وإلا فإن عُدة بعضهم لا تزيد عن محركات البحث الإلكترونية، وهكذا دون أي تدرج أو نضج يقوده أو يؤهله للوصول إلىٰ أو للحكم في شأن هذه القضايا الجماهيرية التي ربما كان بعضها من النوازل التي يتريث المحققون في البت في شأنها!

أعرف جراحًا عزيزًا يفتقد إلىٰ كثير من مهارات الجراحة، ومستواه في المجمل مقبول، وإمكانياته تؤهله لأن يكون أفضل مما هو عليه بكثير، مشكلته الكبرىٰ أنه يقرأ كثيرًا في النقاط الخلافية وحسب، يقف علىٰ الجديد في الأبحاث ويثيره دائمًا ويسترعي انتباه الناس، تلك السعادة البالغة التي تظهر علىٰ وجهه ونحن نستمع له تجعلني أجزم أن رضاه بهذا «الدور» هو الذي يعطله، هذا الرجل لو أحس بأن ما يفعله محدود الأثر لا قيمة له؛ لاهتم بتطوير ملكاته وأدواته واستغلالها بدلًا من جذب انتباه الآخرين بمواضع الجدل في ممارسات جراحية هو لا يحسنها أصلًا!

مشكلة هذا «المجتهد الجزئي» أنه يحظىٰ بسمعة جيدة لدىٰ غير المتخصصين، وقد يعده بعضهم مرجعًا لهم حال السؤال، هذه السمعة تعمل عملها في النفس؛ فتنسىٰ حقيقتها، وتغرق في وهم التعالم راضية بثناء العوام، وثناء العوام مهلكة المبتدئين، لكن هذه السمعة لا تشبه شيئًا إلا فقاعة من الهواء تزول عند أول صدمة بين يدي التحقيق والإتقان، سواء كان ذلك

بالغرور الذي يدفع صاحبنا للخوض فيما خلا القشرة العلمية التي يداري بها جهالته، أو بسوء حظ يوقعه بين يدي أحد المتخصصين فيزن كلامه؛ فيقف به علىٰ حقيقة موضعه في ساحة العلم!

هناك نوع خاص من هذا «المجتهد الجزئي» وهو الذي يعلق موضوعات اجتهاده بالأشخاص لا بالعلم نفسه، إذ يكتسب سمعته العلمية من معرفته بالخلافات الشخصية بين العلماء أو المشاهير، فهو يعرف جيدًا متىٰ بدأ الصراع بين فلان وفلان، وكيف تطور الصراع حتىٰ تدخل زيد ليحل الإشكال، ويدرك أن هذا من «كلام الأقران» الذي «يطوىٰ ولا يروىٰ»، وهكذا يقتات علىٰ متابعة مثل هذه الصراعات، إن أكثر ما يضيع وقتك؛ أن تنشغل بصراعات لا تهمك، سواء بالمتابعة، أو محاولة الوصول لحكم، أو ترك الاستفادة من أحد أطرافها، أو المشاركة فيها!

وهناك «رجل المناهج» الذي اختار دور «المخطط» ذاك الذي يعرف المناهج والمشايخ، خبير بالفرص المتاحة والمنح المعلنة، شغوف بمعرفة الآراء في الكتب، وفي حيرة تامة أيبدأ بهذا الكتاب أم ذاك، ويريد أن يستخلص المؤاخذات الدقيقة علىٰ منهج فلان؟! في ذهنه عدد لا يكاد ينتهي من أسئلة «ما رأيك في فلان؟!» وهكذا . . . . ثم بعد هذا الجمع والترتيب والتمحيص والتشديد؛ تجد أنه لا يقرأ ولا يبدأ ولا يسمع ولا يستفيد!

هو ذاك الذي يعرف كل شيء عن المنح والبعثات في مجاله، ويستظهر أسماء أعلام المجال في بلده والبلاد الأخرىٰ، ويدرك كيف تدرَّج كل ناجح ممن يُشار إليهم حتىٰ وصل، بين الحين والآخر يملأ طلب الالتحاق بتلك البعثة أو الحصول علىٰ هذه المنحة، ويراسل هذا الأستاذ للحضور معه والاستفادة من خبراته، ثم ينفض كل ذلك إلىٰ لا شيء!

وهذا الذي له خمس سنوات، يعيد باب الطهارة كل سنة مع شرح، ينتهي مرة عند أنواع المياه، ومرة عند نواقض الوضوء؛ يعيد حفظ القرآن كل سنة مع قارئ، ينتهي مرة عند الحزب الأول ومرة عند الجزء الأول، ويعيد

دراسة العقيدة كل سنة مع شيخ، ينتهي مرة من نصف «٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة» ومرة من «كتاب التوحيد»، وهذا هو عجز القادرين علىٰ التمام الذي لم يرَ المتنبي عيبًا مثله، وقد صدق، وهذه عملية إجهاض محرمة لطاقة كامنة ضاعت بين الكبر والكسل!

وهناك دور «داعية العلم»، وهو الذي يدعو إلىٰ التعلم والعلم، ويمنينا بحلاوة التقدم وفضل التكنولوجيا، ويتغنىٰ بحاجتنا إلىٰ الجد والانشغال بما ينفع، كثير الشكوىٰ من تفشي الجهل والتعاليم، حزين علىٰ تغلغل السطحية في محافلنا، يزين حديثه بكل أثر وقصص يدعو إلىٰ التعلم، ثم لا تجد له حظًّا من دعوته تلك، وأكثر هؤلاء هم ممن تأذىٰ بتعصب الجهال وأنصاف المتعلمين، هم المتعرضون لصدمة حضارية بصورة أو بأخرىٰ، وبسبب انتقادهم للخطاب التقليدي يجدون أنفسهم بين دعاة التنوير، فيركنون لتلك الحفاوة ثم لا ينجزون شيئًا!

يمكنني أن أضرب مثالًا علىٰ ذلك بالكاتب الصحفي فلان، فهو خريج كلية الطب، ولكنه موجه كل كلامه ومقالاته وبرامجه للحرب علىٰ الجهل والخرافة بزعمه، ثم حين تنظر في شأنه هو نفسه؛ تجده ترك الطب، ولم يحسن الأدب، وليس له في عالم الأفكار من شيء، وحاليًا يقدم برامج طبية علىٰ قناة خاصة تستضيف فيها المتحدثين عن أنواع الكريمات المرطبة للجلد وهكذا، ومع ذلك فهو علىٰ قناعة بأنه علىٰ طريق العلم!

الآن وقد جربت وتعلمت واخترت أي الطرق تريد، الآن وقد قررت أنك تريد البذل الجاد في سبيل ما اخترت، بعيدًا عن أوهام «صفي الشيخ» و«رجل المناهج» و«المجتهد الجزئي» و«المحلل المعلِّق» و«داعية العلم»، فإن هناك مجموعة من النصائح التي تعينك في مسيرتك هذه:

أولًا: (اختر ما تحب)، بالطبع لا تتيسر تلك الرفاهية في كافة المجالات لعدة أسباب؛ أهمها أنك في الغالب لا تدرك أهمية الاختيار إلا بعد أن تكون قد تم الاختيار لك بالفعل، فإن كان من المتيسر الممكن أن تغير

المسار إلىٰ ما تحب؛ فافعل، وإن كان الأوان قد فات في أحد المجالات؛ فاجعل بقية المجالات محل اهتمامك مما تحب، ثم ابحث في المجال الذي لا تستطيع تغييره عن أمر يستهويك ويرفع همتك ويدفعك للبذل مثل منافسة زميل أو ثناء أستاذ أو تحقيق سمعة طيبة أو خدمة إنسان، أنت أدرىٰ الناس بمفاتيح نفسك فادفع لها بما يحفزها ويرضيها!

أهمية اختيار ما تحبه وتعلقك به؛ تنبع من أثر ذلك في صبرك علىٰ مشاق الطريق، وترفع قابليتك للنهوض من الكبوات، وتحصنك تجاه ما سيلقيه في روعك أهل الإحباط أو أعداء النجاح، لذلك ابحث عن أمر تحبه في مجالك الذي لا تستطيع تغييره، واختر سائر المجالات بعد التجربة والتأكد من مناسبتها لك، ولا تختر شيئًا لأن الناس تقول عنه أو تنصح به، دون ممارسة! بل أقول لك؛ إن فكرة الجمع نفسها إن كانت بناء علىٰ رغبة في التقليد أو تأثرًا بنظرة المجتمع، ولم تنبع من رغبة صادقة وطاقة نفسية تسعىٰ للإشباع، فدعك منها، إن كنت تجد نفسك في مجال واحد ولا تستطيع -أو لا تحب- أن يكون معه سواه فاكتفِ بذلك وانقطع له؛ فإنه أيسر لك وأجدر ببلوغ الإتقان!

ثانيًا: (معرفة معالم الطريق)، حاول من خلال سؤال الكوادر والسابقين الناصحين في المجال؛ أن تعرف المعالم والمحطات الرئيسة به، ودرجات الترقي والتدرج وعناصر بناء المجد فيه، ومن خلال هذه المعرفة؛ تستطيع تحديد الأولويات والخطوات المؤدية لهذه المعالم . . . أضرب لك مثلًا من المجال الطبي، فإن التميز فيه يتأتىٰ من خلال الممارسة العلمية المبنية علىٰ الدليل، والنشر العلمي في المجلات العلمية -وكلما علا معامل تأثير المجلة كان أفضل- وفي المؤتمرات العلمية لنتائج الأبحاث العلمية، والمشروعات البحثية، والتدريس الأكاديمي، هذه هي الأربعة التي يتنافس فيها المتخصصون في الطب، وكلما استكثرت منها؛ زادت مكانتك في تخصصك ومن خلالها تصل إلىٰ الجوائز العلمية، ومن خلال معرفتك بهذه الأربعة تستطيع أن تبدأ

في البحث والسؤال لتنجز، وبذلك تخرج من المشكلة التي يقع فيها كثير من صغار الأطباء أنه لا يدري كيف يتميز في مجاله أصلًا!

ثالثًا: (الدراسة النظامية تختصر الطريق) ما أمكنك أن تترقىٰ من خلال دراسة أكاديمية منظمة؛ فهو لا شك أيسر لك وأكثر إلزامًا من المجهود الفردي، بشرط أن تكون الدراسة النظامية عندك ممثلة للحد الأدنىٰ الذي ينبغي أن تعرفه ثم تزيد عليه، لا أن تكون هي الحد الأقصىٰ والغاية العظمىٰ التي تصل إليها ثم حسبك! إن لم تكن هناك فرصة للدراسة النظامية؛ فاستعن بمناهجها بصورة مستقلة أو بمنهج آخر ينصح بها المختصون واجتهد في الجد فيه!

رابعًا: (واقعية الاختيار)، في الفترة الأولىٰ من التجارب في شتىٰ المجالات ستستطيع الوصول إلىٰ ما تجد نفسك فيها، وتشعر من خلال رضاك الداخلي وردود أفعال مَنْ حولك من المتمكنين الناصحين -وعليك أن تبحث عنهم- أنَّ أداءك فيها أحسن مما سواها، عندما تصل إلىٰ هذه المجالات فتخير أقربها لقلبك وأقواها مناسبة لإمكاناتك، دون أن يكون دافعك للاختيار هو وجاهة التخصص أو نفوذه في الواقع، اختر ما يناسبك ولا يستهلك كل طاقتك!

ثم عليك أن تراعي في اختيارك التخصص الذي ستلتزمه وطريقة الممارسة التي تنويها حالة الجمع بين مجالين أو أكثر كما تنوي، بعض التخصصات تحتاج لمجهود عضلي وفكري مع سفر وترحال كثير في بداية الطلب، ثم بعد ذلك تسحبك إلىٰ كثرة الانشغال بعد التمكن، وبعضها تكون متطلباته أقل من ذلك كثيرًا، فينبغي أن تضع ذلك في الحسبان حال الاختيار، مستعينًا بنصائح السابقين لك، لاسيما أهل النصح وأولئك الذين عرفوا شخصيتك عن قرب، ناظرًا إلىٰ حال الأجيال الناجحة المعاصرة التي سبقتك والحال التي هم عليها، لأن حالك سيكون مثلهم عندما تصل إلىٰ سنهم في الغالب!

خامسًا: (جدد نيتك ولا تعجز)، غالبًا ستكون النية التي دخلت بها أي مجال هي نية عمومية بطلب الثواب ونفع الناس وبناء مجدك الشخصي[١]، استحضر دائمًا هذه النوايا وأضف إليها ما يقابلك من الخلل في المجالات التي ستدرسها وأنك تسعىٰ لسد هذا العجز وجبر ذاك الكسر أو تجديد ما اندرس، استحضار هذه النوايا بين الحين والآخر؛ مطلوب لدفع الكسل والإحباط عن نفسك، وإيقاظ وقود السعي في سويداء قلبك! وثق أن صبرك في سنين الطلب؛ سيزول أثره تمامًا عند أول ذوق لتلك الثمار التي كنت تنذر نفسك لها!

سادسًا: (الزملاء مؤشر لا غاية)، متابعتك لمن حولك من الزملاء مؤشر لك للمستوىٰ الذي ينبغي أن تصل إليه، دون أن تستغرق في المتابعة حتىٰ يكون كل همك هو المنافسة وحسب فلا تنسَ أنك -لا كزميلك-صاحب همّيْن وتسعىٰ في طريقين أو أكثر، فقد لا تلحق بإخوانك في ختم حفظ القرآن، كي تحضِّر نفسك لامتحانات دراسية مهمة، أو علىٰ الجانب الآخر قد تضحي بالمذاكرة فترة قصيرة من شهور الدراسة مقابل فرصة في طلب العلم الشرعي تعلم أنها لن تتحقق لك لو تركتها! ومَنْ هذا شأنه فلا يستقيم له أن يكون شاغله الأول هو منافسة زملائه والتفوق عليهم، وإنما عليك أن تستخلص من متابعتك لزملائك المستوىٰ الذي ينبغي أن تصل إليه والجهد الذي تحتاج لبذله

(١) ما يفسد علىٰ المرء دينه ودنياه؛ دعوته -فضلًا عن سعيه-لإلغاء «الأنا» من دنياه ودينه، وهي دعوة وجدت مدخلها من الغلو في مفهومي الزهد والإخلاص، فالغلو في الأول؛ أفسد سعي الدنيا والغلو في الثاني؛ أفسد سعي الآخرة، حتىٰ ترىٰ من يدعي أنَّ لذة العبادة من تعجيل الطيبات في الدنيا، وأن قيام المرء لقيام الليل لما يصحبه من راحة نفسية شرك، وأن تزين المرء في ثيابه وبيته منافٍ لطلب الآخرة! وهذه دعوة تنافي فطرة الإنسان بل تنافي حقيقة وجوده، بل تنافي مفهوم ترتيب الثواب والعقاب علىٰ الطاعة أصلًا، بل تنافي الأمر بالمسابقة والمسارعة والمنافسة في الطريق إلىٰ الله، وهذه المعاني الثلاثة لا تتحقق إلا برؤية المرء لنفسه وعملها في مضمار السعي، بل تنافي وقائع القصاص في الآخرة في الحساب وعلىٰ القنطرة، وتنافي نداء خيار البشر بقولهم «نفسي! نفسي!».

لتحجز مقعدًا في المقدمة أو علىٰ الأقل مقعدًا متميزًا!

لا تنزلق وراء اللهاث خلف أقرانك، بعض أقرانك ستجده يتثاقف خارج تخصصه -وداخله-في أمور أخرىٰ، وهذا لا يلزمك ولا ينبغي أن يثير حفيظتك، وإن من شروطنا أن تتخلىٰ عن الغيرة من الأقران وتكون ملاحظتهم حافزًا لك ليس أكثر، غير أنك إذا وقعت علىٰ زميل له نفس اهتماماتك وظهر منه حب التعاون الصادق؛ فتشبث به فكلاكما خير مُعين للآخر في طريقه!

سابعًا: (الكفاءة هي تكاسل ذكي)، قاعدة انجليزية لكنها في غاية الأهمية، ليس معنىٰ الكفاءة أن تستغرق كل جهدك في أمر يتحقق بنصف هذا الجهد، إن كان نصف هذا الجهد يكفي فلا تزد عليه، ليس معنىٰ أنك تريد استيعاب موضوع أو كتاب أن تقضي كل وقتك في مذاكرتها حتىٰ بعد أن تصل لمرحلة الاستيعاب والتشبع والفهم، وفر جهدك لتستغله في شيء آخر كنت تؤجله أو تطرده من حساباتك، لظنك أن الوقت لا يكفي!

ثامنًا: (قد تكون التضحية جزءًا من الخطة) بأن توطن نفسك علىٰ تفويت بعض النجاح مؤقتًا مع حفظ القدرة علىٰ العودة للبذل مرة أخرىٰ، تفعل ذلك وأنت تدري عاقبة هذه التضحية من وصمك بالفشل، ثم تُقْبل بعد ذلك علىٰ استئناف مسيرتك في الخط الذي ضحيت فيه بالنجاح المؤقت، وهذا يستلزم أن يكون قرارك عمليًّا بعيدًا تمامًا عن الكسل والتسويف والعجز، ثم تكون قادرًا علىٰ وضع كل هدف جزئي في المكانة التي تناسبه من حيث الأهمية والإلحاح، ومن ثمَّ يمكنك المفاضلة بين الأولويات -إذا تعارضت- فتقدم الأكثر أهمية علىٰ المهم، وتهتم بالعاجل أكثر من اهتمامك بما يمكن تأجيله!

تاسعًا: (تجنب زحام الأولويات الكبرىٰ)، لا تحاول الجمع بين محطتين رئيسيتين في مجالين في ذات الوقت، فلا تجمع مثلًا بين الشهر الذي يسبق امتحانات نهاية العام، وتحصيل مادة شرعية تخصصية أو دقيقة في ذات الشهر، أو تنشغل وقت كتابة مقالة أو كتاب في مجال تخصصك بسفر يمكن تأجيله، وهكذا!

وفي العموم؛ فإن فترة الدراسة الثانوية والجامعية هي من الفترات الحساسة، وتعاقب الأوقات المفصلية فيها سريع، فغالبًا ستجدك تخرج من امتحان إلىٰ آخر، فاجعل الدراسة وحسن الأداء في الامتحان هو الأولوية خصوصًا في الكليات التي يكون للتميز فيها أثر، وفيما خلا أوقات الامتحان والاستعداد له فانطلق في تجربة مختلف المجالات قراءة وخُلطة وممارسة، دون أي انخراط تام يضيع تحكمك بوقتك، واحذر تمامًا أن تسعىٰ للظهور والترويج لنفسك في سن صغيرة؛ حتىٰ تترك لنفسك ممرًّا آمنًا للانسحاب من المجال الذي لم تجد نفسك فيه، واحذر ثم احذر أن تكون ممن يجرب في المجالات الأخرىٰ؛ هربًا من الدراسة وتسويفًا ليس إلا، ثم إذا انتهت الدراسة ضيَّع وقته في اللهو واللعب، ونسي ما كان ينشغل به أوان الدراسة!

عاشرًا: (الصبر علىٰ عثرات البداية)، فهذه الإشارات -وغيرها- لا تمثل خلطة سحرية بمجرد قراءتها يسهل تنفيذها وتدنو ثمرتها، لا بد من أن تتعثر مرة بعد مرة حتىٰ تستطيع الوصول للطريقة الأمثل للمواءمة، وعليك أن تنهض وتنفض الغبار وتعدل المسار حتىٰ تصل للطريقة المثلىٰ في مراعاة كافة الواجبات، فوطن نفسك علىٰ الصبر وتقبل هذه العثرات، وتذكر أن ما نذرت نفسك له أعظم من أن يؤثر في طالبه عثرات البداية!

حادي عشر: (لا تنقطع انقطاعًا تامًّا)، تعود الإبقاء علىٰ الحد الأدنىٰ من المتابعة في المجالات التي اخترتها حتىٰ وإن علا أحدهما علىٰ الآخر فترة؛ فلا تنقطع أبدًا، وهذا مما يساعدك فيه من تسترشد بآرائهم في كل مجال ممن توسمت فيهم التميز وصدق النصيحة، ففي الطب مثلًا يكون بتخصيص وقت لمتابعة وقراءة المجلات العلمية ذات معامل التأثير العالي، والكتب المرجعية مما يثني عليه أهل التخصص، وحضور المؤتمرات العلمية القوية دون قلبها لمناسبة للاستمتاع، والحفاظ علىٰ البقاء في وسط من المتخصصين المتابعين، ومحاولة الالتحاق بالمؤسسات العلمية النظامية لأنها تجبرك أن تكون متابعًا للجديد في مجالك، إذ ستكون ترسًا في ماكينة العمل، وأي عطل

من جهتك ستتم ملاحظته فورًا وستلاحقك العقوبات علىٰ الأخطاء بصورة فورية.

ثاني عشر: (قلِّلْ من العلاقات الاجتماعية)، تكتفي بالحد الواجب من صلة الرحم، مع عدد قليل جدًّا من الأصدقاء المقربين؛ لأن هذه العلاقات مع الوقت؛ سيكون لها متطلبات وحقوق، ومع ترقيك في الطلب أو بعد التمكن لن يكون عندك الوقت الكافي لأداء حقوق هذه العلاقات المتشعِّبة، وإن أديته فسيكون ذلك علىٰ حساب سعيك وجدك العلمي والعملي!

ثالث عشر: (البذل)، لتدرك أن الذي نذرت نفسك له أمر عظيم، لا يتأتىٰ براحة الجسم وضيق الصدر والعصبية واستعجال الثمرة وغير ذلك من آفات الطلب، والعجب ممن يحاول التميز في مجالين أو أكثر معًا وهو لا يبذل من الجهد ما يكفي للتميز في أحدها منفردًا!! ينبغي -أو يجب- أن تعلم أنك ربما ظللت بالأسابيع لا تهنأ بكفايتك من النوم، وربما ظللت بالأسابيع لا تأكل إلا أقل الطعام خشية أن تنام، وينبغي أن تعلم أنك ربما قضيت يومك كله خارج البيت مع شوقك لمقعد -فضلًا عن سرير- تستريح فيه، وتذكر دومًا قول رسول الله ﷺ: «**احرص علىٰ ما ينفعك**» تصبّر به! واستعن بالله وأكثر من الدعاء ولا تعجز!

رابع عشر: (سدد وقارب)، يعني تصيب الهدف فإن لم تصبه فلترضَ بالاقتراب منه، وهذا هو مدخل الشيطان الذي يفسخ به العزائم بخلاف الكسل، وقد رأيته أكثر من مرة فيمن كان يرجو تميزًا في الطب والشرع معًا، ويمكنك إسقاط ذلك علىٰ شتىٰ المجالات بما يناسبها، أقول رأيته فيمن يمنّي نفسه بالتميز في الطب حد النهاية، وفي ذات الوقت يمني نفسه بالتميز في العلم الشرعي حد النهاية!! وهكذا يضيق صدرك وينخرم عزمك!!

سيؤثر سعيك العلمي علىٰ اجتهادك في العبادة مثلًا، ستجد نفسك لا تستطيع الحفاظ علىٰ الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان وأنت طبيب مقيم مطالب بملاحظة الحالات والمرور عليها -وأحيانًا التبليغ بها- كل يوم،

وكذلك لن تستطيع أن تطبق خلق الإيثار مع زميلك الأصغر منك وهو يطلب منك أن تترك له مهارة فنية لم تتقنها أنت!

مثل هذه المكتسبات تجعل بعض الطلاب يظن أنه انتكس! وأنه لا فائدة! مع أنه لو دقق النظر سيجد أنه يمكنه الحفاظ علىٰ الحد الأدنىٰ من المطلوب الشرعي، فالاعتكاف ليس فرضًا بينما ملاحظة المرضىٰ فرض إن كان هو وحده المكلف بها، والإيثار ليس فرضًا إن كان سيؤثِّر علىٰ تحصيلك وتعلمك وتمكنك ومن ثم تعليم زملائك الصغار! ولا شك أن مثل هذه الطريقة في النظر للأمور لا يطيقها كل أحد، وكثيرون يعدونها من التفريط وتسويغ ترك المستحبات!! فاعلم أن هذا مدخل خطير متكرر من مداخل انفساخ العزم بتكليف النفس ما لا تطيق وإيهامها باستحالة الجمع بين مجالين أو ممارستين!

خامس عشر: (قلل من ظهورك قدر المستطاع في مرحلة الطلب) هذا الظهور سيؤثر علىٰ قدرتك علىٰ الطلب جدًّا، فحاول قدر استطاعتك أن يكون الظهور محدودًا ومحسوبًا ولا تنجرف وراءه، وإن أمكن أن توصل ما معك من العلم بمقال؛ فهو أولىٰ من كتاب، وهو أولىٰ من برنامج، وهو أولىٰ من سلسلة دروس، الحد الأدنىٰ من الظهور يكفيك، لأن الظهور غالبًا يساوي التصدر، والتصدر المبكر وتعالي أصوات الهتاف قد يهلك المبتدئ ويُفقده الاهتمام!

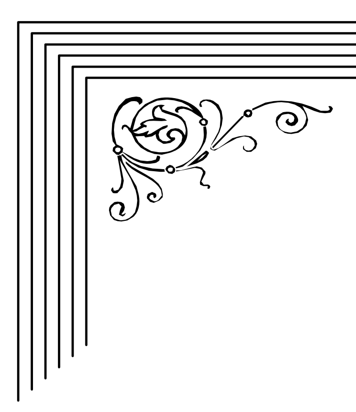
سادس عشر: (المال)، يقول سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ «من كان له مال؛ فليصلحه، فإنكم في زمان من احتاج فيه إلىٰ الناس كان أول ما يبذل دينه» لا تسقط أبدًا هذه النقطة من حساباتك، ولا تعش في عالم من المثالية لأنك لو احتجت ستتنازل ولن يكون عند ما تتنازل عنه غير اهتماماتك، اسأل الله من فضله، واسْعَ دومًا لأن تكون في حالة مادية ميسورة؛ حتىٰ تملك قرارك وتستطيع تنفيذ ما خططت له!

سابع عشر: (كلام الناس)، ما خلا مجموعة من الناصحين المتمكنين، فلا تهتم لكلام أحد من الناس مدحًا كان أو تخذيلًا أو حسدًا، لا تدَعْ هذا

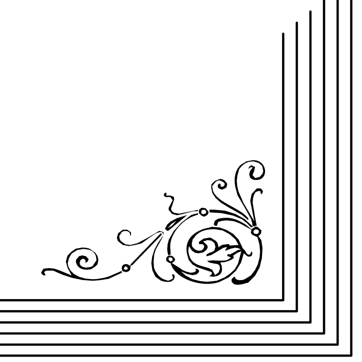
المدح يأخذك إلىٰ أحلام اليقظة حتىٰ تنسىٰ الواقع وتحسب أنك قد نلت المراد، ولا تهتم بالتخذيل فإنه حيلة العاجز والعقبة التي يستطيع زرعها من لا يملك من أمرك شيئًا في الطريق، والحسد أمر نستعيذ بالله من شره دون أن يؤثر علىٰ سعينا، وإن قيل «من راقب الناس مات غمًّا» فإن من خشي كلام الناس مات ساكنًا ثم لا يسلم!

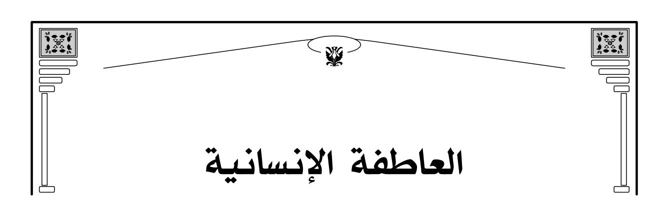
هذا ما يحضرني من النقاط الرئيسة علىٰ الطريق الذي ما زلت أتلمس خطواتي فيه، طريق الجمع بين مجالين، ما زلت أخطو فيهما وأرجو أن أصل، أذكرها راجيًا أن يكون النقل متسمًا بالصدق والوضوح، أذكرها بناء علىٰ تجاربي الماضية والتي من خلالها تبلورت هذه النصائح في ذهني، وقد حاولتُ أن تكون خالية من الشخصنة والإشارة إلىٰ ذاتي؛ كيلا يكون ذلك طريقًا خفيًّا لألقي في روع القارئ أني أنا القدوة!! أبدًا والله! فلم أكتب ذلك إلا وأنا أدرك تمامًا أني ما زلت في منتصف الطريق لمَّا أصل لما أرجوه بعدُ، غير أني أحببت أن أمد يدي لمن سأل عن خلاصة التجربة حتىٰ الآن، والله تعالىٰ يوفق ويعلِّم، ويعين ويستر، ويؤلف بين القلوب ويرحم، ولا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين أبدًا!

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسامُ



الرجل والمرأة في رحلة الحياة





العاطفة الإنسانية

محمد عطية(*)

«الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكن أن نسند إليه قيمة مطلقة هي؛ الكرامة».

في ضوء هذه المقولة العبقرية لـ (كانط)، نستطيع أن نفهم حقيقة أنّ العاطفة بمعنها الشامل؛ هي أهم ما يميز الإنسان عن باقي المخلوقات .. الحب والبغض، والبذل والإيثار، والأثرة والتضحية والكرامة، إلىٰ غير ذلك من تجليات الروح، حين تحكم علىٰ الأفعال= هي التي يظل بها الإنسان إنسانًا .. وعلىٰ حسب قوة حكم العاطفة في حياة إنسان منَّا؛ يكون نصيبه من حقيقة الإنسانية!

إنسان هذا العصر، يعيش تحديًا قاسيًا في تلك المطحنة التي وجد نفسه مولودًا في مركز رحاها، يعاني بين جهده لتلبية متطلبات جسده من مأكل ومشرب، ومسكن ومنكح، وبين تلك الروح الصارخة في أعماقه جفافًا، والعاطفة الملقاة في غيابة جب القسوة التي رفعت شعارها علىٰ مظاهر الحياة المادية الآن .. وبقدر انهماك الإنسان (العصري) في هذه المطحنة؛ بقدر ما يفقد من عاطفته، أو إنسانيته بتعبير أدق!

(*) كاتب مصري، حاصل علىٰ بكالوريوس العلوم، وباحث بمؤسسة ابن جبرين الخيرية.
صدر له: رواء في زمن الجدب (عمل مشترك).

لا عجب-إذن-حين تكون الشكوىٰ المتكررة من فتور العلاقات باختلاف أشكالها وبرود المشاعر بتنوع درجاتها شيئًا معتادًا وطبيعيًّا في مواقع الاستشارات والعيادات النفسية، بل وأحاديث الناس اليومية .. كلهم يشكو هذا الفتور، وكلهم آخذ بحظه منه، بصورة أو أخرىٰ ..

«اللهم احفظني من أهل الاستقامة والأمانة، الذين لا قلب لهم، اللهم احفظني من نزاهتهم عديمة القلب». [بيجوفيتش].

الدّين لم يكن يومًا بمعزل عن العاطفة، بل إنَّك حين تجد النبي محمدًا ﷺ يلخص رسالته العظيمة في قوله: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، وحين تتأمل تعاملاته اليومية مع أزواجه وأصحابه، بل وأعدائه= تفهم أنَّه بعث برسالة تعزز معنىٰ العاطفة في أرقىٰ وأنبل صورها .. كان رسولًا نبيًّا، يضحك ويبكي ويحب، ويُعرف أثر الغضب في وجهه، ويفي لصويحبات زوجته الراحلة، ويشفع لمحب عند من يرجوها زوجة، ويودِّع أصحابه قبل مماته بنظرة اطمئنان ووداع!

إنه بقدر حفاظ المرء علىٰ حقيقة تدينه= بقدر حياة العاطفة الإنسانية بداخله .. دافئة مبادرة، غير متكلفة أو فاترة .. وإنَّ أسوء أنماط التدين؛ ذاك النمط المفرغ من معناه، الحريص علىٰ مظاهر فلكورية لا انعكاس لها علىٰ روحه أو عاطفته، وقد قال الله جل جلاله لنبيه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

ولذا تجد الناس لا يأسرهم في أي إنسان شيء مثل أن يكون (إنسانًا) له عاطفة صادقة رحيمة .. مهما بلغ نبوغه أو ذكاؤه، أو علمه، أو انتفعوا منه بكل ذلك، سيظل الأثر الأكبر له عليهم في تلك المواقف التي تناقلتها الألسن عن مساحة العاطفة الإنسانية في حياته، ولا يزري بسيرة عبقري من الناس شيء كاستثناء العاطفة من حياته .. إنه لا يمكن لأي إنسان أن يصبح فذًّا بمعنىٰ الكلمة من غير أن يصير قبل ذلك إنسانًا بمعنىٰ الكلمة!

قيمة العاطفة الإنسانية في أن تكون صادقة غير متكلفة، مخلصة لا تنتظر مكافأة . . وإلَّا فالجفاف العاطفي والتملق والنفاق= وجهان لعمة واحدة، وهي فساد المعنىٰ الإنساني في النفس.

العاطفة مطلوبة في شتىٰ أنواع العلاقات، بل كل العلاقات التي تخلو من عامل العاطفة= لا يعول عليها كثيرًا في دوامها أو قوتها أو صدق نيتها!

العلاقة بالوالدين وبالأبناء . . العلاقة بين الزوجين . . بين الإخوة (رحمًا ونسبًا، أو أخوَّة الدين العامة) . . العلاقة بين الإنسان وسائر البشر (عَرفهم أو لم يعرفهم) . . كل هذه الضروب من العلاقات تتحكم فيها العاطفة بدرجات متباينة، وإنَّه لمن العجيب والمؤسف أيضًا أن تلحظ بوضوح نضوب العاطفة في هذا الزمان في سائر هذه الأنواع.

فقر العاطفة بين الوالدين والأولاد:

الجحود الذي يسيطر علىٰ كثير من الأبناء تجاه والديهم؛ كناتج لرقة الدين، وتضخم الأنانية في نفوسهم الضعيفة، فتجد أحدهم لا يبالي بإحزان أبيه، ولا بدموع أمه . . ساعيًا لمطالب نفسه، لا يلوي علىٰ شيء، قد خسر الدنيا بفساد روحه، وخسر الآخرة بعقوق والديه!

والجحود من الأبناء هو-في الغالب-ثمرة مرة لحنظل الجفاء الذي زرعه الوالدان-أو أحدهما-في نفوس الأبناء . . إنَّه لا يستطيع أحد أن ينكر أنَّ نسبة كبيرة من ا لآباء والأمهات-بفعل ضغوط الحياة المادية، أو بفعل مفاهيم مغلوطة في التربية، أو حتىٰ لمشاكل نفسية كامنة؛ إثر التربية الخاطئة التي تلقوها أيضًا-يكونون هم العقبة الأولىٰ والأكبر في حياة أبنائهم . .

ويكون الأبناء مطالبين بين لزوم الأدب؛ حفظًا لحق الله جل جلاله في بر والديهم . . وبين تجاوز الرسائل السلبية التي زرعها فيهم الوالدان في أيام وأعوام!

علىٰ الوالدين خلال مراحل التربية تجنيب الأبناء هذه الثمرة المرة، وذلك بتنمية الجرأة الأدبية في نفوسهم؛ حتىٰ يعيشوا كرامًا شجعانًا صرحاء، بلا إسفاف أو صفاقة. وكذا باستشارتهم وتعويدهم علىٰ القيام ببعض المسؤوليات، والسماح لهم دومًا بالتعبير عن آرائهم. الجلوس مع الأولاد، وفهْم نفسياتهم، ومشاركتهم لعبهم وأفراحهم، والانفعال مع مخاوفهم= من أكبر العوامل التي تُنمِّي عاطفتهم، وتجعلهم قادرين فيما بعد علىٰ إجادة بذلها لشركائهم، وحسن استقبالها كذلك.

كل مرحلة عمرية تحتاج نوعًا مناسبًا من تفهُّم الوالدين لحاجات الأولاد، يبدأ التأسيس الصحيح من مرحلة الطفولة، وتصل تلك الحاجات لذروتها عند الأولاد خلال مرحلة المراهقة .. وكم يندىٰ الجبين لشكاوىٰ ذكور وإناث، في تلك المرحلة الحرجة، لم يجدوا من يسمعهم داخل أركان البيت الذي يفترض به أن يكون مركز (الأمان) في حياتهم، فتعرضت لهم آذان مخادعة .. في الخارج!

أيتها البيوت! .. اشملي الساكنين بالدفء؛ خارج الأبواب صقيع قاتل .. يتخفىٰ في فروٍ علىٰ ذئاب ..

أيتها البيوت! .. ليذهب مالك خلف الشمس، وليكن طعامك ترابًا لا قيمة له .. تكفي شربة ماء في هناء! .. فقط امسحي الدموع التي تغرق الوسائد ليلًا .. وأنت تتغافلين عنها! .. خارج الأبواب سُم زعاف .. مدسوس في مناديل ناعمة ..

أيتُها البيوت .. كوني الحب الأول، والحضن الأجمل .. والأمان التام؛ خارج الأبواب .. يقف بالطابور: المتاجرون بالأحلام.

أيها البيوت .. ساعدي الساكنين علىٰ الوفاء .. قبل أن يصير ما تحسبينه (تربية) أو (عِشرة)= مجرد هباء!

فقر العاطفة بين الزوجين:

البيت هو أساس الأمة؛ صلاحه واستقراره هو أولىٰ الخطوات الحقيقية لبناء أمة قوية ومجتمعات متماسكة متراحمة .. ومن العلم البديهي أنَّ العاطفة من أهم الركائز التي تقام عليها البيوت!

قال الله تعالىٰ جل جلاله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فلن يكون هناك سكن بدون المودة والرحمة المتبادلَين بين الزوجين. من أكبر المشاكل التي تعانيها كثير من البيوت= غياب العاطفة، وتحول الحياة لروتين آلي ممل، لا يحقق سعادة الطرفين، ولا يكون قادرًا علىٰ بذل السعادة لمن ينشؤون فيه. إنَّنا بحاجة لتكوين وعي جمعي شامل بضرورة دور العاطفة في البيوت، بإحسان التعامل، وإدارة الاختلافات والفوارق بين الزوجين، بتقدير حاجة الشريك للدعم والتعاطف والصبر والاحتواء .. إلىٰ غير ذلك من المعاني التي تجعل للزواج معنىٰ، وتصنع منه شيئًا محوريًّا في حياة كليهما، لا عبئًا إضافيًّا.

الصمت المطبق علىٰ البيوت، والسكون البارد، وكثرة العتاب والانتقاد، وعدم الحرص علىٰ المشاركة الوجدانية وكذا العملية (قدر المستطاع)؛ من أقوىٰ الأسباب التي تحول الحياة الزوجية لشيء مفرغ من معناه .. يقف أمامه الأزواج والزوجات بنظرة ذهول نادم، أهذا حقًّا ما كنا نتمناه؟!

الدنيا علىٰ أي حالٍ لا تكمل، وإنَّنا حين نختار شريكًا لا نبحث عن ذلك الخالي من العيوب، بل عمن نستطيع التعايش مع عيوبه وقبولها!

كلٌّ فيه عيوب .. كذا لن يعدم ميزة .. والموفَّق من استطاع بذكاء عاطفته؛ تنمية المميزات في شريكه، وإصلاح عيوبه، أو الرضا بها والتعايش .. ما دامت متحملة لذلك.

الإحسان يأسر القلوب، وكما قيل: تستطيع أن تعطي، بلا حب .. لكنَّك لن تحب، بدون عطاء!. فالبذل المتبادل بين الزوجين؛ سيتبعه الحب، أو سيضمن لهما حياة دافئة مستقرة تصلح محضنًا آمنًا لهما ولأولادهما .. وهذه حقيقة المقولة العبقرية لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: «إنَّ أقل البيوت الذي يُبنىٰ علىٰ الحب .. ولكنَّ الناس يتعاشرون بالإسلام والإحسان».

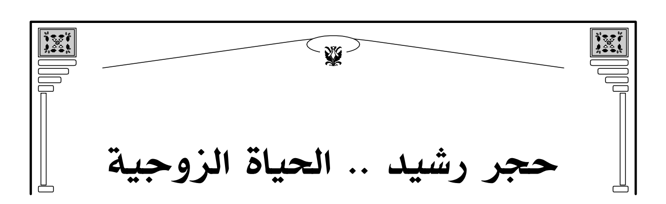
فقر العاطفة في تعاملات الناس:

حين يتعثر أمامك أحدهم في الشارع ويسقط= فالطبيعة الإنسانية تحتم أن تهرع لمساندته ومساعدته علىٰ النهوض .. أمَّا مشهد التجاهل الذي صار طبيعيًّا في الحياة (المتحضرة)؛ فهو دليل علىٰ فقدها لإنسانيتها بنفس القدر الذي تضغط به علىٰ الإنسان (المتحضر!).

التجاهل والنفعية والأثرة والشح والجبن والكذب .. إلىٰ غيرها من الآفات التي تزرعها حياة العصر الحديث في (الإنسان) الغارق في أتونها؛ تسبب حالة عامة من جفاف العاطفة الإنسانية وفقر المشاعر الطبيعية .. وهي دائرة متصلة كما ترىٰ .. إنسان جاف المشاعر يتزوج ويقيم بيتًا لا يعطي فيه ما يفقده، لا يعرف لزوجه شكرًا أو مواساة، ولا ينتبه لذلك البرود الذي يجمد أطراف الحياة؛ لينجب أولادًا يربيهم حسب قواعد هذه المأساة، فينشؤوا فاقدين أيضًا لأهم سمات إنسانيتهم .. ثم يكون هو أول من يجني الثمرة المرة، جفاء وعقوقًا ونكرانًا للجميل. وتبدأ الدائرة البائسة من جديد ..

أول سبيل للعودة الحقيقية للإنسانية، وجمال عاطفتها؛ يتمثل في الرجوع لمراد الشرع الحنيف وروحه .. في تأمل تطبيقها واقعًا في حياة أعظم الإنس محمد رسول الله ﷺ وحياة أصحابه الذين رباهم، وتابعيهم ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين. أي حكمة تتحدث عن الإنسانية، أي معنىٰ عظيم يأسر الناس في تجلياتها= ستجده ماثلًا بوضوح في سيرة هذا النبي العظيم ﷺ.

يقول ميلان كونديرا: «الأسئلة التي تبقىٰ دون جواب= هي التي تشير إلىٰ حدود الإمكانات الإنسانية، وهي التي ترسم وجودنا»، وعلىٰ حسب حقيقة تلك الأسئلة وعمق أثرها في نفوسنا= يتباين معنىٰ الإنسانية وعاطفتها في حياة كل منَّا .. ولمَّا كان الدين هو أعظم الأسئلة علىٰ الإطلاق= فإنَّه تبقىٰ في رحابه طهارة الإنسانية وجذوة عاطفتها.



حجر رشيد .. الحياة الزوجية

✍ محمود توفيق(*)

دعونا نتخيل بلدة صغيرة مصرية منزوية تقبع في هدوء أعلىٰ الوادي، بجوار منطقة من تلك المناطق الأثرية الفرعونية التي يفد إليها السياح من كل صوب، رأيت هذه النوعية من البلدات البسيطة التي تجاور التاريخ بحضوره المهيب، ودعونا نتخيل رجلًا بلديًّا بسيطًا من أهل هذه البلدة لم يتلقّ أي تثقيف طوال حياته؛ يسمح له بممارسة عمله كمرشد سياحي، ومع ذلك؛ فهو يقف بجلبابه الأصيل، وكامل ثقته بنفسه يشرح للسائحين كنوز المنطقة التي تحيط به وبهم، اعتمادًا علىٰ الحدس، والشعور الشخصي، وما توارثه من تفسيرات، وهو قد قرر أن يترزَّق من هذا العمل المرموق منذ خمسين سنة، عندما كان شابًا يافعًا، ولم يشعر طوال هذه المدة التي ابيضَّ في آخرها شعره بالإحباط المعرفي قطُّ!

هذا هو ذا يقف الآن ومعه فوج سياحي كبير عند جدار معبد، والناس من حوله الذين يولونه الثقة الكاملة يسألونه عن هذا الذي يحدث علىٰ الجدار العالي، ففي الصورة المحفورة عليه فريقان من الشباب في مواجهة بعضهما البعض، وكل شاب منهم يشهر سلاحه، فقال الرجل المرشد إنَّ هذه معركة

(*) أديب مصري، صدر له: غسيل المنتقبات (مجموعة قصصية)، وحجر الكحل (رواية)، وكن جميلًا (تطوير الذات)، والخبيئة (رواية معرفية تناقش العقيدة المسيحية). وللكاتب اهتمام عبر وسائط التواصل بتعزيز السلوكيات الطيبة والقيم الجميلة والعلاقات الأسرية.

شرسة أدت إلىٰ إبادة الجيشين، وسال نهر من الدماء في تلك الأرض منذ آلاف السنين، وانتهىٰ الأمر بأن هبطت النسور الحائمة، وأخذت بهدوء تأكل تلك الوجبة الكبيرة من الجثث. لقد اخترع الرجل قصة مأساوية مؤثرة من خياله!

حجر رشيد، الذي تم اكتشافه أثناء الحملة الفرنسية علىٰ مصر في مدينة رشيد، قد فك رموز وأحرف اللغة الهيروغليفية، وتحول به عالم مهول وواسع، وغامض مثل الطلاسم، إلىٰ عالم مفهوم، قابل للقراءة.

اللغة الهيروغليفية، وحجر رشيد يقولان شيئًا آخر غير ما يقوله العم، يقولان: إنَّ هذا مهرجان سنوي يتم فيه تمثيل الحرب كلعبة شعبية يلعبها الشباب في أجواء ودية، وتنتهي بسلام، بغير دماء .. بغير نسور!

سنلحظ شيئًا مهمًّا يخص العم، وهو شيء وثيق الصلة بالحياة الزوجية: ذلك الرجل عندما بدأ في ممارسة عمله هذا، وهو في العشرين من عمره، كان يقف تحت هذا الجدار العالي وينظر فيه، ويُخمِّن، ويُرجِّح، ويقول إنَّها-علىٰ ما يبدو-معركة. ثم من بعد هذه الأيام الأولىٰ المعبقة بنفحات الإلهام، وإلىٰ أن مرت عليه خمسين سنة من العمل المتواصل في خدمة السياحة والتراث الإنساني، وهو يكرر بلا هوادة ما ترجَّح عنده وهو في العشرين من عمره؛ صار مؤمنًا تمامًا وهو في مشيب السبعين بأنَّ هذه معركة، لكن ما الذي رسَّخ هذا الإيمان فيه وجعله لا يتزعزع؟ الذي رسَّخ هذا الإيمان هو أنَّه يكرر، لا يوجد مرجع نفيس فاز به، زاده إيمانًا بأنَّ هذه معركة، ولم تكن تلك الزيادة العميقة في الإيمان وليدة جلسة مثمرة نادرة من عالم مصريات، لا يوجد أي مؤثر جديد غير أنَّه اخذ يعيد ويزيد ويكرر ما قاله منذ زمن اليفاعة، فالذي قاله علىٰ سبيل الترجيح، صار الآن شيئًا بديهيًّا مثل شروق الشمس من جهة الشرق.

يحدث في الحياة الزوجية شيء شبيه بهذا، تزوج شاب متفائل وبشوش من شابة، ومنذ الأيام الطيبة في شهر العسل، بدأ في التعبير بينه وبين نفسه

عن انطباعه عنها: هي في الحقيقة جادة، وليس لديها الروح المرحة التي عند النساء في عائلتنا، وليس لديها حس الدعابة الذي عند أخواتي.

هذا التعبير عنها الذي يصارح به نفسه في الأيام الأولىٰ؛ تعبير جيد ومقبول علىٰ العموم، ولكن به بذرة القلق والصدمة؛ فهي لا تشبه النماذج النسائية المحببة إليه! ويظل الشاب مشحونًا بهذه القراءة الأولىٰ، ويستمر في تكرارها بينه وبين نفسه، مثلما يكرر الأثري البسيط بلا هوادة، وبعد مرور عشر سنين من الزواج، سيكون لديه تصور عنها مثل العقيدة، غير قابل للنقاش، تصور سوداوي لا حل له، وغير قابل للتغير: هذه المرأة التي بُليت بها كئيبة، ونكدية، والعيش معها يقصف سنوات العمر، وعلىٰ ما يبدو أنَّني اقترفت ذنبًا بالغ السوء. فجاءت هي ككفارة في حجم هذا الذنب.

نفس الأمر بالنسبة لهذه المرأة، امرأة أخرىٰ، تزوجت من شاب كريم و(بحبوح)، ويحب الناس، وهو يقرض معارفه بعض المال إذا احتاجوا، وقد أقرض أحدهم بعض المال بعد زواجها منه، ولم يلاحقه بالزيارات والاتصالات، وما ناداه من أسفل الشرفة حتىٰ يسدد ما عليه، فبدا لها هذا السلوك رخوًا نوعًا ما، فبدأت في التعبير بينها وبين نفسها عن انطباعها عنه: لقد تزوجتُ من رجل طيب وحنون، في زمن صارت فيه معاملة الناس تحتاج إلىٰ شيء من الحزم والانتباه، وأظن أنَّ من لمسوا فيه الطيبة يعملون علىٰ استغلاله.

هذا التعبير عنه الذي تصارح به نفسها في الأيام الأولىٰ؛ تعبير جيد ومقبول علىٰ العموم، ولكن به أيضًا بذرة القلق والصدمة، فهي لا تحب أن تُقرض أو تقترض، وستظل تلك الشابة مشحونة بهذه القراءة الأولىٰ، وتستمر في تكرارها بينها وبين نفسها، أيضًا مثلما يكرر الأثري البسيط بلا هوادة، وبعد مرور عشر سنين من الزواج، سيكون لديها تصور عنه مثل العقيدة، غير قابل للنقاش، تصور سوداوي لا حل له، وغير قابل للتغير: نحن نعيش في

غابة، والناس فيها وحوش، وكان حظي من هذه الغابة ذَكر أبله ووديع، يترك للطامعين ما يريدون، وليس لديه منطقة نفوذ يمكن أن يقاتل من أجلها.

هذه هي المشكلة التي يقع فيها كثير من المتزوجين كما وقع فيها العم الأثري، يقرأ الأزواج بعضهم بعضًا من رأسهم من أجل أنفسهم، وتحيُّزًا لها، ويكررون، ويكررون، ولا يحاولون بحب ورحمة فهْم الإنسان الآخر كما هو، بمواهبه وميوله وطبيعته، وأثر البيئة والتربية عليه، وشروخه الإنسانية التي يجب أن نعمل علىٰ جبرها بعناية وود، لا أن نفاقمها بحماقة الغضب والتحدي، والتجريح، وسوء الفهم والتفهم.

هذا مثال لعدم فهْم الرجل لامرأته: عاد الرجل من عمله وهو يفكر في المستهدف الشهري، وأمور العمل وهمومه التي ترافقه في الذهاب والعودة، ووجد زوجته منبسطة الأسارير، ومعنوياتها مرتفعة جدًّا.

ما الأمر؟

لقد وجدتْ أخيرًا المدرسة الخاصة المناسبة التي يمكن لهما أن ينقلا ابنها عليها، أفضل مدرسة ممكنة، فهي قريبة، ومصاريفها معقولة، وطاقم التدريس علىٰ مستوىٰ عالٍ، وبها صالة ألعاب رياضية مميزة.

إنَّ ما تتكلم عنه المرأة رائع حقًّا، ولكنَّه شارد، كما لو كان مهمومًا، وهذا شيء تشعر معه بالغبن، إنَّ معالم وجهه لا تتناسب مع الجهد الذي بذلته علىٰ الإطلاق. هو ليس معها، هو مهموم ومشحون بالفعل، لماذا؟ لأنَّ عينيه علىٰ الجدار العالي أمامه، يقرأ شيئًا آخر غير إنجازها، يقرأ عليه ما ظل يقرأ منذ أن خطبها.

(هذه خرجت من بيت فيه المرأة كل شيء، أمها هي المسيطرة، وكل أفراد الأسرة تحت إبطها، أمَّا الأب فماكث في الظل لا دور له، ومثله مثل المقعد الذي يجلس عليه، وها هي ذي القدر تريد أن تنقلب علىٰ فمها، وأنا لن أسمح بذلك، لن أسمح لها بأن تكون متحكمة أبدًا).

ماذا قلت يا حبيبي؟

سآخذ قراري في وقتٍ لاحق.

لماذا؟! إنَّ الوقت يجري، وعلينا أن نذهب بالملف بسرعة قبل ألا نجد له مكانًا.

أنا الذي يتخذ القرارات هنا، وأنا لم آخذ قراري بعد.

لو كان بهذا البيت حجر رشيد، لاختلفت الأمور تمامًا، لو كان الحجر متاحًا؛ لرأىٰ أشياء واضحة جدًّا، ولا لبس في قراءتها: هذه السيدة تُفضِّل بالتأكيد مصلحة ابنها علىٰ أي شيء آخر في الحياة، وهذا الاختيار اجتهادها الذي أخصلت فيه تمامًا. لو كان هناك حجر رشيد بهذا البيت، سينظر -وبوعي- إلىٰ الفارق في الاهتمام بهذا الموضوع بينه وبين زوجته؛ فهي سألت علىٰ مستوىٰ العائلة والجيران والأصدقاء وبين معارف النادي ومن خلال مجموعات الواتساب؛ أمَّا هو فلم يسأل أحدًا أبدًا، كلّما ذكَّرته بأن يستفسر ويستشير ينسىٰ مرة أخرىٰ، إن نشاطها وسعيها المحموم عوَّض ما عنده من تقاعس وقلة اهتمام، ولو تركت الأمور لصبره الطويل؛ لكان هذا علىٰ حساب مصلحة الأسرة بلا شك.

الأزواج ليسوا بحاجة مُلحَّة إلىٰ إصدار الأحكام علىٰ بعضهم البعض، وليسوا بحاجة إلىٰ استخدام معجمهم الذي جاؤوا به من بيئاتهم؛ ليصدروا تعريفًا محكمًا بشريك الحياة، إنَّهم بحاجة إلىٰ بذل الجهد في فهْم وتفهُّم بعضهم البعض، كلٌّ منهم بحاجة إلىٰ بذل الجهد كي يتهجَّىٰ الشريك بطريقة عادلة، وغير متعصبة، ويكتشف كيف يمكن لهذا الآخر القريب، المختلف، أن يكمله عبر هذا الاختلاف.

والعم الأثري، يقف اليوم بهيبة السنين الطويلة عند جدار آخر، وحوله فوج سياحي جديد.

ما هذا الذي علىٰ الجدار؟

هل ترون جيدًا -يا أصدقائي! -هؤلاء الناس الذين يمسكون بالبط والأوز من الأرجل؟ هؤلاء محزونون ومكتئبون، وهم باتجاههم إلىٰ هذا البيت الغريب الذي ترونه من أجل العلاج؛ لأن هناك فرقة من المعالجين بالداخل ستطرد منهم الأرواح الشريرة والأسياد، عن طريق إسالة دماء تلك الطيور!

اللغة الهيروغليفية، وحجر رشيد، يقولان شيئًا آخر غير ما يقوله العم! يقولان: إنَّ هذا صُبح يوم عيد، والناس في منتهىٰ البهجة والنشاط، وهم في طريقهم للمعبد لتقديم تلك القرابين من الطيور، هناك دماء هذه المرة، ولكن لا توجد كآبة.

إنَّها فكرة غريبة حقًّا! التي ظنَّها منذ خمسين سنة حتىٰ آمن بها كل إيمان، ربما استوحاها من ثقافته الشعبية وهواجسه الشخصية؛ لذا عندما يسأله أحد السائحين إن كان متأكدًا ممَّا يدَّعي، سيقول بكل تزمت واعتزاز: «أنا ولدت هنا، عند كل هذه الآثار!». هذا هو دفاعه عن خبرته الوهمية، إنَّه يؤكد علىٰ (التجاور).

هل يمكن أن تكون الحياة الزوجية قائمة علىٰ التجاور

سيكون هذا شيئًا غريبًا جدًّا ومحبطًا بالنسبة لاثنين ينغلق عليهما باب واحد، ولكن للأسف؛ فإنَّ هناك مساحة (تجاور) في الحياة الزوجية، بالطبع ليست الحياة الزوجية برمتها مشابهة لمثَل العم وحائط القرابين، ولكن هناك مناطق في الحياة الزوجية لا يكون فيها الزوج فاهمًا لزوجته، ولا الزوجة فاهمة لزوجها.

دعونا نقول: إنَّ هناك ثلاثَ مساحات في الحياة الزوجية بين اثنين:

- **المساحة الأولىٰ**: هي مساحة التفُّهم أو الانسجام أو الحب؛ ففي هذه المساحة-وحتىٰ لو كان هناك اختلاف بين الشخصيتين-يكون هذا الاختلاف مرغوبًا ومستظرفًا، أو حسب التعبير العامي (علىٰ قلبهما مثل العسل، كأن

يكون الزوج جادًّا وغير اجتماعي، وبالكاد يلقي سلامه علىٰ سكان العمارة ويمضي مسرعًا، وزوجته علىٰ النقيض من ذلك، اجتماعية وودود، وهو يقول بشأن حسن معاشرتها للناس، وهو يبتسم: هكذا أفضل، حتىٰ يكون للأولاد توازن بيننا؛ ومن الناحية الأخرىٰ تقول هي عنه بشأن ضعف اتصاله بالآخرين، وهي تبتسم: تعجبني شخصيته هكذا، فإنا أحب الرجل الرصين، ولا أحب الرجل الخفيف.

إنَّ اختلافهما يعجبهما، هذه هي مساحة التفهم والانسجام والحب. مساحة التفهم هذه هي المساحة المثالية، ومن الرائع أن تكون كبيرةً قدر الإمكان بين أي زوجين، وبالطبع يستحيل أن تكون كل المساحة بينهما مساحة تفهم.

تحت مسافة التفهم الرائعة هذه تقع المساحة الثانية:

- **مساحة الفهم**: فبصرف النظر عن الرضا من عدمه، يفهم الشريك في هذه المساحة شريكه علىٰ حقيقته، مزاياه، عيوبه، نقاط قوته، نقاط ضعفه، يفهمه كما هو وليس حب أوهامه. وفي هذه المساحة يعرف كل منهما كيف يؤثر علىٰ الآخر، وكيف يدخل له. إذن مساحة الفهم هذه لا بأس بها في الحياة الزوجية.

وتحت مساحة الفهم المقبولة تقبع المساحة الثالثة: كتلك المساحة التي يقف فيها العم الأثري وهو يحكي قصصًا من أوهامه الحرة.

- **مساحة التجاور**: فبرغم الحياة المشتركة بين الاثنين، لا يوجد في هذه المساحة تفهم بالطبع، ولا حتىٰ فهم، وينتج عن هذه أن تكون بينهما ولو مشكلة صغيرة، تأخذ في التكرار منذ بداية زواجهما، وتترجم نفسها مرات ومرات، إلىٰ أن يموت أحدهما، يعانيان بسبب أنَّهما لم يستطيعا أن يتعاونا في إزاحتها معًا إلىٰ مساحة الفهم؛ ليرحم كل منهما نفسه ويرحم الآخر.

هذا مثال لمشكلة من مشاكل عدم الفهم، في مساحة التجاور، السيدة لا تفهم زوجها، الزوج مغترب، يتصل بزوجته بشأن قطعة أرض ميراث،

ولديه مخاوف من أن يجور البعض علىٰ حقوقه فيها استغلالًا لغيابه.

طمئنيني؛ أي أخبار جديدة عندك؟

الحمد لله، أنا تحركت كما تريد، وذهبت لبيت شقيقك الأكبر، وجلست معه . . بالمناسبة، استقبال زوجته سيء للغاية، حتىٰ كوب الشاي لم تفكر في أن تقدمه لي.

رد عليها بلهجة متبرمة بعض الشيء؛ لأنَّ هذه الأمور لا تهمه الآن: حسنًا حسنًا.

التقطت هي لهجته المتبرمة، ثم استأنفت كلامها مجددًا، غير أنَّها انتقلت بعد قليل لموضوع آخر: أختك غاضبة من زوجها عند والدتك، فاتصل عليها بالله اجبر بخاطرها.

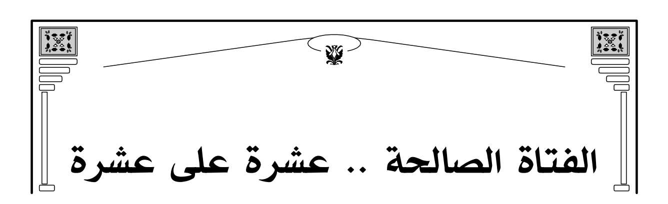
فأمرها الزوج بأن تستكمل كلامها فيما يهمه، وبنبرة أكثر تبرمًا من النبرة الفائتة.

تنتهي المكالمة وهي مشتعلة غضبًا من جحوده، فهي مصرة علىٰ أن إخلاصها له هو الذي يدفعها لأن تحكي له كل شيء، وتقول متحسرة: لماذا لا يحب أن يسمعني؟ لماذا؟

وهذا هو السؤال الذي تسأله لنفسها بأسىٰ، نابع من كونهما متجاورين في هذه النقطة، غير متفاهمين، وهي غير قادرة علىٰ فهم ما يمكن أن يحب أن يسمع منها في كل مرة حتىٰ ترتاح، وتظل هذه النقطة تتكرر فيما بينهما في أغلب الاتصالات.

لو كان هناك حجر رشيد في حياتهما الزوجية، لفهمت أنَّ الرجل عمومًا-وزوجها هو واحد من الرجال-إذا ما كان هناك شيء يشغله، يفقد الاهتمام بمواضيع كثيرة ويراها تافهة، أو ليس هذا وقتها، ولو وعت الزوجة هذا، يمكنها بعد الاطمئنان علىٰ الأرض الموروثة أن تكلمه عن استقبال زوجة أخيه، وعن غضب أخته من زوجها.

وفي الختام: أقول: إنَّ محاولة فهم الشريك العادلة من خلال البحث عن حجر رشيد الحياة الزوجية، هي محاولة لتضييق مساحة التجاور، لصالح مساحتي التفهم والفهم، وهي محاولة تنجح -غالبًا- إذا اتفق عليها زوجان كريمان؛ يوكل كل منهما مهمة الدفاع عن نفسه للآخر.



الفتاة الصالحة .. عشرة على عشرة

✍ **حنان لاشين**(*)

فتاة صالحة؛ هكذا يكون عنوان الحديث -دائمًا- عندما يريدون نصح الفتاة، ويكون الكلام موجهًا لها في عمومه وخصوصه؛ لكي تقرأ هي وتتعلم كيف تكون فتاة صالحة، يلقون بالمسؤولية كاملة عليها وحدها، وينسون أنَّ الأمر أكبر من أن تحمله تلك الرقيقة وحدها، فرفقًا بها، ولنعينها.

تلك الفتاة الحلوة، صاحبة الحسِّ المرهف، والعاطفة الشديدة، والضعف الجميل الذي فطرها الله عليه؛ لكي تكون صالحة بحقٍّ لا بُدَّ من أن تصبَّ عشرة قنوات برفق في مصلحة هذا الهدف العظيم لأجل العناية بها؛ وليكون صلاحًا محققًا.

قد يكون شخصًا مهمًّا في حياتها له دور محوري وبصمة عميقة، وقد تكون جهة أو مؤسسة، فدعونا نعد تلك العشرة معًا. ولنبدأ من عند أبيها .. ولنفتِّش عن الأصل، فالأب هو الأصل ..

(*) مصرية، طبيبة بيطرية، وكاتبة.

صدر لها خمسة كتب؛ منها: غزل البنات، ومنارات الحب، وكوني صحابية، ونشرت لها عدة مقالات على موقع طريق الإسلام وشبكة الألوكة.

(١) الأب أمان:

أوَّل من يزرع تلك النبتة النقيَّة في التربة الطاهرة هو (الأب)، أوَّل فارس في حياة أميرتنا، أوَّل من يرعاها ويحملها بحنان فور ولادتها، ويدس أنفه خلف أذنها الصغيرة بعد أن يؤذن فيها؛ ليشمَّ رائحة الصغار ويفرح بها، أوَّل من تسكن علىٰ ذراعه، أوَّل من تحبو تجاهه عندما يعود كل يوم من عمله؛ لتخفي كفَّها الصغيرة في كفِّه، أوَّل من تركض خلفه وتجبره علىٰ حملها لتنام مستمتعة بالأمان، أوَّل حب نقي لقلب طاهرٍ أخضر، وبلا منافس هو يحتل عرش قلبها بجدارة، وهي قرَّة عيه، ولو أحسن اختيار زوجته، وأحسن إليها؛ ستنبت ابنتهما نباتًا حسنًا لا ريب.

الأب أمان، وحصن تتحصَّن به الفتاة، وهو حاكم في دولته الصغيرة، ولديه سلطة تترتب عليها مسؤولية ضخمة، سيحاسب عليها أمام الله جل جلاله، وليس معنىٰ هذا أن يكون طاغية ويستعبد ابنته، بل مطلوب منه الحكمة والاحتواء والرفق واللين مع التربية والتوجيه.

الفتاة تحتاج إلىٰ الحبِّ والعطف والحنان؛ لتستقرَّ نفسيًّا، ولتشبع كما تشبع الأرض، وتتشرب بالماء وترتوي، فتطرح كلَّ ماءٍ غريب وتلفظه؛ ليطفح بعيدًا عنها، وهكذا هي إن تعرَّضت لأي إغراء أو خطر يتهدد مشاعرها وعواطفها، فستكون لديها وقاية لأنَّ روحها شبعت من أبيها حنانًا وعطفًا، لا تستهينوا بالتربيت علىٰ كتفها والمسح علىٰ رأسها، والإنصات إليها عندما تلجأ إليكم، ونبرة الصوت الهادئة والحنونة عندما تتحاورون معها، حتىٰ الهدايا تؤثر، بعض الأمان يمكن في تلك التفاصيل الصغيرة. وعندما تشعر بالأمان؛ ستتاح لها الفرصة لتنصت باهتمام لكل إرشادات أبيها وتوجيهات أمها، كما سياتي لاحقًا عندما نتحدَّث عن الأم.

ودور الوالدين لا يكمن في إطعام الفتاة وتوفير المسكن والملبس لها فقط، وإنَّما لهما وظيفة اجتماعية أكثر أهمية؛ تتمثل في ديمومة تثقيف الفتاة

وتنميتها وتوفير البيئة الاجتماعية المناسبة لسير المجتمع واتجاهاته ومعايير السلوك فيه، مما يؤدي إلىٰ حصول التطبع الاجتماعي الحميد، والتحصن بثوابت الدين.

(٢) الأم قدوة:

وثانيًا وبالتوازي، تحمل الأم أيضًا علىٰ عاتقها مهمَّة تنشئة الفتاة الصالحة، فهي التي تعلّم وتلقّن وتنهىٰ عن المنكر، وتأمر ابنتها بالمعروف، وتكون لها قدوة في كلّ لفتة وهمسة والتفاتة. فنحن نرىٰ الصوب بعيني أمِّنا، ونحبه ونفعله؛ لأنَّها شجعتنا عليه، ونبتعد عن الخطأ؛ لأنَّها نهتنا عنه أوّلًا، ثم نكبر ونفهم أنّها نهتنا عنه، لأنَّه حرام! وحببتنا في الصواب لأنّه حلال، والفتاة الصالحة تتحرىٰ الحلال فتفعله. والأمر يبدأ من طرف ثوب أمّها عندما كانت تحبو وتشدّها منه بكفّها الصغيرة فتلتفت بحنان إليها وتهشّ لها، وتعلّمها كيف تكون البسمة، وما البسمة إلا صدقة!

ثمّ تلقنّها التسبيحة؛ فتبقىٰ كلّ تسبيحة تخرج من شفتي ابنتها في ميزانها صدقة جارية، وتتوالىٰ التوجيهات وتكبر وتعظم، ويتكون لدىٰ الفتاة رصيد وفير من التربية الحسنة والسلوكيات القويمة بالتراكم، فسبحان من حمَّل الأم تلك الأمانة؛ ولهذا لا بُدَّ أن يكون لدىٰ الوالدين ثقافة أصيلة، ثُمَّ وعيًا بالتغيرات المجتمعية؛ ليوجها ابنتهما بناء علىٰ ما طرأ علىٰ المجتمع من تغيرات وطفرات.

عزيزتي الأُمّ! البنات أمانة، وبين يديك نفس بريئة علىٰ فطرتها كصفحة بيضاء؛ فلا تسطري عليها حلمًا واحدًا فقط، اضفري الطموح في جدائل ابنتك، أطعميها عزّة النفس، واسقيها الكرامة مع الماء. علّميها أنَّ الزواج حلم من بين أحلام كثيرة، وليست الأمومة هي الهدف الوحيد، ادفعيها لتقرأ وتتعلم وتتثقف لتتسع مداركها، لا تحبطيها إن أرادت التحليق في سماء الدنيا طالما كان التحليق في نطاق آمن، أشعريها بأنوثتها، فالأنوثة شعور وإحساس،

اعلمي أيّتها الطيّبة أن ابنتك ليست وعاء للإنجاب! هي روح تحتاج إلىٰ أنيس، وتشتاق إلىٰ حبيب، وللحبيب حقّ كما أنَّ لها حقًّا، ومن ضمن حقوقها أن تحتار زوجها بكامل إرادتها.

الأمومة نعمة عظيمة . . وحبّ الزوج أيضًا نعمة عظيمة. أخبريها أنَّ للعطاء لذّة، وأنَّ الأمان لن يغيب لو تأخَّر الزواج أو لم يأتِ ربما، حصِّنيها بسلاح العلم، وأخبريها أنَّ جمال الملامح ليس كلّ شيء، فكم من وجه جميل قبّحته المعصية، وكم من زوجة جميلة انصرف عنها زوجها.

علّميها أنّ الثراء ليس السعادة، فقد يغيب المال ويبقىٰ العفاف، وقد تغيب نِعم وتبقىٰ أخرىٰ ونحن غافلون عنها لا ندركها إلّا عندما نفقدها أو يفقدها بعضهم أمامنا؛ فندرك أنّها نعمة!

علّميها ألّا تكون كعرائس الماريونيت، تنتظر من يحرّكها، فلها عقل ولا بُدَّ من اتخاذ القرارات طالما ستتحمل المسؤوليات، لا تغرقيها فقط في الأمومة ومفاهيمها، وأصول الطبخ وأعمال البيت، فهي لن تغرق وحدها، بل سيغرق معها زوج لم يكن يعلم أنَّ الهدف الأول والأخير لها هو أنْ تكون أمًّا وربَّة بيت، فهو يحتاج إلىٰ زوجة وحبيبة! فكوني أوّل من يرعىٰ حبيبته وأحسني إليها، حتىٰ يطلبها منك فتمنحيه الهديَّة، وما أروع أن تكون ابنتك هديَّة؛ تستجلب لك الدعاء من كل من يتعامل معها!

(٣) الأخ الصديق:

وليس أمر صلاح الفتاة مسؤولية الوالدين فقط، فقبل أن نخرج من باب هذا البيت الطيب، لا بُدَّ أن نلتفت لدور ثالث وهو دور الشقيق، فأنت لأختك كالوتد، تثبتها علىٰ الصلاح بإحسانك لها، وتقوّيها بصداقتك لها، ونادرًا ما يكون الأخ صديقًا لأخته في زماننا للأسف، فلا نسمع-مثلًا-عن شاب يخصص ساعة في اليوم لشقيقته؛ لينصت لحديثها باهتمام، وربّما يتحدّث مع أخريات حديثًا مطولًا، أما هي، فينهرها كلَّما اقتربت؛ فتهرب إلىٰ غرفتها

لتتشرنق علىٰ ذاتها وتغرق في وحدتها، ولا ينتبه أنَّه ربَّما هناك سرّ تخشىٰ أن تخبره لأبيها، وإنَّما لجأت إليه؛ لأنَّه الصديق الذي تثق فيه، وهو الأكثر بساطة وودًا معها ليشدَّ علىٰ يدها، وربما ينقذها من ورطة ما!

هل لاحظتم أحدهم يمسك بيد شقيقته ليسير معها ساعة؛ ليروح عنها؟ للأسف أغلق الشباب الأبواب في وجوه أخواتهم، وأبعدوهن عنهم؛ فصارت الفتاة تشعر بوحشة، وتبحث عمن ينصت إليها، قد تثبت الفتاة علىٰ الصلاح رغم جفاء وقسوة أخيها إن وجدت العوض من الأب، والعكس بالعكس، فهناك من الآباء من تعيبهم العصبية الشديدة، فتجد أهل بيته ينتفضون عند عودته كلّ يوم من العمل، يعبس في وجوهم ويبخل عليهم بالكلمة الحلوة والمعاملة الطيّبة، فيعاملونه بحذر شديد، وقد تراه يجلس بينهم وهو في الحقيقة غائب عنهم!

في تلك الظروف، يكون الشقيق العاقل والصديق حصنًا لأخته، فهو الوقاية والحماية والسند، وهو الأقرب إلىٰ عمرها وفكرها، وكلاهما يعيش نفس الظروف، وقد يفهم هو ويقّدر سبب تقصيرها أو خطئها -مثلًا- أكثر من أبيها، فيكون حلقة وصل في لحظة ما، أو طوق نجاة تتعلق به، فتنجو من كرب ما، فلتبسط جناحك لأختك -أيّها الشاب الطيّب-لعلها تطير وتحلّق قريبًا منك، استقامة جناحها تعتمد علىٰ استقامة جناحك، فهي تستظّل بك، فكن لها عونًا لتعينها علىٰ الصلاح.

(٤) المـدرسـة:

وها نحن قد خرجنا من ذاك البيت الطِّيب؛ لنخطو معها نحو المؤثر الرابع في صلاحها، ولا شك أنَّ أوَّل خطوة للفتاة تكون لمدرستها، حيث ستتعلم أبجدية الصلاح والخلق الحسن، بينما تتعلم الحروف والكلمات، فالمدرسة والمؤسسة التعليمية كلّها لها دور مهم في استقامة الفتاة، فإن كانت الأسرة هي الحاضن الأول؛ فالمدرسة هي البنية الأساسية والمركزية لتنشئة

الفتاة وصياغة أفكارها وتحديد مركزها الاجتماعي بوصفها المؤسسة الاجتماعية الأكثر أهمية في عملية التنشئة والإعداد، حيث لا توجد مؤسسة أخرىٰ تمتلك من الإمكانيات والتأثير الفعلي ما تمتلكه المدرسة؛ فالمدرسة تعني الحصول علىٰ الشهادة، ثُمّ الوظيفة؛ فالمركز الاجتماعي.

العلاقة بين الفتاة والمعلمين، والقدوة المتمثلة في أخلاقهم وسلوكياتهم وأفكارهم، ومدىٰ تأثيرهم عليها، والتفاعل التربوي الإيجابي بينها وبينهم، كلُّ هذا يؤثر بشكل عميق في تكوين شخصية الفتاة وصلاحها.

فاستقاء العلم بالطريقة الصحيحة، وفي البيئة السويَّة التي لا تحرمها من معلّمات قدوات ينقلن إليها المبادئ الإنسانية العُليا؛ ستكون هي اللبنات لبناء فكرها السليم، وقناعاتها التي سترافقها طوال حياتها، المدرسة تعلّم وتربي، والانضباط في المدرسة سيقوّم اعوجاج الفتاة إن كان هناك اعوجاج. ولا شكَّ أنَّ هناك تشابكًا بين دور الأسرة ودور المدرسة؛ فكلامها يكمل الآخر بشكل ما.

(٥) وسائل الإعلام:

تُمثِّل وسائل الإعلام قوة مهيمنة، تؤثر علىٰ الناس وعلىٰ خيالاتهم وأفكارهم، ورغم أنَّ المرء حرٌّ فيما يفعل ويرىٰ؛ إلَّا أنَّها تشكل مؤثرًا فعّالًا في تغيير تفكيره؛ وبالتالي تغير المجتمع، فأي فرد وحده يستطيع ببساطة الإحجام عن مشاهدة مسلسل عاطفي أو برنامج ما، أو عدم قراءة هذه الصحيفة أو تلك. والفرد ذاته هو الذي يقوم بتحديد واختيار ما يقرأ أو يشاهد. لكنّ الرأي العام يتوجّه لا شعوريًّا متأثرًا بما يُبثّ ويشاهد علىٰ الشاشات. ومن هنا يأتي الخطر، حيث تعتبر أدوات الثقافة السمعية والبصرية الصانع الأوّل لذوق المشاهد.

والشاشة لها نصيب الأسد؛ فقد شوّهت الحقائق لدرجة يصعب معها علىٰ الشخص تصديق سرعة التحول لدىٰ الناس، الحق أصبح باطلًا، والباطل يروج له علىٰ أنّه الحق.

وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة تعدّ مصدرًا مهمًّا من مصادر التوجيه والتثقيف في أي مجتمع، وهي ذات تأثير كبير في عقلية ونفسية الفتاة، وهي التي تشكل ملامح المجتمع ككل، خاصة النساء، وبالذات الإعلام المرئي، فغالب الفتيات نظرًا لطبيعة حياتهن لا يخرجن كثيرًا كما يخرج الشباب لممارسة الرياضة وغيرها؛ ولهذا تقضي غالب الفتيات ساعات النهار والليل، خاصّة خلال فترة الإجازة الصيفية أمام التلفاز، لا نستطيع أن ننكر أن هناك شريحة كبيرة تشاهد المسلسلات والأفلام، ومن ينكر هذا يتجاهل الواقع الملموس، وللأسف هناك بعض الأفكار الخاطئة تسرب لعقول الفتيات فتؤثر نفسيًّا.

وبعض الفتيات-وبنسبة أقل-تلجأ للقراءة، قراءة الروايات بنسبة أكبر من قراءة الكتب الأدبية والعلمية، وما يُطرح من خلال المسلسلات والأفلام والروايات من معالجة لقضايا اجتماعية تخصُّ المرأة قد يؤثر إمّا سلبًا أو إيجابًا علىٰ فكر تلك الفتاة، والتأثير يختلف حسب خلفياتهن الاجتماعية والثقافية والدينية. في الحقيقة صورة المرأة العربية المسلمة لم تخرج بالطريقة الصحيحة من خلال تلك القنوات الإعلامية، فغالب ما يظهر صور مشوهة ومواقف تشعر الفتيات بالإحباط والتشاؤم، وقد يكون العمل مصورًا للحب بطريقة خيالية مبالغ فيها، فتبني الفتاة قصورًا في الهواء، وتسترسل في أحلام اليقظة بناء علىٰ ما رأته في المسلسل، وعندما تعيش حياتها الواقعية يرتطم خيالها بالواقع؛ فتصدم وتخال أنّها محرومة من ذاك الحبّ الذي كانت تراه، وأنّ هناك غيرها من الفتيات ينعمن به، وهي لا.

الكثير من المسلسلات أظهرت الأمهات كمعاول هدم، دائمًا الحماة منبوذة ومكروهة، أصبحت الفتيات متأهبات لأمّهات أزواجهن من قبل أن يتمّ الزواج.

في الحقيقة ما زلنا تفتقر لإعلام؛ يعالج المشاكل ويطرح الحلول ويملأ الفراغات ويسد الحاجات النفسية بدلًا من التأثير عليها سلبًا. لا بُدَّ من ضابط

يؤدي إلىٰ الانسجام مع متطلبات الهوية العربية الإسلامية فيما يُقدَّم إعلاميًّا، من حيث طبيعة المادة المقدمة، وما ترسخه من قيم فكرية واجتماعية.

ولا ننكر وجود أثر إيجابي من خلال بعض البرامج الهادفة، والإعلاميين الجادين، لكنَّهم يواجهون الكثير من المنافسة والمعوقات.

(٦) نساء المجتمع:

وتمضي السنون، وتتعلّم الفتاة ومن آنٍ لآخر تحتك بالمجتمع الذي قد يكون سببًا في صلاحها أحيانًا، أو معول هدم لهذا الصلاح. والمجتمع نصفان، ولنبدأ من بني جنسها.

نساء المجتمع لهن دور عظيم، فكل واحدة منهن لبنة في بناء شخصية الفتاة، وكلّ امرأة تلتقي بها وتتعامل معها من بني جنسها ستترك في نفسها بصمات، المميزة منهن ستلفت نظرها وتؤثر فيها، والبائسة منهن ستنقل إليها بعضًا من بؤس أفكارها، والخوف أن تشوه إحداهن فكر فتاة كان من المنتظر أن تكون صالحة، ولهذا لا بُدَّ من التحصين.

في المجتمع الصالح، من يجب عليه أن يعرف حقوق المرأة في الإسلام وأن يدافع عنها؛ هي المرأة بالدرجة الأولىٰ. يجب علىٰ النساء أن يعرفن ماذا يقول الله جل جلاله عنهن في القرآن، وماذا يريد منهن، وكيف أعزهن. ويجب أيضًا أن يعرفن من الذي يحدّد مسؤولية المرأة حتىٰ تستطيع أن تدافع عن حقها بما يقوله الإسلام وفي إطار الإسلام، وإذا كانت المرأة بعيدة عن هذه الأمور؛ فسوف تَضل وتُضل مَن حولها مِن النساء.

أثر المرأة علىٰ المرأة كبير لا يستهان به، والصحبة الصالحة طوق نجاة في زمن الفتنة، لهذا علىٰ كل فتاة أن تعيد ترتيب أوراقها وتبحث عن صحبة تعينها علىٰ الثبات.

تعودنا أن نراجع ما نكتبه، فنجد أخطاءً كثيرة وربما لا تعجبنا الفكرة .. فنمحو كلمات ونمزق أوراقًا، ونحاول مرة أخرىٰ. وأحيانًا نمر فوق

الخطأ فنشطب عليه وتظل العلامة؛ فنتذكر ولا نكرر نفس الخطأ، ولكننا عندما ننهي فقرة لا بُدَّ أن نضع في نهايتها نقطة، ونعود ونبدأ من جديد من أول السطر. بداية جديدة ومساحة أوسع وفرصة أخرىٰ أفضل، ولكن متىٰ نضع النقطة؟ ومن أي سطر سنبدأ؟ وهكذا حياتنا؛ مجموعة من الأحداث والكثير من الأفعال والأقوال والمواقف والأشخاص . . .

هناك المفسدون؛ لا بُدَّ أن نمحوهم تمامًا ونزيلهم من طريقنا. فكل صديق سوء لا بُدَّ أن نرحل عنه قبل أن يفسد ما نحاول أن نصلحه، وكل ذنب أذنبناه لا بُدَّ أن نتطهر منه حتىٰ لا يهدم النفس المطمئنة التي نسعىٰ إليها ولنضع نقطة.

وهناك الحاقدون؛ فلنضعهم بين قوسين، نتجاهلهم ونبتعد عنهم، ونعاملهم كجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب، ولا نتأمل فيهم ونراقبهم؛ حتىٰ لا ننشغل بهم عما هو أهم. وهناك الرائعون الذين أضافوا إلينا لمسة ساحرة في كل لحظة تواصلنا معهم؛ فلنبحث عنهم ونخط تحتهم خطًّا أحمرًا. وهناك الأصفياء الأنقياء الطاهرون، من أحبونا بصدق في الله ولله، إن وجدونا علىٰ خير شجعونا، وإن أخطأنا نصحونا، وإن سقطنا حملونا، وإن أسأنا تحملونا، نرىٰ وجوههم فنذكر الله، وكأنهم تسبيحة! . . نتركهم فيلاحقونا بالدعاء، اللقاء بهم يزيد الإيمان ويرفع الهمة، والغياب عنهم يشعرنا بغربة؛ فنجد وجعًا خفيفًا في الصدر لا يخلو من لذّة؛ لأنه وجع الشوق إلىٰ الأحباب في الله وصحبة الخير.

(٧) رجال المجتمع:

رجال المجتمع كذلك مسؤولون جميعًا؛ الجدّ والعم والخال والجار والمعلّم، وكل رجل وشاب تعاملت معه الفتاة، قد يكون أحدهم معول هدم بطريقته في التعامل مع الفتاة، وقد يكون داعمًا لها. استنقاص قدر المرأة عامة ينعكس علىٰ سلوكها درب الصلاح، لا تستقلّوا بالنساء ولا تعاملوهن

وكأنهن حمل ثقيل أو كائن أقلّ درجة، فالتاريخ يشهد بأنهنَّ قادرات علىٰ العطاء. الزبير بن العوام ﷺ نشأ يتيمًا ولكن أمه جعلته أسدًا، وجعلت لعبه في بري السهام، وأنجب عبد الله بن الزبير ﷺ الذي شارك في فتح تونس وقتل قائد الروم جرجير.

والإمام البخاري ﷺ نشأ يتيمًا، ولكن كانت من ورائه أم أوصلته إلىٰ الإمامة في الدين والعلم. والإمام سفيان الثوري ﷺ نشأ يتيمًا، وكان من ورائه أم أوصلته إلىٰ الإمامة في الدين والعلم. والإمام الشافعي ﷺ نشأ يتيمًا، وكان من ورائه أم أوصلته إلىٰ الإمامة في الدين والعلم. إذن صلاح الأمة يبدأ بصلاح نسائها.

أول من سكن الحرم، كانت السيد هاجر ﷺ. وأول من آمن بالنبي ﷺ علىٰ الإطلاق كانت امرأة، هي السيدة خديجة ﷺ. وأول من صلىٰ خلف النبي ﷺ، علىٰ الإطلاق، هي السيدة خديجة ﷺ. وأول شهيد في الإسلام كانت امرأة، هي سمية أم مع عمار بن ياسر ﷺ. ليس ذلك فحسب، بل لدينا سورة في القرآن اسمها سورة النساء، ولدينا سورة مريم ﷺ. ولدينا سورة في القرآن نزلت بسبب شكوىٰ امرأة (المجادلة)، الله ملك الملوك يسمع لشكوىٰ خولة، وينزل قرآنًا ليحل مشكلتها مع زوجها، أوليس هذا تكريمًا من رب العالمين.

موتك أيُّها الرجل الكريم أثناء دفاعك وحمايتك للمرأة شهادة؛ أوليس هذا تكريمًا. ألم يقل رسول الله ﷺ: «**من قُتل دون عرضه؛ فهو شهيد**». وهنا النبي ﷺ يقول لكل مسلم، إياك أن يخلص لمسلمة بسوء وفيك عين تطرف.

دافع عن الفتاة، أكرمها، احترمها ككيان مستقل، أعنها علىٰ الصلاح بصلاحك، فكونك صالحًا تقيًّا تحفظ عرضها وتغضّ الطرف عنها؛ عون لها، إتاحة الفرصة لها لتتعلم وتعلّم وتعمل؛ عون لها. صيانة عرضها بتقواك؛ عون لها علىٰ الصلاح، فمن مقاصد الشريعة الإسلامية صيانة الأعراض ليصلح المجتمع وتنتظم الحياة، وفي سبيل تحقيق هذا المقصد وضع الله لنا ثوابت

وسد كل الطرق المفضية إلىٰ الرذيلة، ووضع بين الرجال والنساء حدودًا مَن تجنبها؛ سلم وغنم، ومن تعداها؛ عطب وأثم، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

(٨) العلماء والشيوخ:

بعض التساؤلات الخاصّة ببعض التشريعات الخاصة بالنساء؛ توّلد صراعًا نفسيًّا يقتات علىٰ نفس الفتاة، تتضارب أحاسيسها وتظل قلقة حتىٰ تبشر بإجابة من شيخ حكيم وعالم ذكي؛ ترضي نفسها وتملأ فراغًا كاد الشيطان أن يملأه ريبة، قد تكون متعبة جدًا نتيجة فكرة، تتضعضع لها عقيدها بسبب كلمة من شيخ لم يوفق فيها. أو تفعل شيئًا ما يخالف الأخريات، وتبدو كالقابضة علىٰ الجمر بينهن، وقد يطارها اللوم من آخرين، وقد تظل تطرح السؤال علىٰ نفسها ولا تجد إجابة! لكنَّها تتجاهله، ولأنَّ هذا يرضي الله؛ تفعله، لكن التجاهل لا يكفي، لا بُدَّ من الشرح وتقريب المسافات حتىٰ ترتاح نفسها، هي تحتاج للدعم والتثبيت وليس للتشكيك، بعض القضايا المهمة والشائكة طرحت بشكل لم يُرَاعَ فيه نفسية الفتاة، بل بعض الشيوخ سخروا من المرأة وأضحكوا المستمعين عندما تحدثوا عن النساء، فضحك الرجال وتألَّمت النساء، وبقي السؤال بلا إجابة لديهن، وعدن إلىٰ بيوتهن مكسورات الخاطر.

لا بُدَّ من إعادة تشكيل الخطاب الدعوي الموجه للمرأة، ولتطرح القضايا بشكل منضبط. نحتاج إلىٰ تغيير طريقة الخطاب الديني المعني بالنساء، فقد تقع أحيانًا بعض الكلمات خارج مرماها فتؤلمهن، وقد توجع فتترك في قلب الفتاة ريبة وشكًّا في بعض الأحكام التي شرعها الله أوّلًا لحماية المرأة، ولكن سوء العَرض قد يفسد المعنىٰ ويضلل الهدف.

نحتاج للشيخ الحكيم، بقلب الأب الرحيم، الذي يبدأ بتذكير نفسه قبل أن يلقي خطابه بالوصيّة الشريفة «رفقًا بالقوارير»، وعليه ألَّا يترك أسئلة مبهمة بلا إجابات، فالصمت -أحيانًا- قد يترك خلفه فتنة، ولقد فطر الله النساء علىٰ

العاطفة التي تغلب عليهن، فحسن اختيار ألفاظ الخطاب سيعين المرأة علىٰ الصلاح ويجعلها تطمئن. ولنا في قصة «أسماء بنت عميس» ﵂ قدوة، عندما سألت النبي ﷺ فأجابها بما يرضيها ويرضي النساء من خلفها.

(٩) الزوج الصالح:

والفتاة التي نتحدث عنها ستتزوج يومًا ما، والزوج مسؤول عن استمرار صلاح زوجته عندما يحسن إليها، فكم من فتاة كانت صالحة ثمّ انتكست بعد زواجها بسبب زوجها! وسيطول الحديث هنا؛ لأنَّ الفتاة تعيش تحت جناح زوجها ضعف ما تعيشه تحت جناح والديها، فهي منه وهو منها وقد خلقت من ضلعه لتشعر بالانتماء إليه. فلا تكسر ضلعك أيّها الزوج الخلوق الطيّب، يقول ربنا جل جلاله في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. وجاءت السنة ببيان شيء من هذا الخلق، فقال النبي ﷺ: «استوصوا بالنساء، فإنَّ المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء». [رواه البخاري].

يقولون: إنّ المرأة ضعيفة، وينصحون الرجال أن يكسروا لها ضلعًا لتستقيم، وكأنَّ حالهم لا عوج فيه! وينسون أنّ اعوجاج الضلع صفة حالهِ وليس ذمًّا فيه، وكما قال الشيخ محمد متولي الشعراوي ﵀: «الفساد: هو إخراج الشيء عن حد اعتداله لمهمته، وقد يكون اعتداله لمهمته أن يكون أعوج»، والضلع في الصدر؛ اعتداله أن يكون أعوج ومنحنيًا؛ ليحمي أغلىٰ ما في الإنسان، وهما الرئة والقلب، وكما نرىٰ تركيب مفاصل الجسد بما فيها من انحناء واعوجاج، لكنها معتدلة لمهمتها، هندسة بديعة وروعة في الخلق لن نصفها أبدًا باعوجاج سيء .. بل هي معجزة ورحمة من الله.

إذن: ليس هذا الأمر ذمًّا للمرأة، كما يظن بعض سطحيي الفهم، بل هو اعتدال لمهمتها؛ لتحنو علىٰ طفلها الصغير وتتحمله في بطنها وهنًا علىٰ وهنٍ

لشهورٍ طويلةٍ، ثم تتجرع آلام ولادته وتتحملها بنفسٍ راضية، وتقوم بواجبها كأم وتنهض من نومها لترضعه، وتسهر إن مرض، وتكرر نفس التجربة مرّات ومرّات رغم قسوتها وألمها .. سبحانك ربي!

كونها عاطفية -وهو العوج المقصود- رحمة من الله؛ لأنَّها ستتعرض لوليدٍ لا يبين عن آلامه، غير مطلوب هنا أن تكون بعقل وحزم رجل شديد وإلَّا .. من سيرحم الصغير، ويحنو علىٰ الزوج ويصبر علىٰ قسوته أحيانًا، ويغفر وينسىٰ بعد كلمة حلوة!

اعوجاج في عاطفتها؛ يجعلها تتحمل صراخ صغيرها لساعات، ثم تحمله وتمسح دموع عينيه وتقبله وتطعمه، بينما لو اقترب من أبيه لصاح في وجهه. تلك العاطفة تجعلها في حالة وصل وجداني مع زوجها، فتتحمل شظف العيش معه وهو يجتهد بحثًا عن لقمة العيش؛ فتظل في بيتها ساعات وأيامًا بلا خروج، بعيدًا عن أي نوع من الترفيه، فدخوله عليها هو الجائزة الكبرىٰ التي تنسيها كل ما مرَّ بها طول اليوم من همّ وغمّ، ولو ابتسم لها وأخبرها أن طعامها شهيٌّ جدًّا؛ ستنام قريرة العين.

البعض يرىٰ في قسوته وحدّته مع بناته أو مع زوجته تربية سليمة! ويجهل هؤلاء طبيعة المرأة التي فطرها الله عليها، ولو فهموها؛ لاختلف الأمر واختلفت النصيحة.

إنَّ المرأة إذا ضربها زوجها؛ ستكرهه وتبغضه، وسيموت فيها ذاك الضعف الأنثوي الحلو الذي كان يستمتع به وهي بين يديه، فضعف المرأة أمام زوجها له حلاوة تحبها المرأة عندما تشعر أنه يحميها ويحتويها، فيتولد لديها شعور بالانتماء إليه وكأنّها قطعة منه يحبها ويقدرّها. أما العنف والقسوة فيقتلان تلك الرّقة التي يكتمل بها جمالها كأنثىٰ، فتتغير طبيعتها، وتتحجر نظرتها، ويغلظ صوتها في الرد عليه؛ لأنَّها تتألّم، وستخرج كلماتها من قلب صار كبئرٍ عميق مظلم، ستحترق .. وستُحرق كل شيء معها.

بعض النساء، تزن تلك الأمور بميزان الحكمة والروية وهدوء الخاطر، وبعد أن تتفهم طبيعة شخصية زوجها تتفادىٰ إغضابه، وتتحرىٰ في كل كلمة وتَصرف، فتعيش في سلام، وربما هي التي تقوّمه، وتكون سببًا في صلاحه. وهؤلاء لديهن قدرة كبيرة علىٰ التحمّل وامتصاص الغضب، ويتنازلن كثيرًا أمام زوج قاسي القلب، غليظ الطباع. هذه المرأة العظيمة لا تأخذ الأمور بعاطفتها، وكل هذا علىٰ حساب صحتها النفسية. تلك تكون أرحب فهمًا، وأحنىٰ قلبًا، وأبعد عن افتعال المناكفة، إذا أحبتك راعت نظرك ولم تخطئ ما تريد، وإن جفتك حفظت لك جانب الوصل البعيد بينك وبينها فكانت لينة المعشر، لكنها مظلومة! وقد لا تتحمل أخرىٰ أن تعيش في حالة صراع نفسي دائم، وقد ينفجر البركان الذي يغلي داخل صدرها في أي لحظة!

- لماذا تكسر الضلع وتؤلمها، وأنت تعلم يقينًا أنها تحبك؟
- أين الرحمة في قلبك؟
- أين وعدك لها أنها ستكون أميرة فؤادك؟

إنَّ الغضب له علاج، توضأ، إن كنت واقفًا فلتجلس، وإن كنت جالسًا فتمدد قليلًا حتىٰ تهدأ، أو اترك البيت وسر قليلًا واستنشق بعض الهواء، ابتعد عن محيط شجارك مع زوجتك حتىٰ تهدأ .. أمَّا أن تتحول غرفتكما إلىٰ حلبة مصارعة، ويتورّم وجهها من اللكمات، ويُكسر أنفها وتسيل الدماء، وتصفعها بقسوة، وتدفعها بعيدًا عنك ليصطدم ظهرها بجدار الغرفة .. فأنت تنتقم منها وتكسر الضلع.

- استهزاؤك بها أمام الجميع، وتهكمك من كلامها ورأيها ولو كان بسيطًا أمام أهلك أو أقاربك= كسرٌ للضلع!
- نظرة الإرهاب إن طلبت شيئًا= كسرٌ للضلع!
- ردك بغلظة علىٰ كلامها طوال النهار= كسرٌ للضلع!

- تجاهلك لتلك اللفتات الحلوة الرقيقة التي تجتهد فيها لترضيك= كسرٌ للضلع!

- إن ذكّرتك بذكرىٰ طيبة مرّت بكما، فردُّ فعلك البارد عليها= كسرٌ للضلع!

- العنف= كسرٌ للضلع!

وحان وقت الهدنة، وتبدأ الهدنة بين كل منا وشريك حياته؛ حينما يرتضيه ويقبله، ويقبل قدره ومصيره معه، يحبّه ويقدره ويرىٰ فيه من المميزات ما يكفيه ليغفر الزلات، ويبني معه جسورًا يعبران بها علىٰ كلّ مشكلةٍ تمرّ، يمسك يدها وتمسك يده، ولا يتخليان عن بعضهما أبدًا مهما تكررت الأزمات، ففي كلّ مرّة سيبنيان جسرًا جديدًا. وكلّما زاد عنف الرجل مع زوجته .. قلّت الجسور، وتغيّرت الزوجة وتخلّت عن ضعفها الأنثوي الحلو، وسيجدها تقف أمامه ندًّا، وسيعلو الصوت، وستتبخر اللحظات الحلوة؛ لأنَّ الضلع مكسور.

ويبقىٰ الأمل .. فلا دوام علىٰ حال أبدًا، ولله نفحات تهلّ علينا فنرىٰ الزهر يبتسم، وغصن الريحان يهتز، والياسمين الحلو ينبض حولنا. لا تيأسوا أبدًا من تغير من قسا عليكم يومًا، فالحب معجزة الله التي رُزقنا بها، بالحبّ سيغير زوجك، وبالحب سيحنو عليك، وبالحب ستهدأ زوجتك وتسكن إليك، وبالحب سيستقر العشّ وتعلو المودة والرحمة حتىٰ تصبح كمظلة كبيرة تغطي عضّات الزمن وضربات الأيام.

قليل من الصبر، وكثير من الحكمة، والصمت البليغ، لا بُدَّ للزوج أن يراعي رهافة حس زوجته، ويعترف أن اعوجاجها ليس إلَّا اعتدالًا لمهمتها التي كلّفها الله بها، وإلّا تسبب بفهمه الخاطئ لهذا الاعوجاج علىٰ أنّه نقص ومعاناة في الكثير من المشكلات الزوجية، فإذا فقه الزوج هذا؛ عرف وحده كيف يصلح الكسر الذي تسبب فيه. لا تقوّم الضلع .. فالاعوجاج بعاطفتها

ورقّتها وضعفها الأنثوي، ما كان إلّا ليحميك-أيّها الزوج الطيب-وينحني عليك أنت وأبناءك، تمامًا، كما ينحني الضلع في صدرك ليحفظ لك قلبك ويحتضنه؛ ليتحمل عنك الضربات . . ولتتركها كما هي، ضلعٌ جميلٌ صفة حاله أنه أعوج، وليس هذا ذمًّا فيها بل هذا حالها، وعلّمها بنفسك أن تفخر باعوجاجها؛ لأنَّه ليس منقصة ومذّلة.

إن عظم حق الرجل علىٰ زوجته الحبيبة لا يعني سلب حقها المماثل في حسن العشرة والمعاملة، أو منحه السلطة المطلقة عليها دون مراعاة لجانبها بمثل ما أمرت به تجاهه من حقوق وواجبات، وقد جمع ذلك في قوله جل جلاله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. حتىٰ قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: «إني لأتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي». وفسّر الإمام الطبري (الدرجة) في قوله جل جلاله بعدها: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾. بمزيد من الأعباء المطلوبة من الرجل. فارحم زوجتك، وأحسن إليها؛ فذاك هو حبل الرحمة الذي تتصل به أمور الحياة بينكما، وبه يستمر صلاحها بعد زواجها منك.

(١٠) الفتاة الصالحة:

وبالتأكيد، الفتاة مسؤولة بقدر كبير، فلقد وهبها الله جل جلاله عقلًا تميّز به بين الحق والباطل والصواب والخطأ، فهي التي تخطو علىٰ درب الصلاح، والصلاح هو أن يكون الشيء ملائمًا لأداء مهمته المقصودة، ومهمة الفتاة عظيمة، فهي الزوجة، والأم، وهي مصنع الرجال، وهي من يربي النصف الآخر من المجتمع الذي سيقوم بعبادة الله والإعمار في الأرض والدعوة لدينه.

تكبر الفتاة فجأة، وتكون في لحظة ما، هي من تتخذ القرار وحدها، وتلقىٰ عليها المسؤولية، ويلتفت إليها الجميع ينتظرون منها كلمة؛ لأنَّها نضجت وصارت مسؤولة، والآن بين يديها خيارات متعددة ولها الكلمة، متفرق طرق، أو مصيرها ومصير آخرين، هي مسؤولية عظيمة، وشيء يتكرر

في حياتها يوميًّا، في قرارات بسيطة لا نلتفت نحن لها، لكن كلّما عظم الأمر ازدادت الفتاة تفكيرًا وقلقًا.

عندما تنشأ الفتاة نشأة صالحة وتتعلم لتتخذ قراراتها بمعيار يتوافق مع مبادئها التي تربت عليها؛ لن تتعب، عندما تتخذ قرارًا مبنيًّا علىٰ علم مسبق؛ لن تندم، عندما تتأنّىٰ في القرارات المصيرية التي تترتب عليها تبعات كبار؛ ستقل نسبة الأخطاء، مراجعة السلبيات والإيجابيات قبل النطق بالقرار شيء عملي، السؤال والاستفسار لن يضر، وكذا المشورة للعقلاء لن تكون هباء.

مراقبة تجارب الآخرين؛ عبرة وعظة، تنمية الثقة بالنفس ضرورية؛ فقد تتخذ الفتاة قرارًا يخالفها فيه المجتمع ولا يُرضي الآخرين، لكنَّه الأصلح لها، وربما تشكل بالنسبة لهم طفرة، ويراقبون خطواتها، وتكون هي أول من يتخذ هذا القرار .. لكنّها قبل تلك الخطوة؛ لا بُدَّ أن تكون علىٰ قدر من الوعي والإلمام بالأمر، ولديها نظرة مستقبلية، تدرك مواطن قوّتها ونقاط ضعفها، وتخطط لهدفها بعناية، هي مسؤولة أيضًا عن صلاحها!

هناك الكثير من الأسباب لا بُدَّ أن تنتبه إليها الفتاة لتعين نفسها علىٰ الصلاح، والصلاح ليس بالأحلام فقط ولا بُدَّ من عمل، والعمل لا يصلح إلا بالنية؛ فاعقدي نيتك أن تكوني نموذجًا رائعًا للفتاة الصالحة التقية، ترضي ربها وترغب غيرها في الصلاح.

وكما قال النبي ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيات وإنَّما لكل امرئ ما نوىٰ**»، فما دامت هذه نيتك وتلك كانت إرادتك؛ فثقي وتأكدي أن الله جل جلاله لن يحرمك هذا الفضل ولن يحرمك هذا الأجر.

اطلبي العلم؛ فلا بُدَّ أن تكون لديك قاعدة علمية، علىٰ الأقل بالمعلوم من الدين بالضرورة؛ حتىٰ لا تقعي في تقصير في فرض فرضه الله عليك، ولا تقعي في محرم نهاك الله جل جلاله عنه.

ابحثي عن الصحبة الصالحة؛ فهي حصن لك، وهي ضرورية جدًّا، فالمرء علىٰ دين خليله، ولذلك قال ﷺ: «لا تصاحب إلَّا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلَّا تقي»، فابحثي عن كوكبة من الصالحات وكوني بينهن دائمًا.

تحلّي بحسن الخلق، وعلىٰ رأس مكارم الأخلاف؛ تاج الحياء . .

كنت أنصت لتفسير شيخ كريم لقوله جل جلاله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾، وكان لشرحه وكلماته وقع جميل في نفسي، كالغيث اللطيف، جلست أنصت وأتخيلها، وهي تمشي مع أختها علىٰ استحياء، فتاتان رقيقتان، اضطرتها ظروف الحياة للخروج لرعي الغنم، وليست بالمهمة السهلة عليهما. تبتلعهما أرض واسعة وحياة غليظة، خرجت الحبيبة لترعىٰ الغنم سيرًا علىٰ الأقدام، الرمال الساخنة تلفح بشرتها الرقيقة، تتلفّت يمينًا ويسارًا، تتحمّل حرارة الشمس صبرًا علىٰ صبر؛ برًّا بأبيها الشيخ الكبير، والذي منعه كبر عمره من الخروج . . فقامت وخرجت واستأنست بأختها لتقوم بالمهمة بكل ثقة، لكنَّها لم تتخلّ عن حيائها الجميل، فالعمل لأجل لقمة العيش لا يتنافىٰ مع الحياء.

النبي نفسه ﷺ كان من خلقه الحياء

والذي ننساه، أنَّ الحياء والإيمان قُرِنا معًا، يقول ﷺ: «الحياء والإيمان قُرِنا جميعًا، فإذا رفع أحدهما؛ رفع الآخر». ابسط كفيك وأنت تقرأ كلماتي الآن، والصقها ببعضها، ارفعهما لأعلىٰ معًا واخفضهما لأسفل معًا، هكذا الحياء ملاصق للإيمان، لو غادر الحياء نفسك؛ لا بُدَّ سيرحل الإيمان . . إذا رفع الأول؛ رفع الثاني.

وفتاة مدين؛ عندما أمرها أبوها أن تعود وتدعو موسىٰ الذي آوىٰ إلىٰ ظل شجرة وجلس يدعو ربه جاءته تمشي علىٰ استحياء، تتستر بكمِّ درعها

(الرداء)، وهذا قاله عمر بن الخطاب ﵁. ولبعدها من النداء (وقفت بعيدًا تناديه من شدة الحياء)، وهذا قاله الحسن، تستحي؛ لأنَّها ليست خَرَّاجة ولَّاجة. وقيل في التفسير: كانتْ تمشي علىٰ استحياء في حالتي المَشي والمجيءِ معًا لا عندَ المجيءِ فقط، حتىٰ أول مرة كانت تمشي علىٰ استحياء، غير متبخترة، ولا متثنِّيَّة، ولا مظهرة زينة، وأخبرته وبينت له قصدًا: أنَّ أباها هو الذي يطلبه -وليست هي- ليجزيه علىٰ مروءته وشهامته وعونه لهما.

حبيبتي في الله، اتخذي من زوجات النبي ﷺ قدوة لك. تروي بعض الآثار أنَّ أمنا عائشة ﵂ عندها نصف العلم؛ لذا كانت مقصد فقهاء الصحابة عندما تستعصي عليهم بعض المسائل العلمية والفقهية، خاصة فيما يتعلق بجوانب حياة النبي ﷺ، وكانت عائشة ﵂ تحث سائلها ألَّا يستحي من عَرض مساءلته، وتقول له: «سل؛ فأنا أمك»، وقد أخذ عنها العلم حوالي (٢٩٩ من الصحابة والتابعين)، منهم (٦٧ امرأة)، وهي قدوة لنا في العلم وفي الحياء. فهي تقول ﵂: «كنت أدخل بيتي الذي دفن فيه الرسول ﷺ وأبي، فأضع ثوبي فأقول: إنَّما هو زوجي وأبي، فلما دُفن عمر معهم، فوالله ما دخلتُ إلَّا وأنا مشدودة عليّ ثيابي؛ حياء من عمر». رضي الله عنك يا حبيبة الرسول، أيُّ حياء أعلىٰ من هذا الحياء؟ لله درُّها تستحي من رجل قد مات ودفن تحت الثرىٰ!

وكذا استحت فاطمة بن الحبيب ﷺ، وهي تتخيل نفسها بعد وفاتها بكفن من خمس طبقات أمام الرجال، فجلست حزينة شاردة، حتىٰ سألتها أسماء بنت عميس عن سبب شرودها، فلما أخبرتها قالت لها أسماء: ألا أصنع لك شيئًا رأيته في الحبشة .. نضع أعمدة علىٰ أركان النعش حتىٰ يرتفع الغطاء علىٰ الأعمدة؛ فلا يبين أي شيء ..»، فردت فاطمة قائلة: «اللهم استرها كما سترتني ..».

لله درُّها تستحي وهي ميتة!

ذاك والله نعم الخُلق . . فاللهم جملنا بالحياء!

والحياء الحقيقي لا يمنع أن تكوني ذات رأي وعلم وشخصية وحضور وفراسة، ولا يمنع من الأمر بالمعروف ومن النهي عن المنكر، الحياء فضيلة وليس الحياء من الخجل . . فبينهما فارق كبير!

الخجل ضعف النفس . . أما الحياء فعزتها وكرامتها.

وأن تُضرب المقارنة بين (المرأة العاملة) الناجحة وبين (ذات الحياء)، فتلك مقارنة لا تصح؛ لأنْ لا تضاد بين الحياء والعمل والعلم . . أين التضاد!

عَنْ أَنَس قَالَ: قَالَ رسول اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَياءُ**».

الحياء ليس ضعفًا ولا هوانًا . . وليس نقصًا في الفتاة أن تكون حيية، بل تكون الفطرة التي وضعها الله جل جلاله في كل أنثىٰ لتحلو بها . . بإهابها الأنثوي الرفيق وطبعها الرقيق . . وتلك خصلة يحبها الزوج في زوجته . . شئتم أم أبيتم؛ حياء المرأة كثيرًا ما يكون أكثر جاذبية من جمال ملامحها . . ولكن المرأة الصالحة لا تتجمل بالحياء من أجل الرجل، ولكنها لله . . لله وحده.

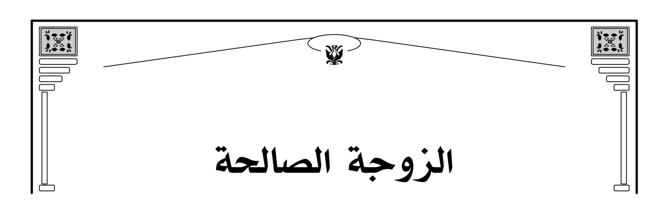
والحياء سلوك نثمنه جميعًا في الفتيات، كما ننبذ وننفر من الفتاة التي تخلط بين الجرأة وقوة الشخصية؛ فتشوه صورتها.

الحياء قوة، منتهىٰ القوة أن تتحلىٰ المرأة بالحياء في نظراتها وكلماتها وحركاتها وسكناتها، ولا يتنافىٰ هذا مع العلم والعمل.

تمسكن بالحياء؛ فهو أصل الصلاح وذروة سنامه، وهو حلية الفتاة المسلمة.

تلك كانت عشرة كاملة، كل قناة منها تصبّ في مصلحة الفتاة المسلمة، ولا بُدَّ أن يَقدم العشرة؛ الإخلاص . . أولًا لتصلح الفتاة ويصلح المجتمع .

اللهم أصلح بنات المسلمين، وألقِ عليهن محبّة منك، واصنعهن على عينك.



الزوجة الصالحة

وصال تقه(*)

«أود الزواج، وأريد الظفر بزوجة صالحة ..

فعلىٰ أي أساس أختار زوجتي؟

ما المواصفات التي إذا توفرت في المرأة؛ كانت صالحة؟!».

سؤال متكرر بتكرر الاستشارات التي تردني عن معايير الزواج والمواصفات التي يفترض أن تكون في الشريكة المطلوبة. فنحن وإن كنا نعلم معنىٰ الصلاح إجمالًا؛ فإننا نقف أحيانًا عاجزين عن تحديد مفرداته وحدوده. ويزيد الأمر إبهامًا وإشكالًا حينما يتعلق باختيارٍ جوهري حاسم في الحياة، لا مجال للاستهتار فيه ولا للارتجال ما دام سيترتب عن سوئه تبعات تتعدىٰ النفس إلىٰ الشريك، وفي الغالب إلىٰ الأولاد.

- فما الصلاح؟

- وما مراده كمعيار علىٰ أساسه تُختار الشريكة.

- وما الذي علىٰ المرأة أن تكونه كي تعتبر صالحة؟

عرّف اللغويون الصلاح بأنَّه ضد الفساد، قال صاحب «اللسان»: «الصلاح ضد الفساد، تقول: صَلَح الشيء يَصْلُح صُلوحًا، والإصلاح: نقيض الإفساد».

(*) كاتبة وأديبة مغربية، ومستشارة اجتماعية، صدر لها من قبل: «مرافئ السكن» و«أرض الشوك»، و«رواء في زمن الجدب» بالاشتراك.

واعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ الصلاح جامعًا لكل خير مستغرقًا فيه، فقال في «مجموع الفتاوىٰ»، (كتاب الإيمان): «فإذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير، وكذلك الفساد يتناول جميع الشر».

في حين قرن الشيخ السعدي -رَحِمَهُ اللَّهُ- الصلاح في «أصول عظيمة من قواعد الإسلام» بالكمال والاعتدال، حيث قال: «أمَّا الصلاح: فأنْ تكون الأمورُ كلها ظاهرها وباطنها، دينها ودنيويها= معتدلةً كاملة مكلمة، حاصلًا لها من الأوصاف الصالحة والنُّعوت المصلحة ما يُوصلها إلىٰ الصلاح الحقيقي، وبذلك ينتفي عنها الفساد». (ا. هـ).

فإن كان الصلاح في عموم معناه يناقض الفساد ويتناول الخير والكمال والاعتدال؛ فإنَّه بإضافته توصيفًا للمرأة لا يبتعد عن هذا المعنىٰ، بل يستغرقه، ويزيد عنه في التفاصيل والخصوصية. فيأتي مرادفًا للطاعة وطلب الرضا، ومقابلًا للنشور. وهو ما أشار إليه المفسرون في تفسير آية: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومقصوده: الأمر بطاعة الزوج، والقيام بحقه في ماله، وفي نفسها في حال غيبة الزوج». (ا. هـ).

وقال صاحب «التفسير الكبير»: «قال ابن عباس: **الصالحات**: المحسنات لأزواجهن؛ لأنهن إذا أحسنَّ لأزواجهن؛ فقد صلَح حالهن معهم. وقال ابن المبارك: المعاملات بالخير. وقيل: اللَّائي أصلحهنَّ الله لأزواجهن، قال جل جلاله: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾. وقيل: اللواتي أصلحن أقوالهن وأفعالهن. وقيل: الصلاح الدين هنا. وهذه الأقوال متقاربة، **والقانتات**: المطيعات لأزواجهن، أو لله جل جلاله في حفظ أزواجهن، وامتثال أمرهم، أو لله جل جلاله في كل أحوالهن، أو قائمات بما عليهن للأزواج، أو المصليات. أقوالٌ آخرها للزجّاج. **حافظات للغيب**: قال عطاء والسدي: يحفظن ما غاب عن الأزواج، وما يجب لهنَّ من صيانة أنفسهن لهم، ولا يتحدثن بما كان بينهم وبينهن. وقال ابن عطية: الغيب: كل ما غاب عن علم زوجها ممَّا استتر عنه، وذلك يعم حال غيبة الزوج، وحال حضوره.

وقال الزمخشري: الغيب خلاف الشهادة؛ أي: حافظات لمواجب الغيب إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن، حفظن ما يحب عليهن حفظه في حال الغيبة من الزوج والبيوت والأموال». (ا.هـ).

وعرف صاحب «التحرير والتنوير» رَحِمَهُ اللَّهُ صلاحَ المرأة، فقال: «فوصف الله الصالحات منهن وصفًا يفيد رضاه جل جلاله، فهو في معنىٰ التشريع، أي: ليكن صالحات. والقانتات: المطيعات لله، والقنوت: عبادة الله، وقدمه هنا-وإن لم يكن من سياق الكلام-للدلالة علىٰ تلازم خوفهن الله، وحفظ حق أزواجهن، ولذلك قال: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾، أي: حافظات أزواجهن عند غيبتهم ... ». (اهـ).

وقد أخبرت السنة المطهرة عن أحوال الصالحة وصفاتها. فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء؛ امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

- تسره إذا نظر إلىٰ ملبسها وزينتها ومبسمها وخفة روحها وأخلاقها. وتطيعه ما لم يأمرها بإثم، فلا ترد له طلبًا، بل لا تحوجه أصلًا للطلب، وإنَّما تقرأ ذلك-بفطنتها وذكائها الذي جبلها الله عليه-في عينيه، فتسارع إلىٰ تلبية ما لم يسأله-فضلًا عمَّا سأله-ولم يجد نفسه مضطرًا إلىٰ طلبه تصريحًا أو تلميحًا. تقترب من مساحة تفكيره، وتعلم-بفطنتها وحنكتها-ما يريده وما يزعجه دون أن تضطره إلىٰ المباشرة في الكلام، فالرجل يكره أن يوضح الواضحات، ويمل من لعب دور المدرس أو الموجه أو الواعظ.

- وتخفظه إن غاب في نفسها وماله، فلا تهدر ماء وجهه فيما لا ترضاه رجولته ونخوته وغيرته وقوامته، ولا تقبله علىٰ نفسها حرة. ولا تبذر ماله فيما يأنفه ولا يصلح حاله وحال أولاده. ولا ترعي سمعها لصديقات السوء، وجارات الأذىٰ، وقريبات التحايل والنصائح المسمومة؛ بأن تؤمِّن مستقبلها ومستقبل أولادها بالسرقة من ماله والادخار من حقه خوفًا علىٰ نفسها في حالة

طلاق أو موت. أو بأن تبذر ماله وتقص ريشه وتكسر جناحيه كي لا يقوىٰ علىٰ الطيران إلىٰ غيرها. مستأمَنة هي علىٰ فتات الخبز الذي ببيتها، وعلىٰ القرش الأزرق الذي يأتمنها عليه. لا حق لها في الادخار منه، ولا في إهدائه، ولا حتىٰ الصدقة منه مادام ماله وحقه وعرق جبينه.

- وتحسن إليه وتصلح أقوالها وأفعالها، فإذا ما فعلت؛ صلح حالها معه وصلح حاله معها.

كل أمورها، ظاهرها وباطنها، دينها ودنيويها معتدلة كاملة مكملة، حاصل لها من الأوصاف الصالحة والنعوت المصلحة ما يوصلها إلىٰ الصلاح فينفي عنها الفساد.

تقوم بما له عليها من حقوق، فيتلازم عندها خوف الله جل جلاله ومراقبته وخشية أن تأتيه يوم القيامة مضيعة للأمانة؛ بحفظ حقوق زوجها.

ولعل هذا ما يفسر حث النبي ﷺ الشباب علىٰ الظفر بذات الدين، فهذه التي حسن دينها، لا يمكنها إلَّا أن تكون راعية مستأمنة علىٰ أوامر الله من جهة، الذي أمرها أن تكون صالحة، وحدد لها الصلاح فيما يرضيه جل جلاله، ومن جهة أخرىٰ، بما يرضي زوجها عنها بأن تكون راعية مستأمنة في بيتها وعلىٰ أولادهما، غير مضيعة للأمانة التي كلفها الله بها. وهذا الصلاح الذي توصف به المرأة؛ يتعداها من صلاح نفسها إلىٰ الإحسان إلىٰ غيرها.

صالحة هي في أمر عبادتها، لها ورد من قرآنها ومن أذكارها ومن صيامها ومن حلق العلم طلبًا وزكاة. تجعل الاطلاعَ علىٰ الفقه أولىٰ أولوياتها؛ كي تعلم أمور طهارتها وصلاته وصيامها وحجها وكل أمور عبادتها، وتلقنها لأبنائها ولمن حولها من النساء الجاهلات، وتتخذ التشبعَ من كتب العقيدة منهلها وموردها العذب الزلال، تتحرىٰ عدم السقوط فيما يقدح في عقيدتها، وتفهم من خلالها كيف تربط بين ما تعلمته، وبين واقعها والأحداث المحيطة بها. فتتعلم أركان الإيمان، ومعاني التوحيد والخشية، والتعامل مع أقدار الله وأقضيته، وما يصرفها عن الشركيات والرياء والبدع

والكبائر، وما يجعلها تستقيم علىٰ أمر الله فتبتعد عن الفواحش والمعاصي. وتجعل من تفسير القرآن وشروح الأحاديث نبراسًا لها في فهم كلام ربها وسنة نبيها ﷺ.

ثم تزيد علىٰ ذلك: كل ما تستطيعه وتراه مناسبًا لدرجة استيعابها ولمحو أميتها في أمر دينها. ولا يكفيها التعلم، بل عليه أن ينعكس علىٰ علاقتها مع زوجها وعلىٰ أولادها وكل من حولها. فما نفعها قيام ولا صيام ولا أوراد ولا حِلق دروس وهي لا تحفظ لسانها مع زوجها. بذيئة، سيئة العشرة، عنيدة، مستكبرة، مسترجلة.

صالحة في أمر دنياها ومعيشتها ومعيشة زوجها وأبنائها. قد أخذت علىٰ عاتقها تمرير مبادئها وأخلاقها إلىٰ من حولها، وجعلت رسالتها في إسعاد زوجها وتنشئة أبنائها تنشئة سليمة تغرس فيهم روح الدين الحنيف، ومبادئه القويمة، وتحرص علىٰ عقيدتهم وديانتهم وأمر أخراهم أكثر من حرصها علىٰ شهاداتهم ومراتب جاههم ومواردهم المادية. تعلم جيدًا واجباتها، والمسؤولية التي تنتظرها لأجل إسعاد زوجها وتربية أبنائها، وتعلم حقوقها وما خوَّله الشرع لها في مبعد عن أفكار وعادات المجتمع السقيمة وعن الأفكار النسوية المتحررة التي ما جرَّت عليها وعلىٰ الأسرة سوىٰ الهلاك.

صالحة في أمر روحها وغذاء فكرها، تبرع في دراستها، وتتفوق في تخصصها، وتنوع مطالعاتها، وتطلع علىٰ المستجدات حولها، وتهتم بكل ما يخصها كامرأة وكزوجة وكأم وكفاعلة فعّالة في المجتمع، وتكوِّن بذلك فسلفتها الخاصة التي ستنعكس أنوارها علىٰ تخطيطاتها في إدارة بيتها وتربية أبنائها وتهييئهم لمعالي الأمور. ترفع عنها سخمة الجهل، وتتسلح ضد الأفكار المسمومة الهدامة التي أخذت علىٰ عاتقها تعطيل طاقاتها بسبب -من جهة- الأفكار الخفاشية الظلامية من أدعياء الالتزام وسلاليم التصدر للدعوة من غير مؤهلات، الذين لا يفهمون الأحكام ومناطاتها، ولا يستطيعون استيعاب التوازن في تربيتها وتعليمها، فرأوا أن الحل في إبعادها عن الدراسة وعن

العلم والتنوير، ونظروا إلىٰ صاحبة الفكر والثقافة كمارقة تستحق الجلد والتعزير، فشيؤوها، واقتصروا علىٰ اختزال كل ظهور لها في المجتمع في فتنة الرجل، وتعطيل مهماته ومسؤولياته، والزج به في المعاصي، وفصلوها عن المجتمع، ولم يألوا جهدًا في إقناعها بأن ذكاءَها وفطنتها وتفوقها في التعلم؛ استرجالٌ ومنافسة مقيتة للرجل ونقص في أنوثتها، وحددوا رسائل خطاباتهم لها في كل ما هو سطحي شكلي لا يؤسس عقلًا، ولا يبني بيتًا، ولا يربي نشئًا، ولا يستطيع حل أبسط المشكلات، فاختزلوه في التهديد بالسخط، ولعنة الملائكة وعدم شم ريح الجنة من أجل تلبية رغباتهم الذكورية، دون اهتمام بكيانها وطموحاتها وإسهامها الخلاق في الرقي بالمجتمع، ودون مراعاة لنفسيتها ولا لطاقتها، ومن غير تحرير دقيق لمعنىٰ الطاعة المطلوبة منها وتحديد له بما حدده الله ورسوله.

ومن جهة أخرىٰ، بسبب الأفكار (التنويرية) العلمانية المعادية لكل ما له علاقة بالدين، الهادفة إلىٰ تشييئها وجعلها كدمية تخدم مصالحها ونزعتها الذكورية الإقصائية، وبسبب أفكار وقواميس أدعياء التحرر الذين يزعمون أنهم يدافعون عن حقوقها فتبين، من غير شك ولا ارتياب، أنهم إنَّما يدافعون عن حقهم فيها. اغتنموا فرصة معاناتها من الحيف الذي يمارسه عليها الخطاب الديني المتحجر عن طريق القائمين به دون استيعاب دقيق لمناطات الخطاب، فسلموها للنسوية المتحررة، وجردوها من معاني الأنوثة، وزجوا بها في صراع مرير ومنافسة مقيتة مع الرجل. واستغلوا حنقها علىٰ هذا التضييق، فأزوها علىٰ فرط السلاسل، وكسر الحواجز، والتحرر من عنق الزجاجة إلىٰ رحابة الحرية غير المشروطة ولا المحدودة، فضيعوا وضيعوا الأمة معها.

صالحة في أمر أنوثتها، تفهم طبيعتها وفطرتها التي فطرها الله عليها، من حب زينة ونظافة وجمال. تقدر أنوثتها، وتبتعد عما يخرجها عنها، وينفر زوجها منها. تتعلم كيف تحسن التبعل، وكيف تكون أنثىٰ معطاءة محبوبة، لا يرىٰ منها إلا ما يحببها في عينه، فيسكن فؤاده لمرآها، ويأنس بحضورها؛

فتتحقق له بذلك معاني السكن التي لأجلها شرع الزواج. تقدير لذاتها واحترامها لنفسها أولىٰ أولوياتها . . نظافتها وأناقتها وثقافتها وغذاء روحها، طريقة كلامها، اختيارها للعبارات الراقية النفاذة في مخاطبتها زوجها، طريقة كلامها، أسلوبها في الحوار وفي الرفض وفي الطلب . . أناقة ورقي واحترام للنفس قبل أن يكون تقديرًا للزوج.

تعلم كيف تثبت وجودها، وكيف تؤكد حضورها دون أن تدخل في صراع مع زوجها، ودون أن تتعالىٰ عليه؛ لأنَّها تعلم حدود مسؤوليتها وأهداف سعيها، وحدود طاقتها، وحدود طبيعتها الأنثوية. لا ترىٰ فيه خصمًا ولا منافسًا ولا ندًّا، إنَّما تلزم نفسها بما ألزمها به الله ورسوله، وتعفي نفسها ممَّا أعفاها الله منه وكلفه هو به. ترعي سمعتها، وتُعمل عقلها فيما يدور حولها، وتطلق بصرها علىٰ العالم حولها في ذكاء وتوقد لتعود بمزيد أفكار، ومزيد خبرات، وما به تساير المستجدات.

هكذا هي المرأة الصالحة والأنثىٰ الحقيقية، تكامل بين حسن الصورة وجمال الروح وعذوبة المنطق ورجاحة الفكر. لا تقبل بتلك الأفكار الهدامة التي تعطي القيمة لأحدها علىٰ حساب الآخر. لا لتلك التي جعلت منها مجرد ثليجة لا بُدَّ أن تحفظ في البراد كي لا تذوب أو يتراكم عليها الذباب، ولا لتلك التي أخرجتها من رقتها وأنوثتها وألبستها سروال جينز وحذاء رياضيًّا، وزجت بها في معتركات الرجال، وحشت رأسها بالنسوية والندية ودعاوىٰ المساواة والنشوز وحقها في الاسترجال.

وسَطٌ هي بين استكمال فضائل النفس، وترميم ثقب الروح، وتغذية العقل تمامًا بما تتغذىٰ به عقول الأفذاذ من الرجال، وبين بهاء شكلها، وتعلمها أبجديات الزينة والنظافة والجمال.

لا يعذرها في ترك ذلك حمل ولا إنجاب ولا تربية أولاد ولا غيرها ممَّا تتحجج به عادة بعض النساء اللواتي هجرن زينتهن وغبنَّ أنفسهن وأزواجهن، والذريعة؟ انشغال بطلب رزق أو تربية أولاد أو أشغال البيت والدوام. والحق

أنَّ مرجع إهمال أنفسهن وزيتهن في الأساس، إلىٰ عجز أو كسل أو عزوف عن طلب الجمال. أو إلىٰ عدم فتحهن أعينهن في بيت أهاليهن علىٰ النموذج والمثال المنشود المتمثل في الأم، وعلىٰ خبرة حياتية تختصر عليهن مسافات البحث، وتعفيهن من التخبط في رحلتهن لنحت تماثيلهن ورسم صورهن، فتخبرهن أوّلًا وقبل كل شيء بأنهن إناث، وبأنه عليهن التضوع من عطر الأنوثة ومن سحر الأنوثة ومن غموض الأنوثة ومن فطرتهن ومنّة المعطي جل جلاله القدير الذي قدر لهن أن يكن مخالفات للرجل، وأن ينشئهن في الحلية وفي الزينة وفي حب وطلب الجمال.

وقد أثبتت التجربة أن جزءًا من الأنوثة فطري، وجزءًا منها مكتسب من الموروثات الثقافية، ومن تبادل الخبرات، من الاجتهاد في رسم صورة مميزة للذات والرقي بها كي تكون دائمة الحضور والتألق. ولهذا: فحتىٰ تلك التي لم تترعرع في بيت يحفظ للأنوثة قيمتها، ويعلم بأنَّها منهج حياة، وطريقة المرأة الخاصة في تحسس العالم حولها، والإحساس بما يحيط بها، ووسيلتها لإثبات وجودها وتميزها، وورقة ضغط رابحة في كسب قلب زوجها، حتىٰ تلك؛ فإنَّها تستطيع تدارك ما لم تتربّ عليه، وتتعلم من مبادئ الأنوثة ما يجعلها فعلًا زوجة صالحة بكل المعايير السابقة التي تمت الإشارة إليها في تحديد معنىٰ الصلاح الذي توصف به عادة الزوجة الصالحة.

حريصة علىٰ ترتيب الأولويات؛ فلا شيء يسبق المسؤولية التي كلفها الله جل جلاله بها والتي ستسأل عنها أمام ربها، من حسن تبعل وطيب عشرة وحسن تربية لأولادها. لا عملها ولا مشاريعها الدعوية أو العملية أو المادية، ولا طموحاتها الشخصية. لا شيء من ذاك يستحق أن تضيِّع لأجله كيان أسرتها، ولا أن ترجحه، في حالة تعارض، علىٰ مجتمعها المصغر الذي إذا انهدم، انهدم معه صرح المجتمع الكبير.

حريصة علىٰ نيل الأجر الكبير، والغنيمة الباردة بتعلم حسن التدبير، وبراعة التخطيط، والتفنن في إدارة بيتها، وعلىٰ الإبداع في تعلم صنع اللقمة

التي تضعها في فيِّ زوجها وأبنائها. تنفخ فيما حولها من روحها ومن لمساتها، فتصيِّر القفر جنانًا وتصنع من اللاشيء ألواح إبداع. حبها له وللتفوق وللإبداع في إرضائه؛ يضخ في أنفاسها عبقًا جميلًا متجددًا تتجدد به عطاءاتها، ويجعلها تحب ما تفعله. الطبخ يصبح لديها هواية جميلة، ووسيلة للتودد لزوجها ولجعل المركبة تسير في استقرار وأمان.

(وليس المجال هنا للتحريرات الفقهية فيما إذا كان الطبخ وخدمة الزوج من واجبات المرأة، سأكتفي بالرد علىٰ هذا الأمر بنقطتين:

أولًا: ما دامت العادمة محكمة، وعادة مجتمعاتنا مراعاة المرأة شؤون البيت وإدارته من كل النواحي، بغض النظر عن مشاركة الزوج في ذلك أو غيره؛ فإن ذلك يصبح بالعادة مسؤولية المرأة ما لم يكن من عادة أهلها أن يستجلبوا من يخدمهن، وما لم تشترط ذلك هي علىٰ زوجها ويقبل بشرطها قبل العقد.

ثانيًا: المطالبة بالعدل أو بالندِّية في هذه الأمور التي تتباحث حدود واجبات المرأة في مراعاة الزوج، يقابله الحديث عن حدود واجبات الزوج في النفقة عليها. فكم من أشياء تظنها النساء واجبًا عليه في الإنفاق عليها، وإنَّما قيامه بها من باب الإحسان والإنسانية والعشرة والمودة، لا من باب ما سيسأل عنه أمام ربه يوم القيامة. والحق أنَّ هذه الأمور إنَّما يُحتاج إليها ويرجع إليها في حالة الخصام ومحاولة الاحتكام؛ وإلَّا فإن الحياة الزوجية لا تسير فقط بالحقوق والواجبات. إنَّما بالتغافل والإحسان والتضحيات والتودد والبحث المستمر عن إرضاء الشريك وإسعاده وطلب الأجر من الشكور جل جلاله علىٰ ذلك).

تفهم معنىٰ الصبر الإيجابي، وتفرق بينه وبين الخنوع والاستكانة والسلبية، ولا تجعله مطية للاستبداد والتسلط. توقن-دون شك، أو ارتياب-أن الصبر حبس للنفس عن الجزع من الأقدار، وثبات للقلب علىٰ الأحكام

القدرية والشرعية، وتستوعب في نفس الوقت أنَّها غير مأمورة بأن تطيب لها البلايا، وأنه لا يعني ذلك بحال القبول المتاح والصمت عن الخطأ، والابتعاد عن المشاركة الوجدانية والفعلية من أجل بناء صرح أسرة شامخة. وهذا البحث عن التغيير، والاجتهاد في إيصال عدم الموافقة علىٰ المواقف المزعجة؛ لا يعني إعلان الثورة والانقلاب، ولا السعي إلىٰ حرب أهلية. البحث عن التغيير لا ينافي الصبر، وهو تشارك في مباحثة الحلول، وعبقرية في طرح ما يزعج ويقف حاجزًا أمام السعادة، وذكاء عاطفي وقلب واعٍ. لا خنوع ولا استكانة وسلبية، فذلك لا يليق بحُرة، ولا يصحح الأخطاء والمسارات، ولا يغير الواقع، ولا يسمو بالأسرة ويشمخ بها، وإنَّما يحقق التغييرَ الفعاليةُ والإيجابيةُ والبحثُ الدائم عن التطوير والتغيير والحرص علىٰ التقويم. تمامًا كما أنَّ الصبر ليس تسلطًا واستبدادًا وبذاءة واسترجالًا واعتبار بقائها علىٰ ذمته من غير أن تطلب منه الطلاق، رغم كل ما تتطاول عليه به، ورغم كل ما ترتكبه في حقه من معاصٍ صبرًا!

تفرق بين الاسترجال وقوة الشخصية. فقوة الشخصية ثقة بالنفس، وفهم جيد لمَا تريده، وهذه الإرادة تابعة لإرادة الله ورسوله من خلال التشريعات، فلا تحلل حرامًا ولا تتعدىٰ حدًّا، ولا تأخذ حقًّا بدعوىٰ المساواة. فتعلم المرأة جيدًا ما لها وما عليها، فتقف عند ما حُرم عليها ونهيت عنه؛ لأنَّ الشارع الحكيم جعل لها حدودًا إن تجاوزتها دخلت في الندِّية مع الرجل. وتميز بشكل دقيق حدود الأنوثة التي إذا تجاوزتها وقعت في الاسترجال.

حرةٌ أبِيَّة تختار حياتها بما لا يخالف الشرع، ولا يهمها في ذلك لومة لائم مادامت تعلم أنها لم تتجاوز المطلوب منها، ولا تنضوي تحت لواءات القواعد المجتمعية التي تخالف الشرع، ولا تسمح للآخرين أن يختاروا عوضًا عنها، وتوقن أن قراراتها مادامت يحكمها الشرع، فليس لأحد أن يملي عليها خلافها ..

تطور ذاتها باستمرار، ولا تستكين إلَّا بطلب المعالي، إرادتها تناطح السحاب، وعزيمتها علىٰ فعل الخير والامتثال لا يحدها شيء، تتحمل مسؤوليتها كاملة، ودائمة البحث عن التغيير والتجديد والحلول وطلب الرقي والإبداع؛ لذلك فهي لا تتوقف عن التفكير . .

هذا باختصار شديد ما تعنيه قوة الشخصية. وما عدا هذا من استقواء وبذاءة إنَّما هو محض استرجال. فبعض النساء يفهمن أن التنكيد والعناد ورفع راية التحدي علىٰ أزواجهن، ومعاندتهم ورفع الصوت عليهم والبذاءة والتمرد والتعالي والقسوة= ذكاء وقوة شخصية وحضور، وطريقة مثلىٰ لاستجلاب الحقوق. والحق أنَّ ذلك قوة عضلات لسان، بل هو ضعف شخصية متدثر بصوت عالٍ يحاول حجب الاهتزاز الداخلي، ويعوض انعدام الثقة بالنفس بالصراخ والتطاول . . وهو الاسترجال في أدق معانيه. وحتىٰ وإن أثبتت التجربة البئيسة أنَّه قد نفع يومًا ما مع رجل ما في مجتمع ما، فحصلت علىٰ حقها وأكثر؛ فإنَّه-أبدًا-لن يستجلب حب الزوج واحترامه لها واحتواءه لها وعطفه عليها.

قوة الشخصية لا تعني العناد ولا الندية ولا منازعة الرجل رجولته، ولا تعني الصوت العالي ولا الجرأة التي تصرفها عن الحياء؛ لأنَّ الأنوثة في أجمل معانيها، قوة في ضعف، وضعف في شموخ، وخضوع في حضور شخصية، واستكانة من غير استضعاف ولا مسكنة. واستمتاع بالضعف الطبيعي الذي فطرها الله عليه، واعتباره دلالًا في وجود الرجل القوام، بل ترفًا لا تحظىٰ به إلَّا كاملة أنوثة في كنف كامل رجولة.

والرجل-في الغالب-يميل إلىٰ من يرىٰ أنَّها ستخضع له. والمحظوظ من وجدها ذات شخصية قوية -بالمعايير المذكورة آنفًا-، وبعدٍ في النظر، وحرية في الاختيارات، ثم لانت له وخضعت في شموخ. مفارقة ذكية لا تحسنها إلَّا كاملة أنوثة، وصفة راقية لا يفقهها إلّا كامل رجولة. تفرق بين الطاعة وخفض الجناح، وبين الخنوع والسلبية.

فالطاعة انقياد لربان سفينة قد كلفه الله أن يقودها، بمقتضىٰ قوامته التي تعني -من بين ما تعني-: مسؤولية وإدارة وقيامًا بالمصالح وتدبيرًا للحياة ونفقة وذبًّا وولاية وإصلاحًا. مواصفات تكليفية لا تشريفية، تحتاج ممَّن تولىٰ أمرهم أن يعينوه علىٰ أداء مهمته في قيادة السفينة إلىٰ بر الأمان، والمجيء يوم القيام بحقوق محفوظة، وأمانات غير مضيعة.

تطيعه، لا لأنَّها الأدنىٰ، ولا لأنَّها الأقل شأنًا، بل قد كرمها ربها وأوصىٰ بها نبيها، وجعل من بين ما استوصىٰ بها فيه أن يعتني بها الرجل، وأن ينفق عليها وأن يحميها ويحقق لها السكن ويحمل عنها ما لا تتحمله طبيعتها الأنثوية الرقيقة، وبنيتها الجسمانية الضعيفة. وفي المقابل، تسهل عليه مأموريته بألا تقف أمام فوهة البركان فترفض طلباته التي لا تتنافىٰ مع الشرع ومع الخلق القويم ومع حدود الطاقة، تطيعه في فراشه في حدود الشرع، وتطيعه في خروجها، فلا تخرج إلا بإذنه ما لم يمكنها من إذن مطلق غير منتهي الصلاحية، ولا تُدخل إلىٰ بيته من يكرهه ولو كان من أهله، (وليس هنا مجال مباحثة حل وسط لهذا الأمر في هذا المقام، وإنَّما الحديث عنه في عمومه قبل إيجاد الحلول)، وتطيعه في زينتها، فلا تتزين إلا بما يحب؛ علىٰ الأقل أمامه وفي حضوره، وإلا بما تعلم يقينًا أنه سيسعد قلبه وسيملأ عينه وسيزيدها قربًا منه. وتطيعه في أمور تربية أولادهما وتدبير معيشتهما وإنفاق ماله. وعدم طاعته وعصيانه في هذه الأمور هي ما اصطلح عليه بالنشوز.

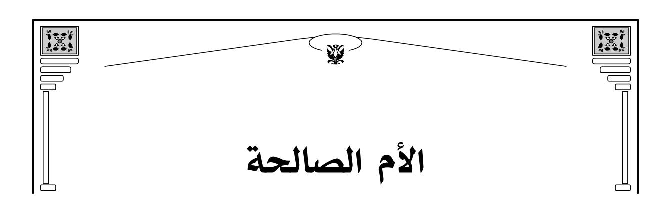
والطاعة لا تعني الخنوع والسلبية والانقياد الأعمىٰ ولا الانسلاخ من الشخصية، بل ليست مطالبة بأن تطيعه في كل ما يأمر به، ولا من حقه أن يحركها بآلة تحكم، فلا ترىٰ إلَّا ما يراه، ولا تنطق إلا بعباراته؛ بل لها حرية الرأي وحرية التعبير وحرية التصرف في مالها دون وصاية منه ولا تسلط عليه، ولها كل الحريات التي لا تتنافىٰ مع الشرع ومع طبيعتها الأنثوية، وإنَّما الطاعة الواجبة التي تأثم إن لم تقم بها؛ فيما تم الإشارة إليه.

وهي مع هذه الطاعة الواجبة، منصوحة بأن تكون لينة هينة تبرع في قراءة عينيه والتذلل واللين له حتىٰ لا تمتنع من شيء يريده ويحبه، وخفض جناحها له والذي يعني من بين ما يعنيه؛ التواضع والمسارعة إلىٰ تلبية طلباته في غير ما معصية. وليس في هذا أدنىٰ مهانة لها، ولا هو خنوع أو سلبية أو انعدام شخصية. وهو أمر مطلوب في الرجل أيضًا؛ إذ لا معنىٰ في استقرار العلاقة الزوجية؛ أن يكون الضغط أو الميل علىٰ طرف واحد من الطرفين. فبقدر الأخذ يكون العطاء، وبقدر التشوف إلىٰ ما يمنحه الشريك، تكون المسارعة أيضًا إلىٰ إسعاده وإدخال السرور عليه. فالسفينة الزوجية تحتاج إلىٰ الرقة والبذل والتضحيات والتفاني والعطاء المتبادل، ولا تمخر العباب فقط بالحقوق والواجبات. وإنَّما يرجع إلىٰ حدود الحقوق والواجبات عند التخاصم، وعدا ذلك، فبر الأمان والسعادة؛ وقودُه التفاني في الإسعاد.

والرجل القوام؛ من علم بدقة مسؤوليته، فقام بها علىٰ أتم وجه وساعد بذلك زوجته في أن تطيعه، بل ألا تتحرك ولا تتنفس إلا بوجوده وأنفاسه، حبًّا وطواعية وخفضًا للجناح وتذللًا. والمرأة الذكية من فهمت أنوثتها، ومعاني حسن التبعل، وعلمت أن في الطاعة وخفض الجناح وفي الإكثار من المدح والثناء والتحبب إشباعًا لرجولته الجوعىٰ لكلمة (حاضر)، و(نعم)، و(حالًا) و(من عيني). تحترمه، وتبالغ في الإطراء والثناء عليه، وتغدق عليه من الأدعية والكلمة الطيبة ما يأسره. تعلم متىٰ تُقدِم ومتىٰ تحجم، وكيف تتفادىٰ إغضابه وكيف تسعده . . ومتىٰ تكون طفلته المدللة، ومتىٰ تكون أمه الرؤوم، ومتىٰ تكون صديقته الوفية.

هذه هي المرأة الصالحة، والعبير الفواح، وشذىٰ الأعطيات، أيها السائل الحاذق الأريب، وهذه هي مواصفاتها التي لا تحيد عنها إلا جاهلة بمسؤولياتها ودورها الذي تتشرف وتتكفل به، أو معاندة للطبيعة البشرية الأنثوية التي أودعها الله فيها.

وختامًا، وأنت في مشوارك الراقي النبيل للبحث عن معاني الصلاح في المرأة التي تودُّ أن تكون شريكة حياتك، لا بأس أن تبحث عن مفهومه فيك أيضًا؛ كي تكون نِعْم الرجل الصالح للأنثىٰ الصالحة.



الأم الصالحة

طاهرة عامر(*)

«أَنَا يا بُنيَّ لا أريدك يومًا أن تُساق إلىٰ بِريٍّ مُتململًا بفتوىٰ أو مُكرهًا لحاجة؛ لأنِّي عاهدتك وعَهِدتك مُذ أَشرقت عيناك علىٰ الدُنيا وقُطِع بيني وبينك الحبل السرِّي أن أعوضك حبلًا سريًا آخر ممدودًا يعلو فوق قامات العطاء ويُسقىٰ من نهر الحب غير المشروط، لا يَقطعه عنك سوىٰ مفارقة الروح لجسدي، وإنِّي لأرتجي من عنايتك أن أكون عونًا لك علىٰ الطريق، وألَّا أكون شرخًا في روحك بل نقشٌ طيّبٌ محفور في ثناياها، وأن أكون صفحة مُشرقة في كتاب حياتك عنوانها (أمِّي)؛ لأنَّك بالنسبة لي يا ولدي غدي الذي أُقدِّم إليه، حتىٰ إذا ما غزا الشيب رأسي وتشققت وجنتيَّ وتدلّىٰ جفني، تظل تضمّني كما ضممتك صغيرًا وكبيرًا، وتغرس في ذريتك وتقول لأبنائك: لقد علَّمتني أمِّي . . ». [رسالة إلىٰ ولدي].

تظل الأم هي الرافد الأول لاكتساب الإنسان للمعرفة، وإنَّ الإنسان مهما أنعم ربُّه عليه من النعم يظل أعظمها (الأم)، حتىٰ إنَّك ترىٰ الرجل الكبير يُحلِّق في الدنيا بروح الطفل، فإذا ماتت أمه غزاه المشيب روحًا وشاخت نفسه وتهدلت.

(*) طاهرة مهدي عامر، مواليد القاهرة، حاصلة علىٰ ليسانس ألسن، جامعة عين شمس، ودبلوم الترجمة التحريرية من الجامعة الأمريكية بالقاهرة.
تعمل محررة ومترجمة.

والحقيقة أنه متىٰ حاولنا جمْع كل ما قيل في فضائل الأم لا تكفينا مجلدات، لكن أهمَّ حقائق الدنيا وهي سبب إنشاء هذا المقال هو أنَّ «مستقبل الطفل رهينٌ بأمه»، وإذا كانت أهمية وجود الأم في حياة الإنسان متعددة ولا غنىٰ عنها؛ فإنَّ أيضًا الأمومة هي حجر الزاوية في السعادة الزوجية، وإن من جمال الحب أن يكون للمرأة ذرية من الرجل الذي أحبته وتزوجته، والمرأة تكتمل أنوثتها بالأمومة؛ لأنَّ الأمومة هي اختبار الحب الحقيقي والتضحية بلا مقابل. وعلاوة علىٰ هذا، المرأة مهما حققت من نجاحات متنوعة في مجال أعمالها ودراستها يظل نجاحها في تربية أبنائها وتنشئتهم رأس كل نجاح، فالأمومة قَبَسٌ يضيء الحياة ويبررها.

الأم المدرسة:

إذا أردت أن تختار زوجة وشريكة لك في هذه الحياة، كن علىٰ وعي أنَّك تختار امرأة ستكون مدرسة أبنائك مدىٰ الحياة، وأنَّها هي صاحب الحظ الأوفىٰ في تشكيل شخصية ذريتك، ومن الجميل والحَسن علىٰ قدر فخرك بشهادتها وحسبها ونسبها وعلمها أن تفخر بأنَّها تحب الأمومة وتهتم بأمور التربية وشؤونها، حتىٰ لو كان مجال دراستها بعيدًا كل البعد عن التربية والسلوك وعلم النفس. وتذكَّر أن شريكة حياتك وعونك تلك مطلوبٌ منها أن تكون عونًا لأبنائك علىٰ الطريق وعلىٰ مشوار حياتهم، بل ولربما يمتد بها العُمر لتكون بركة أحفادك وأجمل شخص التقوه في حياتهم.

يقول حافظ إبراهيم في الأبيات الشهيرة:

الأُمُّ مَــدْرَسَــةٌ إِذَا أَعْــدَدْتَــهَــا ... أَعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الأَعْرَاقِ

الأُمُّ رَوْضٌ إِنْ تَعَهَّدَهُ الحَيَا ... بِالرِّيِّ أَوْرَقَ أَيَّمَا إِيْرَاقِ

الأُمُّ أُسْتَاذُ الأَسَاتِذَةِ الأُلَىٰ ... شَغَلَتْ مَآثِرُهُمْ مَدَىٰ الآفَاقِ

كيف تصنع أمًّا تحب وظيفتها؟

إذا كان الإنسان لا يُبدع ولا يُنتج إلا حينما يحب عمله ويتشرب محبته ويشغل تفكيره ويسيطر عليه، كذلك الأمومة؛ لأنَّها قرار واعٍ منذ البداية معلومٌ مشقته، يُسعىٰ إليه بكل ما يملك الإنسان من جهد وإخلاص في الدعاء، فالذرية زينة الحياة الدنيا. فحينما يقرر زوجان الإنجاب، من المفترض أنَّهما علىٰ وعي بقيمة قرارهما وما له من تبعات، ليس فقط في الحياة الدنيا وإنَّما في المصير الأخروي لمَا قدَّماه من تربية حسنة فتدوم صدقة جارية، أو ما اقترفاه في حق ذريتهما فجنياه في الآخرة جزاء مظالم ومساوئ، ربنا عافِنا من ظلم أهلينا وذرياتنا.

إذا أحببنا أن نتحدث عن (حب الأمومة) في هذا الزمان، زمان التغيرات المتلاحقة التي يختلف فيها العام الواحد عما يليه، إنَّه الزمان الذي يعكس التغيرات الاجتماعية الهائلة التي يمكن رصد أبرزها فيما يلي: انحسار الأسرة الممتدة واستبدالها بالأسرة النووية؛ باعتبارها النموذج الصالح للأسرة في نظر الدولة الحديثة، وخروج المرأة والفتيات للعمل وما واكبه من ارتفاع في متوسط سن الزواج، إضافة إلىٰ تحول أشياء كان يعدُّها أجدادنا من الكماليات صارت في سلم الأولويات في جيلنا، ممَّا جعل عمل المرأة وحفاظها علىٰ وظيفتها معركة تخوضها في الغالب مضطرة وتقاتل لأجلها وتخسر أمامها الكثير من أنوثتها وراحة بالها، وهو ما يُمكن أن نسميه زمان (تجريف الأنوثة) بامتياز؛ لكن الأمر الملحوظ في هذا الزمان؛ الضجر بالأمومة والتعامل معها من منظور العبء المادي والجسماني، وأثمن ما قد يُهدر في معركة المرأة وقضية العمل؛ بيتها وأبناؤها.

كل هذه المتغيرات وغيرها صيَّرت الأمومة في أعين الفتيات عبئًا مُضافًا علىٰ المرأة، وصار تحديد النسل لا يكبح جماحَه أي فتوىٰ ولا دعوة، بل

أضحىٰ ممارسة معتادة بعد إنجاب الطفل الثاني، وصارت المرأة الولَّادة شيئًا من الزمان القديم، كما أُلصِق بها عددٌ من التصورات المذمومة، منها أنَّها قليلة العِلم والفقه، تُنجب كي تَربط زوجها بالأبناء أو لتتباهىٰ بأن لها (عزوة)، لكن هل تخيلت يومًا من الأيَّام أسرتك كلها وهي بخالٍ واحد؟ هل تخيلت نفسك بلا عمات، وأن ليس لك إلَّا عم واحد وحفنة قليلةً من أبناء عمومتك؟ قل لي هل ستشعر بأمان وسعادة وأنتم أسرة ضئيلة العدد؟ قل لي كيف تشعر بدفء الصلة وهم أنفار يُعدُّون علىٰ الأصابع؟ هل فكرت يومًا بأن هذا هو مصير غالبية الجيل القادم بالفعل، حيث الأسرة ذات الطفل والطفلين فقط بسبب انشغال النساء وإنهاكهن.

في واقع الأمر، لا يوجد شيء أسهم بتشكُّل مثل هذا الواقع سوىٰ اضطرار المرأة للخروج، من أجل المال في المقام الأول، ويليه ضغط المجتمع عليها بتشجيعها علىٰ الخروج، ثم معاملتها بعد ذلك باعتبارها امرأة عاملة عليها أن تُنتج تمامًا كما يُنتج الرجل، وهو ظُلم بيِّن، بل إن بعض المؤسسات تُعامل المرأة بظلم مضاعف عن طريق منحها راتب أقل من الرجل، أو تحرمها من امتيازات تُمنح للزميل رغم التساوي في الجهد المبذول، هل تعلم أن إجازة الوضع قد لا تتخطىٰ بأي حالٍ من الأحوال ١٠٠ يوم علىٰ الأكثر؟ هل تتصورون معاناة ذلك الطفل الذي تضطر أمه أن تتركه رضيعًا ساعات النهار لتعود إليه منهكة بالليل؟ رجاءً لا تتحدثوا بلغة (الرجعية)، وحق المرأة في العمل والحصول علىٰ فرص مساوية، أين حق المرأة والطفل في الرعاية أولًا، ولماذا لا تُنتج المجتمعات حلولًا أكثر رحمة بالمرأة المضطرة للخروج من أجل العمل؟

هذا النص من قانون العمل لإحدىٰ الدول العربية:

«للعاملة التي أمضت في خدمة صاحب العمل سنة كاملة؛ الحق في الحصول علىٰ إجازة وضع، بأجر كامل، مدتها خمسون يومًا. تشمل المدة

التي تسبق الوضع والتي تليه، علىٰ ألا تقل المدة بعد الوضع عن خمسة وثلاثين يومًا. وتمنح هذه ا لإجازة بناءً علىٰ شهادة طبية صادرة عن طبيب مرخص مبينًا فيها التاريخ المرجح للوضع. وإذا كانت المدة المتبقية من الإجازة بعد الوضع، تقل عن ثلاثين يومًا، يجوز منح العاملة إجازة متممة من إجازتها السنوية، وإلَّا اعتبرت الفترة المتممة إجازة بدون أجر. وإذا حالت الحالة الصحية للعاملة بعد الوضع دون عودتها إلىٰ العمل عقب انتهاء إجازتها المشار إليها في الفقرات السابقة؛ اعتبرت في إجازة بدون أجر، علىٰ ألا تزيد مدة انقطاعها عن العمل علىٰ ستين يومًا متصلة أو متقطعة. وبشرط تقديم شهادة طبية عن حالتها الصحية من طبيب مرخص. ولا ينتقص حصول المرأة العاملة علىٰ إجازة الوضع، من حقها في أيٍّ من إجازاتها الأخرىٰ».

مسكينٌ طفل هذه المرأة!

أعمل أو لا أعمل؟

«أنا أحبُّ الأمومة وأطفالي نعمة من الله، غيري حُرِم منها، لكنِّي بحاجة إلىٰ أن أعمل، سأنسىٰ ما درست إذا ظلَّ حالي هكذا، وأريد التخفيف عن زوجي بأن تكون الرفاهيات من راتبي.

حسنًا، وأطفالك أين ستتركينهم فترة العمل؟

سأبحث عن حضانة في مقدوري».

هذه قصة، تقريبًا، تتكرر مع كل الأمهات، لكنِّي أود أن أخبركم أن كاتبة هذه المقالة خابرت الامرين، قررت أن أمكث في البيت لرعاية رضيعيَّ، وقررت النزول للعمل لنفس الأسباب المذكورة التي تتشابه قصتها مع غالبية النساء، وللحق سأقف في تقييم من خلال خبرة شخصية عن أهم مثالب الأمرين والفوائد التي يمكن تحصيلها من الأمرين معًا.

فوائد عمل الأم خارج المنزل:

(١) أكثر فائدة يُمكن أن تحصل عليها الأم العاملة بدوام كامل أو نصف الوقت، (ولا أقول العمل الحر الذي له مثالب أيضًا)، بل لا أبالغ علىٰ الإطلاق لو قلت إنَّها ميزة معتبرة تستحق إعادة النظر، ألا وهي القدرة علىٰ تنظيم الوقت والشعور بالإنجاز، والوقت هو رأسمال الإنسان الحقيقي، وإنَّ عمله مُرتبط بعمره، بل إنَّ تنظيم الوقت هنا لا يتوقف فقط علىٰ العمل والاستيقاظ الباكر، وإنَّما التنظيم في كل شيء، ويمتد هذا السلوك للأبناء أيضًا، ويدفعها هذا الإلزام ومحدودية وقتها بإنجاز أمور أخرىٰ إلىٰ جانب عملها وتحديد مواعيد لهذه الأمور.

(٢) اكتساب علوم جديدة وخبرة بالعمل؛ تُعينها علىٰ مؤازرة أبنائها في الحياة العلمية والعملية التي يشقون طريقهم إليها.

(٣) ارتفاع ا لمستوىٰ الاجتماعي والمادي للأسرة؛ نظرًا لوجود دخل آخر إلىٰ جانب دخل الزوج.

العيوب:

(١) غيابها شبه التام عن تربية أبنائها، وفقدانهم لحنان الام، وضياع حق الأطفال في تفرغ الأم لرعايتهم.

(٢) الإنهاك الجسماني والذهني، واستنزاف قدرتها علىٰ الإنصات لأبنائها، وقلة الصبر علىٰ التربية.

(٣) في حالة عدم دراسة الجدوىٰ المادية من العمل، سيكون العبء المادي مضاعفًا بسبب الإنفاق علىٰ المواصلات والمظهر ومصاريف الحضانة.

(٤) فقر خيالها التربوي، وتراجع علاقاتها الاجتماعية بسبب ضيق الوقت.

(٥) عدم قدرتها علىٰ الاستمتاع بالتفاصيل الصغيرة في حياة الأبناء، والتي تجعل للحياة معنىٰ.

فوائد مكوث المرأة في البيت لتربية الأبناء:

هذه ليست فقرة لذكر الفوائد؛ لأنَّ هذا هو الأصل، والفطرة أن ترعىٰ الأم أطفالها، وأن يكف المجتمع عن الانتكاس عن فطرته، ووصف المرأة التي اختارت البيت بأنَّها عاطلة مُستهلكة لا منتجة، والكف عن تنميطها بالسذاجة وقلة العلم.

٣٠ نصيحة لأمومة صالحة

(١) الاستعانة بالله جل جلاله مفتاح كل عمل، ومشوار التربية والأمومة عملية غراس طويلة، تخيلي أنَّه كتابٌ أبيض وعليك صياغة صفحاته، تنقشين حروفه وتقيمين سطوره، وعليك الاجتهاد طوال الرحلة لتكون سطوره طيبة فوَّاحة، ولأن كل ما نفعل في النهاية موكول إلىٰ الله جل جلاله. كم من الأسر يُشهد لها بالصلاح ثم جاء أبناؤها علىٰ شاكلة مغايرة، الحقيقة كثيرون يتسرعون قولًا: هذا إنَّما يدلُّ علىٰ الخلل في تربية أبنائهم! وقد يكون صحيحًا، ولكن الأمر مرتبط بالنفس وبأنَّها بين أصبعي الرحمن يقلبها كيف يشاء، أليست لنا عبرة في قصة ولد سيدنا نوح عليه السلام؟ وكم من الصالحين كانت لهم ذرية أرهقتهم طغيانًا وكفرًا، وكان جنس بلائهم في ذريتهم. إذن فكل ما تفعلين في التربية هو محض اجتهاد والأمر بيد الله جل جلاله، والدعاء لأبنائنا سلاح نغفل عنه كثيرًا، نغفل عن الدعاء للابنة بالزوج الصالح حين تكبر، نغفل عن الدعاء للولد بأن يُواظب علىٰ الصلاة، ونغفل عن الدعاء بالعافية وغيره.

(٢) الحرص والمسابقة علىٰ حضور ورشات عمل التربية (قبل الإنجاب) وأثناء المراحل الأولىٰ من عمر الطفل إلىٰ أن يشتد عوده فيصبح شابًّا (لا أبالغ)؛ أمر شديد الأهمية، ولم تعد لنا حجَّة في ظل الطفرة التواصلية التي نشهدها اليوم وأن جميع الورشات والمحاضرات لكبار خبراء التربية تملأ الفضاء الإلكتروني، وأحيانًا نحتاج إلىٰ تكرار تلك الورشات والنصائح ولا نمل من سماعها؛ لأننا في زحمة الأحداث واشتداد طلبات الأبناء وأعباء التربية ننسىٰ أهدافنا وينخفض منسوب المجاهدة لدينا في التصرف الحكيم مع الأبناء.

(٣) الإنفاق علىٰ التربية والتعليم بكل أشكاله أهم كثيرًا من كَنز المال وادخاره لمستقبلهم كما نزعم.

(٤) الأم هي أرحم كائن بالإنسان، والرحمة لا تشمل أبناءك فقط، بل تشمل أصدقاءهم وأطفال النساء اللائي لا تحبينهن ولا تهضمين التواصل معهن، والآخرين وأي طفل يمر أمامك أيضًا، وكما تخافين علىٰ ولدك خافي علىٰ أبناء الناس ولا تمرري إلىٰ الأطفال ضغائن الكبار، لا تقولي لطفل يومًا رأيته بشارع أو مكان ما يتصرف تصرفًا مشينًا: هذا الطفل لم يتربَّ جيدًا! أين أمه، أين أبوه؟! ثم تصمتين وتبادرين بالحكم عليهم. بإمكانك أن تنصحيه وتقوِّميه حتىٰ لو لم تعرفيه. أريدك أن تعودي بذاكرتك لأيام طفولتك: هل تصرفت يومًا تصرفًا خاطئًا فجاءك رجل أو سيدة لا تعرفينهم ونبَّهوكِ علىٰ أن هذا سلوك خاطئ؛ فتوقفت عن ممارسته مدىٰ الحياة؟ تخيلي أن هناك أشخاصًا عابرين في حياتنا يرصدون حسنات ممتدة إلىٰ ما لا نهاية، علمونا سلوكًا قويمًا وكانوا سببًا في استقامة أفعالنا، ندين لهم بالفضل إلىٰ الآن.

(٥) (الرياضة للجميع)! . . الحقيقة من الظواهر التي يجب أن نتناولها، هو فقر الثقافة الرياضية لدينا في المجتمعات العربية، وسأتحدث عن ثقافة الناس في مصر فيما يخص الرياضة، كما أن هناك اقتصار لممارستها علىٰ الطبقات المتوسط والراقية، إمَّا لإيماننا بأنَّك كي تكون رياضيًّا، فعليك أن

تكون مشتركًا في أحد الأندية الكبرىٰ ذات مئات الألوف من الجنيهات، وإمَّا لإيمان بعض الأهالي بأنَّ الرياضية سوف تعطل أبنائي عن الدراسة والمذاكرة، وإمَّا لمشقتها العظيمة علىٰ الأمهات ترتيبًا لملابسهم وتوصيلًا وانتظارًا لهم حتىٰ الانتهاء . . والصراحة، سوف تظل الرياضة من وجهة نظرك عبئًا؛ طالما أنَّك لا تعتبرينها ضمن أبجديات التعليم وتقويم النفس والأهم الحفاظ علىٰ صحتك وصحة أبنائك، وستظل عبئًا علىٰ نفسك طالما تعتبرينها حق أبنائك وزوجك فقط، وتحرمين نفسك من معايشة واحدة من أمتع الأنشطة التي تساعد علىٰ إبقائك مشرقة دومًا وتقضي علىٰ شعورك الدائم بالإجهاد، كما أنها ستحول بينك وبين إطلاق العنان للدهون تسرح في جسدك، وتطفئ جمالك وشكلك.

(٦) هناك طرقٌ عدَّة لممارسة الرياضة لكِ ولأبنائك: لو كنتِ ممَّن لا تقدرين علىٰ تكاليف باهظة:

(أ) البحث عن أندية عامة-في محيط سكنك-والسؤال عن أكثر اللعب تميزًا والمناسبة لقدراتك في هذا النادي وإلحاق أبنائك بها.

(ب) راقبي أبناءك خلال التمرين مرة، ومارسي الرياضة أثناء تمارينهم مرة أخرىٰ مثل رياضة المشي أو الركض (بالنسبة للرياضات التي بالإمكان ممارسة النساء لها في الشارع)، وأن تبدئي تدريجيًّا من (٣٠دقيقة) إلىٰ ساعة، وبذا تكون الرياضة مورست من الجميع دون طغيان حق أحد علىٰ أحد، أو تناوبي مع زوجك من يراقب الأبناء أثناء التمرين ومن يمارس.

(ج) هناك برامج وتطبيقات مهمة لا غنىٰ عنها لمن يهتم بأمر الرياضة، ويحرص علىٰ ممارستها يمكن أن تتوفر علىٰ هاتفك وأن تشجعي أهل بيتك علىٰ الدخول عليها؛ سأذكر بعضها: برنامج Runtastic وهو واحد من أهم التطبيقات، حيث يشرح لك بالفيديو وبيسر التمرينات التي يسهل ممارستها في البيت أو في أضيق المسافات، كما يضع عدادًا للتمرين الواحد، وبإمكانه إعداد قائمة يومية لك وبرنامج لممارسة الرياضة من البيت، وهناك تطبيق Walking، وتطبيق Namshi، وتطبيق Situps، وQuick Fit.

(٧) لا تقولي يومًا: إنَّ ابني ليس متفوقًا أو ذكيًّا، بل إنَّ أداءه لا يُطابق ما في خيالاتك وأحلامك، تخيلي لو خلقنا الله جميعًا أطباء ومهندسين وأساتذة جامعة وعباقرة، من يكون إذن الناس العاديون؟ ومن يتخصص في التخصصات الأخرىٰ؟ هو ذكي ومتفوق لكن في أمور لا تلتفتين إليها.

(٨) هوني علىٰ نفسك حين يرسب ولدك في أمر ويحقق فشلًا في جانب آخر كنت تتمنين نجاحه، وإيَّاكِ أن تُهينيه؛ فتفقديه الثقة في نفسه، فيشب منزوع الثقة مختل النفس ينتظر عبارات الغير لتُخبره عن نفسه وعن قدراته.

(٩) حين يتعرض ابنك للضرب من زميله الذي يقارب سنه، ليس من الحكمة اتباع تصرف واحد في هذا الأمر، وإنَّما ينبغي أن يكون رد فعلك نابعًا من توصيف الموقف. بعض الأمهات تربي علىٰ رد الفعل الواحد، (اللي يضربك اضربه)، أو (لا تضربه واذهب للمدرسة)، أو (سامح اللي ضربك)، وتنازل عن حقك، والصراحة: الثلاثة أفعال قد تكون خاطئة لو استخدمت في غير مواضعها. لو أنَّ هناك طفلًا يتسم بالعدوانية والضرب والتعدي علىٰ زملائه؛ علىٰ ابنك ألا يسمح أبدًا بأن يتنازل، بل يجب أن يدافع عن حقه ولا يذهب للمدرسة؛ لأنَّ هذا الأمر سيجعله فاقدًا لمقومات المروءة ويعتاد علىٰ أنه مظلوم وضعيف وهش، ويكون الأمر أشد وقعًا في تربية الصبيان.

(١٠) ساعدي ابنك وابنتك دومًا علىٰ التعبير عن مشاعرهم ووصفها، ولا تقولي لابنك لو جاءك يومًا باكيًا: «لا تبكِ مثل الفتيات»، وتفهَّمي تلك المشاعر واحتويها، مثال: لو جاءك يومًا ولدك وقال لك باكيًا: «أصدقائي لا يلعبون معي ولا يريدون اللعب معي»، عليك أن تتفهمي أنَّ هذا أمرٌ عظيم بالنسبة لسنِّه ونفسيته، وعليك أن تبحثي عن السبب وتشجعيه علىٰ مزيد من الخلطة والاحتكاك بأصدقائه لا أن تذهبي لهم فتخبريهم «إنتو ليه مش بتلعبوا مع ابني»، بل يعتاد علىٰ التفكير في حل مشاكله خصوصًا المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية والصداقة.

(١١) كم هو جميل أن تُعلِّمي طفلك أنَّ هناك أطفالًا آخرين قد نلتقيهم هنا وهناك مصابين بأمراض يجب أن نعرف كيف نتصرف معهم، ويكون عندنا ذلك القدر من المعلومات التي تعيننا علىٰ أن نكون أصحاب خلق رفيع في التعامل السليم، خذي علىٰ سبيل المثال، أصحاب متلازمة داوون، ماذا لو حفَّزنا ألسنة أبنائنا علىٰ النفور من الكلمات المشينة كوصف المرض بـ«العته المغولي»، وماذا لو حفَّزتِ ابنك علىٰ التعرف علىٰ سلوك المصابين بهذا الخلل وكيف نتحدث معهم وماذا يحتاجون منا. خذي مثالًا آخر: الأطفال المصابون بالسكري؛ علِّمي ولدك أن من حسن الخلق ألَّا آكل أمامه ما هو ممنوع عليه، وأن أحافظ علىٰ صحة صديقي المريض وأن أحمل في قلبي الرحمة تجاهه. في يوم من الأيام التقيت صديقة لها ثلاثة أبناء أحدهم أصيب في مقدمة رأسه بمرض جلدي اسمه «البهاق»، وإن ابنها هذا منعزل منطوٍ ولا يتحدث مع أحد ويذهب لأطباء نفسيين وتخشىٰ عليه كثيرًا، كما أن البيئة المحيطة لا تفهم معنىٰ الحاجة «للدعم النفسي». كلمة طيبة وتصرف كريم في مثل هذه المواقف كفيل بأن يُحيي قلوبًا صغيرة شيَّبها البلاء. وقِس علىٰ هذا الأطفال أصحاب التحدِّيَات البدنية المختلفة كالمكفوفين والصم والبكم وغيرهم.

(١٢) إياكِ والمقارنة بين ابنك وأخيه أو ابن عمه، أو أي طفل كان، لماذا نستحث فيهم من الصغر صفات الغيظ والحقد والتحاسد. سيكون أفضل لو سردت عليهم قصة كفاح لشخصية معروفة أو كبيرة في السن في محيطكم، وحكيت فيها لأطفالك عن التحديات والقدرة علىٰ تخطيِّ المصاعب.

(١٣) علمي طفلك الدفاع عن أشيائه وحقوقه، وعلميه التمييز بين حقه وبين خُلُق المشاركة واقتسام الأغراض والمأكل في المواقف التي تستلزم المشاركة، ولا تحفزي فيه خلق الأنانية بألا أعطي أشيائي لأحد مهما حدث.

(١٤) لو قدَّر الله أنَّك تعيشين في غير بيتك لظروف طلاق أو فقد أو سفر أو تقيمين مع أحد، تعاوني مع ا لبيئة المحيطة وأفهميهم رؤيتك في

التربية لطفلك، واطلبي منهم بأن يكون العون إيجابيًّا، فلا تقفي صارخة في وجوههم أمام طفلك: «محدش له دعوه بابني ولا يتدخل فيه!» سيعيش الطفل صراعًا نفسيًّا بأن أمه تريده علىٰ شيء، وهناك شخص آخر معهم في البيت يريده علىٰ خلافه.

(١٥) ليس كل الناس أشرارًا، ولا كل الناس متربصين بنا، اغرسي في طفلك أن البشر فيهم الصالح والطالح وفيهم جوانب من الخير، وأن الأفضل مخاطبة الفطرة النقية في الناس بدلًا من استثارة جانب الشر فيهم.

(١٦) عندما تقع الأسرة في محنة، كفقد أو مرض أو إفلاس أو غيره، ليس من الصواب عدم إخبار الأبناء، بل يتعين إخبارهم بطريقة تلائم أعمارهم وإشراكهم في المشكلة، الشيء الوحيد المطلوب منا عدم إظهاره؛ هو الهلع والجزع والخوف. أمَّا البكاء فهو حق للجميع.

(١٧) الذهاب بابنك للأخصائيين النفسيين عند التعرض لصدمات أو محن كبيرة؛ أمر مهم، واستشارة أناس تعرضوا لنفس البلاء يُشكل جزءًا من العلاج لتجاوز الأزمات. مثال: أسرة فقدت الأب، عماد البيت وربَّان السفينة، البحث في هذه الحالة عن أسر لها نفس الأحوال وأطفال عاشوا التجربة؛ ستساعد علىٰ التجاوز.

(١٨) الابتعاد بطفلك عن الناس الذين يشكلون مصدرًا للتشويش والضوضاء السلبي في التربية ويهدمون ما تغرسين؛ هو أفضل من مجاملتهم بالمكوث فترات طويلة معهم والضغط علىٰ مشاعرك ومشاعر طفلك من باب الذوق والمجاملة.

(١٩) احترمي كل الآراء في التربية؛ لأنَّها ليست عملية حسابية، وعند رفضك لرأيٍ ما؛ كوِّني قناعات فعلية للرفض من خلال الخبرة أو الاطلاع. علىٰ سبيل المثال: الناس الذين يصمون آذانهم عندما يسمعون عبارة التعليم المنزلي ويرفضونه دون أن يعرفوا ماهيته والفرص الذكية التي يوفرها، من باب «المرء عدو ما يجهل». عليك بالصبر والإنصات باهتمام لما يقوله المختصون في هذا الباب، ولك حرية الرفض أو القبول.

(٢٠) من باب احترام الآراء في التربية، أن أحترم الأمهات اللواتي يمنعن عن أطفالهن الأجهزة اللوحية والذكية والألعاب، ولا أوبخ طريقتهن أمام أبنائهن، فأنا علىٰ سبيل المثال أحترم أولئك الأمهات، لكني لا أطبق هذه الطريقة علىٰ أبنائي، ولي أسبابي: منها أنَّني من الجيل الذي فتح عينيه علىٰ الألعاب القديمة كجهاز (الأتاري) في التسعينات، وكنا نمكث عليه وأختي أكثر من نصف اليوم حتىٰ ننام، وكانت تظهر علينا سلوكيات تُشبه السلوكيات التي يصفونها بـ (الإدمانية) الآن، كأن يرفض الطفل اللعب مقابل الجلوس مع الجهاز، عام وعامان، ثم فقدنا شغفنا بالأتاري وبدأنا نكبر ونحب اللعب في الشارع وركوب الدراجات والركض، ولما ناهزت الحادية عشرة صرت أهوىٰ الرسم، فطفلك حتمًا سيفقد الشغف بمثل هذه الأشياء يومًا ما، رغم إيماني أيضًا بأن تشجيع طفلك علىٰ التفاعل مع الأطفال ومعك أفضل من الإمساك بجهازه طوال الوقت.

(٢١) الادخار لشراء لعب أطفال قيِّمة؛ تُساهم في تنمية عقل الطفل، أفضل من إغراق البيت بلعب لا قيمة لها في تنمية مهارات طفلك، كما أنَّ المباعدة بين فترات شراء الألعاب يُنمي داخل طفلك الشغف، ويساعد علىٰ استمتاعه وفرحه بلعبته الجديدة.

(٢٢) ساعدي طفلك وأبناءك كل فترة أثناء فرزك للملابس أو فرز اللعب علىٰ التحلي بروح الإيثار وإخراج الأشياء التي فقدوا الرغبة في لبسها أو اللعب بها لمن هم أكثر احتياجًا، ولا تعلمي طفلك أن يُخرج الرديء والمهترئ.

(٢٣) توقير اللغة العربية واحترامها وفهمها؛ هو أهم مفاتيح نهضتنا، ولا يوجد أمة تنهض بلغة غيرها. وإذا كان نظام التعليم يفرض عليك دراسة اللغات المتعددة؛ استثمري هذا بتعميق فهم طفلك للغته الأم، ووقري لغة القرآن في نفسك وعلميها لأطفالك منذ الصغر.

(٢٤) لا تستخدمي أبدًا العبارات المهينة وقت الغضب، ككلمة (اخرس)!، وجرِّبي يومًا أن تمثلي تلك الفقرة مع أحد فيقول لك أثناء الحديث: اخرسي أو متتكلمش خالص!

(٢٥) في دراسة أعدها علماء النفس في جامعة هارفرد بعنوان:

"Parents who raise good kids do these five things".

«الأهل الذين يربون أبناء جيدين يفعلون خمسة أشياء».

أولها: يمضون وقتًا مع أبنائهم. وأنا سأقف علىٰ أهم شيء يمكن أن تقدمه لطفلك في هذا الزمان المزدحم للغاية بعشرات برامج التواصل والعمل والأعباء ونظام الموارد البشرية ولوائحه في شركتك وزحمة الحياة، لا يوجد أجمل من أن تُكرِّس وقتًا للحديث المطول مع طفلك والاستماع له.

وسأقترح عليكم ثلاثة أوقات مميزة تُمثل أفضل وقت يكون ذهن الطفل فيه مستعدًّا لاستقبال تفاعلك معه:

(أ) وقت التوصيل إلىٰ المدرسة، أن تأتيك فرصة أن توصلي أبناءك للمدرسة بسيارتك-وإن استطعت الاستغناء عن ركوب باص المدرسة، فقد أسهمت إسهامًا مهمًّا في بناء شخصية ابنك-هذا اليوم وهذا الوقت احرصي جيدًا علىٰ استغلاله وعدم إضاعته، حيث يمكنك الحديث معهم وغرس كثير من القيم خلال فترة الصباح، مثال: يُمكنهم مشاهدة حُسن خلقك وصبرك أثناء القيادة، فيتعلمون منك، تمر عليكم المشاهد المتنوعة أثناء التوصيل فتعلقين عليها ويتعلمون منكِ. أنا شخصيًّا آثرت أن أوصل أبنائي لمدرستهم يوميًّا-توفيرًا للنفقات، ورغبة في المكوث أكبر وقت معهم- فأقود سيارتي لمدة قد تصل من ساعة وربع إلىٰ ساعتين، وقررت أن يكون أفضل وقت نمضيه معًا.

(ب) أثناء تناول الغداء: الأسر السعيدة حقًّا؛ هي التي تحرص علىٰ الالتفاف حول مائدة الطعام وتنتظر أفرادها للاجتماع وتعلم أطفالها السلوكيات القويمة والأخلاق الحسنة أثناء الأكل.

(جـ) فترة قبل النوم: هذه الفترة مميزة للغاية؛ لأنَّ اليوم انتهىٰ وابنك يحتاج إلىٰ أن تغمريه بحنانك وحضنك الذي افتقده طوال اليوم في الانتقال واللعب والاحتكاك بالآخرين. وأنتِ تنادينهم: هيا موعد النوم، ادخلي معهم وضميهم واستمعي لحديثهم فيما جرىٰ لهم خلال اليوم وعلِّقي عليه.

(٢٦) ارتفاع صوتك أثناء الأمر والنهي أو في حالة الغضب؛ يُفقدك أنوثتك، ويضرب لغة الحوار بينك وبين طفلك في مقتل، ولن يُثمر عن حل للمشكلة، فضلًا عن أن المرأة التي تخرج من وقارها بالصوت العالي تؤثر في شخصية أبنائها سلبًا، خصوصًا لو كان هذا الارتفاع في الصوت مسموعًا متعمِّدًا إرهاب الأبناء بمنطق (الفضيحة) أمام الناس. ودومًا تذكري (ما أجمل السكينة!).

(٢٧) النظافة: وددت لو أني أفرد مقالة طويلة وعريضة للحديث عن النظافة وأنها تشكل جزءًا متواصلًا وحيويًّا من عملية التربية، لكن يمكن أن نتناولها في نقاط موجزة:

(أ) البيوت المُنسقة، حتىٰ لو لم تكن فارهة؛ تخيم بسكينتها علىٰ ساكنيها، ألا يوترك أن تدخلي مكانًا متسخًا غير منظم؟ فما بالك لو كنت تعيشين فيه! كيف تكون نفسيتك ونفسية أبنائك؟ الأم الصالحة هي بالضرورة سكن لزوجها وأبنائها، وأولىٰ مهامها أن توفر مسكنًا هادئًا مريحا لهم، وصدقيني: سلوكياتك في النظافة تنعكس علىٰ الأبناء.

(ب) لو توفرت لك قدرة مادية علىٰ الإتيان بسيدة تساعدك ولو ليوم واحد في الأسبوع؛ هو خير لكِ وسيرحمك من عناء النظافة الشاملة لكل مكان بالبيت.

(جـ) لو من الصعب تحقيق النظافة في كل الغرف، يُمكنك تجميع كل الكراكيب والملابس والألعاب والأغراض في غرفة واحدة؛ سيسهل عليك تنظيف غرفة واحدة وحافظي علىٰ غرف نظيفة في المنزل.

(د) يجب أن يكون عندك ثقافة التخلص من الكراكيب أولًا بأول؛ لأنَّ إدمان الاحتفاظ بالأشياء القديمة يولد الوساوس ويتحول البيت إلىٰ مخزن كبير وتصعب عملية التنظيف وتصبح مشقة عليكِ.

(هـ) لو لديكِ ابنة أنصحك دومًا بالجلوس معًا ومشاهدة صور من الإنترنت ومواقع تتحدث عن تنسيق المنزل وطرق صف المزهريات واستغلال المساحات؛ وهذه نصيحة مجربة، وأجمل هدية تقدمينها لزوج ابنتك حين تكبر بأن تربيها علىٰ تذوق الجمال وحسن إدارة منزلها.

(و) النظافة الشخصية لأبنائك؛ هي عنوان تربيتك أمام الناس وعنوان مستوىٰ نظافتك، وتشمل أسنانهم وصورتهم المهندمة وألفاظهم وحفاظهم علىٰ ممتلكات الغير.

(٢٨) لو كنتِ تعانين في أمر الواجبات مع طفلك الصغير لا تجلسيه علىٰ مكتب، بل خذيه في حضنك واجمعي أبناءك حولك في مشهد رحيم يقوم علىٰ المشاركة والتشجيع، وساعديهم علىٰ جل الواجبات دون صراخ، ولا تتدخلي كثيرًا في أمر الواجبات فتكون من ألفها ليائها في يديك! بل علميهم الاعتماد علىٰ النفس.

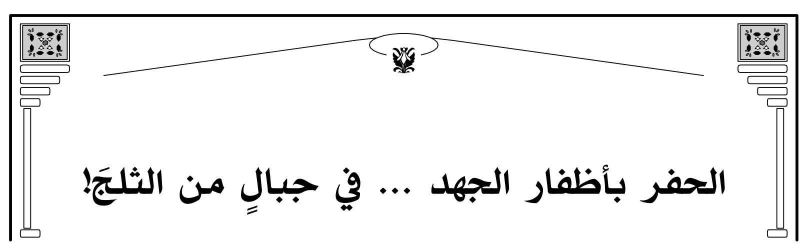
(٢٩) أعطيهم مصروفًا وعلميهم كيفية تسوق احتياجاتهم البسيطة، ولا تعتمدي يوميًّا علىٰ شراء أغراض المدرسة؛ فتحرميهم من تنمية شخصيتهم في التعامل مع المال.

(٣٠) هذه مجموعة صفحات ومواقع يُمكن متابعتها والاستفادة من نصائح علماء التربية فيها:

(أ) مقالات وبرامج «مروة رخا».

(ب) Positive Discipline Muslim Home.

(جـ) موقع The Latest for moms، ويُنصح بالاشتراك في قائمته البريدية.



الحفر بأظفار الجهد ... في جبالٍ من الثلجَ!

أو: عن المرأة المسلمة وسؤال العلم والثقافة في مجتمع السوق

دعاء توفيق(*)

«سبحان من شغل كل شخص بفنٍّ، لتنام العيون».

[ابن الجوزي: «صيد الخاطر»]

لم أكن قد جاوزتُ السابعة عشرة من عمري، حين كانت قراءتي الأولىٰ للكتاب الفذ: صيد الخاطر، الذي أبدعته قريحة الإمام أبي الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ وقد رُزقتُ منذ نعومة أظفاري، شغف المعرفة، ومحبة العلوم والآداب علىٰ اختلافها، لا سيما العلوم الشرعية.

وفي الحقيقة، فإنني قد تأثرت بهذا السفر الجليل تأثرًا بالغًا، ولم أستطع أن أتجاوز الحالة الشعورية التي طبعها علىٰ نفسي مذ قراءتي الأولىٰ له؛ لا لجميل مواعظه وبليغها فحسب، ولا لغزارة عقل مؤلفه وحكمته فحسب؛ وإنما لفاقةٍ غلبت علىٰ نفسي آنذاك.

(*) بكالوريوس تجارة، جامعة عين شمس، قسم إدارة الأعمال.

طالبة في كلية دار العلوم جامعة القاهرة.

كاتبة وباحثة مهتمة بالمجالات الفكرية، واللغوية، والتربوية، وواقع المرأة المسلمة.

نعم . . إنها فاقةُ الاقتداء! والعطش الشديد لامرأةٍ عالِمة بليغة، تستشعر ما يلاقينه بنات جنسها في حياتهن من عوائق، وتسطر لهن نصائح ذهبية كنصائح الإمام.

كم تمنيت لو أن محدَّثة أو عالمة من العصور الغابرة، قد سطرت ما تلاقيه في حياتها العلمية والعملية من تجارب وعوائق، وتتحدث عنها وتنصح مثيلاتها من النساء المشتغلات بالمجال العلمي (الشرعي) نفسه، الذي يعاني من قلة الإقبال النسائي عليه، مقارنةً بغيره من المجالات الأخرىٰ.

وكما لا يخفىٰ، فإن طبيعة الوظيفة الحياتية المنوطة بالمرأة تختلف عن تلك المنوطة بالرجل؛ فإن المرأة ليست مُخاطبة بالأساس بتحصيل المال وإعالة غيرها، وإنما هي مُخاطبة أصلًا بحسن معاملة الزوج وحسن التبعل له، وتربية الأولاد ورعايتهم، وتدبير المعاش، ومواساة الأهل والأقارب والجيران والإحسان إليهم.

وبالتالي، فإن طبيعة العوائق التي تلاقيها المرأة المُشتغلة بالمجالات العلمية، في حياتها العملية؛ تختلف عن تلك التي يلاقيها الرجل، ونستطيع أن نصنفها -في الغالب-علىٰ أنها عوائق اجتماعية، بخلاف الرجل الذي نستطيع أن نصنف العوائق التي يلاقيها -غالبًا- علىٰ أنها عوائق مادية.

وكلاهما -العوائق المادية والاجتماعية- له الأثر الأكبر في تفرغ المشتغلين بالمجالات الشرعية والثقافية، رجالًا ونساءً؛ وهذه معضلةٌ إنسانيّة أصيلة، يعانيها كل صاحب رسالة وهمّةٍ وطموح؛ لأن الموارد -وعلىٰ رأسها الأوقات- شديدة المحدودية، وأدوار الحياة مرسومة في قوالب أشبه بالسجون منها إلىٰ الحريّة، في حين أن المطلوبات في مجتمع السوق والانفتاح الفكريّ الهائل الذي نحياه، لا سقف لها يلوحُ في الآفاق، ولو تطاولت الأنظار.
وعلىٰ مدار التاريخ، نجد نصائح لكثير من أهل العلم والأدب -الرجال-

لطلابهم وقارئيهم، وأبنائهم كذلك، في تحصيل المال، ومعاملة الزوجة وسياستها، وعن الناس وطبائعهم، وأفضل طرق الاستذكار وتنظيم الأوقات، وما إلىٰ ذلك من خلاصات لخبراتهم وتجاربهم في الحياة، ولم يزل هذا الطريق مُعبّدًا مأهولًا، والكتب المعنية بنصائح العلماء وخبراتهم في شتىٰ أمور الحياة متوفرة، وإن كانت تحتاج إلىٰ مواكبة أكثر لظروف الحياة المعاصرة وحاجاتها.

بينما ينعدم هذا الأمر في الشق النسائي(١)، ولعله لأسباب كثيرة، ربما كُن النساء لا يرين ثمة جدوىٰ من تسجيل ذلك للأجيال القادمة، وربما غلب التلقي الشفاهي علىٰ الكتابي آنذاك في أوساط النساء؛ وأيًا كان السبب، فلم يصلنا من ذلك شيء، اللهم إلا بعض النصوص الأدبية التي وصلتنا من التراث عن بعض النصائح والخبرات الاجتماعية في معاملة الزوج.

---

(١) أكثر ما ذُكر من الكتب النسائية الخاصة بالآداب والحث علىٰ التعليم، إنما كان من التراث الهنديّ المسلم، وقد ذكرت المستشرقة آنا ماري شمل، عدّة مؤلفات لنساء مسلمات هنديات، مثل: دراسة أميرة بهوبال شاهجهان بيغم (١٨٣٨-١٩٠١) التي كتبت في الثلث الثاني للقرن التاسع عشر بعنوان: تهذيب النسوان وتربية الإنسان؛ وأعمال دبوتي ناظير أحمد (١٨٠٣- ١٩١٢)، صاحبة كتاب (مرآة العروس)، التي تصور البطلة المتعلمة المجتهدة تقوم بأعمال خيرية مثل إرسال الأغطية إلىٰ الفقراء في الشتاء، ونراها في مناسبات أخرىٰ توزع المصاحف. وترسم رواية (زينات) لمرزا قالش بج (١٨٥٣-١٩٢٩)، الصادرة في عام (١٨٩٢)، كيف تتصرف المرأة الدارسة في العلوم الكلاسيكية في كل المواقف بحنكة ولياقة. [«روحي أنثىٰ»، آنا ماري شمل، (ص/٢٢، ٢٣) بتصرف].

وكذلك والدة الداعية الكبير السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، خير النساء بهتر (١٨٧٨- ١٩٦٨)، التي قامت بتأليف كتاب: «رسائل للشيخ أبي الحسن الندوي»، وهي الرسائل التي كانت تكتبها لابنها الشيخ أبي الحسن عندما كان مقيمًا في لكناو، ونجد في هذه الرسائل نصيحتها لابنها بتحصيل العلم العربي ودراسة الكتب الدينيّة واختيار طريقة السلف الصالح. [«مساهمة الهنديات في الدراسات العربية»، د.هيفاء شاكري، مقالات الألوكة].

وما أجمل تدبر الإمام ابن الجوزي، وما ألطفه وأدقه!

«سبحان من شغل كل شخصٍ بفن؛ لتنام العيون».

فعندما ابتعدت المرأة المسلمة الحصيفة عن الاشتغال الجاد بالمجالات الشرعية والثقافية، عندما فرغ مكانها وتجمدت آثارها عند حقبة معينة من الزمان، ومع الانفتاح الهائل للحياة المعاصرة، وسيولة المعرفة وسُبُلها؛ أصبح كثيرٌ من النساء في حيرة شديدة، وفي حالةٍ من التيه، بين عالمٍ مفتوح يستغل الطاقات النسائية بصورة متنامية ومتزايدة مع الوقت، بشتىٰ الصور، سواء السلبية منها أو الإيجابيّة، وبين خطابٍ يحصرها في دائرة البيت والأولاد، وبعض المجالات كالطب والتدريس مثلًا لشدة الحاجة الاجتماعيّة إليهما في الجانب النسائي، وعندما يأتي الحديث عن دورها في العلم والثقافة -علىٰ قلة الفئة النسائية المشتغلة بهذا أصلًا- تُختلق المعوّقات والتصورات الفاسدة والافتراضات المُهلكة.

فعندما نتحدث عن قضايا المرأة المشتغلة بالعلم الشرعي والمجالات الثقافية والفكرية تحديدًا، فإننا نواجه إشكالات كثيرة؛ وليست هذه الإشكالات في معرض الرد علىٰ (الآخر)، الذي من المفترض أنه يحمل أيديولوجيا مناهضة للنسق الإسلامي مثلًا، وإنما هي في قلب المشتغلين بالعلم الشرعي والثقافة بالأساس، وفي داخل الأجواء الإسلامية. لذا: فسوف نصف هذا السؤال بأنه: سؤالٌ داخلي وليس خارجيًا، ومن هنا يستمد أهميته؛ لتعلقه بواقعنا العلمي والفكري، الذي من الواجب علينا أن نشتغل بإصلاحه. إن الحداثة الغربية التي توطنت في قلب مجتمعاتنا العربية والإسلامية وأحشائها، وآلاتها الإعلامية الضخمة، وأذرعها الفكرية والاجتماعية؛ إنما هي تسوّق في الأساس لصورة المرأة الغارقة في الاستهلاك، بأنواعه المختلفة، أو بكونها هي نفسها سلعة، أو بكونها عاملًا رأسماليًا يساهم في مجال الأعمال وإدرار الأموال؛ وليست مطروحة أصلًا صورة المرأة المشتغلة بالعلم أو الفكر؛

خصوصًا العلم الشرعي[١]، بل إن الصورة السائدة عن النساء طالبات العلم أو المثقفات، أنهن لسن علىٰ القدر المطلوب لا من الأنوثة ولا من العقل -كليهما!-، بل ويستدل القائل بهذا بالأمثلة والنماذج السيئة التي لا تخلو منها طبقة من طبقات الناس -بما فيهم طبقة طالبات العلم-؛ وحتىٰ يُشنِّع علىٰ كل الأفراد الذين تشملهم هذه الفئة. إضافة إلىٰ الانطباعات، والذائقة الفردانية والشخصية، التي يتم من خلالها إطلاق الأحكام علىٰ سائر النساء في المجال العلمي والثقافي وتعميمها. الأمر يشبه إلىٰ حدٍ بعيد، ما تحدّث عنه أستاذنا د. أحمد قوشتي، في رسالةٍ مهمة علىٰ وجازتها[٢]، عن أثر الخصائص الشخصية في ظهور الاتجاهات الفكرية؛ فعلىٰ الرغم من أن هذه الرسالة تتحدث عن بعض عوامل انتشار المذاهب الكلامية في مصر، وتركّز تحديدًا علىٰ عامل (الصفات الشخصيّة) ودورها في ذلك؛ فإننا لو طبقنا القاعدة نفسها علىٰ انتشار فكرة معينة عن موضوع معين، سنجد أن عامل (الصفات الشخصية) من أهم العوامل، لا سيما في عالمٍ يعزّز الفردانيّة والمزاجيّة، ويجعل الإنسان وأفكاره ورغباته وصفاته هو المركز الذي تدور مع رحاه قضايا الكوْن. ولو تمثلنا أفكار قطاعٍ عريض من الرجال والنساء علىٰ مواقع التواصل مثلًا، في داخل التيارات الإسلامية بشكلٍ خاص، سنجد أن كثيرًا من الأحكام والتصوّرات التي يتم إطلاقها علىٰ المرأة العالِمة مثلًا أو الباحثة والمثقفة، تنطلق أساسًا من نزوعٍ طبعيّ في الرجل، أو في المرأة المناهضة لهذه المسألة، لا من منطلقٍ شرعيّ؛ إذ لو كانت مفاهيم الشريعة هي الحَكَم لانتهىٰ الأمر بسهولةٍ ويُسْرٍ، لوضوحها وبتِّها في هذه المسألة وتحديد الأولويات والضوابط؛ فمثلًا، لا يروق فُلانًا أن يرىٰ امرأة تُناقش وتُسأَل وتتعلم، ويكون لها رأيٌ ونظر وتخرج إلىٰ حلقات العلم، بل لا يرىٰ في المرأة إلا دورها

---

(١) لأنَّ من أهم ركائز الحداثة الجليّة بالأساس، هي القطيعة مع التراث، وتجاوزه.

(٢) «**أثر الخصائص الشخصية علىٰ ظهور الاتجاهات الفكرية: مصر نموذجًا**»، د.أحمد قوشتي عبد الرحيم، ط. مركز التأصيل للدراسات والبحوث.

الاجتماعيّ ورعايتها لزوجها وأولادها وبيتها، ولا يرىٰ إلا أن تكون خالية البال من تعقيدات الحياة ومشكلاتها[١]، ويجتزئ لرؤيته تلك من النصوص الشرعية -والأدبية كذلك- التي تدعم هذا المعنىٰ فقط. وهذا في ذاته لا يمثل أي مشكلة إذا ما تناوله في إطاره الشخصيّ، لكن المشكلة تحدث عندما يُطلق هذا (المزاج)، أو (الذوق)، أو (الطبع) الشخصي علىٰ الموضوع بأكمله، وتشتد الأزمة إذا ماكان هذا الرجل شيخًا أو عالِمًا أو طالب علم؛ إذ تنزل رؤيته عند الناس منزلة الحقائق، وإنما كل ذلك محض اختيارات شخصية، يتم من خلالها الحكم بما يشبه ازدراء طالبة العلم أو تصنيفها بالقساوة والجمود.

وليس يستوي، لا عقلًا ولا شرعًا، أن نستدل بأمثلة سيئة من طلاب العلم الذين يُسيئون لزوجاتهم أو لأهليهم أو لهم أي سقطات أخلاقية، لنستنتج نهاية أن طلاب العلم جميعهم ليسوا أسوياء! أو أن امرأة لا تفضل أن ينشغل عنها زوجها بقراءة أو كتاب، فتقلل من شأن طلاب العلم أو ترميهم بالجمود كذلك. لكن هذا هو عين ما يحدث إذا تحدثنا عن المرأة في سياق طلب العلم أو الثقافة، في الغالب.

ومن العجيب أن هذه الصورة الشائهة عن المرأة المشتغلة بالعلم والثقافة، هي تلك الصورة التي رسمتها الفلسفة الغربية بالأساس، وتنافي الصورة التي رسمتها النصوص الإسلامية عن المرأة. فإن الأروقة العلمية والفلسفية التي قامت علىٰ معطياتها الحضارة الغربية، لا تعترف بالمرأة العالِمة أو المفكرة، ويرونها عاجزة عن إعمال العقل والحكمة والتفكر، في أصل خلقتها، إلا إذا دخلت في شرطهم الذكوري، ومارست العلم والفكر كما يمارسه الرجال، وفي انعزالٍ عن الناس وإهمالٍ للنفس، وصرامة وبُعْدٍ عن الأحاسيس والمشاعر القلبية؛ لذلك وصفوها بالذكورة والخشونة، وأعلوا من

---

(١) تعبر عالِمة الكيمياء الحيوية (ليندا شيفرد) في كتابها (أنثوية العلم) عن ذلك قائلة: «وهكذا يتحقق الضرر باسم النوايا الطيبة، من قبيل حماية المرأة من مشاق التعليم». [«**من أجل صالحها**»، (ص/ ٧٠)].

شأن المرأة التي لا تهتم إلا بجسدها وجمالها، وتطيع وتسمع بلا رأي ولا مشورة.

وفي ذلك تقول ليندا جين شيفرد -عالمة الكيمياء الحيوية- في كتابها الرائد: أنثوية العلم: «هل يجب علىٰ النساء أن يفكرن كالرجال ويصبحن مثل الرجال لكي ينجحن في العلم؟»[(١)].

وتقول: «قال آي آي رابي الحاصل علىٰ جائزة نوبل في الفيزياء: إن المرأة غير مهيأة للعلم قد تشق المرأة طريقها في العلم، قد تُنجز قدرًا طيبًا، لكنها لن تنجز أبدًا علمًا عظيمًا»[(٢)].

وإذا كان ما أوردته ليندا شيفرد في كتابها يخص العلوم التجريبية بالأساس، فإن هذا التصور يتم تطبيقه أيضًا علىٰ مختلف العلوم الأخرىٰ، لا سيما تلك العلوم التي تستغرق الذهن وتحتاج مدة طويلة لتحصيلها، مثل العلوم الشرعية.

وهذا يعني أننا ما زلنا حبيسي التصور نفسه الذي كان يسود الغرب إلىٰ حقبة الستينيات!

ومفارقة التصور الإسلامي لهذه التصورات الغربيّة بالأساس، واضحة كالشمس، لا مراء فيها. ومن أحسن وأفضل من تناول هذه القضية -أي: التصور الإسلامي للمرأة-، الباحثة الأردنية رزان عبده الحكيم، في بحثها الرائق: صورة المرأة في الحديث النبوي[(٣)]، إذ خَلُصت نهايةً -عبر تقديمها لمجموعة من كلٍ من بعض الأحاديث الصحيحة وشروحاتها، والأحاديث المردودة، عن المرأة، وعبر تقديمها لبعض الكتب الأدبية المشهورة التي

---

(١) «**أنثوية العلم**»، ليندا جين شيفرد، ت. د. يمنىٰ طريف الخولي، ط. عالم المعرفة-الكويت، (ص/ ٦٠).

(٢) السابق، (ص/ ٧١).

(٣) «**صورة المرأة في الحديث النبوي**»، رزان عبد الحكيم، ط. دار الفكر- دمشق.

ساهمت كذلك في تشويه التصور الإسلامي للمرأة، من خلال الاستشهاد بالأحاديث المردودة تارّة، أو من خلال الاستشهاد بالأحاديث الصحيحة، واجتزاء هذه الأحاديث من مجمل النصوص الواردة عن المرأة المسلمة، وخلطها بالأحاديث المردودة- خلصت إلىٰ أن «الحديث الصحيح كان يدفع المرأة إلىٰ المشاركة الفعّالة في الحياة العامة؛ والحديث المردود يعزلها عنها»[١].

تقول: «أين إيمان خديجة، وعلم عائشة، ومشورة أم سَلَمة، وفدائية أم سُلَيْم وأسماء، ونفقة زينب وورعها، وطموح أم حرام، وشهادة سُميّة، وهجرة أم كلثوم؟»[٢]. وكذلك، عقدت المستشرقة روث رودد، في كتابها المهم: النساء في التراجم الإسلامية[٣]، «دراسة طويلة ومُضنية لتراجم النساء من أجل رصد الانطباع الذهني عن النساء في المجتمع الإسلامي، علىٰ مدار القرون السبعة الأولىٰ»[٤].

«وصلت الدكتورة روث رودد إلىٰ أن أي امرأة شكّلت أهميةً تكفي لتسويغ تدوين ترجمتها في مجموعات التراجم الإسلامية القديمة»[٥].

تقول رودد: «يُذهل المرء من اجتهاد العلماء المسلمين في جمع تفاصيل تراجم النساء ومناقشتها في بعض الأحيان، وأما في ما يتعلق بالعودة إلىٰ مصادر أخرىٰ -القرآن، والحديث، والجوامع الفقهية والتاريخ- فلا يوجد دليل علىٰ إهمال النساء في هذا الجانب.

فإذا ما كان المؤرخون الأمريكيون والأوربيون يشعرون بالحاجة إلىٰ إعادة بناء تاريخ النساء لأنهن غير ظاهرات في المراجع التقليدية، فإن العلماء

(١) السابق، ص ٣٢٨.

(٢) السابق، ص ٣٢٣.

(٣) «**النساء في التراجم الإسلامية**»، رودث رودد، ت. عبد الله بن إبراهيم العسكر، ط. دار جداول.

(٤) السابق، ص ١٢.

(٥) السابق، ص ٣١.

المسلمين يواجهون وفرة من مواد المصادر . . ومعظم هذه المراجع، إن لم يكن جميعها، قد كتبها رجال».

وتقول: «ويُدهش المرء حين قراءته لآلاف تراجم النساء، بالدليل الذي يتناقض مع مشاهدة النساء المُسلمات مُهمّشات، ومنعزلات».

«ففي أوروبا العصور الوُسطىٰ، كان لا يمكن تصوُّر أي وضع للمرأة خارج الزواج وإنجاب الأطفال وتربيتهم وأعمال المنزل، ولعل هذا الوضع الاجتماعي والثقافي القاسي المُتصلِّب قد دفع النساء في أوروبا إلىٰ اللجوء إلىٰ الدير، أي إلىٰ الرهبنة، فيُذكر علىٰ سبيل المثال كيف كانت القراءة والكتابة قاصرةً علىٰ التعلُّم في الدير وبعض العائلات الثّرية، وكيف خاضت الراهبات المسيحيات حروبًا نفسية ضارية، سواء ضد المجتمع أو ضد المؤسسة الدينية المتمثّلة في الكنيسة، لتغيير أوضاع المرأة في مُجتمعها»[١].

أما في الإسلام، فإن الاشتغال العلمي الديني للنساء (باعتباره نظيرًا للاشتغال اللاهوتي عند الراهبات) لم يكن أبدًا هروبًا من المسؤوليات وضغوط الحياة، كما فعلت الغربيات مع الرهبنة والتدريس، بل إنه اتساقٌ مع الرؤية الكونيّة المنبثقة عن العقيدة الإسلاميّة، ففي الإسلام أن العلم عبادةٌ جليلة، وشرفٌ عظيم، وارتقاء بالمجتمع المُسلم.

ولولا ضيق المقام هنا، لأسهبتُ في بيان هذه المفارقة العميقة بين الرؤيتين الإسلاميّة والغربية، للاشتغال العلمي للنساء، لا سيما أن أغلب الكتابات التي تتناول موضوع التصور الإسلامي للمرأة، تكتفي بنقل النصوص والتراجم، من دون معالجتها لقضايا الواقع المعاصر الذي نحياه، وطبيعة العوائق التي وُلدت في سياق هذا الواقع.

وإذا ما انتقلنا من مشكلة التصوّر لدور المرأة المسلمة في المجال العلمي والثقافي، إلىٰ طبيعة الخطاب الوعظي والدّعَوي الموجه إلىٰ النساء،

---

(١) «**روحي أنثىٰ**»، (الأنوثة في الإسلام)، آنا ماري شمل، ت. لميس فايد، ط. الكتب خان، (ص/٨).

سنكتشف أنه -للأسف- يعزز كثيرًا من المفاهيم والتصورات المغلوطة عن المرأة، سواء بقصد أو بغير قصد.

فدعوىٰ الذكورة والخشونة الملازمة للعلم، التي تحدثنا عنها، تتكرر كثيرًا في أدبيات كثير من المشايخ وطلبة العلم من الرجال، بل ومن النساء كذلك؛ إذ ترىٰ أن انشغالها بالقضايا العلمية أو الفكرية، هو ضربٌ من الاشتغال بما لا ينفع، وضرب من مخالفة مقتضيات الأنوثة والعاطفة وما يستتبعهما من اهتمامات.

وكذلك، حصر خطاب المرأة علىٰ أنها فتنة، وتضخيم هذا المعنىٰ، في إطار أكبر بكثير من الإطار الذي حدده الشارع، وبصورةٍ تعزز -لو تدبرنا- المفهومَ الغربي المادي نفسه بأن المرأة محض جسد فقط لا غير.

فلماذا لا يتم وضع مفهوم الفتنة في إطاره، مع تأكيد دور الحجاب الشرعيّ والآداب الإسلامية، وبالتالي تستطيع المرأة التعاطي مع مجتمعها في المساحات التي أفسحها الله تعالىٰ لها، وأباحها.

«فالمرأة من الشهوات ومن متع الدنيا التي قد يُفتن الرجل بها، ولكنها ليست شهوته الوحيدة، وإن كانت أولىٰ الشهوات وأحبها إليه، وعندما يُنبه البيان النبوي إلىٰ ذلك، لا يجعلها مانعًا من الوصولِ إلىٰ الله إلا إن فُتن بها الرجل وانجرف وراء شهوته، فقال عندها: إنها تضرّه، ولم يقل تمنع وصوله إلىٰ الله أو تمنع دخوله الجنة، والنبي ﷺ لا يُحمّل المرأة المسؤولية؛ ذلك لأنه مما فُطر عليه كلٌ من الجنسين»[1].

وعلىٰ هامش قضية الفتنة، أتأمل كثيرًا في مساحة، ربما لا أبالغ إن قُلتُ إنه لا أحد يهتم بالحديث عنها -في خطابنا الدعوي والفكري- وبيانها، وطرح سؤالاتها، والبحث عن إجابات . .

---

(١) «صورة المرأة في الحديث النبوي»، (ص/ ٣١٤).

ألا وهي: دور المرأة المسلمة الرائد حال تقدمها وكبرها في السن. فالخطاب المطروح في منتدياتنا الفكرية والدعوية، يركز في طرح قضية المرأة علىٰ نَسَقٍ واحد ومرحلة عمرية واحدة: ألا وهي مرحلة الشباب وبداية الزواج، وعدم تناول دور المرأة المجتمعي شديد الأهمية حال كبرها في السن، بعد نضوج أولادها أو زواجهم، واستقرار أمورها الحياتية بعد فترة كبيرة من الزواج، وخروجها قليلًا عن إطار الفتنة الذي يكون في مرحلة الشباب، وتيسير الشريعة لها في بعض الأمور خلافًا للشابة الصغيرة. ولعل هذا الانقطاع الفكري والدعوي عن هذه المرحلة، هو أحد تجليات الحداثة وصورها: الإغراق في اللحظة الراهنة، من دون اعتبار الصورة الكاملة والمراحل المتتالية في حياة المرأة المُسلمة.

ولعله يكون أيضًا لأن أغلب العوائق التي تقابلها المسلمة، تكون في هذه المرحلة شديدة الأهمية، حيث رعاية الأولاد وتنشئتهم، ورعاية الزوج ومتطلباته، وما إلىٰ ذلك.

لكنا نعود فنقول: «إن وجود أدوار تعتبر أساسية لكل من الرجل والمرأة في الحياة، لا يعني أن الإسلام لم يوجد لهما مساحة لأدوار أخرىٰ. فالأدوار التي يقوم بها الرجل والمرأة في الإسلام ليست ذات حدود ضيقة، ولكنها تتسع لتواكب الظروف التي قد تمليها الحياة. ولكن تظل المحافظة علىٰ تلك الأدوار الأساسية ضرورة غير قابلة للتفاوض، والقيام بالأدوار الأخرىٰ يكون منضبطًا وفق تعاليم ديننا الحنيف التي تضمن استقرار المجتمع وطهارته»(١) (*).

---

(١) «**المرأة المسلمة والعلم**»، د.ريم الطويرقي، مقال إلكتروني.

(*) أتصوّر دائمًا هذا المعنىٰ في تعبير بيجوفيتش عن الوظيفيّة الحياتيّة المادّية بين الإنسان والحيوان، فـ «الحيوانات تعيشُ في عالمٍ من الحياتيّة الكاملة، والوظيفيّة المُطلقة»، يقول: «ولا تعلم شيئًا عن المجهول، أو المُقدس، أو الأسرار، أو العبادة، أو التضحية أو الجمال والفن». وفي عالمنا المادي، ومجتمع السوق؛ يُراد للإنسان أن يقبع في تلك الوظيفيّة الحياتيّة المادّية التي يشترك فيها مع الحيوان؛ بشكلٍ عام، وأن يتجه إليها بأفكاره (الفكر المادي) إذا ما طلب لنفسه ولمن حوله =

فلا يخفىٰ علينا أن المرأة المسلمة في هذه السن، تكون أمثل ما يكون لنموذج القدوة، واتساع الخبرات العلمية والحياتيّة، والقرب النفسي من الشباب رجالًا ونساء، ومن ثمَّ إمكانية التأثير الإيجابي في نفوسهم.

وكلما استحضرت تعبير الشيخ الندوي -رحمه الله تعالىٰ- الذي عنون به كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»؛ يقفز إلي ذهني سريعًا التعبير نفسه ولكن علىٰ منوالٍ آخر:

ماذا خسر المسلمون بابتعاد أكثر النساء عن مجال الاشتغال العلمي والثقافي؟!

إن الاشتغال العلمي والثقافي وما يستتبعه من تدريس وتعليم، ليس محصورًا فقط في الجهد الذهني العقلي، أو المكانة العلمية مثلًا، فحسب، بل هو كذلك له جانب مجتمعي شديد الأهمية، لما فيه من التعامل مع الطالبات والحرص علىٰ شمولية العلاقة بين المعلمة وبين الطالبات، بحيث تشمل جوانب حياتهن الاجتماعية وليس العلمية فقط، ومن ثمَّ يتحقق معنىٰ القدوة الحسنة، والفهم السليم لكثير من الأمور الاجتماعية والأعراف، التي تنضبط بالأساس من طريق معرفة أحكام الشريعة، والأفكار السائدة.

= الإلهام والفكر؛ إلا أن الرجل إذا خرق هذه الماديّة واتجه إلىٰ الدين، أو المعرفة الغائيّة، والتأمل، والفن؛ في مجتمعاتنا الإسلامية، فإن ذلك لا يُثير حفيظة المجتمع تجاهه غالبًا؛ لكن المرأة دائمًا مُدانة، إن هي حاولت الخروج عن قوقعتها الماديّة المُحكمة. وربما كان هذا هو السائد أيضًا في وقتٍ ما من تاريخنا الإسلاميّ، في العصر العباسي ثم العثماني؛ لذا يرصد لنا التاريخ في هذه المراحل ظهورًا قويًّا للتصوّف بين النساء، كردة فعل علىٰ الإغراق في الماديّة في أوساط النساء بشكلٍ خاص. وأختم هنا بمقالته -بيجوفيتش- كذلك: «إن أي حل يُغلّبُ جانبًا من طبيعة الإنسان علىٰ حساب الجانب الآخر، من شأنه أن يُعوّق القوىٰ الإنسانيّة، أو يؤدّي إلىٰ الصّراع الداخلي». وهذا تحديدًا ما يتجلىٰ بقوة في أزماننا، كردة فعل للنساء علىٰ حصرهن في الجانب المادّي الحياتي الوظيفي، سواء من ناحية الصراعات الداخلية التي تتمثل في أعلىٰ صورها في الإلحاد ثم في العلمنة والنسوية، أو في أقل صورها في هدر الطاقات النسائيّة، وعدم وضعها في الحُسبان في رُقي المجتمعات الحضاريّ؛ أخلاقًا وفكرًا وعملًا.

فإن «من أبرز سمات العلوم الإسلاميّة المُستقاة من عقيدةِ التوحيد، هي اعتمادها المُتبادل، وترابطها بعضها ببعض، فليس ثمة انفصال بين علوم الطبيعة والمرئيات وعلوم الدين والفنون، ولا توجد كذلك حدود فاصلة تُعيّن نقطة البداية في هذا العلم وأين ينتهي، وهو ما يُفسّر ظهور العدد اللامحدود من العباقرة الموسوعيين في الثقافة العربيّة، علىٰ نحو لا نجد له مثيلًا في الحضارات الأخرىٰ»[١].

وبشكلٍ عام، فإن ثمة موازنةً بين الدور العلمي والدور الاجتماعي للمرأة المُشتغلة بالمجالات العلمية والثقافية، مغفولًا عنها بالكلية؛ لأن الممارسة الحياتيّة تنبُذُ مثل هذه الرؤية الواحديّة[٢]، فالمرأة في بيتها وحياتها اليومية تحتاج إلىٰ وعي عامٍ شرعي وثقافي وعلمي وتربوي، والمرأة في مجال العلم والدراسة تحتاج إلىٰ بُعْدٍ اجتماعي وتربوي مهم جدًّا، كي تعلم كيف تنتفع بعلمها هذا في الواقع العملي وكيف سينتفع به الناس. بل إن منظومة الزواج والتربية عمومًا من أعظم ما ينفع المرأة في إكسابها النشاط والبذل والتفاني، وإرادة نفع الخلق. لكن المهم أن يكون سُلم الأولويات ثابتًا، والتصورات واضحة لا لبسَ فيها.

(٢)

ثمة معضلة أخرىٰ في البحث عن جوابات أسئلتنا، ألا وهي معضلة الزواج والتعليم. فمن المُشاهد والمُقرر لدىٰ كثير منا، أن مناهج التعليم والشهادات الدراسية لم تضف شيئًا ذا بال إلىٰ جوهر روح المرأة وعقلها.

---

(١) «**رحابة الإنسانيّة والإيمان**»، د.عبد الوهاب المسيري، ط. دار الشروق، (ص/ ١٨٩).

(٢) بتعبير د.عبد الوهاب المسيري، أو بتعبير بيجوفيتش: «النموذج المُجرّد، والتجربة المُعاشة».

وفي الحقيقة، فإن تلك الحال لم تختلف كثيرًا مع الرجل؛ والحديث عن فساد المنظومة التعليمية العربية، وقصورها، لهو حديث ذو شجون.

لكن الرجل يضطر بشتىٰ الوسائل إلىٰ التحايل تارة والتعايش تارة، مع هذه المنظومة التعليميّة الفاسدة، حتىٰ يستطيع أن يمهد لنفسه طريقًا في الحياة، في ظل قيم الدولة الحديثة وتغولها، ونظمها البيروقراطية الأشبه برأس ميدوسا! في تعقيداتها وتفرعاتها وكآبة منظرها. أما الحديث عن تعليم المرأة في هذه المنظومة نفسها التي يغلب فسادها، فيشوبه كثيرٌ من المشكلات؛ إذ تنشأ الفتاة ولا همّ لأهلها غالبًا إلا تفوقها في الدراسة، حتىٰ تكون شهادتها الدراسية (سلاحًا) يحميها من غدرات الزمان.

وتتعاطىٰ مع مناهج دراسية منفصلة عن واقعها العمليّ، مخليّة من المبادئ، بل ومن رسالتها الأولىٰ في الحياة؛ «فالأمة الإسلامية تعاني من المرأة المتعلمة المخلية عن مبادئها ورسالتها بقدر ما تعاني من المرأة الجاهلة المستغرقة في الجهل، ولن يكون الحل إلا بالعلم والوعي معًا»[1].

ثم عندما تكون علىٰ مشارف العشرينات، ينتظرون الخاطب، وتجد نفسها مُطالَبة بسَيْلٍ من المسؤوليات والواجبات التي تتعارض مع مصلحتها الشخصية في الظهور والنبوغ والتفوق في الدراسة أو في العمل، وإكمال المسار التي قضت فيه علىٰ الأقل خمسة عشر عامًا من عُمُرها.

وأحسب أن هذا هو أحد الأسباب الرئيسة، التي جعلت كثيرًا من الرجال -ومن النساء كذلك- يرىٰ أن الفتاة المهتمة بالدراسة أو بالتعليم، أو حتىٰ إكمال المسير في الدراسات العُليا في مجال دراستها، هي فتاة لا تصلح للزواج المستقر؛ لأن تطلعاتها ورغباتها في العمل والتفوق الدراسي -وما يستتبع ذلك من استقلال مادي أو معنوي- يجعلها -في ظنونهم- ندًّا

---

(١) «**قراءة في جهاد المرأة ضد التخلف**»، مليكة لدهم، حقوق المرأة وواجباتها في الإسلام، جامعة الصحوة الإسلامية، الدورة الخامسة، نقلًا عن بحث: دور المرأة المسلمة المباشر في تنمية المجتمع: دور المرأة في مجالات التنمية، للباحث النيجيري بنتاواجو، الجامعة الإسلامية.

لزوجها، أو أقل كفاءة في بيتها وتربيتها لأولادها ممن لا تنشغل بأية مسارات أخرىٰ في حياتها.

وتنعكس تلك الصورة نفسها بتناقضاتها علىٰ كثير من النساء في تصورهن لأنفسهن؛ فإما فريق يمجّد العلم والدراسة والتفوّق، ويقلّل من دور المرأة في بيتها، وإما فريق يمجّد من دور المرأة في بيتها لكنه ينفي أهمية الدراسة والعلم والوعي عمومًا، بحسب اختلاف الشخصيات بين المميَّزة في الدراسة أو تلك التي يقل حظها من العلم لكن لها خبرة اجتماعية جيدة.

والحقيقة أن كليهما له حظُّه من الخطأ! لأن الأدوار متكاملة ومتوازنة كما أسلفنا، فالدور العلمي لا ينفصل عن الدور الاجتماعي، ولا ينعزل عنه، والاجتماعي لا غنىٰ له عن العلمي. وهذه عقيدةٌ إسلامية أصيلة، التلازم بين منظومتي العلم والعمل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثواب العظيم للعالِم والمتعلّم، كلٌ بحسب مقدوره وبحسب نيته.

وإذا كان كلامنا يتعلق بالتعليم التابع لمنظمات الدولة، ومساراته، وأزماته التي لا تنتهي، فإن هذه الإشكالات قد تسربت ذهنيًا -من حيث ندري أو من حيث لا ندري- إلىٰ قضية تحصيل العلوم والثقافة عمومًا، حتىٰ في تلك المجالات شديدة الأهمية في العلوم الشرعية والإنسانية؛ بل انقلبت الصورة، فبدلًا من السعي لسد نقص المنظومة التعليمية وفسادها، بسعي تعليمي وثقافي موازٍ، حدث إقصاء أشد لهذه المجالات، نتيجةً لما يُسمىٰ بـ (اقتصاد المعرفة).

ففي مجتمع استهلاكي بامتياز، يتم التركيز علىٰ المجالات والتخصصات الدافعة لحركة الاقتصاد، التي تحقق معدلات ربحية عالية، لا سيما مع تنامي توحش الرأسمالية في عالم السوق، في حين أن كثيرًا من العلوم الشرعية كالفقه والحديث والتفسير والاعتقاد، وكثيرًا من العلوم الإنسانية كالتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وعلوم اللغة ودراساتها؛ تقبع في آخر الصف، بل

ويُنظر إليها بكثير من التهوين والتقليل من شأنها وأهميتها، اللهم إلا في الأُطُر التي تغذي الاتجاه الاقتصادي أو الربحي ومصالحه. ونستطيع أن نشبه هذا برؤية الماديين الذين يقولون بأهمية الأخلاق حتىٰ تسير عجلة الإنتاج بصورة سليمة!

والذي أريد قوله هاهنا: إنه ليس ابتعاد النساء عن مجالات الاشتغال العلمي والثقافي، هو الذي يقيهنّ شر الانشغال عن واجباتهنّ الأساسيّة، لا وليس ذاك الذي يحفظ لهنّ أوقاتهنّ، بل إن هذا الابتعاد نفسه هو معول الهدم الذي يأتي علىٰ أجيالنا ونسائنا شيئًا فشيئًا، وهو ذاك المعول نفسه الذي يحفر الطريق نحو التيه في عالمٍ مفتوحٍ سائل. وليس الحل -كذلك- في نفس الاشتغال العلمي والثقافي فقط، بلْ في تفاعلهما مع الواقع الاجتماعي والأدبي والتربويّ والدعويّ، بحيث تكون هناك علاقة تبادليّة بينهما، فالاشتغال له صلة بالواقع، وتأثير فيه، والواقع يؤثر في جوانب هذا الاشتغال وطرح أسئلته ليبحث فيها، ويجيب عنها. هذه هي المنظومة التي ينبغي أن نحرصَ علىٰ تكميل حلقاتِها شيئًا فشيئًا، والنهوض بنسائنا في مساراتها من دون انتقاص لأهميتها الشديدة، ولا طغيان بها علىٰ سائر صور الحياة وواجباتها.

(٣)

لم تكن هناك حاجة مُلحة في الأزمنة البعيدة[١] للاشتغال الثقافي؛ وذلك لسهولة الحياة وقلة تعقيداتها مقارنةً بأزماننا، لكن مع الانفتاح الهائل للحياة المعاصرة، وفي ذلك المجتمع الرذاذيّ المتناثر الذي يموجُ بالاضطرابات الفكريّة والاجتماعية؛ صارت أهميته عظيمة، لا سيما فيما يخص دراسات

(١) تحديدًا في المجتمعات ما قبل الصناعيّة.

المرأة المسلمة. ولماذا نخص دراسات المرأة المسلمة بالذّكر، ونؤكد علىٰ أهميتها وخطورتها؟

إن الباحثَ والمتأمل في الدراسات النسوية، وفي مختلف القضايا الفكرية المطروحة المتعلقة بالمرأة عمومًا وبالمرأة المسلمة خصوصًا، يجد اتساعًا رهيبًا في رقعة الأيديولوجيات التي تتناول هذه القضايا، مع فراغٍ وخواء في الجانب الإسلاميّ الرصين؛ وإنما قُلتُ: الرصين؛ لأن الفئة التي تطلق علىٰ نفسها (النسوية الإسلامية)، أو (التوفيقيّة)، هم في الحقيقة لم يحققوا نسوية، ولم يتحققوا بالإسلام في نسويتهم المزعومة! وإنما يُساقون زُمَرًا إلىٰ طريقٍ مُقفرٍ موحش، تملؤه العناكب والخفافيش! ألا وهو: تأويل النصوص بغير قواعد التأويل، وتوظيف النصوص في غير مواضع دلالاتها، والانطلاق من (أيديولوجيا) نسوية في متجه النص التراثي الإسلامي.

ومن جهةٍ أخرىٰ، فإن التيارات النسوية تبذل جهودًا حثيثة ومضنية في وضع أطر تأسيسيّة كاملة لمذاهبهم، كما يتم التفاعل مع تلك الأطر الأكاديميّة لتقديمها في مختلف الصور الإعلاميّة والأدبيّة والثقافيّة، بل والتنمويّة والسياسيّة كذلك.

أما في الجانب الإسلامي، فـ «يكاد يغلب علىٰ الكثير من الكتابات الإسلاميّة حول المرأة، الحالة الانفعاليّة والدفاعيّة، المنشغلة بالرد علىٰ الشبهات والإشكاليّات التي تثيرها الأقلام والكتابات غير الإسلاميّة حول المرأة بصورةٍ عامّة، وحول المرأة في الخطاب الإسلامي بصورةٍ خاصّة. وإذا كان مُهمًا الانشغال بهذا النمط من الكتابات، دفاعًا عن الموقف الإسلامي، فإن الأهم من ذلك العمل علىٰ بلورة الرؤية الإسلاميّة المعرفيّة والعمليّة لقضايا المرأة، بعيدًا عن إشكاليّات وحساسيّات الطرف الآخر»[1].

---

(١) «**الإسلام والمرأة .. تجديد الفكر الديني في مسألة المرأة**»، زكي الميلاد، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، (ص/ ٢٤).

إضافةً إلىٰ التشابه بين هذه الكتابات إلىٰ حدٍ بعيد، مع فروق يسيرة؛ فأنت لا تكاد تفرق بين كتابٍ وآخر، وبين المقالةِ وأختها؛ فالكلام نفسه مكرور حدّ السآمة، وسطحية شديدة في التناول؛ والشيء نفسه، ذلك الكلام المنثور في أرجاء مواقع التواصل هنا أو هناك، بما يطبع في ذهن القارئ أن أي مدافعة عن حقوق المرأة هي نسوية أو فيمينيزم، والتهكم الواضح في الوصف بـ (الفيمينزم) يظهر محدودية تصور من يورد هذه الكلمة في كل شاردة وواردة تخص النساء وحقوقهن؛ لأن المذاهب النسوية هي مذاهب علمانية الغاية والوسيلة، وكثيرٌ من طرقها الملتوية وأطروحاتها التي تنطوي علىٰ العداء الصريح للدين، هي طريق مختصر للإلحاد -وملف علاقة النسوية بالإلحاد من الملفات المهمة التي ينبغي أن نتأملها طويلًا.

وإن من المثير للدهشة حقًا، أن المرأة المسلمة نفسها لم تشارك في أكثر الكتابات المتعلقة بقضاياها العلميّة والثقافيّة، بل إن أكثر الكتابات من الرجال، ومن المستشرقين والمستشرقات.

«وتظهر مثل هذه المفارقة حين يستعرض الأستاذ منير شفيق في كتابه التوثيقي (الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات) آراء الإسلاميين المعاصرين عن المرأة، ويشير إلىٰ واحدٍ وعشرين رأيًا للرجال، ورأيين فقط للنساء»[1].

وعن الكتابات الاستشراقية حول المرأة، تقول د.نعمت زرنجي: «كنتُ أتساءل: كيف لنا أن نتوقع من المستشرقين أو غيرهم، أن يكونوا واعين لمفهوم الإسلام للمرأة ودورها، وكيف لهؤلاء أن يتفهّموا الحضارة الإسلاميّة العربيّة بصورتها المتكاملة الكليّة، وهم يرون أن نصف هذه المجتمعات صامت، أو فُرض عليه الصمت؟!»[2].

---

(١) السابق، (ص/ ٢٥).

(٢) «دعونا نتكلم: مفكرات أمريكيات يفتحن نوافذ الإيمان علىٰ عالم مُتغير»، جيزيلا ويب وأُخريات، ط. دار الفكر، (ص/ ١٠).

«لعل أبرز حقيقة يمكن أن نقررها في مجال الحديث عن رؤية الفكر الإسلامي المعاصر لمسألة المرأة، هي أن هذه الرؤية لن تتغير أو تتجدد بالصورة التي تقبل بها المرأة وتنسجم معها، ما لم تساهم هي نفسها في تغيير وتجديد هذه الرؤية، علىٰ الصعيدين المعرفي والعملي»[١].

«ومن الممكن القول إن الفكر الإسلامي قد تأثّر ضعفًا في تكوين رؤيته عن المرأة، بسبب الضعف الذي كانت عليه في التعبير عن رؤيتها الفكريّة والثقافيّة»[٢].

لكل هذا -وغيره-، نؤكد أهمية الاشتغال الثقافي للمرأة المسلمة، وأهمية وجود مساحة إسلامية رصينة من الدراسات حول المرأة في الواقع المعاصر.

ولماذا نكرر ونؤكد أهمية تحصيل العلوم الشرعية، بصورةٍ أساسيّة، مع توسيع دائرة الاطلاع والاشتغال الفكري والثقافي؟

لأن العلم الشرعي أساسٌ وأصلٌ في تجنب الزيغ في تناول قضايا المرأة -وغيرها من قضايا الفكر والثقافة-، وليس من جهة علم الفقه وحسب، حيث أحكام الشريعة المتعلقة بالنساء ومناطاتها، ولكن في أصول الفقه، وفي الاعتقاد، حيث معرفة كيف يتم التعامل مع النصوص بطريقة صحيحة، وكيف نتجنب الاجتزاء الشائه الذي لم يخلُ منه أحد في الساحات الثقافية -إلا من رحم ربي-، والاستفادة من مجمل النصوص الواردة في الباب الواحد، وعدم معارضة الشريعة بعضها ببعض، بأخذ بعض النصوص والاحتجاج بها علىٰ نصوصٍ أخرىٰ، ومعرفة مدلولات النصوص، ولوزام فهمها علىٰ النحو الصحيح.

(١) «**الإسلام والمرأة . . تجديد الفكر الديني في مسألة المرأة**»، زكي الميلاد، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، (ص/ ١٧٩).
(٢) السابق، (ص/ ١٨١).

وفي التفسير وفي الحديث، وأصولهما، وعدم الخلط -غير المقبول تمامًا- الذي نسمعه ونراه في كثير من ساحاتنا الفكرية والثقافية من سوء الاستدلال؛ ومعرفة درجات الحديث، لمشكلة الاستدلال بالأحاديث المردودة، وهي مشكلة منتشرة سواء في الجانب الإسلامي أو في الأيديولوجيات المناهضة له. وما إلىٰ ذلك من أهمية عُظمىٰ لترسيخ أسس العلوم الشرعية في قلوبنا وعقولنا، لتحصينها وتقويتها وتعزيز إيمانها وعقيدتها، أمام هذا الزحف الفكريّ الرهيب، الذي أتىٰ علىٰ أخضر العقول والقلوب، ويابسها.

«إن حال كثير من البيوت اليوم غير حالها بالأمس، فهي اليوم بيوت مُختَرَقة، أشبه ما تكون بنافذة مُطلّة علىٰ العالم، وقد يكون القارّ فيها أكثر اتصالًا بالعالم ممن هو خارجها؛ فالتقنيات وصلت العالم بعضه ببعض، وجعلته كقرية صغيرة تسرع فيها العدوىٰ، ويسهل بين بيوتها التأثير»[1].

«إن هذا الواقع الكوني الجديد قد أصبح يحتم علىٰ مجتمعاتنا الثالثية ضرورة تمنيع الذات وتحصينها وتقويتها»[2].

«فعندما تكون المرأة واعية بدورها، متسلحة بقدر ملائم من المعرفة والثقافة والقدرات والمهارات الفنية، وغيرها؛ يقل خطر وسائل الإعلام في التأثير سلبًا علىٰ المحيط الاجتماعي الذي تتفاعل في داخله هذه المرأة، وتعيش فيه عدد من الصراعات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة»[3].

«فالجمع بين العلم الشرعي والثقافة المعاصرة عملة نادرة، وأهل هذا الجمع هم المؤهلون للتأثير العميق في هذا العصر بعد توفيق الله، وهم

(١) مقال: «**القرار في البيوت الخربة**»، د. سامي بن عبد العزيز الماجد، مؤسسة الإسلام اليوم.

(٢) «**المسألة النسائية وتحديات التعليم والتنمية البشرية**»، (حوار مع الباحث السوسيولوجي: مصطفىٰ محسن)، حوار إلكتروني.

(٣) «**المرأة ودورها في التنمية الاجتماعية**»، عليان القلقيلي، (ص/ ٤)، نقلًا عن الباحث النيجيري بانتاواجو.

المؤهلون لتحقيق مراد الله بتحكيم الشريعة في مسائل المعرفة والعلوم المُعاصرة، وتحرير مسائل العلوم الحديثة في ضوء الوحي»[١].

وأختمُ -نهايةً- بهذه الطرفة التي أتداولها مع صديقاتي، حينما نجد أصواتًا نسائية مناهضة لبذل الجهد في التعلم، والمشاركة في قضايا الأمة بما تستطيع وتُحسن؛ وهي نصيحة لكل امرأة: ألا تكون (حماة وجوديّة) في سبيل العلم والثقافة.

فإذا ما افترضنا وجود قهرٍ أو عداء حقيقي ضد المرأة، فإن الصورة المتبادرة إلىٰ الذهن غالبًا أن يكون الرجل هو الطرف المقابل، الذي أسس هذا العداء أو القهر.

لكن هذا التصور به قدر كبير من الغلط، وسوء الفهم؛ إذ إن طائفة كبيرة من النساء أنفسهن يتبنين قيم هذا العداء وفرضياته.

وقياسًا علىٰ أدبيات المعضلة المصرية الشهيرة، بين الحماة وزوجة الابن، فيمكننا أن نقول إن لكل امرأة من النساء حماة (فكرية) أو (وجودية) ليست من النسب، تستطيع أن تناهضها تمامًا فيما تدعو إليه أو تقوم به، وفي تصوراتها وقيمها، علىٰ الرغم من تشابه أدوارهما وآلامهما في الحياة إلىٰ حدٍ بعيد، في الغالب.

لذا فنصيحتي الأخوية لسائر النساء المسلمات:

أرجوكِ .. لا تكوني (حماة وجودية) في هذا السياق!

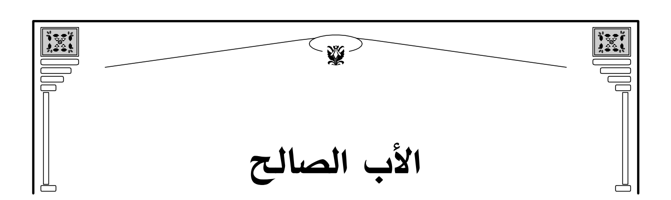
هذا، وإني لأرجو الله تعالىٰ أن يتقبل ذلك وأن ينفع به، وأن يغفر لي خطئي وتقصيري فيه.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ وهو رب العرش العظيم.

والحمدُ لله رب العالمين.

---

(١) «**مسلكيات**»، إبراهيم السكران، ط. مركز تفكر للبحوث والدراسات، (ص/٤٦-٤٨) باختصار.



الأب الصالح

كمال اليماني(*)

لا شعوريًّا احتضنته قائلًا: يا ولدي!

رغم سروري بثقته فيَّ، واطمئنانه لأنْ يقص عليَّ أمَره؛ إلَّا أنَّي حزنت لما أصابه. أول ما رآني جرىٰ مسرعًا وفي عينيه شكوىٰ، طأطأت رأسي لأستمع له بدون طلب منه، وبدون طلب مني قال: «أمس ضُرِبتُ ضربًا شديدًا بسبب موقف ما -حكاه لي- وبعدما ضُرِبتُ ظهر أني لم أخطئ. قالها مبتسمًا راضيًا بهذه النتيجة».

فاحتضنته معتذرًا مواسيًا قائلًا: يا ولدي!

ذكرني هذا الموقف بآخر، لطالب كان في الصف الرابع الابتدائي، وقد ضاع منه كتابٌ ظَلَّ لأجله يجوب المدرسةَ كلها باكيًا مستنجدًا بمن حوله، ودموعه لا تتوقف وهو يقول: «أمي هتضربني»!!

(*) كاتب مصري، ليسانس لغة عربية وعلوم إسلامية.

* صدر له سابقًا:

- يا أبتِ اسمع مني
- في الحياة .. حروف وكلمات منها جمل حياتنا.
- رواء في زمن الجدب.

وظل علىٰ هذه الحالة أسبوعًا كاملًا . . حتىٰ أشفق عليه كلُّ مَن رآه، كنت أسير معه وأقول للطلاب: ارفقوا بقلب هذا الصغير . . ابحثوا معه . . وهو يقول: «إيش ذنبي! أنا ما قصرت!!، الله أراده أن يضيع»! ثم ييأس فيكفّ عن البحث؛ ثم يجدون الكتاب المفقود في البيت، وقد فات الأوان، وعوقب الطفل علىٰ جُرم لم يرتكبه، ولا يزال ينتظر اعتذارًا ولكن . . هيهات هيهات!

يحدث هذا -وأكثر منه- حينما يتسرع الآباء في معاقبة الأبناء دون تثبت وتريث! وليتهم يعتذرون بعد ظهور خطئهم، لكنَّهم يتعالون، بل ويدلسون ليواروا عيبًا ما يواريه إلا الاعتذار، ولربما رددوا قائلين: «شوفت؟ خليتنا نضربك»؟ هكذا يفعلون!!، هم فقط يقولون بلسان الحال: «نعتذر؛ فإننا . . نرفض الاعتذار».

مع ما للاعتذار من قيمة سامية، وشجاعة أدبية عظيمة، مع ما يبنيه من جسور للاحترام، مع ما يثمره من ثقة في عدالة من حواله، مع ما يزرعه فيه من جرأة لقول الصدق، ثم هو لا يسقط من قيمة المرء مطلقًا، بل يعلو به؛ مع كل هذا وأكثر . . فإننا لا نحرص عليه!

رغم حرص المُربّي الأول عليه وكذلك صحابته الأبرار، فعن أبي رافع بن خديج قال: قدم النبي ﷺ المدينة، وهم يأبرون النخل. يقولون يلقحون النخل. فقال: «ما تصنعون؟»، قالوا: كنا نصنعه. قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا لكم»، فتركوه. فنفضت، أو فنقصت. قال فذكروا ذلك له فقال: «إنَّما أنا بشر! إذا أمرتكم بشيء من دينكم؛ فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي؛ فإنَّما أنا بشر»، وفي بعض الروايات قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم». من سياق الحديث يتضح لنا بشرية النبي ﷺ، وأنَّه يخضع للأحوال التي تعتري البشر من النسيان والخطأ وغير ذلك. أما في مقام التشريع فلا يجوز عليه ذلك، نعم قد يحصل منه نسيان في مقام التشريع لكي يشرع للأمة، كما سلم من ركعتين في صلاة رباعية، فلما أخبر بذلك قام وأتىٰ بالباقي وسجد

سجدتين للسهو، ومحل بسط ذلك في كتب الأصول. الحاصل أنَّ النبي ﷺ بيَّن أنَّه بشر وأنَّ رأيه في الأمور الدنيوية التي ليس فيها تشريع قد يصيب، وقد يخطئ. قال النووي: «قوله: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**». قال العلماء: قوله ﷺ: «**من رأيي**»، أي: في أمر الدنيا، ومعايشها لا علىٰ التشريع. فأما ما قاله باجتهاده ﷺ ورآه شرعًا؛ يجب العمل به، وليس إِبَارُ النخل من هذا النوع بل من النوع المذكور قبله . .» ولو أنَّنا أعدنا النظر إلىٰ سياق الحديث مرة أخرىٰ؛ فإنَّنا لا نجد فيه أنَّ النبي ﷺ حاول أن يجد لنفسه العذر عندما رأىٰ هذا الرأي -وحاشاه ذلك -بل اعترف ببشريته، وأنَّ هذه الأحكام تجري علىٰ البشر.

وتعالوا بنا لننظر إلىٰ صحابة رسول الله ﷺ لنرىٰ كيف ترسموا خطىٰ نبيهم ﷺ، فمن ذلك:

* ما رواه مسرق، قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ، ثم قال: «أيها الناس ما إكثاركم في صدق النساء، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم. فما دون ذلك. ولو كان الإكثار في ذلك تقوىٰ عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة علىٰ أربعمائة ردهم». قال: ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: «يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء علىٰ أربعمائة درهم»، قال: نعم، فقالت أما سمعت الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ الآية. قال، فقال «اللهم غفرًا، كل الناس أفقه من عمر». ثم رجع فركب المنبر فقال: «أيها الناس إنِّي كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن علىٰ أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب».

* عن محمد بن كعب القرظي قال: سأل رجل عليًّا بن أبي طالب عن مسألة فقال فيها، فقال الرجل: «ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا كذا»، فقال علي رضي الله عنه: «أصبتَ وأخطأتُ، وفوق كل ذي علم عليم». الله أكبر! . . انظر إلىٰ تلامذة محمد ﷺ، يضربون أروع الأمثلة في الشجاعة،

والإنصاف، ولو كان علىٰ حساب النفس، وهذا والله ليزيد المرء عزًّا ورفعة، ولا ينقص من قدره شيئًا، ومن ظن غير ذلك فقد حاد عن جادة الصواب. صلىٰ الله وسلم علىٰ نبيه محمد، ورضي عن صحابته أجمعين.

يقول د. جاسم المطوع: «أثناء تقديمي لإحدىٰ الدورات الخاصة بالرجال، لاحظت رجلًا قد تغير وجهه، ونزلت دمعة من عينه علىٰ خده، وكنت وقتها أتحدث عن إحدىٰ مهارات التعامل مع الأبناء، وكيفية استيعابهم، وخلال فترة الراحة جاءني هذا الرجل وحدثني علىٰ انفراد قائلًا: «هل تعلم لماذا تأثرت بموضوع الدورة ودمعت عيناي»؟ قلت له: «لا والله»! فقال: «إنَّ لي ابنًا عمره سبع عشرة سنة، وقد هجرته منذ خمس سنوات؛ لأنَّه لا يسمع كلامي، ويخرج مع صحبة سيئة، ويدخن السجائر، وأخلاقه فاسدة، كما أنَّه لا يصلي ولا يحترم أمَّه؛ فقاطعته ومنعت عنه المصروف، وبنيت له غرفة خاصة علىٰ السطح، ولكنَّه لم يرتدع، ولا أعرف ماذا أعمل! ولكن كلامك عن الحوار، وأنه حل سحري لعلاج المشاكل أثر بي، فبماذا تنصحني؟ هل أستمر بالمقاطعة أم أعيد العلاقة؟ وإذا قلت لي ارجع إليه فكيف السبيل»؟ قلت له: «عليك أن تعيد العلاقة اليوم قبل الغد، وما فعله ابنك خطأ، ولكن مقاطعتك له خمس سنوات خطأ أيضًا، أخبره بأن مقاطعتك له كانت خطأ، وعليه أن يكون ابنًا بارًّا بوالديه ومستقيمًا في سلوكه»؛ فرد علي الرجل قائلًا: «أنا أبوه . . أعتذر منه؟! نحن لم نتربَّ علىٰ أن يعتذر الأب من ابنه»! قلت: «يا أخي، الخطأ لا يعرف كبيرًا ولا صغيرًا، وإنَّما علىٰ المخطئ أن يعتذر»؛ فلم يعجبه كلامي، وتابعنا الدورة وانتهىٰ اليوم الأول، وفي اليوم الثاني للدورة جاءني الرجل مبتسمًا فرحًا ففرحت لفرحه وقلت له ما الخبر؟، قال: «طرقت علىٰ ابني الباب في العاشرة ليلًا وعندما فتح الباب قلت له: يا بني إني أعتذر من مقاطعتك لمدة خمس سنوات، فلم يصدق ابني ما قلتُ، ورمىٰ رأسه علىٰ صدري وظل يبكي؛ فبكيت معه. ثم قال: «يا أبي أخبرني ماذا تريدني أن أفعل؛ فإني لن أعصيك أبدًا».

وكان خبرًا مفرحًا لكل من حضر الدورة.

إن الأب إذا أخطأ في حق أبنائه ثم اعتذر منهم؛ فإنَّه بذلك يعلمهم الاعتذار عند الخطأ، وإذا لم يعتذر؛ فإنَّه يربي فيهم التكبر والتعالي من حيث لا يشعر .. آه لو يدرك الآباء، أن أولادهم وإن كانوا صغارًا في العمر، لكن تسرعهم عليهم، وغلظتهم لهو ممَّا يُسرع بهم نحو مشيب قلوبهم!! آه لو يدركون!

وأقبح من هذا، رجل قد مَنَّ الله عليه بذرية طيبة؛ فكان منه إهمالها، بزواج أو سفر طويل لا إياب فيه، فلا يعرفهم ولا يعرفونه، لا يربطه بأولاده إلا أوراق ثبوتية، يتامىٰ رغم حياته، تتبعثر الآهات أشلاءً في عيونهم، في وجدانهم الذي افتقدوا فيه معنىٰ الأمان والاحتواء والثقة وكل ما تحمله الأبوة من مفردات. هم يكرهونه، لكنَّهم لا يستطيعون البوح خوفًا من عقوق يتوهمونه في أبٍ لا يعرفونه.

* كم مرة جلسوا معه وقد بلغوا من السنين مبلغًا؟ ثلاث جلسات؟ أربع؟ يا له من أب قامت أبوته علىٰ أيام معدودات!

* كم مرة تبسم لهم؟ كم مرة حامىٰ عنهم؟ كم مرة عطف عليهم؟ كم مرة صانهم؟ كم وكم وكم ..

* أضاعهم ويطلب حفظهم له!، أهانهم ويطلب صيانتهم له!، عقهم ويطلب برهم!، قتلهم ويطلب منهم حياته في قلوبهم!!

لكأني به عند موته يطلب دعاءهم، لكأني به يطلب مسامحتهم، لكأني بهم يرفضون الدعاء له، والعفو عنه، يذهل من رفضهم، لكنَّهم بقلوبٍ لا أب فيها يصرخون في وجه قاتلهم: «عفوًا أبي .. أنت السبب».

أيُّ حروف تلك، بل أي قواميس يمكنها أن تعبر عن مشاعر طفل يعلم أن والده ما زالت تتردد أنفاسه، لكنَّه لا يوقن بحياته!

حين كنت في المرحلة الإعدادية مررت بموقف لا أنساه ما حييت، كان

في صبيحة أحد الأيام التي لا تُنسىٰ، دخل علينا مختص يجمع أسماء الطلاب الذي فقدوا آباءهم فأصبحوا يتامىٰ، كانت جملته التي قالها أشد قسوة من تفاصيلها في حياة هؤلاء المقصودين بقوله: «اليتيم يقف». وقف علىٰ إثرها زميل لي أعرف يقينًا أن والده علىٰ قيد الحياة، أذهلني وقوفه بثبات لا تردد فيه، ثبات جعلني أشك في معرفتي بحياة والده.

ما لم أكن أعرفه أن والده كان قد تزوج بأخرىٰ غير والدته؛ فبات وكأنه لا يعرفهم، وهم حقًّا لا يعرفونه، وآخِر ما يذكره عنه في ذكرياته أنه أبوه؛ ممَّا جعله يوقن بوفاته، ولم لا، وهو لا يجد دليلًا علىٰ حياته.

في لقطة أخرىٰ تشبه هذه، يحكي لي طالب جامعي مأساته قائلًا:

- عشر سنوات مرت علىٰ البعد .. وإني لأرجو أن يسامحني أبي إذا ما نسيت بعض ملامحه، فإني عند سفره للعمل خارج الوطن؛ كنت لم أبلغ العاشرة بعد!!

* محظوظون أولئك الذين يتمتعون بملامح آبائهم يوميًّا .. ولو عبر برامج التواصل!

- مالك؟

= **لا مفيش!**

- لا، شكلك قلقان وحيران!

= **لا أبدًا، أكيد من فرحتي برجوع حضرتك بس!**

هكذا سألني .. وهكذا أجبته.

كان هذا أول لقاء يجمعنا، بعد عناق الرجوع وآهات الاحتياج، بكيت بين أحضانه كثيرًا كثيرًا، كنت في احتياج لا يوصف لحضنه كي أعالج به خواء الروح بداخلي، كنت قبل عودته أشعر بلفح الهواء يحطم صدري، كنت أحتاج لمناعة قوية، وقد وجدتها حينما ارتميت في أحضانه.

نعم ...

أنا الآن في ريعان الشباب، في قوته وفورته، يكتمل عقلي رويدًا رويدًا، لكنني في الحقيقة لا زلت أحمل مشاعر وأحاسيس الطفل بفرحته وانبهاره وقت عودة والده إلىٰ البيت، يظل يتقافز ويزحف تجاهه، يقوم تارة ويهوىٰ تارات، يرفع يديه وعينيه تجاه والده راغبًا في أن يحتضنه حاملًا له، مقبّلًا خديه، ماسحًا رأسه.

أحتاج إلىٰ هذه الطفولة بكل تفاصيلها، خذوا ما تبقىٰ من عمري وأعيدوا إليَّ تلك التفاصيل، أعدكم أنَّني سأسامح في كل دمعاتي التي قضيت كثيرًا من الليالي أذرفها دون قدرة علىٰ التوقف إلا بحلول ذلك الصداع الذي كان يؤرق أيام تلك الليالي، فقد وجدت اليوم اليد التي كانت أنتظرها لتمسح تلك الدموع.

سأظل ممتنًّا لتلك الظروف التي أعادت لي والدي، وإن كانت تحمل الكثير من الألم لمرض أمي!! .. لقد اكتشف والدي حيرتي وقلقي بكل سهولة، رغم محاولتي التظاهر بالتماسك ..

ربما أكون معذورًا في هذا ..

فلا أدري هل يحب أن آكل معه؟ أم أنتظره؟

هل تعجبه طريقة أكلي؟

هل أجلس قبله؟ هل أجلس أمامه؟ أم بجواره؟

ماذا ألبس في حضرته؟

كيف أتكلم؟

هل يحب الصوت القوي الواضح؟ أم الذي لا يكاد يُسمع؟

بماذا أناديه؟

هل أحدثه عن دراستي أم لا؟

هل أضحك أمامه .. أمزح .. أخرج .. أدخل؟!!

بتُّ أول ليلة بعد حضوره مقيّدًا، تطحنني الأفكار وتذهب بي وتجيء، أشعر بوحشة وحيرة وقلق، ويدور بذهني كثير من الأسئلة التي لا إجابة لها

قبل جلوسي معه لأول مرة منذ أن سافر وأنا طفل لم تنقش ملامحه وتفاصيله في جدران ذاتي . . هممت كثيرًا أن أحدثه أنَّه لا شيء يعوضني عن غيابه، هممت كثيرًا أن أعاتبه كأشد ما تكون المعاتبة، لكنني قلت لنفسي: «كل هذا يهون؛ ما دام قد عاد أبي»!!

إلَّا أنَّه لم تدم فرحتي طويلًا، فما كاد يمر اليوم الأول لعودة أبي، حتىٰ زاد مرض أمي عليها، وزاد خوفي وقلقي عليها حتىٰ نسيت كل ما يحيط بي من أشخاص وأحداث إلا هي، فهي دنياي وروحي التي تسكن أنفاسها.

يدخل الطبيب، ويخرج والقلق بادٍ علىٰ وجهه:

طمنا يا دكتور!

خير!

سترك يا رب!

طب إيه العمل؟!

كلام كثير وأصوات مختلطة، أوضحُ ما فيها صوتُ سيارة الإسعاف. تتلاحق الأحداث بشكل مرعب، صراخ وبكاء . . انهيارات . . أصوات تلهج بالدعوات . . أطباء يتهامسون، يشيرون علىٰ مَن معهم بالمساعدة . . تحركات هنا وهناك داخل غرفة الطوارئ وخارجها، قياس النبضات . . صدمات كهربائية . . ثم . . يخرج الطبيب منكّس الرأس:

- البقاء لله!!
- أنت تكذب! أنت لا تفهم شيئًا!
- ابحثوا لي عن طبيب آخر . . بل هيا إلىٰ مشفىٰ آخر . .
- لا تهدئوني . . سأمزقه، أنا لا أصدقه، اتركوني . . اتركوني . .
- أمي! أمي!
- أنا أثق أنها مجرد غيبوبة أو ربما إغماءة وستفيق، والله سترد علي . . والله سترد عليَّ!!

لكنها . . ولأول مرة . . تخذلني فلم تردّ!!

لقد ماتت إذن . . أيّ طعم للحياة دون حياتها، ألهذا الحد دنيانا قاسية!

لم يبَق لي من وجوه الناس إلا وجه أبي، فالحمد لله أن عاد في الوقت المناسب. أو . . هكذا منيتُ نفسي!! . . وما هي إلا أيام معدودات حتىٰ عاد كل شيء كما كان . .

عدتُ وحيدًا، فقد أصر والدي علىٰ السفر مرة أخرىٰ، هناك مجتمعه الذي عرفه، هناك وطنه الذي يأوي إليه، ولعله إذن قد جاء زائرًا، أو ليدرك اللحظات الأخيرة في عمر الصبر والتضحية والحنان، أو ربما ليذكرني أنني لا زلت أحتفظ بأب علىٰ قيد الحياة.

عاد . . وعاد كل شيء كما كان . . إلا أمي . . لم تَعُد . . ولن تعود!!

ما كان الأول يمنع أباه من زواجه، ولا يعارضه فيه، ولا يكره بيت أبيه الثاني، كل ما في الأمر أنَّه أراد أن يحظىٰ بشيء من والده، أن يكون له أسرة يحتويها أب، كما للآخرين، وذلك حق لا مرية فيه.

كذلك الثاني، والذي كان شاكرًا ومقدّرًا للتضحيات؛ إلَّا أنها جاوزت الحد؛ فأفقدته أجلّ المعاني التي لا يحل محلها ولا يعوضها مال ولا جاه.

ولعمري، لست أدري . . لماذا يصر بعض الآباء علىٰ قتل البر في نفوس أبنائهم، وقتل الود كذلك فيما بين بعضهم البعض؟!

إنهم يزرعون كثيرًا من الخير، لكنَّهم يتركون آفة الحقد تهلك الزرع كله؛ فلا يجدون ما يحرثونه.

ماذا عليهم لو أخذوا بأيدي أبنائهم جميعًا دون تجريح؟ دون تحريش بينهم وبين إخوانهم؟!

ماذا عليهم لو يكافئون المجتهد من أولادهم دون أن يصيبوا قلبه بآفة

التعالي والكبر، والنظر إلىٰ أخيه المقصر نظرة الدون؟! أو أن يصاب قلب هذا المقصر بأدواء النفس تجاه أخيه؟!

الغيب لا يعلمه إلا الله، ولا يدري والدٌ مَن مِن أبنائه سيُذكر به! مَن مِنهم سيجلب الدعوات له .. والرحمات عليه! لم لا يسعىٰ الأب إلىٰ أن يكون جميع أبنائه له!

* في حادثة مؤلمة هزت أرجاء أحد البلاد العربية، قتل أحدهم أخاه في لحظة غضب من شدة معايرة والده له بأن أخاه أفضل منه، كان في مجمل ما قال: «أنا أحب أبي بشدة، وأحب أخي كذلك، ولا أتصور بحال أنني في يوم من الأيام سأصل لمثل هذه الحالة السوداء من الحقد، ليس هناك ما يدفعني لأن أفقد أخي وأبي .. بل حياتي كذلك. كل ما هنالك أنه يعز عليّ أن أقف من أخي موقفًا لا ذنب له فيه، أخشىٰ أن لا أقوىٰ علىٰ الصبر والتحمل كثيرًا .. إنَّ أبي يحبني كثيرًا، عمره كله الذي بذله لي ولإخوتي ينطق بأقوىٰ دلائل هذا الحب، وأنا أوقن أن الذي يدفعه لمعايرتي بأخي شدة حرصه عليّ؛ إلا أنها شدة قاتلة .. ومن الحب ما قتل!. وددت لو رأىٰ أبي دموعي المنهمرة كلما تذكرت معايرته لي في كل موقف بأخي أو بغيره من الأصحاب!، آه لو يسمع أنين قلبي المكسور من نظراته!، أصبحت أحب العزلة جدًّا، لم أعد أطيق الجلوس علىٰ محطة انتظار الاحتواء، كل لحظة صرت أخشىٰ ما تحمله لي من المفاجآت، بل كل اللحظات معهم صارت مخيفة، تقتلني نظرة الشموخ في عين أخي، لا يحزنني تفوقه، بل يسعدني، إلَّا أن ما تتكلم به عيناه يقتلني».

كلما قرأت ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾. أقول في نفسي: دبروا للفتك بأخيهم، لكي تكون ساحة الود لهم وحدهم، ودافعهم شدة حب والدهم لأخيهم .. فقط: شدة الحب! فكيف لو كان مصحوبًا بالمعايرة والتجريح؟!

ربما يصيبني بعض السوء؛ فأتكتم عليه خشية أن أقع تحت وطأة التندر

والتجريح والمعايرة، ثم لا أظفر بنصرة، فالكتمان أفضل، فإن حقوقي ضائعة في كل الأحوال، غير أن بعض الشر أهون من بعض».

آه لو يدري الآباء بما يعتمل في قلوب أبنائهم من جراحات؟ . . تلك حياة أشبه بعدم، بل هي عدم محض، وأي حياة تلك التي تقسو الروح فيها علىٰ نفسها، علىٰ محبيها، علىٰ من يتنفسونها ويعيشونها.

مساكين أبناؤنا . . يولدون حالمين فنزرع اليأس فيهم مغلفًا بالأمل . . يسيرون خلفنا حذو القذة بالقذة، ولو إلىٰ جحر ضب، تخدعهم الثقة أننا لا يمكن أن نوردهم موارد الهلكة.

إنني ألوم علىٰ الآباء وبعض أولياء الأمور، تجدهم يقتلون أبناءهم حتىٰ يصلوا بهم إلىٰ أشد مراحل العند (الكفر)، بسبب شيء يحصل من الأبناء تقصيرًا أو غفلة، فتجد الأب أقسىٰ ما يكون علىٰ بنيه، في حين تجده ألين وأرق ما يكون مع فاعل نفس الأفعال، وربما أشد، لكن مع غير بنيه، أيها الحنون . . ولدك وبنتك أولىٰ برقتك ولينك.

* الأمر حرج جدًّا، وإن بدا في ظاهره غير ذلك، إن للآباء تطلعات لا يعكسها واقع الأبناء، كل ما حولك قد تغير، ليس هذا الزمان هو ذاك الذي عشته أنت، لم تعد أدوية التربية صالحة لاستعمالها في أدواء الجيل الحاضر، الفجوات تزداد يومًا بعد يوم، الأرحام وإن قربت بين مواقعها وسائل الاتصال الحديثة إلا أنها أصبحت خارج التغطية، شبكات الود صارت مهترئة، والجمود سيقضي علىٰ ما تبقىٰ من أواصرها، كل ما حولك لم يعد علىٰ حاله الأول!

خـاتـمـة:

ما دونته في كلماتي هذه، ما هو إلَّا غيض من فيض، من واقع مرير يحياه بعض الآباء والأبناء، واقع لا يعكس فيه حال الأبناء تطلعات الآباء، ولا عجب؛ فقد تغير الزمان عما كان يوم أن كان الآباء أبناء.

كثرت الفتن وتنوعت، تمزقت أواصر كثيرة، تعددت الآمال والطموحات، تشعبت الأفكار والأطروحات، فما كان هناك لم يعُد هنا.

* غاية ما نريده من كل أب؛ صرامةً في غير شدة، وليِّنًا في غير تهاون أو دلع، وحماية بلا إفراط، وتوجيهًا دون فرض اختيار، ومراقبة لا تصنع منافقًا، ونعوذ بالله من إهمالٍ يصنع يتيمًا والده علىٰ قيد الحياة.

* لا نريد نسخة أخرىٰ، ولا إنسانًا بقدراتِ آخر، بل نريد إنسانًا حرًّا لا مرغمًا، نريد إنسانًا جديدًا للحياة، يضيف إليها، إنسانًا تضاف إليه الحياة، لا إنسانًا يُضاف إلىٰ حياة غيره.

* دع الطفل يحبو بين يديك، فإذا ما وقف فليتكئ علىٰ ساعديك، فإذا ما سعىٰ وحاذىٰ منكبيك، فلتكن له صديقًا، وإن أفضل الأصدقاء مَن غض الطرف ليبقىٰ الحب طليقًا.

أيها الأب الكريم ..

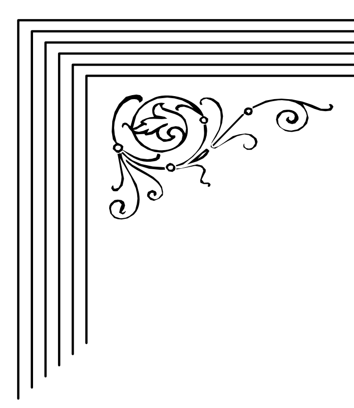
* ابنك ليس أنت، زمانك ولَّىٰ بزمانه، ما تأمله منه محاط بما ترىٰ، فاقبل منه أن يختلف عنك، وجدّ في أن تعيش في زمانه، وذلل له ما يراه من صعوبات لتحقيق حلمك فيه!!

أيها الأب الكريم ..

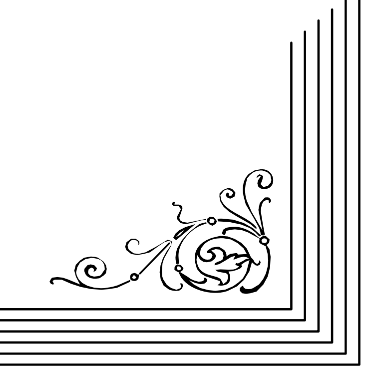
كان يسيرًا أن أضع لك نقاطًا عن صفات الأب الصالح، لكنني آثرت أن أكون واقعيًّا بعض الشيء، آثرت أن ترىٰ بعيني قلبك كيف ستؤول الأمور ما لم يكن الأب صالحًا، كما قد رأيتها وعايشتها ذاتًا وروحًا.

ما أسهل أن نكتب ونبوِّب! ما أيسر أن نتمنىٰ ونحلم بأبناء صالحين! ما أجمل أن نُرزق بهم حقًّا علىٰ ما نحب!!

لكننا نحتاج إلىٰ عمل كثير؛ كي تتحول الأفكار إلىٰ واقع ملموس، نحتاج أن نعمل؛ لنصيب أحلامنا ونفوز بما نتمنىٰ في أبنائنا، نحتاج أن نكون صالحين؛ ليبقىٰ لهم أثر الصلاح ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾.



خارج الحدود





«فصل في أسفار بلاد المساء»

✍ **أحمد محمود طه(*)**

«السفر قاتلٌ للتحامل والتعصب وضيق الأفق». مارك توين.

«العالم أشبه بالكتاب، والذين لا يسافرون يكتفون بالصفحة الأولىٰ فقط». القديس أوغستين.

«نفع السفر الأكبر؛ هو تنظيم الخيال بالواقع، وبدلًا من التفكير فيما قد تكون عليه الأشياء؛ رؤيتها كما هي». صامويل جونسون.

«المسافر بلا ملاحظة، كالطائر بلا جناح». سعدي الشيرازي.

ومما عُزي للإمام الشافعي:

تغرَّب عن الأوطان في طلب العُلا ... وسافِرْ ففي الأسفار خمسُ فوائدِ

فتفريج همٍّ واكْتسابُ معيشةٍ ... وعلمٌ وآدابٌ وصحبةُ ماجدِ

تظل روح الإنسان حبيسة نفسه وأفكاره وتصوراتها ما قيَّدَ مكانها بالسلاسل، فإذا سافر وقطع البلاد والأقفار والبحار؛ أطلقها ... ومُشاهد في معارفنا وأوساطنا أن اعتياد السفر وكثرة الترحال يصحبهما طفرة في نمط الشخصية وعمق الفهم.

فيما يلي محاولة مني متواضعة لفهم هذه الطفرة وأسبابها وتحليل مدىٰ حاجة الفرد منا لتجربة السفر وكيفية خوضها علىٰ النحو الأمثل.

(*) باحث طبي في علوم الأعصاب، ومترجم مصري، ولد بألمانيا الاتحادية ويقيم بها.

ينبغي أولًا أن نلتفت إلىٰ ظاهرة لا تخفىٰ علىٰ أحد في حالة الانتكاسة العربية العامة التي نعيش إحدىٰ أسوأ فتراتها، وهي أن فكرة السفر -بغية العمل والاستقرار في الخارج-طاغية علىٰ الأغلبية الكاسحة من الشباب حديثي التخرج والدارس علىٰ حدٍّ سواء، بل وأحيانًا حتىٰ بين الشباب الذين استقروا بضع سنين في أعمال، وربما بعض المتزوجين أيضًا. ودافع هؤلاء معلومٌ ومفهوم، ولا ينكره عليهم -علىٰ إطلاقه- إلا جاحد ظلوم، لكن مفهوم السفر الذي أرمي إليه في هذه المقالة؛ أشمل وأوسع كثيرًا من هذا الدافع.

أنا أتحدث عن السفر كتجربة حياتية ضرورية لأجل تكوين شخصية ناضجة تنظر إلىٰ الحياة بعين واعية، وليس مجرد جسر إلىٰ حياة «آمنة» مريحة، وشتان ما بينهما.

ومن ثَمَّ أقول: إنه من الخطأ الكبير اعتبار السفر بالنسبة لمن أتيحت لهم حياة مستقرة في بلادهم بغير أن يتكلفوا مشقته؛ مجرد رفاهية إضافية لا ضرورة لها.

وكذا نلفت إلىٰ أن سفر السياحة القاصر علىٰ زيارة الشواطئ المشهورة والمزارات ومقاصد عموم السياح، والخالي من الاحتكاك المباشر والكثيف بأهل البلد وشبابها وتكوين الصداقات وتبادل الخبرات، ليس داخلًا في مفهوم السفر الذي نقصده هاهنا ونتحدث عنه، بل لا يعتبر به كإضافة إلىٰ الخبرات إلا بقدر الاتصال الذي وقع فيه بأهل البلد الحقيقيين، وليس العاملين في قطاع الإرشاد السياحي والخدمات، أو السياح الآخرين.

إنما أقصد السفر الذي يحوي المكوث الطويل نسبيًّا -شهرًا فما فوق- في أماكن إقامة أهل البلد الطبيعية -وليس في الفندق-، وإن كانت الإقامة فيما يعرف بنُزُل الشباب «هوستل Hostels» -وهي صالات تستأجر فيها سريرًا في غرفة للمبيت مع آخرين لا تعرفهم يستأجرون أسرة كذلك، قد تصل الأسرَّة في الغرفة الواحدة إلىٰ اثني عشر -قد يصحبها تبادل حثيث مكثف بين شباب هم في نفس عمرك -غالبًا- ومسافرون عابرون للبلاد أيضًا، علىٰ أن تكون هذه

مرحلةَ بدايةٍ فقط، تتلوها إقامة عادية كمثل ما يقيم أهل البلد.

والذي يمضي في هذا الطريق يدرك حقيقةً جلية أول ما يمضي، وهي أن العالم شاسع علىٰ نحو يفوق قدرة المرء علىٰ التصور والخيال أحيانًا، فمِنْ أدغال البرازيل الاستوائية وقبائلها، إلىٰ صحاري ووديان غرب الولايات المتحدة، إلىٰ جليد سيبيريا، وجزر ماليزيا، وكوكب اليابان، وشبه القارة الهندية، وغرائب الصين، وحتىٰ وسط وجنوب القارة الأفريقية -التي نجهل فيها أكثر كثيرًا مما نعرف-، كل هذه وأضعاف أضعافها هي ساحات مجهولة تمامًا بالنسبة للواحد منا.

ووراء كل بقعة من بقاع العالم التي لا تحصىٰ، قصص وثقافات وتاريخ وأفكار وأعراف ومفاهيم ومعان قد تحتاج أسابيع لتسبر أغوارها وتقف علىٰ حقيقتها، وهنا يبدو عمر الإنسان قصيرًا جدًّا، لا يكاد يكفيه لينهل من عشر معشار هذا البحر الهائل، لكنه يشد الهمة ويبذل وسعه أن يحاول بلوغ ما استطاع منه.

حدثتني زميلة صينية أن رجال الصين لا يلبسون قبعة خضراء أبدًا، ومرجع ذلك أن لديهم مقولة يعبرون بها عن خيانة المرأة الصينية لزوجها، فيقولون في ذلك إنها «ألبست زوجها قبعة خضراء»، فتخيل معي -مستحضرًا هذا المعنىٰ-ما يثيره سائح مسكين يجهل ذلك حين يرتدي قبعة خضراء ويمضي بها في شوارع إحدىٰ المدن الصينية فرحًا مسرورًا، وكذا تجد اللون الأبيض عند الصينيين هو لون الموت والعزاء، بينما هو عند العرب والغربيين عكس ذلك.

وبينما أمارة الاحترام وتقدير المعلم عند العرب؛ هي قيام الطلاب في الفصول عند دخول المعلم، حيث يعتبرون تغيير الحال من الجلوس والاستراحة إلىٰ الوقوف والانتباه، تعبيرًا عن تقديره؛ تجد طلاب اليابانيين إذا دخل المعلم جلس القائم منهم من فوره، حيث تقدير المعلم عندهم ألا يعلو رأس أحد في القاعة مستوىٰ ناظريه.

وبينما الأصل بين شبان العرب هو العناق والتصافح عند كل لقاء، تجد عند الألمان المصافحة قاصرة علىٰ اللقاء الأول فقط، والعناق لا يكون في اللقاء والوداع إلا بين الجنسين المختلفين، في حين هو بين الذكور أقرب إلىٰ الاستهجان.

وإذا تلاقت عيناك في مكان عام أو وسيلة مواصلات بعيني غريب؛ فإنك في مصر تشيح بوجهك سريعًا، بينما تجد الألماني يبتسم ويومئ إيماءة احترام أنيقة.

وفي تايلاند، حيث تشهد البلاد حالة توتر كبيرة بين معسكرين أحدهما داعم للملك الحالي[١]، وهو معسكر أشبه بالحرس القديم التي تتسم به الديكتاتوريات المعمرة، ويدعو إلىٰ المحافظة علىٰ نظام البلاد التقليدي، الذي تتحكم فيه العائلات ذات النفوذ في مصير البلاد، ويرتدي موالوه القميص الأصفر، وبين المعسكر الآخر المطالب بمشاركة أوسع وحقوق أكبر للطبقات الفقيرة، ويرتدي موالوه القميص الأحمر. فإذا أخطأ سائح يجهل هذه الحال وارتدىٰ أحد اللونين، وذهب في منطقة يسودها معسكر اللون الآخر؛ فإنه يكون في مأزق حقيقي.

وفي حين يعتبر الإكثار من صنوف الطعام وكمياته عند الولائم، من شيم الكرم وإكرام الضيف وسخاء المضيف، والإنقاص في ذلك من جنس الشح، فإن الألمان في المقابل ينظرون إلىٰ مثل هذا علىٰ أنه نوع من الإسراف المذموم، وكذا ما اشتهر عن العرب من إصرارهم عند الدعوة أو الهدية أو تقديم معروف ما، دفعًا للحرج عن المقدم إليه، ترىٰ الألمان يتلقون هذا

---

(١) توفي هذا الملك في أكتوبر من العام الجاري عن عمر يناهز ثمانية وثمانين عامًا بعد صراع طويل مع المرض، حيث قضىٰ أكثر الأشهر الماضية في الفراش.

الضغط والتكرار بشيء من الضيق، حيث لا يفهمون الطائل من تكرار الدعوة إلىٰ ما سبق ورفضوه، ولو أنهم أرادوا الإجابة عند السؤال الأول لأجابوا، حيث لا مساحة حرج عندهم في مثل هذا.

الشاهد من كل هذا ليست الحقائق الوارد في كل موقف بذاته؛ إذ أغلبها تافه، وإنما الشاهد هو التعامل بانسياب وسهولة مع تعددية المعاني التي يحتملها السلوك الإنساني الواحد، بل تناقضها أحيانًا، وفقًا لمعايير تتأثر عند البشر بالضمير الجمعي والتربية ومفهوم الخطأ والصواب والحسن والقبيح، وهذا ينسحب من مساحة السلوك إلىٰ مساحة الأفكار والأنساق بالطبع، ولا شيء يرسخ هذا المعنىٰ في الأذهان ويُحيله نهجًا يكون الفرد به أقدر علىٰ فهم سلوك البشر وتقدير دوافعهم وأحوالهم، كالسفر.

والمدهش أن أعظم ما يكتشفه الإنسان في أسفاره، هو أعماق نفسه ومكنونات ذاته، والتي تختبئ عادة أو تتلاشىٰ فيما يحياه المرء ويلاقي من بيئته المحيطة، حيث تغرق في ذوات الآخرين وأفعالهم وطرائقهم، بغير أن ينتبه لذلك أو يلتفت، بل يجد نفسه مدفوعًا -بفعل سطوة المجموعة- دفعًا إلىٰ سلوك ربما هو ليس ميَّالًا إليه؛ وبالتالي فإن المرء لا يعرف حقيقة أفعاله ومدىٰ قربها من نفسه إلا حين يزول هذا «القيد الاجتماعي»؛ فتنكشف حقيقته ويتلاشىٰ حولها كل غموض.

كما يتعرف علىٰ شطر من قدراته ما كان ليقدر علىٰ تقييمها بغير اختبار، ويظهر هذا جليًّا في أبسط الأشياء، كمدىٰ سهولة توجهك إلىٰ الأغراب عنك بالسؤال حول مكان ما في بلد بعيد عن موطنك، أو كيفية اعتمادك علىٰ لغة أجنبية في الحوار مع أهل اللغة خصوصًا لو ما كنت تتقنها بعد، أو كيفية تعبيرك عن ذاتك ومعتقداتك إذا ما وُجِّه إليك سؤال حولها، خصوصًا في المسائل التي فيها اختلاف كبير بين معتقدك ومعتقد أهل البلد، أو قدرتك علىٰ تكوين صداقات عابرة وآلية تكوينها من حيث السهولة والصعوبة.

كل هذا يكشف جوانب هامة من الشخصية لا يختبرها الإنسان ربما طيلة حياته إذا ما عمد إلىٰ الاستقرار في بيئة واحدة ومع نفس الأشخاص والأنماط والأطر، دونما تغيير يذكر، ومن المؤسف أن هذا النموذج سائد في بلادنا وطاغٍ عليها.

وهذا ينتقل بنا إلىٰ محور آخر هام جدًّا، وهو موقف المجتمع من فكرة السفر ككل، والذي منه موقف الأهل والجيرة والأصدقاء والأقرباء، وكذا موقف مجموع الناس عامة منها ومن المقبلين عليها ونظرتهم لهم.

والمشاهد أن السفر في مجتمعاتنا يكاد ينحصر في نوعين لا ثالث لهما، النوع الأول هو سفر السياحة والرفاهية، وهذا سنهمله في هذا التحليل لأنه -أولًا- ليس داخلًا في خبرات الحياة كما سبق ووضحنا، وثانيًا لصغر نسبة أصحاب هذه الرفاهية إذا ما قورنت بمجموع الناس، ولبعدهم أيضًا عن الشارع الطبيعي، وعن الضمير الجمعي في أغلب الأحوال.

أما النوع الثاني فهو السفر لأجل العمل وتوفير الحياة الكريمة، والذي أغلبه يكون إلىٰ بلاد الخليج، وإشكالي مع هذا النوع أنه:

أولًا: بعيد عن دائرة بناء الذات، لأن الغالب علىٰ حال هؤلاء الشبان الباحثين عن حياة أفضل؛ هو الاضطراب الشديد والقلق والخوف من المجهول، وبناء الذات واكتساب الخبرات يتطلب نوعًا من الاستقرار النفسي والثبات والثقة بالنفس، يندر أن تجده في شاب يائس عانىٰ الأمرين في بلده ثم اضطرته ظروفها السيئة إلىٰ وداع أهله ومعارفه -وهو عليه من أثقل ما يكون- والخروج وحيدًا شريدًا إلىٰ حيث لا يدري ما تصير إليه حاله، وهذه النفسية ليست مثالية لتلقي الخبرات والتعلم بالطبع، وإنما تكتسح الفرد فيها غريزة البقاء بالمقام الأول، حيث تأمين المسكن والمأكل والملبس، مُقدَّم في هرم الحاجات علىٰ توسيع المدارك وكشف المستور ودفع الجهل.

ثانيًا: أن أغلب وجهات هذا النوع من السفر هو الخليج كما ذكرنا، وبدلًا من أن يكون الأفق في بلد الوجهة أكثر اتساعًا؛ فإن السمت الغالب

علىٰ مجتمعات الخليج أنها -إذا ما نظرنا إلىٰ محور التعددية الثقافية-أشد انغلاقًا من مجتمعات عربية أخرىٰ كمصر وتونس وسوريا، هذا إذا ما تجاهلنا -بالطبع-فكرة الكفيل المقيتة تلك، وما تعكس من أفكار وانطباعات سائدة في هذه المجتمعات.

ثالثًا: أن العرب يميلون في هذا النوع من السفر أيضًا، إلىٰ تكوين نوع من (الجيتوهات)، (مجتمعات مغلقة صغيرة غالبًا ما تشمل حيًّا كاملًا أو منطقة سكنية منعزلة) من أبناء نفس الجنس، وتكون هذه الجيتوهات صورة مصغرة من أوطانهم، يقضون فيها ومع أفرادها أوقاتهم كلها، ولا يحتكون بغيرهم من أهل البلد إلا قليلًا، في برلين وفي فرانكفورت، أحياء عربية كاملة، ترىٰ فيها أناسًا هاجروا إلىٰ ألمانيا في سبعينيات القرن الماضي، لبنانيون وفلسطينيون ومغاربة، لا يتحدثون الألمانية إلىٰ اليوم، وتجد هذا -في ألمانيا-عند الأتراك أكثر حتىٰ من العرب.

رابعًا: أن هذا المسافر يقضي جزءًا وافرًا من وقته عاكفًا علىٰ حاسوبه يحدث أهله وأصدقاءه بكل شيء يمر عليه وبالتفصيل الممل، وهذا رأيته كثيرًا، فتجد الشاب يذهب إلىٰ العمل في يومه الأول، ثم لا يلبث أن يعود حتىٰ يتصل بأمه وأبيه يحدثهما بكل ما وقع، ثم لا يكاد ينتهي معهما حتىٰ يعاود الكرة مرة أخرىٰ مع صديق عمره، ثم مرة ثالثة ورابعة وخامسة مع غيره من الأصدقاء المقربين، ويستمر علىٰ ذلك أيامًا وأسابيع وأشهرًا.

بل إني رأيت أناسًا بمجرد دخولهم إلىٰ المنزل يهاتفون أهليهم علىٰ سكايب، ليس فقط لأجل المحادثة، وإنما هكذا، لأجل مشاركة تفاصيل الحياة اليومية فقط، تظل الكاميرا والميكروفون والسماعات فاعلة علىٰ الدوام، ويقوم هو ليطهو أو يرتب غرفته ويحبّ خلال ذلك أن تكون أمه في المتناول يستطيع أن يحادثها خلال ذلك كله، وربما علقت علىٰ ما يصنع كمثل ما كانت تفعل لما كان عندها، فيستشعر الأمان ويزول عنه إحساس الغربة. وهكذا تضيع ساعات طوال من فترة الشاب في البلد الجديد منغلقًا علىٰ نفسه أمام

شاشة الحاسوب، وتضيع معها فرص هائلة للانطلاق والتعارف ومخالطة أهل البلد والنهل من ثقافتهم وكنوزهم.

مقارنة بين مجتمعين متناقضين:

حال العرب:

ومن هنا نعقد مقارنة سريعة بين مجتمعين متناقضين، نبدأ بالمجتمع العربي، ونعدد بعضًا من العناصر المرتبطة فيه بفكرة السفر وترك بلد الآباء والأجداد:

(١) فكرة السفر -وخصوصًا طويل المدىٰ أو غير المحدد بموعد عودة معين- مرتبطة في أذهان عموم الناس دائمًا بنوع من الخيانة وقلة الأصل، وهذا تلاحظه بسهولة حينما ترقب حديثًا بين مقبل علىٰ السفر وشخص عابر من العجائز، حتىٰ لو لم يربطه بالشاب علاقة قرب أصلًا، تجد العجوز يقول أوَّل ما يقول: «ولمن تترك بلدك؟» أو «ماذا رأيت من بلدك حتىٰ تكرهها؟»، أو «كيف تترك أباك وأمك وتغادر؟»، حتىٰ إنك تلحظ ذلك في كثير من الأغاني، كنحو «أهاجر وأسيبك لمين؟»، ويكأن نجاة البلاد والعباد مرتبطة بآحاد الناس الذين يبغون السفر، والذين بسفرهم هذا سيتركونها تواجه مصيرها، والأولىٰ بهم أن يمكثوا فيها بشجاعة ويبذلوا في سبيلها كل غالٍ ونفيس، بدلًا من «الهرب» بخسة وأنانية بحثًا عن الرفاهية الشخصية.

وبصرف النظر عن السذاجة المفرطة البادية علىٰ هذه الأسئلة والاستنكارات، حيث لا يعقل أن نطلب من جيل بأكمله أن يظل في أسر بلاد لا تعترف بأحقيته في أساسيات الحياة ولا في تقرير مصيره ولا في أي شيء تقريبًا، هذا ونحن رأينا ما صنع من يبقىٰ، وقطعنا الشك باليقين أنه لا يضيف شيئًا، ولا يتاح له أن يحدث أثرًا، كأنه مجرد نوع من كراهية الخير لمن يسعىٰ إليه، بل علىٰ الجميع أن يبقىٰ هنا ويعاني لمجرد أنني عانيت، وليس لأن هذه المعاناة ستحقق غاية ما، أقول بصرف النظر عن هذا كله، الأجدر بالملاحظة

هو ما توّرثه هذه النظرة من نفور عام، ومقت لكل من يقدم علىٰ هذه الخطوة، بما يمثل عائقًا إضافيًّا أمام الشاب المسكين الذي ضاقت به الحال، ويحول بينه وبين أن يضرب في الأرض سعيًا، خشيته من نظرة الناس إليه وتخوينه.

(٢) إتقان اللغات الأجنبية في أغلب البلاد العربية عزيز، باستثناء الفرنسية في بلاد المغرب العربي، تجد سوريا مثلًا تُدرس فيها التخصصات العلمية التطبيقية حتىٰ -بما في ذلك الطب نفسه- باللغة العربية الصرفة، وقد رأيت سوريين كثرًا عانوا من جراء ذلك الأمرين لما أرادوا أن يتموا دراستهم بلغة أخرىٰ، وفي مصر حيث اللغة الأجنبية الأولىٰ هي الإنجليزية، ويدرسها الأطفال في الحضانة قبل المدرسة ويحرص الأبوان علىٰ ابتذال استخدامها بداعٍ وبدون، تدهش مع ذلك كله حينما تقف علىٰ ضعف اللغة الإنجليزية عند عموم المصريين بشكل مخجل، فالأكثرية الكاسحة من شباب الجامعات وخرِّيجيها، لا يقدرون علىٰ إجراء حوار من عشر دقائق بإنجليزية كاملة/ ولا يجرؤون علىٰ الإقدام علىٰ ذلك أصلًا، وكذا الحال في أغلب البلاد - وعن الخليج حدث ولا حرج- ونحن هنا نتحدث عن الإنجليزية، اللغة العامية الأولىٰ، فما بالك بغيرها من اللغات؟ ونستثنىٰ هنا أيضًا طفرة تعلم الألمانية التي نشأت في السنوات الخمس الأخيرة، وبخاصة في مصر وتونس، فإنه تعليم بغرض نيل الشهادة فقط لإكمال الدراسة في ألمانيا، وقليل هم من يتقنون الألمانية علىٰ الحقيقة.

(٣) الارتباط الأسري الذي نشهد أن الأصل فيه هو الخير الكثير، نراه في مجتمعاتنا زائدًا كثيرًا عن الحاجة إلىٰ حد له ضرر قاتل علىٰ الأبناء، ونقصد بهذا الارتباط -بالطبع- التحكمات الزائدة في مسائل شخصية صرفة، كنحو تحديد التخصص والمسار المهني والزواج وغير ذلك، ولكن -أيضًا- ما ينشأ عن هذا الارتباط الزائد من تمسك مَرَضي للشاب نفسه بأهله، وخوفه الكبير من فراقهم والبعد عنهم علىٰ نحو يشل قدرته علىٰ الحركات والتطور أصلًا، هذا وفراقهم في نهاية المطاف حتم واقع بفعل سنن الكون، ولا يمكن

دفعه علىٰ المدىٰ البعيد بحال، ومع ذلك يبدو أن أطراف الأسرة -وأعني هنا الأبوين بالمقام الأول، لأنهما المنوط بهما تأهيل أبنائهم لذلك- تتعمد تجاهل هذه الحقيقة حتىٰ إذا هوىٰ سيف القدر، بَتَرَ كل شيء بين ليلة وضحاها . . . والنتائج السلبية لهذه الظاهرة عديدة، علىٰ رأسها أنها تخرج إلىٰ الحياة جيلًا هزيلًا ضعيفًا خائفًا قلقًا، لا تقوىٰ ساقه علىٰ المضي خطوة بغير سند، ولا يتخذ قرارًا حاسمًا إذا ما حصرته الحياة في مفترق طرق خطير، بل سرعان ما ينقلب علىٰ عقبيه مع كل اختبار.

(٤) يصب عند مجتمعاتنا كل شيء في تحقيق الرفاهية التي ترضي غرور الشخص وأبويه بالمقام الأول، وكل ما سوىٰ ذلك ليس ضروريًّا. أي إنَّ التطور معرفيًّا، والترقي في سلم الخبرات البشرية، واستكشاف حقائق هذا العالم الشاسع والشغف بمعرفة خفاياه وأسراره، كل ذلك لا يفهم عندنا من حيث هو هدف يطلب لذاته، وإنما من حيث هو وسيلة تطلب لتحقيق الرفاهية المادية فحسب.

فالذي يستطيع أن يبلغ مستوىٰ معيشيّا معينًا يحقق له كل ما يتمناه من حياة مستقرة، بالأبجدية وحدها، لن يتفهم أغلب الناس طلبه لما هو فوق الأبجدية بشعرة، وإنما سيعتبر ذلك نوعًا من الفراغ المرَضَي المذموم، والأولىٰ به أن ينشغل إما بكسب المال أو بإنفاقه علىٰ نفسه وأهله وأولاده، أو بإيجاد آلية مناسبة لادخاره الآن بطريقة تحفظ قيمته ليستطيع إنفاقه فيما بعد.

تخيل معي طالبًا مصريًّا يافعًا أنهىٰ عامين دراسيين في تخصصه بالجامعة، ثم أتىٰ إلىٰ والده ذات مساء، وأخبره برغبته في إيقاف دراسته سنة؛ لأجل زيارة كولومبيا، والتعرف علىٰ أهلها وثقافتهم، وتعلم الإسبانية، وسيعمل خلال ذلك حطابًا وينفق علىٰ نفسه مما يجني بالحطب، ثم يعود بعد عام ويستأنف دراسته من حيث تركها.

أعي تمامًا صعوبة تخيل ذلك، وأعرف أن بال القارئ منصرف الآن إلىٰ الضحك غالبًا، جراء تخيل رد فعل الأب وما يفعله بابنه المسكين هذا، لكني أريد من القارئ أن يتجاوز هذا إلىٰ المعنىٰ الذي أرمي إليه: لماذا سلوك هذا الطالب عند أبيه -أو غيره ممن سيعرض عليهم الموقف للاستنصار وطلب المؤازرة في وجه هذا الفتىٰ المخبول، الذي يريد أن يضيع جهد أبيه وما بذله من مال ووقت لإنفاقه وتعليمه، وفوق ذلك يريد أن يصرعه بالسكتة القلبية-؛ مُستَهْجَنٌ مُسْتَنْكَرٌ؟

ببساطة؛ لأنه لا يفهم الطائل من وراء هذا أصلًا، تمامًا كما لو أن صديقك أخبرك أنه ينوي قضاء سنة كاملة في قلب منطقة صحراوية منقطعة عن العمران، وسيحفر في صخرة صلدة بملعقة حتىٰ يعبرها، وسينقطع لعبورها عن كل شيء.

وهذه حال قبيحة أيما قبح! إذ الأدعىٰ بالمجتمع الصحيح المعافي؛ أن يدفع شبابه إلىٰ المجهول البعيد دفعًا، ليورثه جرأة وإقدامًا ومثابرة، بجانب ما يعود محملًا به من معارف ومواقف تصقل شخصيته وتعزز ذاته، بل وتعود بالنفع -في مجموعها-علىٰ المجتمع ذاته.

ملاحظاتٌ مهمة عند المقارنة

وقبل أن أنتقل لوصف المجتمع (النقيض) لهذا كله، في صورة النموذج الذي عاصرته وعايشته ونشأت فيه وأستطيع الحكم عليه بشيء من الدقة، وهو المجتمع الألماني، قبل ذلك وجب أن نتوقف سوية عند تنويهات ثلاثة أحب أن يستحضرها القارئ ولا تنقطع عن باله لحظة وهو يقرأ السطور التالية:

(١) يرىٰ الكثيرون اليوم -وأشاركهم قطعًا-عوارًا كبيرًا في اعتبار المجتمعات العربية نماذج للمجتمع الإسلامي؛ لأنها ببساطة ليست كذلك؛ والذي يظن أن تعاليم الإسلام وأحكامه تشكل دافعًا -ولو جزئيًّا- عند عوام العرب وكثير من خاصتهم، لا يخادع إلا نفسه . . . المجتمعات العربية ليست

مجتمعات متدينة علىٰ الحقيقة، إنما هي مجتمعات تقليدية تقدس الأعراف والعادات، والتي اصطبغت بصبغة إسلامية (ما) لأسباب تاريخية وجغرافية أكثر منها عقائدية.

والأدلة علىٰ ذلك أكثر من أن تحصىٰ، والغافل عنها أبعد من أن يبصر، وخُذ من المعايب التي ذكرتها آنفًا أو أذكرها لاحقًا ما شئت، تجده -يقينًا- مخالفًا -وبفجاجة- لتعاليم الإسلام الحقة، وهدي رسول الله ﷺ، وسمت الرعيل الأول من الصحابة وقرون الخيرية والسلف الصالح.

ومن ثم فإن نقدنا اللاذع المتواصل لكثير من الظواهر السائدة في هذه المجتمعات، لا ينبغي أن ينسحب في ذهن قارئ أبدًا علىٰ أن فيه تلميحًا بانتقاص من دين الحق في شيء، وتعالىٰ الله أن ينال العبد الفقير القاصر من دينه وهو جل جلاله صاحب الكمال والجلال . . . بل نتخذ هذا الانتقاد وسيلة لدعوة الناس إلىٰ ما يستنقذهم من هذا الوحل البغيض الذي ما عاد فيه مكان للبعوض حتىٰ، وهو الرجوع إلىٰ القرآن والسنة ولسانهما بحقهما، ونفض غبار التقليد الأعمىٰ، وعبادة الله وحده بحق وصدق، بغير أن نشرك به أحدًا من البشر، فرادىٰ أو مجموعات.

(٢) صحيح أن الواجب علينا تحليل عوامل النجاح والفشل في شرق المجتمعات وغربيها وأن نصارح أنفسنا في ذلك ما استطعنا، لكن هذا لا يعني -أولًا- الإغراق في جلد الذات، ولا -ثانيًا- الإغراق في الانبهار بتجربة الآخر . . . ولا ينبغي أن يورِّثَ شيء من هذا إحساسًا دفينًا بالدونيَّة عندنا؛ إذ كل شاب منَّا -عربًا كنَّا أو عجمًا- هو ابن ظروفه وواقعه، لا الشباب العرب أسهم في شيء مما تحياه مجتمعاته من انتكاسة، ولا الشباب الغربي أسهم في شيء مما تحياه مجتمعاته من ازدهار (في الجانب المادي علىٰ الأقل)، وهنا تنويه داخل التنويه، الحضارة الغربية أسهمت بشكل كبير في تدمير إنسانية الإنسان والرجوع بها إلىٰ مستويات ما دون الحيوانية في جوانب، وينبغي استحضار هذا جيدًا قبل المبالغة في الانبهار بجانب نمتدحه هنا

أو هناك، وهم أهم فضل وسبق في لفيف من المجالات لا شك، لكن الحكيم يحسن أن ينزل كل نقرة منزلها، فلا إفراط ولا تفريط.

(٣) كل ما سيتلو من ذكر خصائص أهل الغرب -أو قل إن شئت (مناقبهم)- هو من قبيل التحليل الاجتماعي المجرد من البعد الشرعي، أي إن ظاهرة ما؛ قد أذكرها من قبيل المدح في مقابل ذم النقيض عند العرب، لما لها من أثر اجتماعي ضيق في المسألة المتناولة خصوصًا، ولا يعني إقرارنا لها في العموم، ومساحة الفقه وما يحل وما يحرم ليست مساحتي ولا أنا أهل لها علىٰ أية حال، إنما أنا أضع مشاهد شهدتها بين يدي القارئ بعضها يكشف بعضًا ويوضحه.

وهذا النوع من التجريد والتفكيك ضروري في التحليل الاجتماعي للظواهر عمومًا، لكن لا ينبغي أن ينبني عليه عند القارئ حكم عام، وإنما الحكم العام ينبني باستحضار الجوانب كلها، وعلىٰ رأسها -عند المسلم الحق- الجانب الشرعي طبعًا.

حال الألمان:

كنت في جمع من طلبة الجامعة في ألمانيا، جمعنا عمل فترة من الزمن، فلما كنا في لقاء التعارف، حكت إحداهن أنها قضت سنتها الأخيرة في المدرسة في فينزويلا، فلما أنهت المدرسة أتبعتها بسنة أخرىٰ في بيرو.

أخرىٰ قضت سنتها الأخيرة في تايلاند، وثالثة قضت عامين في البرازيل وتتحدث البرتغالية والإسبانية بطلاقة.

زميل آخر كان يحضر رسالة الماجستير الخاصة به في جنوب أفريقيا.

زميلة في مركز أبحاث قضيت فيه صيف (٢٠١٦) كله، أخبرتنا يومًا في حماسٍ أن عشيقها حصل أخيرًا علىٰ (فرصة) العمل الميداني في أنجولا، وظلت تتحدث عن شغفها بزيارته حين يستقر، والتعرف علىٰ هذا البلد وأسراره.

صديق تعرفت إليه في (٢٠١٣) في إحدىٰ مدن الشمال الألماني، قضىٰ عامين متفرقين في خلال دراسته للعلوم السياسية، في كندا، يدرّس الأطفال في إحدىٰ المراكز التعليمية للغات، ويتقن الإنجليزية والفرنسية بجانب الألمانية.

هذا وجل الألمان يزورون في خلال فترة شبابهم -سواء مع أسرهم وهم أطفال، أو في رحلات مدرسية، أو في مجموعات أصدقاء يتجولون- فرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا، واليونان، والمجر، وبولندا، وهولندا، وسويسرا وغيرها، كمثل زيارة عامة المصريين للإسكندرية.

وهنا ننتقل إلىٰ بعض خصائص الشعب الألماني المرتبطة بفكرة السفر:

(١) استقلالية الأبناء -بنين وبنات- عن آبائهم كلية، ما أن يبلغ أكثرهم سن الثامنة عشر، حتىٰ يغادر منزل الأسرة وينتقل للمعيشة إما في غرفة بسيطة، أو يتشارك شقة سكنية مع اثنين أو ثلاثة من الأغراب عادة (وهذه الصورة السكنية هي الأكثر انتشارًا بين شباب الألمان).

وتدخل الآباء في تفاصيل حياتهم ليس مقبولًا اجتماعيًّا من جهة، ولا هو حتىٰ مرغوب منهم من جهة أخرىٰ، وإنما يحب الآباء أن يتركوا لأبنائهم تقرير تفاصيل مصائرهم، ربما قدموا لهم النصح إذا استنصحوهم حال كونهم ذوي خبرة في مجال الاستنصاح، وليس هذا الخال غالبًا.

وقد ينظر لهذا في بلادنا علىٰ أنه نوع من الجفاء الشديد بين الآباء والأبناء، والحق أنه ليس كذلك عندهم، وهنا نعود مجددًا إلىٰ فكرة اختلاف المعايير والمقاييس بين الشعوب والمجتمعات، علىٰ نحو لا يمكن فيه قياس ذات الفعل في مجتمع وانسحاب الحكم من خلاله علىٰ مجتمع مختلف بالكلية.

فالحاصل أن الآباء الألمان وأبناءهم يتحابون -غالبًا- علىٰ النحو الذي فطر الله عليه البشر، لكن تعبيرهم عن هذا الحب وترجمته إلىٰ أفعال يختلف عن تعبيرنا وترجمتنا بشكل كامل.

ولو عُرِض علىٰ الألمان ما يصنع آباء العرب في بلادهم مع أبنائهم؛ لقالوا إن هذا ليس حبًّا، وإنما نوع من الامتلاك والهوس، فاعقل هذا جيدًا أيها القارئ الكريم، تقف علىٰ فجوة كبيرة بين المشرق والمغرب.

ومن أكثر ما يساعد الأبناء علىٰ تحقيق هذه الاستقلالية وبخاصة شقها المادي، هو نظام التعليم والعمل عندهم . . . وهنا نستفيض قليلًا، فالحال بهذا الخصوص عندهم مفارق تمامًا لما نرىٰ عندنا.

الأصل عندنا هو إقبال الشباب جميعًا علىٰ إتمام التعليم الجامعي مدفوعين بتصور أهاليهم أن هذا هو الطريق الوحيد لإيجاد فرصة -ولو ضئيلة- في حياة كريمة، ولا ترىٰ التعليم الفني والصناعي والحرفي إلا للشرائح الدنيا غالبًا، وينظر لهذا الطريق اجتماعيًّا علىٰ أنه طريق الفاشلين والمعدمين، مع أنك لو نظرت للأرقام تجد المقيدين في الجامعات المصرية كلها نحو مليوني طالب، ثم تفاجأ أن المقيدين بكافة أشكال التعليم الصناعي والفني والتجاري هم مليونان أيضًا، ومع ذلك؛ فإنه طريق مهمش، ويندر أن ترىٰ نموذجًا نجح في الوصول إلىٰ مكانة مرموقة اجتماعيًّا وماديًّا، بغير أن يكون صاحب مؤهل عال[١].

بينما الوضع عند الألمان مختلف تمامًا، نسبة كبيرة من شباب الألمان (أكثر من النصف، وكانت إلىٰ وقت قريب أقرب إلىٰ الثلثين) عازفة عن التعليم الجامعي أصلًا، ومع ذلك يحصلون علىٰ وظائف وحيوات مستقرة وآمنة وميسورة ماديًّا إلىٰ حد معقول . . . وهنا نعود إلىٰ النظام التعليمي في ألمانيا، فالمدرسة الابتدائية تمتد حتىٰ الصف الرابع، ثم يجد الطالب نفسه بين ثلاثة مسارات، وفقًا لأدائه الدراسي، وتقييم معلميه، ورغبته هو.

المسار الأول: هو المدرسة المؤهلة للدراسة الجامعية، وتمتد لثمان سنوات (كانت قبيل بضع سنوات تسعًا) تنتهي بشهادة تماثل مفهوم (الثانوية

(١) ولهذا استثناءاته طبعًا، لكن لا يقاس عليها لندرتها.

العامة) في مصر وغيرها من البلدان العربية، لاحظ معي أن نحو (٢٨%) فقط من عموم الشعب الألماني الحالي حاصل علىٰ هذه الشهادة . . . وبعد إتمامها يؤهل للدخول إلىٰ الجامعات، حيث معظم برامج البكالوريوس تمتد إلىٰ سبع فصول، أو ثلاث سنوات ونصف، وبعدها فقط يحصل علىٰ مؤهل يسمح له بالعمل، أو يتابع سنتين أخريين، ويحصل بذلك علىٰ الماجستير، فيعمل به أو يتبعها بدكتوراة تستغرق بين ثلاث إلىٰ خمس سنوات، ونحو (٠,٩%) فقط من عموم الألمان حاصلون علىٰ الدكتوراة.

المسار الثاني: هو مدرسة أشبه في مفهومها إلىٰ التعليم الفني والصناعي في بلادنا، تمتد خمس سنوات، وتنتهي بشهادة أقرب إلىٰ (الإعدادية) في بلادنا، لاحظ هنا أن نحو (٣٤%) من عموم الألمان حاصلون علىٰ هذا المؤهل وبعد إتمامه يختار الطالب حرفة من الحرف، ويلتحق بالمعهد المختص بها، يدرس به سنتين، ويصبح بذلك مؤهلًا مباشرة إلىٰ العمل.

أما المسار الثالث: فهو وسيط بين الاثنين، مدرسة تمتد لست سنوات، ويتاح بعدها للطالب -إن أبدىٰ تفوقًا- أن يكمل مساره في مدرسة المسار الأول ويلتحق بالجامعة، أو يلتحق مباشرة بمعاهد فنية (أرقىٰ) من معاهد المسار الثاني، وهذا المسار الثالث قد سلكه من عموم الألمان نحو (٢٣%).

والآن تأمل معي، ما الأقرب إلىٰ طالب مدرسة في الحادية عشرة من عمره، تحدوه الرغبة الجامحة في الاستقلال عن أسرته والانطلاق حرًّا في الحياة والاستمتاع بها؟

لاحظ أن الفارق المادي في الراتب ليس كبيرًا في معظم الوظائف -باستثناء تخصصات الهندسة- حيث في مجالي مثلًا -الصيدلة- لو أنَّ أحدًا وجد في نفسه ميلًا إليها؛ فإن المسار الأول يعني ثماني سنوات مدرسة، ثم أربع سنوات في الجامعة، تتلوها سنة من التدريب العملي بمقابل ضعيف جدًّا، أي إجمالًا (١٣ سنة) دراسة مضنية، في مقابل مسار آخر عبارة عن سبع سنوات دراسية إجمالًا، والفارق في نهاية المطاف بين الصيدلي الذي يعمل

في الصيدلية، وزميله «مساعد الصيدلي»، هو نحو (٣٠٠ يورو) فقط في المرتب الصافي بعد خصم الضرائب والمستحقات.

فإذا أخذت هذا بالحسبان؛ وجدت تفسيرًا واضحًا لعزوف النسبة الأكبر عن طريق الجامعة المقيد المعطل هذا، بما يساعد علىٰ الاستقلال المبكر وتدبير الشؤون الذاتية المادية في سن صغيرة.

وفي الجامعة نفسها فإنك تجد نحو ثلثي الطلاب يميلون إلىٰ دراسة تخصصات نظرية يعلمون أن فرص العمل في وظائف مرتبطة بها مباشرة ليست كبيرة إلا للمجتهدين الباذلين، كنحو الفلسفة والعلوم الاجتماعية والأدب الألماني، بل إني تعرفت علىٰ أناس يدرسون تخصصات غاية في الغرابة كـ«التراث البولندي» و«الدراسات الأمريكية»، ونحو ذلك.

لكن ثمة ما يكشف سر ذلك، فالدولة توفر منحة تشمل جميع الألمان الدارسين بالجامعات، ما داموا دون سن الثالثة والثلاثين، وما دامت ثرواتهم الشخصية دون مستوىٰ معين، تتراوح قيمتها بين (٤٠٠) إلىٰ (٧٣٥) يورو شهريًّا، بحسب الإقامة مع الوالدين أو باستقلال عنهما، وبحسب دخول الوالدين أيضًا، وهذا يكفي النفقة الشهرية ويزيد عليها. وفي نهاية فترة الدراسة، تحسب الدولة إجمالي الأموال التي تقاضاها الطالب، فتعتبر نصفها هدية، والنصف الآخر قرض غير ربوي، يطالب برده بعد خمس سنين من إتمام الدراسة -شريطة أن يكون استمر حينها في وظيفة ثابتة مدة عامين- علىٰ أقساط شهرية بقيمة (١٠٥ يورو).

والدراسة الجامعية توفر امتيازات كثيرة، كنحو استخدام وسائل المواصلات في المدينة بالمجان طول العام، والإعفاء الضريبي الكامل، وتوفر الجامعة سكنًا جامعيًّا بنصف أسعار السكن العادي، وكذا تنتشر في المدينة مطاعم تابعة للجامعة يحق للطلبة أن يطعموا فيها بما هو أقل من نصف السعر العادي في المطاعم الأخرىٰ، إلىٰ جانب الكثير من التخفيضات والعروض الخاصة بالطلاب، كما يسهل علىٰ الطالب كثيرًا أن يجد عملًا جانبيًّا بجانب

دراسته؛ لأن النظام المالي يقدم عروضًا للشركات والمصانع الكبيرة عبارة عن إعفاء ضريبي معين مقابل الحفاظ علىٰ تشغيل نسبة معينة من الطلاب طوال العام، هذا والمنحة آنفة الذكر، تتيح للطالب أن يكسب حتىٰ (٤٥٠ يورو) شهريًّا، بغير أن يؤثر ذلك علىٰ قيمة المنحة في شيء.

وبالتالي يتضح للقارئ بعد كل هذا التفصيل، أن استقلال الشباب محفوظ بفعل النظام الاجتماعي، وكذا سياسات الدولة، أيّا ما كان المسار الذي يسلكونه. (كما يتضح أيضًا، السبب الرئيس الذي يجعل ألمانيا تستقبل أعدادًا ضخمة من الطلاب الأجانب؛ لإشباع سوقها المتعطش إلىٰ حملة المؤهلات العليا بعد عزوف عدد كبير من الشباب عنها للأسباب التي بيَّنَّا).

(٢) النمط الاستهلاكي وسياسة الادخار عند أفراد الغرب مختلف تمامًا عن نظرائهم العرب، فهم لا يكثرون من الإنفاق علىٰ ما لا طائل من ورائه، وليس هناك نوع من العرف يفرض نمطًا شرائيًّا معينًا، فلا غضاضة عند أحد هنا أن يشتري المستعمل من الأثاث أو الأجهزة أو الدراجات والسيارات وأدوات المكتب ونحوها . . . بل إنك تجد كثيرًا ما يعرض آحاد الناس أثاثهم القديم للإهداء، إذا ما جلبوا أثاثًا جديدًا وما عادوا بحاجته، ولا يريدون أن يتكلفوا عناء إزالته أو نقله، فيعلن أحدهم أنه يعرض قطعة أو قطعًا لمن يريد، شريطة أن يأتي في موعد معين ويتكبد عناء أخذه ونقله، ولا يجد أحد حرجًا من الإجابة إلىٰ مثل ذلك إذا ما وجد شيئًا أعجبه، بل هو هنا أمر طبيعي جدًّا.

وتجد هذا ظاهرًا في نمط السكن كذلك، فلا وجود هنا لشقق المائتين والثلاثمائة متر كالتي تجدها عندنا، إنما يسكن الشباب (مثنىٰ وثلاث ورباع علىٰ نمط السكن المشترك الذي ذكرناه آنفًا) في شقق تتراوح مساحاتها بين الخمسين والثمانين مترًا، بل إن السكن الخاص بي في الجامعة، (وأنا طالب ماجستير في جامعة مرموقة) لا تتجاوز مساحته الـ (١٩ مترًا مربعًا)، مكونة من غرفة وركن للطبخ ودورة مياه صغيرة، وانتهىٰ.

والأصل في السكن هنا هو التأجير، أما الامتلاك فهو قاصر -في الأغلب- علىٰ أصحاب المؤهلات العليا إذا ما بلغوا سنًّا وتدرجًا وظيفيًّا معينًا، وهو قليل علىٰ أية حال.

والأصل كذلك أنَّ دخل الأفراد ينفق معظمه، ولا يدخر منه إلا النذر اليسير (الذي يخصص للسفر في العطلة السنوية غالبًا)، وبقدر الحاجة العارضة، كنحو التوفير لأجل شراء جهاز إلكتروني حديث، أو سيارة جديدة أحدث، ونحو ذلك.

في حين تجد التوفير والادخار -وبمبالغ هائلة- هو النمط الغالب علىٰ شباب العرب حتىٰ يشيخوا؛ ولهذا البون الشاسع أسباب ألخصها في الآتي:

أولًا: من الأسباب الأساسية الدافعة للتوفير عند العرب؛ هو «التحسْب للظروف والطوارئ» كالمرض، واحتياج العلاج، أو إصلاح الممتلكات، أو تعويض المسروقات، ونحو ذلك، وهذا كلُّه لا حاجةَ للألمانيْ أن ينشغل به؛ لأنَّه يدفع مبلغًا زهيدًا شهريًّا مقابل حصوله علىٰ تأمين صحي، (وهذا إجباريٌّ في ألمانيا علىٰ المواطنين، وكذا الأجانب المقيمين جميعًا)، وهذا التأمين يتحمل عنه تكاليف أي حالةٍ طبيةٍ قد تطرأ عليه في أي وقت، وكذا كل الدواء، والعلاج الطبيعي، والمعدات الطبية، وكل ما يحتاجه .. وله أن يدفعَ مبالغ زهيدةٍ أخرىٰ مقابل التأمين علىٰ الممتلكات باهظة الثْمن، كالسيارة، وغيرها، وشركة التأمين تتحمل عنه إصلاحها إذا تعطلت نتيجةَ حادث مثلًا، أو تعويضها إذا سُرِقت .. بل إنَّ البنك الذي اخترته لفتح حسابي، وإجراء معاملاتي المادية، عرض عليَّ نوعًا من التأمين، يتحمل بموجبه عني أية تكاليف تنشأ عن خسائر مادية سبَّبْتُها أنا، ولو بطريق الخطأ، كنحو أن أصدم بدراجتي واجهة متجرٍ فأحطمه، وأفسدَ المعروض خلفَه، وهذا التأمين مقابل (١٧ يورو) أدفعها كل ثلاثة أشهر، (وهذا أجر ساعتي عمل اثنتين فقط، لو أني أعمل براتب الحد الأدنىٰ) .. طبعًا هذه وحدَها تكشف كثيرًا من خبايا طريقة الألمان، (ومن ورائهم كثيرٌ من الأوروبيين الغربيين) في التفكير

والسلوك، وكيف أنهم لا يتركون شيئًا للظروف ما استطاعوا، والحديث عن هذا العنصر يطول، علىٰ أنَّ هذا ليس مقامَه.

ثانيًا: ضمان مستقبل الأولاد ورفاهيتهم، وهذه سائدةٌ عند عمومِ العرب في البلاد المختلفة، فما إن يضمن رب الأسرةِ درجةً ما من الأمان المادي، يبدأ في التفكير بكيفية ضمان حياةٍ كريمةٍ لأبنائه في كل مراحلهم العمرية الآتية، وحتىٰ زواجهم، علىٰ نحوٍ قد يدفع رجلًا ستينيًّا أن يستمر في العمل والكدح، وهو قد بذل جهدًا هائلًا في حياته سعيًا علىٰ رزقِ بيته، وبلغ من الأمان مبلغًا جيدًا، لكنَّه يأبىٰ إلَّا أن يواصلَ العمل والكد؛ لأجل أن يحقق لأبنائه سبلًا من الراحةَ لم تكن له في مثل أعمارهم.

وهذا لا وجود له عند الألمان من أكثر من وجه، **الأول**: أنَّه -وكما ذكرنا- لا صلةَ واسعةً بالأبناء بعد أن يبلغوا سن الثامنة عشرة، بل يُتركون ليشقوا طريقهم في الحياة كيفما شاءوا، وليس مطلوبًا من الآباء أن يبذلوا لهم شيئًا متىٰ انفصلوا عن الإقامةِ معهم في المنزل، بالطبع هنالك عطايا، وهدايا، ودعمٌ من بعيدٍ بين الحين والآخر، ولكنَّه أيسرُ كثيرًا من أن يمثل عبئًا إضافيًّا حقيقيًّا علىٰ منزل الأبوين، **الثاني**: أنَّ تربيةَ الأبناء عند الألمان ليست مكلفةً بالشكل الهائل الذي تكلفه تربيتهم في بلادنا، فلو أخذنا مصرَ علىٰ سبيل المثال؛ فإنك لا تكاد تنتهي من تعديد المصارف؛ إذ يسارع الناس في إدخال أبنائهم إلىٰ الحضانة (الخاصة) متىٰ بلغوا الخامسة، (بل الرابعة أحيانًا) ظنًّا منهم أن في هذا تمهيدًا جيدًا للمدرسة (الخاصة) بعد ذلك، وبجانب المدرسة الخاصة دروسٌ خصوصية ليست مرتهنةً فيما يبدو بالثانوية العامة فقط، وإنَّما بالمراحل التعليمية كلها، ومن وراء المدرسة ربما جامعةٌ خاصة، وربما لا، لكن المصرف الأكيد في الجامعة هو الكورسات، ومجموعات التقوية، والمراجعات، وهكذا في دائرةٍ لا تنتهي.

وكل هذا لا يعرف عنه الألمان شيئًا، فالمدراس الحكوميَّة مجَّانية، وتعمل بكفاءة مقبولة، (وإن كانوا شديدي الاعتراض علىٰ نظامهم التعليمي،

ويعتبرون النماذج الإسكندنافية قدواتٍ ينبغي علىٰ حكوماتهم أن تحذوَ حذوَها للنهوض بالتعليم الألماني)، وكذا الجامعات الحكومية مجانيةٌ كلها، بما يشمل الأغلبية الساحقة من برامج الماجستير كذلك، وليس البكالوريوس فقط؛ إذ لا يدفع الطالب (منذ عملية إصلاح واسعة لتطوير التعليم في الجامعات الألمانية، جَرَت قبل بضعِ سنواتٍ علىٰ إثر احتجاجات طلابية كثيفة ضد نظام التعليم عمت أرجاء النمسا، وألمانيا ضمن حملةٍ كان شعارها «الجامعة تحترق») في الجامعة الحكومية إلَّا مبلغًا يتراوح بين مائةٍ إلىٰ مائتين وخمسين يورو -غالبًا- في الفصل الدراسي الواحد، كرسومٍ إدارية، ويحصل في مقابلها علىٰ بطاقة الجامعة التي توفر له امتيازاتٍ عديدةٍ، علىٰ رأسها استخدام مواصلات المدينة كلها طيلة فترة الدراسة بالمجان -كما سبق وذكرنا-، والدخول علىٰ المكتبات الإلكترونية، وتحميل ما يشاء من المراجع، وإصدارات المجلات العملية الحديثة، ونحو ذلك.

بل إنَّ للأبوين متىٰ رُزِقا مولودًا؛ أن يطلبا من ربِّ العمل (١٤ شهرًا) إجازةً مدفوعة الرَّاتب، تنقسم بينهما علىٰ النحو الذي يتَّفقان عليه، وإن كانت المرأة لا تعمل؛ فإنَّه يحقّ لها مبلغٌ شهريٌّ معين طيلة هذه الفترة، ويستطيعان إن أرادا أن يجعلاهم (٢٨ شهرًا) بنصف المرتب، وتسمىٰ هذه «عطلة أُبُوَّة».

وبجانب هذا؛ فإنَّ للأب راتبًا شهريًّا عن كل طفلٍ من أطفالِه، يتراوح بين مائةٍ وثمانين إلىٰ مائتين وعشرين يورو (حسب ترتيب كل طفلٍ في الأسرة)، ويظل يحقّ له هذا المبلغ عن كل ابن من أبنائهِ حتىٰ يبلغ (٢٥ سنة).

ثالثًا: الأمان المادِّي، فالشاب العربي الذي ربما يفتح الله عليه بابًا جيدًا في الرزق أولَ ما يطرق أبواب السعي، لا يعرف إلىٰ كم تُتاحُ هذه الفرصة، فيحرص أن يستغلها بأفضل ما يكون، ويستخرجُ منها أكثر ما يستطيع من المال، فينفق بعضَه، ويدخر أغلبه، احتياطًا لفترةٍ قادمةٍ من الزمن ربما تطول أو تقصر، قد يُغلقُ فيها هذا الباب، ويعز عليه غيره.

والألمانيّ لا يحتاج إلىٰ هذا الخوف من وجهين: **الأوَّل**: أن العمل عنده متوفِّر، ويندر أن تجدَ مجتهدًا تمرُّ عليه فترةٌ طويلةٌ بغير أن يجدَ عملًا؛ إلا أن يكون مبالغًا في توصيفه للعمل المناسب له، ولا يتحلىٰ بالمرونة اللازمة، أو أن يكون باحثًا عن عملٍ معيَّنٍ يتطلَّب نوعًا من الإعداد لم يُقدِم عليه بما يكفي . . والوجه **الثاني**: أنَّه يحقُّ للناس هنا وفقًا لقانون العمل، مجرَّد أن يفقدوا وظائفهم لأي سبب، أن يتوجهوا إلىٰ وزارة العمل، فيقدِّموا طلبًا يحصلون بموجبه -إذا كانوا قضوا في وظائفهم السابقة زُهاءَ سنتين أو يزيد- علىٰ (٨٠%) من راتبهم الأخير شهريًّا لمدة سنة، شريطةَ أن يقدِّموا بشكلٍ دوريٍّ ما يثبت سعيهم الجاد في إيجادِ وظيفةٍ أخرىٰ، وتستمرّ هذه النسبة في التناقص مع تزايد السنين.

رابعًا: الزواج، ومعلومٌ ما يصاحبه في بلادنا من تكاليف باهظةٍ تُثقِلُ كاهلَ الشَّابِّ وأهلَه سنواتٍ طِوال، وتجعله يحسب كيف يدَّخر من دخلِه أكبرَ قدرٍ ممكنٍ للتعجيل به . . في حين لا يُشغل الألمانيَّ شيءٌ من هذا مطلقًا؛ إذ لا الزواج يحتاج هنا ثروةً ضخمةً لإتمامِه، ولا هو وسيلة الارتباط الوحيدة أصلًا، بل العلاقات تقوم بغيرِه بسهولة شديدة، والأصل أن يؤجَّل (حتَّىٰ في العلاقات النَّاجحة المستمرَّة إلىٰ ما يقارب الخامسة والثلاثين مثلًا، وربَّما إلىٰ ما هو أبعد من ذلك)، وسيأتي بيان هذه المسألة تفصيلًا فيما بعد. وكل هذا ينبئك أنَّه لا حاجةَ للألمانيّ في العادةِ أن يرهق نفسَه بالادِّخار الكثير، وإنَّما هو معتادٌ منذ شقَّ طريقَه في الحياةِ أوَّلَ ما بلغ الثامنة عشرة ربَّما، أن يجدَّ في العمل فيدَّخرَ خلال شهور ألفين، أو ثلاثة آلاف يورو، ينفق أكثرها في سفر، أو استكشاف، أو سيَّارة، أو ما شابه ذلك، ثمَّ يعود إلىٰ الصِّفر مدَّة، فيجدّ في العمل من جديد، ويدَّخر مبلغًا آخر في شهورٍ، وهكذا.

(٣) سياسات التَّعليم:

تجد النظام التعليمي في نوعِ المدارس الذي يؤهِّل للدراسة الجامعيَّة، (وهو النوع الأفضل؛ إذ تنقسم المدارس إلىٰ ثلاثة أنواع يختلف كل نوعٍ من

حيث المؤهل الذي يتيحه) يوجب علىٰ الطالب أن يختار لغةً أجنبيةً ثانيةً بجانب الإنجليزية، ويتاح لهم أن يختاروا بين اللاتينية، والفرنسية، والإيطالية، والأسبانية، وتدريس اللغات عندهم -بخلاف ما نرىٰ عندنا- هو تدريسٌ عمليٌّ تطبيقي بالمقام الأول، يتضمَّن رحلات ميدانيّة إلىٰ بلاد أصحاب اللغة، وتبادلًا ثقافيًّا، ومحادثات كثيرة، وكثيرًا ما تستقدم المدارس مدرسِّين من أهل بلاد هذه اللغات، وبالتالي يتقن الطالب الواحد منهم في حالاتٍ كثيرة، لغتين -سوىٰ لغته الأصلية- بشكلٍ مقبول إلىٰ حدٍّ كبير.

وتكثر البرامج الداعمة للتبادل الثقافي والطلابي، والتي ينتقل الطلّاب بموجبها سنةً، أو فصلًا دراسيًّا علىٰ الأقل، إلىٰ بلدٍ آخر قد يكون أوروبيًّا أو غير أوربي، وتشمل هذه البرامج تفاصيلَ كثيرةً متعلّقة بنوع البلد، واللغة الرسمية له، وطبيعة النشاط المصاحب للدراسة، (كنحو تعليم الأطفال، أو المساعدة في عمل إغاثي، أو الاشتغال بنوع من الحرف، أو غير ذلك)، ويدرس الطلاب في خلال هذه السنة في مدارس معينة في هذه البلاد، وتكون إقامتهم في أسرةٍ مضيفةٍ من أهل البلد غالبًا، وبهذا التداخل الكبير تتحقَّق فوائد السفر كلّها، ويعتاد الطلبة الانطلاق، والحيوية، والانفتاح علىٰ حضارات مختلفةٍ عنهم، بل علىٰ الانتقال من النقيض إلىٰ النقيض في ساعاتٍ معدودة، ثم يعودون إلىٰ بلادهم محملين بالخبرات، والذكريات، والصداقات، والقصص التي يقصوها علىٰ زملاء دراستهم، ويتبادلون فيما بينهم مغامراتهم التي خاضوها خلال رحلتهم، وهكذا يفيد الفصل الواحد في مجموعة من خبراتٍ كثيفةٍ متعدِّدةٍ متوازيةٍ خاضها أفراده في الوقتِ نفسهِ.

وفي الجامعة تجد هذه البرامجَ أوسعَ وأكثرَ انتشارًا وخيارًا، بل إنَّ من التخصُّصات والجامعات ما تجعل الأفضليَّة للذي يحضِّر محتوىٰ رسالة البكالوريوس، أو الماجستير (معظم برامج البكالوريوس في ألمانيا مصحوبة برسالةٍ أيضًا شبيهة بنظام رسالة الماجستير) في الخارج، فتقضي نسبةٌ كبيرةٌ من

الطلاب فصلها الدراسي الأخير في جامعةٍ أجنبية، وتتوفر لدعم ذلك منحٌ كثيرةٌ جدًّا.

(٤) المناخ العام: فهذه الأجواء التي لا يكاد يخلو فيها تجمع إنسانيٌّ من أشخاصٍ مضوا في الآفاق البعيدة، وعادوا محملين بالقصص المثيرة، والدفع الاجتماعي نحو رؤية ما وراء حدود البلاد، واستقبال الكثير من الأجانب الذين يشوقون المواطنين بدورهم إلىٰ رؤية بلادهم، وما فيها من عجائب، وكذا قوَّة عملة اليورو الشرائية المرتفعة عالميًّا، وسهولة الحصول علىٰ تأشيرة أي بلدٍ في العالم بجواز السفر الألماني، كل ذلك يدفع الشّبان دفعًا إلىٰ الإقدام علىٰ هذه الخطوة في أقربِ وقتٍ تتاح فيه، وهي متاحةٌ أغلبَ الوقت.

(٥) طبيعة العلاقات العاطفية والجنسية: وهذا محورٌ مهم مؤثرٌ طبعًا علىٰ استقرار الفرد، ويشغل من مساحات اهتمامه قدرًا كبيرًا بحسب إتاحته، أو الأمل في إتاحته قريبًا من عدمه.

والحاصل أنَّ العلاقات محرَّرةٌ هنا تمامًا من أيِّ قيدٍ دينيٍّ أو غير دينيٍّ، الأصل الضابط الوحيد هو الرضىٰ المشترك بين الطرفين، فيحدث أن شابًّا وفتاةً قد يلتقيان بشكلٍ عفويٍّ في الشارع، أو إحدىٰ المكتبات، أو الأندية، أو المنتزهات، أو المواصلات العامة، فينشأ بينهما حوارٌ لأي سبب عابر، كنحو أن يكون أحدهما جديدًا في المكان فيسأل عن شيءٍ ما، والآخر يجيبه، أو غير ذلك. فإذا وقعَ من جراء هذا نوعٌ من الاستحسان، تحرىٰ أحد الطرفين أن يقع لقاءٌ آخر يكون في ظاهرِه عفويًّا ما استطاع، فيتجاذبان أطرافًا من الحديث كما وقعَ في السابق، وقد يتكرر ذلك بضع مرَّات، حتىٰ إذا ما استقرَّ في نفسِ الطرفِ المبادِرِ أنَّ هذا الاستحسانَ متبادل، وجب علىٰ الشاب أن يدعوَ الفتاة إلىٰ شرابٍ في المساء، أو نزهةٍ، أو عرضٍ في دار السينما، أو ما شابه.

أمَّا إذا كان الطرف المبادر الذي تحرَّىٰ تكرار اللقاء هو الفتاة، فالأصول العرفية تقتضي ألَّا تكونَ هي صاحبة الدعوة الأولىٰ المباشرة، ويسهل أن تلمِّح للشاب بالإيذان كي يأخذ الخطوةَ هو، وإن كان يجب التنويه هنا أن هذه الأصول حتىٰ، ما عادت قوانين ملزِمة، مع نبرة التكافؤ، والمساواة السائدة هاهنا، فتجد الفتاة تقول عندما يتأكد التبادل «أسمح لك أن تدعوني علىٰ العشاء» علىٰ سبيل المثال، أو قد تعرض هي صراحةً أن يتنزَّهوا سويةً.

وقد يكون هذا اللقاء الأول أقلَّ عفويَّةً، كنحو أن يكون عبر زمالة دراسةٍ، أو عمل، أو جيرة، أو رياضةٍ مشتركة، أو غير ذلك، فيحدث التعارف للمجموعة، وقد يختص كلاهما بنوعٍ من التعارف الخاص بطريقةٍ أو أخرىٰ، كنحو أن يكلَّفَا بمهمةٍ دراسية مشتركةٍ، أو يوزعا في نفس الفريق في النادي، فيقع بينهما كمثل الذي يقع في حالة اللقاء العفوي . . فإذا تمَّ أولُ لقاءٍ خارجيٍّ، ومضىٰ بنجاح، وعاد كلاهما مسرورًا مبتهجًا، تكرَّر هذا اللقاء بضعَ مرات، حتىٰ يقع الاتصال الجنسي، فإذا وقعَ، وكان مستحسنًا هو الآخر، وغلب علىٰ ظنهما أن يتكرر، انتقلا حينها إلىٰ حالة (العلاقة)، أيْ إنَّ ما بينهما أخذ شكلًا أكثر جدِّيَّة، وصارا (معًا) كما يصف الألمان هذا الحال عادةً، وهنا يصبح الأمرُ رسميًّا مشهرًا، ويُقدِّم كلٌّ منهما -متىٰ تحين الفرصة- الآخر لأصدقائه، ومعارفه، وأهله وفقًا لهذا الإطار، وهو ما يشبه خطوةَ الإشهار، والإعلان عندنا؛ إلَّا إنَّه ليس في صورةِ مناسبةٍ صاخبةٍ، أو إعلانٍ عامٍّ للجميع، إنَّما يتمُّ بشكلٍ أكثرَ هدوءًا، ويُخبَرُ به الناس عادةً بشكلٍ عابرٍ، ولا تُطرقُ أبوابُهم للإبلاغِ بهذا الخبر خصِّيصًا.

ومن المدهش أن ترىٰ التَّحوُّل الذي يطرأ منذ هذه اللحظة علىٰ طبيعة العلاقة بينهما، والذي يتمثَّل في طريقة الكلام، والتَّسميات، وطريقة التلامس، والاحتضان، وتشارك المطعم، والشراب، والملبس أيضًا، وكل هذا يكون قبل هذه المرحلة منطقةً محرَّمة حتىٰ وإن كانا يتواعدان بانتظام، علىٰ نحوٍ يشبه

كثيرًا الاستحلال الذي يقع عندنا بين الزوج وزوجته بمجرد إتمام العقد وشهوده، حيث ينتقلان دفعةٍ واحدةً من حالةِ (الأجنبيَّة المحرَّمة) إلىٰ الحِلّ.

والمرحلة الأخيرة من ذلك هي الانتقال للعيش سويَّةً، وهذا قد يحدث بعد الاستقرار في المرحلة السابقة أشهرًا غلبت عليها السعادة والرضىٰ، حتىٰ يصلا إلىٰ مرحلةٍ يثقان فيها أنَّهما مستعدان للإقدام علىٰ ذلك، وتحمُّل العيش سويَّةً، بما في ذلك من تنازل عن مساحاتٍ شخصيةٍ كبيرة.

أمَّا الاعتراف بالحبِّ، والإعلان عنه؛ فلا ضابطَ محددًا له، إذ قد يقعُ عند لقاء النزهة الأول، وقد يمتدُّ إلىٰ ما بعد ذلك بأسابيع.

وينبغي التَّنويه أيضًا، أن هذا الشَّكل المرحليّ المتتابع (الكلاسيكي) المستطيل زمنيًّا أحيانًا، ليس قانونًا حاكمًا هو الآخر، وإنَّما قد يُتجاوزُ كل ذلك، ويختصر أكثرُه في خطواتٍ أقل وأبسط، وهذا الشكل (الأسرع) بدأ يكثر الآن وينتشر .. وكما هو الحال في كافة أشكال السلوك الإنساني، قد تجد حالاتِ استثناءٍ أخرىٰ كثيرة، تأخذ فيه مرحلةٌ ما وقتًا أكبر ممَّا ذكرتُ، وبتفصيلاتٍ أكثر.

أمَّا الزواج؛ فالأصل ألَّا يذكره أحدٌ به في هذه السن، ولا حتىٰ كتفكيرٍ عابر، وذلك للأسباب الآتية:

أولًا: يُعتبر الزواج خطوةً متقدِّمة جدًّا من الالتزام طويلِ المدىٰ، وهذا يعاكس طبيعة الشاب المائل إلىٰ التغيير، والتجديد، والتجربة، والباحث عن تلك العلاقة شبه الكاملة، التي يغلب علىٰ ظنه أنه يجب أن يقضيَ فيها الجزءَ الأكبر من عمرهِ حتىٰ الممات، وهذا يتطلب مرورَه بأكثر من علاقة حتىٰ يستطيع تقييم نفسه، وما يحب وما يكره، وبالتالي تجد الفترة المتوسِّطة في معظم العلاقات (الجادة) تتراوح بين نصف السنة، والسنتين في الأغلب .. ومع ذلك أقول إنَّ لهذا استثناءاتٍ عديدة؛ إذ أعرف زميلةً قديمةً علىٰ علاقةٍ بشابٍّ منذ ثمانِ سنوات بغير زواج، ولا ينتوون الزواج قريبًا، ومع ذلك يبدو أنَّهم علىٰ درجة كبيرة من الاستقرار، والسعادة سوية، ويعتزمون إكمال ذلك.

زميلة عملٍ في سنٍّ مقاربٍ للأولىٰ، ظلَّت علىٰ علاقةٍ بشابٍّ عشر سنواتٍ، ثمَّ حَمَلت وتزوَّجته، وهي الآن حاملٌ بالثاني.

زميلتا عملٍ أخريان أكبر سنًّا منَّا كثيرًا، تعرَّفت الأولىٰ علىٰ زوجها الحالي وهي بنت (١٩ سنة)، وظلَّا علىٰ علاقةٍ حتىٰ أتمت السادسة والعشرين، ثم تزوجا ولا يزالان متزوجان إلىٰ الآن بعد نحو خمس وعشرين سنة، والأخرىٰ تزوجت في الثانية والعشرين، وكانت سعيدةً مع زوجها طيلة نحو عشرين عامًا حتىٰ تُوُفِّيَ قبل عامين، وإن كان المُشاهدُ أنَّ هاتين الحالتين هما الاستثناء النادر، وتجده في مناطق القرىٰ، والأرياف الألمانية أكثر من المدن الكبيرة.

ثانيًا: الزَّواج مصحوبٌ بعددٍ كبيرٍ من الالتزامات المادِّيَّة بقوة القانون، وأغلبُها يكون في صالح المرأة إلىٰ حدٍّ كبير، فيُلزمُ الرجل بعد الطلاق بالإنفاق عليها، وعلىٰ أولادها، ويقتطعُ لذلك من راتبِه أكثرَ من النصف أحيانًا، وقد يحدث أن يكون للمرأة من بعدِه عشيقٌ جديد، ويظل الزوجُ السابقُ ملزمًا بالإنفاق طالما لم تتزوَّجه، وهذا ينفر كثيرًا من الشباب من الزواج؛ لأنَّه مخاطرةٌ كبيرةٌ جدًّا، خصوصًا مَنْ كان منهم صاحبَ طموحٍ مادِّيٍّ ما؛ إذ يضع مستقبله المهني، والمالي كله بالزواج تحت رحمة الزوجة، تستطيع القضاء عليه متىٰ شاءت.

ثالثًا: عنصرٌ كبيرٌ دافعٌ إلىٰ النفور من الزواج، (وأزعم أنَّه هو الأقوىٰ تأثيرًا بلا منازع) مرتبطٌ بطبيعة التمرد العام لدىٰ شباب الأوروبيين علىٰ كل ما يتصل بالموروثات الدينية، والاجتماعية القديمة، فالزواج عند كثيرٍ منهم ما هو إلا عرفٌ قديمٌ قاصرٌ علىٰ كبار السن المرتبطين عاطفيًّا بالماضي، وينبغي تجاوزُه، والمُضيُّ قُدُمًا .. فإذا حدث، واستمرت علاقةٌ، ورضي بها طرفاها، وبلغا منتصف الثلاثينيات أو أواخرها، هدأت نبرة التمرُّد تلك، وفكَّرا في الزواج بجدية؛ نظرًا لما له من امتيازات كثيرة في القانون الألماني، فالزواج يُتيح للزوجين الاختيار بين أكثر من نموذج ضريبي، (إما أن يقع أحدهما في

الشريحة الثالثة، والآخر في الشريحة الخامسة، أو يختار كلاهما أن يصنَّفا ضمن الشريحة الرابعة)[١] بما يوفِّر لهم في نهاية المطاف مبلغًا معتبرًا في نهاية العام.

والفرد الواحد له مبلغٌ ما مُعفىٰ من الضرائب يبلغ حوالي (٨٦٠٠ يورو)، فإذا انتهت السنة المالية يُقدِّم نموذجًا فيه بعض البيانات، وترد الدولة له الضرائب التي دفعها عن هذا المبلغ، فإذا تزوج، اعتُبرَ الزوجُ والزوجةُ وحدةً ضريبيَّةً واحدة، وهذا يفيد منه الزَّوجان خصوصًا إذا كان أحدهما لا يعمل، فيتضاعف المبلغ المعفىٰ من الضرائب للثاني.

هذا إلىٰ جانب ما يترتب علىٰ الزَّواج من أحقيَّة الإرث، والتمثيل القانوني، وحتىٰ تفاصيل أخرىٰ، مثل: الاطِّلاع علىٰ التقرير الطِّبي، ومناقشة الأطباء المعالجين في المستشفىٰ باسم الزَّوج إذا وَقَع له مكروه، وهذا لا يحقُّ لأحدٍ إلَّا أقارب الدرجة الأولىٰ، والزوج فقط، ومن سوىٰ ذلك (بما يشمل العشيق) لا يحق لهم معرفةُ أيْة معلومات عن حالة أحد المرضىٰ المحتجزين، ولو كان غائبًا عن الوعي؛ لأنَّ هذا يدخل ضمن بنود حماية المعلومات الشخصية، والألمان لا يتهاونون في هذا إطلاقًا.

ونعرج سريعًا علىٰ الامتيازات التي تُمنحُ بمجرد إنجاب الأطفال، فمنها أنَّ المبلغ المعفىٰ من الضرائب المذكور آنفًا يزيد نحو (٧٢٠٠ يورو) للطفل الواحد، وقد ذكرنا راتب بدل الأطفال، وكذا ما يحق من «عطلة الأبوة»، وفي حالة كون الأب هو العائل الوحيد للأسرة، والأم لا تعمل، وبالتالي هي متفرِّغةٌ أصلًا للقيام علىٰ أمر الطِّفل، يحقُّ لها الحدَّ الأدنىٰ من «بدل التربية»، وهو يزيد قليلًا عن (٣٠٠ يورو شهريًّا)، حتىٰ تنقضي فترة الـ (١٤ شهرًا).

---

(١) هناك ستّ شرائح ضريبيّة مختلفة في ألمانيا بحسب الحالة الاجتماعيّة، ومقدار الدّخل السّنوي، ونوع مصاره وفقَ نظامٍ معقّدٍ جدًّا يطول شرحهُ، وليس هذا محلّه.

وهذه الامتيازات جزءٌ من سياسة الدولة المتبعة منذ عشرات السنين لتشجيع الشبان الألمان علىٰ الزواج، ليس إيمانًا من الدولة بضرورة الدفء الأسري للمجتمع القويم؛ فهذا لا يعينها، وإنَّما الحاكم هنا بالأساس هو الأرقام، فالتقارير تشير منذ فترة أنَّ سوق العمل الألماني المتعطِّش في جميع التخصُّصات العليا تقريبًا يخسر سنويًّا عددًا كبيرًا من العاملين فيها بفعل الإحالة للتقاعد، بغير أن يعوِّض هذه الخسارة دماءٌ جديدة؛ لانحسار نسبة المواليد في العقود الأخيرة كثيرًا .. ومع ذلك لا ينجح كلُّ هذا في التأثير علىٰ الشباب، ودفعهم إلىٰ الزَّواج بشكلٍ فعَّال، للأسباب الثلاثة التي ذكرتُ آنفًا ولغيرها، ويُختصرُ ذلك في: «الإحجام الكبير عن الالتزام الكامل بعيد المدىٰ»، وعوامل أخرىٰ.

وأرىٰ هاهنا من المهمّ -طالما نظرنا إلىٰ نموذج الزَّواج عند الألمان، وحلَّلْنا عناصرَها- أن نستعرضَ موقفَ الألمان من نموذج الزَّواج لدينا .. فإن أنتَ أخبرتَ أحدَ الألمان عن منظومة الزَّواج لدينا، رأيتَ في عينيه إنكارًا هو في الحقيقة أشدَّ فَزَعًا، واستشناعًا من إنكارك عليهم طريقتهم.

فإذا نحَّينا جانبًا ما هو مرتبطٌ بالزواج عندنا من تكلفةٍ باهظةٍ، كالمسكن المملوك، والأثاث الجديد، والفرح، والزينة، والفقرات، ونحو ذلك من الهراء، وهذه وحدها كفيلةٌ بأن يحكم الألماني علىٰ نموذج الزواج عند العرب بالجنون، أقولُ إذا نحَّينا كلَّ هذا جانبًا، ونظرنا فقط إلىٰ موقفهم من فكرة الزواج كوسيلةٍ مشروعةٍ واحدة لتحقيق الاتْصال بين الرجل والمرأة، سمعنا منهم اعتراضاتٍ أبرزها ما يلي:

* هذا النموذج يقدحُ في أساسٍ أصيلٍ من أساساتهم، وهو التجديد والتجربة؛ إذ ليس من المتصوَّر عند الألمان أن يقضي المرء حياته لا يعرف - في مساحة هذا النوع من العلاقات- إلَّا شخصًا واحدًا، وقد كان بيني، وبين طالبة تدرس الماجستير في العلوم السياسية منذ أكثر من ثلاث سنوات، حديثٌ مطوّلٌ بهذا الصَّدَد، ختمته بأن اختصرت موقفها من هذا، (أي الرجل والمرأة

يقضيان حياتهما كلَّها لا يعرف الواحد منهما إلَّا الآخر) باعتباره بالنسبة إليها نموذجًا «بائسًا حزينًا».

* يعتبر الألمان فترة الخطبة، وكل ما يسبق الزواج (الذي هو عندهم ذلك الالتزام الكبير المرعب) بتصوُّره الإسلامي الذي يخلو من اللمس، والاختلاء، والانطلاق بغير إشرافٍ من الأهل، غير كافيةٍ إطلاقًا لحسم الموقف من قضيَّةٍ بهذه الخطورة، بما يحمل ذلك من مخاطرةٍ كبيرةٍ بالدخول في علاقاتٍ الأصل فيها هو الطول والاستمرارية، مع شخصٍ ربَّما لا يكون مناسبًا إطلاقًا، هذا والتراجع صعبٌ للغاية، وإن كان الزواج عندنا ليس مصحوبًا بذلك التقنين القاسي الذي عند الألمان؛ إلَّا أنَّ ما ارتبط بالزواج من تكلفة، وكذا موقف المجتمع من الطَّلاق، جعلا التراجع أعسر.

* دور الأهل في عمليَّة الزواج كلِّها في المجتمعات العربية مستهجنٌ عندهم ومستشنع، ويسهل علىٰ القارئ أن يستوعب ذلك إذا ما استحضر الصُّورةَ التي رسمناها سويَّةً عن الألمان، وخصائصهم بهذا الصَّدد، وهذا الموقف الرَّافض ليس قاصرًا فقط علىٰ هذه الصورة العربيَّة الممسوخة (المبالغ فيها)، والتي لا أصلَ شرعيَّ لها، وإنَّما يشمل الصورة الشرعية الأصليَّة بامتياز، ويكفي ذكرُك (ولاية الأب علىٰ ابنته) للفصل في أمرِ زواجها فقط، كي تستشيط المستمعة الألمانيَّة غضبًا.

* الزواج بهذه الصورة -وما يتبعه من أطفالٍ في سنواته الأولىٰ غالبًا- يمثِّل بالنِّسبةِ إليهم عائقًا كبيرًا يحول دون الانطلاق في الحياة واستكشافها، والاستمتاع بنعيمها، فالفرد الوحيد الذي كان يستطيع وقتما شاء أن يضع حقيبته علىٰ ظهره، ويمضي إلىٰ حيث تحدوه الريح، ينفق في ذلك كل ما ادّخر ثم يعود إلىٰ الصفر ويصعد، لا يستطيع أن يُقدمَ علىٰ مثل ذلك إذا كانت هنالك أسرةٌ يعولها، والفتاة التي تحمل؛ تُعاق عن الحركة صحِّيًا ردحًا من الزمان، وتكون ممنوعةً من كافَّة أنواع الشَّراب المحبَّب إليها (أعني الخمور)، وكذا من السجائر، حتىٰ إذا وضعت ارتبطت بقيد الطفل، فلا تستطيع أن

تفارقه، وتودِّع بذلك ليالي السَّهر في صالات الملاهي، وقضاء العطلة الأسبوعية مع الصديقات في منزل إحداهنَّ، وما إلىٰ ذلك.

* وقوامة الرجل علىٰ المرأة في الزواج مرفوضةٌ بالكلية كذلك، بل هو من الأوتار الحسَّاسة عندهم؛ إذ ليس للزوجِ علىٰ زوجته (وقس علىٰ العشيق، والعشيقة اللذين وصلا إلىٰ مرحلة السكن المشترك) في عرفِهم فضلٌ في شيء، واستئذانه في الخروج، أو ممارسة أيِّ فعلٍ أيًّا كان، لا يقع أبدًا، في حين أن استئذانه هو إياها -ومشاهدة ذلك طريفةٌ جدًّا- يقعُ كثيرًا، خصوصًا في العلاقات المعمِّرة.

* أضف إلىٰ ذلك ما سبق، وذكرنا من تمرُّدٍ شبه فطري عندهم علىٰ كل أشكال القيد الديني، وبالتالي؛ فإنَّ هذا القيد (الصارم) علىٰ حاجةٍ من أشد الحاجات الإنسانية الطبيعية تأثيرًا عليه، بدافع ديني ليس مستساغًا، ولا متقبلًا إطلاقًا .. (وردّ كل هذا ودحضه -فيما يتعلق بالصورة الشرعية طبعًا- يسيرٌ جدًّا بطبيعة الحال، لكنَّ هذا ليس مقام تنفيدٍ، وإنَّما مقام عرضٍ، وتحليل).

وقد يتساءل القارئ هنا (أو هو ربما يتساءل من فترة) عن علاقة هذا الكلام كله بفكرة السفر عند الألمان، والآن- بعد أن فرغتُ من تحليل هذا الجانب الواسع أبيِّن العلاقة.

فجانب العلاقات العاطفيَّة، والجنسية، وإشباع حاجاتها، هو من أكثر الجوانب تأثيرًا عليه، وعلىٰ استقرار نفسه، ولا يستطيع الإقدام -بكفاءةٍ كبيرةٍ- علىٰ ما دونها من حيث هرم الحاجات؛ إلَّا وقد أشبعها، أو علىٰ الأقل اتَّضح له الطَّريق لإشباعها .. ولذلك تجد فكرة الزواج هذه عائقًا كبيرًا عند الشباب العرب عن السفر؛ إذ بالهم منصرف عنه إلىٰ تدبير أمر زواجهم؛ إلَّا أن يكون السفر نفسه وسيلةً للتعجيل بالزواج، أما السفر من حيث هو مدرسة مربِّية فلا مجال له قبل الزواج للانشغال بتدبيره، ولا بعد الزواج لانشغاله به بنفسه.

أمَّا الألمانيّ الذي هو متحرّرٌ من هذا القيد؛ لتوافر الإشباع بغير الحاجة إلىٰ الزواج، أقدر كثيرًا علىٰ الإقدام، والترحال، وخوض التجارب، فلربَّما

كانت له عشيقةٌ بالفعل فتصحبه ويمضيان، أو ربما يتركها إذا ما كانت عائقًا له عمَّا يبغي من الترحال، أو ربَّما يتعرَّف في سفره علىٰ فتاةٍ أخرىٰ تكشف له أسرار البلد الذي هو فيه، ويقضيان معًا وقتًا ممتعًا، بل ربَّما يعود بها إلىٰ بلده، أو يختار أن يبقىٰ هو في بلدها إن تيسَّر، وملكت من قلبِه مكانًا كبيرًا، وفي كل الأحوال فطريق العودة مفتوحٌ متىٰ أحسَّ أنها ما عادت تناسبه أو العكس . . وهذا كلُّه بالطّبع أدعىٰ أن يسافر، ويستكشف، ويتجوَّل، ومن وراء كلّ ذلك وعلىٰ رأسه، أن يتعلّم.

أمّا الشّابُّ العربيّ المسكين، حتّىٰ لو أنّه اكتشف -من تلقاء نفسه- أهمّية أن يمضي في آفاق العالم، فإنَّ شبح الزواج يظلّ يطارده ويعوقه، وليس من العدل أن يخيّر بين إشباعِ حاجته هذه -مادّيًا ومعنويًّا- وأن يشبع نهمَ المعرفة، والخبرة، وحاجته إلىٰ تطوير مداركه، بل العدل أن يُيَسَّر له الجمع بين هذه وتلك.

(٦) حالة البحث عن الحقيقة: (وفي هذه النقطة تحديدًا أخرج عن الحياد اضطرارًا) . . وهذه ظاهرةٌ لا ينجح الألمان أنفسهم في تحليلها غالبًا؛ لأنَّها مرتبطة بخطأ قديمٍ (علىٰ الأقل نحن كمسلمين نعتبره كذلك)، وقعت فيه المجتمعات الغربيّة لن يعترفوا به قريبًا، وهو أنّهم في لحظةٍ تاريخيّةٍ ما[١]، (قرروا) أن ينفوا عن الظّاهرة الإنسانيّةِ كلّ ما هو غير مادّيّ، وأثبتوا له

(١) قد تختلف الآراء كثيرًا حول تحديد اللّحظة، الأكيد أنها تكوّنت عبر (ومَضاتِ) متعدّدة في تاريخ القارّة الأوروبيّة، بدءًا بنشوء الديمقراطيّات البدائيّة عند الإغريق واليونانيين القدماء، وامتدّت عبر العصر الرّومانيّ، لكنّ أبرزَ تجليّاتها، ونقلتها من الفلسفات الهلاميّة إلىٰ الواقع المؤثّر علىٰ كافّةِ طبقات النّاس، كانت الثّورة الفرنسيّة بلا شك، وما أعقبها من نشوء نماذج الليبرالية الحديثة، والتي جذورها ضاربةٌ في عقول الأوروبيّين اليوم، ومعلومٌ أنَّ الثورة الفرنسية -وتبعاتها في أنحاء القارّة- قامت ضدّ الديكتاتوريّات الملكيّة المدعومة بالمباركة الكنسيّة الدينيّة، وبالتالي فطبيعيٌّ أن ينسحب عداء عامّة النّاس الموجّه ضد الملك، وما ينسب إليه من مظالم إلىٰ الكنيسة، ومن ثَمَّ إلىٰ الدين ككل.

الجانب الماديّ فقط، واعتبروا حقيقته كلّها تكمن في جنبات هذا (المادي) .. وبالتالي أُلغيت مساحةُ الغيبيّات تمامًا، وأصبح كلّ شيءٍ خاضعًا للتفسير (العلميّ/التجريبيّ)، ولم يلتفتوا إلىٰ أنَّ هذا النّهجَ يعجزُ عن تفسيرِ ظواهرَ لا يستقرّ مكنون الإنسان، ولا يهنأ له عيشٌ طالما لم يملك لها تفسيرًا يروي ظمأه، ويُطمئِنُ قلقَه.

وبدلًا من الإغراق في هذا الكلام الفلسفيّ المجرّد، أعود بالقارئ إلىٰ أرض الواقع، هنا تجدُ شبابًا كُثُرًا تائهين، هذه الإعلانات، والدّعايات، وصيحات الملبس، وتكنولوجيا المعلومات، وتقنيات الترفيه، وتتابع الأخبار، والفرقعات، وتحديث كافّة أشكال المستهلكات يوميًّا، وهذه الدّائرة الدّائبةُ من جلبِ مالٍ هنا لإنفاقه هناك .. وهكذا، كلّ هذا -يا صديقي- ليس سوىٰ (مسكّنات)، محاولةٌ مستميتةٌ لإلهاء روحِ الإنسان التي خُيِّلَ إلىٰ هؤلاء النّاس أنهم نجحوا في قتلها بمجرّد نفي وجودها، وقد التقيتُ أناسًا كثيرين وقفوا علىٰ هذا العَرَض، وأمضوا كثيرًا من أوقاتهم لمحاولة علاجِه، وما استطاعوا؛ لأن وقوفهم علىٰ العَرضِ ما أوصلَهم بعدُ إلىٰ السّبب.

ومحاولات العلاج اليومَ تتكاثر وتتزايد، تأخذ صورةَ الاحتجاج العام علىٰ النّظام بشقّه السّياسيّ المباشر (في شكلٍ يشبه المنحىٰ الأناركي أحيانًا كثيرة) تارة، وتأخذ صورة الدعوات إلىٰ تعديلٍ صارمٍ في أنماط الاستهلاك كنحو مقاطعة متاجر الملابس زهيدةِ الثمن، والتي عُرِفَ عن أصحابها أنّهم يشغِّلون أُناسًا بالسّخرة في أفريقيا، وأمريكا اللاتينيّة، والصّين؛ لأجل تحقيق أقلّ تكلفة، والبيع بأرخص الأثمان، تارةً أخرىٰ، (وأزعم أن جانبًا من حركات النّباتيين داخلةٌ في ذلك أيضًا)، ويشمل هذا الحركات (المتطرّفة) التي تدعو إلىٰ كافّة أشكال حماية البيئة بأيّ ثمن، وتعترض علىٰ كلّ ما تعتبرُه اعتداءً عليها مهما كانت حاجة الإنسان إليه، ولا أقصد بذلك الذين يدعون إلىٰ حماية البيئة حفاظًا علىٰ استمراريّة الإنسان علىٰ الأرض، وإنَّما أقصد الذين يعترضون بِناءً علىٰ التّصور القائل إنَّ الإنسان ما هو إلَّا عنصرٌ من عناصر

الطبيعة لا يفضل غيرَها من العناصر في شيء، وبالتالي لا يحقّ له أصلًا أن يتجاوز في استهلاك بقيّة عناصرها إلا بالقدر الذي يردّ به إلىٰ الطبيعة شيئًا في المقابل، علىٰ نحوٍ يشابه (سلاسل الغذاء) الطبيعية المعروفة، وهذه السلسلة الخاصّة بالإنسان فيها خللٌ هائلٌ عندهم طبعًا باعتبار الإنسان يأخذ من الطبيعة فقط، ولا يردّ شيئًا إليها.

وانتشرت في الآونة الأخيرة أنماطٌ من أناسٍ يستقيلون من أعمالهم، ويفارقون منازلهم، ويتجّولون في العالم الشّاسع، ويشتغلون بالأشياء التي يمكن أن يتقاضوا في مقابلها مالًا عبر الإنترنت، ويظلّون علىٰ هذه الحال سنين، ويصورّون مقاطع فيديو، وينشرونها للناس في سعادةٍ بالغة.

حدّثني صديقٌ عن ألمانيٍّ يقيم في أحد المعابد القديمة في اليابان، حيث خلقوا في هذا المعبد بيئةً منفصلةً تمامًا عن العالم، ليس فيها من وسائل الاتصال بالعالم الخارجيّ إلّا أقلّه الضروري فقط، ويأكلون ويشربون ممَّا يزرعون ويحصدون، وقد وردت عليّ أنماطٌ كثيرةٌ شبيهةٌ بهذا.

كلّ هذه محاولات للخروج من هذه الحركة الاهتزازيّة المدمّرة التي يفرضها نمط الحياة في هذه المجتمعات علىٰ أهلها، بحثًا عن السّلام الداخليّ والهدوء، أو يسمّونه أحيانًا (البحث عن معنىٰ الحياة).

والشّاهد من كلّ ذلك أن الشاب هنا في الحقيقة -ولو بغير وعيٍ منه لذلك- هو في حالة بحثٍ دائم تزيد من دفعه إلىٰ السفر، ورؤية ما ربّما يمتلكه آخرون من إجابات، لعلّه يقنعُ بها، ويهتدي.

أنواع السفر:

نعود الآن إلىٰ فكرة السفر فنتناول أنواعه المُتاحة، ونحن نقصد هنا بالطبع السفر من حيث هو تجربة، وخبرة حياتيّة، وبالتالي تستثني منها ما ذكرته من أمثلةٍ سابقة لا ينطبق عليها هذا الوصف:

(١) سفر السياحة والتعارف:

وهذا يكون بضعة أيّام فقط، إمّا بغرضِ السياحة العامّة، أو المشاركة في مؤتمرٍ، أو حدثٍ ما يستمرّ يومًا أو يومين أو ثلاثة، وتتخلّله مساحاتٌ تسمح بالتجوّل في البلد، والتعرّف إليها .. وشرط اعتبار هذا خبرةً حقيقيّة؛ هو تحرّي المخالطة قدر الاستطاعة كما ذكرنا، وأغلب النّاس يجدُ صعوبةً بالغةً في ذلك أحيانًا، علىٰ أنّه يسيرٌ جدًّا.

كنتُ وثلاثةٌ من زملائي من كلية الصيدلة بجامعة الإسكندرية، مشاركين بمؤتمرٍ علميٍّ في اليابان، مدته ثلاثة أيّام، وأتبعناها بأسبوعٍ آخر لأنفسنا .. وكنت في خلال فقرات هذا المؤتمر أتحرّىٰ التّعرف إلىٰ أقراني اليابانيين، ومحادثتهم، وفتح الحوارات في شتّىٰ الموضوعات، وكانوا يتلقّون ذلك بحبورٍ فائض، ثم كنت أقترحُ دائمًا -عند نقطةٍ معينة- أن نكمل حديثنا في لقاءٍ مستقلّ عن المؤتمر في المساء في أحد المطاعم، أو الأماكن العامة، ودائمًا ما كان يُقابلُ هذا المقترحُ بالقبول والاستحسان، فما أن ينتهي المؤتمر حتّىٰ نعود إلىٰ الفندق نأخذ قسطًا بسيطًا من الرّاحة، ثم أعود إلىٰ المكان المتّفق عليه، ألتقي جمعًا من اليابانيّين، ونُمضي سوية ساعات جميلة، تعرفت في خلالها علىٰ كثير من خصائص اليابانيين وثقافتهم، وموقفهم من القضايا الإنسانيّة التأسيسيّة، في وقتٍ قصير، علىٰ عكس زملائي المصريين الذين كانوا يفضّلون رؤيةَ المتاحف، والمعابد، والمزارات، علىٰ التعرّف إلىٰ اليابانيّين أنفسهم، وفي هذه المفارقةِ إسقاطٌ آخر علىٰ الخلل في مفهوم المصريين عن سفر السياحة، وعن السفر عمومًا.

وكنتُ شاركتُ في بعثتين متتاليتين إلىٰ ألمانيا، في (٢٠١٣ م)، و(٢٠١٤ م)، مخصّصتين لبضع عشر طالبًا وطالبة من جامعة الإسكندرية في تخصصات مختلفة، للتعرف علىٰ الحياة الجامعيّة، والنّشاط الطلابي، والشبابي في ألمانيا، خلال أسبوعين كاملين .. وكذا كانت الحال فيهما تمامًا كما ذكرتُ

من حال زيارة اليابان، من كثرةِ المحادثات الجانبيّة -الزائدة عن موضوع البعثة نفسه- والعلاقات البينيّة، والجلسات التي تستمرّ بالسّاعات، وما فيها من تبادلٍ للآراء، والمعارف، والمواقف، وفهمٍ للآخر ومعطياته، ولا أزال حتّىٰ اليوم علىٰ علاقةٍ قويةٍ بنسبةٍ كبيرةٍ ممن تعرفت إليهم في هذه التجارب الثلاثة .. وكذلك كانت حال بقية المصريين في البعثة، من الانصراف عن كلّ ذلك إلىٰ التبضّع، والتنزه في المزارات، ونحو ذلك.

(٢) سفر التدريب:

وهذا السفر يهدف بالأساس إلىٰ اكتساب المهارة الفنّية، أو التقنيّة في تخصص الدراسة، ويختصّ بالطلاب، وحديثي التخرّج في الأغلب، ويتراوح بين شهرٍ وثلاثة أشهرٍ، وغالبًا ما يكون في خلال فترة إجازة الصيف؛ لما تتيحه من سفرٍ بغير انقطاعٍ عن الدراسة، علىٰ أنّه قد يمتدّ إلىٰ ستة أشهر، ويكون حينها بُعيدَ إتمام مرحلة الدراسة الجامعية مباشرةً.

وهذا النّوع سأستفيض فيه؛ نظرًا لما أراه فيه من وجوبٍ علىٰ الشباب جميعًا، في جميع التخصصات والمراحل، بصرف النظر عن موقفهم من الإقامة في الخارج.

الفكرة كلها هاهنا مرهونةٌ بإيجادِ مكانٍ ما (معهدٍ، أو جامعة، أو مركز أبحاث، أو شركة، أو مصنع) يعمل في التخصّص الذي يحبه المرء، شريطة أن يكون قريبًا من مجال دراسته .. والبحث عن ذلك سهل، ونتائج البحث كثيرةٌ جدًّا، ويبقىٰ أن تتمَّ المفاضلةُ بينها علىٰ ما هو أنسب للشخص نفسه، فيستقرّ خلال فترة البحث علىٰ نحو مائة مكانٍ (محتمل) .. وقد يتراءىٰ للقارئ أنَّ هذا الرقمُ كبيرٌ جدًّا، غير أنّي سأبين بالتّمثيل أنّه ليس كذلك.

قضيتُ صيف (٢٠١٥ م)، وكذا صيف (٢٠١٦ م) كاملين في تدريبٍ مماثل في فريقين بحثيّين مختلفين في برلين، وكنت أبحث في كلتي الحالتين عن فريقٍ بحثيّ في واحدٍ من عدّة تخصُّصات دقيقة تعتبر كلّها مقبولةً، ومحبّبةً

إليّ، فوجدتُ مثلًا -في المرة الأولىٰ- مركز أبحاثٍ ضخمٍ في برلين، يعمل به نحو ١٠٠ فريقٍ بحثيّ مختلف، أكثر من نصفها يعمل في تخصصاتٍ قريبةٍ إلىٰ ما أحبّ . . وكذا كان الحال في المرّة الثانية، وجدت عدّة مراكز تابعة للجامعة الحرّة في برلين، فيها عددٌ مقاربٌ من الفرق والتخصصات، وفي خارج برلين وجدت في جامعة هايدلبرج علىٰ سبيل المثال نحو ثمانين فريقًا آخر، وفي جامعة بون نحو خمسين، وهكذا في طول البلاد وعرضها، هذا والطالب ليس مقيدًا في هذا بألمانيا وحدها أصلًا، بل هناك بريطانيا، وفرنسا، وكندا، وهولندا، كلّها متاحٌ فيها مثل هذا التدريب.

وبالتالي لا تكاد الفرص تحصىٰ، ولا يحتاج الأمر إلّا شيئًا من الاجتهاد في البحث، وما وجدتُ أحدًا سعىٰ في هذا الطريق بحقّه إلا وحصل علىٰ مبتغاه في نهاية المطاف، ففي صيف (٢٠١٥) مثلًا كنّا نحو (٢٥ طالبًا) من جامعة الإسكندرية وحدَها، بيننا طلبة طبٍّ، وصيدلة، وهندسة بأنواعها، عينا في هذا الطريق بالتوازي، وكلٌّ وصل إلىٰ فرصةٍ جيّدة.

الذي يتلو مرحلة البحث، وتحديد الأهداف المحتملة، هو بدء التواصل، وهذا يتطلّب شيئين: إعداد سيرةٍ ذاتيّة، (ولن أفصّل فيها؛ لأن الوصول إلىٰ القول الفصل في طريقة إعدادها متاحٌ يسير)، ورسالةٌ افتتاحيّةٌ عامّةٌ علىٰ البريد الإلكتروني يعدّل الطّالب فيها شيئًا يسيرًا يختلف باختلاف المخاطَب، وتفصيلها -وفقًا لما خبرتُ- كالتّالي:

تتكوّن هذه الرسالة من أربع فقراتٍ أساسيّة: في **الفقرة الأولىٰ**: تعريف عامٌّ بالذات، بذكر الاسم، والسّن، والجامعة، والتخصص، والسّنة الدراسيّة، وتوضّح شغفك بهذا التخصص في العلم، وعن الذي دفعك إلىٰ التأثر به (تجربة فلان من العظماء، أو الاكتشاف الفلاني الذي دفع الإنسانيّة خطواتٍ إلىٰ الأمام، ونحو ذلك).

الفقرة الثانية: تتحدث عن المستقبل الذي يخطّط له الطالب، كنحو ترتيبه أن ينهي دراسة تخصصه بشهادة البكالوريوس، ويبحث بالتوازي عن

فرصة للماجستير في بلدٍ آخر، (ويفضّل أن تكون البلد الذي ينوي فيها التدرّب)، وبعدها يقدمُ علىٰ الدكتوراة، ويستحبّ في هذا التفصيل قدر المستطاع؛ كي يتبيّن المطالِع أنَّ صاحب الرسالة جادٌّ فيما يقول، فيحاول أن يتحدّث تفصيلًا عن التخصص الدقيق الذي يرغب أن يتابع فيه حياته المهنيّة، بشكلٍ يبيّن أنّه ما كان ليستطيع الوصول إلىٰ هذا التفصيل لولا أنَّه قضىٰ وقتًا طويلًا في الاجتهاد والسّعي، وليس مجرّد شابٍّ جلس الآن، وفكّر لتوّه، وأتىٰ بالكلمات من الهواء في التّوّ، واللّحظة.

الفقرة الثالثة: تتحدّث عن مميّزات البلد، (أو المقاطعة، أو الجامعة، أو المركز، أو الشركة) التي يعمل بها المخاطِب، ولماذا يعتبرها الطالب مكانًا جيّدًا يواصل فيه تعليمه، وبالتالي يرغب أن يتدّرب فيه.

الفقرة الرّابعة: تتحدّث عن المطلوب من المخاطب بإيجاز، فيقال -مثلًا-: إنَّ المطلوب هو إتاحة فرصةٍ للتدريب تحت إشرافه في المجال الفلاني الذي يعمل به، مع تحديد هذه المدّة بالتواريخ، ومهمٌّ جدًّا التأكيد علىٰ أنّ الطالبَ لا يريد مقابلًا ماديًّا جرّاء تدريبه، بل هو متكفّلٌ بتكاليف سفره وإقامته، ويبحث فقط عن مكانٍ يتيح له أن يتعلّم فيه.

فإذا أعدّ الطالب رسالةً محكمةً بهذا الفحوىٰ، وأعدّ سيرةً ذاتيّة علىٰ النحو المطلوب، وراسل بهما نحو (١٠٠ مكانٍ) -ويزيد- يشتغل بما يرغب الطالب أن يتخصّص فيه، وكان كلّ ذلك في وقتٍ مناسب قبل فترة التدريب نفسها، (أي: قبله بنحو ستّة أشهر مثلًا)، حصل له في أغلب الأحوال ما يريد.

وأحبّ أن أفسّرَ هنا ما قد يقفز إلىٰ ذهن القارئ من تساؤل، حول السبب الدافع لهذا المخاطَب أن يقبلَ طلبًا كهذا أصلًا:

(أ) كثيرٌ من هؤلاء يقدّمون المساعدة لشباب الدول النامية، من قبيل المسؤوليّة الإنسانيّةِ المحضة، وإن كان أكثرنا متوهِّمًا أنَّ هذا الجانب غائبٌ عندهم، لكنَّه في الحقيقة حاضرٌ بقوّة؛ وبالتالي: فإنَّه يرىٰ شابًّا يغلب علىٰ ظنّه

أنّه مجتهد، ويسعىٰ بما يستطيع إلىٰ بناءِ مستقبلٍ جيّد لنفسه، ولكنَّ الظّروف أوجدته في بلدٍ ضعيف الإمكانات لسببٍ أو آخر، فيمدّ له يدَ العون كنوعٍ من التزكية عن حظّه (الأفضل) الذي أوجده في بلدٍ أكثر تقدّمًا واستقرارًا.

(ب) الربيع العربي أعطىٰ انطباعًا عامًّا إيجابيًّا عن شباب العرب في أذهان الغربيين، وحتّىٰ وإن كانوا علىٰ علمٍ أن معظم ما أعقبه من تغيّراتٍ كان إلىٰ الأسوأ؛ إلّا أنَّ هذا الانطباع الأوّل ما زال مؤثّرًا في جمعٍ واسعٍ منهم إلىٰ اليوم.

(ج) كثيرٌ من هؤلاء، وبخاصّةٍ القائمين علىٰ أماكن سيستمرّون فيها فترةً طويلة، يحبّون أن يشرفوا بأنفسهم علىٰ إعداد طلّابهم أو متدرّبيهم، فيرون في مثل هذا فرصةً لقوّةٍ عاملةٍ شابّة (محتملة) في المستقبل، ويتولّونهم بالرعاية ويختبرونهم، فإن وجدوا فيهم خيرًا عرضوا عليهم أن ينهوا دراستهم، ويعودون إليهم في صورة عملٍ مستقرّ، وليس تدريبًا عارضًا.

(د) البعض يرىٰ في مثل هذا فرصةً ليدٍ عاملةٍ مجّانيّة، فهذا القادم سيتولّىٰ جزءًا من العمل المكلّف به فردٌ آخر، بما سيترك لهذا الآخر مجالًا أوسعَ لإنجاز ما هو أهمّ، فيصل صاحب العمل إلىٰ نتاجٍ أكبرَ بغير أن يضطر إلىٰ دفع راتبٍ زائد، وفي أسوأ الأحوال -لو أنّ هذا الطالب تبيّن أنّه لا يصلح لشيء- فإنَّه لم يخسر شيئًا.

وباستحضار هذا= يستطيع الطالب أن يصوغ رسالةً تستند علىٰ هذه المعطيات، فتزيد نسبة القبول لديه، ويقضي فترةً ممتازة، لا يتاحُ له فيها مستوًىٰ أفضل كثيرًا من التعليم والتدريب فحسب، وإنَّما خبرةٌ حياتيّةٌ كاملةٌ قيّمةٌ جدًّا.

(٣) سفر الدراسة:

وهذا يشمل دراسة البكالوريوس كما دراسة الماجستير، ويمتدُّ لسنين بطبيعة الحال، وهو خطوةٌ أجرأ، وأكثر إقدامًا من التدريب الآخر؛ لذلك

لا يصلح -بخلاف السابق- إلَّا لمن حسم أمره، وعزم علىٰ هجر بلاده وأهله فترةً طويلةً نسبيًّا.

(٤) سفر العمل والإقامة الدائمة أو شبه الدائمة:

وهذا يتطلّب سلسلةً عديدةً من الإجراءات التي ينبغي علىٰ المسافر أن يتجاوزها؛ لأجل أن يُعترفَ بما درس في بلده الأصليّ، ويُمنحَ التّراخيص اللازمة لمزاولة هذه المهنة في بلده الجديد، وهذا النوع، والذي يسبقه يتطلّبان إتقان لغة البلد إتقانًا معقولًا، وكلاهما يصبغان حياة المسافر بصبغة السّفر والاغتراب، شاء أم أبىٰ، علىٰ أنَّ نسب الإفادة من إيجابيّات السفر تختلف من شخصٍ لآخر، بحسب درجة نضجه لما سافر، وقدرته علىٰ التّعاطي مع السلبيّات.

العـوائـق:

بناءً علىٰ ما سبق؛ فإنَّه يتَّضح للقارئ ما في هذا الطريق من فائدةٍ عظيمةٍ متحملة، وإنِّي أنصح القرّاءَ باختلاف أنواعهم، ومشاربهم، وأعمارِهم نصحًا صادقًا، أن يدرسوا الإقدام بجدّيّةٍ علىٰ النّوعِ الأقرب إلىٰ أوضاعهم، وظروفِهم.

أما طلّاب الجامعات، أو حديثو التخرّج، فإنّي أُعاودُ التأكيد علىٰ أن سفرَ النوعِ الثّاني -فيما أرىٰ- واجبٌ عليهم جميعًا، حتّىٰ لو تقرّر لديهم يقينًا أن يُمضوا أعمارَهم المهنيّةَ كلّها في بلادهم، لا يسقطُ عنهم وجوبُ خوضِ هذه التجربةِ مرّةً في العمرِ علىٰ الأقلّ؛ فإنَّه يتركُ أثرًا لازمًا في فهم الحياةَ، والنّاس، والنّفس، لا أحسبُ أن يستغني عنهُ عاقل.

ومن هنا أعدّد أهمَّ العوائقِ التي تواجه المقدمين علىٰ هذا الطريق -وخصوصًا نوع السفر الثاني المذكور- منذ بدء خوضِه حتّىٰ تمامِه، وكيفيّة مجابهتِها.

(١) الأهل:

وقد بيّنّا أصلَ هذا العائقِ، وما هو ناتجٌ عنه من خَلَل، وكيف ينظرُ الأهل إلىٰ ابنِهم المُقدم علىٰ هذا الطريق -غالبًا- نظرةً تجمع بين الإشفاق علىٰ ابنهم من هذه المخاطرة، مع ما يظنّون فيه من الضّعفِ والهُزال، إلىٰ جانبِ ضعفِ اقتناعِهم بجدوىٰ هذا كلِّه وأهمّيته أصلًا، للأسباب المجتمعيّة التي ذكرناها، والواجب هنا إعمالُ كثيرٍ من الحِكمةِ والصّبر؛ إذ لا يصحّ أن تمضيَ في طريقٍ كهذا -مهما بلغت فائدته- ويكون الثّمن أن تخسر أواصرَ الصّلة بأولي رَحِمِكَ الأقربين، وإنَّما يجمعُ الشّابّ بين كثرةِ الإلحاحِ في هذا، والإصرار عليه بلا كَلَلٍ، ولا مَلَلٍ مهما واجه من صدودٍ وتثبيط، علىٰ نحو يرسّخ لدىٰ والديه القناعةَ أنّه لن يحينَ وقتٌ يُقلعُ فيه عن المُضيِّ في هذا حتّىٰ يبلغَه.

وبجانبِ ذلك -أي خطابِ الإصرار الذي لا يخلو من شِدّةٍ متأدّبة-، يعمدُ إلىٰ بذل ما يستطيع من الأسباب كي يثبتَ لهم أنّه يحسن الترتيب والتدبير، وأن إقدامه علىٰ خطوةِ السّفرِ هذه ليس اندفاعًا طائشًا، وإنَّما خطّةٌ محكمةٌ مدروسةٌ بعناية، ويعدّد باستمرارٍ ما في السّفر من ميزات، وما قد يعود محمّلًا به من الخبرات، وما سيضفي عليه من إثقالٍ للمهارات والمعارف، وإثراءٍ للطريق المهنيّ في المستقبل، ويكثرُ من ضربِ الأمثال ممَّن يعرف في الأوساط المشتركة بينه وبين والديه.

ويمضي في طريق الإعداد والمراسلات بالتوازي مع كلّ ما سبق، حتّىٰ إذا وصلَ إلىٰ شيءٍ ملموس، وحصل علىٰ موافقةٍ نهائيّة من مكانٍ، وشرع في ترتيب السكن، وإجراءات السفر، ومتطلبات التأشيرة، وأطلعَ أهلَه علىٰ كلّ ذلك في مرحلةٍ متقدّمة، وقد أحسن عرضَ الأمر علىٰ النّحو المذكور فترةً كبيرةً تسبق هذا الاطلاع علىٰ تفاصيل الترتيب، كان أهلُه أقربَ ما يكون إلىٰ مسايرتِه، وإبداءِ الرّضىٰ حتّىٰ، ولو جزئيًّا.

وأمّا إن بذل كلُّ ذلك علىٰ أكمل وجه، واستفرغَ وُسعَهُ أن يسترضيَهم، وأبوا إلَّا الصّدود بغلظةٍ دون النّظرِ إلىٰ شيءٍ ممَّا فعل ويفعل، فهنا ينظر في أمره، ويُعيدُ حساباتِه وفقًا لمعطياتٍ كثيرةٍ لا يمكن أن أحصرها هنا . . علىٰ أنِّي أقول في مثلِ هذا لو وقع، وما كان الرّفضُ مبنيًّا علىٰ سببٍ منطقيّ، ولم يكن الأهلُ في حاجةٍ ملموسةٍ إلىٰ ابنهم -والكلام هنا قاصرٌ علىٰ الشباب دون الفتيات- كنحو المرض، أو كِبَرِ السّنّ، أو ضرورة قضائه حوائجهم، أو النّفقة، أقول: لو انطبقَ كلّ هذا، فالأولىٰ فيما أرىٰ أن يمضيَ في طريقِه، ولو ضدّ رغبتِهم الصّريحة، علىٰ ألّا ينقطعَ عنهم ما استطاع، وأن يبذلَ كل سبيلٍ متاحٍ لاسترضائِهم حين يرجع، ولا يتخلّف عنهم من بَعدُ في مساحات البرّ المعروفة.

ذلك أنَّ منع الشاب البالغ الرّاشد المُنفِقِ علىٰ نفسه -وسنبيّنُ أمرَ المال- من خيارٍ كهذا، ليس من حقّ الأبوين أصلًا[(١)]، ولا يقع في نطاق برّهما إلّا أن يكونا في حاجةٍ كما بيّنّا، والذي سينزلُ علىٰ هذا القيد هنا، ويتقهقرُ عن إزالتِه سيظلُّ يدفعُ ثمنًا كبيرًا من عمرهِ في هذا الباب، وفي غيره، دونما حِكمة ظاهرة.

(٢) المال:

وهذا عائقٌ عسيرٌ في حالتين، الحالة الأولىٰ: هي التي ختمنا بها العنصرَ السابق، أي: إصرارُ الأبوين علىٰ الرّفض، بما يوجبُ علىٰ الابن إن أراد مخالفتهما أن يكون ذلك من حرّ ماله، والحالة الثانية: هي ضيق ذات اليد في الأسرة ابتداءً، علىٰ نحوٍ لا يمكنّ الأبوين -وإن قَبِلا الفكرة- من تقديم الدعم لتحقيقها.

---

(١) ومسالة «حقوق الأبوين»، ومفهوم عقوقهما شائكةٌ معضلة، ذلك أن الخلل في تصوّرها اليوم هائل، وابتذالها، واستغلالها فيما يخالف معناه الشّرعي واسعٌ جدًّا، وهي في حاجةٍ إلىٰ إعادة تحريرٍ، وتفكيكٍ، وتوضيح، وليس هذا مقامه، ولا أنا أهلٌ له، بل نطمع في فضل أصحاب الأقلام المعتبرة أن يفرّغوا لهذا مساحته المستحقّة؛ إذ البلاء من جرّاء هذا الخلل كبير.

والذي أراه بشكلٍ عامٍّ: أنَّ جميع الشباب من سنّ العشرين بأقصىٰ تقدير، ينبغي أن يسعوا سعيًا حثيثًا إلىٰ تحقيق نوع من الذّاتية في الإنفاق، حتىٰ لو لم يكونوا في حاجةٍ مباشرةٍ إلىٰ زيادة مال، لأسبابٍ كثيرةٍ لا ننتقلُ إليها الآن، إنَّما نتحدّث عن المال باعتباره وسيلةً ضروريّةً للسعي في طريق السفر الذي نحن بصدده . . وهذا يكون في جميعِ الأحوال أدعىٰ لقبول الفكرة، والنّزولِ علىٰ رغبةِ الشّابّ من قِبَلِ أبويه، إذا هو تعهّد بالقيام علىٰ نفقتهِ نفسهِ، وعدم تحميل أهله تكلفةً زائدة.

وطرق تحصيل المال بالنسبة لطلبة الجامعة اليومَ كثيرةٌ، لكنَّها تحتاج إعدادًا جيّدًا، وصبرًا في البحث، فهنالك طريق ترجمة المقالات والكتب، وإتقان الإنجليزية -مثلًا- علىٰ نحوٍ يكفي بالترجمة بصورةٍ دوريّة يتطلّب إعدادًا في بضعةِ شهورَ علىٰ الأغلب، وأبواب الرزق من خلال ذلك عديدة.

وهناك طرق مهارات الكومبيوتر، وعلىٰ رأسها التصاميم -بأنواعها- والبرمجة، وليس هذا الطريق قاصرًا علىٰ الطلاب المتخصصين في هذه المجالات، بل أعرف كثيرًا من الناس يشتغلون بهذا، ويتقاضون مالًا جيّدًا عنه، وهم يدرسون، أو يعملون في تخصّصاتٍ لا تمتّ إليه بصلة.

وأعرف أُناسًا اشتغلوا بأنواعٍ من الحِرَف، والصّناعات بجانب دراستهم، فأتقنوها حتّىٰ أصبحوا يتقاضونَ لقاءه مبالغ تكفي نفقاتهم الشخصيّة، وتفيض.

وهناك طرق الدروس الخصوصيّة علىٰ نطاقٍ ضيّقٍ لمن يحسنُ التّدريس والصّبرَ عليه، وكذا مجموعات تحفيظ القرآن للصغار في الدور والمساجد لمن يتقن تجويد القرآن، ويضبطُ أحكامَه، وكذا بالنسبة للفتيات مهارات التطريز، والحياكة، وما فيه من رزقٍ وفير، وغير ذلك أبوابٌ كثيرة.

أعي أنَّ هذا الطّرحَ قد يثيرُ عند نفرٍ من القُرّاءِ -خصوصًا الشباب منهم- كثيرًا من الاستغراب، وربّما الاستنكار؛ لأنَّا ما اعتدنا هذا الطريق، بل أحيانًا ما يُنظر إلىٰ السّاعي في مثل هذا أنّه يمثّل نوعًا من العَوَزِ وفقرِ الحال، وهذا كلّه باطلٌ محض؛ إذ ليس أشرفُ من شابٍّ يجتهدُ أن يحصّلَ الرّزق الحلال

بأيّ وسيلةٍ كانت، ويصدق علىٰ هذا أقوالُ رسول الله ﷺ-، وفعلُ صحابتِه، ولا يُنظر إذن لشيء من أقوالِ النّاس، بل لا وزنَ لها أصلًا.

أمّا النفقة المطلوبة لطريق السّفرِ، فهي -خصوصًا في النوع الثاني- غالبًا ما تكون أقلّ كثيرًا ممَّا يتوقّعه المتوّهم باستحالة تحقيقه، بل هي مبالغُ في المتناول، أحسبُ أن تحصيلها يحتاج لترتيب ما لا يزيد عن سنةٍ واحدةٍ من الاشتغال بإحدىٰ الطرق المذكورة، أو غيرها ممَّا يصلحُ أن يُشتغلَ به بجانبِ الدراسة، وسنةٌ واحدةٌ ليست زمنًا كبيرًا كما يتوهّم البعض، بل هي لا تزن في موازين الأعمار شيئًا إذا ما فنيَت في تحقيق تجربةٍ كهذه.

(٣) الإجراءات والتصاريح:

من أشدّ ما يثبّط النّاس عن الإقدام علىٰ السّفر هو كثرةُ ما يتطلّبه من إجراءات، جزءٌ منها مرتبطٌ بغَرَضِ السّفر في حالة التدريب، والدراسة، والعمل، وجزءٌ مرتبطٌ ببيروقراطيّة بلد الموطن، كنحو تصاريح سماح الجيش بالسفر في حالة الشباب المصريين، وجزءٌ مرتبطٌ بإجراءات التأشيرة نفسها إلىٰ بلد الوجهة، كنحو حسابٍ بنكيٍّ مغلق بمبلغٍ معيّن في حالة السفر إلىٰ ألمانيا للدراسة.

وهذه سلسةٌ طويلةٌ من الأوراق يلزم استخراجها تِباعًا، وبيروقراطيّات البلاد العربيّة تعطّل ذلك بكلِّ سبيلٍ غالبًا، فييأس كثيرٌ من الشّباب، ويزول بريق الخطوة من أعيُنهم سريعًا، خصوصًا أنَّ موظّفي الهيئات، والجهات التي يحتاجون إلىٰ تصاريحها، غالبًا ما يكونون من شرِّ النّاسِ خُلُقًا، وأحقرِهم طَبْعًا، هذا في غياب الدّعمِ النّفسيّ من الأهلِ كثيرًا، إمَّا لأنّهم غير موافقين علىٰ الخطوة، أو لأنّهم لا يرون في أبنائهم القدرةَ علىٰ إتمامِها.

فاللَّازم هنا أن يتحسّب الشّابُّ لما يلقىٰ، ويصبّرَ نفسَه بالعائدِ البعيد علىٰ ما يلقىٰ من الشقاء القريب، ويعلمَ أن الاستسلام في وسطِ الطّريق لن يتجرّعَ ثمنَه إلّا هو، ويرتّبَ المطلوبات بشكلٍ منظّم، حسب الأولويّة والوقت

المستغرق لكلّ منها، وأيّها مَبني علىٰ أيّ، وليُمعِن في سؤال من سبقوه في خطواتٍ مشابهة، وليستفسر عن أبرزِ العقبات، وليحرص علىٰ الإبكار ما استطاع، كي يكونَ له من البراحِ في الوقتِ ما يُسعفُه إذا تعطّل شيءٌ منها أيّامًا، أو أسابيع.

(٤) النفس:

كلّ ما سبق من عقباتٍ شديدٌ بلا شكٌ، وأدعىٰ إلىٰ الإعراضِ عن كلّ هذا والاستسلام، لكنّي أزعمُ أنَّ الأشدّ منها جميعًا، هو خذلان المرءُ لنفسِه، وظنّه أن لن يستطيع الحصولَ علىٰ فرصةٍ مناسبةٍ في بلدٍ جيّدٍ من بين آلاف المنافسين، وحتّىٰ لو حصلَ عليه؛ فإنَّه لن يستطيع أن يقنعَ أهلَه بالقبول، وحتىٰ لو أقنعهم، أو انتزع القبول منهم انتزاعًا؛ فإنَّه لن يستطيع تدبير المال المطلوب لذلك، وحتّىٰ لو دبّره، فإنَّه لن يستطيع إتمام كلّ الإجراءات المطلوبة، وهكذا يضع بنفسه بينه وبين ما يطمح حائطًا ضخمًا، يُتبعُ اللَّبِنَةَ باللَّبِنَة، حتّىٰ يبلغَ ارتفاعًا لا يقوىٰ علىٰ إدراكِه ببصره.

ولا أبالغُ إن قُلت: إنَّني علىٰ مدار خمس سنواتٍ قضيتها في الجامعةِ في مصر، رأيت مئاتَ الشباب الذين يرغبون بصدقٍ أن يُسافروا، ويدركون ما في هذا من خيرٍ كبير، مدفوعين بسوء الأحوال في بلادهم، وضعف ما يقدّم لهم من فرص وبدائل، بل إنّ أكثرَهم يرون في السفر نجاتهم الوحيدة من مصيرٍ بائسٍ محتوم، ومع كلّ ذلك -علىٰ اختلافي مع هذه الصورة كدافعٍ للسفر كما بيّنتُ في المقّدمة- لا يقوَون علىٰ الاستمرار في طريق الإعدادِ لهذا، بل ربّما يخرّون صرعىٰ بعد خطوةٍ واحدةٍ أو خطوتين.

وهذا هو عائق النّفس التي تركنُ إلىٰ مساحة الرّاحة، والأمان، والمألوف، ولا تحبّ أن تقايضها بطريق الشّقاء، والمجازفة، والمجهول، ولو كانت الأولىٰ ملطّخةً في وحلٍ كريه، والثاني مُرصّعٌ بالجواهر، وكريم الأحجار.

وكسر هذا القيد أولىٰ الإعداد وأوّله، ولا يصل أحدٌ إلىٰ شيءٍ ما لم يفعل، بل لا يتحرّك من مكانه فرسخًا ولا ذراعًا، ويظلُّ حبيسَ نفسِه ومخاوفِها، غارقًا في الظّلمات، عاجزًا عن الحراك.

والأولىٰ بالشّابّ أن يبصرَ ما وراء حدودِ تخوّفاته، وينظرَ لمن سبقوه المسير، ويمنّي نفسه بما وصلوا إليه من مُنْجَزَات، وهو ليس دونَهم قوةً وقدرة، بل يملك أن ينافسَهم ويقارعَهم، متىٰ أزال عن نفسه القيد وانطلق.

(٥) عائق الحاجز بين العالَمَين:

وهذا العائق لا ينكشف إلَّا بعد أن يصل المسافر إلىٰ وجهةِ سفرِه، يخفقُ قلبُه، ويضطربُ نفسُه، ويتصبّب عرقه، ويقفُ بين الجموع الغفيرة المتحرّكة برشاقةٍ في كل الاتجاهات من حوله، فاغرًا فاه .. يدركُ شيئًا فشيئًا أنَّه قد وصل، ونجح في العبور إلىٰ ذلك العالم الآخر الذي سمع عنه الكثير من الأعاجيب، والآن يستطيع أن يعيشَها بنفسه ويقصّ القصص علىٰ غيرِه حين يعود.

ثم تمرُّ الأيّام وتتابعُ المواقفُ ليزول الانبهار والإعجاب ويحلّ محلّه ببطءٍ شعورُ الصّدمة، فالاختلافات الجذريّةُ أكثرُ كثيرًا من المتوقّع، وتشمل كلّ شيء، من جوهر الحياةِ وأساسيّاتها إلىٰ أدقّ تفاصيلها، مفهوم الغاية من الوجود والسّعادة، ونظرةُ المرء إلىٰ عمره، إلىٰ التعامل بين الفتيةِ والفتيات، إلىٰ طريقة التعبير عن المشاعر من ودٍّ وحبٍّ وبُغضٍ وغضب، إلىٰ مواطن الإقدامِ ومواطن الإحجام، وحتّىٰ إلىٰ طريقة التطهّر عند قضاء الحاجة.

كلّ الأساسيّات التي زُرِعت منذ نعومة الأظفار واعتقد الشّابُّ طيلة حياته أنَّها ثوابت لا تتغيّر، هي هنا معرّضةٌ للسؤال والتشكيك بل وحتّىٰ السّخرية في أبسط نقاش، لا قداسةَ هنا لنُسُكٍ ولا صلاةٍ ولا نبي ولا لإله، وإن كنتَ تنوي الجهرَ باتّباع (خرافاتِ القُدامىٰ) تلك، فعليك أن تتحمّل أعباءَ الدّفاع عن الأصول والفروع في وجهِ السّائلين والمحاورين، وهم كُثُر.

مهمٌّ هنا أن أنوّه إلىٰ الآتي: هذه التساؤلات والمحاورات لا تأخذ في أغلبِ الأحوال شكل المهاجمةِ والاتّهام، وإنَّما الأكثر فيها هو الفضول والاستغراب، ينبغي أن نُراعيَ أنّ هؤلاء القوم زُرِعَ فيهم نقيضُ ما زُرِعَ فينا، فهم يقفون من أكثر ما نفعلُ موقف المتعجّب تمامًا كما نقف موقفَ المتعجّب الذي يضربُ كفًّا بكفٍّ من أكثر ما يفعلون .. وعلىٰ كلٍّ فهي تجربةٌ قاسيةٌ تعرّض كل ما آمن به المرء يومًا للاختبار الشديد دفعةً واحدة، ولا يصمدُ فيها ويذود عن نفسه وما يعتقد، إلّا الراسخون القارئون الواعون.

والذي شهدته في مثل هذا أنّ أكثرَ النّاس ينحون أحد مسارين:

- **فالأول**: يَكثُرُ عليه أن يفارقَ القوم المحيطين به للصلاة ويمتنع عن أكثرِ ما يتناولونه ممَّا فيه خنزيرٌ وخمور، وعن أماكنِ اللّهو ونحو ذلك، فيُزيلَ هذا (القيد) عن نفسِه بنفسِه شيئًا فشيئًا، حتّىٰ يصبحَ مثلَهم، ليس له من أصلِه إلَّا لون البشرة والاسم، وقد رأيتُ أُناسًا غيّروا الاسم حتّىٰ، فما بقي سوىٰ لون البشرة، ربّما لو ملكوا أن يغيّروه ما استأخروا عن ذلك .. والحقّ أنَّهم لا يصلون إلىٰ شيءٍ في نهايةِ المطاف، هم يقطعون الصّلةَ بموطنهم الأصليّ، وينجحون في ذلك، فتمرّ السنوات لا يزورونه إلّا مرّةً فاترةً قصيرةً كل حينٍ من الدّهر، حتّىٰ ينسوه وربّما يتلعثمون في العربيّة، وربّما تزوّجوا من بنات البلد الجديد، وأنجبوا أبناءً هم أقربُ إلىٰ هذا البلد كثيرًا من بلدهم الأصليّ، ولكنّ أحدًا منهم لا ينجحُ أن يصير البلد الجديد (وطنَه) بالمعنىٰ الكامل، لا يستطيع بينه وبين نفسِه أن يعتبرَه كذلك، ولا أهل البلد أنفسُهم يعتبرونه واحدًا منهم.

الألمان علىٰ سبيل المثال، يعقدون ولاءَهم وبراءَهم أوّلَ ما يعقدون، علىٰ لغتهم، ربّما يتجاوزون اليوم لونَ البشرة واسمَ العائلة، لكنَّهم أبدًا لن يتجاوزوا عن اللّغةِ كإثبات أهليّة أساسيّ للتّوطّن بينهم، وقد التقيتُ أُناسًا كثيرين قضوا ثلاثين وأربعين سنة، وبلغوا مراتبَ عاليةً في اللغة الألمانية، لكنّي لم ألقَ شخصًا واحدًا، تعلّم الألمانيّة علىٰ كِبَر -ولو في العشرينيّات من عمرِه-، ونجحَ أن يصلَ إلىٰ النّطق بها كمثل أهل البلد تمامًا، مهما فعل،

تكفي جملتان اثنتان، أن تكشفا (أجنبيّتَه) عن البلد . . وهؤلاء يتعسون في نهايةِ أعمارِهم أيّما تعاسة، مهما ملكوا من وسائل السّعادة وسُبُل الرّاحة، مشرّدين في ذواتِ أنفسِهم، لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء، حتىٰ ينطقَ فيهم القدرُ بأجلهم، فيكونونَ أثرًا حزينًا بعد عينٍ تائهة.

- **أما الثاني**: فهو يستمسكُ بدينه، ويقبضُ علىٰ الجمر بأيّ ثمن، وهذا محمودٌ في ذاتِه قطعًا، الإشكالُ أنَّه لا ينظرُ إلىٰ فوارق من حولَه وغرابة ما يعتقد بالنّسبة إليهم، فتنشأ مواقف عداءٍ كثيرةٌ مبناها سوء التّفاهم وضعف التواصل، كنحو أن يُفهمَ امتناعُه عن مصافحة النّساء علىٰ أنّه نوعٌ من الاحتقار لهنّ، وليس نابعًا من تصوّرٍ إسلاميٍّ متكامل لتنظيم العلاقة بين الرّجلِ والمرأة، وهذه الاشتباكات وغيرها نقاطٌ شديدة الحساسيّة، تُحفرُ مواقفها في الذّاكرة ويصعب محوُها، وينقلها الحاضر إلىٰ الغائب، فيصبحُ وسطُ العمل والدراسة والجيرة أقربَ إلىٰ التّحفّز والتّحفّظ تجاه صاحبنا، وهذا يصعّبُ كثيرًا من مهمّته في التّحصيل وقضاء حاجتِه التي أتىٰ إليها من جهة، ويزيدُ من فتنةِ القوم تجاه دين الحقّ الذي نعتقده -وتلك والله طامّةٌ نغفلُ عنها كثيرًا- من جهة أخرىٰ.

وقلّةٌ قليلةٌ نادرةٌ هم من ينجحون في الاستمساك بدينِهم بغير أن يخسروا أواصرَ الصّلةِ بأهل البلد، وهذا يتطلَّبُ -إلىٰ جانب الإلمام القويّ بأصول الدّين وفروعه طبعًا- صبرًا وسعةَ صدر وسماحة، وإتقانًا للغةِ التّواصل المستخدمة، إن كانت لغة أهل البلد فخير، وإن لم تكن فعلىٰ الأقل إتقان الإنجليزيّة إتقانًا كاملًا، واطّلاعًا علىٰ ثقافةِ أهل البلد بتوسّع، عن طريقِ مطالعةِ الرّوايات والكتابات والقصص القصيرة، والبرامج الحواريّة وأهمّ القطع المسرحيّة، ومعرفة معاييرهم في الحكم علىٰ الخطأ والصّواب، واتّجاهاتهم الدينيّة والفكريّة المشتهرة، وفوق كلّ ذلك، قضاء فترةٍ متوسّطةٍ في بداية الإقامة في الصّمت والاستماع أكثرَ كثيرًا من الحديث، والإكثار من السّؤال وإظهار الفضول والشغف بمعرفة الجواب، حتّىٰ إذا استقرّ في نفس المرء أنّه

وقفَ علىٰ جانبٍ من طبائع القوم وطرائقهم، جادلَ وبارز، ونافحَ عن بضاعتِه بالتي هي أحسن . . وهذا يُضفي علىٰ المرء ذكاءً وحكمةً في اختيار ألفاظه وطريقة تعبيره عن معتقده عند المواقف، والاختلافات البسيطةُ ظاهرًا، قد تُحدثُ فارقًا جذريًّا في تلقّي الطّرف الآخر للكلام.

(٦) الفتيات:

وهذا إشكالٌ شائكٌ جدًّا، ففسادُ الحالِ وضعفُ الإمكانيّات وبؤس التعليم في التخصصات التطبيقيّة خصوصًا، عامٌّ علىٰ الجميع شبّانًا وفتيات، لكنّ الفتياتِ ملزماتٌ بإذنِ الوليّ دون الشّباب، وليس مَكْمَنُ الإشكالِ في هذا الأصل؛ إذ حكمُ الشّرعِ فوقَ كلّ اعتبار، بل الإشكال مرتبطٌ بطبيعة أغلبِ الأولياءِ وإعمالِهم أهواءَهم وضعيفَ أفهامِهم في هذا الواجبِ الذي اعتبروه تشريفًا لا تكليفًا.

وأدلّل علىٰ هذا بمثالٍ بسيطٍ متكرّر، هذا الأبُ النّمطيّ الذي يمنع ابنتَه من السّفر -وأخصّ في الحديث كلّه هنا سفرَ النّوع الثّاني دونَ غيرِه- بحجّةِ حرمةِ سفر الفتاة بغير محرم، تجده في حالاتٍ كثيرةٍ ليس منتظمًا في صلاتِه أصلًا، وتجده في حالاتٍ أكثر، متساهلًا في مخالفاتٍ شرعيّةٍ عديدةٍ مرتبطةٍ بابنته أيضًا، ربّما أكبرُ وقعًا وأشدّ فظاعة من سفرها في الصّورةِ التي سنبيّن بغير محرم، حتّىٰ لو اتُّفق علىٰ حرمته، وهذا الاتّفاق غير حاصل.

هذا يعكس ذات الخلل الذي فصّلتُه في كلام سابق، أنَّ النّاس لا يتبعون صحيح الدّين، وإنَّما صورًا نمطيّةً اجتماعيّةً عنه بغير رجوعٍ إلىٰ أصوله، وهذه صورةٌ قبيحةٌ من الشّرك عافانا الله جميعًا منها.

والحاصلُ: أنَّ أغلب الآباء اليوم بهذا الصّددِ بين أحد رجلين؛ فإمَّا رجلٌ يغلبُ حبُّه الخيرَ -أو ما يظنّه في هذا الطريق من خير- لابنته خوفَهُ عليها من المخاطر، وخوفَه علىٰ نفسِه من مفارقتها وبعدِها، ويستطيع أن يتغلّبَ علىٰ طابع الأب العربيّ المتحكّم، فيذرُها لما تريد، بغير أن يشغلَ نفسه بضابطٍ من

الشّرع أو رابط، وهذا كان نادرًا جدًّا في السّابق، لكنَّه اليومَ آخذٌ في الانتشار .. وإمّا الصّورة النّمطيّة الأولىٰ: أبٌ مضيّعٌ للحُرُمات جاهلٌ بالدّين، يلجأ إلىٰ (كارت) الحرام لمجرّد أنَّه يسيرٌ ويُنهي النّقاش في لحظة، ويوفّر عليه عناء المجادلة؛ إذ كيف للفتاة أن تجادل في الحرام.

وكلاهما في الضّلال سواء؛ إذ ينبغي أن يكون حكمُ الشّرع عند المسلمين حقًّا، مقدّمًا علىٰ الأهواء والرّغبات ومظانِّ الخير القاصرة، وهذا يعني أن الأبَ واجبٌ عليه في مثل هذا وفي غيره -وكذلك الفتاة نفسُها- أن يجتهد ما استطاع في الوقوف علىٰ موقفِ الشّرعِ من مُرادِ ابنتِه قبل أن يفصل في الأمر ابتداءً.

والذي أراه: أنَّ الفتاةَ التي ترغبُ في سلكِ هذا الطّريق، تجتهد ما استطاعت في استفتاء أحد المشايخ المُشتهرين الموثوقين المعروفين بالعلم والأمانة، وهم اليوم بفضلِ الله كُثُرٌ والوصول إليهم متاح، تستفتيه في تفصيل حالِها وما ترغب، ومنهم من يُبيحُ للفتاةِ السّفرَ لمثل هذا بشرطِ الصّحبة الصالحة وأمان الطّريق وتيسّر التّمسّك بالعبادة في وجهةِ السّفر، فلْتبذل ما استطاعت في تحقيق ذلك، ولا تسلك هذه السّبيل منفردةً، بل تحرص أن يخرجنَ ثُلاثَ ورُباع، يؤازرُ بعضُهنَّ بعضًا في الغربةِ ويثبّتن، ويبحثن عن فرصةٍ تجمعهنّ في مكانٍ واحد طيلة فترة السّفر، ويحرصنَ أن يكون المكان مشتهرًا بسهولة الحال علىٰ المسلمين، ومشتملًا علىٰ مركزٍ إسلاميٍّ كبيرٍ يستطعن خلالَه أن يتعرّفن إلىٰ جالية المسلمات ويستأنسن بهنّ في غربتهنّ.

فإذا بلغنَ في هذا الترتيب والإعداد أقصاه، عرضنَ ما وصلنَ إليه علىٰ شيخٍ موثوقٍ -كما ذكرنا- بالتّفصيل، ولا يأخذن بفتوىٰ عامّةٍ أو يقسنَ حالهنّ علىٰ وضعِ غيرهنّ، فإن أفتىٰ الشيخُ لهنّ بالحِلّ وفق ضوابط معيّنة، فليستمسكنَ بهذه الضوابط ولا يغفلنَ عنها لحظةً واحدة، ثمّ يجتهدن مع آبائهنّ علىٰ النّحو الذي ذكرنا في السّابق.

فإذا تعذّر بعد كل ذلك سفرهنّ، إمّا لانعدام الفرصة التي تحقّق الضّوابط، أو لأنَّ الشيخ أفتىٰ في حالتهنّ بالحرمة، أو لأن الوليّ أصرّ علىٰ المنع -وليس لهنّ هنا أن يخالفنه كمثل الشباب؛ لأنّ إذنه واجبٌ عليهنّ دونهم-؛ فليحتسبن ويصبرن، ونثق أنّ الله يعوّضهنّ خيرًا كثيرًا.

ومع احتمال تعذّر أن يصلنَ إلىٰ مُرادهنّ في نهاية المطاف لهذه الأسباب ولغيرها، أنصحُ أن يسعين في هذا علىٰ أيّةِ حال؛ فإنَّه من الاجتهاد في التّحصيل، ومِن طلبِ الخير والعُلا.

- خـواطـر:

أختم هذا الحديث كلّه بالاعتذار إلىٰ القارئ عن طول ما كتبت، وبشكره علىٰ ما آتاني من ثمين وقتِه، وأنا بعدُ قليل الحيلة صغير الشّأن أقلّ من أن أكتبَ هذه السّطور أصلًا، لولا طلبُ صاحب الكتاب ومكانُه الكبير.

وأقدّم بين يدي اعتذاري خاطرتين سابقتين لي جامعتين، أحسب أنَّ فيهما تركيزًا علىٰ شيءٍ من المحاذير التي لا ينبغي إغفالها.

- الخاطرة الأولىٰ هي جوابٌ لي علىٰ تطبيق (آسك) علىٰ السؤال الآتي:

- «إيه اللي الواحد يعمله وهو عايش في بلاد الكفر عشان يقدر يحافظ بأكبر قدر علىٰ دينه، ولا يُفتن، خصوصًا في التعاملات المنفتحة جدًّا اللي بلا شكٍّ تجر لفتن أكبر وأكبر .. إزاي أقدر أحافظ علىٰ ديني، وفي نفس الوقت أشاركهم حياتهم وثقافتهم ومبقاش منبوذ؟».

- وكان جوابي كالتَّالي:

«هذا سؤالٌ له ثلاث زاويات حاسمات:

فأمَّا الزاوية الأولىٰ: فمتعلقة بالبناء الذي يحفظ علىٰ المرء دينه في مواضع الفتن، وله مستويان: (عقيدةٌ، وسلوك)؛ إذ لا يصحُّ لمسلمٍ بالغٍ ألَّا

يكون بناؤه العقديّ قائمًا بالحدّ الأدنىٰ، هذا ينطبق علىٰ المقيم في بلاده، وعلىٰ المسافر من باب أولىٰ؛ فهو يواجه من الشّبهات ما يهدم كلّ شيءٍ ما لم يكن قد أعدَّ العدّة للمواجهة. والسّلوك هو الذي يترجم بناء العقيدة إلىٰ واقعِ حياة، فصلاةٌ وصيامٌ ونوافل وسنن، وتحفّظٌ تجاه المحرّمات والشبهات والمكروهات، وأهمُّ ذلك كلّه رباطٌ لا ينقطع بالقرآن.

وعليه؛ ينبغي علىٰ كلّ مقبلٍ علىٰ سفر، بعد أن يكون حسم في نفسِه الأسئلة الكلّيّةَ التي ذكرتها في الإجابات السّابقة، أن يتفقّه ولو يسيرًا في ما صحّ من عقيدةِ أهل السّنّة، وأن يدرّبَ نفسَهُ علىٰ الالتزام بواجبات العبادات ثم بنوافلِها، ويعاهد نفسَه أن يُداومَ عليها في أوقات سفره، حالِكِها ومُشرِقِها.

وأمّا الزاويةُ الثانية: وهي مسألةٌ مُهمّةٌ جدًّا . . . ذكرها السّائل -جزاه الله خيرًا- ويغفل عنها كثيرٌ من النّاس.

نحن لا نبتغي عن خلقِ الله انقطاعًا، ولا نريد أن نبنيَ بيننا وبينهم أسوارًا، ولا يعني الاستمساك بالأوامرِ والانتهاء عن النّواهي ضرورةً؛ أن نضربَ بيننا وبين هؤلاء القوم حواجزَ تحول دون ما أُمرنا به من القسطِ وأواصرِ الدعوةِ والمساحاتِ الإنسانيّةِ التي هي أولىٰ ما تكونُ بالمسلمِ من غيرِه.

شطرٌ كبيرٌ من هذا (النّبذِ) الذي يتحدّث عنه السّائل، هو نتاج ضعف في فهم عقول القوم وثقافتهم، بل والانصراف عن محاولة الفهم حتّىٰ، ويكأنَّه للمرء خياران اثنان: إمَّا أن يُجاريَ القومَ في ما يفعلوه. وإمَّا أن ينبذهم وينبذوه، ولا مساحات بين ذلك، وهذه قولبةٌ جافّةٌ لا تستقيم بها حياة!

مثال: لا يصحّ أن تكون نظرتك لزميل الدراسة الذي تلتقيه هناك، وتراه يكثر من شرب الخمر، أو لزميلة العمل التي ترتدي لباسًا يكشفُ أكثرَ كثيرًا ممَّا يستر . . كنظرتك لنظيرهما في بلادك! نظرتنا للعُصاة المجاهرين عامّةً يعتريها الكثير من الخلل بلا شكّ، لكن هذه مسألة أخرىٰ.

الشّاهد المقصود في هذين المثالين: أنَّ صاحبيهما ينتميان إلىٰ منظومةٍ أخلاقيّةٍ مختلفةٍ تمام الاختلاف عن المنظومة التي تنتمي إليها، وبالتالي لا يصحّ أبدًا أن تقرنَ الفعل عنده بالأثر عندك!

انتبه ..! هذا لا يعني أنَّنا نُنْزِل المطلقات التي نؤمن بها، منزلة النسبيّات التي أقحمها الغربيّون في كلّ شيءٍ، حتىٰ ما بقيت ثوابت .. الحقّ والعدل والصّواب عندنا مطلقٌ لا يتجزّأ ولا يتبدّل؛ لكن الذي أقصده هو الأثر في المعاملة.

فارقٌ كبيرٌ جدًّا، بين أن تعتذرَ عن مصافحة امرأةٍ غربيّةٍ قائلًا: (إنّي لا أصافحُ النّساء)، وأن تعتذرَ عن ذات الفعل قائلًا، (في الإسلام لا يتصافحُ الرّجال والنّساء)، أنت في الحالتين ما جاريتَ القومَ في صنيعهم، واستمسكتَ بالذي يأمرك به دينك، لكنّك في الثّانية قَرَنتَ ذلك بتعليل يقعُ موقعًا حسنًا في نفس الطرف الآخر، يكون أدعىٰ للتّفهّم والتّقبّل .. بينما ستؤخذ الأولىٰ قطعًا علىٰ أنّها إهانة، وعليه قِس أمثلةً عديدة.

الزاوية الثالثة، والتي أعدها واجبًا علىٰ كل مقيمٍ في بلاد هؤلاء:

أن تُلزمَ نفسك بعطاءٍ دوريٍّ مرتبطٍ ارتباطًا مباشرًا بالدّعوة إلىٰ الله، كنحو أن تلتزم أسبوعيًّا بطباعة منشورات دعويّة وتوزيعها، أو أن تعلّمَ جمعًا من أطفال المسلمين شيئًا من القرآن، أو شطرًا من اللّغة، وهذه الأشياء وإن بدت شديدة البساطة والبداهة عندنا هاهنا؛ إلَّا أنَّها عزيزةٌ شحيحةٌ هناك، هذا من باب الإعذار أمام ربّك، والله الحافظ».

- أما الخاطرة الثانية: فمنشورٌ لي منذ بضعةِ أشهرٍ موجّهٌ إلىٰ أصدقائي الذين سلكوا طريق السّفرِ بالفعل، وأوشكوا علىٰ الرّحيل، في صورة نصائح ومحاذير:

«قد كنت من قبل أجتهدُ متىٰ تسنحُ أيُّ فرصة في دفع الشباب إلىٰ هجرِ هذا البلدِ المُختلِّ والرحيل، أشتدُّ في ذلك علىٰ من يتخاذل عنه .. أتّهمه بالتخاذل والضعف، والالتجاء بمساحات الرّاحة التي يفرضها عليه وسطه

المحيط، يحدوني ما أجد في هذا المجتمع الصَّدِئ، من تقويضٍ لطموح كلِّ صاحب عزم . . ولربّما كنت أُمعن في الاشتداد . . لعلّي أكون الصّوتَ الوحيد الذي يدفع واحدًا هنا أو هناك في هذا الاتّجاه بِجِدّ؛ وليكن إذن صوتًا قويًّا.

أما وقد عزَمَ -ممَّن أعرف- كُثُرٌ علىٰ الإقدام في هذا الطريق . . منهم الذي سلكه وخرج بالفعل، وكثيرٌ منهم يلحقهم عمّا قريب= فقد وجبَ عليَّ اليوم -من باب الأمانة- أن أنقلَ بضع نقاطٍ في اتجاهٍ مختلف . . لعلَّ أحدًا من السائرين علىٰ هذا الدّرب ينتفع بها . .

- خروجك من هذا المستنقع ما ينبغي أن يكونَ أبدًا لأجل تحقيق الرّاحة والدّعة . . بل ضربًا في الأرض وعمارة . . يحدوك كلام الخالق أول الأمر وآخره . . تنبّه يا صديقي! لا تغترّنّ بثبات النّيّة مهما بَلَغَتْ منك! ففي الغربة انشغالٌ وسهوٌ وتتابع، ينتزع منك الشيطانُ لحظةَ غفلةٍ واحدة؛ فتتبدّلُ النوايا . . وتنفرطُ منك السِّنونَ انفراطَ العقدِ المتناثر . . إن تفعل تنزلق عامًا بعد عام إلىٰ هلاكٍ مُحَقَّق! عافانا الله وإيّاك!

- أمرُ السّفَرِ في نهاية المطاف اجتهادٌ وسداد، لا هو قطعيّ وجوبٍ ولا مضمون مآل . . لا تدري أين يقدر الله الخير لك، وأين ينصب الشيطان الفِخاخ . . لربّما اجتهد عازمٌ علىٰ السفر ما وسعه الاجتهاد . . ووضع فيه من الآمال ما وسعه الخيال . . ثم شاء الله له قعودًا أو رَغِبَ هوَ عن السّفر قعودًا بجانب أبٍ، أو طلبًا لبرٍّ بأمٍّ . . يكتب الله له به البركة في المحيىٰ والممات . . لا تناله أنت بأسفار المشرق والمغرب؛ بل ربّما تُحرمُ البركة والرزق والطاعة، فلا تعود من كلّ هذا بشيء، ويكون سعيُك وبالًا عليك!

- رتم الحياة عند هؤلاء القوم متسارع النبض مُتهافتُ الطّبع، وسقف الارتقاءِ مفتوحٌ لا ترىٰ له نهاية . . يسهل أن تقع في دائرةِ سعيٍ مُفرغة من العمل والسهر والمزيد من العمل، طمعًا في مزيد من ارتقاء؛ فتدبّر! ليس بذلك تنجو؛ بل به تنشغل عمّا يُنجيكَ حقيقةً!

- مهما بَلَغَ بك السَّخَط؛ لا تقطع بهذا البلد صلةً، ليس بدافع وطنيّةٍ حمقاء، ولكن لأجل الإنسان فيك .. إنَّك مهما تداخلت في البلد الذي ترحل إليه، ومهما تمكث وتبني لنفسك؛ تظلّ غريبًا طارئًا .. كذا تشعر وكذا يُنظر إليك .. قد شهدتُ الذي قضىٰ الثلاثين والأربعين عامًا .. في بلادٍ غير بلاده .. وقد أسّس المنازل وامتلك من وسائل الرفاهية الكثير .. ما أغنىٰ عنه بينه وبين نفسه شيئًا .. مسكينٌ قد قطع ما بينه وبين أرضِ منشئه؛ فصار غريبًا هنا وهناك، كالشجرة اليابسة، أصلها قد اهترأ، وفرعُها هواء! فاجعل لك في بلدك مستقرًّا، تستطيع متىٰ انقلبت عليك الظروف أن تلتجئ إليه، يكن أبقىٰ لكيانك، وأحفظ لأولادك من بعدك .. لا تظنّنّ أنَّك تقدر علىٰ تربيتهم بين هؤلاء القوم بغير أن تُمسخَ عقائدهم، فمتىٰ بلغ منهم من يلزم دخول التعليم النّظامي؛ فارجع، ولا تكابر .. إنَّ مال الدنيا وسلطانها لا يزن شيئًا إن غرقت أعظم الأمانات التي وُكِلَت إليك .. وغرقه هناك أسهل ممَّا تظنّ ..

- من كبرىٰ الفِتَنِ التي يتعرض لها الشّاب في الغربة؛ زواجه من بنات بلده الجديد .. وهو يتزيّن له متىٰ وقع ميلٌ لفتاة تجمعه بها علاقة دراسةٍ أو عمل أو جيرة أو غيرها .. والزواج بعد من الفطرة .. وأحفظ من الفتن .. وهو علىٰ ذلك في تلك البلاد ميسور لا فيه تكلفة ولا ابتذال .. وبنت البلد تمنحه امتيازات ترفع عنه كثيرًا من مشقّة المغترب .. كذا الشيطان يصوّر الأمر خيرًا كلّه .. ثم تتمخّض الأعوام عن مصائب .. ليس من مساحةٍ للخوض فيها .. لكن ثلاثة أرباع الذين يُقدمون علىٰ هذه الخطوة يدفعون أعمارًا وأولادًا وهمومًا تطاردهم أبد الدهر بعد ذلك؛ فالزم المصرية يا صديق .. لا تحسبنّ في ذلك انصياعًا لسفاهة الأعراق؛ ولا لصبيانية المقارنة بين الأجناس بسخافة كما يُكْثِرُ الناس الحديث، في المصريّات الطيبات كما في غيرهنَّ، يرزقك الله أحسنهنَّ إن صدقته العزم والعزيمة .. لكن المصريّة تربطك بالبلد راغمًا إن غلبتك الأهواء تَفَلُّتًا .. وهي أدرىٰ بطبعك وأنت أدرىٰ بطبعها .. ابتعد عن الضّعيفة الصّبيّة من عموم الفتيات .. واعمد إلىٰ القويّة

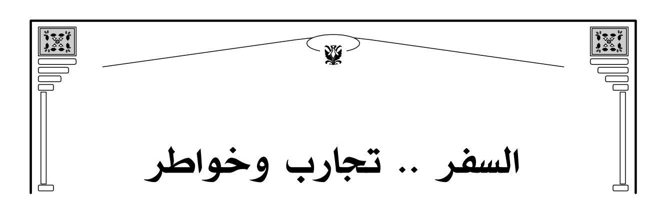
الرّقيقة من خواصّهنّ النادرات . . ولا تطرق بيتًا يفاصلك أهله في الدّرهم والدّينار، ولو ملكت أضعاف الذي يطلبون . . فهؤلاء قوم وبالٍ صِغارُ النفوس . . ولو طرقتَ في سبيل العظيمة التي تهوّن عليك الشدائد ألف باب؛ فهي كنزُ الكنوز يهون في سبيلها كلُّ صعب.

- إن كان خُيِّلَ إليك أن الاستمساك بأمر الله صعبٌ هاهنا؛ فإنِّي أبشّرك هناك بقبضِ الجمرِ يحرقُ اللحمَ حتىٰ العظام! لا يعصمك بحبل الله في ظلمات البحر هناك؛ إلَّا الثبات واليقظة . . والمواظبة علىٰ أوراد القرآن وقراءات السّيَر والأعلام . . والتفقّه في الدين ما وسعك ذلك؛ فإنَّك واقفٌ علىٰ ثغرٍ تتلقّىٰ الضربات يمنةً ويسرة . . والله يبتليك أينما حللت بأناسٍ ينظرون منك غفلةً كما الشياطين . . لينقضّوا عليك . . يُنغّصُ عيشهم ألا تشاركهم الفجور الذي يفعلون؛ فحاذر!

- هذا ليس من باب التخذيل، ولا هو إثناءٌ لكل من عَزَمَ علىٰ المُضيّ، والنّقاطُ التي وردت ليست قواعدَ تنطبقُ علىٰ كل الأحوال، لكن فيها عمومًا ببلوىٰ، يُنذرُ بالخطر، ويوجب الحذر؛ حفظ المولىٰ كلَّ صاحبِ طريق، وعلىٰ الله قصدُ السبيل».

أقول قولي هذا . . ما كان فيه من صوابٍ؛ فبتوفيقٍ من الله وتيسير، وما كان فيه من خطأٍ؛ فمن نفسي، ومن الشّيطان.

والحمد لله ربّ العالمين . . .



السفر .. تجارب وخواطر

سالم القحطاني[*]

الحمد لله الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب، والصلاة والسلام علىٰ القائل «**السفر: قطعةٌ من العذاب**»؛ لِمَا فيه من فراق الأهل والديار والأحباب، وعلىٰ آله الطيبين الأطهار وجميع الأصحاب، والتابعين لهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الحساب . .

أما بعد:

فإنَّ السفر في زماننا هذا قد صار له شأن عظيم عند كثير من الناس، وصار الناس ينظرون شزرًا واحتقارًا إلىٰ كل رجل لم تطأ قدمه خارج بلاده، وأصبحت السفرة العائلية السنوية مع الأهل والأولاد جزءًا لا يتجزأ من أساسيات الحياة الزوجية الخليجية علىٰ الأقل، ولربما وقع طلاق بين الزوجين بسبب رفض الزوج لفكرة السفر السنوية!

وصار كثير من الناس يسافر؛ ليُقال فلان مسافر، (وقد قيل)! يسافر لأجل السفر نفسه، وهذا اللون من السفر هو الطاغي والغالب الآن، ثم انحصر مفهوم (السياحة) فيه، رغم أنَّه أوسع من ذلك، وصار معنىٰ السياحة العرفي هو ما ذكرتُه.

(*) سالم القحطاني: كاتب وباحث ومحاضر قطري، وهو خريج جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، ومدير معهد الدعوة بالدوحة. ورئيس مكتب الفتوىٰ سابقًا بوزارة الأوقاف القطرية

وقد كنت أنا -راقم هذه السطور- ممَّن أولع بالسفر، ولربما أتىٰ عليَّ زمان كنت أسافر فيه كل عطلة أسبوع إلىٰ بلد، أسافر الخميس وأعود السبت، وذلك بسبب ظروف عملي، ولو أنَّ الإنسان استغل وقته جيدًا لاستطاع في عطلة الأسبوع أن يزور العديد من الدول ويأخذ عنها لمحة لا بأس بها.

ولقد كانت أسفاري لأغراض شتىٰ ومآرب متنوعة، وكنت أكثر ما أحرص عليه في أسفاري= التعرف علىٰ البلد بصورته الحقيقية، والاختلاط بأهله، والوقوف علىٰ تاريخه التالد والطريف، وزيارة ما أمكن من علمائه ورجالاته الكبار، والنظر في أحوال وشؤون المسلمين الدينية والثقافية والاجتماعية، وهذا أمر كما ترىٰ: تنوء به العصبة أولي القوة، ولكني حاولت أن أسدد وأقارب.

لستُ أزعم أني رحالة، ولا يصدُق عليَّ هذا اللفظ، فهناك المئات من أخواني وأصحابي ممَّن يفوقوني في ذلك، ولكني زرت عددًا لا بأس به من الدول في آسيا وأوروبا وأفريقيا، وأحببت في هذه الأوراق أن أسجل انطباعاتي وآرائي المتواضعة حول السفر والرحلات.

تمهيد

كثيرًا ما كنت أتأمل في العلاقة بين (القراءة) و(السفر) وما بينهما من تشابه كبير، وكون كليهما أداة فعالة لتشكيل الوعي في الإنسان، ويظهر لي أنَّ أحدهما لا يغني عن الآخر، فهذا الزمن الذي يتغير تغيرًا جذريًّا سريعًا يحتاج فيه طالب العلم والمثقف الحريص أن يخرج فيه من قُطره وبلده لينظر في أحوال العالم من حوله، كثير من طلاب العلم في زماننا يبدأ مشواره العلمي بالعزلة التامة، ليس فقط عن العالم من حوله، بل عن مجتمعه الذي هو فيه، فيصبح غريبًا عنه وهو فيه، أجنبيًّا عنهم وهو منهم، ولا شكَّ أنَّ هذه العزلة العلمية تجعل طالب العلم أو المثقف يقطع شوطًا كبيرًا في مشواره العلمي، وهذا قد يكون جيدًا في السنين الأولىٰ للتحصيل، ولكن أن يستمر هذا إلىٰ آخر العمر؛ فهذا ما لا ينبغي، فكثير من قضايا الشريعة لا يفهمها المفتي إلَّا إذا كان مطلعًا علىٰ أحوال المجتمع، فضلًا عن أن يتكلم في شؤون الدول الإسلامية الأخرىٰ، وهو لا يعرف عنهم إلَّا اسمهم!

وقد نبَّهَ ابن القيم ﷺ في كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين» أنَّه يجب علىٰ المفتي أن يكون عالمًا بالشريعة وعالمًا بالواقع الذي هو فيه، وبسبب العزلة التي يعيشها كثير من المشيخة عن مجتمعهم أو عن العالم من حولهم= خرجت لنا فتاوىٰ غريبة عجيبة قد تكون أحيانًا مثار سخرية للأسف الشديد، وهذا مرده لأسباب عديدة منها ما ذكرناه.

ولو اعتبرتَ -مثلًا- بقضية (الأقليات المسلمة) في الشرق أو الغرب، والنوازل الفقيهة المتعلقة بهم= لجزمتَ جزمًا أنَّ المفتي لا يستطيع أن يُنَزِّل

أحكامه عليهم إلَّا إذا كان مطلعًا اطلاعًا جيدًا علىٰ أحوالهم، ومن أعظم الأمور المعينة علىٰ ذلك هو= السفر إليهم ومخالطتهم ومشاهدة واقعهم رأي العين، والسماع منهم مباشرة.

والناظر في سير السلف والأئمة المجتهدين؛ يجد كثيرًا منهم قد سافر طلبًا للعلم إلىٰ عشرات البلدان، وقد عقدوا لذلك الأبواب وصنفوا فيها الكتب، فقد رحل أصحاب رسول الله ﷺ متعلمينَ ومعلمينَ، ورحل أحمد والشافعي -وله المذهبان، المذهب القديم العراقي والمذهب الجديد المصري- ورحل ابن تيمية وغيرهم كثير، وكان لسفر الواحد منهم دور كبير في تغيير قناعاته الفقهية كما حصل للشافعي -مثلًا-، ولا تنسَ وأنت تقرأ في أخبار رحلات السلف [راجع -مثلًا-: «صفحات من صبر العلماء» لعبد الفتاح أبو غدة]، أنهم كانوا لا يملكون وسائل النقل المريحة الحديثة التي نملكها الآن، فكيف لو ملكوها؟

وأكثر ما أتعجب منه: هو حين أقارن حالنا بحالهم في هذه النقطة تحديدًا -أعني: قلة من يسافر طلبًا للعلم في زماننا هذا- رغم توافر كل الوسائل المريحة، وهذا مرجعه -والله أعلم- إلىٰ أسباب، منها: الكسل، والجهل بفوائد السفر للعلم، وقد يكون -أحيانًا- مرده إلىٰ قلة ذات اليد.

لذلك تجد العلماء المعاصرين الذين سافروا في طلب العلم؛ يختلفون تمامًا عن غيرهم، وهذا من حيث الجملة، فتجدهم أكثر اطلاعًا ومعرفة بأحوال العالم، وأكثر تقبلًا للمخالف وأوسع صدرًا وأفقًا، يحضرني الآن علىٰ سبيل المثال: العلامة ابن مانع رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي سافر سنين عددًا في الطلب، تجد أنَّ الذي ميزه علىٰ غيره من علماء عصره: أمور كثيرة، من أهمها: كثرة أسفاره، وهذا شيخنا المحدث العالم الشاب أبو عمر عبد العزيز بن مرزوق الطريفي -فرّج الله عنه وعن جميع المسلمين- فعندي أنَّ الذي ميزه علىٰ غيره أمور كثيرة، منها: سفره للخارج، فأسفاره وإن كانت قليلة إلَّا أنَّها أثرت في شخصيته وتكوينه العلمي، فقد نشأ الشيخ في الكويت صغيرًا -كما شافهني

بذلك-، وسافر إلىٰ الهند طلبًا للحديث، ومكث هناك نصف سنة، قرأ فيها البخاري وغيره، وقد كان مهتمًا جدًّا بأحوال المسلمين في كل مكان، وكنت كلما زرته لا ينفك يسألني عن قطر ومشايخها وأحوالها الدعوية والاجتماعية، ومن المواقف التي لا أنساها مع الشيخ أني زرته قبل اعتقاله بأيام؛ لأهديه كتابي الذي صنفته عن رحلتي إلىٰ كشمير، وكان غالب من أهديته الكتاب من المشيخة لم يُبدِ حماسًا أو تفاعلًا مع مضمون الكتاب، وكنت أنا مثلهم؛ إذ أرىٰ أنَّ الكتاب هو في المُلَح واللطائف وليس من صميم العلم، وكنت أخمن أنَّ شيخنا الطريفي سيكون كذلك بل أشد، ولكنَّه فاجأني حين أهديته الكتاب قائلًا ما معناه وقد بدت عليه ملامح الفرح: «لطالما نصحتُ إخواني من طلاب العلم أن يكتبوا كل ما يرونه في أسفارهم، وأتعجب ممَّن يسافر إلىٰ دول العالم ولا يكتب للناس مشاهداته، لا سيما طلاب العلم، خصوصًا المبتعثين إلىٰ ديار الغرب، ما المانع أن يكتب الإنسان مذكِّراته خلال فترة إقامته هناك، وما عاينه من محاسن ومساوئ، ألا ترىٰ أنَّ المستشرقين الأوائل جاؤوا إلىٰ بلادنا قبل عشرات السنين، وكتبوا كل شيء عنَّا، وصنفوا في ذلك كتبًا كانت عُدة للعدو الغربي؛ حيث أراد فهم المسلمين وغزوهم فكريًّا وعسكريًّا . . .». هذا معنىٰ كلامه، والله المستعان.

وهذا شيخنا العالم المتفنن الرباني والكابتن الطيار الدكتور أبو علي محمد بن موسىٰ الشريف -حفظه الله- والذي زاول مهنة الطيران ٣٥ عامًا، وهو من نوادر العصر في الجمع بين علم الأديان وعلم الطيران، وقلَّ أن يجتمعا في إنسان في هذا الزمان، وقد حدثني الشيخ أنَّه زار معظم الأرض، وسألته مرة كم عددها بالضبط فقال لي: لا أتذكر، وذلك لكثرتها، وللشيخ مصنفات في السفر والرحلات، منها ما أخرجه أخيرًا بعنوان: «مذكرات طيار»، وهو كتيب لطيف، وكثير من مصنفاته التي أخرجها علىٰ الناس -والتي تربو علىٰ الثمانين- كتبَ أصولها في السفر، إمَّا في الطائرة وإمَّا في الفنادق، وما زال إلىٰ وقت كتابة هذه السطور علىٰ رأس عمله يُسيِّر الطائرات إلىٰ

العالم، ومَنْ خالط الشيخ عرف مستوىٰ الوعي والنضج الذي وصل إليه بسبب جمعه بين القراءة الدائبة والأسفار الدائمة.

- وعلىٰ كل حال؛ فخلاصة القول:

لا شكَّ عندي أنَّ الإنسان إذا جمع بين القراءة الجادة والسفر فهو هو، وأن أحدهما لا يغني عن الآخر، فسفرٌ بلا قراءة = لا شيء، وقراءة بلا سفر = قلّ أن تجدي في صناعة الوعي، اللهم إلَّا أن يكون حاد الذهن والذكاء، فما ذلك علىٰ الله بعزيز، وأعرف من لم يسافر في حياته إلَّا إلىٰ دولة أو دولتين، بل هو ممَّن يكره السفر أصلًا ولكن عنده من الوعي وفهم مجريات الأمور ما ليس عند كثير من المسافرين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

- الوجه الآخر للسفر:

لا تغتر بعبارات كهذه: (العالم أصبح قرية واحدة)، و(ليس هناك فرق الآن بين ديار الكفر والإسلام)، أو بين (الدول العربية والأوربية)، كلَّا! تبقىٰ هناك فروقات جسيمة لا ينبغي الاستهانة بها، يبقىٰ السفر اغترابًا وبُعدًا عن الرقيب والحسيب، وتبقىٰ دول الكفر دول كفر، وإن أقيمتْ فيها المساجد، وإنَّ السفر وسيلة وآلة لمقصود معين، فإذا لم يحسن الإنسان استعماله ضل وأضل، وأكثر من يتضرر بالسفر؛ هم أولئك الذين يطوفون العالم بلا حصانة شرعية تقي من فتن الشبهات والشهوات، فكم وكم من ارتد عن دينه ممَّن نعرفهم ويعرف غيرنا وتزاوجوا وأنجبوا من الكفار، هربوا من عبادة الله إلىٰ عبادة الحضارة الغربية يُسبِّحون بحمدها ويُقدِّسون لها، ولست هنا أتحدث عن أخبار منقولة أو أحاديث مسموعة، بل إنِّي أتكلم عن أناس وحالات وقفتُ عليها بنفسي، وعايشتها وناقشت أهلها، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور .. أما من نعرفهم ممَّن انحرفوا فكريًّا مع بقاء اسم الإسلام فكثير -نسأل الله العافية-، وكذلك ممَّن انحرفوا سلوكيًّا أكثر من أن يعدهم عادٌّ.

نعم هناك من سافر إلىٰ الغرب فاسقًا فرجع صالحًا، أعرف منهم العشرات، وهذه حالة لطالما رصدتها وحاولت أن أدرسها مع نفسي، ما السبب الذي يجعل إنسانًا يعيش في ديار المسلمين حيث تقام الشعائر الظاهرة، ولو أراد الخير لوجد المعين، وهذا علىٰ الأقل في الدول الخليجية التي هي أقل الدول العربية تأثرًا بالاستعمار -والقضية نسبية طبعًا- ومع ذلك تجده لا يعرف صلاةً ولا دينًا، ثم يكتب الله له بأن يسافر إلىٰ أوروبا أو أمريكا للدراسة فيعود بوجه آخر؛ إذ به في غاية ما يكون من الديانة والصلاح، بل أعرف منهم من صار طالب علم انتفع به الناس.

ما السر في ذلك ..

بعد التأمل وزيارة المبتعثين وسؤالهم عن هذه الحالة العجيبة ظهرت لي هذه العلل:

١- كثير -وليس كل- من الممارسات التي نمارسها في مجتمعنا الخليجي؛ هي ممارسات متوارثة كابرًا عن كابر، أُلبستْ لبوس الدين، وليست منه، وهناك ممارسات هي من الدين، ولكنَّها صارت مجرد شعارات وحركات وعادات لا روح فيها، ولا حياة ولا غاية، واعتبر ذلك بالصلاة مثلًا، فلربما صلىٰ الواحد لأجل نظرة المجتمع لغير المصلين، أو لأجل الزواج! باختصار: رياءً وسمعةً، ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، لكنَّه حين يسافر إلىٰ الغرب؛ يجد في كثير من المساجد روحًا حقيقة للصلاة مثلًا، هنالك حيث لا رقيب ولا حسيب من الناس، ولا سلطة تعاقبك ولا مجتمع يحتقرك، بل كل الملهيات الصادات عن الخير والصلاح موجودة، فما الذي يجعل المسلمين هناك يتمسكون بدينهم؟! لا شكَّ أنَّ هذا يحدث صدمة في نفس المغترب، أضف إلىٰ ذلك: الجو الإيماني الأخوي في كثير من المساجد الكبيرة هنالك، فهناك ترىٰ المعنىٰ الحقيقي لزوال الفوارق بين الأعراق والجنسيات والأجناس، فتجدهم يجتهدون أن يكونوا صفًّا واحدًا، مستشعرين معنىٰ قوله جلَّ جلاله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾.

وأذكر أنِّي مرة هناك جلست علىٰ مائدة وأخذت أتأمل من معي؛ فإذا فيهم اللبناني والعراقي والفلسطيني والجزائري والمغربي والسوري وراقم السطور قطري، فقلت في نفسي: هذا تنوع لا يحصل إلا هنا فما أعظم الإسلام!

٢- الخلوة أحيانًا تعين الإنسان علىٰ مراجعة نفسه، فهناك في الاغتراب خلوة تامة وفرصة لمراجعة الإنسان لنفسه والتأمل في حياته وفيمن حوله وفي الغاية من خلق الإنسان، وهكذا رجع بعضهم إلىٰ الهداية.

٣- ومنهم من يوفق لصحبة صالحة يقدرها الله له هناك، لم تتهيأ له في بلده الأصلي، وإذا أراد الله شيئًا هيأ أسبابه.

٤- ومنهم من استنفذ هناك واستهلك كل أنواع الفجور والمعاصي والفسوق، ووصل إلىٰ الدرك الأسفل من العصيان، ولم تبق معصية صغيرة ولا كبيرة إلا فعلها، ظنًّا منه أنها ستجلب له الراحة الروحية، فلما رأىٰ أنها لم تزده إلا ضيقًا وضنكًا وهمًّا وغمًّا وتعاسةً؛ قرر أن يراجع نفسه، ووجد الدواء قريبًا منه، وهو الإسلام الذي تركه في بلده قبل السفر!

٥- ومنهم من يكون سبب هدايته: التحدي، أو الشعور بقبح الجهل والظهور أمام الآخر بموقف العجز والضعف، فيكون ذلك حافزًا ودافعًا له علىٰ الهداية والتعلم الشرعي، كما حصل ذلك لأخينا وصديقنا أبي ناصر عبد الله بن ناصر الكعبي رَحِمَهُ اللهُ، وذلك أنَّه كان في أول أمره شابًا عاديًّا -كما يقولون- مبتعثًا إلىٰ أستراليا لدراسة الهندسة، وحصلت له أمور هناك جعلته يغير مسار حياته إلىٰ الهداية والدين، وكان من أبرز الأسباب: أنَّ المسلمين هناك كانوا يبجلون العرب ويوجهون لهم الأسئلة الدينية، وكان عبد الله لا يعرف بما يجيب، فكان ذلك قاسيًا عليه، أضف إلىٰ ذلك: أنَّه تفاجأ هناك بطلاب علم أوربيين من ذوي اللحية الصفراء يفوقونه علمًا بالشريعة!؛ فقرر وغير حياته وعاد إلىٰ قطر بوجه آخر غير الذي ذهب به؛ ليصبح بعد ذلك داعية

إلىٰ الله وإمامًا وخطيبًا ومديرًا لمركز الشيخ عيد الاجتماعي، وقد كان موته فاجعة علىٰ أهل قطر عامة، وكانت جنازته مشهودة حيث لقي ربه في حادث سيارة، وهو في عنفوان شبابه أول عقده الثالث، وأشهد أنّا خسرنا بموته خسرانًا كبيرًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وتفاصيل هذه الحالة ورصدها ودراستها وتحليلها لا يليق بهذه المقالة، ولعلَّ الله أن ييسر بسطها في كتاب مستقل إن شاء الله.

قصة وتعليق:

المواقف والقصص التي تعرضت لها في أسفاري كثيرة جدًّا يصعب حصرها، ولكنِّي سأنتقي منها المفيد المختصر للقارئ، وأعلق عليها بتعليق موجز يكشف جوانب العبرة والفائدة فيها. ثم التعليق: قد يكون في أول القصة وقد يكون في ثناياها أو في آخرها، وحاولت قدر طاقتي أن تكون متنوعة في جوانب شتىٰ، وأن تكون من دول مختلفة قدر الإمكان، والله المعين.

صداقة كرسي الطائرة (السويسري نموذجًا):

من أغرب أنواع الصداقات والعلاقات التي يكسبها الإنسان؛ هي العلاقة أو الصداقة التي تنشأ عن طريق جلوس شخص ما -قَدَرًا- بجانبي في الطائرة، ولأن كثيرًا من أسفاري أكون فيها وحيدًا؛ فإنَّه -غالبًا- ما يجلس بجانبي إمَّا عن اليمين أو الشمال أناس، ومن أغرب الحالات التي وقفت عليها أنَّ أحد أصحابي كتب الله له الزواج عن طريق كرسي الطائرة! وإذا أراد الله شيئًا هيأ أسبابه، وقد تعرفت علىٰ أناس كثيرين من دول مختلفة عن طريق هذا الكرسي العجيب، ما زلت أحتفظ بأرقامهم إلىٰ الآن، ومن المواقف التي أحب أن أمثل بها، وفيها شيء من عجائب قدر الله:

أنِّي كنت مرة راجعًا من ماليزيا إلىٰ بلدي، فجلست في الكرسي المقرر لي، وقبل إقلاع الطائرة جاءني المضيف وطلب مني -إن كنت لا أمانع- أن

أغير مقعدي؛ وذلك لوجود عائلة تريد أن تجلس معًا، ثم كان هناك مقعد في الأمام فارغًا، فأراد أن يُجلسني فيه، لكنَّه عدل عن ذلك لوجود امرأة فيه تشرب الخمر، فبحث عن كرسي آخر في الوراء ونقلني إليه، فلما جلست: إذا بجانبي رجل سويسري أحسب أنَّه في آخر عقده الثالث إن لم يكن دخل الرابع، له لحية شقراء، وتظهر عليه مظاهر السنة، وقد عرفت من لغته أنَّه سويسري لمشابهة لغتهم للألمانية التي سمعتها كثيرًا، فأصبحت أميزها دون إتقان لها ولا فهم . . كانت الرحلة طويلة وفرصة للتعرف علىٰ هذا الرجل، الذي عرفت حينها أنَّه داعية في سويسرا، وعضو في مجلس الشورىٰ الإسلامي هناك، وكان يتحدث معي بطبيعة الحال اللغة العربية بوضوح كبير، وأحب أن أوجز قصة إسلامه في هذه السطور:

كان شابًّا يمارس حياته كأي شاب أوروبي لا يتخلف عنهم في شيء، البداية كانت حين عرف عن طريق الأخبار أن هناك صراعًا في الشرق الأوسط بين الكيان الصهيوني والمسلمين، أثارت هذه القضية اهتمامه -وهذه من عجائب الدهر أن يهتم رجل كافر بشؤون المسلمين أكثر من كثير من المسلمين بالعالم- وبدأ يحاول أن يتتبع جذور القضية من أولها، محاولًا الفهم والوصول للحق، هل اليهود مظلومون؟! أم العكس؟ دله أستاذه في الجامعة علىٰ كتاب لأحد قادة اليهود حول تاريخ القضية، فلم يقنع منها بشيء، بل كان الكتاب سببًا لاقتناعه بأحقية المسلمين في القضية، حيث اكتشف لاحقًا حجم الكذب فيه، تطور معه الأمر ليقرر في نهاية الأمر قرارًا خطيرًا مصيريًّا في حياته: حيث قرر السفر إلىٰ فلسطين! وإلىٰ قطاع غزة تحديدًا، فدخلها كناشط سياسي، ومكث فيها عشرة أيام، عشرة أيام كانت كفيلة بأن تقلب حياته رأسًا علىٰ عقب، عشرة أيام كانت كافية لأن تنقله من ظلمات الكفر إلىٰ نور الإسلام، في هذه الأيام خالط المسلمين جيدًا حيث كان برنامجه ممتلئًا من الفجر إلىٰ الليل، زار فيها العديد من الشخصيات المهمة كان من أبرزها: الشهيد -نحسبه والله حسيبه- أحمد ياسين رَحِمَهُ اللَّهُ، وعبد العزيز الرنتيسي رَحِمَهُ اللَّهُ،

رغم أنَّه التقىٰ بهما مرة واحدة إلَّا أنَّه تأثر بهما كثيرًا، حيث لم يكن يعلم حينها مكانتهما عند المسلمين، فلما رجع إلىٰ بلاده وقرأ عنهما؛ عرف أنَّه جالس شخصيات مهمة. في هذه الأيام؛ عرف صاحبنا الكرم العربي الأصيل بلا تكلف ولا تزلف، فرأىٰ كرمًا لم يره قط في حياته، فقد كانوا يعاملونه كفرد منهم، قال لي: أحيانًا يخرج رب المنزل وأهله ويباتون في السطح، لأبيت أنا مطمئنًّا في الداخل ولا يسبب لي أحد الإزعاج!، رجع بعد ذلك إلىٰ بلاده وكثّف قراءته عن الإسلام؛ ليُسلم بعدها ويصبح واحدًا من الدعاة المعروفين هناك، ولزوجته أيضًا قصة عجيبة، لكن المقام يضيق عنها، ومن أراد الوقوف عليها وكيف اعتنقت الإسلام وعانت لأجله فليرجع إلىٰ كتاب د. محمد العوضي «فتيات في ذاكرتي- رحلاتهن من جاهلية العصر إلىٰ قمم الفخر»، وهو كتاب لطيف في بابه.

إنهم فتية آمنوا بربهم:

من العجائب -والعجائب جمة- هداية الفتيان وسط بيئة الفسوق والعصيان، وكيف لي ألا أعجب؟ وقد عجب ربنا رب العالمين جل جلاله فوق عرشه، فقد روىٰ الإمام أحمد في مسنده بسندٍ حسن، أن النبي ﷺ قال: «إنّ الله جل جلاله ليعجب من الشاب ليست له صبوة»، وهذا الحديث ماثل أمامي في موقفين اثنين، أحدهما لفتىٰ والآخر لفتاة:

أما الفتىٰ: فقد تعرفت علىٰ شاب لبناني سني، ولد في لندن، عمره الآن قرابة ١٥ سنة فقط، يعمل متطوعًا مع الإخوة هناك في خدمة المسلمين والمصلين في إحدىٰ المساجد الكبيرة، لا تسألني كيف كتب الله له الاستقامة في بيئة كلندن ومدرسة بريطانية، وقد شكىٰ لي بحرقة وألم الفتن التي يصارعها ليثبُت علىٰ إسلامه ودينه، والإغراءات التي يتعرض لها، التي لو عرضت علىٰ راهب متبتل لفتنته، وعجبت من طريقة كلامه وأسلوبه وكلماته التي تنم عن عقل جيد يفوق عمره الصغير، زاده الله هدىٰ وثبته.

وأما الفتاة: فشأنها أعجب، اسمها بعد الإسلام مريم، من قارة أفريقيا ومن دولة (غانا) تحديدًا، كانت نصرانية متعصبة جدًا وتحتقر المسلمين، قادها الفضول وتشغيب الإعلام أن تقرأ عن الإسلام مجرد قراءة من باب الاطلاع والمعرفة فحسب، لا لاعتناقه فقد كان من المستحيلات بالنسبة لها، لكن المفاجأة كانت حين تعلق قلبها بهذا الدين العظيم، وكلما تعمقت في قراءته ازدادت إعجابًا وتعلقًا به، لتقرر بعدها أن تعتنق الإسلام، ولك أن تتخيل أنها بدأت رحلة القراءة عن الإسلام والتفكر والتأمل وعمرها (١٤ سنة تقريبًا)، واعتنقت الإسلام وعمرها (١٧ سنة تقريبًا)، ومنذ إسلامها إلىٰ الآن وهي من ابتلاء إلىٰ ابتلاء، فأول مَنْ وقف في وجهها أهلها؛ إذ كانوا نصارىٰ متعصبين، حاولوا معها بالترغيب فلم يفلحوا، فجربوا معها الترهيب، ووصل الأمر إلىٰ التخطيط الجادّ في قتلها والتخلص منها! حينها قرَّرَت أن تهرب من غانا، وبحثت عن جامعة لتلتحق بها خارج غانا، وجاء الفرج بقبولها في جامعة محترمة في إحدىٰ دول البلقان، حيث التقيتُ بها هناك لبعض الأعمال الخاصة مع أحد الإخوة، وكانت في غاية الاحتشام والعفة والأدب والوقار، وكانت صائمة ذلك اليوم تطوعًا مع شدة الحر حينها، وقد روتْ لنا قصة إسلامها بدموعها لا بكلماتها، وكيف أنها ضحت بأهلها ووالديها وبلدها وصديقاتها وكل شيء في سبيل الإسلام، وقالت لنا بالحرف الواحد: «أنا لست حزينة علىٰ فراق أهلي وبلدي، فقد عوضني الله بأخوات مسلمات هنا، وأنا هنا أعيش أجمل أيام حياتي حيث أمارس ديني بحرية تامة»، أسأل الله لها التوفيق والسداد والثبات علىٰ دينه.

حلمي أن أفتح ألمانيا بالدعوة!

تلك الجملة، هي التي كان يرددها لي صديقي الأثير والداعية الألماني الشهير أبو حمزة صلاح الدين الألماني، الذي كان اسمه قبل الإسلام (بيير فوقل) الرجل الذي أسلم علىٰ يده الآلاف، ولست هنا في صدد شرح قصة

إسلامه، فقد أوردت من النماذج ما فيه كفاية، ومن أرادها؛ وجدها في النت في لقاء تلفزيوني معه علىٰ قناة المجد، ولكني هنا أريد أن أسلط الضوء علىٰ شيء من خبره بعد إسلامه، وتحديدًا عن طريقته في تربية أولاده، فقد زرته في ألمانيا، وسكنت في بيته أيامًا، وزارني مع ولده في بيتي ومكث عندي أيامًا، فعلاقتي مع صديقنا أبي حمزة ليست وليدة يوم أو يومين، بل هي علاقة عشر سنين كأقل تقدير، وما أعتقده فيه أنه من أفراد الزمان وعجائب الدهر في الدعوة إلىٰ الله جل جلاله، لقد خالطت وعاشرت عشرات الدعاة من شتىٰ دول العالم، فما رأيت أحدًا يحمل همًّا في قبله وحرقة علىٰ هداية الناس وبذل للغالي والنفيس كأبي حمزة، والكلام عنه يطول ويتشعب، ولكني سأحصر كلامي في جهة واحدة، وهي تربيته لأولاده:

من زار دول أوروبا الغربية؛ يعرف العذاب الذي يعيشه المسلمون هناك لتربية أولادهم تربية إسلامية صحيحة، وسط ذلك البحر المتلاطم من الشبهات والشهوات، ولكن الله وفق أخانا لتربية طيبة وسط منبت السوء، فأحد أولاده الذي لم يصل لسن البلوغ بعد، يتحدث العربية بطلاقة، وكان والده شديدًا معه في ذلك، وتجربته مع ابنه في ذلك تجربة عملية ناجحة، تثبت أن السليقة والتلقين؛ خير طريقة لتعليم اللغة، حتىٰ إذا جاء ليتعلم القواعد بعد ذلك، وجدها مفتحة له الأبواب، وهو مع إتقانه للغة العربية يتقن ثلاثًا من اللغات الأجنبية منها الألمانية لغة والده الأم، ويحفظ علاوة علىٰ ذلك (١٢ جزءًا) من كتاب الله جل جلاله، مع شيء من المتون المختصرة التي درسها، ولا أريد أن أطنب في وصف حاله أكثر، ما شاء الله لا قوة إلا بالله كي لا أُتهم بالمبالغة، والذي أريد أن أخلص إليه من هذه القصة أنه:

لا شكَّ أنَّ البيئة الفاسدة تقف عائقًا أمام التربية الصحيحة، وتجعلها صعبة، ولكن ذلك ليس مستحيلًا علىٰ من وفقه الله وأخذ بأسباب الهداية والصلاح، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

مع سائق التاكسي:

أحرص في سفراتي عمومًا علىٰ استخدام كل وسائل النقل المتاحة، وبطبيعة الحال؛ فإنَّ سيارة الأجرة (التاكسي) هي من أكثرها استعمالًا، وقد نبهني مرةً الصديق الأديب الشيخ عبد العزيز العويد الكويتي إلىٰ أنَّ من أهم النوافذ التي يطل منها الباحث علىٰ مجتمع معين هي نافذة سيارات الأجرة، وقد صدق في ذلك، فهؤلاء عندهم من الأخبار والاطلاع علىٰ حقيقة المجتمع ما ليس عند غيرهم، لذلك أحب -دائمًا- فتح الحوار معهم والنقاش، ويحضرني هنا موقفان:

١- مرة ركبت مع سائق تاكسي روماني، كانت لغته الإنجليزية لا بأس بها، وكنا وقتها في رمضان، عرف من مظهري أنِّي مسلم؛ فأخذ يسألني عن طبيعة الصيام عندنا ونحو ذلك، ثم جرَّنا الكلام إلىٰ الحديث عن دول الخليج، وكانت صدمة له؛ حين وضحت له أهمية اللغة الإنجليزية في دول الخليج وأن وظيفته أحيانًا قد تتوقف علىٰ إتقانه للغة الأجنبية، بدت الدهشة كبيرة وحاول كثيرًا أن يفهم ما علاقتنا باللغة الإنجليزية؟ وازداد عجبه حين وضحت له أنَّها لغة المحتل سابقًا، فقال لي: «هذا بالنسبة لنا عارٌ كبيرٌ، لقد خضعت دولتي رومانيا للاحتلال من الأجانب وتحررت، ولو تجرأ أحد منا أن يتكلم بلغة المحتل= لعدَّ الناس ذلك جرمًا عظيمًا وخيانةً لا تُغتفر!»، وهذا كلام أنقله كما هو، والتعليق للقارئ!

٢- من خلال زيارتي لبعض الدول تبين لي فعلًا أنَّ الزواج من النصارىٰ قلّ أن ينجح، وأن ضرره أكثر من نفعه:

ركبتُ مرة مع سائق تاكسي، ظننته في أول الأمر أوروبيًّا ثم اتضح لي أنه عربي، في أثناء الحوار، سألني سؤالًا وقد بدىٰ عليه الحزن قائلًا: ما رأيك في الزواج من النصرانيات؟! فأجبته برأيي، ثم قال لي: «لقد ابتليتُ بزواج من نصرانية أوربية، واشترطتُ عليها أول الأمر أنَّنا لن ننجب أولادًا إلَّا

إذا اعتنقت الإسلام! ووافقت، وها نحن قد مرّ علىٰ زواجنا خمس سنوات فلا نحن الذين أنجبنا، ولا هي التي اقتنعت بالإسلام! وتمنيت أنِّي تزوجت عربية مسلمة أعرفها وتعرفني، وأرزق منها بأولاد مسلمين، والآن أبكي حسرة علىٰ صنيعي».

ولست أعمم هذه الحالة علىٰ الكل، ولكنها ظاهرة ملحوظة، تجعل الإنسان لا يستعجل في اتخاذ قرار كهذا، أصلح الله الحال.

وصايا ختامية موجزة:

هذه خواطر ووصايا ونصائح أختم بها مقالي، لعلها تنفع القارئ والمسافر:

١- السفر متعة من متع الدنيا في هذا العصر، وقد يكون نعمة وقد يكون نقمة، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

٢- السفر وسيلة وليس غاية، فلا تسافر لأجل أن الناس تسافر، واجعل من أسفارك غاية وهدفًا.

٣- لا أرىٰ لطالب العلم أو المثقف أن يسافر لأجل النزهة فحسب، فشأن النزهة أهون من أن يُسافر وتُبذل فيه الأموال، وللغزالي في ذلك نص شديد.

٤- إن كنت مسافرًا للنزهة؛ فاجعل مع نزهتك غرضًا نافعًا من خيري الدنيا أو الآخرة.

٥- من أجمل أوقات القراءة: القراءة في الطائرة، فلا تسافر دون كتاب، ولو كان معك رفقة، واجعل معك كتابًا للذهاب وكتابًا للإياب.

٦- احرص علىٰ دينك حضرًا وسفرًا، واعتز به في كل مكان، وأظهر الافتخار به، ولا أنسىٰ تلك الأمريكية التي أوقفتني مرة مع زوجي أم محمد، لتشكرها علىٰ تمسكها بنقابها وحجابها وتبدي دعمها لها، ولم تكن مسلمة أصلًا.

٧- القارئ يسافر بذهنه، والراكب يسافر ببدنه، والجمع بينهما غاية منشودة.

٨- لا يستوي عالم رحالة، وعالم لم يرحل، وقديمًا قال السلف (من لم يكن رُحَلَة = لم يكن رُحْلة).

٩- جرب أن تزور بلدًا فقيرًا؛ لتعرف حقيقة الدنيا ونعمة الله العظيمة عليك، ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

١٠- الكون كتاب مفتوح، والعالم مستودع أسرار، فانفض الغبار عنك، واستعن بالله علىٰ استكشاف ما حولك بهداية الله، فمعك النور الذي أضاء الله به الظلمات، نور الإسلام!

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين . .



مشقة الصعود وقفزة الثقة

✍ محمد بن فتوح(*)

لا أملك بريدًا إلكترونيًّا:

كان حاله مُعدمًا، ليس عنده ما يسد حاجته، علم بأنَّ شركة عالمية عقدت إعلانًا لتوظيف عمال النظافة .. حضر في الموعد المطلوب، جلس للاختبار؛ طُلب منه أن يترك بريده الإلكتروني Email ليُرسل له نتيجة القبول .. رد بفعوية: ولكني لا أملك بريدًا إلكترونيًّا! ... رد عليه المُختبر من فوره: إذن سيدي؛ أنت مرفوض، كيف في عصرنا وتعيش بغير بريد إلكتروني!!

خرج والغم يقبض علىٰ روحه، لم يبقَ له من الدنيا إلَّا ١٠ دولارات فقط، لا غير!

شعر بأنَّ عليه أن يفعل شيئًا؛ اشترىٰ فاكهة وقسمها لحِزم وباعها كلٌّ علىٰ حدة .. كسب مكسبًا طفيفًا بالكاد يسد جوعه. كرر الأمر وتكرر المكسب الطفيف .. مع الوقت أصبح يملك محلًّا لبيع الخضروات، ثم مُنَّ عليه؛ فصار مُورِّدًا للخضروات وله شركة توريد كبرىٰ.

في أحد الاجتماعات طلب منه أحد العملاء بريده الإلكتروني. فرد بعفوية شديدة: لا أملك بريدًا شخصيًّا!

(*) كاتب مصري يدرس حاليًا في جمهورية ألمانيا الاتحادية.

- فقال له: كيف؟!

- أجاب: **لو ملكت بريدًا إلكترونيًّا؛ لكنت الآن أمسح الأرض.**

يقع الإنسان في مراحل من الفشل أو التأخر بطبيعة إنسانيته أحيانًا وإهماله أحايين، لكن الموفَّق من لا يتوقف كثيرًا عند فشله ويصنع منه جسرًا للنجاح.

ليس شرطًا أن ما سعيت إليه هو ما فيه صلاحك، إنَّما عليك السعي وطلب العون، والله هو الذي يُعطيك ما يصلحك ويلطف بك في خاصة أمرك، وإن بدا لك أنَّه حرمان ممَّا طلبت، فعلمك القاصر لا يدري ماذا يُفعل بك ولا كيف يُفعل بك.

جلسة سمر:

في جلسة سَمر ثنائية بين صديقين، أحدهما خَبُرَ السفر والحياة والآمال، كان الحديث بينهما مُنصبًّا علىٰ الشكوىٰ من بلادهما وحالها. والآخر قد قرَّر إرجاء إتمام تعليمه (في كلية القمة كما يدعونها!) في هذه البلاد؛ لقناعةٍ شخصية ترسخت عنده أن هذا لا يُناسب حاله في هذه المرحلة ولا حال بيته، لكن البديل عنه كان غائبًا وقد بلغ به الهم مداه!

قال له صاحبه بعفوية شديدة: (سافر إلىٰ بلد كذا)، بلد في غرب أوروبا لا يعرف لها طريقًا، ولم يخطر بباله أن يذهب إليها، لكن هذه الكلمة ساقها الله له ليستقر به المقام فيها يومًا من الأيام .. لم يدرِ صاحبه ولم يدرِ هو أنَّ هذه العفوية الشديدة ستتحول بعد أيام ليست بالكثيرة لحقيقة واقعية!

ليس المهم هل كانت النصيحة في محلها أم لا، إنَّما المهم أنَّ كلمة عابرة قد تغير من مسارٍ بالكامل، أو ترسم طريقًا جديدًا. فلتصخ أذنك لأقدار الله ممَّا يُسميه الناسُ (صُدف عابرة)، فهي ليست بصدفٍ ولا عابرة، إنَّما هي رزقٌ ساقه الله إليك.

ربما كان صلاح أمر العبد في عدم إتمامه لأمر يرىٰ الناس فيه نجاحه، أو كان صلاحه في إخفاقه ما دام آخذًا بالأسباب، أو كان صلاحه في عدم حمله لبريد إلكتروني في القرن الـ (٢١) خير.

نحن نعيش في غيب، لا ندري ما سيكون كيف يكون، وكيف نكون نحن فيه .. علينا ألا نحتقر الصُدف، وأن نتعلم من التجارب ونواصل، ونعلم أن أقدار الله تُساق إلىٰ العبد بحسن الظن بمولاه وبالعمل والأخذ بالأسباب، فكلٌّ يعمل علىٰ ما كتب الله له.

الصخرة: مشقة الصعود، وقفزة الثقة:

كانت صخرة عالية، يقارب ارتفاعُها ثمانية أمتار، مملوءة بالتعاريج والالتواءات ممَّا يزيد صعوبة تسلقها .. كان صاحبنا يرقبُ الصاعدين. لم يتسنَّ لصاعدٍ الصعود إلا بمحاولات وإخفاقات، وربما أصابه بعض الجُروح .. وما إن يبلغ أحدهم أعلاها حتىٰ يخشىٰ القفز في البحر من تحته .. يحاول النزول؛ لكن الصخرة العتيقة العاتية لا تُتيح له هذه الرفاهية، فهي خبيرة بأحوال الناس ومخاوفهم فتجبرهم إجبارًا علىٰ تحديها .. عمرها أكبر من أعمارهم، تقويهم وتشد من أعوادهم بصلابتها، تُرغمهم علىٰ القفز حتىٰ تنزع الخوف الرابض في قلوبهم. مسار الحركة علىٰ هذه الصخرة= أحادي الوِجهة .. كأنَّها تعاقب الناس علىٰ خوفهم من التحدي الذي هيَّؤوا له أنفسهم، وزعموا أنَّ بهم من القوة ما يؤهلهم له، وبذلوا كل هذه المشقة من أجله .. كأنَّها تقول لهم في صوت مسموع: أَبَعْد هذه المحاولات الدامية؛ تريد أن تنزل ولا تتجاسر علىٰ المواصلة! .. وليس للمسكين إلا أن يتجشم العناء ويغمض عينيه، ويُلقي نفسه في الماء ثم يسبح إلىٰ الشاطئ.

لما صَعدَ صاحبنا فوق هذه الصخرة وهاله الارتفاع وهو بين براثن الصخرة التي جاهد للصعود فوقها وخشي القفز، تيقن أنَّه لا سبيل أمامه غير القفز، إذ إن طريق العودة عليه ممنوع!

كان صغيرًا، كان في الخامسة عشر حينها .. أغمضَ عينيه ووثق بأنه قادرٌ علىٰ السباحة ثم قفز .. كانت من أشجع قفزاته في الماء رغم قفزات سابقة له من فوق صخور أخرىٰ، لكنَّها لم تكن بهذا الارتفاع، فلم تكن محلًا لاختبار الشجاعة بعد.

بعدما قفز وسبح حتىٰ بلغ الشاطئ، كان يَعجبُ ويقول في نفسه: لماذا وجدت كل هذا الخوف والتردد في قرار القفز رغم أنه لا يحتاج سوىٰ (لحظة ثقة) .. لحظة ثقة ويُحقق الأمل الذي رآه في المدىٰ، والذي تجشم مشقة الصعود حتىٰ بلغ، لحظة واحدة ولا خوف عليه فهو يعرف السباحة منذ سنين .. لحظة واحدة تقضي علىٰ بكائه بابتسامة فرح.

وهذا حال كثير من الناس، عندهم كل الإمكانات والقدرات، ووصلوا إلىٰ مكانة يحتاجون فيها إلىٰ لحظة واحدة، لكنَّهم عند الوصول إلىٰ ذروة أهدافهم لا يحتفظون بالثقة في القفز .. لذا كان يستعيذ عمر ﵁ من جَلَد الفاجر وعجز الثقة.

وبمغيب هذه اللحظة يكون كل جهدهم مُهدرًا، بل يَخُط الفشل فيهم خطوطه .. وقد كانوا في غنىٰ عن ذلك بلحظة ثقة يتحملون تبعاتها.

رنين الرسالة:

سمع رَنين رسالة جماعية علىٰ برنامج الماسنجر، كان عُمرُ هذه الرسالة عام تقريبًا، تصفحها فإذا بها لمجموعة من الأصدقاء .. كان أحد أصدقائه قد سافر حين أنشأ هذه الرسالة، رحل عن البلاد التي أحبها وأحب كل ذكرياته بها حتىٰ المؤلم منها، لم يستطع العيش فيها أكثر من ذلك رغم جماليات حياته التي كان يحياها، قرر الرحيل، قبل أن يعود إليها ثانيةً، وصنع هذه الرسالة يحث أصدقاءه علىٰ الارتحال ..

قبل إنشاء هذه الرسالة بأيام قليلة، كان يمكنهم أن يلتقوا جميعًا صباحًا أو مساءً لا يَلوون علىٰ شيء، يفعلون كل ما أرادوا، لا يخشون عواقب أي

فعل، والشباب شعبة من الجنون كما يقولون .. كلما وجدوا الرغبة لشيء لا يمنعهم منه إلا قاهر .. يسيرون في الطرقات في أي وقت شاؤوا، لا يحجزهم عن السير ليل أو نهار، لهو ولعب، تعبد وتعلم أو روحة وغُدوّ .. يحفظون أسماء الشوارع ومحطات الترام، ومعالم الطرقات، كانوا يبحثون عن أماكن المتنزهات الجديدة التي لم يزوروها بعد ليغامروا فيها، لم يُفْتتح مطعم جديد أو مقهىٰ مميز في مدينتهم إلا وقد زاروه وخبروه .. لكل منهم طموحه ونجاحاته الشخصية وآماله الفردية أو الجماعية، بين مغامرات الحياة والتعلم والترفيه يقضون حياتهم .. كانت حياتهم صاخبة في جمال، عارمة في سكينة، عاتية في رحمة.

لكن بلادهم لم تفتأ تقسو عليهم، رغم حبهم لها وذكرياتهم فيها وقربهم من أحبابهم الذين اجتمعوا علىٰ ساحاتها يومًا، بل اجتمعوا كل يوم .. ربما كانت هذه القسوة مفيدة في أن تستخرج مزيدًا من قوتهم بأن تقذفهم في المجهول.

كانت الحوادث تتخطفهم واحدًا تلو الآخر، ولم يعلموا أن سيُقضىٰ عليهم جميعًا بالفراق قريبًا، وسبحان من قدر علىٰ عباده الفراق ليعلموا ألا باقٍ غيره.

لما فتح صاحبنا الرسالة جال في صدره كل هذه الذكريات التي مرت أمام ناظريه بعدما سافر هو الآخر وأدرك صاحبه الأول.

نظر صاحبنا إلىٰ الأصدقاء في الرسالة فوجدهم موزعين بين بلاد متنوعة (أمريكا- ألمانيا- بريطانيا- تركيا- ماليزيا)، وبقية باقية ينتظرون بوصلة طريق للالتحاق بأي مركب تَرسو خارج حدود أوطانهم.

وفي هذا الفراق تغيرت حياة كل واحد منهم ...

بريق المطار:

تُعلمنا تجارب الحياة، أن الخير لا يعلمه إلا الله، وأن علم الإنسان قاصرٌ وسيظل، وأن الفِراق قائم لا محالة، تفارق الفُرص لتحصل علىٰ أخرىٰ، وتجتهد لتبلغ شيئًا فتخسر آخر.

الحياة مجموعة واسعة من التجارب والمنعطفات، يُخطط لبعضها ويأتي البعض الآخر دون تخطيط، لكن لا يستفاد منه إلا من تأهل من قبلُ وأعد شيئًا من العُدة، فالحياة لا تُمنح رخيصة.

تلك الحياة بتجاربها هي التي تُثقل الإنسان وتصنع له حياته الحقيقية، لا حياة الزيف، فالحياة خبرات .. وخبرات المرء هي التي تميزه عن غيره علىٰ هذه الأرض، فالإنسان أسير لتجاربه.

وفي كل منعطف في هذه الحياة يخشىٰ الناس العواقب غير المأمونة .. بيدَ أنَّه لا عواقب مأمونة علىٰ الحقيقة؛ فكل الناس تغدو في مجاهيل القدر، والله هو الذي يُقدر لها أمورها، وهذه المجاهيل هي التي تُعلم الإنسان حسن الإدارة والقيادة فيما بعد، فلا تُتعلم القيادة في الطُرق المستقيمة!

وفي منعطفات الحياة الكبرىٰ لا مفر ممَّا يخشىٰ الإنسان عواقبه، وعلىٰ الإنسان أن يتحلىٰ بالشجاعة اللائقة لتجشم عناء قفزات الثقة في كل مرحلة .. هذه هي الحياة ويسري قانونها علىٰ كل تجربة من تجاربها.

والسفر تجربة من هذه التجارب؛ وهو تجربة لها بريقها الجذاب .. يشتد بريقها للشباب العربي الذي فقد الكثير، حتىٰ أصبح الوصول إلىٰ المطار؛ غاية في ذاته.

وفي أيامنا تلك؛ لا يكاد يخلو مجلس شبابي في بلد مهول بتشكيلة متنوعة من الأفكار والميول مثل مصر، من ذكر السفر كخيار لمواجهة الضنك الذي يحياه الشباب.

أصبح من النادر أن تتصفح تدوينات المواقع الإلكترونية، أو تتابع كتابات أرباب مواقع التواصل الاجتماعي اليومية، أو تجلس في مقهىٰ شبابي أو حديقة جامعة دون أن تجد حديثًا لأحدهم في ذم المكث في هذه البلاد والحث علىٰ الهجرة منها .. يشترك في ذلك شرائح واسعة من الشباب، مختلفة الميول، متنوعة المذاهب، حتىٰ أصبح الأمر كالظاهرة التي ضمت طوائف واسعة، حتىٰ أن بعضهم لا هدف له من الهجرة غير مجرد الهجرة!

ولا شكَّ في أن الأحداث الأخيرة في البلدان العربية كان لها أثر كبير في تنفير شباب -وربما شباب الإسلاميين خاصة- من البقاء في بلدانهم، حتىٰ أشدهم راديكالية وكرهًا لهذه الديار الكافرة!!

فعند غياب العدل يبحث الجميع عن رجل عادل كالنجاشيّ لا يُظلم عنده أحد، أو هكذا تتصور عقولهم.

ولو عُقد إحصاء بسيط للوافدين للدراسة خارج مصر من المصريين الآن، والوافدين من أربع سنوات، لزادت النسبة عن (١٠٠%) بأدنىٰ تقدير!

وفود للدراسة، ووفود للهجرة، ووفود الملاذ والمعيشة، أو حتىٰ لمجرد الهروب.

ولو نظرنا إلىٰ حال الشباب الوافد لهذه البلاد -أوروبية كانت أو آسيوية- وعامتهم بين العشرين والثلاثين لوجدنا كثيرًا منهم لم يرتب للسفر قبل بضعة سنين، بل لم يفكر فيه.

بل إنَّ كثيرًا منهم رتب للبقاء والمُكث وتعمير بلده التي أحبها وأمل في النهوض بها .. ونسج الكلمات بذلك، وغنىٰ والأغاني باسمها وفي حبها وعدم قدرته علىٰ فراقها .. وهذا إن دلَّ؛ فإنَّه يُعطي مؤشرًا أن أنماط الهجرة الشبابية الحالية؛ فيها قدر كبير من الفرار من الواقع المرير الذي يحيون فيه، وإن كان هذا الفرار لا هدف له في حد ذاته.

هذا الحُلم المُسمىٰ بـ (الفرار) يجعل بريق السفر عند هذا الشباب البائس أشد وأعتىٰ، حتىٰ يعميهم عن كل رؤية مغايرة، أو علىٰ الأقل واقعية لما هم

مُقدمون عليه .. لكن هذه الهجرة التي أصبحت غاية بذاتها وأصبح لها بريق لامع في عين كل شاب عربي، ليست هي الجنة التي يتوهمها هؤلاء الشباب .. وسرعان ما يكتشفون ذلك عند النزول من سلم الطائرة.

عندما يرون أنَّ أحلامهم لن تتحقق بمجرد الخروج والحصول علىٰ تأشيرة السفر وتذكرة الطائرة، فعند ركوب الطائرة يدركون لأول مرة أنهم الآن قد بدؤوا في صعود الصخرة التي ستنال منهم وستصيبهم بجروح، وينبغي عليهم مواصلة الصعود والتغلب علىٰ صعابها والصعود فوقها، ولا وقت للبكاء هنا، والصخرة لا تسمح لهم بالعودة إلا ودماؤهم مسفوكة.

بعد فترة قليلة يرىٰ هؤلاء الشباب هذه الأحلام الوردية بلونها الطبيعي، فالدنيا ليست أبيض وأسود .. يشتعل الحنين لما خلفوه وراءهم من الأهل والصحب والحياة .. سيدركون أنَّهم قدموا علىٰ أقوام بألسنٍ غير لسانهم، وألوان غير ألوانهم، وحيوات غير حياتهم، وعادات وتقاليد وأديان غير ما كانوا عليه .. سيكونون كالطفل الذي يتعلم كل يوم كلمة أو كلمتين، ويتخزن في ذاكرته مشهد أو مشهدين.

فعند حط الرحال في الأرض الجديدة؛ يتحول بريق المطار إلىٰ جسر من التعب لا بُدَّ من تجاوزه حتىٰ تصل إلىٰ ثمرتك التي ترجو.

التحديات

- ١ -

ستفتقد . .

حين تسافر ستفتقد كثيرًا ممَّا كنت تشنؤه وتبغضه من قبل، بل ستحِنُّ إليه . . وستفتقد كثيرًا ممَّا كنت تحبه من قبل، وستتوق شوقًا إليه.

مُجبرٌ أنت علىٰ أن تغسل ملابسك وتخيط ما تلف منها، ستشتاق لمن يقوم لك بذلك . . ومجبرٌ علىٰ أن تُعدّ طعامك وشرابك، وتغسل أغراضك بعد الانتهاء.

مجبرٌ أنت علىٰ أن تعتني بنفسك . . ستفعل كل شيءٍ وأيّ شيء. لكنك لن تسمع كلمة شكر أو ثناء؛ فهذا واجب عليك في هذه البلاد، وما عليك سوىٰ الالتزام بالواجب كالجندي أمام حزمة التعليمات تمامًا.

ستدرك كم كنت مُنعمًا في بيتٍ جمعك بأمك وإخوتك، أو في جلسة جمعتك بمحبوبك، أو في فرصة جمعتك بصديق لك.

ستشتاق إلىٰ صخب الأهل أمام حجرتك . . وإلىٰ الطعام الذي لم تصنعه لنفسك ولم تعبأ يومًا بسؤال (ماذا نأكل غدًا!!).

ستتفكر كثيرًا في عبارة درويش، وتدرك كم هي واقعية . .

«أشتاق إلىٰ خبز أمي ...»

ستفتقد صديقك، تفتقد مزاحه، كلامه، وجهه وروحه . . ستفرق بينكما الدنيا، ربما جمعتكما مهاتفة أو مكاتبة، لكن هذه اللقاءات الميتة لن تُقرب لحمه من لحمك . . ستفقد صحبتك الأثيرة من قلبك، سيجتمعون من دونك، سيتذكرونك ويخبرونك، ستحن إليهم، لكن لا سبيل إلىٰ وصالهم.

ستفتقد شوارع مدينتك، والباعة فيها، والمارة وصخبهم.

صدقني؛ ستفتقد كل هذا وإن تبرمت منه يومًا من قبل.

ما عليك يا صديقي إلا أن تتحمل وتعرف أنك في مرحلة جديدة، وأن تدفن الشوق في أعماقك وتبدأ حياتك من جديد . . حياة بغير أم أو أهل أو صحب أو عادات اعتدتها، حياة أنت فيها المدبر لشأنك، والله يدبر لك أمرك . . حياة فيها كثير من الشغف وقليل من الظفر به.

عليك أن تكون قويًّا كما ينبغي ولا تُكثر الشكوىٰ وإن قتلتك المشاعر كل يوم . . وعظمتك أن تُحافظ علىٰ دفء مشاعرك وإن كنت في سهل من جليد.

وتذكر حين هاجر أصحاب النبي ﷺ من مكة إلىٰ المدينة وشَقّ ذلك عليهم، وحَنّ بعضهم إلىٰ وطنهم، طلبوا الرجوع مرة أخرىٰ، رغم كونهم مع رسول الله ﷺ وبين يديه، وهم يعلمون شريف فضل الهجرة وعظيم أجرها، لكنها النفوس يا صديقي، تحن إلىٰ ما ألفته . . والنبي ﷺ نهاهم وأمرهم أن يُصابروا في البيئة الجديدة ففيها رسول الله وفيها يُقام دينهم، فصابروا حتىٰ بقوا في المدينة ولم يخرجوا منها. وأنت كذلك، ربما تشق عليك هجرتك، ولن يخفف عنك شيئًا إلا أن تكون هجرتك لله ولرسوله فتهون عليك الصعاب . . «فمن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته لله ورسوله». فلا تكن هجرتك لغير ذلك، فإنَّما الدنيا متاع يزول.

كن غنيًّا، وقويًّا، ومتعلمًا، واحصل علىٰ أعلىٰ المراكز . . لكن تذكر أن هذه عوارض تتحول . . أما الجوهر فهو ما استقر في صدرك.

سل نفسك . .

لماذا سافرت ..؟

فإنَّ من عرف شرف ما يطلب هان عليه ما يبذل . .

وإن الدنيا كلها متاع زائل فاستمتع بها علىٰ عِوَجها . .

- ٢ -

قيمة الإنسان الحقيقية في نوازع نفسه، حيث لا رقيب عليه، لذا كان من عظمة نبي الله يوسف عليه السلام إباؤه المعصية في مكانٍ لا يعرفه فيه أحد، وفي موطن هو قادر فيه علىٰ فعل السوء، لكن الله عصمه برحمة منه ولسابق حاله معه.

كذلك أنت يا صديقي، ستكون في موطن ليس عليك رقيب فيه غير نفسك والله رقيب عليك.

الفجور سيكون قريبًا جدًّا، ليس بعيد المنال، ربما تألف شكل الخمر -عصمك الله من إلف شكلها-، ستجد عاريات بغير كساء . . . وفي هذه المواطن كلها ليس عليك رقيب إلا الرقيب جل جلاله، ثم نفسك التي بين جنبيك.

لن تجد من يذكرك بالصلاة، ربما يضيق عليك الوقت وتضيق عليك الصلوات، ولن تجد موظفًا في الحكومة يغلق مكتبه لتصلي ثم ترجع إليه، فأنت رقيب نفسك، تحافظ علىٰ صلاتك؛ لأنَّها حياتك كما غُرست فيك وهي أعظم أمورك كلها ولا يدانيها أمر، فأنت بها؛ أنت، وبغيرها كالأنعام أو أضل.

ولئن كنت تتبرم من خطباء الأوقاف في بلدك، فإنك ستقدم علىٰ مكان ليس فيه أذان، لن تسمعه إلَّا نادرًا جدًّا إن كنت في المسجد قبل الصلاة بدقائق، وإلَّا فلن يُذكرك أحد بربك إلَّا حوادث الدنيا.

يا صديقي إن الحياة الكريمة والطعام والشراب شيء جميل، لكن الدين أغلىٰ منهما .. يا صديقي لو ضاع دينك فلا معنىٰ لِما حَصّلت من الدنيا!

اعلم أنك هناك يا صديقي لن يكون علىٰ نفسك من نفسك رقيب سوىٰ نفسك، ونظر الرقيب المهيمن جل جلاله إليك.

لن تنفعك في غربة يغلب فيها الفجور مثل طاعة اعتدت عليها قديمًا، فكانت مع الأيام هينة يسيرة عليك .. عندما تصلي تذكر أن ليس في شارعك أو مدينتك غيرك يسجد لله ويصلي الآن .. تَذكر اللطيف الخبير حين تصبح وحين تُمسي والناس في طرقاتهم إلىٰ مشاغلهم لا يذكرون الله لا قليلًا ولا كثيرًا، لا همَّ لهم إلا حسابات البنوك أو سهرات الليالي .. يأكلون كل ما يجدون، وأنت لا تأكل إلا علىٰ ما زُكي وذبح باسم الله، وخلا من خنزير وخمر .. يسمعون منك ومن آرائك وفِعالك ويعجبون منك تارة ويُسفهون رأيك تارة ويثنون عليك تارات.

لكن كل هذا لا يضر، بل لا تعره اهتمامًا، فالعبرة بما يقوله الله فيك وملائكته في الملأ الأعلىٰ، لا بقولهم في الأرض.

ولو أنَّك حصلت علىٰ أعلىٰ الشهادات ونلت كل الملذات ثم غُمست في النار غمسة فما نفعك بما حصلت عليه؟! .. تمثل بين عينيك من يصرخ يوم القيامة حين يغمس في النار ويقول: «والله ما رأيت نعيمًا قط».

ربما زلَّت قدمك يومًا، فأنت لست ملكًا، لكن خفف زلتك واستفق سريعًا وسارع في محوها ولا تستمرئ ذنبك، وتذكَّر أن آدم بعد توبته خير منه قبل التوبة .. لا تنتقل في الشبهات والشهوات من حال اضطرار إلىٰ حال اختيار .. إن أجبرت علىٰ موطن وشاهدت فيه خمرًا أو فجورًا تمضي عنه، لا تستمرئه وتذهب إليه بقدميك.

وردك من القرآن، زادك من الصلاة، ذكرك للرب الكريم، هذه الأمور هي التي تُعينك وتُعطيك بعض الدفء في أرض قاحلة.

أما جوهرة العقد فهي صحبتك .. الغُربة مفرِّقة بطبعها، لكن عليك ألا تفرط فيمن وجدت من صالح الإخوان، فهم عُدتك وذخرك .. سيحتاج بعضكم بعضًا في أمور الدنيا، فلا تحرموا أنفسكم من أمور الآخرة .. تذاكروا نعم الله عليكم، حافظوا علىٰ صلواتكم وعبادتكم، ليحفظ بعضكم بعضًا؛ فإنَّما الدنيا تهون برفيق تسكن إليه ويسكن إليك، وقليلٌ ما هم.

- ٣ -

غالب الناس، لا سيما الطلاب، لا تأتيهم فرصة السفر مذللة مُيسرة، إنَّما تحتاج لجهد وكَدّ وتعب .. أموال طائلة تُنفق، لُغات يجلس الناس لتعلمها سنوات، شهادات يُحصِّلونها ليتأهلوا للقبول .. وكلما قدر الإنسان علىٰ تخفيف وطأة هذه التكلفة كان خيرًا له.

فمن قدر علىٰ الحصول علىٰ منحة كاملة؛ حظه أفضل ممَّن حصل علىٰ نصف منحة أو سافر بلا منحة، ومن حصل علىٰ دراسة بشهادة انتفع بما لا ينتفع به من حصل علىٰ دراسة دون شهادة.

تكاد تنفق الخطوات بين البُلدان جميعًا، ولكن تختلف الشروط باختلاف البلدان أو البرامج الدراسية، وتبقىٰ لكل حالة وبرنامج وشخص ظروفه، لكن يمكن ذكر بعض الأمور المطلوبة التي قد تحتاج للإعداد لها سنة أو يزيد، وتشترك فيها جميع البرامج والبلدان:

- لغة أو لغتان متقنتان بصورة جيدة، سواء كانت إنجليزية أو ألمانية أو تركية أو فرنسية حسب برنامج الدراسة.

- دراية بالفرص المتاحة للبرنامج الذي يُراد دراسته. ويحتاج هذا إلىٰ بحث وتنقيب واسع، ويمكن الاستعانة بمواقع المنح (سنضع روابط لها في نهاية المقال).

- الدراية بالمنح المقدمة سواء كانت حكومية أو غير حكومية.

- القدرة المالية للإنسان في حالة فقدان المنح والأماكن التي تناسب حالته.

- الدراية بالبرنامج الدراسي وشروط القبول فيه.

- إعداد الأوراق المطلوبة، لا سيما البرامج التي تتطلب بعض الدراسات أو التدريبات للقبول فيها.

بعض البرامج تحتاج إلىٰ شروط إضافية: كالعمل في مجتمع مدني، أو جوابات تزكية، وجوابات تشجيع، وإنجازات سابقة.

وكلما كان الإنسان أقدر علىٰ تحصيل أكبر عدد من هذه الأمور؛ كان أقدر علىٰ تحسين فرص الحصول علىٰ فرصة حسنة.

وينبغي علىٰ الإنسان أن يسرع خطاه ولا يتوقف كثيرًا في الغربة للتفكير، فاليوم هناك ليس كاليوم في الموطن، وكل تأخُّر يأتي بتأخر آخر، فإن استطاع الإنسان أن يُحدد أكبر عدد من المجهولات قبل رحيله كان أفضل له.

- وبين يديك قائمة لأهم مواقع وموارد المنح والبرامج الدراسية وغير الدراسية(١).

(١) أمدَّني بالقائمة أخي د: عمرو محمد رمضان، جزاه الله خيرًا.

http//:www.for9a.Com/

http//:www.opportunitiesforafricans.com/

http//:ngo-jobs.net/

https//:www.daad.de/deutschland/stipendium/en/

https//:www.heysuccess.com/

http//:www.youthop.com/

http//:opportunitydesk.org/

http//:youth-portal.com/

https//:www.wemakescholars.com/

http//:www.cu.edu.eg/ar/Scholarships

http//:scholarship-positions.com/

https//:egypt.usembassy.gov/irc.Html

- إن كان من كلمة ختامية؛ فهي أن طريق الدنيا طويل، وكل مرحلة مُوصِلة للتي بعدها، وإن استغلقت بعض المراحل فلا معنىٰ للوقوف عن الحياة، فربما في هذا الغلق فتح عظيم آخر، وربما كان في الفتح غلق خفي، وكل إنسان يُفتح عليه بقدر قدرته علىٰ قراءة الرسائل الربانية في حياته.

المهم أن نواصل المسير، ولا ندري ماذا قد ينفعنا في قابل الأيام، فقد ينفعنا جلسة عابرة، أو بريد إلكتروني فقدناه، أو صخرة صعدنا فوقها بمشقة، أو فشل مررنا به فدفعنا دفعًا للنجاح، أو صلوات وذكر وتسبيح، ودعوة حسنة، وصحبة صالحة تمسَّكْنا بها.

نُجَوّدُ كل يومٍ مسيرتنا وطريقنا، أو نُبدل خططنا وأوضاعنا، ونتأمَّل فِعل الله بنا .. نفعل كل ذلك، لكن لا ينبغي أن ننسىٰ لماذا نحن هنا، وماذا نفعل وماذا نريد، لا ينبغي أن ننسىٰ وجهتنا أثناء سيرنا.

وعن عمر بن الخطاب ﵁، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله، فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فجهرته إلىٰ ما هاجر إليه**». [رواه البخاري ومسلم].

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.